من أنباء الرسل

عبد السلام محمد بدوي

الجزء الثاني



التراث والعلوم الإسلامية لكل الشعب

من أنباء الرسل
(المجلد الثاني)

محمد
خاتم الرسل
صلى الله عليه وسلم

عبد السلام محمد بدوي

مطابع دار الشعب بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمـة

بين الحقيقة والصورة

أيها الإنسـان الحادث.. الكائن بعد أن لم يكن شيـئاً مذكورا... إنك إذا أمـعنت النظر.. وتدبرت أن إنعام النظر نفسه ليس منك. بل هو من فيض قوة التجلي بصفـة بصره ـ تعالى ـ على بصيرتك.. فأبصرت وأمعنت نظرك.. وصرت بصـيرا.. أنت كلما تدبرت ذلك.. أدركت حـقيقـة عبوديتك.. وكلمـا أدركتها.. أحـسست بفضل الله عليك.. بتنزل صفاته إليك.. والاعتراف بالفضل من أسـباب ازدياده.. فالله ـ سبحانه ـ يقول: (لئن شكرتم لأزيدنكم)(١).. كما علمك أن تقول: (رب زدنى علما)(٢).

ففى هذا الشعور منك.. إسناد لصفـاتك إلى مسندها الحق.. فهى ليست من ذاتك لذاتك.. وإنما هى منحة مـن الله إليـك.. وهـذا يقتـضى شعورك بالذل لنظرك إلى نفسك.. ويكون هذا سـببا مباشـرا لمنحك العزة منه ـ سبحانه ـ :(ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين)(٣).

فكلما تم استشعارك الاعتماد عليه.. والاستناد إليه.. تم كمال تجليه لك.. وإقباله عليك.. وذلك تمشيا مع القاعدة الفقهية «كمال الإمداد من كمال الاستعداد» بمعنى أن إمداد الله لك.. لا يكون إلا على قدر استعدادك لقبول هذا الإمداد.. وبهذا تكون العبودية أشرف مقام يصل إليه العبد.

وكمال هذا الشـعور منك.. هو استواء كمال الاسـتعداد.. المقصود فى قوله تعـالى عن موسى: (فلما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما)(٤).

وما دام الحديث.. قـد تطرق بنا إلى معنى الاستواء.. فـجدير بنا.. أن نلمح إلماحة خفـيفة إلى مقامـات الاستواء.. حيث شطحت بعض المفاهيم.. فى معنى قوله تعالى: (الرحمن على العرش استوى)(٥) شطحات قد تؤدى إلى الكفر

---

(١) ٧ ـ إبراهيم.

(٢) ١١٤ ـ طه.

(٣) ٨ ـ المنافقون.

(٤) ١٤ ـ القصص.

(٥) ٥ ـ طه.

ـ والعياذ بالله ـ فقالوا: إنه استواء التعالى بعد أن خلق الخلق.. وسوى السماوات والأرض.. وأدى بهم هذا الفهم الخاطىء .. إلى التصور والتجسد .. بالنسبة لكرسى العرش . ولصاحب العرش .. وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

فالاستواء له مقامات ثلاثة:

الأول: استواء كمال الاستعداد النفسى .. لتلقى تجليات الصفات الإلهية .. فإن الإمداد ـ كما قلنا ـ يكون دائما بحسب الاستعداد .. وكمال الإمداد.. متوقف على كمال الاستعداد.. فأنت مثلا لا تستطيع أن تضع قنطارا من أى نوع .. فى وعاء سعته نصف قنطار من نفس النوع . وهذا هو ما أشرنا إليه ـ فى قوله تعالى عن موسى ـ عليه السلام ـ:

(فلما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما).

وتكون كلمة (آتيناه) هى الدالة على استواء موسى بكمال استعداده .. لقبول الإيتاء من الله .. وهو ما عبر عنه بكلمة الإمداد.

والثانى : هو الاستواء بمعنى الارتفاع والتعالى .. بصفة القدرة .. وليست بالذات .. كقوله: (ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شىء عليم)(١).

إذ أن سريان القدرة فى أى مخلوق ـ يجعل القدرة مبدأ لهذا المخلوق .. فلا يستند المخلوق إلا إليها ـ أى إلى القدرة ـ ولا يقوم إلا بها.

والثالث: هو استواء الكمال المطلق .. المنوه عنه فى قوله تعالى:

(الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى)(٢).

فإعطاء كل شىء خلقه .. مقترنا بالهداية .. معناه كمال تجلى الصفات الإلهية على جميع المخلوقات .

وبهذا نستطيع أن نفهم معنى: (الرحمن على العرش استوى) .. بمعنى أن العرش .. هو كل مخلوقات الرحمن وكلماته .. التى لا يحدها حد .. ولا يحصرها عد .. فلا يعقل عرش بغير معروشين .. ولا ملك بدون مملوكين .. ولا حكم بلا محكومين.

وليس الاستواء هنا بمعنى الاستقرار أو الجلوس .. ولا بمعنى الاستيلاء على السلطان والحكم .. كما يقول بعض المؤولين .. الذين استشهدوا بقول الشاعر:

قد استوى بشر على العراق ... بغير سيف ودم مهراق

ولكنه استواء سريان الحياة والقوة .. فى كل شىء .. لأن الذى استوى على العرش ـ جل شأنه ـ هو (بكل شىء محيط) و (وهو معكم أينما كنتم) إلى آخر الآيات .. الدالة على شمول إحاطته ـ سبحانه ـ بالعلم والذات والقوة .. لأنه لا قوة إلا بالله .

---

(١) ٢٩ ـ البقرة.

(٢) ٥٠ ـ طه.

ويكون الحاصل من هذا .. أن الاستواء معلوم .. والكيف مجهول .. لأننا ناقصو عقل .. في هذه النشأة الأولى .. التي نحياها على هذه الأرض .. ولا تزال بصائرنا في غفلة عن إدراك الحقائق الملكوتية الكبرى .. إلى أن يحين الحين .. وتقول الملائكة لنا

(لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد)(١)

وهذا لن يكون إلا عند الموت .. عند الانتقال من تلك النشأة الأرضية .. إلى الحياة البرزخية (ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون)(٢)

وإلى أن ينكشف ذلك الغطاء .. يكون من العدل والإنصاف .. أن نوقف العقل المحجوب تحت الغطاء .. عن إصدار أي حكم .. في حقيقة لن تظهر له .. إلا بعد كشف الغطاء

ومن هنا يقول تعالى : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)(٣)

بل وأتى على هذا القليل أيضا .. فقال (إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون)(٤)

فإن مجرد التصور .. يخرج الأمر عن نطاق الإيمان .. لأن الإيمان تصديق جازم بالغيب كما قال تعالى (الذين يؤمنون بالغيب)(٥)

فليس أمامنا علم تطمئن إليه النفس .. إلا إذا كان الله ـ تعالى ـ مصدره وما من حكم ينشرح له الصدر إلا إذا كان منه تعالى .. بوصف أنه الملك

واسم الملك .. يستلزم مملوكين .. كما يستلزم اسم ـ الحكم ـ محكومين .. واسم ـ الخالق ـ مخلوقين .. واسم الرازق مرزوقين .. وهكذا مع جميع الصفات

وهنا نستطيع أن نفهم قوله تعالى (وكان عرشه على الماء)(٦)

لا تعني الاستعلاء .. بل تعني بساطة المخلوقات في النشأة الأولى .. بقدرته ـ تعالى ـ يحدث التطور الخلقي .. وهو ما يعبر عنه عند الحكماء .. بالانتقال من ذات الخلية الواحدة .. من ـ الفيروس ـ إلى المركبات متعددة الخلايا .. بسبب الانفعالات المتتالية .. كما قال تعالى (خلقا من بعد خلق) .. كأثر لتسلسل التركيب على البساطة البدائية الأولى ومنه نفهم أيضا قوله تعالى (ثم استوى إلى السماء وهي دخان)

والدخان هنا .. هو المسمى ـ هيولة ـ في عرف متكلمي المسلمين .. ويسمى ـ السديم ـ في عرف فلاسفة الإغريق .. بمعنى أن الأصل في السماء ـ هيولة ـ أي كتلة طبيعية .. قابلة لجميع الصور .. من مبدأ واحد .. بسيط .. غير مركب ألبتة .. بل هو أبسط البسائط

الأصل في الأرض الماء .. وفي السماء الدخان .. هذا كيان العرش الأرضي .. وذلك كيان العرش السمائي .. ووسع عرشه السماوات والأرض

وبهذا نحكم بعدم انفصال الخالق .. عن المخلوق .. إذ لو فرضنا ذلك الانفصال .. لكان معناه استقلال المخلوق بنفسه .. وقيامه بذاته .. وهو محال

---

(١) ٢٢ ـ ق

(٢) ١٠٠ ـ المؤمنون

(٣) ٨٥ ـ الإسراء

(٤) ٧٤ ـ النحل

(٥) ٣ ـ البقرة

(٦) ٧ ـ هود

ويؤنسنا فى ذلك: (الله لا إله إلا هو الحى القيوم)(١).

وقوله: (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) (٢).

وقوله: (إن القوة لله جميعا)(٣).

وقوله: (ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه)(٤).

فكل كائن قائم بربه.. واسم ـ الربوبية ـ يشمل صفة ـ الإبقاء والإمداد. إذ لابد للمخلوق القائم من قيوم يكون وحده هو القائم بذاته.. مع افتقار كل ماسواه إليه.. كما فى (لا إله إلا الله) إذ أن الوحدانية والقيام بالنفس إذا فالمخلوق مقوم ـ بالفتح ـ لا قائم.. ومستمد لا ممد لقوله تعالى (كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك)(٥).

وبذلك يشرك من سأل غير الله مددا لأنه يكون قد سأل غير مسئول وأمل فى غير مأمول وأسند من صفات البارئ ـ سبحانه ـ إلى غيره.. كفرا بوحدانيته فى صفاته فاستعان بغير قدير واستمد [illegible]

ومن هنا نعلم.. أن هناك عالما آخر قبل عالم الخلق هو عالم الأمر (ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين)(٦).

فلكل شيء حقيقة.. ولكل شيء صورة.. الحقيقة هى الروح. والصورة هى الجسم. ولا قيمة للصورة إذا فقدت حقيقتها.. فهل يكون للجسم قيمة إذا فقدت الروح؟

الحقيقة جوهر أزلى خالد.. والصورة عرض حادث بائد. الحقيقة أمر والصورة خلق. وهما اللذان يطلق عليهما عند المسيحيين: الناسوت واللاهوت.. بمعنى أن الناسوت هو الخلق أو الجسم. واللاهوت هو الأمر أو الروح.

فالحقيقة الإنسانية المشتركة ـ هى القوى الروحانية .. المجردة عن المادة. وهى فى العالم [illegible] سريانى.. به يقوم المخلوق.. وبانسحابها يفسد هذا المخلوق. وفساد خلقه. لا يعنى فساد هذه القوى السريانية الروحانية التى هى من عالم الأمر.

فظاهر الإنسان خلق (ومن نعمره ننكسه فى الخلق)(٧). وباطنه. أى روحه أمر. ولا [illegible] لفناء الروح.. إلا إذا أمكن أن نفهم فناء الأمر.. ولا نص فى هذا.. لأن الله تعالى قال (كل من عليها فان)(٨).

وحصر الفناء بذلك.. فى القسم الأدنى المادى.. الذى هو عليها. أى على الأرض. ذلك القسم القابل المتحلل والفساد.

وهنا مدخل جميل.. نشرف منه على حقيقة أحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ الأمرية الروحية قبل أن نتعرف على صورته المحمدية المخلوقة.

والله تعالى هو النور الهادى

عبدالسلام محمد بدوى

---

(١) ٢٥٥ ـ البقرة. (٢) ٣٣ ـ الرعد

(٣) ١٦٥ ـ البقرة. (٤) ٦٥ ـ الحج

(٥) ٢٠ ـ الإسراء (٦) ٥٤ ـ الأعراف

(٧) ٦٨ ـ يس. (٨) ٢٦ ـ الرحمن

أحـــمـــد فى عـــالم الأمـــر

فى صـحيح مـسلم.. عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال:

«إن الله عز وجل.. كتب مـقادير الخلق.. قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.. وكـان عـرشـه عـلى الماء ومن جملة ما كتب فى الذكر ـ وهو أم الكتاب ـ أن محمدا خاتم النبيين».

وقال:

«إنى عنـد الله لخـاتم الـنبـيين.. وإن آدم لمجندل فى طينته».

ـ ١ ـ

أحمد فى عالم الأمر

قلنا إن لكل شيء حقيقة (وصورة) وصورته جسمه وهيكله .. وهى خلق .. ولا قيمة للصورة إذا فقدت حقيقتها .. فالجسم بدون الروح عدم وفناء.

وإذا فهمنا هذا استطعنا أن نفهم وجود محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ من قبل خلق آدم.

● **ففى صحيح مسلم** .. عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال:

«**إن الله عز وجل كتب مقادير الخلق ..** قبل أن يخلق السماوات والأرض .. بخمسين ألف سنة .. وكان عرشه على الماء .. ومن جملة ما كتب فى الذكر ـ وهو أم الكتاب أن محمدا خاتم النبيين».

● **كما ورد عن العرباض بن سارية ..** عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «إنى عند الله لخاتم النبيين .. وإن آدم لمجندل فى طينته» أى طريح .. ملقى قبل نفخ الروح فيه.

وقد روى أنه لما تعلقت إرادة الله ـ تعالى ـ بإيجاد خلقه .. أبرز الحقيقة الأحمدية من أنواره .. ثم سلخ منها العوالم كلها .. علويها وسفليها .. ثم أعلمه بنبوته .. وآدم لم يكن .. إلا كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ بين الروح والجسد.

● **ولما انتهى الزمان بالاسم الباطن فى حقه** .. إلى وجود جسمه .. وارتباط الروح به .. انتقل حكم الزمان إلى الاسم الظاهر .. وظهر محمد بكليته جسما وروحا.

● **وعلى هذا يكون اسمه ـ أحمد ـ هو اسم الحقيقة الروحية** .. واسمه محمد .. هو اسم الجسم الآدمى الطينى .. ولهذا ورد فى الحديث القدسى: «هو فى السماء أحمد .. وفى الأرض محمد».

● **ألم تر أن عيسى ـ عليه السلام ـ** كان يبشر العالم به .. فيقول: (ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد)(١). وذلك لأن الجسم لم يولد بعد؟

● **إن الله ـ سبحانه ـ أوجد الأرواح قبل خلق الأجساد** .. فالإشارة بقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد» يشير إلى الروح أو الحقيقة .. والحقائق تقصر عقولنا عن معرفتها .. وإنما يعلمها خالقها ومن أمده الله بنور إلهى ..

---

(١) ٦ ـ الصف .

فحقيقة النبى .. قد أتاها الله وصف النبوة من قبل خلق آدم .. إذ أوجدها متهيئة لذلك .. وأفاض عليها هذا الوصف من ذلك الوقت .. فصار نبيا .. وكتب اسمه .. وأخبر عنه بالرسالة .. ليعلم الملائكة وغيرهم كرامته عنده .

فحقيقته موجودة من ذلك الوقت .. وإن تأخر جسده الشريف المتصف بها.

● **وقد سأل بعضهم أبا جعفر .. محمد بن على:** كيف صار محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتقدم الأنبياء .. وهو آخر من بعث ؟.

● فقال: **إن الله ـ تعالى ـ لما أخذ من بنى** آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ .. كان أحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أول من قال بلى .. ولذلك صار يتقدم الأنبياء .. وهوآخر من بعث.

● **وحديث العهد هذا** .. الذى يشير إليه أبو جعفر محمد بن على .. حديث لطيف .. يسمونه ـ حديث الذر ـ لأنه كان قبل عالم الخلق .

فقد ورد .. تفسيرا لقوله تعالى :

● **(وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم)(١).**

● **أنهم قالوا:** بلى .. أنت ربنا .. لا يصرفنا عنك صارف .. ولا يمنعنا من طاعتك مانع.

● **فقال لهم:** سأخلقكم .. وأجعل لكم أجساما؛ لأبتلى مدى صدقكم فى هذا العهد .

● **فقالوا جميعا** : أنت ربنا.. لا يصرفنا عنك صارف .. ولا يمنعنا من طاعتك مانع.

● **فخلق الدنيا** .. وعرضها عليهم بمتاعها: من نساء .. وبنين . وقناطير مقنطرة من الذهب والفضة .. وخيل(٢) مسومة .. وأنعام .. وحرث.

فانقسموا إلى عشرة أقسام .. تسعة منها جرتهم الدنيا بزخارفها .. وغرتهم بمتاعها .. فانصرفوا إليها .. ونسوا العهد .. وبقى العشر قائما بالعهد.

● **فقال الله ـ تعالى ـ** لهؤلاء الذين لم ينصرفوا: خلقت لكم الدنيا .. فلم تنصرفوا ..

● **قالوا** : أنت ربنا لا يصرفنا عنك صارف .. ولا يمنعنا من طاعتك مانع .

فخلق الجنة .. وعرضها عليهم بنعيمها .. من حور وقصور .. وفاكهة وطيور « وأنهار من لبن وخمر وعسل» فانقسم العشر إلى عشرة أقسام .. تسعة منها بهرتهم الجنة بما فيها من نعيم .. فانصرفوا إليها وبقى العشر لم ينصرف .

فقال ـ تعالى ـ لهؤلاء الذين لم ينصرفوا : خلقت لكم الدنيا .. فلم تنصرفوا .. وخلقت لكم الجنة فلم تنصرفوا .

● **فقالوا** : أنت ربنا لا يصرفنا عنك صارف .. ولا يمنعنا من طاعتك مانع .

فخلق النار . بما فيها من بلاء وعناء وشقاء فانقسموا إلى عشرة أقسام تسعة منها .. لم يتحملوا الأمها وزقومها وزمهريرها .. ففروا منها .. وبقى العشر قائما بالعهد .. لم ينصرف.

فقال لهم : خلقت لكم الدنيا .. فلم تنصرفوا إليها والجنة فلم ترغبوا فيها .. والنار فلم تفروا منها .. **قالوا : أنت ربنا لا يصرفنا عنك صارف .. ولا يمنعنا من طاعتك مانع فصب عليهم البلاء صبا .**

● **واستمر الانقسام بينهم** .. من تنوع أنواع الابتلاء .. ودرجة قسوته .. حتى المرحلة السادسة من الانقسام .. فالذين ثبتوا على العهد .. بعد كل تلك المراحل .. ألهمهم الله تعالى فنظروا فغشيهم نور أحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقالوا: **نور من هذا ياربنا.؟ قال: إنه نبى منكم .. إن آمنتم به وبنبوته جعلتكم أنبياء .. قالوا: أمنا به وبنبوته .. فقال الله ـ تعالى ـ أشهد عليكم؟ .. قالوا: نعم . فذلك قوله تعالى:**

(وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين)(٣).

ولهذا يقول عليه الصلاة والسلام :

«أشدكم بلاء الأنبياء .. ثم الأولياء .. ثم

---

(١) ١٧٢ ـ الأعراف.

(٢) يدخل فى نطاق الخيل المسومة : السيارات والطائرات ووسائل النقل.

(٣) ٨١ ـ آل عمران.

الأمثل فالأمثل» وعلى هذا الأساس.. كانت العبادة على ثلاث درجات:

● **النوع الأول** : عبادة تجارية .. وهذا بعطى ليأخذ يعبد الله ليدخله الجنة .. فالجنة هى المقصودة من عبادته وهم القسم الذين بهرتهم الجنة بنعيمها يوم العهد وانصرفوا إليها .

● **النوع الثانى** : عبادة العبيد .. وهؤلاء يعبدون الله خوفا من عقابه .. واتقاء غضبه .. وهؤلاء هم الذين فروا يوم العهد من ألم النار وعذابها .. وهؤلاء أرقى درجة من النوع الأول.

● **أما النوع الثالث**: فهى عبادة الأحرار .. لا طمعا فى الجنة .. ولا خوفا من النار .. وإنما يعبدون الله حبا فى ذاته فقط .. وهؤلاء هم الذين لم ينصرفوا إلى الجنة ولم يفروا من النار .. وثبتوا على عهدهم .. لم يصرفهم عن الله صارف .

● **وكأن الدنيا .. تطبيق عملى بالجسم المخلوق** لما حصل فى يوم العهد .. وهذا ما نقول عنه ـ المكتوب ـ وهو فى الواقع ليس مكتوبا .. وإنما هو معلوم عند الله تعالى لأنه حصل فعلا فى عالم الأمر .. قبل عالم الخلق

● **ولهذا يقول ـ عليه الصلاة والسلام ـ**

«الأرواح جنود مجندة .. ما تعارف منها ائتلف .. وما تنافر منها اختلف».

● **ولو تأملنا آية الميثاق** (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين .. الخ) .

نجد فيها تنويها بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتعظيما لقدره . فإيمانهم به قبل خلقه . يكون مرسلا إليهم .. فتكون نبوته ورسالته عامة لجميع الخلق . من زمن آدم .. إلى يوم القيامة .. ويكون الأنبياء وأممهم .. كلهم من أمته .. **ويكون قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ** «بعثت إلى الناس كافة» لا يختص به الناس من زمانه إلى يوم القيامة .. بل يتناول من قبلهم أيضا .. ويتبين بهذا معنى قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «كنت نبيا وادم بين الروح والجسد».

● **وبهذا كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ نبى الأنبياء .. ففى عالم الأمر .. عاهدوا الله ـ تعالى ـ على** الإيمان به ونصرته . وفى الدنيا صلى بهم فى بيت المقدس ليلة الإسراء والمعراج . وفى الآخرة يكون الأنبياء جميعا تحت لوائه

ولقد روى أنه لما خلق الله تعالى آدم [illegible] قال يارب لم [illegible] أبا محمد فقال الله ـ تعالى ـ له يا آدم ارفع رأسك فرفع رأسه فرأى نور أحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال يارب ما هذا النور؟ قال هذا نور نبى من ذريتك فى السماء أحمد وفى الأرض محمد لولاه ما خلقتك ولا خلقت سماء ولا أرضا (١)

ولقد ورد فى إنجيل ـ برنابا ـ وهو أصح الأناجيل سندا وأقربها للصحة [illegible] قال إن آدم لما طرد من الجنة رأى سطورا [illegible] لا إله إلا الله محمد رسول الله

● تلك هى الحقيقة الروحية الأحمدية **التى آمن بها الرسل .. وصدقوه .. ونصروه فى عصورهم .. وبين أممهم.**

والتقى بها بعضهم من أولى العزم من الرسل التقى بها موسى ـ عليه السلام ـ عند مجمع البحرين وقد أثبتنا بالدليل أن العبد الصالح صاحب موسى هو حقيقة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ [illegible] من هو أعلم منه (٢)

والتقى بها عيسى ـ عليه السلام ـ على جبل الزيتون بفلسطين كما هو منصوص فى الإصحاح السابع عشر من إنجيل متى والإصحاح التاسع من إنجيل مرقس والإصحاح التاسع من إنجيل لوقا (٣)

لقد ذكرت تلك الأناجيل .. أن عيسى التقى على الجبل بموسى وإيلياء .. وأثبتنا أن إيلياء .. هو أحمد ـ عليه الصلاة والسلام

ونفهم الآن معنى قوله تعالى على لسان عيسى (ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) أى أن اسمه فى زمن عيسى كان ـ أحمدا ـ باسم الحقيقة الروحية التى هى فى عالم الأمر لا محمدا ـ وهو اسم الصورة المحمدية لم يولد بعد فى عالم الخلق

---

(١) من كتاب الأنوار المحمدية .

(٢) [illegible]

(٣) كتابنا من أنباء الرسل ـ نبأ عيسى .

إلى عالم الخلق

جاء عن ابن عباس أنه قال . قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «لم يلتق أبواى قط على سفاح .. لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة .. مصفى مهذبا .. لا تتشعب شعبتان . إلا كنت فى خيرهما».

- ٢ -

إلى عالم الخلق

● **قامت الحياة على قولين :**

● **القول الأول** : شهادة أن لا إله إلا الله .. وحده لا شريك له .. فلو اجتمعت السماوات والأرضون .. لخرقتها «لا إله إلا الله» حتى تبلغ ربها.

فبها قامت السماوات والأرض .. ومن أجلها خلق الله جميع المخلوقات .. وبها أرسل الله الرسل .. وأنزل الكتب .. وسن الشرائع .. ولأجلها قام الصراط .. ونصب الميزان .. وأعدت الجنات والنيران .. فهى منشأ الأمر والخلق.. وعليها يكون الثواب والعقاب.. وأمامها قامت القبلة .. وعليها أسست الملة .. ومن أجلها جردت سيوف الجهاد .. وهى حق على جميع العباد.

● **والقول الثانى** : شهادة أن محمدا عبدالله ورسوله.

فالقولان مجتمعان .. هما كلمة الإسلام .. وعنهما يسأل كل إنسان .. فلا تزول قدما العبد .. من بين يدى الله تعالى .. حتى يسأل :

ماذا كنت تعبد؟ وبماذا أجبت الرسل ؟

● **فالإجابة الأولى** : تحقيق لا إله إلا الله .. معرفة وعلما .. وإقرارا وعملا .

● **والإجابة الثانية** : تحقيق أن محمدا رسول الله .. معرفة وانقيادا وتسليما وطاعة .. أرسله ربه إلى الناس كافة .. الأولين منهم والأخرين .. بل للإنس والجن معا .. بل وكان رحمة للعالمين .. من إنس وجن وملائكة مقربين.

أرسله على حين فترة من الرسل .. بلا إله إلا الله .. فهدى به .. إلى أقوم الطرق .. وأوضح السبل .. وجعل طاعته ونصره فريضة .. على جميع العباد.

وسد دون جنته الطرق فلا تفتح إلا من طريقه .. ومنح العزة والسيادة لمن أطاعه واتبع هداه .. كما ضرب الذلة والصغار على من خالفه وعصاه ..

● **ففى المسند .. من حديث أبى منيب الجرش .. عن عبدالله بن عمر .. قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم :**

● «**بعثت بالسيف بين يدى الساعة** .. حتى يعبد الله وحده لا شريك له .. وجعل رزقى تحت ظل رمحى .. وجعل الذلة والصغار على من خالف أمرى .. ومن تشبه بقوم فهو منهم».

● **أما أهل طاعته وتابعوه .. فلهم العزة والمجد والسعادة :**

(**ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين** (١)).

واقرأ أيضا:

(ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين)(٢).

ثم اقرأ :

(فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم (٣)).

□ □ □

● **من أجل هذا** .. شرح الله له صدره .. ورفع ذكره .. ووضع عنه وزره .. وجعله خالصا مخلصا .. صافيا نقيا .. وعصمه من سفاح الجاهلية الأولى .. والجاهلية الأخرى.

● **وعن على ـ رضى الله عنه** ـ أن النبى صلى الله عليه وسلم ـ قال :

«خرجت من نكاح .. ولم أخرج من سفاح .. من لدن آدم إلى أن ولدنى أبى وأمى .. لم يصبنى من سفاح الجاهلية شىء».

● **وجاء عن ابن عباس** .. أنه قال .. قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

«لم يلتق أبواى قط على سفاح .. لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الطيبة .. إلى الأرحام الطاهرة .. مصفى مهذبا .. لا تتشعب شعبتان .. إلا كنت فى خيرهما».

● **ولا أكتمك يا قارئى العزيز** .. أننى لم أفهم قوله تعالى:

(الذى يراك حين تقوم. وتقلبك فى الساجدين(٤))

حتى قرأت هذا الحديث .. الذى رواه ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ ففهمت معنى تقلبه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى الساجدين أى انتقاله من صلب ساجد .. إلى صلب ساجد .. من لدن آدم .. إلى عبدالله بن عبدالمطلب والأصلاب : هى ظهور الآباء.

●● **وأمامى الآن .. حديث عن ابن عباس ـ أيضا ـ رأيت أن أنقله .. لتتنسم فيه عبير الإسلام .. من لدن آدم .. إلى رسولنا الخاتم .. يقول فيه .. قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :**

□ «**ما ولدنى من سفاح الجاهلية شىء** .. ما ولدنى إلا نكاح الإسلام» نراه ـ عليه الصلاة والسلام ـ صفوة المصطفين .. وزبدة المختارين .. ففى صحيح مسلم .. عن واثلة بن الأسقع .. قال .. قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :«إن الله اصطفى كنانة من بنى إسماعيل .. واصطفى قريشا من كنانة .. واصطفى من قريش بنى هاشم .. واصطفانى من بنى هاشم .. فأنا خيار .. من خيار .. من خيار»

□ □ □

□ **ويجبرنا هذا الحديث .. على ذكر ما تحقق لنا من نسبه الشريف .. من لدن آدم .. إلى أبيه عبدالله .**

●● **ويمكننا أن نقسم هذا الزمن .. إلى ثلاث مراحل :**

□ **المرحلة الأولى** : بين آدم وإبراهيم ـ عليهما السلام .

وتلك مرحلة ضاربة فى أعماق التاريخ .. ولكن المؤرخين والمفسرين استطاعوا أن ينسبوا إبراهيم إلى نوح ـ عليهما السلام ـ ومن نوح إلى إدريس ومن إدريس إلى شيث بن آدم ـ عليهم جميعا السلام .

وكانت أسفار التوراة مرجعهم فى هذا غالبا .. مع بعض الكتب التاريخية القديمة .

أما القرآن الكريم .. فهو كما هى عادته .. لا يهتم بأمر الأسماء .. وإنما يهتم بالعظات والعبر .. والحدود والشرائع .. التى تنقذ البشرية من وهدة الضلالة والعمى .. إلى قمة الهدى والنور .

□ **فذكروا لنا فى نسب إبراهيم: أنه ابن تارح بن** ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن قينان بن أرفكشاذ بن سام بن نوح.

وذكروا فى نسب نوح: أنه ابن لامك بن متو شالح ابن أخنوخ .. وهو نبى الله ـ إدريس .

وذكروا فى نسب إدريس : أنه ابن يارد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم.

□ □ □ **هذا ما أجمع عليه المفسرون ورجال التاريخ .. عن تسلسل النسب .. فى تلك المرحلة الضاربة فى أعماق التاريخ .. من أول البشرية** .. حتى إبراهيم ـ عليه السلام ـ وقد تقلب ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى تلك الأصلاب الطاهرة الساجدة .. إلى أن وصل نوره إلى أبيه إبراهيم .. هذه هى المرحلة الأولى.

---

(١) ٨ ـ المنافقون .

(٢) ١٣٩ ـ آل عمران .

(٣) ٣٥ ـ محمد .

(٤) ٢١٩ ـ الشعراء .

•• والمرحلة الثانية : تبدأ من نابت بن إبراهيم .. حتى تصل إلى عدنان ـ تنازليا ـ وتلك مرحلة مجهولة تماما .. بالنسبة لنا .. فقد أجمع العلماء ـ والإجماع حجة قوية ـ على أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما انتسب إلى عدنان ولم يجاوزه .

• **وعن ابن عباس** .. أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان إذا انتسب ـ لم يجاوز معد بن عدنان ثم يمسك ويقول: «وكذب النسابون» ويكررها مرتين أو ثلاثا.

• **وعن ابن عباس ـ أيضا ـ** : «بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أبا لا يعرفون».

وذلك لأن إبراهيم ـ عليه السلام ـ نسل ولدين: إسماعيل وإسحاق .

فأما إسحاق .. فكان مقره ونسله .. فى أرجاء الشام .. وقد تناسل منه جميع الأنبياء والرسل .. إلا محمداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ فهو وحده من نسل أخيه إسماعيل بمكة .. وهو ابن العاقر ـ مكة ـ كما تسميها أسفار التوراة .. لأنها لم تلد من الرسل غيره ..

• **فاقرأ عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى سفر التثنية** .. فى الإصحاح الثامن عشر .. مخاطبا موسى ـ عليه السلام ـ وهو من نسل إسحاق بن إبراهيم.

آية ١٥ - يقيم لك الرب إلهك نبيا من وسطك .. من إخوتك .. له تسمعون.

وفى الآية ١٨ - أقيم لهم آخر الزمان نبيا مثلك .. من بنى إخوتهم مثلك .. وأجعل كلامى فى فمه .. فيتكلم بكل ما أوصيه(١).

هذا عن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قطعا .. لأنه وحده من أبناء إسماعيل أخى إسحاق.

• **ثم اقرأ أيضا عن مكة** .. فى سفر أشعياء فى الإصحاح الرابع والخمسين :

١ - ترنمى أيتها العاقر .. التى لم تلد .. أشيدى بالترنم أيتها التى لم تمخض .. لأن بنى المستوحشة .. أكثر من بنى ذات البعل .. قال الرب.

٢ - أوسعى مكان خيمتك .. ولتبسط شقق مساكنك .. لا تمسكى .. أطيلى أطنابك وشددى أوتادك .

٣ - لأنك تمتدين إلى اليمين .. وإلى اليسار .. ويرث نسلك أمما .. ويعمر مدنا خربة(٢)

وواضح أن تلك العاقر هى مكة .. لأنها لم تلد من الرسل .. إلا محمدا .. عليه الصلاة والسلام.

وقال ابن قيم الجوزية .. فى كتابه ـ زاد المعاد :

•• اختار الله سبحانه الأنبياء من ولد آدم ـ عليه السلام ـ وهم مائة وأربعة وعشرون ألفا .. ثم اختار الرسل منهم .. وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر ـ على ما فى حديث أبى ذر الذى رواه أحمد وابن حبان فى صحيحه (٣).

ثم اختار من الرسل أولى العزم .. وهم خمسة .. جمعتهم آية الأحزاب :

(وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم. ومنك .. ومن نوح .. وإبراهيم .. وموسى .. وعيسى بن مريم) (٤)

• كما تجمعهم أيضا آية سورة الشورى:

(شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا .. والذى أوحينا إليك .. وما وصينا به إبراهيم .. وموسى .. وعيسى .. أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) (٥).

فنجد أن أولى العزم من الرسل .. خمسة .. وهم:

نوح .. وإبراهيم .. وموسى .. وعيسى .. وخاتم الجميع محمد ـ عليهم جميعا السلام ـ فكان محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو صفوة الخمسة .. وقمة الوجود.

وكأننى أرى ميزان النبوات والرسالات .. فى إحدى كفتيه مائة وأربعة وعشرون ألف نبى ورسول .. إلا واحدا .. وفى الكفة الثانية محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونرى أن الأنساب من بعد نابت بن إسماعيل .. قد انقطعت إلى عدنان .. حيث اتجه المؤرخون .. إلى تسلسل الرسالات والنبوات .. التى انحصرت فى هذا الزمن .. فى نسل إسحاق بن إبراهيم .. فى فلسطين.

---

(١) سفر التثنية ـ إصحاح ١٨ / ١٥-١٨

(٢) سفر أشعياء ـ إصحاح ٥٤ فقرات ١-٣ .

(٣) ابن قيم الجوزية ص ١٩ - جـ ١ .

(٤) ٧ - الأحزاب .

(٥) ١٣ ـ الشورى .

ولولا أن العرب مشهورون بالأنساب .. لما استطعنا أن نصل فى نسبه الشريف إلى عدنان .. الذى كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ إذا انتسب لم يجاوزه .. ثم يمسك ويقول: « كذب النسابون» كما قال ابن عباس .. فى الحديث الذى ذكرناه .. من قريب .

أما المرحلة الثالثة والأخيرة :

فمن حقنا أن ننتقل إليها .. بعد أن نعلم أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يشاركه فى ولادته من أبويه أخ ولا أخت .

وبالتأمل فى نسبه الشريف .. فى تلك المرحلة .. سوف نجد أنه من سلالة آباء كرام .. فهو النبى العربى الهاشمى القرشى .. نخبة بنى هاشم . المنتخب من خير بطون العرب .. وأعرقها فى النسب .. وأشرفها فى الحسب .. أنضرها عودا .. وأطولها عمودا .. وأفصحها لسانا .. وأوضحها بيانا .. وأرجحها ميزانا .. وأصحها إيمانا .. وأعزها نفرا .. وأكرمها معشرا .. من قبل أبيه وأمه ومن أكرم بلاد الله على الله ..

فهو سيدنا ومولانا محمد بن عبدالله ـ الذبيح ـ بن عبدالمطلب .. واسمه «شيبة الحمد» بن هاشم ـ واسمه «عمرو» ـ بن عبد مناف .. واسمه ـ «المغيرة» ـ بن قصى .. واسمه ـ «مجمع» ـ بن كلاب .. واسمه ـ «حكيم» ـ ابن مرة .. بن كعب .. بن لؤى .. بن غالب.. بن فهر ـ «واسمه قريش» ـ بن مالك .. بن النضر ..واسمه ـ «قيس» ـ ابن كنانة .. بن خزيمة .. بن مدركة .. بن إياس.. بن نضر .. بن نزار .. بن معد .. بن عدنان.

حيث ينتهى نسبه الشريف .. إلى إسماعيل الذبيح .. ابن إبراهيم ـ عليه السلام ـ والنسابون .. **وإن اختلفوا** فى آبائه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعد عدنان ..**إلا أنهم لم يختلفوا** فى أن عدنان من نسل إسماعيل .. وهم متفقون فى هذا اتفاقا جازما.

وكان عليه الصلاة والسلام ـ يقول : «أنا ابن الذبيحين» .

فما معنى تلك العبارة ؟

الذبيح إسماعيل

قال إسماعيل لأبيه .. عليهما السلام:

«يأأبت . اشدد رباطى حتى لا أضطرب واكفف ثيابك عنى حتى لا ينضح عليها دمى فينقص أجرى .. وتراه أمى فتحزن واشحذ شفرتك وأسرع بجرها على حلقى ليكون أهون الموت علىَّ .. فإن الموت شديد .. فإذا أتيت أمى فاقرأها منى السلام .. وإن رأيت أن ترد قميصى إليها فافعل . فإنه عسى أن يكون أسلى لها عنى»

ثم قال:

(يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين)..

ـ ٣ ـ

الذبيح إسماعيل

قال إبراهيم لابنه إسماعيل - عليهما السلام -:

(يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى)(١)

قيل إنه رأى ليلة التروية(٢).. أن قائلا يقول له: إن الله يأمرك بذبح ابنك.. فلما أصبح.. شك فى أنه من الله.. أم من الشيطان.. فلما أمسى رأى مثل ذلك.. فعرف أنه من الله فكان هذا يوم عرفة.. ثم رأى مثله فى الليلة الثالثة.. فهم بنحره..

وقال له:

(يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى)(٣).

ولهذا سميت الأيام الثلاثة: بيوم التروية.. ويوم عرفة.. ويوم النحر.

وقد شط بعض المفسرين - وراء أهل الكتاب - فقالوا: إن الذبيح إسحاق.. وهذا باطل.. فالذبيح إسماعيل - عليه السلام - لكثير من الأسباب:

أولا: لأن البشارة فى القرآن الكريم بإسحاق كانت بعد البشارة بإسماعيل وبعد قصة الذبح.. فاقرأ.. إن شئت.. من قوله تعالى:

(فبشرناه بغلام حليم * فلما بلغ معه السعى قال يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال ياأبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين * فلما أسلما وتله للجبين * وناديناه أن ياإبراهيم * قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين * إن هذا لهو البلاء المبين * وفديناه بذبح عظيم * وتركنا عليه فى الأخرين * سلام على إبراهيم * كذلك نجزى المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين *).

وبعد هذا قال - سبحانه - : (وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين) (٤).

ومنه نرى تسلسل النص.. وتتابع الأحداث.. مما يثبت أن التبشير بإسحاق كان بعد حادث الذبح.

ثانيا: لقوله - عليه الصلاة والسلام -: «أنا ابن الذبيحين».. فأولهما جده إسماعيل.. وثانيهما أبوه عبد الله.

ثالثا: لأن الذبح كان بمكة.. وقد ثبت من عدة روايات.. **أن قرنى الكبش كانا معلقين بالكعبة**.. حتى احترقا فى أيام الزبير.. فقد قال ابن عباس: «فو الذى نفسى بيده .. لقد كان أول الإسلام.. وأن رأس الكبش لمعلق بقرنيه من ميزاب الكعبة.. وقد يبس» (٥).

---

(١) ١٠٢ الصافات.

(٢) ليلة الثامن من ذى الحجة.

(٣) ١٠٢ - الصافات.

(٤) ١٠١ - / ١١٢ الصافات.

(٥) الكشاف والبيضاوى والقرطبى وغيرهم - / ١٠٢ - الصافات.

رابعا: لأن البشارة بإسحاق.. كانت مقرونة بولادة يعقوب من نسله.. اقرأ: (فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب) (١).

فلا يناسبها الأمر بذبح إسحاق مراهقا.. لأن إبراهيم - عليه السلام - يعلم مسبقا أن يعقوب سيكون من نسل إسحاق.

خامسا: حتى أهل الكتاب .. الذين يدعون أن الذبيح إسحاق.. لينالوا شرف الانتساب إلى الذبيح.. يوجد في كتبهم المقدسة.. ما يثبت أن الذبيح.. هو إسماعيل.

فجاء في إنجيل برنابا .. على لسان المسيح .. بالنص:

الحق أقول لكم.. إذا أمعنتم النظر .. في كلام الملاك جبريل..تعلمون خبث كتبنا وفقهائنا لأن الملاك قال: ياإبراهيم ..سيعلم العالم كله..كيف يحبك الله..أجاب إبراهيم: ها هوذا عبد الله مستعد أن يفعل كل ما يريد الرب.. أجاب إبراهيم قائلا: خذ ابنك البكر..واصعد الجبل..لتقدمه ذبيحة ـ أ هـ ـ.

فكيف يكون إسحاق هو البكر.. وهم لاينكرون أن إسماعيل ولد قبل إسحاق بزمن وإذا قيل إنهم لا يعترفون بإنجيل برنابا.. فلا مانع لدينا من مناقشة أسفار التوراة.. التي تعترف بها الكنيسة .. في كتابهم المقدس.

فإن التوراة .. التي قالت: إن الذبيح هو هو ابنه وحيده.. حيث جاء في سفر التكوين .. والخطاب موجه لإبراهيم.

فقال: خذ ابنك وحيدك الذي تحبه - إسحاق - واذهب إلى أرض الموريا.. واصعد هناك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك (٢) - أ هـ.

وواضح أن لفظ - إسحاق - مدسوس في هذا المكان من العبارة .. وإلا كانت التوراة متناقضة مع نفسها .. فقد قالت بصريح العبارة .. إن إسحاق ولد.. ولإسماعيل أربعة عشر عاما.. وإليك هذا النص .. من سفر التكوين أيضا.. في الإصحاح السادس عشر:

١٥- فولدت هاجر لإبرام ابنا.. ودعا إبرام اسم ابنه الذي ولدته هاجر - إسماعيل ـ.

١٦- كان إبرام ابن ست وثمانين سنة.. لما ولدت هاجر إسماعيل لإبرام (٣).

(١) ٧١ - هود.

(٣) سفر التكوين إصحاح ١٦ فقرتي ١٥ - ١٦ .

لاحظ هنا أن إبراهيم كان سنه ستا وثمانين سنة.. عند ولادة إسماعيل.

ثم تعال معي نقرأ في الإصحاح الحادي والعشرين .. من نفس سفر التكوين:

١- وافتقد الرب سارة كما قال .. وفعل الرب لسارة كما تكلم.

٢- فحبلت سارة وولدت لإبراهيم ولدا في شيخوخته.. في الوقت الذي تكلم الله فيه.

٣- ودعا إبراهيم اسم ابنه.. المولود له.. الذي ولدته سارة - إسحاق -.

٤- وختن إبراهيم إسحاق ابنه .. وهو ابن ثمانية أيام .. كما أمره الله.

٥- وكان إبراهيم ابن مائة سنة حين ولد له إسحاق ابنه (٤) ـ آ هـ ـ.

وحصيلة ما ذكرناه من التوراة .. أن إسماعيل ولد .. وإبراهيم في السادسة والثمانين من عمره.. وإسحاق ولد .. وهو في سن المائة .. فيكون إسماعيل اكبر من إسحاق بأربعة عشر عاما.

ومعنى هذا أنه ليس لإبراهيم - عليه السلام - ابن وحيد غير إسماعيل .. فيكون اسماعيل هو الذبيح .. حتى من نصوص التوراة نفسها.

|| || ||

وقد سئل معاوية بن أبي سفيان: الذبيح إسماعيل .. أو إسحاق.. فقال: على الخبير سقطتم .. كنت عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجاء رجل فقال: يا رسول الله .. أعد عليَّ مما أفاء الله عليك ياابن الذبيحين.. فضحك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقيل: ياأمير المؤمنين.. ومن الذبيحين؟.. فذكر إسماعيل وعبد الله.

كما سئل أبو سعيد الضرير عن الذبيح.. فأنشد:

إن الذبيح ـ هديت إسماعيل
نطق الكتاب بذاك والتنزيل
شرف به خص الإله نبينا
وأتى به التفسير والتأويل
إن كنت أمته فلا تنكر له
شرفا به قد خصه التفضيل

(٢) سفر التكوين إصحاح ٢٢ - فقرة ٢.

(٤) سفر التكوين ص ٢١ فقرات ١ - ٥ .

وعن الأصمعى .. قال: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح .. فقال: ياأصمعى.. أين عزب عنك عقلك؟.. ومتى كان إسحاق بمكة؟.. وإنما كان إسماعيل بمكة.. وهو الذى بنى البيت مع أبيه.. والمنحر بمكة.

ولعل القارىء الكريم «لم يعد عنده شك» فى أن الذبيح هو إسماعيل.

* * *

رأى إبراهيم – عليه السلام – فى منامه.. أن يذبح ابنه إسماعيل .. فقال له:

يابنى خذ هذا الحبل.. وهذه السكين.. ثم انطلق معى إلى هذا الشعب.. فلما خلا به أخبره بما رأى.. وقال:

«يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى».

فقال له إسماعيل – عليه السلام – : ياأبت اشدد رباطى حتى لا أضطرب .. واكفف ثيابك عنى .. حتى لا ينضح عليها دمى .. فينقص أجرى وتراه أمى فتحزن.. واشحذ شفرتك.. وأسرع بجر السكين على حلقى .. ليكون أهون للموت علىّ .. فإن الموت شديد .. فإذا أتيت أمى.. فاقرأها منى السلام .. وإن رأيت أن ترد قميصى إليها فافعل .. فإنه عسى أن يكون أسلى لها عنى.

ثم قال: «ياأبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين».

فقال إبراهيم ـ عليه السلام ـ نعم العون يابنى أنت على تنفيذ أمر الله .. ففعل إبراهيم ما أمر به ابنه .. ثم أقبل عليه يبكى.. والابن يبكى.. حتى استتبع الدموع تحت لحيته.. ثم وضع السكين على حلقه وجرها.. فانقلب سنها إلى أعلى.

فقال إسماعيل: ياأبت أعصب عينى.. فنظرك إليها يمنعك من الذبح.

فعصب عينيه.. وجر السكين .. فانقلبت ثانية فقال إسماعيل:

كبنى على وجهى .. فإنك إن تنظر إلى وجهى رحمتنى.. وأدركتك على رقة تحول بينك وبين أمر الله .. ففعل إبراهيم ذلك.. ثم أنه وضع السكين على قفاه.. فانقلبت.. فنودى.. «أن ياإبراهيم قد صدقت الرؤيا».. هذه ذبيحتك فداء لابنك .. فاذبحها دونه.

وإذا هو بجبريل ـ عليه السلام ـ ومعه كبش أعين(1).. أجلح .. أقرن .. فكبر إبراهيم وإسماعيل.

وروى أنه لما ذبح الكبش.. قال جبريل: الله أكبر.. الله أكبر.. فقال الذبيح لا إله إلا الله .. والله أكبر .. فقال إبراهيم: الله أكبر .. ولله الحمد.

فبقى التكبير سنة من هذا اليوم.

كما روى أنه لما رأى إبراهيم فى المنام.. أن يذبح ابنه إسماعيل .. قال الشيطان: والله لئن لم أفتن آل إبراهيم .. وإلا لم أفتن أحدا منهم أبدا.. فتمثل لهم الشيطان رجلا.. فأتى أم الغلام.. وقال لها: أتدرين أين يذهب إبراهيم بابنك؟.

قالت: ذهب ليحتطب لنا من هذا الشعب .. فقال لها: لا والله .. ما ذهب به إلا ليذبحه .. قالت: كلا.. هو أرحم به منى.. وأشد حياء من ذلك.

فقال لها: إنه يزعم أن الله أمره بذلك.. قالت: إن كان الله أمره بذلك.. فقد أحسن فى امتثال أمر الله .. وفى استسلامه لطاعة ربه.

فخرج الشيطان من عندها .. هاربا.. حتى أدرك الابن وهو يمشى على أثر أبيه.

فقال له: ياغلام .. هل تدرى أين يذهب بك أبوك؟.. قال: نحتطب لأهلنا من هذا الشعب.. قال: لا والله .. ما يريد إلا ذبحك.

قال: ولم؟ .. قال: يزعم أن الله أمره بذلك.. قال: فليفعل ما أمره الله به .. فسمعا وطاعة لأمر الله.

فلما امتنع منه الغلام.. أقبل على إبراهيم.

فقال: أين تريد أيها الشيخ؟..

قال: أريد هذا الشعب لحاجة لى.. فقال: والله إنى أرى الشيطان قد جاءك فى منامك.. يأمرك بذبح ابنك هذا.

فعرفه إبراهيم – عليه السلام – فقال له: إليك عنى ياملعون .. فوالله لأمضين لأمر ربى.

فرجع إبليس بغيظ.. لم يصب من إبراهيم وأهله شيئا.

فهذا هو إسماعيل – عليه السلام – أول أجداد نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – من بعد إبراهيم – عليه السلام – نرى فيه قوة الإيمان .. وقمة الفداء.. فالجود بالنفس أعلى مراتب الفداء .

---

(1) واسع العينين.

لمحات عن أجداده

هو سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله .. بن عبدالمطلب .. بن هاشم .. بن عبدمناف .. ابن قصى .. بن كلاب .. بن مرة .. بن كعب .. بن لؤى .. بن غالب .. بن فهر .. ابن مالك .. بن النضر .. بن كنانة .. بن خزيمة .. ابن مدركة .. بن إياس .. بن مضر .. بن نزار .. بن معد .. بن عدنان..

حيث ينتهى نسبه إلى إسماعيل الذبيح ـ عليه السلام ـ .

- ٤ -

لمحات عن أجداده

لو رجعنا بالبحث - تاريخيا - عن أجداده - عليه الصلاة والسلام - لوجدناهم جميعا .. سلالة آباء كرام .. فيهم السيادة والقيادة .. والقوة والفداء .. والحكمة والكرم .. والشجاعة والإقدام .. كما سنرى فى لمحات خفيفة عن بعضهم :

فمنهم (معد) وهو صاحب حروب وغارات.. ولم يحارب أحدا .. إلا رجع منتصرا .. وهو أبو العرب.

ومنهم (نزار) وكان أرجح أهل زمانه عقلا.. وأسمحهم وجها.. وأجملهم صورة.. وقيل إنه سمى بهذا الاسم.. لأنه لما ولد.. ونظر أبوه إلى نور محمد - عليه الصلاة والسلام - فى وجهه.. فرح به فرحا شديدا.. وأطعم كثيرا.. وقال: إن هذا كله نزر - أى قليل بحق هذا المولود.. فسمى نزارا.

ومنهم (مضر).. وكان جميلا لم يره أحد إلا أحبه.. وكان حكيما.. ومن حكمه: «خير الخير أعجله.. فاحملوا أنفسكم على مكروهها.. واصرفوها عن هواها فيما أفسدها.. فليس بين الصلاح والفساد إلا صبر فواق(١)».

وهو أول من حدا للإبل.. وكان حسن الصوت.

ومنهم (إياس).. وهو فى العرب مثل لقمان الحكيم فى قومه.. ومن مأثوراته: «من يزرع خيرا يحصد غبطة.. ومن يزرع شرا يحصد ندامة».

ويذكر أنه كان يسمع فى صلبه تلبية محمد - صلى الله عليه وسلم - بالحج.

وأما (فهر).. فإليه تنسب قريش.. ومن كان فوقه.. لا يقال له قرشى.. وإنما يقال له - كنانى - واسمه قريش.. وهو الجد السادس لأبى عبيدة بن الجراح.. وكان مشهورا بالكرم.. لا ينتظر صاحب الحاجة حتى يأتيه .. وإنما كان يفتش عليه.. ويقضى حاجته.

ومنهم (كعب).. وكانت تجتمع إليه قريش يوم الجمعة.. فيخطب فيهم ويعظهم ويذكرهم ببعث النبى - صلى الله عليه وسلم - وينبئهم بأنه من ولده .. ويأمرهم باتباعه.. وهو الجد الثامن لعمر بن الخطاب - رضى الله عنه -.

□ □ □

(١) صبر فواق: أى الزمن بين الحلبتين «لأن الناقة تحلب» ثم تترك لفصيلها لتدر.. ثم تحلب.

ومنهم (مرة).. وهو الجد السادس لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولأبى بكر الصديق.. وفى مرة أيضا يجتمع نسب الإمام مالك.. بنسب رسول الله.

ومنهم (كلاب).. واسمه - حكيم - ولقب بكلاب .. لأنه كان كثير الصيد بالكلاب.. وهو الجد الثالث للسيدة آمنة - أمه صلى الله عليه وسلم - فهو ملتقى نسب أبيه بنسب أمه.

وهو أول من سمى الأشهر العربية.. بالأسماء المستعملة الآن.

ومنهم (قصى).. واسمه - مجمع - جمع الله به القبائل من قريش .. بعد أن تفرقوا فى الشعاب والجبال.. فأنزلهم بطحاء مكة.. وقسم منازلهم .. فسمى مجمعا.

وفيه يقول حذافة بن غانم:

أبوكم قصى كان يدعى مجمعا

به جمع الله القبائل من فهر

وهو أول من جدد بناء الكعبة من قريش.. بعد إبراهيم .. وأول من أوقد نار المزدلفة.. وكانت توقد.. حتى يراها من نزل من عرفة .. وكان إليه فى الجاهلية حجابة البيت(١) .. وسقاية الحجيج وإطعامه .. المسمى .. بالرفادة .. وكان الماء عزيزا بمكة يجلب إليها من الخارج .. فكان قصى يسقى الحجاج ويطعمهم لأنهم ضيوفه .. وكانت له الندوة .. وهى مجلس الشورى .. فلا يتم أمر.. إلا فى بيته .. ولا يعقد نكاح إلا فى داره .. ولا يعقد لواء حرب إلا عنده.

فكان بيته .. القيادة والسيادة .. والملجأ لجميع المشاكل الخاصة والعامة .. ومن كلامه .

«**من أكرم لئيما شاركه فى لؤمه** .. ومن استحسن قبيحا ترك إلى قبحه .. ومن لم تصلحه الكرامة .. أصلحه الهوان .. ومن طلب فوق قدره استحق الحرمان .. والحسود هو العدو الخفى».

ولما حضرته الوفاة عام ٤٨٠م - وقد عاش ثمانين عاما - جمع بنيه .. ونهاهم عن شرب الخمر.

□ □ □

ومنهم (عبد مناف) .. وكان لشدة جماله وبهائه وحسنه .. يقولون عنه: - قمر البطحاء - وكان اسمه المغيرة - وكانوا يسمونه أيضا - الفياض - لشدة كرمه .. وهو الجد الرابع لعثمان بن عفان - والجد التاسع للإمام الشافعى.

أما (هاشم) .. واسمه - عمرو بن عبد مناف - ويقال له - عمرو العلا - لعلو منزلته .. وهو أخو عبد شمس.

ساد قومه .. بعد موت أبيه - عبد مناف - وقيل عن سبب تسميته - هاشم - أن قريشا أصابتها مجاعة مهلكة .. لا زرع ولا ضرع .. فخرج - هاشم - إلى الشام .. واشترى دقيقا وكعكا .. وقدم به مكة فى الموسم .. فهشم الخبز والكعك .. ونحر الإبل .. وجعل ذلك كله ثريدا .. وأطعم منه الناس .. حتى أشبعهم .. فسمى بذلك - هاشما - وكانوا يقولون عنه: - أبو البطحاء - و - سيد البطحاء - فكانت مائدته دائما منصوبة .. للغادى والرائح ..وكان موسرا .. يسد عن المدين .. ويؤمن الخائف.

وهو أول من سن رحلتى الشتاء والصيف .. فكان يرسل شتاء إلى اليمن والحبشة .. وصيفا إلى الشام .. بتجارته وتجارة قريش.

يقول عنه الشاعر:

عمرو الذى هشم الثريد لقومه

ورجال مكة مسنتون عجاف

سنت إليه الرحلتان كلاهما

سفر الشتاء ورحلة الأصياف

ومات هاشم بغزة .. من أرض الشام .. وهو يتاجر عام ٥١٠م

ومنهم (عبدالمطلب) .. واسمه - شيبة الحمد - لأنه ولد وله شيبة .. مع رجاء حمد الناس له .. وأمه - سلمى بنت زيد النجارية ..

ويقال : سمى عبدالمطلب .. لأن عمه المطلب . أردفه خلفه فى سفر .. وكانت ملابسه رثة لفقره .. فقيل لعمه : من هذا؟ .. فقال: إنه عبدى - حياء من السائل - فسمى - عبدالمطلب -.

وكان مجاب الدعوة .. فى قلبه رقة ورحمة .. حتى بالحيوان .. وبلغت به تلك العاطفة النبيلة .. أنه كان يرفع من مائدته للطير

---

(١) تولية مفتاح بيت الله .

والوحوش فى رءوس الجبال .. وهذا إحساس مرهف . ورفق بالحيوان الأعجم .. ولذا كانوا يسمونه ـ مطعم الطير ـ كما يقولون عنه ـ الفياض لشدة كرمه .

كان موئل قريش فى البلاء .. ومفزعهم عند الكرب .. وملجأهم فى كل أمر .. كان شريفهم وسيدهم وجليلهم .

وهو أول من تعبد بحراء .. فكان إذا دخل شهر رمضان .. صعد الجبل إلى حراء .. وأطعم المساكين جميع الشهر .. وكان صعوده للخلوة بعيدا عن الناس .. متفكرا فى خلق الله وجلاله وعظمته.

ويؤثر عن ـ عبدالمطلب ـ سنن جاء بها القرآن الكريم ..وجاءت السنة بها .. منها: النهى عن نكاح المحارم ..وقطع يد السارق .. والوفاء بالنذر .. والنهى عن وأد البنات . .

وتحريم الخمر .. والزنا والحد عليه .. وألا يطوف بالبيت عريان .. وتعظيم الأشهر الحرم . وهو أول من خضب شعره بالوسمة ـ أى السواد ـ لأن الشيب قد ولد معه .. كما أنه أول من سن الدية مائة من الإبل .. فصارت فى قريش .. ثم فى العرب .. وأقرها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ولعبد المطلب فى الحق موقف .. نتنسم فيه عبير العظمة والمجد والمروءة :

فقد كان نديمه فى الجاهلية ـ حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ـ والد أبى سفيان. وكان فى جوار عبدالمطلب يهودى .. فأغلظ ذلك اليهودى القول لنديمه حرب بن أمية فى سوق من أسواق تهامة .. فسلط حرب على اليهودى بعض أتباعه فقتله .. فلما علم عبدالمطلب بذلك .. لم يدع حربا .. حتى أخذ منه مائة ناقة .. دفعها لابن عم اليهودى .. دية له .. وصونا لحق الجوار .. ثم ترك منادمة حرب .. ونادم عبدالله بن جدعان التميمى.

انتهت إليه الرئاسة .. بعد هاشم .. وكان دائما يأمر أولاده بترك الظلم والبغى .. ويدفعهم إلى مكارم الأخلاق .. وينهاهم عن الخطايا .. ودنيات الأمور .

وقد رفض فى نهاية عمره .. عبادة الأصنام .. ووحد الله بالفطرة.

وهو الذى كشف عن بئر زمزم .. بئر إسماعيل .. وأقام سقايتها للحجاج .. فكانت له فخرا وعزا ومجدا على قريش .. وعلى سائر العرب .. إلى يومنا هذا.

وذكر ـ دغفل ـ النسابة . أن عبدالمطلب .. كان أبيض .. مديد القامة .. حسن الوجه .. فى جبينه نور النبوة .. وعز الملك .. يطيف به عشرة من بنيه .. كأنهم أسد الغاب .. وكانت كنيته ـ أبو الحارث ـ لأن الأكبر من أولاده الذكور .. كان اسمه ـ الحارث ـ

ومات ـ عبدالمطلب ـ عن مائة وعشرين عاما.

وكان يعظم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو صغير .. ويقول دائما : «إن لابنى هذا لشأن عظيم».

وذلك بالإلهام .. وبما يسمع من الكهان والرهبان .. قبل مولده .. وبعد مولده ـ عليه الصلاة والسلام ـ

هذا شيء يسير .. عن أجداده ـ عليه الصلاة والسلام .. أما أعمامه .. فهم تسعة ذكور : أبو طالب.. واسمه ـ عبد مناف ـ والزبير .. وهما شقيقا أبيه ـ عبدالله ـ وأمهم ـ فاطمة بنت عمرو المخزومية.

العباسى ـ جد الخلفاء العباسيين ـ **وضرار** ـ وأمهما ـ نتيلة العمرية .

حمزة ـ والمقوم ـ وأمهما ـ هالة بنت وهب.

أبو لهب ـ واسمه عبدالعزى .. وأمه ـ لبنى الخزاعية .

الحارث ـ وأمه ـ صفية بنت عامر بن صعصعة .

الغيداق ـ واسمه حجل ـ وأمه ـ ممنعة وعماته ست وهن!

صفية ـ وأم حكيم ـ وعاتكة ـ وأميمة ـ وأروى ـ وبرة .

وقد أسلم من أعمامه : الحمزة والعباسى.

ومن عماته: صفية ـ وهى أم الزبير بن العوام ـ التى عاشت حتى ماتت سنة ٢٠هـ .

فى زمن ـ عمر بن الخطاب ـ عن ثلاث وسبعين سنة .

ولعل من أبرز الصفات الجليلة فى ـ عبدالمطلب .. صفة الوفاء بالنذر .. فقد هم بذبح ابنه الحبيب ـ عبدالله ـ أحب أبنائه إليه .. وكان أصغرهم .. وفاء لنذر نذره .. ولهذا النذر قصة جميلة .. لا بأس من أن نمر بها فى عجالة سريعة .. قبل أن يغمرنا نور محمد وسناه.

الذبيح عبدالله

نلمس فى هذا الحادث ظاهر القسوة مع باطن الرحمة .. فلم تخرج السهام على أبى طالب أو أبى لهب .. أو العباسى .. أو الحارث .. وإنما خرجت على عبدالله .. أحب أبنائه إليه .. ليكون الاختبار بالنسبة لعبد المطلب فى أقوى درجاته .. وبالنسبة لعبد الله فى أغلى ما يملك .. وهو حياته وليكون محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ابن الذبيحين.

ـ ٥ ـ

الذبيح عبد الله

رأى عبدالمطلب فى منامه .. من يأمره بحفر زمزم .. التى طمرتها الرمال .. بمرور القرون من بعد إسماعيل ـ عليه السلام ـ وقام بتنفيذ هذا الأمر .. يساعده فى الحفر .. ونقل الرمال والصخور ابنه الحارث .. ولم يكن له من الأولاد فى هذا الحين غيره .

وتفجر الماء من البئر عذبا سلسبيلا .. ففرح عبدالمطلب وابنه أيما فرح .. فالماء الجارى فى هذا المكان القفر .. لا تعد له قناطير الذهب والفضة.

ولكن قومه نازعوه .. فى امتلاك هذا البئر .. وأدى الأمر إلى قتاله وأذاه هو وابنه الحارث .. والمعروف عن عبدالمطلب .. أنه منكر لذاته .. فان فى المجتمع الذى يعيش حوله .. بل وكان يعمل على جلب الماء .. من خارج مكة .. ليسقى الحجيج .. ويطعمهم .. ويعتبرهم ضيوفه مثل جده ـ قصى ـ فما الذى أثار عبدالمطلب .. حتى نازع قومه وناضلهم فى امتلاك البئر .. حتى دفعهم إلى قتاله وأذاه ؟..

لا شك أنه على حق .. فى معارضته لهم .. ورفضه أن يشاركوه فيه إلا بإذنه .. فهو الذى ألهمه الله حفره .. وهو الذى تعب وشقى فى التنقيب عنه .. هو وابنه الحارث .. وسفهاؤهم يهزأون بهما .. ويسخرون منهما ويتهمونهما بالخبل والجنون.

لم يثره كل هذا .. وإنما الذى أثاره .. ما أحس به من ضعف .. أمام قومه .. لقلة ولده .. وليس له غير الحارث.

فقد عارضه عدى بن نوفل بن عبد مناف .. فى حفر زمزم .. وآذاه .. وقال له : يا عبد المطلب .. أتستطيل علينا .. وأنت فذ لا ولد لك؟.

فقال له : أبالقلة تعيرنى؟ .. فوالله .. لئن أتانى الله عشرة من الولد ذكورا .. لأنحرن أحدهم عند الكعبة . لله تعالى . ألزم عبدالمطلب نفسه .. بهذا النذر .

وأكمل الله بنيه .. عشرة ذكور .. آخرهم ـ عبدالله ـ ولد حوالى سنة ٥٤٥م .. وكان أحبهم إليه .. للنور المتلألىء فى جبينه .. **ولأنه أصغرهم** ـ والمعروف أن أحب الأبناء ثلاثة : المريض .. والغائب .. والصغير.

وظل عبدالمطلب .. حريصا على الوفاء بنذره .. فما أن بلغ عبدالله مبلغ الرجال .. حتى دعا أبناءه العشرة .. وأخبرهم بنذره .. وبما يعتمل فى صدره من الحرص .. على الوفاء به . فامتثلوا جميعا لأمره وأطاعوه.

فقال : فليأخذ كل واحد منكم قدحا(١) .. وليكتب اسمه عليه .. ففعلوا .. وأتوه بالقداح .. ثم دخل بهم وبأقداحهم على ـ هبل ـ في جوف الكعبة.

فقال عبدالمطلب لصاحب القداح: اضرب على بني هؤلاء بأقداحهم.. بعد أن أخبره بما نذر .. وأخذ صاحب القداح يضرب .. بينما قام عبدالمطلب يبتهل إلى الله .. ويشكو إليه ألمه الذي يعتصر قلبه ..وأشجانه التي تهد قواه .. فهو مقدم على ذبح فلذة من فلذات كبده بيده .. ويا لسخرية القدر . فقد خرج السهم على ـ عبدالله ـ أحبهم إلى قلبه .

وهنا تبرز عظمة عبدالمطلب .. وقوة يقينه .. ورسوخ إيمانه .. فقد كان ملتاعا فزعا من ذبح أي واحد من أبنائه التسعة الكبار .. ولم يكن يخطر بباله .. أن الله سيختار ـ عبدالله ـ بالذات.. وذلك لما له في نفسه من حب وأمل . .فإذا بالسهم يخرج على قدح عبدالله !!!.

وتنتصر في الرجل قوة الإيمان والوفاء .. على عاطفة الحب والأمل .. فيمد يده .. ويمسك بيد ابنه ـ عبدالله ـ ويتجه به إلى ـ أساف ونائله ـ وهما الصنمان اللذان ينحر الناس عندهما.

وعلمت قريش بالخبر . فقام الناس من أنديتهم .. وذهبوا إلى عبدالمطلب .. وحالوا بينه وبين ما يريد .. وانضم إليهم أبناؤه التسعة .

قال له زعماء قريش : يا عبد المطلب .. ماذا تريد أن تصنع؟.. قال: أريد أن أذبح عبدالله .. وفاء لنذري .. فقالوا جميعا: وحق الآلهة .. لا ندعك تذبحه أبدا .. إلا إذا اضطررت لذلك اضطرارا .. ولئن فعلت ذلك تكون سنة .. فيأتي الرجل بابنه حتى يذبحه في الكعبة ..

وقال له المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم(٢) .. والله لن تذبحه حتى تعذر فيه .. فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه ..

وقالت قريش وبنوه : لا تفعل وانطلق إلى كاهنة بخيبر .. فسلها .. فإن أمرت بذبحه فاذبحه .. وإن دلتك على أمر فيه فرج له ولك فاقبله .. ورضى عبدالمطلب بهذا الرأي .. فانطلقوا حتى أتوا الكاهنة بخيبر .. فقص عليها عبد المطلب أمره . فطلبت منه .. أن يرجع اليوم .. ثم يعود بعد أن يأتيها تابعها فتسأله .. فرجعوا عنها .. ثم غدوا عليها .

فقالت: نعم قد جاءني الخبر .. كم دية الرجل عندكم ؟ .. قالوا: عشرة من الإبل .. وكانت الدية في هذا الحين عشرا .. قالت ارجعوا إلى بلادكم .. وقربوا عشرة من الابل واضربوا القداح بينها وبين صاحبكم .. فإذا خرج السهم عليه .. فزيدوا في الإبل عشرا فعشرا .. حتى يخرج على الإبل .. فانحروها .. فقد رضي ربكم .. ونجا صاحبكم.

فعادوا إلى مكة .. ثم قربوا عبدالله وعشرا من الإبل .. فخرجت القداح على عبدالله .. فزادوا عشرا .. فخرجت على عبدالله .. فما برحوا يزيدون عشرا فعشرا .. حتى بلغت الإبل مائة .. ثم ضربت .. فخرجت القداح على الإبل.

فقال الحاضرون: لقد رضي ربك يا عبدالمطلب .. فقال: لا والله حتى أضرب ثلاث مرات .. فأكملوها ثلاثا . وهي تخرج على الإبل ففرح الجميع .. ونحرت الإبل .. وتركت لا يصد عنها إنسان ولا سبع .

ولعلنا نلمس في هذا الحدث أمورا وأمورا .. نلمس فيه حرص عبد المطلب الشديد .. على إرضاء ربه .. والوفاء بنذره .. فلم يكتف بخروج القداح على الإبل مرة واحدة .. ولو كان غيره لاكتفى بهذا .. واعتبره فرجا من ضيقه وألمه الذي يعانيه .. فهو ابنه الحبيب العزيز .. قرة العين .. ولكنه أصر على أن تضرب القداح ثلاث مرات .. ليتأكد في أعماقه من رضى الله .

ونلمس فيه استسلام الابن للموت .. طاعة لأبيه .. وتنفيذا لأمر الله .. ولاغرو فهو سليل إسماعيل .

ونلمس فيه ـ أيضا ـ ظاهرة القسوة في القدر . مع باطن الرحمة المكنونة فيه .. فلم تخرج السهام على أبي طالب .. أو أبي لهب .. أو العباس .. أو الحارث .. أو غيرهم .. وإنما خرجت على عبدالله .. أحب أبناء عبدالمطلب إليه .. ليكون الاختبار بالنسبة لعبد المطلب في أقوى درجاته .. وبالنسبة لعبد الله في أغلى ما يملك .. وهو حياته .. وليكون محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ابن الذبيحين.

وانصرف عبدالمطلب .. بعد نحر الإبل .. ومعه ابنه عبدالله .

---

(١) القداح : سهام لا نصل لها يقترعون بها.

(٢) ابن خالد عبد الله .

وفى الطريق .. مر عبدالله بمنزل امرأة .. من بنى أسد بن عبدالعزى بن قصى .. منزلها قريب من الكعبة .. فأرسلت إليه إحدى جواريها .. فأتت به إليها .. فعرضت عليه نفسها .. على أن تعطيه مثل الإبل التى نحرت عنه .. فأبى .. وامتنع عليها .. وأخبرها أن أباه خطب له آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة.

ووهب يومئذ .. هو سيد بنى زهرة سنا وشرفا .. وابنته أفضل فتاة فى قريش نسبا ومكانة .. كما أخبرها بأنه لا يقبل الحرام .. ولا يرضى الزنى .. قال:

أمـــا الحـــرام فـــالممـــات دونــه
والحـــل لا حـــل فـــأستـبـيـنـه
فكيف بالأمـر الذى تبـغـيـنـه
يحـمـى الكريم عـرضـه ودينه

ويبدو أن تلك المرأة الأسدية .. التى راودته عن نفسه .. قبل أن يذهب إلى أهله .. كانت عالمة بالإرهاصات والتنبؤات .. التى كثرت فى هذا الحين .. تبشر بقرب بزوغ شمس الهداية .. وميلاد خاتم رسالات السماء إلى الأرض .. وكانت صادقة الفراسة .. عندما لمحت نور محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى جبين عبدالله . فراودته عن نفسه .. لتكون وعاء لهذا النور .. بدليل أن عبدالله .. بعد أن حملت منه السيدة ـ آمنة ـ وانتقل نور محمد إليها .. عاد إلى تلك المرأة .. لا لشىء إلا لـلتفكه والتسلية البريئة .. كما يفعل الشباب الغض .. فى مثل سن عبدالله .. فأنكرته .. ولم تقبل عليه ..

فقال لها: مالك لا تعرضين على اليوم .. ما كنت عرضت على بالأمس ؟

قالت : لم أعد أرى فى وجهك النور .. الذى رأيته فيه بالأمس . فليس لى بك اليوم حاجة.

قيل إنها كانت تسمع من ورقة بن نوفل .. الذى اتبع النصرانية .. وقرأ فى كتبها .. أن النبى الخاتم .. قد آن أوانه .. وأظلهم إبانه .. فهداها صدق فراستها إلى نوره .. فى وجه عبد الله .

وكان اسم ـ عبدالله ـ قبل حادث الفداء ـ عبدالدار ـ فلما كان فى سنة الفداء . قال عبدالمطلب : هذا عبدالله .. فسمى به من هذا اليوم .

ولم يمكث عبدالله بمكة طويلا .. بعد زواجه .. حتى رحل إلى الشام .. مع أقرانه بتجارة قريش .. فى رحلة الصيف .. وبلغ يثرب .. فى طريق عودته إلى مكة ـ وهو مريض ـ فنزل بها عند أخوال أبيه .. من بنى النجار .. فأقام عندهم شهرا فى مرضه .. ثم توفى .. لشهرين من حمل السيدة آمنة .. بابنه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو فى الخامسة والعشرين من عمره .. ودفن فى دار النابغة .. فى الدار الصغرى .. على يسار الداخل إلى البيت .

والنابغة .. رجل من أخواله .. من بنى عدى بن النجار.

وقد رثته زوجته آمنة .. بهذه الأبيات.

عفا جانب البطحاء من آل هاشم
وجاور لحدا خارجا فى الغمائم
دعته المنايا دعوة .. فأجابها
وما تركت فى الناس مثل ابن هاشم
عشية راحوا يحملون سريره
تعاوره أصحابه فى التزاحم
فإن تك غالته المنون وريبها
فقد كان معطاء كثير التراحم

لم يولد لآمنة وعبدالله . غير محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يتزوج عبدالله غير آمنة .. ولم تتزوج آمنة غير عبدالله .. فهما لم يأتيا الوجود إلا لإنجاب محمد .. هذا القبس الخالد .. **الذى سيملأ الدنيا بالنور والحق والخير والسلام .. ويكون رحمة للعالمين .. من إنس ومن جان.**

حرب السماء فى عام الفيل

نلمح فى مسيرة أبرهة إلى البيت الحرام عـزة العـرب وحبـهم لبيت الله .. والفـداء بأرواحهم .. ذودا عنه .. ودفاعـا عن حماه .. فلم يمر أبرهة على قبيلة من العرب .. إلا قاتلته وحاربته .. استعظاما لهذا الأمر الذى يبتغيه .

حـاربه ـ ذو نفـر ـ مـن ملوك حـمـيـر وحاربه ـ نفيل بن حبيب الخثعمى ـ .. ومن اجتمع إليه من قبائل العرب.

ـ ٦ ـ

حرب السماء
فى عام الفيل

حكم النجاشى اليمن .. بعد حمير .. وآل ملك اليمن إلى أبرهة الأشرم .. بعد أن قتل حاكمها أرباط ـ وأرباط وأبرهة حبشيان.. وغضب النجاشى على أبرهة .. لما قتل تابعه ـ أرباط ـ وحلف لا يدع أبرهة .. حتى يجز ناصيته .. ويطأ بلاده ـ وكتب إليه : إنك اعتديت على أميرى فقتلته بغير أمرى .

وكان أبرهة خبيثا .. فلما بلغه قول النجاشى .. حلق رأسه .. وملأ جرابا من تراب اليمن ..

وكتب إلى النجاشى :

أيها الملك .. إنما كان أرباط عبدك .. وأنا عبدك .. اختلفنا فى أمرك .. وكنت أعلم بأمر الحبشة .. وأسوس لها .. وكنت أردت أن يعزل .. فأبى .. فقتلته .. وقد بلغنى ما حلف عليه الملك .. فحلقت رأسى وبعثت به إليك .. وملأت جرابا من تراب أرضى .. وبعثته إليك .. ليطأه الملك .. فيبر قسمه .

فرضى النجاشى عن أبرهة .. **وأقره على عمله** .. وكتب إليه يثبته فى اليمن . بمن معه من الجند.

وبنى أبرهة كنيسة بصنعاء .. إلى جنب غمدان .. واسمها ـ القليس (١) ـ لم ير مثلها فى زمانها .. بناها من المرمر والرخام الملون .. وجيد الخشب المذهب . وكتب إلى النجاشى يخبره ببنائها له .. وبأنه سيصرف جميع العرب إليها .. بدلا من الكعبة .

وتحدث العرب بذلك .. فخرج رجل كنانى .. اسمه : حذيفة من بنى فقيم بن عدى .. حتى أتى الكنيسة وتغوط فيها ليلا .. استهزاء بها .. وغضبا من أجل الكعبة ثم لحق بأرضه .

ولما علم أبرهة بذلك .. ذهب بنفسه .. ورأى العذرة فيها .. فقال: من الذى اجترأ على ذلك ؟ .. فقيل له : فعلها رجل من العرب .. من أهل ذلك البيت الذى يحجونه .. سمع بالذى قلت للنجاشى .. فصنع هذا.

فحلف أبرهة عند ذلك .. ليسيرن إلى الكعبة ويهدمها.

فخرج بجيش فيه الفيلة .. **فسمى هذا العام بعام** الفيل .. وكان ذلك فى عام ٥٧٠ .

---

(١) بوزن جميز .. من قلس الشىء : إذا ارتفع .. خربت هذه الكنيسة فى زمن السفاح .

ونلمح في مسيرة أبرهة إلى البيت ـ عزة العرب ـ وحبهم للبيت الحرام . والفداء بأرواحهم ـ ذودا عنه .. ودفاعا عن حماه .. فلم يمر أبرهة على قبيلة من العرب إلا قاتلته .. استعظاما لهذا الأمر الذى يبتغيه .

خرج إليه ملك .. من ملوك حمير .. اسمه ـ ذو نفر ـ وقاتله بمن أطاعه من قومه .. ولكن أبرهة هزمه .. وأسره ولم يقتله .. فقد كان أبرهة حليما.

ولما دنا أبرهة من ديار ـ خثعم ـ خرج إليه نفيل بن حبيب الخثعمى .. فى قبيلتين ومن اجتمع إليه من القبائل ولكن أبرهة هزمهم .. وأخذ نفيلا أسيرا.

حتى إذا مر بالطائف .. خرج إليه مسعود بن مغيث الثقفى .. فى رجال من ثقيف .

وقال له : ليس عندنا هذا الذى تريد ـ يعنى به اللات ـ صنم ثقيف .. إنما أنت تريد البيت الذى بمكة .. فتركهم.

ووصل أبرهة بجيشه إلى خارج مكة .. فأرسل حبشيا اسمه ـ الأسود بن مقصور ـ على مقدمة خيله .. فساق أموال أهل مكة إليه .. وكان من بينها مائتا بعير لعبد المطلب .

ثم أرسل أبرهة حناطة الحميرى .. إلى أهل مكة ليسأل عن سيدهم.. فقيل له: سيدنا عبد المطلب فلقيه وقال له : إن الملك أرسلنى إليك لأخبرك أنه لم يأت لقتال . إلا أن تقاتلوه وإنما أتى لهدم هذا البيت .. ثم ينصرف عنكم.

فقال عبدالمطلب: سنخلى بينه وبين ما جاء له .. فإن هذا بيت الله الحرام .. وبيت خليله إبراهيم ـ عليه السلام ـ فإن يمنعه فهو بيته وحرمه ..وإن يخل بينه وبين ذلك .. فهو كذلك فوالله ما لنا به قوة.

قال حناطة : فانطلق معى إليه .. فانطلق معه ..

رأى عبدالمطلب ـ ذانفر ـ الملك الحميرى ـ الذى هزمه أبرهة فى الطريق وأسره .. وكان ذو نفر صديقا لعبد المطلب . فقال له عبدالمطلب يا ذانفر . هل عندك من غناء .. فيما نزل بنا؟ .. فقال: ما غناء رجل أسير؟ .. ولكنى سأرسل لك أنيس .. ـ سائس الفيل ـ فإنه صديق لى .. فاسأله أن يقول عنك عند أبرهة ما استطاع من الخير .. فأرسل إلى أنيس .. واتفق معه .

ودخل أنيس مع عبد المطلب على أبرهة .. وقال له: أيها الملك .. هذا سيد قريش .. وصاحب مكة .. الذى يطعم الناس فى السهل والجبل .. والطير والوحش فى رءوس الجبال .. وقد جاء يستأذن عليك .. فأذن له .. وكان عبد المطلب جسيما وسيما ـ فلما دخل عليه أجلسه بجانبه .. ثم قال لترجمانه : سله عن حاجته .. فقال له عبد المطلب : حاجتى أن يرد على مائتى بعير أصابها لى .. فقال أبرهة لترجمانه : قل له : كنت أعجبتنى حين رأيتك .. ولقد زهدت فيك الآن.

فقال له عبد المطلب: ولم؟ .. قال: جئت إلى بيت هو دينك ..ودين آبائك لأهدمه .. لم تكلمنى فيه .. وتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها؟.

فقال له عبد المطلب: قل له أنا رب الإبل .. ولهذا البيت رب يحميه .. وسيمنعه منك قال: ما كان ليمنعه منى .. فقال له : أنت وشأنك .. ثم أمر له بإبله .. فردت عليه .

ورجع عبد المطلب إلى قريش .. فأخبرهم .. وأمرهم أن يتفرقوا فى الشعاب .. ويتحرزوا فى رءوس الجبال .. تخوفا عليهم .. ففعلوا ذلك.

ثم أتى عبد المطلب إلى الكعبة .. فأخذ حلقة الباب وجعل يقول:

لاهم أن المرء يمنع رحله
فامنع رحالك
وانصر على آل الصليب
وعابديه اليوم آلك
لايغلبن صليبهم
ومحالهم أبدا محالك
جروا جموع بلادهم
والفيل كى يسبوا عيالك
عمدوا حماك بكيدهم
جهلا وما رقبوا جلالك

إن كنت تاركهم وكعبتنا .. فأمر ما بدا لك ثم إن عبد المطلب ترك الحلقة .. وتوجه فى بعض الوجوه مع قومه .

وأصبح أبرهة .. وقد تهيأ لدخول مكة .. وهيأ فيله الأعظم (١) .. وهو مصمم على هدم الكعبة ..

(١) كان هذا فيل النجاشى .. أرسل إلى أبرهة ـ ليهدم به الكعبة.

وكانت الفيلة : ثلاثة عشر فيلا .

يقول ابن إسحاق : تقدم نفيل بن حبيب الخثعمي وهو أسير مع أبرهة .. وأخذ بأذن الفيل الأعظم .. وقال: أبرك .. أو ارجع راشدا من حيث أتيت .. فإنك في بلد الله الحرام . فبرك الفيل .. فأوقفوه فأبى أن يقوم .. فضربوه بالمعول في رأسه .. فأبى .. فوجهوه إلى اليمن .. فقام يهرول .. ثم وجهوه إلى الشام فهرول .. فصرفوه إلى الكعبة فبرك وأبى أن يقوم .. وتقدموا نحو الحرم .. مصرين على هدمه .. برغم ما رأوا من آية الفيل.

وحصلت المعجزة .. وحمى الله بيته .. وأهلك أعداءه.

فقد خرجت صفوف الطير .. قادمة من جهة البحر يقول الرواة في وصفها :

إنها كأمثال الخطاطيف .. مع كل ثلاثة أحجار صغيرة جدا .. حجران في رجليه وحجر في منقاره .

وقال عنها ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ كان لها خراطيم كخراطيم الطيور .. وأكف كأكف الكلاب.

وقال عكرمة ـ رضي الله عنه ـ كان لها رءوس كرءوس السباع .. لم تر قبل ذلك ولا بعده.

كما قال سعيد بن جبير ـ رضي الله عنه ـ هي طيور خضر . لها مناقير صفر.

ونحن لا يهمنا من كل تلك الأوصاف .. إلا أن الله ـ تعالى ـ أرسلها صفوفا .. ترميهم بتلك الحجارة .. المصنوعة من سجيل .. والسجيل : قالت عنه معاجم اللغة: هي حجارة من طين .. طبخت بنار جهنم.

وقد ادعى بعض مدعي العلم: أنها ميكروبات مرض وبائي .. أصاب جيش أبرهة .. إلا أن هذا التفسير .. لا يتمشى من قريب أو بعيد .. مع ظاهر النص .. في قوله تعالى:

(ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل* ألم يجعل كيدهم في تضليل* وأرسل عليهم طيرا أبابيل* ترميهم بحجارة من سجيل* فجعلهم كعصف مأكول)(١)

فقد ورد ذكر تلك الحجارة .. في إهلاك قوم لوط في قوله تعالى:

(فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل)(٢).

وفي نجم آخر:

(وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك) (٣).

فهي حجارة من جهنم .. كان الطائر يسقطها فوق رأس الرجل .. فتخترق بيضته وجسمه .. فيحترق اللحم.. داخل الثياب والدروع .. ويصبح رمادا .. ويبقى الهيكل العظمي بما عليه .. من لباس وسلاح .. فهذا تشبيه القرآن الكريم لهم .. بعد هلاكهم:

(**فجعلهم كعصف مأكول**) .. أي كزرع .. أكل حبه .. وبقي تبنه .

فهل هذا الوصف .. ينطبق على هلاك جيش أبرهة بمرض وبائي؟.

إنه لو كان مرضا وبائيا .. لبقيت آلاف الجثث حول البيت رمما وجيفا .

ونجا القليل من جيش أبرهة ففروا هاربين .. وراحوا .. يسألون عن نفيل بن حبيب .. ليدلهم على الطريق .. ولما رأى نفيل ما أصاب القوم .. قال:

أين المفر . .والإله الطالب
والأشرم المغلوب ليس الغالب

ثم قال:

حمدت الله إذ عاينت طيرا
وخفت حجارة ترمي علينا
وكل القوم يسأل عن نفيل
كأن علي للجيشان دينا

وأرسل الله على أبرهة داء في جسده .. فجعل تتساقط أنامله .. الواحدة تلو الأخرى .. حتى وصل صنعاء .. وهو مثل الفرخ المعوط .. فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه . ثم هلك.

ونزلت قريش على حذر .. في صبيحة اليوم التالي .. من شعاب الجبال .. يتحسسون الأمر ..

---

(١) سورة الفيل .
(٣) ٨٢ هود.

(٢) ٧٤ - الحجر .

ويتلصصون الأخبار .. فلم يسمعوا حسا .. ولم يجدوا أحدا .. وإنما وجدوا أجسادا هشة ملقاة على الأرض .. كأنها لفافات تبغ .. نسيها شاربوها .. في المطفأة .. حتى احترقت وهى على حالتها .. فكان القريشى يمسك بجسد الحبشى .. من رأسه وينفضه .. فيبقى في يده الهيكل العظمى بما عليه من لباس وسلاح وحلى وجواهر .. فكانت غنيمة سائغة لأهل مكة .

وكان لهذا الحادث أثر كبير .. فى الجزيزة العربية كلها .. فقد عظمت العرب قريشا بعده .. وقالوا: هم أهل الله .. وأن الله قاتل عنهم .. وكفاهم مؤنة عدوهم.

وما كان ذلك من الله .. إلا تكريما لبيته الحرام .. وتمهيدا لمولد خاتم الرسل وخير الأنام الذى ستشرق شمسه قريبا .. فى رحاب هذا البيت.

فالإجماع على أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد ولد فى عام الفيل .

وقد أخبر أبو بكر الجوزقى .. قال: حدثنا عبد العزيز بن أبى ثابت .. عن الزبير بن موسى عن أبى الجوزاء .. قال: سمعت عبد الملك بن مروان يقول لغياث بن أسيم الكنانى: أنت أكبر .. أم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أكبر منى .. وأنا ولدت قبله .. فقد ولد رسول الله عام الفيل .. ووقفت بى أمى على روث الفيل.

كما روى عن عائشة رضى الله عنها قالت:

رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة .. أعميين مقعدين يستطعمان الناس.

ولأهمية هذا الحادث .. أرخ العرب بعام الفيل .. وكانوا قبله يؤرخون بموت قصى بن كلاب .. لعظيم منزلة قصى .. فلما كان عام الفيل أرخوا به .

وبدأت الدنيا تستعد لاستقبال محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ لتتحقق دعوة إبراهيم ـ عليه السلام .

|| || ||

أنا دعوة أبى إبراهيم

كانت القاعدة السادسة من قواعد البيت المعنوية (ربنا وابعث فيهم) أى فى الأمة التى ورد ذكرها فى القاعدة الثالثة (رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة) والكتاب هو منطوق النص .. والحكمة هى مفهوم النص (ويزكيهم) أى يطهرهم من الأدران والأقذار .. من النفاق والرياء .. من الكذب والخداع.

ـ ٧ ـ

أنا دعوة أبى إبراهيم

يقول تعالى .. فى سورة البقرة :

(وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) (١).

وقبل أن ندخل فى تدبر تلك الآيات البينات .. أُذكِّر القارىء الكريم .. بما أشرنا إليه فى أول هذا الكتاب .. من أن لكل شىء صورة .. هى مادته وجسمه .. ولكل شىء حقيقة هى روحه وجوهره .. وقلنا إن الصورة إذا فقدت حقيقتها .. فقدت قيمتها .. فالجسم بدون الروح يصير أذى.

وعلى هذا الأساس .. نرى أن بيت الله بمكة صورة .. من حيث البناء والأحجار والرمال والكسوة .. أما حقيقته .. فهى تلك القواعد الروحية .. التى رفعها إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ مع البناء .. وهى تلك الآيات .. التى افتتحنا بها هذا الموضوع جاءت على هيئة ست مطالب .. والقواعد السداسية الأركان هى أكمل بناء هندسى كما أوحى الله ـ سبحانه ـ إلى النحل فى بناء بيوتها .. أن تكون سداسية .. حتى لا يكون بينها أى فراغ .

ولقد كان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الركن السادس والأخير .. فى بناء قواعد البيت .. فى دعوة أبيه إبراهيم ـ عليه السلام ـ

فالركن الأول : (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم).

ماذا يتقبل ؟ .. هل يتقبل القوة والعمل ؟ .. لا .. لأن القوة لله جميعا .. فهو ـ سبحانه ـ هو الذى بوأ المكان .. وأمر برفع قواعد البنيان .. وبقوته وحده .. تحركت السواعد .. طاعة لأمره .. وتنفيذا لمشيئته .. ولتكون تلك الدعوات .. آيات بينات .. للعلاقة بين المعانى ـ باعتبارها الناحية العليا ـ وبين المبانى ـ باعتبارها الناحية الدنيا ـ فالمعانى دائما أعلىَ من المبانى .

وهذا ما يجب أن يلحظه الحاج عند الطواف والتلبية والابتهال .. ففى هذا المكان نطوف ونسعى .. وفيه ندعو ونلبى ..ونحن نعلم أن الله ـ سبحانه ـ مطلق..

---

(١) ١٢٧ ، ١٢٨ / البقرة .

حتى عن قيد الإطلاق .. لا يحده مكان ولا زمان .. وإنما نتوجه إليه ـ سبحانه ـ مشفقين مما لا نستطيع بلوغه .. من تمثل عظمته وجلاله .. فهو العلى الأعلى .. فما علينا إلا أن نسأله أن يتقبل ما فى قلوبنا .. مما عبرنا عنه بطوافنا وسعينا ورفع أيدينا وتلبيتنا .

وتلك هى أول القواعد الست .

والركن الثانى : (ربنا واجعلنا مسلمين لك).

وهنا وقفة أمام الإسلام .. الإسلام لله .. والإذعان لقضائه وقدره ومشيئته .. (فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعنى)(١) .. وليس الوجه هنا .. من الناحية المادية .. أو الشكلية .. أو الصورية .. وإنما هو التوجه بالنفس والذهن والإدراك .. من الناحية الروحية المعنوية: (ربنا واجعلنا مسلمين لك) .. حل بيننا وبين ما يزيغ قلوبنا عن الثقة بك .. والاستمساك بعروة الأدب بين يديك .. وامنحنا بإلهامك الذى أوحيت به إلى النحل .. وما تأتى به رحيق .. امنحنا منحة من فضلك تجعلنا مسلمين لك .. وعلامة التثنية هنا .. لإبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام -

والركن الثالث : (ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) .. أى اجعل من ذريتنا أمة مسلمة لك .. لم يكتف إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - بحصر الدعاء فى نفسيهما .. بل تجاوزا بمظهر البصيرة .. الذى تغلغل إلى نهاية الإنسانية .. وطلبا من ربهما .. أن يجعلهما أصلا لأمة مسلمة لله.

(ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا)(٢).

والآية تقول صراحة: (ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا) (٣) .

أى فى هذا القرآن .. فى هذا الموحى به .. كآخر رسالة .. تتفضل بها عظمة العرش الأعلى على البشرية والجنية معا .. وعلى الملائكة .. قبل ذلك . وبين ذلك .

والركن الرابع : (وأرنا مناسكنا) .. فنحن نحبك يا ربنا .. ولكن لا ندرى كيف نعبدك .. نظهر لك خضوعنا وطاعتنا .. ونسكب بين يديك دموعنا .. لتكون غسولا طيبا لذنوبنا .. تطفىء بها حرائق الآثام التى نشعلها فى نفوسنا فأرنا مناسكنا .. والمنسك : هو منهج العبادة .. ومحل التقدير :

(ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم) (٤).

وهذا كله مرتبط بالقسم الأعلى ـ وهو المعنويات الروحية .. وليس الحجر والرمل .. حتى الهدى .. الذى نقدمه عند البيت .. ما هو إلا رمز معنوى:

(لن ينال الله لحومها ولا دماؤها) هذا هو القسم المادى الأدنى.

(ولكن يناله التقوى منكم) (٥) وهذا هو القسم المعنوى الأعلى.

والركن الخامس : (وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم).

فإن التوبة (إذا لم تأت من الله فلا توبة .. والهدى إن لم يكن منه فلا هدى..(من يهد الله فهو المهتدى)(٦).

فإذا طلب العبد التوبة من الله .. كان ذلك دليلا على علمه بأنه مجبول على الخطأ .. وما دام يخشى الله .. فى العجز والخطأ .. فإن عروة صلته بمولاه .. لا تنفصم أبدا .. لأن الله سميع عليم .. رءوف رحيم .. غفور كريم

تب علينا من أن نظن أن الأعمال التى نأتيها .. صادرة منا .. فالمؤمن الموحد .. يعلم أن الحركة التى يتحركها .. إنما هى باستخدام القوة .. التى هى من الله .. فإن أحسن استعمال الحركة فله وإن أساء استخدامها فعليه: (كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين)(٧).. فقد ترفعوا عن النظر إلى النفس .. وأحس كل منهم أنه مخلوق ضئيل جدا .. بدأ خطواته الأولى فى الوجود .. من النطفة .. إلى العلقة .. إلى المضغة .. وجعل يتقلب بتقدير مولاه فى ظلمات ثلاث .. حتى أنشأه خلقا آخر .. فأقر فى أعماقه !

(فتبارك الله أحسن الخالقين) (٨).

---

(١) ٢٠ - آل عمران .
(٢) ١٢٣ - النحل .
(٣) ٧٨ - الحج .
(٤) ٣٤ - الحج .
(٥) ٣٧ - الحج
(٦) ١٧٨ - الأعراف .
(٧) ٣٨ - ٣٩ - المدثر
(٨) ١٤ - المؤمنون .

هذه هى مشاعر المؤمن .. وهى فى الحقيقة شعائر إلهية .. هى المقصودة فى قوله تعالى: (ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب)(١).

فيشعر العبد بفضل من جعل له عينين .. ولسانا وشفتين .. وهداه النجدين . فقال له : هذا طريق الخير فاسلكه .. وذلك طريق الشر فاتركه .

فهل تظن يا أخى .. أنك لو كان أمرك بيدك . أكنت تصنع شيئا .. لا .. (وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم) .. أنت وحدك .. بيدك ملكوت السماوات والأرض وكل شىء .. وأنت وحدك بيدك حسن الإلهام .. وكمال التوفيق .. وتعليم خالص التوكل .. فقد أنكرنا ذواتنا فى نور ذاتك . وجئناك طائفين ساعين .. ملبين .. داعين .

والركن السادس : والأخير . (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) وهذا ما يعنيه .. ـ عليه الصلاة والسلام ـ بقوله : «أنا دعوة أبى إبراهيم».

أى ابعث فى تلك الأمة المسلمة من ذريتنا التى أشرنا إليها فى الركن الثالث من تلك القواعد الست . لا تدعها ربنا .. بعد تولى آلاف السنين .. من غير قيادة حكيمة عليا .. مرسلة من عندك .. فأنت وحدك المنزه عن الهوى .. وعن الخطأ والضلال .. والتورط والارتجال . فأنت القائل :

(إنا كل شىء خلقناه بقدر) (٢).

ابعث فى هذه الأمة .. التى تمنيناها فى المطلب الثالث (رسولا من أنفسهم) و (من أنفسهم) قلبا كاملا تاما نزيها .. كصفحة بيضاء .. جرى فيها قلم القدرة الإلهية .. فكتب فى هذا القلب اللائق المستعد . المتقبل المستقبل المستمد .. ماشاء الله ـ سبحانه ـ مفتتحا ـ باسم الله الرحمن الرحيم ـ ليكون هذا الرسول ـ رحمة للعالمين ـ (يتلو عليهم آياتك) وأثر التلاوة على نفس المؤمن يبكيه حتى النصارى .. الذين وفدوا من الحبشة . على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد أن طلبوا أن يسمعوا بعض ما أنزل عليه . فكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يتلوه وهم يبكون . ولما انتهى خروا ساجدين قالوا :

(ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين) (٣).

هذا هو موقف النصارى . عند سماع الآيات تتلى

فما بالنا والقرآن يتلى علينا . فكأنا لم نسمع . أو كأن وقرا فى آذاننا ؟

ألا نخشع لكلام من خلقنا ورزقنا . وأمرنا بيده وقلوبنا تنبض تحت يده وقبضته ولو شاء لسكن القلب وهمد الجسد . ووقفنا بحضرة أمام الواحد الأحد . لا نملك لأنفسنا نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ؟

(يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة)

وشتان من [illegible]

[illegible] أم المؤمنين عائشة [illegible] يقول يا أم المؤمنين . [illegible] القرآن فى ثلاثة أيام . فقالت : لا بأس . فقال : فإذا قرأته فى يومين ؟ قالت : [illegible]

وذلك لعدم القدرة على تدبر المعانى . وهذا معنى ـ الحكمة ـ والقرآن ذاته يقول (ليدبروا آياته) (٤)

والجن أيضا تقول هذا . (فلما حضروه قالوا أنصتوا) (٥)

والأمر صريح (وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) (٦) . أى استمعوا وتدبروا ما تسمعون له لينتبه القلب إلى ما فى المعانى من بشرى أو زجر . أو نهى أو أمر أو إرشاد أو تحذير

وكذلك (ويزكيهم) . وما زال الدعاء من إبراهيم لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والتزكية تعنى الزيادة وزكت النفس . أى طهرت . فهو يطهرهم من الأدران والأقذار . من النفاق والرياء . من التملق والمداهنة والكذب والخداع

(ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا) (٧)

(١) ٣٢ الحج .
(٢) ٤٩ القمر
(٣) ٥٣ آل عمران .
(٤) ٢٩ ص
(٥) ٢٩ الأحقاف
(٦) ٢٠٤ الأعراف
(٧) ٢١ النور

هنا ملة إبراهيم .. ست قـواعـد لـلبـيت .. المادى متـعلق بالبناء .. لكن رفع القواعـد المقترن بهـذا الدعاء .. مـعنوى بحت .. فـيكون هنا (آيات بيـنات) .. ويكون هنا مــعنى ـ مـقــام إبراهيم ـ مـن دخله .. على أســاس هذه القواعد .. كان آمنا .. يحق له أن يفيض من عرفات .. بعد تلبـية صـادقـة «لبيك» أى يارب .. لقـد اسـتجـبت لأذان خليلك .. فعلت مـا أمرت به .. واجتنبت مـا نهيت عنه .. وتجردت من ثيابى وذنوبى .. وها أنذا يارب فى ثوب أشبه بالكفن .. لا يـعلو واحـد على واحــد .. لا بالصـورة ولا بالثياب .. **نلبيك** .. ونرفض كل من سواك.

وهكذا نرى أننا على أبواب مولد النور .. ليتحقق الركن السـادس من قواعـد البيت .. وتتم دعـوة إبراهيم ـ عليه السلام .

***

مولــد النــور

قالت السيدة آمنة ـ رضى الله عنها ـ لعبد المطلب : إنها ولدت طفـلا عجيبـا .. ففزع عبدالمطلب .. وقال لها : أليس بشرا سويا؟ .. قالت : بلى .. إنه أشـد ضياء من القـمر ليلة البـدر .. ولكنه نزل ساجـدا .. ثم رفع رأسه وأصبعه إلى السماء .

فطاف به عبدالمطلب حول البيت .. وهو يقول:

أعيـــذه بالواحــــد
من شـر كل حـاسـد

ـ ٨ ـ

مـولـد النـــور

حدث حـادث الفيل .. قـبل مولده ـ عليـه الصلاة والسلام ـ بخـمسين يوما .. فى أغلب الآراء وأصدقـها .. وقد روى فى حديث ابن إسحاق : أن السيدة آمنة .. كانت تحدث أنها:

أتيت حين حملت به ـ عليـه الصـلاة والسـلام ـ فقيل لها : إنك حملت بسيد هذه الأمة .

وقالت : ما شعـرت بأنى حملت به .. ولا وجدت له ثقلا ولا وحما .. كما تجد النساء .. إلا أنى أنكرت رفع حيـضـتى .. وأتانى آت .. وأنا بين النـائمـة واليـقظانة .. فقال: هل شعرت بأنك حملت بسيد الأنام؟ .. ثم أمهلنى .. حتى إذا دنت ولادتى.

أتانى .. فقال .. قولى :

أعيذه بالواحـــد   من شر كل حاسـد

ثم سميه ـ محمدا ـ

ولما تم لهـا من حمـلها شـهـران توفى عبـدالله فى المدينة عند أخواله بنى النجار.

كما ذكرنا من قبل.

وعن ابن عـبـاس : كـانت السيـدة آمنة .. تحـدث وتقول: أتانى آت .. حيث مر على حملى ستة أشهر ـ فى المنام ـ فـقـال لى يـا آمنة.. إنك حـملت بخيـر العالمين.. فإذا ولدته فسميه ـ محمدا ـ واكتمى شأنك.

قالت : ثم لما أخـذنى ما يأخذ الـنساء .. ولم يعلم بى أحـد .. وعـبد المطلب فـى طوافه .. فـسـمعـت وجبـة عظيمـة .. وأمرا عظيما هالنى .. ثم رأيت كـأن جناح طير أبيض .. قـد مسح على فـؤادى .. فـذهب عنى الرعب .. وكل وجع أجده .

ولد ـ عليه الصـلاة والسلام ـ فى فجر يوم الاثنين .. الثـانى عـشـر من شـهـر ربيـع الأول الموافق ٢٠ من أغـسطس ٥٧٠م .. فى عـام الفـيل .. فى المكان المعـروف بسـوق الليل .. فى الدار التـى يسـمونهـا دار محـمـد بن يوسف الثـقفـى .. وكان هذا المكان لعـقـيل بن أبى طالب ضمـه محمـد بن يوسف الثقـفى إلى داره .. حتى فـصلته الخيزران أم الهادى والرشيد. فجـعلته مسجدا يصلى فيه .. وفيه الآن مكتبة مكة.

ويقول أصحـاب السيرة ..إن قابلتـه كانت أم أيمن الحبشية .. كمـا توجد روايات كثيرة تقول: نزل ـ صلى الله عليه وسلم ـ على يد الشفاء .. أم عبدالرحمن بن عوف .. فهى قابلته وقد نزل نظيفا .. ما به قذر.

وقـد روى الطبـرانى : أنه لما وقع على الأرض .. وقع مقبوضة أصابعه .. مشيرا بالسبابة .. كالمسبح بها.

ولد ـ عليه الصلاة والسلام ـ مختونا مسرورا (١).

* * *

وعن أنـس ـ رضى الله عنه ـ أن الـنبى ـ صـلى الله عليه وسلم ـ قال:

«من كرامـتى على ربى أنى ولدت **مخـتونا** .. ولم ير سوأتى **أحد**».

ولد يوم الاثنين .. وبعث يوم الاثنين .. ومات يوم الاثنين.

فعن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ قال:

«ولد ـ صلى الله عليـه وسلم ـ يوم الاثنين .. ورفع الحجر يوم الاثنين .. واستنبىء يوم الاثنين . وخرج مهاجرا من مكة إلى المدينة يوم الاثـنين .. ودخل المدينة يوم الاثنين .. وكان فتح مكة يوم الاثنين».

* * *

ولما ولدته أمه .. أرسلت إلى جـده عبـدالمطلب .. وكـان يطوف بالـبيت .. فى تلك الليـلة .. ولما جـاءها .. أخبرته أنها ولدت طفلا عجيبا .. ففزع عبدالمطلب .. وقال لها:

أليس بشرا سويا؟.

قالت بلى .. إنـه أشد ضيـاء من القمر ليلة الـبدر .. ولكنه نزل ساجدا .. ثم رفع رأسه وأصبعه إلى السماء.

فحـمله عبـد المطلب .. وطاف به حول الـبيت .. وعـوذه .. ثـم أعاده إليها .. وقلبـه معلـق بـه .. ثم سمـاه ـ محمدا ـ

وقد قيل لعبد المطلب : كيف سميت بهذا الاسُم يا عبدالمطلب .. وهو ليس لأحد من آبائك؟.

فقال: إنى لأرجو أن يحمده أهل الأرض كلهم.

كما قيل : إن الهاتف .. الذى أتى أمه بهذا الاسم .. أتى عبدالمطلب به أيضا.

وفـى اليــوم الســابع من مـولده ـ صلـى الله عليـه وسلم ـ عق عنه جده بكبش .. أى ذبح عنه كبشا .

وقد أجمع أصحـاب السيرة .. على أن العام الذى حمل فـيه برسـول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سـمى عام الفـتح والابتهـاج .. فى مكة .. لأنه عـلاوة على مـعجـزة الفـيل .. كـانت قـريش قبله فـى جدب شـديد .. وضـيق عظيم .. فلـمـا جاء هذا العــام .. اخـضـرت الأرض .. وأثمـرت الأشـجـار .. وأتاهم الرغـد والخيـر .. وفـتـحت عليـهم بركـات من الســماء والأرض.. وكـثـرت الآيات والبشريات.

* * *

(١) مقطوع السرة .

آيـــات وبـشـــريـــات

حـــدثت عند ولادتـه ـ عليــه الصـــلاة والســـلام ـ ظواهر كـونيـــة .. لم يســـتطع إنكارها المســتـشـــرقـون ولكنهم عـللوها بحصول زلزال تسبـب فى حدوثها : فارتج إيوان كسـرى .. وغاضت بحيـرة طبرية .. وخـمدت نار فـارس .. التى لم تخمـد من ألف عام.

وأحس بمولده الكهان واليهود.

أما حديث سيف بن ذى يزن الحميرى .. ملك اليـمن مع عبـدالمطلب.. فهـو حديث ممتع.

- ٩ -

آيات وبشريات

من العجيب أنه حصلت عند ولادته - عليه الصلاة والسلام - ظواهر كونية .. أجمع عليها كل أصحاب السير .. حتى العلمانيون منهم .. ولكنهم عللوها بحصول زلزال تسبب فى حدوثها .. وتلك مغالطة مكشوفة منهم .. ما كان لهم أن يترددوا فيها.

منها ارتجاج إيوان كسرى .. وسقوط أربع عشرة شرفة من شرفاته .. وكانت تلك إشارة إلى أنه لم يبق من ملوكهم .. الذين استبدوا بالملك .. غير أربعة عشر ملكا . هلك منهم عشرة فى أربع سنين .. وهلك أربعة إلى زمن عثمان بن عفان .. رضى الله عنه .

وغاض ماء بحيرة طبرية بفلسطين .. إشارة إلى أنه سيحدث لأصحابها بأس شديد.

وخمدت نار فارس .. ويروى البيهقى .. والخرائطى . وابن عساكر .. أن تلك النار كانت متقدة من ألف عام ولم تخمد.

كما أحس الكهان .. الذين كان لهم قرناء من الجن .. يأتونهم بأخبار السماء .. أن السماء زادت حراستها بالشهب .. ومنع الشياطين من استراق السمع.

ويقول الشقراطيسى فى هذا شعرا:

ضاءت لمولده الآفاق واتصلت
بشرى الهواتف فى الإشراق والطفل(١)

وصرح كسرى تداعى من قواعده
وانقض منكسر الأرجاء ذا ميل

ونار فارس لم توقد .. وما خمدت
منذ ألف عام .. ونهر القوم لم يسل

خرت لمولده الأوثان وانبعثت
ثواقب الشهب ترمى الجن بالشهب

ويروى أن هارون الرشيد .. أراد هدم إيوان كسرى .. فقال له وزيره يحيى بن خالد البرمكى : يا أمير المؤمنين .. لا تهدم بناء هو آية من آيات الإسلام .. كما قال البوصيرى .. حول هذا الموضوع .. فى همزيته:

وتداعى إيوان كسرى .. ولولا
آية منك ما تداعى البناء

وغدا كل بيت نار .. وفيه
كربة من خمودها وبلاء

وعيون للفرس غارت .. فهل
كان لنيرانهم بها إطفاء ؟

□ □ □

(١) الطفل : المطر .

وقد أحس اليهود بمولده .. بما هو مكتوب عندهم فى التوراة .

فعن حسان بن ثابت .. قال : إنى لغلام ابن سبع سنين أو ثمان .. أعقل ما رأيت وسمعت .. إذا يهودى يصرخ ذات غداة : يامعشر يهود . فاجتمعوا إليه .. وأنا أسمع .. قالوا : ويلك .. مالك؟ .. قال: طلع نجم أحمد .. الذى ولد به فى هذه الليلة .

كما جاء فى كتاب ـ الأنوار المحمدية ـ للشيخ يوسف بن إسماعيل .. حديثا رواه يعقوب بن سفيان .. بإسناد حسن ـ كما فى فتح البارى ـ عن عائشة ـ أم المؤمنين ـ رضى الله عنها قالت: كان يهودى قد سكن بمكة .. فلما كانت الليلة .. التى ولد فيها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: يا معشر قريش .. هل ولد فيكم الليلة مولود؟ .. قالوا: لا نعلم .. قال: انظروا فإنه ولد فى هذه الليلة مولود .. سيكون نبى هذه الأمة .. بين كتفيه علامة .. فانصرفوا .. فسألوا .. فقيل لهم: قد ولد لعبد الله بن عبدالمطلب غلام .. فذهب اليهودى معهم إلى أمه .. فلما رأى اليهودى العلامة .. صرخ وقال: ذهبت النبوة من بنى إسرائيل .. يا معشر قريش .. أما والله ليسطون بكم سطوة .. يخرج خبرها من المشرق والمغرب.

□ □ □

كما روى عن عبدالله بن عمرو بن العاص ..أنه قال :

كان بمر الظهران راهب .. يسمى ـ عيص ـ من أهل الشام .. وكان يقول:

يوشك أن يولد فيكم .. يا أهل مكة مولود .. تدين له العرب .. ويملك العجم .. هذا زمانه .. فكان لا يولد بمكة مولود .. إلا ويسأل عنه .. فلما كان صبيحة اليوم الذى ولد فيه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خرج عبدالمطلب .. حتى أتى ـ عيصا ـ فناداه .. فأشرف عليه .. فقال له عيص : كن أباه .. فقد ولد تلك الليلة المولود .. الذى كنت أحدثكم عنه يوم الاثنين .. ويبعث يوم الاثنين .. ويموت يوم الاثنين.

فقال عبدالمطلب : ولد لى الليلة مع الصبح مولود .. قال: فما سميته؟ .. قال:سميته محمدا.

قال : والله لقد كنت أشتهى أن يكون هذا المولود فيكم أهل هذا البيت بثلاث خصال: إنه طلع نجمه البارحة .. وإنه ولد يوم الاثنين .. وإن اسمه محمد.

□ □ □

ولنا الآن رحلة جميلة .. مع عبدالمطلب .. إلى سيف بن ذى يزن الحميرى .. لنرى فيها البشريات الناطقة .. والآيات الصادقة .. التى لازمت مولده ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقد ذكرها أصحاب السيرة .. ورجال التاريخ فى كتبهم .. منهم ابن عساكر فى الجزء الأول .. وابن عبدربه فى العقد الفريد .. فى الجزء الأول.

فالظاهر أن حادث الفيل .. كان هزيمة ساحقة للأحباش فى اليمن .. فقد حاربهم بعد عام الفيل .. سيف ابن ذى يزن الحميرى اليمنى .. وانتصر عليهم .. واستقل بحكم اليمن عن الحبشة .

وكان ذلك بعد مولد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبعد موت أمه .

وذهبت وفود العرب وأشرافها .. لتهنئة سيف بن ذى يزن .. بانتصاره وتحرير اليمن من حكم الحبشة .

وكان من جملة المهنئين وفد قريش .. على رأسهم سيدهم عبدالمطلب ـ جد النبى ـ وأمية بن عبد شمس . وأسد بن عبد العزى .. وعبد الله بن جدعان .. فقدموا على سيف بن ذى يزن .. وهو فى قصر عمدان .. فطلبوا الإذن عليه.. فأذن لهم.. وتكلم عبدالمطلب مهنئا .. فلما فرغ عبدالمطلب من كلمته .. أدناه إليه وقربه ..ثم استنهضوا إلى دار الضيافة .. وأقاموا بها شهرا ..لا يصلون إليه .. ولا يؤذن لهم فى الانصراف.

ثم دعا بعبد المطلب من بينهم .. فخلا به .. وأدنى مجلسه .. وقال:

يا عبدالمطلب .. إنى مفوض إليك من علمى أمرا.. لوغيرك كان لم أبح له به . ولكنى رأيتك معدنه .. فأطلعتك عليه .. فليكن مصونا .. حتى يأذن الله فيه .. فإن الله بالغ أمره . إنى أجد فى العلم المخزون .. والكتاب المكنون .. الذى ادخرناه لأنفسنا .. واحتجبناه دون غيرنا .. خبرا عظيما .. وخطرا جسيما .. فيه شرف الحياة .. وفضيلة الوفاء للناس كافة .. ولرهطك عامة .. ولنفسك خاصة .

قال عبدالمطلب : مثلك أيها الملك بر .. وسر ..وبشر .. ما هو ..فداك أهل

الوبر (١) .. زمرا بعد زمر ؟.

قال ابن ذى يزن :

إذا ولد مولود بتهامة (٢) .. بين كتفيه شامة .. كانت له الإمامة .. إلى يوم القيامة .

قال عبد المطلب:

أبيت اللعن .. لقد أبت بخير ما آب به أحد .. فلولا إجلال الملك . لسألته عما ساره إلى ما ازداد به سرورا .

فقال ابن ذى يزن:

هذا حينه الذى يولد فيه .. أو قد ولد .. يموت أبوه وأمه .. ويكفله جده وعمه .. وقد وجدناه مرارا .. والله باعثه جهارا .. وجاعل له أنصارا .. يعز بهم أولياءه .. ويذل بهم أعداءه .. ويفتتح كرائم الأرض .. ويضرب بهم الناس عن عرض .. يخمد الأديان .. ويكسر الأوثان . ويعبد الرحمن .. قوله حكم فصل .. وأمره حزم وعدل .. يأمر بالمعروف ويفعله .. وينهى عن المنكر ويبطله .

فقال عبدالمطلب:

طال عمرك .. ودام ملكك . وعلا جدك .. وعز فخرك .. فهل الملك يسرنى .. بأن يوضح فيه بعض الإيضاح؟ .

فقال ابن ذى يزن :

والبيت ذى الطنب(٣) .. والعلامات والنصب .. إنك يا عبدالمطلب لجده من غير كذب. فخر عبدالمطلب ساجدا .. وقال ابن ذى يزن:

ارفع رأسك . ثلج صدرك .. وعلا أمرك . فهل أحسست شيئا مما ذكرت لك؟

فقال عبدالمطلب :

أيها الملك . كان لى ابن كنت له محبا .. وعليه حدبا مشفقا .. فزوجته كريمة من كرائم قومه .. يقال لها : آمنة بنت وهب بن عبد مناف .. فجاءت بغلام بين كتفيه شامة .. فيه كل ما ذكرت من علامة .. مات أبوه وأمه .. وكفلته أنا وعمه .

فقال ابن ذى يزن :

إن الذى قلت لك كما قلت .. فاحفظ ابنك .. واحذر عليه اليهود . فإنهم له أعداء .. ولن يجعل الله لهم عليه سبيلا .. أطو ما ذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك .. فإنى لست آمن أن تدخلهم النفاسة .. على أن تكون لكم الرياسة .. فيبغون لك الغوائل .. وينصبون لك الحبائل .. وهم فاعلون وأبناؤهم ..ولولا أنى أعلم أن الموت مجتاحى قبل مبعثه .. لسرت بخيلى ورجلى .. حتى أصير بيثرب ـ دار مهجره ـ فإنى أجد فى الكتاب الناطق .. والعلم السابق .. أن يثرب دار هجرته .. وبيت نصرته .. ولولا أنى أقيه الآفات . وأحذر عليه العاهات . لأعلنت على حداثة سنه .. وأوطأت أقدام العرب عقبه .. ولكنى صارف إليك ذلك عن تقصير منى بمن معك.

ثم أمر لكل رجل منها بعشرة أعبد .. وعشر إماء سود .. وخمسة أرطال فضة .. وحلتين من حلل اليمن .. وكرش مملوءة عنبرا .. وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك .. وقال: إذا حال الحول .. فأنبئنى بما يكون من أمره .

فما حال الحول .. حتى مات ابن ذى يزن. فكان عبدالمطلب يقول:

يا معشر قريش .. لا يغبطنى رجل منكم.. بجزيل عطاء الملك . فإنه إلى نفاد .. ولكن يغبطنى بما يبقى لى ذكره وفخره لعقبى.

فيقولون له : وماذاك؟.. فيقول سيظهر بعد حين.

ومن أجل هذا كان عبدالمطلب .. يحترم النبى وهو صغير ..ويقول لأولاده .. إذا نحوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن مجلسه لصغره:

«دعوا ابنى هذا .. فو الله إن له لشأنا».

وقد اعترض بعض المستشرقين على هذه القصة.. قصة عبد المطلب مع سيف بن ذى يزن .. منهم الأستاذ ـ فيل ـ والأستاذ ـ موير ـ . وقالوا إن القصة تشمل مبالغات . فيما يتعلق بالأخبار عن النبى المنتظر .. مما يجعلهم يشكون فى النبوءات التى وردت على لسان سيف بن ذى يزن.

مع أنهم لم يستطيعوا إنكار هذه الرحلة من الوجهة التاريخية .. فلم يستطع ـ موير ـ مثلا .. أن ينكر ذهاب وفود العرب .. لتهنئة ابن ذى يزن .. ومعهم

---

(١) البدو .

(٢) تهامة : يحدها البحر الأحمر غربا .. والحجاز شمالا . واليمن جنوبا .

(٣) الطنب بضمتين : حبل الخباء

عبـد المطلب الذى كـان وقتئـذ حاكم مكـة .. وأدى الأمر بالأستاذ فيل .. إلى إنكار تلك القصة تاريخيا.

ونحن إذا عدنا إلى التاريخ: نجد أن اليـمن كانت تابعـة للحبـشة.. وازداد كـره اليـمنيين لحكم الأحبـاش.. ونهض من بينهـم سيف بـن ذى يزن .. لاسترداد عـرض آبائه.. فـسعى لـدى الإمبـراطورية الرومـانية لشـد أزره.. ومساعدته ضد الحبشة.. ولكنه لم يفلح فى إقناع الرومان بذلك. فلـجـأ إلى الفـرس.. واسـتـطاع الحـصـول على موافـقتـهـم.. وأمدوه بالعـتاد والجيش.. وحـارب الحبـشة وانتـصـر عليـهـا .. وقتل واليـهـا .. الذى كـان يسـمى - مسـروقا - وذلك حـوالى سنة ٥٧٥ ميلاديـة .. وهو العام الذى توفيت فـيه السيـدة آمنة بنت وهب - أم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فـلا مجال للاعتـراض من الوجهة التاريخية .. على حصول هذا الحدث.

كـما أنه لا مـجال للاعتـراض على ذهاب الوفـود العـربيـة.. لتـهنئـة سـيف بن ذى يزن .. علـى تلك الانتصـارات.. وخاصـة لما هو معروف عـن العرب .. من الحمـية والقبلية.. وحـسن الجوار .. واشتـراك مصـالحهم التجـارية مع اليمـنيين .. فى رحلة الشتـاء كل عام.. كـما كانوا يرحلون إلى الشـام صيفا.. من أيام فـهر بن غالب - وهو قريش - الجد العاشر للنبى - عليه الصلاة والسلام - مما يحتم على زعـمائهم ورؤسائهم القيـام بهذا الواجب.. واجب تهنئة سيف بن ذى يزن .. بانتصاره على الحبشة.

هذا من جهة صحة الرحلة تاريخيا فى سنة ٥٧٥ م .. أى فى سنة وفاة أمـه - عليه الصلاة والسلام - كـما هو ثابت فى التاريخ.

وأما من جهة التنبؤات.. فإن ما أخبر به سيف بن ذى يزن عبـد المطلب .. لم يزد على ما قاله بحـيرا الراهب لأبـى طـالب .. بعـد ذلك .. ومـا عـرفه سـلمان الفارسى ـ رضى الله عنه ـ وخرج من بلاده ـ فارس ـ للبحث عنه .. وسنذكرها فى حينها .. إن شاء الله ـ تعالى .

كما لـم يخرج عما أذاعه أحـبار اليهود قـبل وبعد مـولده ـ صلى الله عليـه وسلـم ـ فلمـاذا تكذبونهـا ـ أيهـا المستشـرقون ـ وتدعـون أنهـا مبـالغـات .. مع أننا سلمنا معكم بتلك التنبؤات التى ذكـرها المجوس الثلاثة .. عندما أتوا من بلادهم الشرقيـة .. إلى أورشليم .. بحثا وراء نجم عـيسى ـ عليـه السـلام ـ الذى ظهـر فى السـمـاء . حتى وجدوه قد ولد فى بيت لحم بفلسطين ؟

لماذا سلمتم عقليا بهذه .. وكذبتم بتلك ؟.

ليس هذا منكـم إلا تعصبـا أعـمى .. ومـيـلا مع الهوى .. وجدالا بالباطل وإلا فكيف يحيط العقل بحكمة الحكيم .. وعلم العليم ؟.

وهيا بنا .. لنصحب الوليد الكريم . فى رحلته إلى فيافى الصـحراء .. ورحيب البيـداء .. إلى بنى سعد .. مع السيدة حليـمة السعدية ـ مرضعـة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم .

إلى بادية بنى سعد

مر جماعة من أحبار اليهود بالسيدة حليمة السعدية ـ رضى الله عنها ـ فقالت لهم : ألا تحدثونى عن ابنى هذا .. حملته كذا .. ووضعته كذا .. ورأيت عند ولادته كذا .. وذكرت لهم كل ما سمعته من أمه .. وكل ما رأته هى بعد أن أخذته .. مدعية أنها أمه .

فقالوا لها : أويتيم هو؟ .. فقالت لا .. هذا أبو ه .. وأنا أمه .

فقالوا : لو كان يتيما لقتلناه .

لأن ما قالته من علامات نبوته فى التوراة.

إلى بادية بنى سعد

ـ ١٠ ـ

رضع ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعد رضعاته الأولى من أمه ـ من ثويبة الأسلمية .. جارية عمه أبى لهب .. التى أعتقها حين بشرته بولادته .. رضع منها أياما .. قبل قدوم السيدة حليمة إلى مكة .

ويقول ابن قيم الجوزية .. فى كتابه ـ زاد المعاد ـ إن ثويبة .. أرضعت معه ـ عليه السلام ـ أبا سلمة عبدالله بن عبدالأسد المخزومى .. بلبن ابنها مسروح .. وأرضعت معهما عمه حمزة بن عبدالمطلب (١).

كما يقول الشيخ يوسف بن إسماعيل فى كتابه الأنوار المحمدية ـ إن أبا لهب .. رؤى فى المنام بعد موته .. فقيل له ما حالك؟ .. قال: فى النار .. إلا أنه يخفف عنى فى كل ليلة اثنين .. وأمص من بين أصبعى هاتين ماء .. وأشار برأس أصبعيه .. وأن ذلك بإعتاقى لثويبة .. **عندما بشرتنى بولادة ـ محمد ـ وبإرضاعها له** .

ومن مرضعاته أيضا خولة بنت المنذر .. ومن حاضناته .. الفاضلة الجليلة أم أيمن ـ بركة الحبشة ـ وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد ورثها عن أبيه .. وقيل أيضا أنها كانت دايته .. قال هذا ابن الجوزية .. ويجوز أن أم أيمن كانت مع الشفاء أم عبدالرحمن بن عوف فى ولادته ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما ذكرنا من قبل.

وقد أسلمت أم أيمن ـ رضى الله عنها ـ فى أول ظهور الإسلام .. وهاجرت إلى الحبشة .. وإلى المدينة .. وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقول: «أم أيمن أمى بعد أمى».

وزوجها من حبه لها زيد بن حارثة .. فولدت له أسامة بن زيد .

دخل عليها أبو بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ـ بعد موت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهى تبكى .. فقالا لها: يا أم أيمن ما يبكيك؟ .. فما عند الله خير لرسوله .. قالت: إنى لأعلم أن ما عند الله خير لرسوله .. وإنما أبكى لانقطاع خبر السماء .. فهيجتهما على البكاء فبكيا .

وقد توفيت بعد ما توفى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بخمسة أشهر (٢) .

ولكن المرضعة الرئيسية له .. السيدة حليمة بنت ذؤيب السعدية .. وتكنى أم كبشة ـ أرضعته بلبن ابنها

---

(١) ابن قيم الجوزية ص ٣٣ جـ ١ .

(٢) صحيح مسلم ـ باب «رد المهاجرين إلى الأنصار منائحهم».

عبـد الله أخي أنيسة وجذامـة ـ الشيمـاء ـ أولاد الحرث بن عبد العزى بن رفاعة السعدى.

فالشيماء أختـه من الرضاعة .. وكانت تحتضنه مع أمهـا .. وهى التى قدمت على رسـول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع وفـد هوازن .. فبسـط لها رداء ه .. وأجلسـها عليه .. تكريما لها .. ورعاية لحقها.

كما أن حليمة أرضعت معه أبا سفيان بن الحارث ابن عبـدالمطلب .. وكان شديد العـداوة لرسول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ ثم أسلم عـام الفتح.. وحـسن إسلامـه. كما كـان عمه حمزة بن عبـدالمطلب.. مسترضعا فى بنى سعـد بن بكر.. فأرضعت أمه يومـا ـ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلـم ـ وهو عند أمه حليمـة .. فكان حمـزة رضيع رسول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ من وجهين : من جـهة ثويبة .. ومن جهة السعدية .

وكـان لذهاب الرضـيع محـمـد ـ صلى الله عليـه وسلم ـ إلى ديار بنى سعد .. قصة عـجيبة .. تدل على أنه كان محـفوفا بعناية خاصة من السمـاء .. اختص بها دون سواه .. أجمـعت عليها كل المراجع الشرقيـة والغربية على السواء.

وذلك أن سادة قريش .. كانوا يرسلون أبناءهم .. عقب ولادتهم مبـاشرة .. إلى قبيلة من القبـائل التى تعيش فى البادية .. فيلتمسون لهـم المراضع فيها .. ويغدقون لهم العطايا والهـدايا .. لينشـأ الابن على شظف الـصحـراء .. وخشـونة البيـداء .. وليرضع فـيها كـيان الرجـولة والقوة والعـزم .. وليكون حـاد البـصـر .. بعيـد النظر .. حيـث الفـضاء مـترامـى الأطراف .. والأفق ممتد الأكناف .. فـلا جدران تحـد الأنظار .. ولا أشجار تحـجب الأبصار ..وإنما هناك انطلاقة الـكون بفطرته وطبيعـته وخـشونته وقـسوته بغير حدود.

وجـاء نسـوة من بني سـعـد إلى مكة .. يلتـمـسن الرضـعاء .. فى سنة شـديدة القـحط .. قاسـية الجـدب .. علهن ينلن الخيـر والعطايا من سادة قـريش .. آباء الأطفال الرضع .. ومن بينهن السيدة حليمة السعدية .

وأستسمح القارىء الكريم.. فى أن نستمع معا.. إلى وصف ما حـدث.. من السيـدة حليمة نفسها ،، فـهو أصـدق الأحاديث وأوثـقهـا وأبلغـهـا .. عن تلك الرحلة الميمونة .. رحلة الرضيع الكريم – محمد – صلى الله عليه وسلم – إلى ديار بنى سـعـد .. حـيث نقـضى مـعه فـتـرة الطفولة .. وبواكير الصبا.

فـبعد أن قالت حليـمة: إنها خرجت من بلدها .. مع زوجها الحارث بن عبد العزى وابن لها صغير ترضعه.. تقصد ابنـها – عبد الله ـ فى نسوة من بنى سـعد بن بكر .. يلتمسن الرضعاء.

قالت: كانت سنة شـهباء(١).. لم تبق لنا شيئا.. فخرجت على أتان لى قمراء(٢).. معنا مشارف (٣) لنا.. والله ما تـبض (٤) بقطرة .. وما ننام من صـبينا الذى مـعنا من بكائه مـن الجـوع . مـا فى ثديى مـا يغـنيه .. ومـا فى مـشارفنا مـا يغـذيه .. ولكنا كنا نرجـو الغيث والفـرج .. فـخرجت عـلى أتانى تلك . .فلقـد أدمت (٥) بالركب .. حتى شق ذلك عليهم ضـعفا وعجفـا (٦) حتى قدمنا مكة .. نلتمس الرضعاء .. فما منا امرأة ..إلا وقد عرض عليها رسـول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فـتـأباه إذا قيل لهـا إنه يتـيم .. ومـا عـسى أن تصنع أمـه وجـده ؟ .. فكنا نكرهه لذلك .. فما بقى امرأة قدمت معى .. إلا أخذت رضيعا .. فـقلت لزوجى .. والله لأذهبن إلى ذلك الرضـيع اليتـيم .. فلآخذنه .. فقال : لا بأس عليك أن تفعلي .. عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة .

فذهبت إليـه فأخذته .. وما حـملنى على أخذه .. إلا أنى لم أجد غـيره .. فلما أخـذته رجعت به إلى رحلى .. فلما وضعـته فى حجرى .. أقـبل على ثديى بما شاء من لبن .. فشـرب حتى روى .. وشرب معه أخـوه حتى روى .. ثم ناما .. وما كنا ننام مـنه قبل ذلك .. وقام زوجى إلى شارفنا .. فإذا أنـها لحافل (٧) .. فحلب منهـا ما شرب .. وشربت معه .. حتى انتهينا ريا .. فبتنا بخير ليلة .

وقال صـاحبى ـ تقصـد زوجها ـ حين أصـبحنا : تعلمى والله يا حليمة .. لقد أخذت نسمة مباركة .. فقلت: والله إنى لأرجو ذلك .

---

(١) جدباء.. لأن الأرض تكون فيها بيضاء.
(٢) أنثى الحمار فى لونها بياض .
(٣) المشارف – بضم الميم – الناقة الحسنة.
(٤) لا تحلب .
(٥) أطلت عليها المسافة – لتمهلهم عليها.
(٦) العجف ـ بفتح العين والجيم ـ الهزال .
(٧) ممتلئة الضرع من اللبن.

ثم خرجنا .. وركبت أتاني .. وحملته عليه معى .. فوالله لقطعت بالركب ما لا يقدر عليه شيء من حمرهم .. حتى أن صواحبى ليقلن لى: ياابنة أبى ذؤيب .. ويحك أربعى علينا(١) .. أليست هذه أتانك . التى كنت خرجت عليها ؟ .. فأقول لهن: بلى والله إنها لهى .. فيقلن والله إن لها لشأنا.

ثم قدمنا منازلنا فى بلاد بنى سعد .. وما أعلم أرضا من أرض الله أجدب منها .. فكانت غنماتى تروح ـ على حين قدمنا به معنا .. شباعا لبنا .. فنحلب ونشرب .. وما يحلب إنسان قطرة لبن .. ولا يجدها فى ضرع .. حتى كان الحاضرون من قومنا .. يقولون لرعيانهم: ويلكم .. اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب .. فتروح أغنامهم جياعا .. وما تبض بقطرة لبن .. وتروح غنمى شباعا لبنا .. فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير .. حتى مضت سنتاه وفصلته .. وكان يشب شبابا لا يشبه الغلمان .. فلم يبلغ سنتيه .. حتى كان غلاما جفرا(٢) .

فقدمنا به على أمه .. ونحن أحرص شيء على مكثه فينا .. لما كنا نرى من بركته .. فكلمنا أمه .. وقلنا : لوتركتيه عندنا حتى يغلظ .. فإنا نخشى عليه وباء مكة .. ولم نزل بها .. حتى ردته معنا .

ثم تقول السيدة حليمة : فرجعنا به .. فوالله إنه بعد مقدمنا بأشهر مع أخيه .. لفى بهم (٣) لنا خلف بيوتنا .. إذا أتانا أخوه يشتد .. فقال لى ولأبيه : ذاك أخى القرشى .. قد أخذه رجلان .. عليهما ثياب بيض .. فأضجعاه .. وشقا بطنه .. فهما يسوطانه (٤).

قالت: فخرجت أنا وأبوه نحوه .. فوجدناه قائما .. ممتقع الوجه .. فالتزمته والتزمه أبوه .. فقلنا له: مالك يا بنى؟ فقال .. جاءنى رجلان .. عليهما ثياب بيض .. فأضجعانى .. وشقا بطنى .. فالتمسا فيه شيئا لا أدرى ما هو !! .. قالت : فرجعنا إلى خبائنا.. وقال لى أبوه : يا حليمة .. لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب .. فألحقيه بأهله .. قبل أن يظهر ذلك به .. فاحتملنا ه .. وقدمنا به على أمه .. فقالت : ما أقدمك به يا ظئر (٥) ..

وقد كنت حريصة عليه.. وعلى مكثه عندك؟.. فقلت: قد بلغ الله با بنى.. وقضيت الذى علىَّ .. وتخوفت الأحداث عليه.. فأديته إليك كما تحبين.

قالت: ما هذا شأنك.. فأصدقينى خبرك.. قالت: فلم تدعنى حتى أخبرتها.

فقالت: أفتخوفت عليه الشيطان؟.. قلت: نعم.. قالت: كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل.. وإن لابنى لشأنا.. أفلا أخبرك خبره؟ .. قلت: بلى.

قالت: رأيت حين حملت به.. أنه خرج منى نور أضاء لى به قصور بصرى من أرض الشام.. ثم حملت به .. فوالله ما رأيت من حمل قط.. كان أخف ولا أيسر منه.. ووقع حين ولدته .. وإنه لواضع يديه بالأرض.. رافع رأسه إلى السماء.. دعيه عنك.. وانطلقى راشدة.

ويكفينا من مؤرخى الغرب.. أنهم لم ينكروا حادث شق صدره الشريف .. وهو صغير فى ديار بنى سعد.. ومنهم الأستاذ (موير).. فى كتابه – حياة محمد – والأستاذ (نيكولسون) فى كتابه – تاريخ أدب العرب –.

ولكنهم عللوها – تمشيا مع مكابرتهم بالباطل.. وإنكارهم لرسالته – عليه الصلاة والسلام – بأنها نوبة من نوبات الصرع.. ولاشك أنَّ هذا الكلام لا يستحق شرف المناقشة .. لأن محمدا – صلى الله عليه وسلم – لم تظهر عليه أى علامة من علامات الصرع طوال حياته .. وحياته كلها معروفة للجميع.. صغيرها وكبيرها.

فمعروف عنه كيف يأكل ويشرب وينام ويمشى.. كل حركة فى حياته معروفة للجميع.. ولم تذكر عنه أى علامة من علامات الصرع مطلقا .. وإنما هو التعصب الأعمى .. كما قدمنا.

ولكن لنا وقفة قصيرة.. أمام حادث شق صدره الشريف.

فقد وردت روايات تقول: إن الملكين شقا صدره الشريف.. وأخرجا منه علقة الشيطان.. وهؤلاء الرواة – من حيث لا يدرون يجردونه – عليه الصلاة والسلام – من شرف الصراع النفسى مع الشيطان .. ونزغاته مع

---

(١) أى اعطفى علينا بالرفق وعدم السير السريع

(٢) الغلام الجفر : الغليظ الشديد.

(٣) صغار الغنم.

(٤) يحركان بطنه ببعضها .

(٥) المرأة ترضع ولد غيرها .

مع الإنسان .. فهل ينال البشر درجة السمو على الملائكة .. إلا بشرف هذا الصراع.. وذلك النضال؟.

إذا كان الملكان.. قد أخرجا من صدره الشريف علقة الشيطان.. فمعنى هذا أنه قد صار ملاكا.. ليس فى حاجة إلى مقاومة إغراء.. أو مصارعة هوى فى النفس.. أو ميل مع الشيطان.. مع أنه إمام المجاهدين.. وقائد المقاومين والمصارعين لميل النفس ونزغات الشياطين.. ليكون جديرا بما أعده الله له من الوسيلة والفضيلة.. والشرف والدرجة الرفيعة.

ودليلنا على ذلك.. ما قاله هو - عليه الصلاة والسلام - عن بعض مواقفه مع الشيطان.

فعن محمد بن بشار.. عن محمد بن جعفر.. عن شعبة.. عن محمد بن زياد.. عن أبى هريرة.. عن النبى - صلى الله عليه وسلم -:

«إن عفريتا من الجن.. تفلت البارحة.. ليقطع علىَّ صلاتى .. فأمكننى الله منه .. فأخذته .. فأردت أن أربطه على سارية من سوارى المسجد.. حتى تنظروا إليه كلكم.. فذكرت دعوة أخى سليمان (رب هب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى) فرددته خاسئا» جاء فى صحيح البخارى(١).

إنه - عليه الصلاة والسلام ـ قمة .. فوق الإنسية والجنية والملائكية معا .. وما كان شق صدره الشريف.. إلا إعدادا لهذا الصدر.. ليكون أرضا طيبة خصبة .. لتغرس فيها يد القدرة.. ما شاء الله من آيات بينات ... وصوادع محكمات .. تنبت رياض الحكمة .. التى تكون رحمة للعالمين.. من إنس وجن.. وملائكة مقربين .

ويقول صاحب الهمزية ـ إشارة إلى إرضاعه صلى الله عليه وسلم ـ:

وبدت فى رضاعه معجزات
ليس فيها عن العيون خفاء
إذ أبته ليتمه مرضعات
قلن ما فى اليتيم عنا غناء
فأتته من آل سعد فتاة
قد أبتها لفقرها الرضعاء
أرضعته لبانها فسقتها
وبنيها ألبانهن الشاء
أصبحت شولا عجافا وأمست
ما بها شائل ولا عجفاء
أخصب العيش عندها بعد محل
إذ غدا للنبى منها غذاء
يالها منة لقد ضوعف الأجر
عليها من جنسها والجزاء
وإذا سخر الإله أناسا
لسعيد فإنهم سعداء

وتروى السيدة حليمة ـ رضى الله عنها ـ إنه مر بها جماعة من اليهود .

فقالت لهم : ألا تحدثونى عن ابنى هذا .. حملته كذا .. ووضعته كذا .. ورأيت عند ولادته كذا .. وذكرت لهم كل ما سمعته من أمه .. وكل ما رأته هى .. بعد أن أخذته .. وأسندت كل هذا إلى نفسها .. كأنها هى التى حملته ووضعته .

فقال اليهود بعضهم لبعض : اقتلوه .. فقالوا لها : أويتيم هو؟ .. فقالت: لا .. هذا أبوه .. وأنا أمه .. فقالوا: لو كان يتيما لقتلناه .. لأن ذلك عندهم من علامات نبوته .

وعن السيدة حليمة أيضا :

إنها نزلت به بسوق عكاظ .. وهو سوق فى الجاهلية .. بين الطائف ونخلة .

وكانت العرب تقيم بها شهر شوال .. عندما يقصدون الحج .. ويتفاخرون .. ويتناسبون .. ويتبادلون الشعر ..ويبيعون ويشترون .

فلما وصلت به السيدة حليمة سوق عكاظ .. رآه كاهن يهودى .. وحادثه .. فقال: يا أهل عكاظ .. اقتلوا هذا الصبى .. واقتلونى معه .. فإن له ملكا سيذلكم به .

فمالت به السيدة حليمة .. وحادت عن الطريق .. فأنجاه الله ـ تعالى ـ ويعود محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى مكة .. حيث يبقى بها نصف قرن من الزمان .. ملىء بأحداث وأحداث .

□ □ □

(١) صحيح البخارى ـ الجزء الرابع ـ ص ١٩٧ - طبعة الشعب .

بـلاء الأنبيـــاء

مات أبوه ـ عليه الـصلاة والسلام ـ وهو في بطن أمه جنين .. ومـاتت أمه .. وهو لم يبلغ من العـمـر ست سنين .. واختـاره ربه أميـا .. لا يقرأ ولا يكتب .. حـتى لا يكون لأحد عليه فضل مطلقا غير ربه .. فلا أب . ولا أم .. ولا معلم .

ثم جرد الله ـ تعالى ـ حبيبه محمدا .. من هذا الجـد الرءوف .. والقلب الـعطوف .. فمات عبدالمطلب .. وهو مازال صبيا .

- ١١ -

بلاء الأنبياء

لما قارب عليه الصلاة والسلام - من عمره خمس أو ست سنين.. خرجت به أمه إلى أخواله.. بنى عدى بن النجار فى المدينة.. تزورهم.. ومعها أم أيمن بركة الحبشية.. التى ورثها عن أبيه وذلك فى سنة ٥٧٥ - ٥٧٦م .. فنزلت به فى دار النابغة.. فأقامت به عندهم شهرا.

وكان - عليه الصلاة والسلام - يذكر أمورا كانت فى مقامه ذلك.

نظر إلى الدار.. بعد هجرته.. وقال: ها هنا نزلت بى أمى.. وأحسنت العوم فى بئر بنى عدى بن النجار.. وكان قوم من اليهود يختلفون.. ينظرون إلىّ.

قالت أم أيمن: فسمعت أحدهم يقول: هو نبى هذه الأمة.. وهذه دار هجرته.. فوعيت ذلك كله من كلامهم.

ثم رجعت به أمه.. تريد مكة .. فلما كانت بالأبواء.. بين مكة والمدينة.. مرضت وتوفيت.. ودفنت بالأبواء.. وكان عمرها ثلاثين سنة.

وفى الحديث: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - «زار قبر أمه بالأبواء.. فى ألف مقنع.. فبكى وأبكى» أى كان معه ألف فارس مغطى بالسلاح.

وبوفاة أمه .. صار - عليه الصلاة والسلام - يتيم الأبوين.. فحضنته أم أيمن.. وحملته إلى جده عبدالمطلب.

وقد أشار القرآن الكريم إلى يتمه.. بقوله تعالى «ألم يجدك يتيما فآوى»(١).

ولنا وقفة قصيرة.. أمام هذا اليتم المبكر.. مات أبوه - عليه الصلاة والسلام - وهو فى بطن أمه جنينا.. وماتت أمه .. ولم يبلغ عمره ست سنين.. قضى أغلبها بعيدا عنها.. فى ديار بنى سعد.

فقد قرأت قولا.. للأستاذ عباس العقاد.. حول قول الله - تعالى - عنه «النبى الأمى» وفسرها على أنه - النبى الأممى - أى أنه أرسل إلى جميع الأمم.. وهذا معنى جميل .. لولا أن التكلف ظاهر فيه.. فإن الله - سبحانه - قال «النبى الأمى» ولم يقل النبى الأممى.. ويبدو

---

(١) آية ٦ سورة الضحى.

أن الأستاذ العقاد.. استعظم معنى الأمية.. وأراد نفيها عنه.. تكريما له ـ عليه الصلاة والسلام ـ .

ولكن الأمية فى القراءة والكتابة.. من دواعى الفخر بالنسبة له.

فلو أنه تعلم القراءة والكتابة.. لكان له معلم.. علمه الألف والباء.. والواو والياء.. والأثر الحكمى يقول: من علمنى حرفا.. صرت له عبدا.. فمن الذى يستحق أن يكون محمد عبدا له؟ غير الله ـ سبحانه وتعالى ـ ؟

ليس لأحد عليه فضل مطلقا غير ربه.. لا أب.. ولا أم.. ولا معلم.

هكذا أراد الله له.. ليكون خالصا له.. من جميع زوايا التأديب والتعليم والتربية.. لافضل لأحد عليه.. فهو كما قلنا قمة البشرية والجنية والملائكية.

***

وقد يظن البعض .. أن جبريل ـ عليه السلام ـ كان معلما له.. حال تنزله عليه ـ بالقرآن الكريم.. يقرأ عليه الآيات.. فيعلمه إياها.. وهذا ظن خاطىء .. فما كان موقف جبريل منه إلا كموقف ساعى البريد.. يحمل الخطاب المسجل إلى صاحبه.. وهو لايدرى ما فيه.

لقد كان تنزل جبريل ـ عليه السلام ـ عن طريق القلب.. لاعن طريق السمع.. فقد قال تعالى (نزل به الروح الأمين على قلبك)(١).. ولم يقل على سمعك.. فكان الروح الأمين ـ جبريل ـ ينزل على القلب الأمين ـ قلب محمد ـ بالآيات التى يريد الله تعالى إبرازها .. فيحصل التفاعل .. فى صدره الشريف.. فتنبت الآيات مشهودة بصدره.. قبل أن تخرج إلى الأسماع آيات تتلى.. وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يحاول أن ينطق بها خشية أن تزول تلك المشاهد.. فيقول الله ـ تعالى ـ له:

(ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه)(٢).

وفى نجم آخر.. يقول له:

(لاتحرك به لسانك لتعجل به * إن علينا جمعه وقرآنه) أى علينا نحن قراءته.. فلا شأن لك بتحريك لسانك.. أو إبراز الحروف .. فالله ـ جل وعلا ـ هو الذى يتكلم عن طريق هذا اللسان.. لسانه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأنه كلام الله عن طريق جبريل.. وليس كلام محمد.. ولا كلام جبريل..

ولتأكيد هذا الأمر.. قال فى الآية التالية (فإذا قرأناه فأتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه)(٣).

* * *

فإذا سأل سائل: إن حديث حراء.. الذى يرويه ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقول: عن ظهور جبريل ـ عليه السلام له .. وهو يتعبد فى غار حراء.. ونصه كما جاء فى صحيح البخارى.. عن عائشة ـ رضى الله عنها:

«فجاءه الملك.. فقال له: اقرأ.. فقال ما أنا بقارىء.. قال: فأخذنى فغطنى.. حتى بلغ منى الجهد.. ثم أرسلنى .. فقال: اقرأ.. فقلت: ما أنا بقارىء.. فأخذنى فغطنى الثانية.. حتى بلغ منى الجهد.. ثم أرسلنى.. فقال: اقرأ.. فقلت: ما أنا بقارىء.. فأخذنى فغطنى الثالثة.. ثم أرسلنى .. فقال.

(اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم)(٤).

فتبادل الحديث هنا.. بين محمد وجبريل ـ عليه السلام ـ بقال وقلت.. مما يوحى إلى الفكر أن القول كان عن طريق السمع؟.

وهذا سؤال وجيه.. من غير شك والإجابة عليه تدعونا إلى معرفة معنى القول.. فى القرآن الكريم.. وهو المصدر الرئيسى للغة العرب.. فنجد عيسى ـ عليه السلام ـ لحظة ميلاده يقول لأمه (فإما ترين من البشر أحدا فقولى إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا)(٥)

فأمامنا فى هذه الآية معنى غريب.. يقول لها عيسى: قولى ولا تتكلمى.

وكان قولها بالإشارة.. عندما واجهها قومها بما واجهوها به الاتهام (فأشارت

---

(١) ١٩٢ ـ الشعراء.

(٢) ١١٤ ـ طه.

(٣) ١٨ ـ ١٩ القيامة

(٤) أول سورة العلق.

(٥) ٢٦ ـ مريم.

إليه) (١) . فالقول هنا ـ كما ترى ـ كان بالإشارة .

وإذا تأملنا .. فى قوله تعالى: (وأسروا قولكم أو اجهروا به) (٢) .. وقوله أيضا فى نجم آخر: (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به) (٣) .. نجد أن القول فى الآيتين .. قد يكون سرا فى النفس . أو جهرا باللفظ .. ومعنى هذا أن القول تقرير فى أعماق النفس .. يلفظه اللفظ إلى الخارج عن طريق اللسان .. ولهذا سمى اللفظ لفظا .. من لفظ الشيء .. أى أخرجه . وتكون العبارة أيضا .. من العبور .. أى السباحه من جانب إلى جانب .. لأن العبارة تعبر بالقول من نفس القائل .. إلى أذن السامع.

ولعلنا استطعنا الآن أن نفهم .. أن جبريل ـ عليه السلام ـ لم يكن معلما لمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأن محمدا ليس لأحد عليه فضل مطلقا .. غير الله ـ سبحانه ـ ولهذا يقول مفتخرا: «أدبنى ربى فأحسن تأديبى»

ومن أجل هذا مات أبوه وهو فى بطن أمه جنينا .. ثم ماتت أمه .. وهو لم يبلغ ست سنين .. وحضنته أم أيمن .. وحملته إلى جده عبدالمطلب .

وفى السنة التى ماتت فيها أمه ـ رمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ رمدا شديدا .

* * *

وكان عبدالمطلب يرعاه رعاية خاصة .. ويؤثره على بنيه .. لما كان يلمح فيه من أمارات العظمة .. ودلائل النبوة .. التى بشره بها سيف بن ذى يزن .. وبما كان لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من جاذبية خاصة .. تدفع من يراه إلى حبه .. وكانت هذه العظمة والجاذبية .. تزداد وضوحا كلما شب وترعرع .. وقد ثبت مما رواه الصحابة .. أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت له جاذبية غريبة .. فكانوا يحبونه حبا لا يستطيعون مقاومته .. ولا يعصون له أمرا..

وقد روى .. أن قريشا تتابعت عليها سنو جدب .. فى حياة عبدالمطلب .. فارتقى هو ومن حضره من قريش جبل أبى قبيس .. ومعه ـ محمد ـ فقام عبدالمطلب .. واعتضده ـ عليه الصلاة والسلام ـ فرفعه على عاتقه .. وهو يومئذ غلام صغير .. فقال:

أيفع .. أو قرب .. ثم دعا .. فسقوا فى الحال .

وأيفع : أى ارتفع .

وكان الاستسقاء فى الجاهلية بطريقة أخرى .. فكانوا إذا تتابعت عليهم الأزمات واشتد الجدب .. واحتاجوا إلى المطر .. يجمعون بقرا .. ويعلقون فى أذنابها وعراقيبها السلع والعشر (٤) .. ويصعدون بها إلى جبل وعر .. ويشعلون فيها النار .. ويفرقون بينها وبين أولادها . ويسوقون البقر إلى ناحية العرب . .وتسمى هذه النار ـ نار الاستمطار.

وقالوا: إنما يضرمون النار فى أذناب البقر.. تفاؤلا للبرق بالنار.

ويضجون بالدعاء والتضرع .. وكانوا يرون ذلك من الأسباب الموصلة إلى نزول الغيث .

* * *

وكان يوضع لعبد المطلب فراش وثير .. فى ظل الكعبة .. ويجلس أولاده حول هذا الفراش .. لا يجرؤ أحدهم على الجلوس عليه .. هيبة منه .. وإجلالا له .. حتى يخرج عبدالمطلب فيجلس عليه .. فكان عليه الصلاة والسلام يأتى وهو صبى صغير .. فيجلس عليه .. فيأخذه أعمامه وينحونه عن الفراش .. فيقول لهم عبد المطلب.. عندما يرى ذلك منهم . دعوا ابنى هذا فوالله إن له لشأنا.

وشاء الله ـ سبحانه ـ أن يجرد حبيبه محمدا من هذا الجد الرءوف .. والقلب العطوف ـ فتوفى عبد المطلب بمكة سنة ٥٧٨م .. بعد عام الفيل بثمانية أعوام .. وله مائة وعشرون سنة . وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يبكى خلف سريره .. وهو لم يبلغ الثامنة من عمره .

وقد دفن عبدالمطلب بالحجون ـ جبل بأعلى مكة ـ عند قبر جده قصى.

ولما حضرته الوفاة .. أوصى بمحمد إلى عمه ـ أبى طالب ـ شقيق أبيه عبدالله .

وفى هذه السنة مات حاتم الطائى .. وكسرى أنوشروان.

وأبو طالب اسمه ـ عبد مناف ـ و ـ عبد الكعبة ـ وكان كريما .. لكنه كان فقيرا . كثير العيال . فرأى فى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خيرا وبركة .. فكان يحبه حبا شديدا .. لا ينام إلا إذا لصق جلده بجلده فى فراش واحد .. يلازمه فى حله وترحاله .. يخرج به إذا خرج .: ويعود به إذا عاد.

كما أوصى عبدالمطلب إلى ابنه أبى طالب أيضا بسقاية زمزم .. وإلى ابنه الزبير بالحكومة والولاية وأمر الكعبة .

(١) ٢٩ـ مريم .

(٢) ١٣ - الملك .

(٣) ١٠ ـ الرعد

(٤) نوعان من الشجر.

بين أبى طالب وبحيرا الراهب

قال بحيرا لأبى طالب: ما هذا الغلام منك؟ قال أبو طالب: إنه ابنى .. فقال بحيرا : ما هوابنك .. وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا.

فقال أبو طالب :

إنه ابن أخى .. قال بحيرا : فما حال أبيه؟ قال : مات وأمه حبلى فيه .

قال بحيرا : صدقت .. فارجع بابن أخيك إلى بلدك .. فوالله لو عرف اليهود منه ما عرفت .. ليبغنه شرا .. فإن له شأنا عظيما .

- ١٢ -

بين أبى طالب وبحيرا الراهب

كان عبدالله أبو رسول الله وأبو طالب من أم واحدة - كما ذكرنا -

وروى أن أبا طالب قال لأخيه العباس : ألا أخبرك عن محمد بما رأيت منه ؟ .. فقال: بلى .. فقال: إنى ضممته إلىّ .. فكنت لا أفارقه ساعة من ليل .. ولا نهار .. ولا أأتمن عليه أحدا.

إنى كنت أنومه فى فراشى .. فأمرته ليلة أن يخلع ثيابه وينام معى .. فرأيت الكراهة فى وجهه .. ولكنه كره أن يخالفنى ..وقال: يا عماه .. اصرف وجهك عنى .. حتى أخلع ثيابى .. إذ لا ينبغى لأحد أن ينظر إلى جسدى .. فتعجبت من قوله .. وصرفت بصرى .. حتى دخل الفراش .. فلما دخلت معه الفراش .. إذا بينى وبينه ثوب .. والله ما أدخلته الفراش .. فإذا هو فى غاية اللين ..وطيب الرائحة .. كأنه غمس فى المسك . فجهدت لأنظر إلى جسده .. فما كنت أرى شيئا.

وكثيرا ما كنت أتفقده من فراشى .. فإذا قمت لطلبه نادانى .. ها أنا يا عم فارجع .. ولقد كنت كثيرا ما أسمع منه كلاما يعجبنى .. وذلك عند مضى بعض الليل .

وكنا لا نسمى على الطعام والشراب .. ولا نحمد بعده .. وكان يقول فى أول الطعام : باسم الله الأحد .. فإذا فرغ من طعامه .. قال: الحمد لله .. فتعجبت منه .. ثم لم أر منه كذبة .. ولا ضحكا .. ولا جاهلية .. ولا وقف مع صبيان يلعبون (١).

* * *

أخرج ابن عساكر .. عن جلهمة بن عرفطة .. قال: قدمت مكة .. وهم فى قحط شديد .. فقالت قريش : يا أبا طالب .. أقحط الوادى وأجدب .. فهلم فاستسق لنا .. فخرج أبو طالب .. ومعه غلام كأنه شمس ضحى تجلت منها سحابة قتماء.. وحوله أغيلمة - جمع غلام صغير - فأخذه أبو طالب .. فألصق ظهره بالكعبة .. ولاذ الغلام بأصبعه - أى أشار بأصبعه إلى السماء تضرعا - وما فى السماء قزعة - أى قطعة من السحاب - فأقبل السحاب من ههنا وههنا .. وأغدق واغدودق .. وانفجر الوادى .. وأخصب النادى.

وبهذا يكون أبو طالب .. قد رأى آية الاستسقاء من رسول الله وهو غلام صغير مرتين : مرة فى حياة أبيه

---

(١) راجع تفسير الفخر الرازى جـ ٦ص ٥٦٨ وما بعدها - طبعة ١٢٧٨ هجرية .

عبد المطلب.. وتلك المرة ..مما أطلق لسانه بقصيدة تزيد على ثمانين بيتا من الشعر .. **فى مدح الرسول ـ صلى الله عليه وسلم .. ذكرها ابن إسحاق كاملة ..ومنها :**

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه
ثمال(١) اليتامى .. عصمة للأرامل(٢)
يلوذ به الهلاك من آل هاشم
فهم عنده فى نعمة وفواضل

* * *

وفى عام ٥٨٢م - وقد بلغ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اثنتى عشرة سنة .. خرج مع عمه أبى طالب إلى الشام .. فى رحلة الصيف للتجارة .

ونزل الركب بصرى من أرض الشام .. التابعة فى هذا الحين لحكم الرومان .. وكان ببصرى راهب يقال له : بحيرا .. انقطع لعبادة الله .. فى صومعة له .. وهو راهب مسيحى .. ذكرت كتب الأدب البيزنطى أنه نسطورى .. على مذهب ـ آريوس ونسطور ـ وكان ينكر ألوهية عيسى .. ويقول: إن تسميته بإله غير جائز.. بل يدعى ـ كلمة الله ـ كما تدعى أمه مريم ـ والدة الناسوت ـ الذى هو المظهر السامى للكلمة .. لا والدة الله .. وقد كان بحيرا عالماً منجما فلكيا .. كان اسمه ـ سرجيوس ـ ويغلب أن بحيرا لقب له .. ومعناه فى ـ دائرة المعارف الإسلامية ـ المنتخب ـ

وورد فى دائرة المعارف العربية ـ للبستانى ـ أن اسم بحيرا ـ فى اللغة السريانية معناه العالم المتبحر.

اتخذ بحيرا صومعته بقرب الطريق الموصل إلى الشام .. وأقام فى هذا المكان مدة من الزمن تمر عليه قوافل العرب .. فكان يأمرهم بعبادة الله الواحد الأحد .. وينهاهم عن عبادة الأصنام .. وقد تتلمذ على يديه سلمان الفارسى قبل إسلامه .

وقال بعض تلاميذه : إن بحيرا مات مقتولا على يد بعض اليهود الأشرار . وكان بصيرا بعلوم النصرانية .. عليما ببواطن الأمور .. التى يتوارثونها راهبا عن راهب .

رأى بحيرا ركب قريش القادم إلى الشام مقبلا من بعيد .. وهو فى صومعته .. بمكان مرتفع من الأرض .. فلفت نظره غمامة تسير فوق القوم .. وتظلل واحدا منهم .. وتعلق نظره بهذا الركب .. حتى نزل فى ظل شجرة قريبة منه .. فرأى الشجرة وقد تهصرت(٣) أغصانها على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى استظل بها .

فنزل بحيرا من صومعته .. بعد أن أمر بإعداد طعام للقوم ..ثم أرسل إليهم يدعوهم إلى طعامه . وناداهم: لقد صنعت لكم طعاما يا معشر قريش ..وأرجو أن تحضروا جميعكم .. كبيركم وصغيركم . الحر منكم والعبد.

فقال له أحدهم: ما رأينا منك هذا من قبل يا بحيرا؟ .. واللات كم مررنا بك . فلم نر منك مثل هذا الكرم .. لابد أن لك اليوم شأنا معنا؟

فقال له : صدقت .. إنما أردت أن أكرم مسامكم .. وأقدم لكم طعاما تأكلون منه جميعا . فاجتمعوا له تاركين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند رحالهم تحت الشجرة .

وتفحص بحيرا القوم واحدا واحدا وهم جلوس .. فلم ير فيهم طلبته .

فقال: يا معشر قريش .. لا يتخلف منكم أحد عن طعامى .. قالوا: لم يتخلف منا أحد يا بحيرا . اللهم إلا غلام صغير .. تركناه عند رحالنا .. فقال: لا تفعلوا ادعوه ليحضر معكم .. وليأكل من زادنا . وقام إليه رجل منهم فأحضره ..وأجلسه بجوار عمه أبى طالب

وتفحصه بحيرا طويلا . وعرف فيه كثيرا من العلامات التى يجدها مدونة عنده .. فى التوراة والإنجيل .. والكتب المتوارثة بينهم .. فبعد أن أكل القوم وانفضوا .. قام إليه بحيرا قائلا: يا غلام . أسألك بحق اللات والعزى.. إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه . فأبى رسول الله أن يستحلفه بها .. فقال له : فبالله إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه .. قال: نعم .. سل ما بدا لك .. فجعل يسأله عن أشياء من حاله .. ومن نومه .. وهيئته . فجعل رسول الله يخبره خبره .. فيوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته ..

---

(١) الثمال ـ بكسر الثاء ـ الغياث والملجأ .
(٢) مانفهم منه الحاجة والضياع .
(٣) مالت.

ثم استأذنه ليكشف عن ظهره..فرأى الخاتم المميز بين كتفيه..وكان مثل أثر المحجمة ـ التى تفيض على اللحم حتى يكون ناتئا ـ فلما تأكدت له كل الصفات .. أقبل على عمه أبى طالب..فقال له: ما هذا الغلام منك؟..

قال: ابنى .. قال له بحيرا : ماهو ابنك .. وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا ..

قال : فإنه ابن أخى .. قال: فما حال أبيه ؟.. قال .. مات وأمه حبلى فيه .. قال: صدقت فارجع بابن أخيك إلى بلدك .. واحذر عليه من اليهود .. فوالله لئن رأوه .. وعرفوا منه ما عرفت .. ليبغنه شرا .. فإن له شأنا عظيما .. فأسرع به إلى بلده (١).

وقد اختلف المؤرخون .. فى عودته بعد لقاء بحيرا .. فقال ابن قيم الجوزية .. فبعثه عمه مع بعض غلمانه إلى مكة .. وجاء فى كتاب الترمذى وغيره .. أنه بعث معه بلالا .. وكذب ابن الجوزية هذا الرأى لعدم وجود بلال فى هذا الحين .. والأصح ما ذكره ابن هشام وطبقات ابن سعد .. من أن عمه عاد معه إلى مكة .. بعد أن أسرع فى تصريف تجارته بالشام .. لأن أبا طالب كان لا يأمن عليه أحدا.

وليس هذا هو المهم .. وإنما المهم ما قاله بعض المستشرقين فى هذا الموضوع .. مدفوعين بطيش التعصب .. والافتراء بوحى الهوى والغرض .

فمثلا زعم الدكتور ـ أشبرنجر ـ أن أبا طالب .. رد محمدا مع بحيرا إلى مكة .. وطبعا يقصد ـ أشبرنجر ـ من هذا الزعم .. أن يوعز بأن بحيرا هو الذى علم محمدا بسير الغابرين.

ولعل هذا هو المقصود من قوله تعالى :

(لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) (٢) .

وهذا الزعم من ـ أشبرنجر ـ لا يستحق شرف المناقشة .. لأن ذهاب بحيرا إلى مكة مع محمد .. لم يرد فى أى مرجع ـ عربى أو غربى ـ إلا فى زعمه هو .

أما ما ذكره مستر وليام موير .. فى كتابه ـ حياة محمد ـ حول تلك الرحلة .. يقول: «إن جميع الذين دونوا سيرة الرسول .. ذكروا تفاصيل كثيرة مضحكة .. عن هذه الرحلة .. تدل على عظمة نبوته المنتظرة» .. وذكر قصة الرحلة .. كما ذكرها المؤرخون.

ولست أدرى .. ماذا أضحك ـ موير ـ فى تفاصيل هذه الرحلة ؟

هل أضحكه تظليل الغمامة له .. والتواء الغصن عليه ؟.

ليس فى هذه الرحلة .. غير هذه الحالة .. التى أثارت ضحك ـ موير ـ لأنه أقر بما تنبأ به بحيرا عنه .

فإذا كان ـ موير ـ مسيحيا ـ وهو يتحدث فى كتابه عن نبى ـ فكيف لم يضحكه :

نطق عيسى فى المهد .. وإحياء الموتى .. وخلق خفاش حى من الطين .. ونزول مائدة السماء على عيسى .. وعلى أمه من قبل .. وغير ذلك من معجزات ـ عيسى ـ عليه السلام ـ ؟ وإن كان يهوديا .. فكيف لم يضحكه انقلاب عصى موسى إلى حية .. وضرب ماء البحر بها فيتجمد الماء .. ويفتح الطريق فيه لبنى إسرائيل ؟ .. ولم يضحكه تظليل الغمام لبنى إسرائيل فى صحراء سيناء .. ونزول المن والسلوى عليهم حينا من الدهر؟

إن ـ موير ـ مؤمن بهذا وبغيره من معجزات أنبياء بنى إسرائيل .. سواء كان مسيحيا أو يهوديا .. ونحن مؤمنون معه بها جميعا .. فلماذا لم يضحكه كل هذا .. وإنما أضحكه سحابة تظل محمدا .. وغصن يميل عليه؟

ونحن نأسف لمناقشة هذا الموضوع .. لأنه ظاهر فيه طيش التعصب .. وافتراء الهوى .. ومكابرة الشيطان.

ويكفى أن نقول لهؤلاء المكابرين .. الذين يحاولون إنكار النبوءات .. التى بشرت بمحمد خاتم الأنبياء قبل ظهوره : إن تلك النبوءات .. مازالت آية صدق .. وشهادة حق .. فى الكتاب المقدس .. فى أسفار التوراة .. وفى صلب الأناجيل الأربعة الرسمية .. وقد أفردنا لها فصولا .. فى كتابينا «مريم البتول» و «من نبأ عيسى» لمن شاء الاستزادة فى هذا المقام .. وسأضرب لك أمثلة خفيفة منها .. مما ذكر فى الكتاب المقدس بعهديه : القديم والجديد.

فمن حيث التنبؤ بمكان ظهوره ـ عليه الصلاة والسلام ـ

نجد فى سفر التثنية .. فى الإصحاح الثالث والثلاثين .. بالنص :

---

(١) راجع إن شئت طبقات ابن سعد .. وتاريخ الطبرى .. وسيرة ابن هشام .

(٢) ١٠٣ النحل.

«جاء الرب من سيناء .. وأشرق من ساعير .. وتلألأ من جبال فاران» (١) .

فقوله : جاء الرب من سيناء .. يقصد رسالة موسى .. من طور سيناء .

وقوله : وأشرق من ساعير .. يقصد إشراقة عيسى .. من جبل ساعير ـ جبال فلسطين ـ .

وقوله : وتلألأ من جبال فاران .. يقصد محمدا .. فالمعروف أن جبال فاران .. هى جبال مكة .. سميت فاران .. نسبة إلى فاران بن عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح .. الذى نزل بمكة .

وإليك دليل آخر من سفر أشعياء .. فى الإصحاح الرابع والخمسين :

١ - ترنمى أيتها العاقر .. التى لم تلد .. أشيدى بالترنم أيتها التى لم تمخض .. لأن بنى المستوحشة أكثر من بنى ذات البعل .. قال الرب .. إلى أن قال: لأنك تمتدين إلى اليمين وإلى اليسار .. ويرث نسلك أمما .. وتعمر مدنا خربة (٢) .. وواضح أن المقصود بالعاقر التى لم تلد أنبياء من قبل .. هى مكة .. فليس منها إلا محمد.

كما جاء فى سفر ـ حبقوق ـ فى الإصحاح الثالث:

٣- الله جاء من تيمان .. والقدوس من جبل فاران (٣).

وغيرها كثير وكثير .. من حيث بيان الموقع الذى سيخرج منه النبى الخاتم .

أما من حيث التنبؤ ـ بأنه من نسل إسماعيل أخى إسحاق .. وأنه آخر الأنبياء ..

فاقرأ فى سفر التثنية .. فى الإصحاح الثامن عشر .. يخاطب موسى:

١٥ـ يقيم لك الرب إلهك نبيا من وسطك .. من إخوتك .. مثلى له تسمعون. إلى ١٨- أقيم لهم آخر الزمان نبيا مثلك .. من بنى إخوتهم مثلك .. وأجعل كلامى فى فمه .. فيتكلم بكل ما أوصيه (٤) ـ هـ ـ

هذا فى التوراة التى نزلت على موسى ـ عليه السلام ـ ونلاحظ أن كل نبى بعث بعد موسى كان من نسل إسحاق .. وآخرهم ـ عيسى عليه السلام ـ فلم يكن من بنى إخوتهم .. إلا محمد ـ صلى الله عليه وسلم - من ولد إسماعيل أخى إسحاق.

وأما من حيث التنبؤ باسمه:

فاقرأ فى إنجيل - يوحنا - أحد الأناجيل الأربعة الرسمية.. فى الإصحاح السادس عشر

يقول المسيح:

٥- وأما الآن فأنا ماض إلى الذى ارسلنى.. وليس أحد منكم يسألنى أين أمضى.

٦ - ولكن لأنى قلت لكم هذا.. قد ملأ الحزن قلوبكم.

٧- ولكن أقول لكم الحق.. أنه خير لكم أن انطلق.. لأنه إن لم أنطلق.. لايأتيكم - البار قليط - ولكن إذا ذهبت أرسل لكم.

٨- ومتى جاء ذلك يبكت العالم على خطيئة .. وعلى بر .. وعلى دينونة .. الخ.

وقد ثبت أن الترجمة الصحيحة لعبارة بار قليط أو بار كليت - إلى اللغة العربية هى - كثير الحمد - يعنى أفعل تفضيل من - حمد - فتكون أحمد أو محمد.

كما ورد التبشير - بإيلياء - فى جميع الأناجيل.. وأسفار التوراة .. وقد أثبتنا بالدليل الملموس أن إيلياء - هو - أحمد (٥) -

تلك أمثلة خفيفة .. مما وردت فى التوراة والإنجيل .. نقدمها لمستر وليام موير .. ليضحك قليلا.. فسيبكى كثيرا. وليعلم هو وأمثاله الضالين.. أن كتبهم تنبأت به قبل مولده بمئات بل آلاف السنين.. وصدق الله العظيم.. عندما قال:

(الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل)(٦).

وهكذا عرف بحيرا من النبوءات الواردة فى التوراة والإنجيل.. أوصاف نبى هذه الأمة.. من كتبهم القديمة .. وقد كثرت الإرهاصات بقرب بزوغ نجمه.. وكان يعرفها الكثير من اليهود.. ومنهم هؤلاء اليهود الذين روت عنهم السيدة حليمة أنهم كانوا يريدون قتله.. وكانت تهرب به من طريقهم.. وأنجاه الله - تعالى - من شرهم. فخاف عليه بحيرا من اليهود.. ونصح عمه بالعودة إلى مكة.

وعاد أبو طالب إلى مكة.. حيث يرعى بها الغنم.. ليصلح فيما بعد لقيادة الأمم.

---

(١) سفر التثنية: ص ٣٣ - فقرة ٢.

(٢) أشعياء ص ٥٤ - من أول الإصحاح.

(٣)حبقوق: ص ٣ فقرة ٣.

(٤) التثنية ص ١٨ فقرات ١٥ - ١٨ .

(٥) كتابنا - من أنباء الرسل - من «نبأ عيسى» فصل ١٢ .

(٦) ١٥٧ - الأعراف.

راعى الغنم .. بين حرب الفجار .. وحلف الفضول

سئل عليه الصلاة والسلام - عن حرب الفجار.. فقال : «حضرتها مع عمومتى.. ورميت فيها بأسهم .. وما أحب أنى لم أكن أفعل».

وسئل عن حلف الفضول.. بعد حرب الفجار.. فقال:

«ما أحب أن لى بحلف حضرته.. فى دار ابن جدعان حمر النعم».

فما هى حرب الفجار؟.. وما هو حلف الفضول؟ وقد حضرهما - عليه الصلاة والسلام - وهو ابن خمس عشرة سنة.

ـ ١٣ ـ

راعـــى الغـنــم

بين حرب الفجار وحلف الفضول

قال رسـول الله - صلى الله عليه وسلم - «مـابعث الله نبيا إلا رعى الغنم».

فقال له أصـحابه: وأنت يارسول الله؟.. قال «وأنا رعيتها لأهل مكة بالقراريط» والقراريط: أجزاء صغيرة من الدراهم والدنانير.. وقيل القراريط: اسم مكان.

وعن جابر بن عبد الله.. قال: كنا مع النبى - صلى الله عليه وسلم - نجنى الكباث(١) - بفتح الكاف - فقال: «عليكم بالأسود منه فإنه أطيـبه.. فإنى كنت أجنيه إذ كنت أرعى الغنم».

قلنا: أو كنت ترعـى الغنم يارسـول الله؟.. قـال: «نعم وما من نبى إلا قد رعاها».

والحكمـــة من ذلك.. أن رعـى الغنم.. التى هى أضـعف الأنعـام.. توجد فى الـقلب رقة وعطـفا.. ورأفـة ولطفا.. فإذا انتقل بعد ذلـك إلى رعاية الناس.. كان مهذبا صالحا.. رءوفا عطوفا.

* * *

ويبدو أنه - عليـه الصلاة والسـلام - قـد حضـر حرب الفجار.. وحلف الفضول فى الفتـرة التى رعى فيها الغنم.. وهو فى فترة الصبا وبواكير الشباب.

فقد ذكر حرب الفجار - بكسر الفاء - فقال:

«قد حضرتها مع عمومتى.. ورميت فيها بأسهم .. وما أحب أنى لم أكن أفعل».

وقـال عنها أيـضا: «كنت أنبل عـلى أعمـامى، أى أناولهم النبل.

وذكر رجال السيرة: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يوم الفـجار ابن خمس عشرة سـنة.. فما هو يوم الفجار هذا؟

قامت بين العـرب أربعة حروب .. سميت كلها ـ بالفجار ـ لأن القتال كان فيـها فى الشهر الحرام .. ففجروا فيـه .. بمعنى المفاجرة .. كالقـتال والمقاتلة .. وكـانت كلها من عام ٥٨٠ - ٥٩٠ م .

فالفـجار الأول: كان بين كنـانة وهوازن. والثانى : كان بين قريش وكنانة .

والثالث : كـان بين كنانة وبنى نضر بن مـعاوية .. ولم يحصل فيها قتال كبير.

أمـا الفجار الأخـير : فـقــد كـان قبل مبعث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بخمس وعشرين سنة .. وكان بين قريش وكنانة من جانب .. وبين هوازن من الجانب الآخر.

ومـوضوعـه أن النعمـان بن المنذر ـ أمير الحيـرة ـ بعث بلطيمـة (٢) له إلى سوق عكاظ للتجـارة .. وكانت سوق عكاظ تنصب سنويا

---

(١) ثمر الأراك .

(٢) الإبل التى تحمل التجارة .

في شهر شوال .. يؤمها العرب جميعا .. في طريقهم إلى الحج .. حيث ينتقلون منها إلى سوق ـ ذى المجاز ـ فيقيمون فيها إلى أيام الحج .. وتلك كانت أسواق العرب .. وأكبرها عكاظ.

فكان والى النعمان بن المنذر على تجارته .. رجل من هوازن اسمه ـ عروة الرجال ـ فوثـ ، شخص اسمه ـ البراجن ـ وهو خليع من بنى كنانه على عروة فقتله وهرب. ولما علم زعماء قريش · كنانة بهذا الأمر .. تركوا سوق عكاظ .. وعادوا إلى الحرم.

فقال ـ أبو براء ـ رئيس هوازن .. عندما علم بما حصل: ما كنا من قريش إلا فى خدعة فخرجوا فى آثارهم .. فأدركوهم وقد دخلوا الحرم .. فناداهم رجال من هوازن: إن ميعاد ما بيننا وبينكم .. هذه الليالى من قابل .. أى العام القابل ـ ولم تقم سوق عكاظ .. تلك السنة .

فمكثت قريش وغيرها .. من كنانة .. وأسد بن خزيمة .. ومن لحق بهم من الأحابيش سنة يتأهبون لهذه الحرب .. وتأهبت هوازن .. ثم حضروا من قابل .

وكان على قريش : عبدالله بن جدعان .. وهشام ابن المغيرة .. وحرب بن أمية .. وسعيد بن العاص .. وعتبة بن ربيعة .. والعاص بن وائل .. ومعمر بن حبيب الجمحى .. وعكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبدالدار .. وكان أمرهم جميعا .. إلى عبدالله بن جدعان.

أما هوازن: فكان أمرهم إلى أبى برآء عامر بن جعفر .. ومعه سبيع .. وربيعة بن معاوية النضرى .. ودريد بن الصمة .. ومسعود بن معتب .. وأبو عروة بن مسعود .. وعوف بن أبى حارثة المرى .. وعباس بن رعل السلمى.

والتقى الجيشان .. فى الشهر الحرام .. وقتل من الفريقين .. فى هذا اليوم .. عدد كبير .. حتى نادى عتبة ابن ربيعة إلى الصلح .. وهو شاب لم يكتمل الثلاثين بعد فاصطلحوا على أن يفدوا القتلى .. ودفعت قريش لهوازن دية قتلاهم .. ووضعت الحرب أوزارها .. ولمنصرف الفريقان كل إلى غايته .

وهذا هو يوم الفجار الأخير .. الذى اشترك فيه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال عنه: «قد حضرته مع عمومتى .. ورميت فيه بأسهم .. وما أحب أنى لم أكن فعلت».

وقد حضر ـ عليه الصلاة والسلام ـ «حلف الفضول» لما فيه من فضل كبير .. ومبادىء رفيعة .. ومثل عالية .. وكان أشرف حلف .. وأنبل معاهدة .

أول من دعا إليه الزبير بن عبدالمطلب .. وهو عم شقيق لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاجتمعت بنو هاشم وزهرة وتميم .. فى دار عبدالله بن جدعان .. فصنع لهم طعاما كثيرا .. فتعاقدوا وتعاهدوا بالله .. لنكونن مع المظلوم .. حتى يؤدى له حقه .. ما بل بحر صوفة .. وترابطوا على التآسى فى المعاش .

فسمت قريش هذا الحلف ـ حلف الفضول ـ .

وفيه يقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ:

«ما أحب أن لى بحلف حضرته .. فى دار ابن جدعان .. حمر النعم .. وأنى أعذر به هاشم وزهرة وتيم .. تحالفوا أن يكونوا مع المظلوم .. مابل بحر صوفة .. ولو دعيت به لأجبت .. وهو حلف الفضول».

وهكذا نرى محمدا من بواكير حياته ـ عليه الصلاة والسلام ـ يحرص أشد الحرص على المبادىء العليا .. والمثل الرفيعة .

فجميع الأحلاف والمعاهدات .. التى كانت فى الجاهلية .. على أساس من الفتن والغارات والقتال .. يرفضها محمد .. وينهى عنها .. أما تلك التى كانت فى الجاهلية على أساس نصرة المظلوم .. وصلة الأرحام .. والتكافل الاجتماعى .. فتلك التى فرح بها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال عنها :

«ماأحب أن لى بحلف حضرته فى دار ابن جدعان حمر النعم» من الخير الكثير .. والمال الوفير .. وكرائم الإبل .

كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ من أحلاف الجاهلية:

«وأيما حلف كان فى الجاهلية .. لم يزده الإسلام إلا شدة».

يريد التحالف على الخير .. والعدل .. ونصرة الحق .. وتلك هى مبادىء الإسلام فى الحروب.

ولقد كان هذا التطلع .. من بعض العرب .. وعلى رأسهم الزبير بن عبدالمطلب .. استشراقا لحياة أرقى .. وإعدادا لظهور الإسلام ..

وتربية اجتماعية وسياسية ودينية .. لإنبات رجال يحملون رسالة .. يجاهدون فى نشرها .. فى الجزيرة العربية .. ويفدونها بالأموال والدماء والأرواح.

وقد كان ذلك .. كما سنرى فى ركب الزمن .. برفقة خاتم الرسل ـ محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

* * *

رحــــلة .. وزواج ..

لما رجع ـ عليه الصلاة والسلام ـ من الشام بثمن تجارة السيدة خديجة ـ رضى الله عنها ـ وكانت تدعى فى الجاهلية ـ بالطاهرة ـ أرسلت إليه مولاتها ـ نفيسة ـ ترغبه فى الزواج .. قد بلغ الخامسة والعشرين .. فقال لها : «ما بيدى مال أتزوج به» .. فقالت له نفيسة : فإن كفيتك ذلك .. ودعوتك إلى المال والجمال والشرف .. أما تجيب ؟ .. قال: «فمن هى؟» قالت: خديجة .. قال: «فأنا أفعل».

- ١٤ -

رحـــلة وزواج

لقد ظهرت فى رسـول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كل دلائل الرجـولة والفـضل والكمـال .. وهو فى سن يطيش فـيه الشبـاب .. وتزل فـيـه أقدام ذوى الألبـاب .. وخاصة فى الجاهلية وشركها وفجورهاوانحلالها وخمرها وميسرها .. فلم يصبه من هذا كله شىء.

فقـد أجمع المـؤرخون ـ العرب منـهم والإفرنج ـ على أنه كان يأبى أن يحضر مع قـومه العيد .. الذى كانت تقيـمه مكة لصنم يقال له ـ بوانة ـ حـتى غضب عليه عـمه أبو طالب وعـمـاته .. وعلى أنـه لم يذق لحـمـا ذبح على الأصنام .. حـتى أكرمـه الله برسـالتـه .. وعلى أنه اعتـزل الأوثان .. ولم يـدخل فى يهـودية ولا نصـرانيـة .. ولم يشترك فى لهو الجاهلية ومساخرها .

وقد سمع وهو غلام أصـوات الدفوف .. ونقرات الراقـصات .. وغناء الشـاديات .. فى دار من دور مكة فى حفل زواج .. فنام مكانه .. ولم يوقظه إلا حر الشمس.

كما أجمعوا على أنه لم يكشف عورته قط .. ولم يلعب الميسر ..ولم يذق الخـمر .. وقـد كان شـربها أمـرا عاديا .. منتشرا بين الشيوخ والشباب .. إلا أن تحريم الخمر لم يكن من خصائـصه وحده فى هذا الحين .. فقد حـرمها على نفسـه كثيـر فى الجاهلية .. بسبـب آفاتها وسيـآتها .. ودفـعـهـا الإنسـان إلى الشـرور والآثام .. أسـوة بجـده عـبدالمطلب .. وجـد جده قـصى .. أول من حـرمهـا على نفسه .. ونهى أبناءه عن شربها لما حضرته الوفاة .

ولكن الإسـلام حرمـها بـعد ذلك تحـريما عامـا .. وسن عقوبة لشاربها .

* * *

أجمـع الـكل علـى أنـه ـ عليه الصـلاة والسلام ـ كـان مـثـالا يـحـتـذى فى شبـابـه:خـلقـا .. وصـدقـا .. وأمـانــة .. ورجــولــة .. وكــرمــا .. ونــبــلا .. وشـجـاعـة .. وبـعـدا عـن النقـائص كلـهـا .. ونـفـورا مـن مـعـايب الجـاهليـة ومـثـالبـهـا .. ولهـذا كـان

يحترمه الكبير .. ويبجله الصغير .. حتى أطلقوا عليه اسم ـ الصادق الأمين ـ لتلك الصفات التى لم تجتمع لسواه .

وقد وردت هذه العبارة ـ الصادق الأمين ـ فى كتاب «رؤيا يوحنا الإنجيلى» المعتمد من الكنيسة .. والموجود فى الكتاب المقدس .. وهى صريحة فى التنبؤ بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ففى الإصحاح التاسع عشر من كتاب ـ يوحنا الإنجيلى بالنص (١) :

١١ـ ثم رأيت السماء مفتوحة .. وإذا فرس أبيض .. والجالس عليه يدعى «أمينا صادقا وبالعدل يحكم ويحارب.

١٢ـ وعيناه كلهيب نار .. وعلى رأسه تيجان كثيرة .. وله اسم مكتوب .. ليس أحد يعرفه إلا هو . ـ أهـ ـ .

ومن الغريب أن المسيحيين يدعون أن المسيح ـ عليه السلام ـ هو المقصود فى رؤيا لا تنطبق على عيسى ـ لأنه لم يحارب .. كما لا ينكرون أن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يدعى قبل بعثه ـ الصادق الأمين ـ وهذا معروف ومشهور .

ولعل عبارة «وعيناه كلهيب نار» كانت من العلامات التى يعرفه بها اليهود .. وعرفه بها بحيرا .. فمن أوصافه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه أدعج العينين .. أى فى بياضهما حمرة.

وبلغ ـ عليه الصلاة والسلام ـ الخامسة والعشرين من عمره فى سنة ٥٩٥ م.

قال له عمه أبو طالب: يا محمد .. أنا رجل لا مال لى .. وقد اشتد الزمان علينا .. وهذه عير قومك(٢) .. وقد حضر خروجها إلى الشام .. وخديجة بنت خويلد .. تبعث رجالا من قومك فى عيرها وتجارتها .. فلو جئتها وعرضت نفسك عليها لتعمل فى تجارتها لأسرعت إليك .

وبلغ السيدة خديجة ما كان من قول عمه له .. فأرسلت إليه تدعوه إلى السفر بتجارتها تلك إلى الشام .. وقالت له: أنا أعطيك ضعف ما أعطى رجلا سواك .. وكانت تعلم أمانته وصدقه وكماله.

وجاء فى كتاب «زاد المعاد»..لابن قيم الجوزية (٣):

أجر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفسه من خديجة .. فى سفره بمالها إلى الشام .. وإن كان العقد بينه وبينها مضاربة .. فالمضارب أمين ووكيل وأجير وشريك :

فهو أمين إذا قبض المال .·.ووكيل إذا تصرف فيه .. وأجير فيما يباشره بنفسه من العمل .. وشريك فى الربح.

وأخرج الحاكم فى صحيحه .. من حديث الربيع ابن بدر .. عن أبي الزبير .. عن جابر .. قال:

«أجر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفسه من خديجة بنت خويلد سفرتين إلى جرش (٤) .. كل سفرة بقلوص (٥) ».

وقد أخطأ بعض الرواة .. لما ظن أن رسول الله قد سافر إلى اليمن .. فقد قرأوا كلمة جرش ـ المفتوحة الجيم ـ وهى مكان بالشام .. قرأوها جرش ـ بضم الجيم .. وهى مكان باليمن.

لأنه لم يثبت أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد سافر إلى اليمن أو الحبشة أو مصر أو فارس .

* * *

والمهم عندنا الآن ـ ونحن بصدد تلك الرحلة .. أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد خرج بتجارة خديجة بنت خويلد إلى الشام .. ومعه غلامها ـ ميسرة ـ وجعل عمومته يوصون به أهل العير .. حتى قدم بصرى من الشام .. على طريق دمشق .. ونزل فى ظل شجرة ـ هناك ـ ورآه ـ نسطور ـ الراهب ـ عن بعد .. فقال فى نفسه .. ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبى .. ثم سأل ميسرة : أفى عينيه حمرة؟ .. قال : نعم لا تفارقه .. قال نسطور : هو نبى .. وهو آخر الأنبياء .

كما لحظ ـ ميسرة ـ أن ملكين فى السماء .. يظلان رسول الله من الشمس .. أينما سار .. فأسر كل ذلك فى نفسه .. حتى باعوا تجارتهم .. وربحوا ضعف ما كانوا يربحون فى كل مرة .. فلما رجعوا من رحلتهم .. أخبر ـ ميسرة ـ سيدته خديجة بما سمع من الراهب ـ نسطور ـ عن محمد .. وبما رأى من تظليل الملكين له .

---

(١) رؤيا يوحنا ـ ص١٩ ـ فقرتا ١١، ١٢ .

(٢) العير : الإبل التى تحمل التجارة .

(٣) زاد المعاد جـ ١ ص ٥٧ .

(٤) جرش بفتحتين : مكان بالشام .

(٥) القلوص : شباب النوق .

وجاء فى كتاب ـ الأنوار المحمدية :

ولما رجعوا إلى مكة .. فى وقت الظهيرة .. وخديجة فى ـ علية لها ـ فرأت رسول الله .. وهو على بعيره .. وملكان يظلان عليه .

ومن الإنصاف .. أن نذكر ما قاله مستر ـ موير ـ فى كتاب ـ حياة محمد ـ تعليقا على تلك الرحلة .. قال:

«إن محمدا لم يكن فى وقت من الأوقات .. طامعا فى الغنى .. إنما كان سعيه لغيره .. ولو ترك الأمر لنفسه .. لآثر أن يعيش فى هدوء وسلام .. قانعا بحالته .. ولما فكر فى رحلة كهذه .. ولكن لما عرض عليه عمه السفر .. شعرت نفسه الكريمة .. بضرورة تفريج كربة عمه .. فأجاب طلبه مسرورا».

كانت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبدالعزى بن قصى .. من أنبل قريش نسبا .. وأعظمهم شرفا .. سيدة شريفة .. جلدة حازمة .. غنية جميلة .. وكانت تدعى فى الجاهلية .. بالطاهرة .. عرض عليها الكثير من زعماء القوم الزواج فلم تقبل.

وكانت قد تزوجت عتيق بن عائد المخزومى .. وولدت له هند بنت عتيق . وهلك .. ثم تزوجت بعده من أبى هالة بن زرارة التميمى .. وولدت له هندا وهالة .. يقول النبهانى: إنهما ذكران .. ولكن الصحيح أن هندا بنت .. وهالة ذكر.

ثم عزمت بعدها على عدم الزواج .. فرفضت كل من تقدم لها من علية القوم .. وهى لا تدرى أن فى مقبل حياتها أمرا خطيرا .. وزواجا كريما .

وقد ذكر بعض الرواة روايات غريبة .. عن زواجها برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيقول الواقدى: يقولون إن خديجة أرسلت إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تدعوه إلى الزواج منها .. وكانت امرأة ذات شرف .. وكان كل قريشى حريصا على زواجها .. قد بذلوا الأموال لو فازوا بذلك .. ولكنها أبت .. فدعت أباها .. فسقته خمرا حتى ثمل .. ونحرت بقرة .. وخلقته بخلوق (١) .. وألبسته حلة حبرة .. ثم أرسلت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى عمومته .. فدخلوا عليه فزوجه .. فلما صحا قال: ما هذا العقير .. وما هذا العبير .. وما هذا الحبير ؟ .. قالت: زوجتنى محمدا بن عبدالله ـ قال: ما فعلت .. أنى أفعل هذا .. وقد خطبك أكابر قريش فلم أفعل ؟ .

وقد ثبت خطأ هذه الرواية .. لأمر بسيط .. وهو أن أباها خويلد بن أسد قد مات قبل يوم الفجار (٢) .

* * *

والصحيح فى زواجه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه لما رجع من الشام .. بثمن تجارة السيدة خديجة .. أرسلت إليه من يرغبه فى الزواج .. والغالب على أنها أرسلت إليه نفيسة مولاتها .. فقال لها : ما بيدى ما أتزوج به .. فقالت: فإن كفيتك ذلك .. ودعوتك إلى المال والجمال والشرف .. ألا تجيب؟.. قال: فمن هى ؟ .. قالت له : خديجة .. قال: فأنا أفعل.

فذهبت فأخبرت خديجة . فأرسلت إليه .. أن ائت الساعة كذا .. وأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها .. فحضر .. ودخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى عمومته .. وحضر علية القوم .. وزعماء مضر .. كما حضر أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ ذلك العقد .. فقال أبو طالب:

«الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم .. وزرع إسماعيل .. وضئضىء (٣) معد .. وعنصر مضر .. وجعلنا حضنة بيته .. وسواس حرمه .. وجعل لنا بيتا محجوجا .. وحرما آمنا .. وجعلنا الحكام على الناس.

ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبدالله .. لا يوزن برجل إلا رجح به شرفا ونبلا .. وفضلا وعقلا . فإن كان فى المال قل .. فإن المال ظل زائل .. وأمر حائل .. ومحمد من عرفتم قرابته .. وقد خطب خديجة بنت خويلد .. وبذل لها ما آجله وعاجله كذا .. وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم .. وخطر جليل جسيم».

فلما أتم أبو طالب الخطبة .. تكلم ورقة بن نوفل ابن عم خديجة .. قال:

«الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت .. وفضلنا على ما عددت .. فنحن سادة العرب وقادتها .. وأنتم أهل ذلك كله .. لا تنكر العشيرة فضلكم .. ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم .. زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبدالله على كذا .. ثم سكت.

---

(١) الخلوق : الطيب .

(٢) طبقات ابن سعد جـ ١ . ط ليدن ص ٨٥ .. والسيرة الحلبية .

(٣) ضئضىء : معدن .

فقال أبو طالب: قد أحببت أن يشركك عمها ..

فقال عمها عمرو بن أسد: «اشهدوا علي يا معشر قريش أني قد أنكحت محمدا بن عبدالله . خديجة بنت خويلد»

ثم قال: «إن هذا البضع لا يقرع أنفه (١)».

وقبل النبي الزواج . وشهد على ذلك رؤساء قريش.

تزوجها - عليه الصلاة والسلام - بعد عودته من رحلته بتجارتها إلى الشام بشهرين . وكان صداقها اثنتي عشرة أوقية ونصفا من الذهب والأوقية كانت أربعين درهما كما قيل إن صداقها كان عشرين بكرة من الإبل والقيمة واحدة في الحالتين.

وكانت سنه حين ذلك خمسا وعشرين سنة وخديجة يومئذ بنت أربعين سنة وقد أولم عليها فنحر جزورين وأطعم الناس وهي أول وليمة أولمها رسول الله.

وأتت ليلة الفرح ورقص فيها جواري خديجة وضربن الدفوف وفرح أبو طالب أعظم الفرح في تلك الليلة وقال الحمد لله الذي أذهب عنا الكرب ودفع عنا الهم.

والسيدة خديجة .. هي أول امرأة يتزوجها .. وأول امرأة ماتت من نسائه .. ولم ينكح غيرها في حياتها.

إن السيدة خديجة بحق يصدق عليها المثل القائل - كل عظيم خلفه امرأة - فهي التي آزرته على النبوة وجاهدت معه وواسته بنفسها ومالها وهي أول من آمن به في العالمين . وكفاها ذلك فخرا وأرسل الله إليها السلام مع جبريل عليه السلام وتلك خاصية لم تعرف لأحد سواها.

وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في حقها:

« أفضل نساء الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم - امرأة فرعون ».

وقد سمي - عليه الصلاة والسلام - العام الذي ماتت فيه - عام الحزن -.

وقال دائم الثناء عليها أمام عائشة - رضي الله عنها - حتى أدركتها الغيرة فقالت له هل كانت إلا عجوزا قد أبدلك الله خيرا منها فغضب رسول الله حتى اهتز مقدم شعره من الغضب.

ثم قال: «لا والله .. ما أبدلني الله خيرا منها .. آمنت بي إذ كفر الناس .. وصدقتني وكذبني الناس .. وواستني من مالها إذ حرمني الناس .. ورزقني الله منها أولادا إذ حرمني أولاد النساء».

قالت عائشة: فقلت في نفسي لا أذكرها بسيئة أبدا.

إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد زواجه خديجة .. لم يسافر في رحلة للتجارة أبدا .. وأقام بمكة إلى أن هاجر إلى المدينة بعد موتها - رضي الله عنها -.

وقد ولدت له جميع أولاده إلا إبراهيم فإنه من مارية القبطية.

فأول أولاده القاسم وبه كان يكنى - ثم الطيب وهو الطاهر - ثم رقية ثم زينب ثم أم كلثوم ثم فاطمة الزهراء **زوجة علي بن أبي طالب .. وأم سيدي شباب أهل الجنة - الحسن والحسين - رضي الله عنهم أجمعين.**



(١) أي لا يضرب أنفه لكونه كريما

صاحب الخلق العظيم

الفضل ما شهدت به الأعداء :

قال المسيو ـ سيديو ـ فى كتابه ـ تاريخ الغرب ـ بالنص :

«ولما بلغ محمد من العمر خمسا وعشرين سنة .. استحق بحسن سيرته .. واستقامة سلوكه مع الناس .. أن يلقب بالأمين».

كما قال مستر ـ وليم موير ـ فى كتابه ـ حياة محمد ـ بالنص :

«إنه لقب بالأمين .. بإجماع أهل بلده .. لشرف أخلاقه ».

حقا (وإنك لعلى خلق عظيم).

ـ ١٥ ـ
صاحب الخلق العظيم

أما عن خلقه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فهو جبل أشم .. لا يستطيع بلوغه أفصح البلغاء .. وهو بحر خضم لا يسبر أغواره فطاحل الأدباء :

دع ما ادعته النصارى فى نبيهم
واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

ويكفينى أن أورد عنه فى هذا المقام بعض ما قاله مؤرخو الغرب فيه .. فالفضل ما شهدت به الأعداء .

قال المسيو ـ سيديو ـ فى كتابه ـ تاريخ العرب ـ بالنص (١) :

«ولما بلغ محمد من العمر خمسا وعشرين سنة .. استحق بحسن سيرته .. واستقامة سلوكه مع الناس .. أن يلقب بالأمين».

كما قال مستر ـ وليم موير ـ فى كتابه ـ حياة محمد ـ بالنص (٢) :

«إنه لقب بالأمين بإجماع أهل بلده .. لشرف أخلاقه».

هذا برغم أنف دائرة المعارف البريطانية..التى زعمت ـ إفكا وافتراء ـ دون سند أو دليل ـ أن تسميته بالأمين. مأخوذة من اسم أمه ـ آمنة ـ ثم اعترفت دائرة المعارف بخطئها .. فقالت : وإن كان العرب لا يجعلون علاقة بين الابن وأمه فى التسمية .

يريدون بهذا ـ تعصبا وحقدا ـ أن تسميته الأمين .. لم تكن لأمانته .. بل لأن اسم أمه ـ آمنة ـ وما هذا الادعاء منهم .. فى حق محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا كقطرة من بولة عصفور سقطت فى البحر المحيط .. لا تبلغ من طهارته شيئا .

لقد تواترت الأنباء والأخبار .. عن تمسكه بالفضائل .. واجتنابه للرذائل .. من بواكير طفولته .. حتى الصغائر التى لا يدركها الأطفال ولا يحسونها .. فقد ورد أنه فى صغره كان يلعب ذات مرة مع غلمان قريش .. وكانوا يحملون الحجارة فى آزرهم(٣) .. فتبدو عوراتهم . فخالفهم .. وصار يحملها على كاهله .. حتى لا ترى عورته .

لقد عصمه الله تعالى ـ من كل قبيح .. وحببه فى كل جميل .. لأن الله هو الذى رباه واصطفاه واجتباه .. فصرف عنه السوء والضر ..وصانه من أدران الجاهلية وأقذارها .. ومن شرها وشرورها .. فنشأ نقيا تقيا .. برا وفيا .. أمينا زكيا .. طاهرا مطهرا.

(١) تاريخ العرب جـ ١ ص ٥٨ ط ثانية .
(٢) حياة محمد ـ ص ٢٠ ط ١٩١٢ .
(٣) أحجار ملابسهم .

يقـول علـى ـ رضـى الله عنه ـ : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول:

«ما همـمت بقبيح مما همّ به أهل الجاهليـة .. حتى آكـرمنـى الله بالنبـوة .. إلا مـرتين من الدهر ..كلتـاهمـا عصمنى الله ـ عز وجل ـ من فعلهما:

قلت لفـتى معى من قـريش بأعلى مكة .. فى غنم لأهله يرعاها: أبصر لى غنمى . حتى أسمر هذه الليلة بمكة .. كمـا يسمر الفتـيان .. قال: نعم .. فلمـا جئت أدنى دار من مكة .. سـمـعت غناء ..وصـوت دفـوف ومزامـيـر .. فـقلت : مـا هذا؟ .. قالوا : فـلان تزوج فـلانه .. فلهـوت بذلك الصوت .. حتى غلبنى النوم .. فنمت .. فما أيقظنى إلا مس الشـمس .. فـرجعت إلى صـاحبى .. فـقال: مـا فعلت؟ .. فأخبرته .. ثم فعلت الليلة الأخرى مثل ذلك».

صرفه الله ـ تعالى ـ عن كل شر .. وصرف عنه كل شر .. فى وقت بلغ فيه الشر ذروته .. وعلا القبح والشرك إلى قمته .

تقول أم أيمن ـ رضى الله عنها :

كـانـوا فـى الجـاهلية .. يجعلـون لـهم عـيدا عند ـ بوانة ـ وهو صنم من أصنام مكة .. تعبده قريش وتعظمه .. وتنسك له ـ أى تذبح عنده ـ وتحلف به .. وتعكف عليه يوما إلـى الليل .. فى كل سنة .. فكان أبو طالب يحـضره مع قومه .. ويكلم رسول الله أن يحضـر ذلك العيد معه .. فيأبى ذلك .

قـالـت : حـتى رأيت أبا طـالب غـضب علـيـه .. ورأيت عمـاته غضبن عليه أشد الغـضب .. وجعلن يقلن: إنا نخاف عليـك مما تصنع .. فى اجتناب آلهـتنا ..وما تريد يا محمد أن تحـضر لقومك عيدا .. ولا تكثر لـهم جمعا .. فلم يزالوا به حتى ذهب معهم .. ثم رجع فـزعا مرعوبا .. فقلن: مادهاك؟.

فـقـال: أخشـى أن يكون بى لمم ـ مس الشـيطان ـ فقلن: مـا كان الله ليبـتليك بالشيطان .. وفيك من خـصال الخير مـا فيك .. فما الذى رأيت : فـقال: إنى كلما دنوت من صـنم .. تمثل لـى رجل أبيـض طويل .. يصـــيـح بى «وراءك يا محمد لا تمسه ».

قالت: فما عاد إلى أصنامهم .. حتى تنبأ.

❊ ❊ ❊

وقـد سئـل ـ عليه الصـلاة والسـلام ـ **هل عـبدت وثنا؟ .. أو شربت خمرا؟ .. قال:**

«مازلت أعرف أن الذى هم عليه كفر .. وما كنت أدرى ما الكتاب ولا الإيمان».

كما قال أيضا :

«لما نشأت بغضت لى الأصنام والشعر».

فهو من ناحية الخلق .. وصفه الله تعالى بقوله :

(وإنك لعلى خلق عظيم)(١).

وإذا وصـف الله ـ تعـالى ـ شيـئا بالعظمـة .. وقف أمامـه القلم .. وسكت اللسان .. وسجـد العقل .. فكيف يحـيط العـقل بشىء وصفـه الله ـ تعـالى بالعظمـة .. والله وحده هو الذى بكل شىء محيط ؟.

أسمى ما يصل إليه البيان فى وصفه :

أنه مـاسة فـريدة .. مـتـعددة الزوايا والأضـلاع .. يعطى كل ضلـع منهـا شعـاعـا من أشعـة الطيف .. فـإذا نظرت إليها جـميعا .. بهـرتك ألوان الطيف بسناها الأخاذ .. فلا تدرى من أيها تأخذ.

❊ ❊ ❊

وأما عن عقله الراجح .. وذكائه اللماح .. وفطنته النفاذه .. وحكمتـه البالغة .. فحـدث عنها بما شئت .. من حكيم تصرفـه فى الأمور .. وجميل تدبيـره فى الملمات .. وعمـيق نظره فى حل المشكلات ..وإليك واحـدة من هذه المشاكل .. التى كـادت الحرب تنشب ضروسا بين القـبائل بسببـها .. **لنرى كيف اسـتعـمل فيهـا بصيـرته .. وأعمل خيالها حسن تدبيره .. وابتكر لحلها فكرة لم تخطر ببال .. ولم يسبق خياله إليها خيال.**

❊ ❊ ❊

(١) ٤ - القلـم .

حول بناء الكعبة

اعتلى أبو أمية ـ حذيفة بن المغيرة ـ كومة من الأنقاض ـ وكان أكبر قريش سنا .. وقد اشتد النزاع بين القبائل .. والتقوا بالسيوف .. أيهم يضع الحجر الأسود فى مكانه وقال:

«يا معشر قريش .. كلكم فى السؤدد سواء .. والغالب اليوم منكم مغلوب .. توبوا إلى أنفسكم ودعوا الفصل فيما اختلفتم فيه لأول قرشى يدخل علينا الآن من باب الصفا .. فإما رفعه هو بيديه .. أو قضى لنا بمن يرفعه ولا تعقيب لحكمه».

وقبل الجميع هذا الرأى .. حقنا للدماء .

ـ ١٦ ـ

حول بناء الكعبة

يقـول الله ـ تعـالى ـ : (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين) (١).

ومعنى هذا أنه موجـود من أيام آدم ـ عليه السلام ـ ويتبادر إلى كـثيـر من الأذهان ـ خطأ ـ أن إبراهيم ـ عليـه السلام ـ هو أول من بنى البيت .. وأنـساهم الشيطان تلك الآية .. التى افتتحنا بها هذا الموضوع.

ولعل هذا الـلبس .. هو الذى جـعل الأسـتـاذ عبدالوهاب النجار .. يقول فى كتابه :

«قـصص الأنبياء» تعـليقـا على قـوله على لسـان إبراهيم .. عندما ترك ابنه الوحيد مع أمه هاجر .. فى مكان البيت : (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم)(٢) .

فيـقول بالنص : «ويظهـر لى أن إبراهيم دعـا بهذا الدعاء بعد بناء البيت (٣) ».

وإنما الحقـيقة أن إبراهيم ـ عـليه السلام ـ قـالها .. بعد أن ترك زوجـته هاجر ووليدها فى هذا المكان القـفر .. كمـا هو واضح .. فى حديث ابن عباس .. الذى أخـرجه البخارى (٤) .

وكـــان لديه علـم من الله .. بأن هنا مكـان بيت الله الحرام .. من عهد أبيـه آدم .. ولكنه مطمور .. تحت الرمال .. بتراكم السنين.. وتتابع الأجيـال .. وقد ذكرنا فى كتابنا من ـ أنباء الرسل ـ فى نبـأ نوح ـ أن سفينته طافت بركـابها حول البيت سبع مرات بفعل «الدوامة» التى كانت فوقه .. حيث لم يغـرقه الطوفان .. وكان ذلك قـبل إبراهيم ـ عليه السلام ـ.

وفى أيام إبراهيم ـ عليه السلام ـ أمـر الله سبحانه ـ الرياح السافيات .. فـانتزعت الرمال التى قرت على مكان البيت الأول .. الذى عـبدالله فيه لأول مـرة .. واحدا أحدا .. فردا صمدا لا شـريك له .. وانكشفت قواعده لإبراهيم .. ليـقـيـمـهـا ويرفـعـهـا هو وابنه إسـمـاعـيل .. يقـول

(١) ٩٦ آل عمران .

(٢) ٣٧ ـ إبراهيم

(٣) قصص الأنبياء للنجار ص ١٠٣ ط ٣ .

(٤) ذكرنا الحديث كاملا فى كتابنا ـ من أنباء الرسل ـ من نبأ إسماعيل .

الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

«وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود»(١).

وفى موقع آخر .. يقول ـ سبحانه وتعالى - «وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل»(٢).

ومعنى هذا .. أن إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - كانت مهمتهما رفع قواعد البيت.. وليس تأسيسها .. كما فهم البعض.

وقد جاء فى كتاب - زاد المعاد - لابن قيم الجوزية .. حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذى جاء فى الصحيحين.. عن أبى ذر.. قال: سألت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن أول مسجد وضع فى الأرض.. قال: «المسجد الحرام» قلت : ثم أى؟ .. قال: «المسجد الأقصى» .. قلت : كم بينهما ؟ .. قال: «أربعون عاما».

ثم علق على هذا الحديث بقوله : وقد أشكل هذا الحديث على من لم يعرف المراد به .. فقال: معلوم أن سليمان بن داود . هو الذى بنى المسجد الأقصى .. وبينه وبين إبراهيم أكثر من ألف عام .. وهذا من جهل القائل ـ وما زال الكلام هنا لابن الجوزية ـ فإن سليمان إنما كان له من المسجد الأقصى تجديده لا تأسيسه .. والذى أسسه هو يعقوب بن إسحاق .. بعد بناء إبراهيم الكعبة بهذا المقدار.

وإلى هنا انتهى تعليق ابن قيم الجوزية (٣) .

ونحن نقول .. تعليقا على هذا التعليق .. إن إبراهيم ـ عليه السلام ـ لم يؤسس المسجد الحرام .. ـ كما ذكرنا ـ وإنما رفع قواعده فقط ولم يؤسسه .. لقوله تبارك وتعالى:

«إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا» .. ومادام هو أول بيت .. لزم أن يكون موجودا .. من أيام آدم .. وكان يعبد الله فيه .. وكما قال أيضا :

«وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل» فكونهما يرفعان قواعده .. لا تدل على أنهما أسسا تلك القواعد .

وأمام هذا الواقع .. كيف نفهم حديث أبى ذر ـ رضى الله عنه ـ الذى قال فيه : إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عندما سأله : كم بين بناء المسجد الحرام والمسجد الأقصى قال أربعون عاما»؟.

وسواء كان مؤسس المسجد الأقصى سليمان أو يعقوب .. فبين يعقوب بن إسحاق وبين آدم آلاف السنين؟.

والحقيقة .. التى أجمع عليها أئمتنا المفسرون .. أن سليمان هو الذى بنى المسجد الأقصى .. وبعضهم يقول أسسه داود ..وبناه سليمان .. والإجماع حجة .

ولو فرضنا صحة رأى ابن قيم الجوزية .. فى أن الذى بناه يعقوب .. وقد تحقق لنا أن المسجد الحرام موجود من أيام آدم .. لأن الله ـ تعالى ـ هو الذى يقول ذلك .. وقول الله لا يقبل الاحتمال أو الشك .. فكيف نفهم أن المدة بين المسجدين أربعون عاما ؟.

كل هذه الخواطر .. جالت بنفسى .. وجعلتنى أشك فى صحة نص الحديث .. فرجعت إليه فى صحيح البخارى .. فوجدت نصه عند ابن الجوزية يزيد كلمة عن النص الأصلى فى صحيح البخارى .. وتلك الكلمة التى زيدت .. هى التى أوجدت هذا اللبس .

حيث كان رد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أبى ذر .. عندما سأله: كم بينهما ؟

قال : «أربعون» (٤) .. ولم يقل أربعون يوما ..ولا أسبوعا .. ولا شهرا .. ولا عاما .. ولا قرنا .

ونحن نرجح أن المقصود هنا ـ أربعون قرنا ـ وهى المدة الفعلية .. بين آدم وسليمان ـ وصدق رسول الله.

وأريد أن أقدم للقارىء صورة موجزة عن الكعبة .. التى رفع إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ قواعدها.

فعلى ما رواه الأزرقى .. فى تاريخه .. عن ابن إسحاق .. أن الخليل جعل ارتفاعها تسعة أذرع .. وطولها من الشرق اثنان وثلاثون ذراعا .. ومن الغرب إحدى وثلاثون ذراعا .. أما عرضها فى الشمال فكان اثنان وعشرون ذراعا .. ومن الجنوب عشرون ذراعا.

(١) ٢٦ - الحج .

(٢) ١٢٧ - البقرة .

(٣) زاد المعاد جـ ١ ص ٢١ ط الحلبى سنة ١٩٧١ .

(٤) صحيح البخارى جـ ٤ ص ١٩٧ .. ط الشعب .

وجعل الباب لاصقا بالأرض .. غير مرتفع عنها.. ولا مبوب .. حتى جعل لها تبع الحميرى بابا.

ومقام إبراهيم ـ عليه السلام ـ بإزاء وسط البيت الذى فيه الباب.

وبعد أن رفع إبراهيم وإسماعيل قواعد البيت .. استقبل إبراهيم اليمن والمشرق والمغرب والشام .. فدعا إلى الحج .. فقيل : لبيك اللهم لبيك .. وذلك قوله تعالى:

«وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق» (١).

وروى أنه لما قال الله ـ تعالى ـ له «وأذن فى الناس بالحج» قال: يارب . وما مدى صوتى؟.

فقال الله ـ تعالى ـ له: «يا إبراهيم عليك الأذان وعلينا البلاغ».

وكل أمة فى الأرض تحترم هذا البيت وتقدسه .. حتى اليهود والنصارى والصابئة والمجوس .

وبقيت الكعبة .. إلى أن بلغ ـ صلى الله عليه وسلم ـ خمسا وثلاثين عاما .. قبل بعثه بخمس سنين .. فهدمها أهل مكة .. يريدون تجديد بنائها .

يقول رجال التاريخ .. وأصحاب السيرة :

إن الكعبة كانت رضما (٢) فوق القامة .. تصدعت بعض جدرانها .. بسبب سيل دخلها فخاف العرب أن تهدم .. وعزموا على بناء هذا البيت المقدس .. بيت أبيهم إبراهيم وأمهم هاجر أم إسماعيل .. الذى يطوفون به .. ويؤمه جميع القبائل العربية .. من جميع أرجاء الجزيرة .. المترامية الأطراف .. والذى جعلت لهم سدانته وسقاية حجيجه ورفادة أهله شأنا عظيما بين العالم ..ولهذا أجمعوا على بنائه على أحدث أساليب البناء وأن يسقفوا الكعبة .. حتى لا تظل كما كانت عارية معرضة للأعاصير .

ولم يكن فى مكة بناء يحسن البناء بالحجر .. ولم يكن فيها من الأخشاب ما يصلح لما يبتغون .. وقد فكروا فى إرسال وفد منهم إلى مصر .. لشراء الأخشاب .. وليحضروا معهم من يحسن البناء .

وشاء الله ـ تعالى ـ أن يوفر عليهم هذا الجهد .. فدفعت الرياح سفينة محملة بالخشب ومعدات البناء .. كانت فى طريقها إلى الحبشة .. لبناء كنيسة هناك ..دفعتها الرياح إلى ميناء جدة .. فاصطدمت بالصخور صدمة شديدة أتلفت السفينة .. ولم تعد صالحة للسير بحملها .. وتكاتف أهل جدة على نقل حمولتها إلى الشاطىء .. فى قوارب صغيرة .. حتى يصلحوا ما أصاب السفينة من التلف.

وتسامع أهل مكة بخبرها .. فجاء وفد منهم لشراء ما يلزم الكعبة من هذا الخشب .. سواء رضى صاحبها أو لم يرض .. وقد أجاب صاحب السفينة طلبهم .. فور علمه بأنه للكعبة .. ـ بيت الله ـ

وكان من بين ركاب السفينة رجل رومى يدعى ـ باخوم ـ وكان رجلا وديعا .. طيب الخلق .. يدين بالمسيحية .. بدأ حياته بناء فى القسطنطينية .. ثم هاجر إلى مصر واشتغل بها بناء ونجارا فى عمائرها الضخمة .. ويبدو أنه كان فى السفينة .. فى طريقه إلى الحبشة .. لبناء الكنيسة بها .. وهو لا يدرى أنه قادم لأمر آخر ..وهو بناء بيت الله بمكة .. وقد شرح الله صدره لهذا الأمر.

وعندما بدأ البناء .. أهدوا ونحروا .. ودعوا وصلوا .. ورتبوا للخدمة فيها .. أبناء قريش الأكرمين .. فهم أحق بهذا الشرف من سائر قبائل العرب .

فكنت ترى بينهم : أبا طالب .. والعباس .. وحمزة .. ومحمدا .. من بنى هاشم .. وهم أصحاب السقاية .

وترى أبا سفيان بن حرب ..وأولاده .. من بنى أمية ..وهم أصحاب الراية .

وترى الحارث بن عامر .. وأهل بيته .. من بنى نوفل ..وهم أصحاب الرفادة (٢).

وترى عثمان بن طلحة ـ وعشيرته .. من بنى عبدالدار .. وهم أصحاب السدانة والحجابة ودار الندوة(٤) .

وترى يزيد بن زمعة بن الأسود .. من بنى أسد .. أصحاب الشورى.

---

(١) ٢٧ - الحج.

(٣) الرفادة بكسر الراء - خرقة يرقد بها الجرح

(٢) الرضم: حجارة فوق بعضها - من غير ملاط - مزنة.

(٤) خدمة الكعبة.

وترى أبا بكر.. وعبد الله بن جدعان.. من بنى تميم.. أصحاب الديات والمغارم.

وترى الوليد بن ربيعة.. وابنه خالد.. وعمرو بن هشام - أبا جهل - من بنى مخزوم.. أصحاب القبة والأعنة.

وترى الخطاب.. وابنه عمر.. وسعيد بن زيد بن نفيل.. من بنى عدى.. أصحاب السفادة(١).

كما ترى صفوان وإخوته .. من جمح .. أصحاب الأزلام والأقداح.

وترى الحارث بن قيس.. وعشيرته.. من بنى سهم .. ولاة الأموال المحجرة لآلهة قريش(٢).

ويبلغ البناء قدر قامة الرجل.. وأرادوا وضع الحجر الأسود فى مكانه بالركن الشرقى.. واختلفوا فيمن يكون له شرف رفعه ووضعه بيده فى البناء؟.

فادعى كل فريق منهم أنه أحق بهذا الشرف من سواه.. واحتدم الجدال.. واشتد الخلاف .. وتنافرت القلوب.. ووجد الشيطان ثغرة ينفذ منها بينهم .. ليشعل فيهم نيران الفتنة.

وظل هذا الخلاف خمس ليال .. بيتت فيها كل قبيلة أمرا لنيل ذلك الفضل .. وقرب بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما.. ثم تعاقدوا وتعاهدوا مع بنى عدى.. وأدخلوا أيديهم فى هذا الدم.. ثم التقى الجميع فى رحاب المسجد الحرام.. للفصل فى هذا الأمر بالسيف.

ولكن الله بالغ أمره.. ففوجىء الجميع بأبى أمية - حذيفة بن المغيرة - وكان أكبر قريش سنا .. يعتلى كومة من الأنقاض.. وينادى فى القوم:

«يا معشر قريش.. كلكم فى السؤدد(٣) سواء.. والغالب منكم فى هذا اللجاج مغلوب.. ثوبوا إلى أنفسكم.. ودعوا الفصل فيما اختلفتم فيه لأول قرشى يدخل علينا من باب الصفا.. فإما رفعه هو بيديه.. أو قضى لنا بمن يرفعه .. ولا تعقيب لحكمه».

وقبل الجميع هذا الرأى .. حقنا للدماء.. وعقبوا على قوله بالرضى.. واتجهت الأنظار كلها نحو باب الصفا.. ليروا أول قادم منه.

وأشرق نور من ناحية باب الصفا.. يسبق صاحبه.. كما يسبق القمر نوره قبل بزوغه.. ووجدوا الداخل منه - محمد بن عبد الله - فما وقعت أنظارهم عليه .. حتى بدت ملامح البشر على وجوههم .. وعلت الابتسامات فوق شفاههم .. ونطقت أفواههم فى صوت واحد: الأمين.. الأمين.. إذ هكذا كان يدعى فى قريش .. ثم أخبروه بما اتفقوا عليه.

وهنا يبرز نظره الثاقب.. وحكمته البالغة.. فطلب منهم ثوبا.. فرشه فى وسطهم.. وأخذ الحجر .. فوضعه فى وسط الثوب .. ثم قال: «لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب.. ثم ارفعوه جميعا».

ففعلوا .. ولما بلغوا به موضعه .. وضعه بيده فى مكانه.. وبنى عليه .. بين تهليل الناس وفرحهم .. مع الثناء على حسن تصرف محمد وحكمته.

وكأنهم بأصوات تتجاوب من حول المطاف.. من جهاته الأربع .. بعضها تلو بعض .. الله أكبر .. الله أكبر .. يا معشر قريش .. ويا أبناء إبراهيم.. ليكن هذا اليوم فاصلا بين أمسكم وغدكم،، طهروا هذا البيت.. مما طهره منه إبراهيم.. واعبدوا الله وحده.. لا تشركوا به أحدا .. وكسروا هذه الأصنام الصماء .. التى تعدون هذا البيت ليحملها.. فقد كسرها قبلكم أبوكم إبراهيم.

فمن هم أصحاب تلك الأصوات.. التى تجاوبت حول الأركان الأربعة؟.

أجمعت كتب السيرة .. على أنهم الأربعة الباحثون عن دين إبراهيم .. قبل مبعث الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهم :

١- زيد بن عمرو بن نفيل: وهو عم عمر بن الخطاب.. الذى ورد عنه فى الأثر: أنه يبعث يوم القيامة أمة وحده.. فقد وقف ولم يدخل يهودية ولا نصرانية.. وفارق دين قومه .. فاعتزل الأوثان.

٢- ورقة بن نوفل: وهو ابن عم السيدة خديجة .. صار حكيما فى النصرانية.. واتبع الكتب فى أهلها .. حتى علم علما من أهل الكتاب.

---

(١) السفود - بوزن التنور - الحديدة التى يشوى بها اللحم.

(٢) الوقف.

(٣) الشرف.

٣- عبيد الله بن جحش: وكان أحد أقرباء السيدة خديجة .. فأقام على ما هو عليه من الالتباس.. حتى أسلم .. ثم هاجر إلى الحبشة مع المسلمين .. ومعه امرأته - أم حبيبة - بنت أبى سفيان مسلمة .. ثم تنصر وفارق الإسلام.. حتى هلك بالحبشة نصرانيا .. وتزوج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعده امرأته - أم حبيبة - رضى الله عنها.

٤- عثمان بن الحويرث: قدم على قيصر الروم.. فتنصر.. وحسنت منزلته عنده.

وكان لهم دعوة .. هى دعوة الحنفاء.. خاطبوا بها قريشا فى هذا الموقف:

«يا معشر قريش .. لقد أظلكم زمان يظهر فيه نبى من أنفسكم .. ورد ذكره فى التوراة والإنجيل .. له علامات ومخائل.. ولقد قضينا ما قضينا.. نتفحص الناس.. ونستهدى الأحبار والرهبان.. حتى عينوه باسمه وأرومته .. فعرفناه.. واطمأنت نفوسنا إليه .. وقد جئنا نشهدكم علينا قبل مبعثه .. إننا به مؤمنون .. وبدعوته مقرون.. فلا ندرى.. أنحيا حتى نلقاه .. ونشد أزره.. أم يقبضنا الله إليه فى الصديقين؟

يا معشر قريش.. ستكون لكم به الدنيا فارقبوه .. وستكون لكم الآخرة فاتبعوه».

وتلفت الناس .. يتعرفون القائلين .. فإذا هم شيوخ.. أولو وقار وكرامة فى قريش.. وهم معروفون بينهم أنهم يدينون بدين أبيهم إبراهيم .. خالصا من عبادة الأوثان.. ويحرمون على أنفسهم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام.. ويفتدون الموءودة .. ويدعون إلى عبادة الواحد الأحد القهار.

ولكن القوم كانوا لاهين بما هم فيه.. مصرين على وضع آلهتهم فى مكانها من الكعبة.. متمسكين بعبادة أصنامهم.. كما كان يعبدها آباؤهم.. فصموا عن هذا الدعاء.. وسخروا من أصحاب النداء .. وانبرى بعضهم بزعامة الخطاب - أبى عمر الفاروق - يسبون الشيوخ الأجلاء .. ويرمونهم بالحجارة.. ومازالوا يطاردونهم.. ويرجمونهم.. جزاء سبهم آلهتهم .. حتى أخرجوهم إلى ما وراء مكة.. فى طريق غار حراء.

وأصاب الإعياء كبيرهم - زيد بن عمرو بن نفيل.. وبرحت به جراح الرجم.. والآم الأذى .. حتى انتقل إلى جوار الله .. عقب هذا الحادث مباشرة.

وقد تحدثت كتب الأوروبيين .. عن هؤلاء الأربعة.

ولنا عودة إليهم .. فى الفصل القادم - إن شاء الله - لنزداد تعرفا على زيدبن نفيل.. الرجل الأمة.

وأتم باخوم بناء الكعبة .. على أحدث نظم البناء.. وكان باخوم فى نفس الوقت نجارا بارعا .. بما علم من فنون العمائر فى القسطنطينية ومصر.. فعهد إلبه الوليد بن المغيرة.. فى تسقيف الكعبة.. وصنع بابها .. فأقام السقف على أحسن وضع .. وطلاه بالشمع المذاب .. وصنع بابها على نحو ما كان يصنع فى مصر.. وفى بلاد الروم .. وفرحت قريش بصنعته.. وأجزلت له العطاء.

وظلت الكعبة بغير كسوة.

وقيل إن أول من كسى الكعبة بالحرير - نتيلة أم العباس - ضاع منها العباس وهو صغير .. فنذرت إن وجدته أن تكسو الكعبة بالحرير .. فوجدته ووفت بنذرها.

الرجل الأمة

روى زيد بن حارثة قال:
قال زيد بن عمرو بن نفيل.. لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبل بعثته:
خرجت من مكة .. أبحث عن دين الحنيفية - دين التوحيد - فقدمت على شيخ فى الحيرة .. فلما رآنى قال: ممن أنت؟.. قلت: أنا من أهل بيت الله الحرام .. من أهل الشوك والقرظ .. قال: إن الذى تطلب قد ظهر ببلادك.. قد بعث نبى طلع نجمه.
ثم قال زيد بن حارثة: ومات زيد بن عمرو.. ثم بعث النبى - صلى الله عليه وسلم - .
فقال النبى فى زيد بن عمرو:
«إنه يبعث يوم القيامة أمة وحده».

- ١٧ -

الرجـــل الأمـــة

قبل أن نتحدث عن - زيد بن عمرو بن نفيل - أريد أن أناقش بعض مـا قاله بعض الأوروبيين المستشـرقين .. عن الأربعة الباحثين عن دين إبراهيم.

فـقد قـال مستر - كـانون سل - فى كـتابه - حياة محمد - كثيرا من العبارات .. فيها تكلف ظاهر .. وافتراء لا يخفى على أحد .. فمثلا قال:

«قـال زيد وأصحـابه .. إنهم رغـبوا فى اتبـاع دين إبراهيم » ويقـول: «إنه يـظن أن مـحـمـدا أخـذ منهم هذه الفكرة» ثم يقول «بقى زيد حنيـفا .. وعاب على أهل مكة عبادة الأصنام .. فأثار ذلك غضـبهم .. وأرغموه على ترك مكة .. والإقامة فى جبل حراء ..وبعد أن أمضى هناك زمنا يفكر .. توفى ودفـن بأسـفل الجبل .. وقـد كـان له تأثيـر عظيم فى محـمد .. الذى كان يجل شأنه .. ويقـدره قدره ..ولا ريب أن هؤلاء الرجـال وأمـثـالـهم ذوى الخبـرة ..والعقول الراجحة .. كانوا كثيرا ما يتشاورون ويتحادثون فيما وصلت إليه حالة العرب الاجتماعية من الانحطاط .. ويأسفون لانتشار الوثنية وضعف مركزهم السياسى».

ثم انتقل - كانون سل - إلى عثمان بن الحويرث .. فقال:

«لم ينجح عثمان بن الحويرث .. فى تأسيس سلطة مـركزية.. لاعـتمـاده على دولة أجنبيـة هى الإمبـراطورية الرومانية ».

ثم تمادى - كانون سل - فى خبثه .. ليغلب الهدف السياسى لدى محمد .. فقال:

«ومع ذلك كانت الحـاجة تدعـوه إلى وجود سلطة مركزية .. والاعتراف بالكعبة .. وجعلها قوة دينية للعرب جـمـيـعا .. فـكيف الوصـول إلى ذلك ؟ .. وكـيف يمكن إبطال عبادة الأصنام؟».

وأخيرا قال : «وهنا سنحت الفرصة لظهور نبى .. وقد كان الاسـتعداد لظهوره قريبـا ..ولما لبث أن ظهر نبى قـوى الشخـصـيـة .. ذو فطنة سياسـيـة فائقـة .. برسـالة محدودة للأمة العربية » - أهـ -

ولا شك أن القـارىء الكريم .. قد لمس فـى كلام مستر - كانون سل - كثيرا من المغـالطات .. التى لا تحتاج إلى كثير من العناء فى دحضها وتكذيبها .

فـهـو يـزعـم أن زيـدا وأصحـابه.. البـاحـثين عـن ديـن إبـراهيم هـم الـذين أثـروا علـى مـحـمـد

ـ صلى الله عليه وسلم ـ فحذا حذوهم .. ونهج نهجهم ..وهذا ادعاء باطل لا يقوم على أساس .. فلم يثبت مطلقا . أن محمدا كان يتصل بزيد وصحبه .. مع أن حياته فصلت تفصيلا دقيقا .. حتى فى أقل الأمور وأبسطها ..ولم يثبت أن رسول الله التقى بزيد إلا مرة واحدة .. سيأتى ذكرها .. عندما نعود للقاء زيد فى نهاية هذا الموضوع .

لم نسمع أنه كانت له اجتماعات أو مناقشات .. لا فى الأمور الدينية ولا السياسية .. بل كان دائما يحب العزلة والبعد عن الناس ـ «وسل» نفسه لم ينكر أن زيدا كان مضطهدا مبعدا عن مكة .. ولو كان لمحمد اتصالات به لحدثتنا عنها الكتب .. فهى لم تترك من حياته صغيرة ولاكبيرة إلا أحصتها وأشبعتها بحثا وتفصيلا .

ان ما جاء به محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليس فكرة .. تأثر بها من زيد .. أو من بحيرا .. أو غيرهما .. فقد كان محمد أميا .. لا يعلم شيئا من القراءة والكتابة .. وجاء للبشرية بكتاب معجز .. فيه تفصيل كل شيء .. ولن يقبل أضعف العقول أن يكون هذا الكتاب نتيجة جلسات مع زيد .. أو مناقشات مع عمرو .. إنه كتاب جامع للخوارق .. فصاحة وبلاغة .. وحكما بالغة .. وأمثالا محكمة .. وتاريخا صادقا دقيقا.

حول الأنبياء والأمم .. وأنباء عن المستقبل .. وبيانا لجميع الروابط .. التى تربط الإنسان بربه وبنفسه وبالمجتمع الذى يعـ[illegible]ـش فيه .. هل يظن عقل مهما كان مريضا .. أنه نتيجة جلسات مناقشات؟

كما نريد أن نصحح مفهوم ـ سل ـ فى أن محمدا جاء برسالة محدودة للأمة العربية .. فقد جاء محمد للناس كافة .. فى كل زمان وفى كل مكان .. وقد آمن به رسوله عيسى إن كان مسيحيا .. ورسوله موسى إن كان يهوديا .

ولا أريد أن أطيل النقاش مع ـ سل ـ لنتعرف على زيد بن عمرو بن نفيل .. ذلك الرجل الأمة .. كما قال رسولنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنه .

فهو زيد بن عمرو بن نفيل بن عبدالعزى بن رباح ابن عبدالله بن قرط بن رزاح بن عدى ابن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك القرشى .. والد سعيد بن زيد ـ أحد العشرة المبشرين بالجنة ـ وابن عم عمر بن الخطاب .. يجتمع هو وعمر فى ـ نفيل ـ

سئل عنه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: «يبعث أمة وحده يوم القيامة».

وكان يتعبد فى الجاهلية .. ويطلب دين إبراهيم ـ الخليل ـ عليه السلام ـ ويوحد الله تعالى ـ ويقول: إلهى إله إبراهيم .. ودينى دين إبراهيم ..وكان يعيب على قريش ذبائحهم .. ويقول: الشاه خلقها الله .. وأنزل لها من السماء ماء .. وأنبت لها من الأرض كلأ.. ثم تذبحونها على غير اسم الله ـ تعالى ـ ؟.. إنكارا لذلك .. وإعظاما له.

وكان لا يأكل مما ذبح على النصب الأوثان ـ

واجتمع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بزيد ابن عمرو مرة بأسفل ـ بلدح (١) ـ قبل أن يوحى إليه .

فعن زيد بن حارثة .. قال: خرجت مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوما حارا من أيام مكة ـ وهو مردفى ـ فلقينا زيد بن عمرو بن نفيل ـ فحيا كل واحد منا صاحبه .. فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ **«يا زيد مالى** أرى قومك قد شنفو (٢) لك؟».

قال: والله يا محمد .. إن ذلك لغير نائلة ترة (٣) لى فيهم .. ولكن خرجت أبتغى هذا الدين الذى أبتغى .. فخرجت .. فقال لى شيخ منهم ؟ إنك لتسأل عن دين ما نعلم أحدا يعبد الله به إلا شيخا بالحيرة .. قال: فخرجت حتى أقدم عليه .. فلما رأنى قال: ممن أنت؟ قلت : أنا من أهل بيت الله .. من أهل الشوك والقرظ (٤) .. قال: إن الذى تطلب قد ظهر ببلادك .. قد بعث نبى قد طلع نجمه .. وجميع من رأيتهم فى ضلال .. قال: فلم أحس بشيء.

ثم قال زيد بن حارثة : ومات زيد بن عمرو .. وأنزل على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال النبى فى زيد: «إنه يبعث يوم القيامة أمة وحده».

---

(١) بلدح : واد قبل مكة من جهة الغرب .

(٢) أى أبغضوك.

(٣) ثـأر.

(٤) القرظ ـ بفتح الراء ـ ورق السلم «يدبغ به كالشوك».

وقال أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ يذكر اجتماعه بزيد بن عمرو :

«كنت جالسا بفناء الكعبة .. وكان زيد بن عمروبن نفيل قاعدا .. فمر به أمية بن أبى الصلت .. فقال: كيف أصبحت يا باغى الخير ؟ .. قال: بخير.. قال: هل وجدت؟ قال: لا .. ولم آل من طلب ..ثم قال:

كل دين يوم القيامة إلا
ما قضى الله والحنيفة بور

أما آن هذا النبى الذى ينتظر منا .. أو منكم .. أو من أهل فلسطين .

يقول أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ ولم أكن سمعت من قبل ذلك بنبى ينتظر أو يبعث .. فخرجت أريد ورقة ابن نوفل .. وكان كثير النظر فى السماء .. كثير همهمة الصدر .. فاستوقفته ثم قصصت عليه الحديث .. فقال: نعم يا ابن أخى .. أبى أهل الكتاب والعلماء إلا أن هذا النبى الذى ينتظر .. من أوسط العرب نسبا .. ولى علم بالنسب .. وقومك أوسط العرب نسبا .. قلت: يا عم ..وما يقول النبى؟ .. قال: يقول ما يقال له ـ أى يوحى إليه ـ إلا أنه لا ظلم ولا تظالم.

فلما بعث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ آمنت وصدقت .

ومن أسماء بنت أبى بكر .. قالت : رأيت زيد بن عمرو بن نفيل .. مسندا ظهره إلى الكعبة ..يقول: يا معشر قريش .. والذى نفس زيد بيده .. ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيرى .

وكان يقول: اللهم لو أنى أعلم أحب الوجوه إليك .. عبدتك به .. ولكنى لا أعلمه .. ثم يسجد على راحته .

وقال ابن إسحاق : حدثنى بعض آل زيد .. كان إذا دخل الكعبة قال: «لبيك حقا حقا.. تعبدا ورقا .. عذت بما عاذ به إبراهيم» . ويقول وهو قائم:

«أنفى لك عان راغم .. مهما تجشمنى فإنى جاشم .. البر أبغى لا الملل .. وهل مهجر (١) كمن قال» (٢) ؟

وكان الخطاب بن نفيل .. قد أذى زيد بن عمرو ابن نفيل .. حتى خرج إلى أعلى مكة .. فنزل حراء مقابل مكة .. ووكل به الخطاب شبابا من شباب قريش .. وسفهاء من سفهائهم .. فلا يتركونه حين يدخل مكة .. وكان لا يدخلها إلا سرا منهم .. فإذا علموا به أذنوا الخطاب . فأخرجوه وآذوه كراهية أن يفسد عليهم دينهم .. وأن يتابعه أحد منهم على فراقهم.

وتوفى زيد ـ رضى الله عنه ـ قبل مبعث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما قدمنا ـ وجاء فى تاريخ القرون الوسطى .. لجامعة ـ كمبردج ـ أن زيدا مات فى صبا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

ولما مات زيد .. رثاه ورقة بن نوفل .. قال:

رشدت وأنعمت بن عمرو وإنما
تجنبت تنورا من النار حاميا

بدينك ربا .. ليس رب كمثله
وتركك أوثان الطواغى كما هيا

وقد يدرك الإنسان رحمة ربه
ولو كان تحت الأرض ستين واديا

وكان زيد يقول:

«يا معشر قريش إياكم والرياء .. فإنه يورث الفقر».

رضى الله عن زيد بن عمرو ـ فإنه حقا كان أمة وحده .

* * *

(١) السائر فى الهجير .

(٢) المقيم فى ظلال القيلولة .

علـى مشـارف النبـوة

قال سلمة بن سلامة بن وقش :

كنت غـلاما .. وجـاءنا يهـودى وقف على القـوم وقـال : نبى مبعـوث من نحـو هذه البـلاد ..وأشـار بيـده إلـى مكة واليـمن .. قـالوا: ومـتى نراه؟ .. فـنظر إليّ وقـال: إن يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه.

فوالله مـا ذهب الليل والنهار .. حـتى بعث الله رسوله محـمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ فآمنا به .. وكفر به اليـهودى .. وكان مازال بين أظهـرنا .. فـقلنـا له: ألست أنت الذى قلت لنا فيه قريبا ما قلت ؟ ..

قال : بلى .. ولكن ليس هو ذاك.

- ١٨ -

علـى مشـارف النبـوة

يقـول الله ـ تعالى ـ توبيـخا لأهل الكتـاب .. على كفرهم برسوله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإنكارهم لبعثه .. بعد أن رواه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل .. وبعد أن تحدثوا عن قرب ظهوره .. ولهجوا بذكره .. فى كل مكان حول مكة .. وفى كثير من أنحاء الجزيرة العربية:

«يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون» (١) .. أى تشهدون آيات ظهوره .. وعلامات بعثه .. على ما هو مكتوب .. فى كتبكم المقدسة ؟.

كما يقول سبحانه : «ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين»(٢).

ويستفتحون : أى يستنصرون أو يتحاكمون .. بمعنى أن اليهود كانوا يتوعدون العرب .. عندما يظهر النبى المنتظر .. فينصر اليهود عليهم .. لأنهم أهل كتاب .. وأنهم يؤمنون بالله.

يقول ابن إسحاق :

حدثنى عاصم بن عمر بن قتاده .. عن رجال من قومه .. قالوا :

إن مما دعانا إلى الإسلام .. مع رحمة الله وهداه لنا .. ما كنا نسمع من رجال يهود .. وكنا أهل شرك وأصحاب وثنية .. وكانوا أهل كتاب .. عندهم علم ليس لنا .. وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور .. فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون .. قالوا لنا : إنه قد تقارب زمان نبى يبعث الآن .. نقتلكم معه قتل عاد وإرم .. فكنا كثيرا ما نسمع ذلك منهم .. فلما بعث الله رسوله أجبناه حين دعانا إلى الله .. وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم (٣) إليه .. فآمنا به .. وكفروا به .

كما يقول ابن إسحاق: حدثنى صالح بن عبدالرحمن ين عوف .. عن سلمة بن سلامة بن وقش .. وكان سلمة من أصحاب بدر.. قال:

كان لنا جار من اليهود.. فى بنى عبدالأشهل .. قال: فخرج علينا يوما من بيته .. حتى وقف على باب بنى عبد الأشهل .. قال سلمة :

* * *

(١) ٧٠ - آل عمران .

(٢) ٨٩ - البقرة .

(٣) سبقناهم .

وأنا يومئذ من أحدث من فيه سنا .. على بردة لى **مضطجع فيها بفناء أهلى .. فذكر القيامة** والبعث .. والحساب والميزان .. والجنة والنار.

قال: فقال ذلك لأهل شرك .. أصحاب أوثان .. لا يرون أن بعثا كائنا بعد الموت .. فقالوا له : ويحك : أترى هذا كائنا .. أن الناس يبعثون بعد موتهم .. إلى دار فيها جنة ونار.. ويجزون فيها بأعمالهم؟ .. قال: نعم .. والذى يحلف به .. ولو دان له بحظه من تلك النار أعظم تنور فى الدنيا يحمونه .. ثم يدخلونه إياه فيطينونه عليه .. بأن ينجو من تلك النار غدا.

فقالوا له :ويحك يافلان .. فما آية ذلك؟ قال: نبى مبعوث من نحو هذه البلاد .. وأشار بيده إلى مكة واليمن .. قالوا: ومتى نراه ؟ .. قال: فنظر إلىّ .. وأنا أحدثهم سنا .. فقال: أن يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه .

قال سلمة : فوالله ما ذهب الليل والنهار .. حتى بعث الله رسوله محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو بين أظهرنا .. فآمنا به .. وكفر به بغيا وحسدا .. قال: فقلنا له : ويحك يا فلان .. ألست بالذى قلت لنا فيه قريبا ما قلت؟.. قال : بلى .. ولكن ليس به .

ويستطرد ابن إسحاق .. فيقول: حدثنى عاصم بن عمر بن قتادة .. عن شيخ من بنى قريظة قال: قال لى: هل تدرى عم كان إسلام ثعلبة بن سعية .. وأسد بن عبيدة ؟ .. نفر من هذل أخوة بنى قريظة .. كانوا معهم فى جاهليتهم .. ثم كانوا سادتهم فى الإسلام.

قال: قلت : لا والله ..

قال: فإن رجلا من يهود .. من أهل الشام . يقال له: ابن الهيبان .. قدم علينا قبل الإسلام بسنتين .. فحل بين أظهرنا .. لا والله ما رأينا رجلا قط يصلى أفضل منه .. فأقام عندنا .. فكنا إذا قحط عنا المطر .. قلنا له: اخرج يا ابن الهيبان فاستسق لنا .. فيقول: لا والله حتى تقدموا بين يدى مخرجكم صدقة .. فنقول له كم ؟ .. فيقول: صاعا من تمر .. أو مدين من شعير .. قال: فنخرجها ..ثم يخرج بنا إلى ظاهر حرتنا .. فيستسقى الله لنا .. فوالله ما يبرح مجلسه .. حتى يمر السحاب ونسقى .. قد فعل ذلك غير مرة . ولا مرتين . ولا ثلاثا .. ثم حضرته الوفاة عندنا .. فلما عرف أنه ميت .. قال: يا معشر اليهود .. ما ترونه أخرجنى من أرض الخمر والخمير .. إلى أرض البؤس والجوع؟ .. قلنا : أنت أعلم.. قال: فإنى قدمت هذه البلدة .. أتوكف خروج نبى .. قد أظل زمانه.. وهذه البلدة مهاجره.. فكنت أرجو أن يبعث فأتبعه .. وقد أظلكم زمانه .. فلا تسبقن إليه .. يا معشر اليهود.. إنه يبعث بسفك الدماء.. وسبى الذرارى والنساء ممن خالفه .. فلا يمنعكم ذلك من اتباعه.

فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاصر بنى قريظة .. قال هؤلاء الفتية .. يتقدمهم ثعلبة بن سعية.. وأسد بن عبيد .. وكانوا شبابا أحداثا .. يا بنى قريظة .. والله إنه للنبى الذى كان عهد إليكم فيه ابن الهيبان .. قالوا: ليس هو .. قالا: والله إنه هو بعينه . فنزلوا فأسلموا .. فأحرزوا دماءهم وأموالهم وأهليهم.

※ ※ ※

ولعل العرب من كثرة ما سمعوا عن قرب ظهور النبى .. على لسان الكهان والرهبان.. وكان بعض هؤلاء يذكره باسمه محمدا . وهو اسم جديد بين العرب لم يسمسوا به من قبل .. دفع هذا بعض العرب إلى أن يسمى ابنه محمدا . أملا فى أن يكون هو هذا النبى المنتظر .. فسمى به قبل مبعث النبى .. على ما ورد فى طبقات ابن سعد:

محمد بن خزاعى بن حزابه.. من بنى ذكوان . من بنى سليم .. طمعا فى النبوة .. فأتى إبرهة فى اليمن .. واعتنق دينه .. وعنه يقول أخوه قيس بن خزاعى:

فذلكم ذو التاج منكم محمد

ورايته فى حومة الحرب تخفق

وسمى به أيضا فى بنى سواءة محمد الجشمى .. وكذلك محمد الفقمى .. محمد الأسيدى.

كلهم سمى بهذا الاسم طمعا فى النبوة .. ولم يكن هذا الاسم معروفا بين العرب قبل هذا الحين .. مما يدل دلالة ملموسة.. على صدق نبوته عليه الصلاة والسلام.

وفى إسلام سلمان الفارسى - رضى الله عنه - الكثير من الأدلة الناطقة .. والبراهين الصادقة على صدق رسالة محمد - عليه الصلاة والسلام -.

※ ※ ※

فقد كان أبوه مجوسيا معروفا فى بلاد فارس .. وسلمان لم يعرف النبى .. إلا بالعلامات التى أخبره بها من لقيهم من الرهبان .. الذين خدمهم واحدا بعد واحد.. إلى أن لقى النبى . صلى الله عليه وسلم ـ

بعد أن هرب من أبيه باحثا عن الحقيقة .. وتلك قصة جميلة .. ورحلة عجيبة .. لا بأس أن نعيش فيها لحظات .. مع الرجل الذى قال عنه رسولنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ «سلمان منا أهل البيت».

وفيه أيضا قال:

«لو كان الإيمان بالثريا لناله رجال من فارس» وأشار ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى سلمان رضى الله عنه .

ولنستمع إلى قصته .. منه هو:

عن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ قال: حدثنى سلمان الفارسى . وأنا أسمع من فيه ..

قال: كنت رجلا من أهل فارس .. من أصبهان ـ من جى ـ من رجل من دهاقينها (١) .. وكنت أحب خلق الله إليه ـ فأجلسنى في البيت كالجوارى .. فاجتهدت فى الفارسية .. أو قال فى المجوسية .. وكان أبى صاحب ضيعة .. وكان له بناء يعالجه .. فقال لى يوما: يا بنى قد شغلنى ما ترى .. فانطلق إلى الضيعة .. ولا تحتبس (٢) فتشغلنى عن كل ضيعة بهمى بك . فخرجت لذلك .

فمررت بكنيسة النصارى وهم يصلون .. فملت إليهم .. وأعجبنى أمرهم .. وقلت هذا والله خير من ديننا .. فأقمت عندهم حتى غابت الشمس .. لا أنا أتيت الضيعة ولا رجعت إليه .. فاستبطأنى وبعث رسلا فى طلبى.

وقد قلت للنصارى حين أعجبنى أمرهم .. أين أصل هذا الدين؟.. قالوا بالشام .. فرجعت إلى والدى .. فقال: يابنى قد بعثت إليك رسلا.. فقلت: مررت بقوم يصلون فى كنيسة.. فأعجبنى أمرهم.. وعلمت أن دينهم خير من ديننا .. فقال: يا بنى دينك ودين آبائك خير من دينهم .. فقلت: كلا والله .. فخافنى وقيدنى .. فبعثت إلى النصارى وأعلمتهم ما وافقنى من أمرهم .. وسألتهم إعلامى بمن يريد الشام .. ففعلوا .. فألقيت الحديد من رجلى .. وخرجت معهم .. حتى أتيت الشام . فسألتهم عن عالمهم .. فقالوا: الأسقف .. فأتيته فأخبرته .. وقلت: أكون معك أخدمك وأصلى معك .. قال: أقم.. فمكثت مع رجل سوء .. كان يأمرهم بالصدقة .. فإذا أعطوه شيئا أمسكه لنفسه .. حتى جمع سبع قلال مملوءة ذهبا وورقا (٣).

فتوفى فأخبرتهم بخبره .. فزجرونى .. فدللتهم على ماله .. فصلبوه ولم يغيبوه (٤) ورجموه .. وأجلسوا مكانه رجلا فاضلا فى دينه زهدا ورغبة فى الآخرة وصلاحا.. فألقى الله حبه فى قلبى .. حتى حضرته الوفاة .. فقلت: أوصنى .. فذكر رجلا بالموصل.. وكنا على أمر واحد .. حتى هلك.

* * *

فأتيت الموصل .. فلقيت الرجل.. فأخبرته بخبرى.. وأن فلانا أمرنى بإتيانك .. فقال: أقيم .. فوجدته على سبيله وأمره.. حتى حضرته الوفاة .. فقلت له: أوصنى .. فقال: ما أعرف أحدا على ما نحن عليه.. إلا رجلا بعمورية(٥).

فأتيته بعمورية .. فأخبرته خبرى .. فأمرنى بالمقام .. وثاب لى شيئا .. واتخذت غنمات وبقرات.

وحضرته الوفاة .. فقلت: إلى من توصى بى؟ .. قال: لا أعلم اليوم أحدا على مثل ما كنا فيه.. ولكن أظلك نبى .. يبعث بدين إبراهيم – الحنيفية - مهاجره بأرض ذات نخل.. وبه آيات وعلامات لا تخفى .. بين منكبيه خاتم النبوة .. يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة.. فإن استطعت فتخلص إليه .. ثم توفى.

فمر ركب من العرب – من بنى كلاب – فقلت أصحبكم وأعطيكم بقراتى وغنمى هذه.. وتحملونى إلى بلادكم .. فحملونى إلى – وادى القرى - فباعونى من رجل من اليهود .. فرأيت النخل.. فعلمت أنه البلد الذى وصف لى .. فأقمت عند الذى اشترانى.

وقدم عليه رجل من بنى قريظة .. فاشترانى منه .. وقدم بى المدينة فعرفتها بصفتها.. فأقمت معه أعمل فى نخله .. وبعث الله نبيه – صلى الله عليه وسلم – وغفلت ذلك حتى قدم المدينة .. فنزل فى بنى عمرو بن عوف.

فإنى لفى رأس نخلة .. إذ أقبل ابن عم لصاحبى(٦).. فقال: أى فلان .. قاتل الله بني قيلة(٧) .. مررت بهم آنفا .. وهم مجتمعون على رجل قدم عليهم من مكة .. يزعم أنه نبى.

---

(١) الدهقان فى فارس: هو شيخ القرية.

(٢) تتأخر.

(٣) فضة.

(٤) يدفنوه.

(٥) بفتح العين وتشديد الميم: بلد من بلاد الروم – فتحها المعتصم سنة ٢٢٣ هـ.

(٦) كان ذلك يوم ٢ يوليو ٦٢٢ م. الجمعة ١٦ ربيع الأول رابع يوم لوصول النبى إلى المدينة.

(٧) أهل المدينة – العرب.

فوالله ما هو إلا أن سمعتها.. فأخذني القر (١) .. فرجفت بي النخلة .. حتى كدت أسقط .. ونزلت سريعا .. فأقبلت على عملي حتى أمسيت .. فجمعت شيئا .. فأتيته به .. وهو بقباء عند أصحابه .. فقلت: اجتمع عندي شيء أردت أن أتصدق به .. فبلغني أنك رجل صالح .. ومعك رجال من أصحابك ذوو حاجة .. فرأيتهم أحق به .. فوضعته بين يديه .. فكف يده .. وقال لأصحابه: كلوا فأكلوا .. فقلت: هذه واحدة.

ورجعت .. وتحول إلى المدينة .. فجمعت شيئا .. فأتيته به .. فقلت: أحببت كرامتك .. فأهديت إليك هدية.. وليست بصدقة .. فمد يده فأكل وأكل أصحابه .. فقلت: هاتان اثنتان. ورجعت - فأتيته وقد تبع جنازة .. في بقيع الغردق (٢) .. وحوله أصحابه .. فسلمت وتحولت أنظر إلى الخاتم في ظهره .. فعلم ما أردت .. فألقى رداءه .. فرأيت الخاتم .. فقبلته وبكيت .. فأجلسني بين يديه .. فحدثته بشأني كله .. كما حدثتك يا ابن عباس .. فأعجبه ذلك .. وأحب أن يسمعه أصحابه.

ففاتني معه بدر وأحد وأنا في الرق .. فقال لي: كاتب ياسلمان عن نفسك (٣).. فلم أزل بصاحبي حتى كاتبته.. على أن أغرس له ثلاثمائة ودية (٤) .. وعلى أربعين أوقية من الذهب.. فقال النبي لأصحابه: أعينوا أخاكم بالنخل.. فأعانوني بالخمس والعشر.. حتى اجتمع لي .. فقال: أنقر لها .. ولا تضع منها شيئا حتى أضعه بيدي.. ففعلت .. فأعانني أصحابي حتى فرغت.. فأتيته.. فكنت آتيه بالنخلة فيضعها ويسوى عليها ترابا.. فأنصرف .. والذي بعثه بالحق فما ماتت منها واحدة.. وبقي الذهب.

فبينما هو قاعد .. إذا أتاه رجل من أصحابه .. بمثل البيضة من ذهب .. أصابه من بعض المعادن.. فقال: ادع سلمان المسكين الفارسي المكاتب .. فقال: أد هذه(٥).

* * *

تلك قصة إسلام ـ سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ ولعل القارىء يلمس فيها الصدق وعدم المبالغة فهو رجل نشأ من صباه على التدين.. يبدو هذا من ميله إلى صلاة النصارى في كنيستهم .. وخروجه من الرفاهية ورغد العيش في ضيعة أبيه وماله ومركزه الاجتماعي في بلده .. وشرد نفسه في أرض الله .. يخدم هذا وذاك .. بحثا وراء الحقيقة .. التي انشغل بها قلبه .. وملكت عليه جوانحه .. كما يبدو صدقه وتقواه .. ويقظة ضميره وزهده .. في إبلاغه عن تلك القلال السبع .. المملوءة بالذهب والفضة .. والتي اغتصبها أسقف الشام من مال الصدقات .. ولم يعلم بها سواه .. وكان في استطاعته أخذها لتساعده على إكمال رحلته .. التي خرج في سبيلها.

وهذا ظاهر أيضا في تنازله عن غنماته وبقراته لركب بني كلاب .. نظير صحبتهم ليحملوه إلى بلاد العرب.

لقد كان سلمان ـ رضي الله عنه ـ من أقرب الناس إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ صحابيا جليلا فاضلا زاهدا قويا .. وهو الذي أشار على الرسول بحفر الخندق يوم الأحزاب .. وأخذ الرسول برأيه .. وكانت فكرته هذه سببا في حماية المسلمين من أذى الكفار.

قالت أم المؤمنين عائشة :

«كان لسلمان مجلس من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالليل .. حتى كان يغلبنا على رسول الله ».

وسئل علي ـ رضي الله عنه ـ عن سلمان .. فقال:

«علم العلم الأول والعلم الآخر .. وهو بحر لا ينزف .. وهو منا أهل البيت »

* * *

توفي سنة ٣٥هـ .. في نهاية خلافة عثمان .. وقيل إنه عاش ٣٥٠ سنة..

أما كونه عاش ٢٥٠ سنة .. فلا يشكون فيه .. فهو من معمري المسلمين.

---

(١) الرعشة من البرد .

(٢) مقبرة بالمدينة.

(٣) أي ـ اشتر نفسك من صاحبك.

(٤) صغار النخل .

(٥) أسد الغابة لابن الأثير.

إلى غــار حــراء

قــال ـ عليــه الصــلاة والســلام ـ لزوجــه خــديجــة .. وهو يرتــعش .. «أخـــشى يا خديجة أن يكون مـا أصابنى رئيا من الجن» .. وكـان ـ عليه الصـلاة والسلام .. مـازال يرى جبـريل .. الذى هبط عـليـه فى تلك الليلة بأول ما هبط به من الوحى.

ولكن السيدة خـديجة ـ رضى الله عنها ـ عرفت أنه مـلاك وليس شيطانا .. فـقالت: والله يا محمـد .. لا يخزيك الله أبدا .. إنك لتصل الرحم .. وتصدق الحديث .. وتحمل الكل .. وتقرى الضـيف وتعين على نوائب الحق.

فكيف عرفت السيدة خديجة أنه ملاك؟

ـ ١٩ ـ

إلى غار حراء

نشأ ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى مكة .. فوجد قومه يعبدون الأصنام والأوثان .. ولا فرق بين الصنم والوثن . غير أن الصنم هو الصورة من غير جثة .. أما الوثن فهو كل ماله جثة مصنوعة من معادن الأرض .. كالنحاس والفضة . أو من الخشب والحجارة كصورة الآدمى.. تصنع وتنصب وتعبد (١).

وكان السبب فى ترك العرب لدين أبيهم إبراهيم .. ولجوئهم إلى الأوثان والأصنام وعبادتها من دون الله . أن حروبا قامت بين نسل إسماعيل .. بعد أن كثروا .. وضاقت بهم مكة .. فخرج الكثير منهم إلى الصحراء وشعاب الجبال .. ودفع هؤلاء حبهم وتقديسهم لبيت جدهم إبراهيم وأبيهم إسماعيل .. أنه لم يهاجر منهم أحد من مكة .. إلا أخذ معه حجرا من أحجار الحرم .. تعظيما للبيت .. وحبا فيه .. وتقديسا له .. وتيمنا به .. فكان يطوف بالحجر طوافه بالكعبة

ثم تطور الحال إلى عبادة ما أحبوا .. ونسوا ما كانوا عليه .. واستبدلوا بدين إبراهيم .. عبادة الأصنام والأوثان.

وكان أول من غيَّر دين إبراهيم وإسماعيل..فنصب الأوثان حول الكعبة..وسيب السائبة..ووصل الوصيلة..وبحر البحيرة..وحمى الحامية(٢)..هو عمرو بن

(١) أسد الغابة .. لابن الأثير.

(٢) السائبة المنذورة فى البرء من المرض ـ أو العودة من السفر .. يكون الوفاء بتركها سائبة لا تركب ولا تذبح ولا تمنع عن ماء أو مرعى.

الوصيلة : السابع من بطون الشاة إذا كانت أنثى .. تترك بدون نفع .. ولا تمنع عن ماء أو مرعى .. فيقولون: وصلت أخاها .. لأن البطن السابع إذا كان ذكرا أكلوه.

البحيرة : الناقة إذا ولدت خمسة أبطن .. خامسها ذكر .. بحروا أذنها «شقوها» .. وتترك كالسائبة والوصيلة .. بدون ركوب أو ذبح أو منع عن ماء أو مرعى.

الحام: هو الفحل من الإبل .. إذا أنتج من صلبه عشرة أبطن .. قالوا: حمى ظهره . فلا يركب .. ويترك بدون ذبح أو منع عن ماء أو مرعى.

وقد منع الإسلام كل هذا .. بقوله تعالى (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام .. ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون) (١٠٣ ـ المائدة).

لحى بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدق .. وهو أبو خزاعة .. حارب جرهما بنى إسماعيل .. وانتصر عليهم .. وأجلاهم عن الكعبة .. ونفاهم من مكة .. وتولى حجابة البيت بعدهم.

ثم مرض مرضا شديدا .. فقيل له: إن بالبلقاء من الشام ـ رحمة ـ أى ماء حار .. إن أتيتها برأت .. فأتاها فاستحم بمائها فبرأ .. ووجد أهلها يعبدون الأصنام .. فسأل عنها .. فقالوا نستسقى بها المطر .. ونستنصر بها على العدو .. فطلب بعضها فأعطوه .. فقدم بها مكة .. ونصبها حول الكعبة .. كما قيل أنهم أعطوه ـ هبل ـ فقدم به مكة .. فوضعه عند الكعبة .. فكان أول صنم وضع بمكة.

حدثنى الكلبى .. عن أبى صالح عن ابن عباس ..قال:

قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ :« رفعت لى النار .. فرأيت عمرا ـ أى عمرو بن لحى ـ رجلا قصيرا أزرق يجر قصبه فى النار. قلت: من هذا؟ .. قيل هذا عمرو بن لحى .. أول من بحر البحيرة .. ووصل الوصيلة .. وسيب السائبة .. وحمى الحامية .. وغير دين إبراهيم .. ودعا العرب إلى عبادة الأوثان».

شب ـ عليه الصلاة والسلام ـ فوجد بجانب ـ «هبل» ـ فى مكة ـ «أساف ونائلة» ـ تعبدهما خزاعة وقريش .. ومن يحج البيت من العرب .. ينحرون عندهما .. ووجد ـ «مناة» ـ منصوبا على ساحل البحر الأحمر .. بين مكة والمدينة .. ووجد ـ «اللات» ـ بالطائف ـ و«العزى» ـ بوادى نخلة الشآمية .. وكثرت الأصنام حول الكعبة .. وكانوا يسمونها ـ الأنصاب.

وقد بلغ عددها يوم فتح مكة ـ ثلاثمائة وستون صنما ـ أخرجت من المسجد وأحرقت بأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

وكان فى كل بيت من بيوت مكة صنم لأهله .. يتبركون به فى غدوهم ورواحهم .. فآخر شيء يعمله الرجل عند سفره .. هو التمسح به .. والتضرع إليه .. ليحفظه ويرعاه .. ويوفقه فى سفره .. وأول ما يصنع عند عودته .. هو الركوع له وشكره .

هكذا رأى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قومه .. وقد هاموا فى أصنام لا تسمع ولا تبصر .. وأوثان لا تنفع ولا تضر .. وأحجا ر لا تدرك مما يدور حولها شيئا.

كما كان بين العرب .. من يعتقد التناسخ .. وانتقال الأرواح فى الأجساد .. ومنهم من ينسب الأمراض إلى الجان .. فعبدوها .. وبهذا تعددت آلهتهم وتشعبت عباداتهم.

نفر ـ عليه الصلاة والسلام ـ من كل تلك العبادات .. وحببت إليه الخلوة والوحدة .. يأنس إلى زوجه الرءوم الحنون ـ خديجة ـ وقد أحبته .. وفنيت فيه .. حبا وفناء ملك عليها كل شيء.

فإذا جاء شهر رمضان من كل عام .. تركها وخرج ليلا هائما على وجهه ناحية حراء .. فتسرع الخطو خلفه على البعد .. فتراه يتسلق الصخور .. صاعدا إلى أعلى الجبل .. وترى على البعد ومضات فسفورية .. تومض فى ظلمة الليل .. نتيجة احتكاك قدميه بالصخر .. فتتبع هذا الأثر .. حتى تراه وقد وصل إلى الغار ..وجلس شاخصا بصره فى السماء .. منطلقا إلى أبعاد الفضاء.

فتعود إلى بيتها .. حيث تعد له شيئا من الطعام والماء .. وتحمله بنفسها إلى الغار .. وتضع ما معها بجانبه .. وهو هائم فيما هو فيه من نظر وتطلع .. لا يدرى بها .. ولا يحس بوجودها .. ثم تعود إليه فى نفس الموعد من الليلة القابلة .. ومعها طعام جديد.. وماء جديد . .فتجد ما وضعته بالأمس لم يمس .. فتأخذ القديم وتضع الجديد.

وهكذا حتى ينقضى شهر رمضان .. ثم يعود إليها أشد صفاء .. وأنقى قلبا .. وأكثر شفافية .. زوجا مخلصا وفيا .. ولهذا كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقول:

«كنت أنقطع إلى ربى فيطعمنى ويسقينى».

وظل حاله مع زوجته .. ومع نفسه .. ومع ربه .. هكذا .. حتى أتم الأربعين من عمره .

وعلى رأس هذا العام الجديد ـ تمام الأربعين ـ فى شهر ربيع الأول .. الذى ولد فيه .. وهو رأس الكمال ـ أحس ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى نفسه أمرا غريبا .. فكان يرى فى نومه ما سيحدث فى غده .. كانت الرؤيا تأتى كفلق الصبح .. ولهذا كانت الرؤيا جزءا من ستة وأربعين جزءا من الوحى .. بمعنى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يتلقى الوحى بالرؤيا ستة أشهر .. ومدة

رسالته ثلاث وعشرون سنة .. فكانت هذه هي النسبة بين الرؤيا والوحي.

فقد روى عوف بن مالك .. عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال:

«**الرؤيا ثلاث** : منها أهاويل الشيطان ليحزن ابن آدم .. ومنها ما يهتم به في يقظته .. فيراه في منامه .. ومنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة».

كما قيل للإمام مالك: أيعبر الرؤيا كل أحد ؟ .. فقال: أيلعب بالنبوة؟.. لا يعبر الرؤيا إلا من يحسنها .. فإن رأى خيرا أخبر به .. وإن رأى مكروها . فليقل خيرا أو ليصمت .. فقيل له : أيعبرها على الخير.. وهي عنده على المكروه .. لقول من قال: إنها على ما تأولت عليه ؟ .. فقال : لا .. الرؤيا جزء من النبوة .. فلا يتلاعب بالنبوة.

ومعنى هذا .. أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد تلقى الوحي بالرؤيا .. وهو في تمام الأربعين قمريا .. بغير زيادة ولا نقص .. وهذا السن هو سن الكمال.

وحل رمضان هذا العام .. فخرج إلى الغار .. كما يخرج كل عام .. غير أنه لم يكمل الشهر .. كما كان يفعل في كل مرة .

فبينما السيدة ـ خديجة ـ جالسة في دارها .. وقد فر منها النوم .. في تلك الليلة .. فرار الغزالة من أسد يطاردها .. وقد عاشت بأحاسيسها ووجدانها .. مع زوجها ـ محمد ـ.

ويفجأها دخوله عليها .. يرجف جسمه .. وترتعش أوصاله . وهو يقول لها : زمليني . زمليني .

فقامت لاهفة عليه .. تلفه وتزمله .. وهي تقول: مالك يا محمد؟ .. فقال لها : أخشى يا خديجة أن يكون ما أصابني رئيا من الجن ـ أي شيطانا عارضا ـ أما ترينه يا خديجة ؟ .. وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ مازال يرى جبريل .. الذي هبط عليه في تلك الليلة .. بأول ما هبط من الوحي.

وهنا يبرز ذكاء السيدة خديجة وفطنتها .. ويظهر إرهاف حسها .. وسرعة بديهتها .. فقالت له : هل تراه الآن يا محمد؟ .. قال: نعم.

فأرادت أن تعمل اختبارا .. لهذا الذي يراه محمد الآن .. لتعلم هل هو شيطان أوملاك. فأجلسته ـ عليه الصلاة والسلام ـ على فخذها اليمنى ..وسألته : أمازلت تراه؟ .. قال : نعم .. فنقلته على فخذها اليسرى وسألته نفس السؤال .. فقال: مازلت أراه .. فنقلته على حجرها .. واحتضنته من الخلف .

فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ لقد اختفى .

فقالت: والله إنه لملاك .. ولو كان شيطانا لما استحى .. ثم قالت قولتها المشهورة.

والله يا محمد .. لا يخزيك الله أبدا .. إنك لتصل الرحم .. وتحمل الكل .. وتكسب المعدوم .. وتقري الضيف .. وتعين على نوائب الحق.

فماذا رأى ـ عليه الصلاة والسلام ـ في غار حراء .. في تلك الليلة؟.

* * *

سماء العزة فى قلب محمد

ما الهدف من غط الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ثلاث مرات .. فى أول ليلة هبط عليه الوحى فيها .. يؤمر في كل مرة بالقراءة .. فيقول: ما أنا بقارئ .. وفى المرة الثالثة .. قال له جبريل: (اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق* اقرأ وربك الأكرم)

كانت الأولى : للتكوين

وكانت الثانية : للتدوين.

وكانت الثالثة : للتبيين

ـ ٢٠ ـ
سماء العزة فى قلب محمد

يقـول أغلب المؤرخين: إن بدء الوحى .. كـان فى يوم الاثنين لسبع عشـرة خلت من رمـضان للسنة الحـادية والأربعين مـن مـولده .. فكـانت سنه فـى تلك الليلة .. أربعين سنة قـمرية وسـتـة أشهـر .. وأيام .. وهو يوافق ٦ أغسطس ٦١٠م .. وهو بغار حراء.

ولنسـتمـع إلى أم المؤمنين ـ عائشـة ـ تروى لنا مـا حدث فى تلك الليلة .

ففى صـحيح البخارى (١) .. عن عـائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت:

«أول مابدىء به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم .. فكان لا يرى رؤيا إلا جـاءت مثل فلق الصـبح .. ثم حبب إليـه الخلاء .. وكـان يخلو بغـار حراء (٢) .. فـيتـحنث (٣) فـيه الليـالى ذوات العـدد .. قبل أن ينزع (٤) إلى أهله .. ويتـزود لذلك .. ثم يرجع إلى خديجة .. فيتزود لمثلها .. جاءه الحق(٥) .. وهو فى غار حراء .. فجاءه الملك (٦) .. فقال له : اقرأ .. فقال : مـا أنا بقارىء . قال: فأخذنـى فغطنى (٧) حتى بلغ منى الجهـد .. ثم أرسلنى فقال: اقرأ .. فـقلت : ما أنا بقارىء .. فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد .. ثم أرسلنى فـقال: اقـرأ .. فقلـت: ما أنا بقـارىء .. فأخـذنى فغطنى الثـالثة .. ثم أرسلنى فقـال: «اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم».

فرجع بها (٨) رسـول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يرجف فؤاده .. فدخل علـى خديجة بنت خـويلد ـ رضى الله عنها ـ فقال: زملونى زملونى (٩) .. فزملوه حتى ذهب عنه الروع .. فقال لخديجة .. وأخبرها الخبر .. لقد خشيت على نفـسى .. فقـالت خـديجة : كـلا والله ما يخـزيك الله أبدا.. إنك لتصل الرحم.. وتحمل الكل (١٠) .. وتكسب المعـدوم .. وتقـرى (١١) الضـيف .. وتعين عـلى نوائب الحق.

---

(١) صحيح البخارى جـ ١ ص ٣ ط الشعب
(٢) حراء جبل بينه وبين مكة ثلاثة أميال .. على يسار الذاهب إلى منى.
(٣) يتعبد.
(٤) يرجع.
(٥) الوحى.
(٦) جبريل.
(٧) ضمنى وعصرنى.
(٨) أى بالآيات.
(٩) غطونى من الرعدة .
(١٠) المتعب.
(١١) تكرم.

فانطلقت به خديجة .. حتى أتت به ورقة بن نوفل ابن أسد بن عبدالعزى ابن عم خديجة .. وكان امرأ نصرانيا .. قد تنصر في الجاهلية .. وكان يكتب الكتاب العبرانى .. فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب .. وكان شيخا كبيرا .. قد عمى . فقالت له خديجة: يابن عم .. اسمع من ابن أخيك .. فقال له ورقة: يا ابن أخى ماذا ترى؟ .. فأخبره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خبر ما رأى .. فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزل على موسى .. ياليتنى فيها جذعا(١) .. ليتنى أكون حيا حين يخرجك قومك .. فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: أو مخرجى هم؟ قال: نعم .. لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى .. وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا (٢) .. ثم لم ينشب ورقة أن توفى .. وفتر الوحى (٣) » - أهـ .

ونريد الآن أن نناقش هنا معا .. الهدف من غط الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ثلاث مرات .. يؤمر فى كل مرة منها بقول جبريل له: اقرأ .. فيقول : ما أنا بقارىء .. أو ماذا أقرأ؟ كما ورد فى بعض الروايات الأخرى.

لابد أن يكون لهذا التكرارحكمة .. تقتضى منا التدبر والتفكر .. والله ـ سبحانه ـ أمرنا بتدبر الآيات «أفلم يدبروا القول » (٤) و «كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته » (٥).

فنرى السهيلى يقول: إن الغط ثلاثا . إشارة إلى أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحصل له شدائد ثلاث:

فكانت الأولى : إدخال قريش له فى الشعب .. والتضييق عليه .

والثانية : اتفاقهم على قتله .

والثالثة : خروجه من أحب البلاد إليه .

ولكن هل الشدائد فى حياة الرسول ..يمكن حصرها .. فى تلك الشدائد الثلاث فقط ؟.

إن حياته ـ عليه الصلاة والسلام ـ كلها شدائد .. لأنه قمة البشرية كلها ـ فلزم أن يكون بلاؤه قمة البلاء.. وصبره قمة الصبر.

ويدعونا هذا الأمر .. إلى تحليل عبارة ذكرتها فى تقديم هذا الكتاب .. حول هذا الموقف بالذات .. وهى : كانت اقرأ الأولى للتكوين .. واقرأ الثانية للتدوين .. واقرأ الثالثة للتبيين.

وأسأل الله ـ تعالى ـ أن يعيننا على توضيح هذا الأمر .. فهو خطير .. وأن يعصمنا من الزلل ويحفظ أفكارنا من نزغات الشياطين.

فقد مسست هذاالموضوع مسا خفيفا فى التقديم .. لأثبت أن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ فذ فى حياته . ليس لأحد عليه فضل مطلقا .. مات أبوه .. ثم أمه .. حتى لا يكون لأب ولا لأم عليه فضل التربية .. واختاره ربه أميا .. لا يعرف القراءة والكتابة ..حتى لا يكون لمعلم عليه فضل التعليم .. وليقول صادقا: «أدبنى ربى فأحسن تأديبى».. وليقول الله ـ تعالى له ـ: «وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما»(٦).

وقد تعرضنا لموضوع أميته ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى الموضوع الحادى عشر .. عند وفاة أمه وجده .. وافترضنا أن سائلا قد يسأل : ألم يكن جبريل معلما له؟

وأثبتنا بما لا يقبل الشك .. أن جبريل ـ عليه السلام ـ لم يكن تنزله عليه بالقرآن عن طريق السمع .. بمعنى أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يسمع الآيات من فم جبريل فيحفظها .. ثم يمليها على كتبة الوحى ـ كما يفهم الكثير من الناس ـ كلا .. وإنما كان تنزل جبريل عن طريق القلب وجبريل لا يعلم عن الآيات شيئا ـ كحامل الخطاب لا يدرى ما فيه ـ فالله ـ تعالى يقول : «نزل به الروح الأمين على قلبك » (٧) ولم يقل على سمعك.

لقد كان تتنزل الروح الأمين ـ جبريل ـ على القلب الأمين ـ قلب محمد ـ بالآيات التى يريد الله ـ تعالى ـ تبيانها للناس .. وجبريل فى تلك اللحظة .. لا يعلم عنها شيئا .. لأنه لم يتم إخراجها بعد . فيحصل التفاعل فى بؤرة قلب الرسول . هذا القلب الذى يشهد القرآن الكريم .. أنه أقوى من الجبال .. حيث يقول ـ جل شأنه ـ :«لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا» (٨).

---

(١) شابا .

(٢) نصرا شديدا.

(٣) احتبس مدة.

(٤) ٦٨ - المؤمنون .

(٥) ٢٩ - ص .

(٦) ١١٣ - النساء.

(٧) ١٩٤ - الشعراء

(٨) ٢١ - الحشر .

ولكن قلب محمد .. قال الله عنه: (نزل به الروح الأمين على قلبك) .. وتحمله .. وإن كان جسمه كان يهتز .. كريشة فى مهب الريح .. ويتفصد جبينه الشريف بالعرق يتساقط كحبات اللؤلؤ المنضود .. فالله ـ سبحانه ـ هو الذى يخرج الآيات .. عبر لسان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

فقد كان صدره الشريف .. يرى الآيات مشهودات .. قبل أن تبرز إلى الأسماع ألفاظا وعبارات .. فالقرآن بالنسبة إليه شهادة ورؤية .

بل المفروض أن يكون بالنسبة للمؤمن شهادة ورؤية أيضا .. لقوله تعالى:

(إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد)(١)

فلم يكتف هنا بالسماع فقط .. بل لابد من الشهادة البصرية الروحية .

ولعله ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان فى بعض الأحيان .. يريد إخراج تلك المشهودات .. حرصا منه عليها .. فيقول الله ـ تعالى ـ له: (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه)(٢).

ويقول له أيضا فى نجم آخر: (لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه)(٣).

أى علينا قراءته .. فلا شأن لك بتحريك لسانك .. (وإظهار الحروف والكلمات .. فهذا من عملنا نحن .. لأن القرآن الكريم ـ كلام الله ـ جل وعلا.

ويزداد الأمر وضوحا .. فى الآية التالية :

(فإذا قرأناه) نحن يا محمد (فاتبع قرآنه) أنت ومن اتبعك من المؤمنين (٤).

فإذا فهمنا هذا .. استطعنا أن نبرز الحكمة من تكرار كلمة ـ اقرأ ـ بعد الضم والاعتصار .. فى حديث حراء .. ثلاث مرات .. فكانت «اقرأ الأولى» لتكوين هذا الصدر الكريم .. وإعداده .. حتى يكون أرضا خصبة صالحة للإنبات .. وليكون ذلك القلب لائقا مستعدا .. مستقبلا مستمدا .. ويصير صفحة بيضاء نقية .. تمهيدا لكلمة «اقرأ الثانية» حيث يجرى فى تلك الصفحة قلم القدرة الإلهية .. لتدوين ما شاء ـ سبحانه ـ من آيات محكمات.. وبصائر بينات.. ويكون قلبه – عليه الصلاة والسلام – هو بيت العزة.. الذى نزل فيه القرآن جملة بمعانيه الكلية.. وليس بيت العزة هو السماء الدنيا كما يفهم البعض.. فلا شك أن قلب محمد أعز من السماوات كلها.. فمن نوره خلقت السماوات والأرض والكائنات.. كما جاء فى الصحاح.. والآية صريحة فى قوله تعالى:

(نزل به الروح الأمين على قلبك) نزل به كله أولا.. جملة واحدة.. على هذا القلب الكبير.

وننتقل إلى الغاية المطلوبة.. والغرض المنشود.. فى كلمة «اقرأ الثالثة» لتبيين تلك الآيات.. بحسب مواقعها ومواضعها.. على مدى ثلاث وعشرين سنة.. مفتتحا باسم الله الرحمن الرحيم - ليكون محمد رحمة للعالمين .. ولتكون أيضا (اقرأ باسم ربك الذي خلق) هى أول ثمرة تنبتها تلك الأرض الخصبة .. التى هى صدر محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ من فيض المزن الهتون .. الهاطل من سماء العزة .. التى هى قلبه القوى الكبير.

ولهذا قلنا :

اقرأ الأولى : للتكوين .. والثانية: للتدوين .. والثالثة : للتبيين.

كان أول أمر من أمور التبيين : (اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق) فقد مر الإنسان بالأطوار التكوينية للكيان الإنسانى.. حيث بدأ الخلق من علق .. ثم انتهى إلى هدف التكوين .. عندما قال: (علم الإنسان ما لم يعلم) .. وكان هذا كرما منه ـ سبحانه ـ (اقرأ وربك الأكرم) .. وهل يوجد أكرم من فيض قدسى .. ثقيل الوزن .. ينصب على قلب .. ليفعمه بالمعرفة .. ويملأه بالعلم .. ليعلم ما لم يكن يعلم .. ويشهد ما لم يكن يشهد .. فى جميع الشئون .. وفى (ليلة مباركة إنا كنا منذرين .. فيها يفرق كل أمر حكيم) (٥) .. نعم كل أمر .. والكلية واضحة هنا .. فقد تلقى فيها المعانى الكلية للكتاب المكنون .. المعانى وليست الألفاظ . فالنص يقول: (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) أنزلناه كله .. على قلب

---

(١) ٣٧ - ق

(٢) ١١٤ - طه

(٣) ١٦ - القيامة .

(٤) راجع الموضوع الحادى عشر من هذا الكتاب بعنوان «بلاء الأنبياء».

(٥) أول الدخان.

أقوى من الجبال .. ولا نريد هنا دليلا (إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا) (١) .

إنه قول ثقيل .. لأنه تركيز تام للمعانى الكلية .. التى سيتلقاها منصوصة منجمة .. مفصلة على الوقائع والأحداث .. فى مدى ثلاث وعشرين سنة .

ولعلنا ندرك الآن معنى تنزل جبريل ـ عليه السلام ـ بالوحى من ربه .. على قلب نبيه .. لتبيين الآيات التى يريد الله ـ تعالى ـ إنباتها وتبيينها وإظهارها .. ليهدى بها من يشاء من عباده.

ونفهم أيضا ما ورد من أن جبريل ـ عليه السلام ـ كان أول ما يسمع الآية من فم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم .

ونفهم كذلك أن «اقرأ الأولى» كانت للتكوين .. «والثانية» للتدوين .. «والثالثة» لـلتبيين ..حيث يمليها على كتبة الوحى.

وكتبة الوحى هم :

أبو بكر .. وعمر .. وعثمان . .وعلى .. والزبير .. وأبى بن كعب بن قيس .. وزيد بن ثابت .. ومعاوية بن أبى سفيان .. ومحمد بن سلمه .. والأرقم بن أبى الأرقم .. وأبان بن سعيد بن العاص .. وأخوه خالد بن سعيد وثابت بن قيس .. وحنظلة بن الربيع .. وخالد بن الوليد.. وعبدالله بن رواحة .. وعبدالله بن زيد بن عبدربه .. والعلاء بن عتبة .. والمغيرة بن شعبة (٢).

وقد ذكرهم بعض رجال السيرة .. بهذا النص: ولم يذكر بينهم : محمد بن سلمه .. والأرقم بن أبى الأرقم .. وأبان بن سعيد .. وعبدالله بن زيد .. والعلاء بن عتبة .. وزادوا: عامر بن فهيرة .. وعمرو بن العاص .. رضى الله عنهم جميعا (٣) .

ونعود إلى نهاية حديث حراء .. الذى روته أم المؤمنين عائشة .. حيث كانت نهايته :

«وفتر الوحى» أى احتبس مدة .

فقد جاء فى صحيح البخارى بعد حديث السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ : قال:

وقال ابن شهاب وأخبرنى ابن سلمة بن عبدالرحمن .. أن جابر بن عبدالله الأنصارى قال وهو يحدث عن فترة الوحى (٤) .. فقال فى حديثه عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم :

«بينما أنا أمشى إذ سمعت صوتا من السماء .. فرفعت بصرى .. فإذا الملك الذى جاءنى بحراء ..جالس على كرسى بين السماء والأرض .. فرعبت منه .. فرجعت فقلت زملونى .. فأنزل الله تعالى : (يا أيها المدثر . قم فأنذر .. وربك فكبر .. وثيابك فطهر .. والرجز فاهجر) (٥) .. فحمى الوحى وتتابع» ولم يذكر لنا الحديث شيئا عن المدة التى فتر فيها الوحى عن رسول الله .. بعد النبتة الأولى .. التى هى :

(اقرأ باسم ربك الذى خلق .. الخ)

وإن كان يفهم من بين سطور الحديث أنها كانت مدة طويلة.

وجاء فى كتاب ـ الأنوار المحمدية ـ للنبهانى .. أن الإمام البخارى .. روى فى ـ التعبير ـ نفس حديث أم المؤمنين ـ عائشة ـ بالنص .. ولكن زاد عليه .. بعد أن قال: « ولم ينشب ورقة أن توفى وفتر الوحى» قال: «وفتر الوحى فترة .. حتى حزن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما بلغنا حزنا غدا منه مرارا كى يتردى من رءوس شواهق الجبال .. فكلما أوفى بذروة جبل يلقى نفسه منه .. تبدى له جبريل .. فقال : يا محمد .. إنك رسول الله حقا .. فيسكن لذلك جأشه .. وتقر نفسه .. فيرجع .. فإذا طالت عليه فترة الوحى .. غدا لمثل ذلك .. فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال مثل ذلك (٦)» أ هـ.

ولكن القلب لا يرتاح لهذه التكملة الأخيرة .. التى رواها البخارى فى ـ التعبير ـ ولم ترد فى الصحيح ..لأنها كما ترى .. تتناقض مع حديث جابر الأنصارى .. الذى ذكرناه .. ويحدث فيه عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «فرفعت بصرى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض فرعبت منه» مما يدل على أنه لم يره .. إلا فى تلك المرة التى بدأ الوحى يتتابع بعدها .. وذلك بعد انقطاعه عنه مدة طويلة .

(١) ٥ - المزمل.

(٢) تاريخ دمشق للحافظ أبو القاسم.

(٣) زاد المعاد .. لابن قيم الجوزية .

(٤) فتوره واحتباسه .

(٥) المدثر.

(٦) محمد : لمحمد رضا ص ٦٧ والنبهانى ص ٣٩ .

ولا شك فى أنه ـ عليه السلام ـ حزن لانقطاع الوحى عنه مدة.. وراودته الظنون .. وتناوشته الأوهام والشكوك .. ولم يستطع إخفاء هذا الأمر فى نفسه ..حتى قال المشركون إن محمدا ودعه ربه وقلاه ـ أى هجره ـ فكان من أوائل السور التى نزلت بعد تلك الفترة .. سورة «الضحى» عرفه الله فيها .. أنه ما هجره هجر مودع وما أبغضه ..وقال له فيها : (وللآخرة خير لك من الأولى).

* * *

نبوءة .. ورسالة .. وصديق

نبوة .. ورسالة . وصديق

تنقسم مراتب دعوته ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى أربع مراتب:

المرتبة الأولى : النبوة .. وكانت الدعوة فيها سرا .. بين الصفوة السابقين.

المرتبة الثانية : إنذار عشيرته الأقربين وهى بدء رسالته .

المرتبة الثالثة : إنذار العرب قاطبة .

المرتبة الرابعة : إنذار جميع من بلغته الدعوة .. من الإنس والجن إلى آخرالدهر.

- ٢١ -

نبوة .. ورسالة .. وصديق

من الممكن تقسيم مراتب دعوته - عليه الصلاة والسلام - إلى أربع مراتب:

الأولى النبوة .. والثانية : إنذار عشيرته الأقربين. والثالثة: إنذار قوم ما آتاهم من نذير من قبله.. وهم العرب قاطبة. والرابعة: إنذار جميع من بلغته دعوته من الإنس والجن إلى آخر الدهر. فأما مرتبة النبوة: فقد تبين من جملة ما قاله .. أن نبوته سبقت رسالته .. فكان فى نزول - اقرأ - نبوته .. وبنزول - المدثر - بدء رسالته .. فكانت النبوة قبل الرسالة.

فأول من آمن به : صديقة النساء خديجة - رضى الله عنها - آمنت به .. وصدقت به . .من اللحظات الأولى من نبوته .. قال لها : خشيت على نفسى .. فقالت له: أبشر .. فوالله لا يخزيك الله أبدا .. مستدلة على ذلك بجميل صفاته .. وجليل أخلاقه ..وكريم خلاله .. وشجعته بأن لفتت نظره إلى أن من فيه تلك الشيم . لا يخزيه الله أبدا.

وأول رجل آمن به وصدقه بعد خديجة : أبو بكر الصديق - رضى الله عنه .

وأول صبى آمن به : على بن أبى طالب .. وسنه عشر سنين.

وأول من آمن من الموالى : زيد بن حارثة .. ومن العبيد : بلال بن رباح.

ثم أسلم : عثمان بن عفان .. والزبير بن العوام . .وعبدالرحمن بن عوف .. وسعد بن أبى وقاص .. وطلحة بن عبيد الله .

دعاهم أبو بكر إلى الإسلام .. فجاء بهم إلى رسول الله حين استجابوا له .. فأسلموا.

ثم أسلم أبو عبيدة عامر بن عبدالله بن الجراح .. وأبو سلمة .. ويقال إن إسلام أبى سلمة كان بعد تسعة أنفس .. كما أسلم الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى .. وعثمان بن مظعون الجمحى .. وأخوه : قدامة وعبدالله .. وعبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب .. وسعيد بن زيد وامرأته فاطمة .

كما يروى أن أول امرأة أسلمت بعد خديجة هى أم أيمن ..وأم الفضل زوج العباس .. وأسماء بنت أبى بكر.

ودخل فى الإسلام غير هؤلاء عدد قليل من الرجال والنساء.

وظلت الدعوة سرا بين هؤلاء الصفوة السابقين .. لمدة ثلاث سنين .. هى فترة النبوة ..يلتقون فيها برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى بيت الأرقم بن أبى الأرقم سرا .. فى جنح الليل .. ويفترقون قبل أن يظهر الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر.

ودار الأرقم بن أبى الأرقم . فى أصل جبل الصفا.

وكان المسلمون يؤدون صلاتهم .. فى الشعاب .. كانت الصلاة ركعتين ـ ولم تكن مفروضة .. فرأى بعض المشركين سعد بن أبى وقاص يصلى مع نفر من المسلمين فى بعض الشعاب .. فعابوا عليهم ما يصنعون .. وقاتلوهم .. فضرب سعد رجلا منهم فشجه .. وهو أول دم أهريق فى الإسلام .

فعند ذلك دخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو وأصحابه دار الأرقم .. مستخفين بصلاتهم وعبادتهم ثلاث سنين .. إلى أن أمره الله ـ تعالى ـ بإظهار دعوته.

* * *

وبدأت المرحلة الثانية : من مراتب الدعوة .. لينذر عشيرته الأقربين .. بأن أمر الله رسوله بأن يصدع بما جاء به .. ويواجه المشركين بأمر الله .. حيث يبدأ إنذار أهل مكة .

لقد أخفى دعوته من قبل .. وقصرها على هذا العدد القليل الذى اتبعه .. لا خوفا من الناس .. ولا خشية من بطشهم ..ولكن انتظارا لأمر الله بإظهار دعوته ..وإعلان دينه .. وتبليغ رسالته .. فلما أن نزل قوله تعالى :

(يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر) (١) .. ثم تتابع الوحى فنزلت:

(فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) (٢) .. أى لا تهتم بموقفهم من دعوتك .. ثم نزلت :

(وأنذر عشيرتك الأقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) (٣) .. حتى نادى قومه بالإسلام ودعاهم إلى الإيمان .

فصعد ـ عليه الصلاة والسلام ـ على الصفا .. وهو مكان مرتفع فى أسفل جبل أبى قبيس .. يواجه الكعبة من الشرق .. فقال : يا معشر قريش .. فقالت قريش : محمد على الصفا يهتف .. فأقبلوا واجتمعوا .. فقالوا : مالك يا محمد ؟.

قال: «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل .. أكنتم تصدقوننى؟؟»

قالوا : نعم .. أنت عندنا غير متهم .. وما جربنا عليك كذبا قط

قال: «فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد .. يا بنى عبدالمطلب .. يا بنى عبد مناف .. يا بنى زهرة» حتى عدد الأفخاذ من قريش «**إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين** .. وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة .. ولا من الآخرة نصيبا .. إلا أن تقولوا لا إله إلا الله ».

فقال أبو لهب : تبا لك سائر اليوم..ألهذا جمعتنا؟

* * *

فى أول تلك المرحلة .. لم يبعد عنه قومه .. ولم يردوا عليه .. وتركوه يعرض ما يدعوهم إليه .. فى رحاب الكعبة .. وعلى رءوس الطرقات ..حتى ذكر آلهتهم وعابها .. فأجمعوا على عداوته ومخالفته والتصدى له ولمن اتبعه من المستضعفين .. الا من شرح الله صدره منهم للإسلام . فحدب عليه عمه أبو طالب ومنعه منهم .. وقام دونه .. وحفظ الله تعالى رسوله من شرهم .. بعمه أبى طالب .. وبنى هاشم ..والمطلب .. إلاعمه أبى لهب.

وقد روى عن طارق المحاربى . .أنه قال: رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى السوق ـ يقول: «أيها الناس .. قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» ورجل خلفه يرميه بالحجارة .. وقد دمى عقبيه ..ويقول لا تطيعوه فإنه كذاب .. فقلت: من هذا؟ .. قالوا : محمد وعمه أبو لهب .. فأنزل الله تعالى: (تبت يدا أبى لهب وتب) .. فلما سمعها أبو لهب قال: إن كان ما يقول محمد حقا . افتديت منه بما لى وولدى .. فنزل: (ما أغنى عنه ماله وما كسب)(٤).

(١) المدثر .

(٢) ٩٤ - الحجر .

(٣) ٢١٤ - ٢١٥ - الشعراء.

(٤) سورة المسد.

أما امرأته فهى أم جميل بنت حرب بن أمية .. أخت أبى سفيان بن حرب .. عمة معاوية .. كانت من ألد أعداء الرسول .. ترمى بالشوك والروث فى طريقه .

وقد أغضبت هذه السورة أبا لهب .. فناصب الرسول العداء .. وكان إذا سأله وفد من وفود العرب عن محمد .. قال: انه ساحر ومجنون .. لينصرفوا عنه قبل لقائه .. ولكن لظهور عداوته وبغضه .. لم يكن يسمع العرب كلامه عن محمد .. فخاب سعيه .. ولم يفلح فى صد الناس عن رسول الله .

وبدأت الدعوة تنتقل إلى المرحلة الثالثة .. إبلاغ قبائل العرب قاطبة .. فى جميع أنحاء الجزيرة ..وبدأت الوفود تفد على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لتسمع وترى .. والرسول يغشى الناس فى الأسواق ..ويحضر المواسم .. ليسمع الناس كلام رب الناس.

واشتد الأمر .. وتضارب القوم .. وأظهر بعضهم لبعض العداوة .. وتكاتفت قريش على تعذيب من أسلم من الضعفاء .. يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم .. وآذوا الرسول ورموه بالسحر وبالشعر وبالكهانة والجنون .. ومنهم من كان يحثو التراب على رأسه الشريف .. ويجعل الروث والدم على بابه .

نعم لقد آذوه كثيرا .. فالروايات لاتحصى .. فى أنواع الأذى .. وعظيم البلاء الذى قابلوه به وتحمل كل هذا فى صبر ورضى .

ولكأنى أرى عقبة بن معيط .. يأخذ بمنكب الرسول .. ويلف ثوبه حول عنقه الشريف ويخنقه .. حتى كادت عيناه تبرزان .. فيقوم دونه أبو بكر .. يمنعهم عنه وهو يقول: أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟ ودفع عنه عقبة .. فقاموا إلى أبى بكر .. وجذبوا رأسه ولحيته .. حتى سقط أكثر شعره .

وفى رواية ـ البخارى ـ كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصلى عند الكعبة .. وجمع من قريش فى مجالسهم .. إذ قال قائل منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرائى .. أيكم يقوم إلى جزور آل فلان .. فيعمد إلى فرثها ودمها وسلاها (١) فيجيىء به .. ثم يمهله حتى إذا سجد ..وضعه بين كتفيه .. فانبعث أشقاهم .. فلما سجد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وضعه بين كتفيه .. وثبت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ساجدا .. فضحكوا .. حتى مال بعضهم على بعض من الضحك .. فانطلق منطلق إلى فاطمة ـ وهى جويرية (٢) ـ فأقبلت تسعى .. ثبت النبى ساجدا ..حتى ألقته عنه ..وأقبلت عليهم تسبهم .. فلما قضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصلاة .. قال: «اللهم عليك بقريش» ..ثم سمى .. فقال : «اللهم عليك بعمرو بن هشام ..وعتبة بن ربيعة .. وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة .. وأمية بن خلف .. وعقبة بن معيط .. وعمارة بن الوليد».

قال عبدالله بن مسعود: فوالله لقد رأيتهم صرعى يوم بدر .. ثم سحبوا فى القليب .. قليب بدر .. ثم قام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «وأتبع أصحاب القليب لعنة».

ورأى ابن مسعود هذا محمول على أكثرهم: لأن أمية بن خلف .. لم يطرح فى القليب .. وعمارة بن الوليد هلك فى أرض الحبشة .. وعقبة بن معيط لم يصرع فى بدر.. وإنما قتل وهو أسير مع المسلمين .. بعد أن رحلوا من بدر مرحلة .. فقد جاء فى ـ زاد المعاد ـ لابن قيم الجوزية:

بعد غزوة بدر بثلاثة أيام .. ارتحل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عائدا إلى المدينة .. ومعه الأسرى والغنائم .. فلما كان بالصفراء قسم الغنائم .. وضرب عنق النضر ابن الحارث بن كلدة .. ثم لما نزل بعرق الظبية .. ضرب عنق عقبة بن أبى معيط (٣) .

وعن أبى ذر ـ رضى الله عنه ـ:

«كان أول من أظهر الإسلام سبعة : رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبو بكر ـ وعمار ـ وأمه سمية .. وصهيب .. وبلال .. والمقداد ـ رضى الله عنهم ـ.

فأما رسول الله فمنعه الله بعمه أبى طالب .. وأما أبو بكر .. فمنعه الله بقومه .. وأما سائرهم .. فأخذهم المشركون يعذبونهم .. فألبسوهم أدرع الحديد .. وصهروهم فى الشمس .. وأن بلالا هانت عليه نفسه فى الله ـ عز وجل ـ وهان على قومه .. فأخذوه فأعطوه الولدان ..فجعلوا يطوفون به فى شعاب مكة .. وهو يقول: أحد .. أحد .. حتى اشتراه أبو بكر وأعتقه ».

---

(١) الفرث : الروث فى الكرش .. والسلا : السمن .

(٢) جارية صغيرة.

(٣) زاد المعاد ص ١٠٠ جـ ٢ ط الشعب .

وقد كـان لأبى بكر ـ رضى الله عنه ـ دور كبـير فى تلك المرحلة .. يدعـو الناس إلى الإسلام .. وإذا مـر بأحد من العبيد يعذب .. اشتراه وأعتقه .. فأعتق سبعة .. منهم : بلال بن رباح الحبـشى .. وعامر بن فهيـرة .. وجارية لبنى عدى .. كان عمر يعذبها قبل إسلامه .. فاشتراها وأعتقها.

وروت أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت:

إن أبا بكر دخل علـى رسـول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ فقال له: «أنت عتيق من النار» فيومئذ سمى عتيقا.

وقالت رضى الله عنها:

«لما أسـرى بالنبى ـ صلـى الله عليـه وسلم ـ إلى المسجد الأقصى .. أصبح يحدث الناس بذلك فارتد ناس ممن كان قـد آمن وصدق.. وفتنوا به .. فـقال أبو بكر : إنى لاصدقـه فيمـا هو أبعد من ذلك .. أصدقـه بخبر السـماء غدوة أو روحة .. فلذلك سمى أبو بكر الصديق».

قال فيه أبو محجن الثقفى:

وسميت صديقا .. وكل مهاجر

سواك يسمى باسمه غير منكر

سبقت إلى الإسلام والله شاهد

وكنت جليسا فى العريش المشهر

كان رضى الله عنه ـ صديقـا لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل البعث .. وهو أصغر منه فى السن ثلاث سنوات .. آزر رسول الله فى نصرة دين الله ـ تعالى ـ بنفسه وماله .. وكـان له لما أسلم مائة ألف درهم .. أنفقهـا كلها فى سبيل الله ..مع ما ربح من التجارة بعدها .

وأجـمع المفسـرون .. أن قـول الله ـ تعـالى ـ: «وسيجنبـها الأتقى * الذى يؤتى ماله يتـزكى * وما لأحد عنده من نعـمـة تجـزى* إلا ابـتـغـاء وجـه ربه الأعلى * ولسـوف يرضى» (١) نزلت فـى حق أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ.

وإن كان بعض المفسرين يقول : إنها نزلت فى حق على ـ رضى الله عنه ـ ولكـن هذا غيـر صـحـيح .. لقـوله تعالى: «وما لأحـد عنده من نعمة تجزى» فـهذا الوصف لا ينطبق على علىّ بن أبـى طالب ..لأنه كان فى تربيـة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخذه من أبيه .. يطعمه ويسقيه .. ويكسـوه ويربيـه .. فكـان الرسـول منعـمـا عليـه بنعـمـة تستوجب الجزاء .

أما أبو بكر .. فلم يكن للنبى عليه نعـمة دنيوية .. بل كان أبو بكر ينفق على الرسول وإن كـان للرسول عليه نعمـة الهداية والإرشاد إلى الدين .. غيـر أن هذا لا يجزى لقوله تعالى: «ما أسألكم عليه من أجر».

والمذكور فى الآية التى نناقشهـا ليس مطلق النعمة .. بل نعمـة تجزى .. فـلا تصلح الآية لعلى ـ رضى الله عنه

كـان أبو بكر من رءوس قـريش فى الجـاهليـة .. وكانت له الديات فـيها .. فلمـا جاء الإسلام سبق إليه .. وأسلم على يده بسـبب حبهم له وثقـتهم فـيه' خمـسة من المبشرين بالجنة .. هم :

عـثمـان بن عـفان .. والزبيـر بن العـوام .. وعبـد الرحمن بن عـوف .. وسعد بن أبى وقـاص .. وطلحة بن عبيد الله .. وهو ـ رضى الله عنه ـ سادسهم .

أمـا الأربعة البـاقون من العـشرة ..فـهم: **عمـر بن الخطاب** .. وعلى بن أبى طالب .. وأبو عـبيـدة بن الجراح .. وسعيد بن زيد.

قال ابن إسحاق :

بلغنى أن النبى ـ صلى الله علـيه وسلم ـ قـال: «ما دعـوت أحدا إلى الإسـلام .. إلا كانـت عنده كبـوة ونظر وتردد . إلا مـا كان من أبى بكـر ـ رضى الله عنه ـ ما عـتم عنه حين ذكرته له» أى أنه بادر به .

ونزل فيه .. وفى عمـر: «وشاورهم فى الأمر» (٢) فهو بمنزلة الوزير الأول من رسـول الله .. يشاوره فى أموره كلها .. لم يهاجر إلى الحبـشة .. وبقى مع الرسول يتحمل الأذى .. حتى هاجر معه إلى المدينة .. تاركا عياله وأولاده ..وأقام معه فى الغار ثلاثة أيام :

«ثانى اثنين إذ همـا فى الغـار إذ يقول لصـاحبـه لا تحزن إن الله معنا » (٣).

كان شديد التـواضع لله والخوف منه .. يتهم نفسه دائما بالتقصيـر فى جنب الله .. فكان إذا سمع أحدا يمدحه

(١) ١٧ - ٢١ / الليل .

(٣) ٤٠ / التوبة .

(٢) ١٥٩ / آل عمران.

قال: « اللهم إني أعلم بنفسي منهم .. وأنت أعلم بها مني .. اللهم اجعلني خيرا مما يظنون .. واغفر لي ما لا يعلمون .. ولا تؤاخذني بما يقولون».

قال عمر - رضى الله عنه - أمرنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن نتصدق .. ووافق ذلك ما عندى .. فقلت : أسبق أبا بكر إن سبقته .. فجئت بنصف مالى . فقال رسول الله: «ما أبقيت لأهلك»؟ .. قلت : مثله .. وجاء أبو بكر بكل ما عنده .. فقال: «يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك »؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله ..فقلت : لا أسبقه إلى شيء أبدا.

كان أبو بكر رجلا أبيض نحيفا .. خفيف العارضين .. أحنى .. معروق الوجه .. غائر العينين .. فاتىء الجبهة .. عارى الأشاجع - المناكب - يخضب بالحناء والكتم (١) .

شهد مع الرسول بدرا وأحداً والخندق وبيعة الرضوان بالحديبية وخيبر وفتح مكة وحنينا والطائف وتبوك وحجة الوداع .

عاش بعد وفاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سنتين وأشهر . خليفة على المسلمين بالمدينة . فكان فيها مثالا للحزم والتواضع معا.

ومن تواضعه فيها .. أنه كان يحلب للحى أغنامهم ..فلما بويع بالخلافة .. قالت جارية من الحى : الآن لا يحلب لنا . فسمعها أبو بكر .. فقال : لعمرى لأحلبنها لكم .. وإنى لأرجو ألا يغيرنى ما دخلت فيه عن خلق كنت عليه .

فكان يحلب لهم .. فربما قال للجارية : **أتحبين أن أرغى لك** .. أو أن أصرح؟ .. فأى ذلك قالت .. فعل.

دخلوا عليه فى مرضه .. فقالوا : يا خليفة رسول الله .. **ألا ندعو لك طبيبا ينظر إليك** .. قال: قد نظر إلىّ .. قالوا : فماذا قال؟.. فقال لهم : قال: إنى فعال لما أريد .

قال المفسرون وأصحاب السير : توفى أبو بكر - رضى الله عنه - يوم الجمعة لسبع ليال بقين من جمادى الآخرة .. سنة ثلاث عشر للهجرة .. وهو يوافق ٢٣ أغسطس ٦٣٤م .. وهو ابن ثلاث وستين سنة - وصلى عليه عمر.

تلك إلماحة خفيفة عن أبى بكر الصديق .. أردت عرضها عرضا سريعا خاطفا .. فحياته - رضى الله عنه - يقصر عن ضمها أضخم الكتب .. وأعظم الأسفار .. ولكن ليس فى هذا الكتاب موضعها .. ويكفى أن نعلم أنه فى سنتين فقط .. بعد انتقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الرفيق الأعلى .. هى مدة خلافته .. قضى على المرتدين قضاء تاما .. وأخضع بنى غسان وبنى تغلب .وهزم الفرس .. ودخلت جيوشه عاصمتهم ..وتغلب على العراق ..وجهز جيشا بلغ عدده ثلاثين ألف لمحاربة الروم فى الشام .. كل ذلك فى سنتين .

ويجدر بنا قبل أن نعود إلى المرتبة الثالثة من مراتب الدعوة .. التى كنا بسبيل استعراضها .. قبل أن يجذبنا نور أبى بكر وسناه .. أن نقرأ شيئا من مأثورات أبى بكر .. وكلها حكم عالية .. وعظات غالية .. منها :

«**أكيس الكياسة التقوى** .. وأحمق الحمق الفجور ..وأصدق الصدق الأمانة ..وأكذب الكذب الخيانة».

ومنها :

«**لا خير فى خير بعده نار** ..ولا شر فى شر بعده جنة ».

وقال:

« **وجدنا الكرم فى التقوى** .. والغناء فى اليقين .. والشرف فى التواضع ».

وقال:

«إن العبد إذا دخله العجب بشىء من زينة الدنيا مقته الله تعالى حتى يفارق تلك الزينة» .. «ليتنى كنت شجرة تعضد ثم تؤكل».

وكان يأخذ بطرف لسانه ويقول: «هذا الذى أوردنى الموارد».

وقال: «لا خير فى قول لا يراد به وجه الله .. ولا فى مال لا ينفق فى سبيل الله ..ولا فيمن يغلب جهله حلمه ».

وقال: «من مقت نفسه فى ذات الله .. آمنه الله من مقته».

«فاز بالمروءة من امتطى التغافل .. وهان على القربى من عرف باللجاج».

«إياكم والفخر .. وما فخر من خلق من تراب ثم إليه يعود .. ثم يأكله الدود»!

---

(١) الكتم بفتحتين : نبت يخلط بالأصباغ.

العرب أمام معجزة القرآن

قال عتبة بن ربيعة لقومه .. بعد أن استمع إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم.

«إنى والله قد سمعت قولا ما سمعت بمثله قط .. والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة .. يا معشر قريش .. أطيعونى .. وخلوا بين هذا الرجل .. وبين ما هو فيه .. فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ.

ثم قال: لقد أجابنى بشىء ..والله ما هو بشعر ولا سحر ولا كهانة ..

قرأ: (بسم الله الرحمن الرحيم * تنزيل من الرحمن الرحيم) حتى بلغ (فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) فأمسكت فمه .. وناشدته الرحم أن يكف .. وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب فخفت أن ينزل بكم العذاب.

ـ ٢٢ ـ
العرب أمام معجزة القرآن

حكى الأصمعي : أنه رأى جارية صغيرة السن ـ لا تزيد على ست سنوات ـ وهى تقول: أستغفر الله من ذنوبى كلها .. فقلت لها : مم تستغفرين .. وأنت صغيرة السن .. لم يجر عليك القلم؟ .. فقالت :

أستغفر الله لذنبى كله
قتلت إنسانا بغير حله
مثل غزال ناعم فى دله
انتصف الليل ولم أصله

فقلت لها: قاتلك الله ما أفصحك !! ..

فقالت: أتعد هذا فصاحة بعد قوله تعالى :

«وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين» (١).

فجمع فى آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين .. فالأمران : أن أرضعيه وألقيه . والنهيان: **ولا تخافى ولا تحزنى** . والخبران: وأوحينا وإذا خفت .. والبشارتان: إنا رادوه وجاعلوه .

وأذكر أننى قرأت فيما قرأت:

أن فقيها غير عربى كان يحفظ طفلة عربية سورة «المسد» .. فبدأ معها من أول السورة «تبت يدا» فقالت الطفلة: تبت يدان .. فضربها لتقول «تبت يدا» ولكنها كانت تقول: تبت يداه .. تبت يداى .. تبت يداك .. وهو فى كل مرة يضربها لتقول «تبت يدا» فلا تستطيع الطفلة نطقها ..وصادف مرور أبيها .. فشكا إليه الفقيه عجز ابنته عن نطق «تبت يدا» فقال لها أبوها قولى:

«تبت يدا أبى لهب» فنطقتها سليمة .

لم تستطع الفتاة العربية الصغيرة .. أن تنطق «يدا» بحذف النون .. إلا عندما أضيف إليها المضاف إليه «أبا لهب» فالنون لا تحذف من المضاف .. إلا إذا ذكر المضاف إليه .

من هاتين الواقعتين .. مع تلكما الطفلتين العربيتين .. نستطيع أن نفهم فصاحة العرب الفطرية .. فهم بالفطرة أهل البلاغة .. وأرباب الفصاحة .. وأئمة البيان.

---

(١) ٧ - القصص .

أتاهم محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ بكتاب من جنس تخصصهم .. وتحداهم بأن يأتوا بسورة أو آية واحدة من مثله ..وعجزوا .. بل وتنبأ بعجزهم قبل أن يعجزوا .. لتكون الحجة أقوى .. والدليل أحكم .. فقد قطع فيما أخبر عن ربه ـ تعالى ـ بأنهم لن يأتوا بمثله : «فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين* فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا» (١) .

نادى عليهم بالعجز قبل المعارضة .. وبالقصور عن بلوغ تحديه فى المناقضة .. صارخا بهم على رءوس الأشهاد بهذا التحدى .. ولم يستطع أحدهم قبول التحدى .. مع وفرة دواعى البلاغة فى ألسنتهم .. وكثرة وسائل الفصاحة فى لغتهم .

وتلك مناسبة لأن أعرض على القارىء الكريم شيئا من المحاولات . التى قام بها بعض العرب .. الذين خيلت لهم شياطينهم أنهم على هذا التحدى قادرون .. لنضحك معا لحظة .. ونحن فى هذا المقام الكريم .. لأنها ـ كما سترى ـ محاولات تثير الضحك فى النفس . وتبعث على السخرية أيضا ممن حاولوا هذا .. وعلى رأسهم ـ مسيلمة الكذاب ـ وهو عربى .. صميم العروبة ..قال:

يا ضفدع كم تنقين .. أعلاك فى الماء وأسفلك فى الطين .. لا الماء تكدرين ولا الشرب تمنعين.

وقال أيضا يريد تقليد سورة «النازعات» .. فقال:

والزارعات زرعا .. والحاصدات حصدا .. والذاريات قمحا .. والطاحنات طحنا .. والخافرات حفرا .. والثاردات ثردا .. واللاقمات لقما .. لقد فضلت على أهل الوبر .. وما سبقكم أهل المدر . الخ.

ومن كلامه أيضا :

ألم تركيف فعل ربك بالحبلى .. أخرج من بطنها نسمة تسعى .. من بين شراسيف وأحشا .

كما قال بعضهم : الفيل .. وما أدراك ما الفيل .. له ذنب وثيل .. وشفر طويل .. وإن ذلك من خلق ربنا لقليل .

كلام لا طعم له .. ولا ذوق فيه .. خال من المعنى .. يثير فى النفس الضحك والسخرية معا.

وقد اعترف ابن المقفع بإعجاز القرآن الكريم .. عندما حاول بعض تلك المحاولات .

إن عبارة واحدة من كلام الله ـ تعالى ـ كانت كافية لهداية قلب إلى الإيمان .. وانشراح صدر للإسلام .. فمثلا .. كان ضماد بن ثعلبة رجلا يتطيب .. ويرقى .. ويطلب العلم .. فسمع سفهاء مكة يقولون: إن محمدا مجنون .. وكانت تربطه برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ صداقة فى الجاهلية .. ولم يكن ضماد قد أسلم .. فلما سمع هذا القول من السفهاء ..جاءه وقال له : يا محمد إنى راق كما تعلم .. فهل بك من شيء فأرقيك؟ .. فأجابه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقوله :

«الحمد لله نحمده ونستعينه .. من يهد الله فلا مضل له .. ومن يضلل فلا هادى له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له .. وأن محمدا عبده ورسوله .. أما بعد ».

فقال له ضماد : أعد علىّ كلماتك هؤلاء .. فأعادهن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ واستعاده ضماد ثلاثا .. ثم قال : والله لقد سمعت قول الكهنة .. وسمعت قول السحرة .. وسمعت قول الشعراء ..فما سمعت مثل هؤلاء الكلمات ..لقد بلغت قاموس البحر .. فمد يدك أبايعك على الإسلام .

فمد النبى يده .. فبايعه وأسلم.

أحس فحول العرب وفصحاؤهم هذا الإعجاز .. عندما سمعوا القرآن وتذوقوه .. وأقرت بذلك مشاعرهم واختلجت به أحاسيسهم .. وتيقنته قلوبهم ..ولكنه الكبر قد غشى أبصارهم ..ووقر فى أذانهم ..وجعل بين قلوبهم وبين النور حجابا سميكا.

روى محمد بن كعب قال:

حدثت أن عتبة بن ربيعة قال ذات يوم: وهو جالس فى نادى قريش ـ ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحده فى المسجد : يا معشر قريش .. **ألا أقوم إلى** هذا فأعرض عليه أمورا .. لعله أن يقبل منى بعضها ويكف عنا .. قالوا: بلى يا أبا الوليد.

فقام عتبة .. فجلس إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فذكر الحديث من بين ما قاله

(١) ٢٣ - ٢٤ / البقرة .

عتبة للرسول : عرض عليه من المال وغيره .. فلما فرغ .. قال رسول الله: «أفرغت يا أبا الوليد؟» قال : نعم.

قال : «أتسمع منى»؟ .. قال : أفعل .. فقال - صلى الله عليه وسلم - :

بسم الله الرحمن الرحيم .. «حم * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته ».

فمضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقرؤها عليه .. فلما سمعها عتبة .. أنصت لها .. وألقى بيديه خلف ظهره .. معتمدا عليها .. يستمع منه .. حتى انتهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى السجدة .. فسجد فيها .. يقصد قوله - تعالى - :«فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون» (١) .. ثم قال: «أسمعت يا أبا الوليد»؟ .. قال: سمعت .. فأنت وذاك.

فقام عتبة إلى أصحابه .. فقال بعضهم لبعض : نحلف لقد جاءكم عتبة بغير الوجه الذى ذهب به .

فلما جلس إليهم ..قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟.. قال :

إنى والله قد سمعت قولا ما سمعت بمثله قط .. والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة .. يا معشر قريش . أطيعونى .. وخلوا بين هذا الرجل . وبين ما هو فيه .. فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ ..ثم قال: لقد أجابنى بشىء والله ما هو بشعرولا سحر ولا كهانة .. قرأ: «بسم الله الرحمن الرحيم * تنزيل من الرحمن الرحيم *» حتى بلغ «فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود »(٢) .. **فأمسكت** فمه .. وناشدته الرحم أن يكف .. وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب . فخفت أن ينزل بكم العذاب (٣) - أهـ.

كما قال عكرمة فى قصة الوليد بن المغيرة . الذى عناه الله - تعالى - فى قوله :

«ثم أدبر واستكبر * فقال إن هذا إلا سحر يؤثر * إن هذا إلا قول البشر * سأصليه سقر» (٤) .

قال عكرمة : كان الوليد بن المغيرة .. زعيم قريش فى الفصاحة .. قال للنبى - صلى الله عليه وسلم -: اقرأ على .. فقرأ عليه : «إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون» (٥) .

قال: أعد علىَّ .. فأعاد .. - صلى الله عليه وسلم - فقال: والله إن له لحلاوة .. وإن عليه لطلاوة ..وإن أعلاه لمثمر ..وإن أسفله لمغدق .. وما يقول هذا بشر .. ثم قال لقومه :

والله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى .. ولا أعلم برجزه .. ولا بأشعار الجن .. والله ما يشبه الذى يقول شيئا من هذا .. والله إن لقوله الذى يقول لحلاوة .. وإن عليه لطلاوة.. وإنه لمثمر أعلاه .. مغدق أسفله .. وإنه ليعلو ولا يعلى .

وللوليد بن المغيرة .. خبر آخر ..رواه ابن إسحاق والبيهقى:

فقد جمع قريشا عند حضور الموسم .. وكان من أكبرهم سنا .. وقال: إن وفود العرب ترد .. فأجمعوا فيه(٦) رأينا .. لا يكذب بعضكم بعضا .. فقالوا : نقول كاهن؟ قال: والله ما هو بكاهن .. ما هو بزمزمته (٧) وسجعه قالوا: نقول مجنون؟ .. قال ما هو بمجنون .. ولا بخنقه (٨) ولا بوسوسته.

قالوا: فنقول شاعر ؟ .. قال: ما هو بشاعر .. قد عرفنا الشعر كله .. رجزه وهجزه وقريضه ومبسوطه ومقبوضه (٩) .

قالوا: فنقول ساحر؟ .. قال: لقد رأينا السحار وسحرهم .. فما هو بنفثه ولا عقده (١٠).

قالوا: فما نقول يا أبا عبدشمس؟..قال:والله إن لقوله لحلاوة..وإن أصله لعذق (١١)..وإن فرعه لجناه (١٢) .. وما أنتم بقائلين من هذا

---

(١) ٣٨- فصلت .

(٢) ١٣ - فصلت .

(٣) رواه البيهقى وغيره .

(٤) ٢٢ - ٢٦ / المدثر .

(٥) ٩٠ - النحل .

(٦) يقصد محمدا .

(٧) الزمزمة : الكلام المبهم .. والسجع الكلام المنثور الموزون .

(٨) اختناق المجنون فى حركاته .

(٩) كلها من أنواع الشعر.

(١٠) يقصد نفث السحرة فى عقد الخيوط.

(١١) العذق : كثير التشعب فى الأرض .

(١٢) أى فيه ثمر يجنى .

شيئا .. إلا عرف أنه باطل .. وإن أقرب القول أن تقولوا ساحرا .. جاء بقول هو سحر .. يفرق بين المرء وأبيه .. وبين المرء وأخيه .. وبين المرء وزوجته ..وبين المرء وعشيرته .. فتفرقوا عنه بذلك .

فجعلوا يجلسون بسبل الناس .. حين قدموا الموسم .. لا يمر أحد إلا حذروه إياه .. ولكن النتيجة جاءت عكس ذلك .. فقد انتشر ذكره .. ـ صلى الله عليه وسلم ـ في بلاد العرب .

أسلم كثير من شباب العرب .. فلما أسلم فتيان بنى سلمة .. قال والد عمرو بن الجموح له : أخبرني ما سمعت من كلام هذا الرجل .. فقرأ عليه: «الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين * إياك نعبد وإياك نستعين * اهدنا الصراط المستقيم ».

فقال عمرو: ما أحسن هذا وأجمله .. أو كل كلامه مثل هذا ؟ .. قال: يا أبت وأحسن من هذا.

وقد قرأت عن بعض العرب .. قال:

إن هذا القرآن .. لو وجد مكتوبا في مصحف .. في فلاة من الأرض . ولم يعلم من وضعه هناك .. لشهدت العقول السليمة أنه منزل من عند الله .. وإن البشر لا قدرة لهم على تأليف مثل ذلك .. فكيف وقد جاء على يد أصدق الخلق وأتقاهم ..وقال إنه كلام الله .. وتحدى الإنس والجن أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا .. فكيف يبقى بعد هذا شك:

«قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا»(١)

فيه من نظم الأسلوب .. وعذوبة المنطق .. وصحة المعاني وسلامتها .. وفيه ما فيه من الأمثال الناطقة . والدلائل الصادقة .. التي دلت على البعث .. والإنباء بما كان ويكون .. والأمر بالمعروف .. والنهي عن المنكر ..وصلة الأرحام .. وغير ذلك من المكارم والمحامد .. مما أعجز العرب .. وهم الفصحاء والخطباء .. والبلغاء والشعراء.

لقد عرفوه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قبل نبوته أربعين سنة .. لا ينظم كتابا ..ولا يعقد حسابا .. ولا ينشد شعرا .. ولا يحفظ خبرا .. ولا يروى أثرا .. حتى أكرمه الله بالوحى المنزل .. والكتاب المفصل ..فدعاهم إليه .. وحاجهم به:

«قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون»(٢)

شهد الله له بذلك في كتابه .. فقال ـ جل شأنه:«وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون» (٣) .

فالقرآن الكريم هو المعجزة **الكبرى .. في الوجود كله من غير شك** .. فهو أقوى في الإعجاز والإقناع من سائر المعجزات .. التي أخرجها الله ـ تعالى ـ على أيدى رسله الكرام .. فكلها مؤقتة في زمانها .. أما القرآن فهو معجزة خالدة .. لجميع العصور على مر الدهر.

إنه أقوى وأبلغ وأثبت من خروج ناقة صالح من الصخرة .. ومن انقلاب عصا موسى إلى حية .

وأعجب من إحياء عيسى للموتى . وإبراء الأكمه والأبرص .. فالقرآن حجة قاطعة باقية .. وبرهان واضح خالد.

ويكفى أن أذكر للقارىء الكريم شهادة عالم إنجليزى .. مع أنه مسيحى . ولكنه أديب .. أبى عليه ضميره الأدبى .. إلا أن يذكر الحقيقة عن رسول الله .. وعن القرآن كتاب الله .

وهو ـ مستر بورسورث سميث ـ في كتابه ـ محمد والإسلام ـ قال فيه :

«إن المعجزة الخالدة التى ادعاها .. هى القرآن . والحقيقة إنها لكذلك .. وإذا قدرنا ظروف العصر الذى عاش فيه .. واحترام أتباعه له احتراما لاحد له .. ووازناه بآباء الكنيسة أو بقديسى القرون الوسطى .. لتبين لنا أن أعظم ما هو معجز فى ـ محمد رسول الله ـ أنه لم يدع القدرة على الإتيان بالمعجزات .. وما قال شيئا إلا فعله وشاهده منه أتباعه في الحال .. ولم ينسب إليه الصحابة معجزات لم يأتها أو أنكر صدورها منه .. فأى برهان على إخلاصه أقطع من ذلك؟.

---

(١) ٨٨ - الإسراء.

(٢) ١٦ - يونس .

(٣) ٤٨ - العنكبوت

وإنى أعتقد أن الفلسفة العالية .. والمسيحية الصادقة . ستعترف له بذلك يوما من الأيام» ـ أهـ ـ .

ومع هذا فللرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ معجزات كثيرة .. من تلك الخوارق المادية .. التى كانت لغيره من الرسل الكرام .. أجمع عليها المؤرخون وأصحاب السيرة .. وأيدتها الظواهر الطبيعية التى خلدتها آثار غير المسلمين .

فمثلا معجزة انشقاق القمر له ـ عليه الصلاة والسلام ـ قبل الهجرة بخمس سنين .

فقد ثبت أنه كان فى حجر إسماعيل بالكعبة ليلا .. والقمر فى منزلة البدر .. فى كبد السماء . .وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ على عادته .. عميق النظر فى آيات الله .. فتقدم إليه الوليد بن المغيرة .. وأبو جهل بن هشام .. والعاص بن وائل .. والأسود بن المطلب .. والنضر بن الحارث .. ثم قال له أبو جهل بن هشام ساخرا مستهزئا .. وقد وجد نظره مشدودا إلى القمر .. وكأنه يناجيه :

هل يستطيع ربك يا محمد أن يشق هذا القمر نصفين ؟.

ويخيل إلىّ أن عوامل كثيرة .. قد اعتملت فى قلبه ـ عليه الصلاة والسلام ـ عندما وجه إليه أبو جهل هذا السؤال ـ فقال له: وهل تؤمن يا أبا جهل إذا شق ربى هذا القمر؟.

ولم يكونوا يتوقعون منه هذا الرد . استعظاما لهذا الأمر . فقالوا فى نفس واحد:

نعم نؤمن .. فأشار ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى القمر .. منفعلا بهذا الأمل .. فشق القمر نصفين.

يقول أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ فى الصحيحين:

«فأراهم انشقاق القمر شقتين . .حتى رأوا حراء بينهما ».

ولكنهم بدلا من أن يؤمنوا .. قالوا فى نفس واحد أيضا : سحر .

ولما كان العرب علماء فى أصول السحر وفنونه .. ويعلمون أن السحر فى مثل هذا الأمر يكون فى أعين الرائين فقط .. وليس فى جرم الشيء المسحور .. كما قال تعالى عن سحرة فرعون:

«فلما ألقوا سحروا أعين الناس» (١) .. بمعنى أن عصيهم وحبالهم لم تتحرك ولم تسع .. وإنما سحروا أعين الجميع .. فخيل لهم أن العصى والحبال تتحرك وتسعى .. وسرى سحرهم هذا .. حتى فى عين موسى ـ عليه السلام ـ «فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى * فأوجس فى نفسه خيفة موسى »(٢) .

ومن أجل هذا .. قال أحد الموجودين ـ ممن رأوا انشقاق القمر ـ لما قالوا سحرا : قال: يا قوم إن كان محمد قد سحر عيوننا .. فرأينا القمر مشقوقا .. فلننتظر .. حتى يصل أول قادم من البادية .. ونسأله عن تلك الظاهرة .. فانتظروا ساعتين .. وجاء قادم من الصحراء .. فسألوه : أين كنت من ساعتين؟

قال : كنت فى مكان كذا.

قالوا: ألم تر ظاهرة حصلت فى السماء؟.

قال: لقد رأيت أمرا عجبا .. رأيت القمر .. وقد شق نصفين .. نصف ذهب إلى الشرق .. ونصف ذهب إلى الغرب .. ثم عاد والتأم النصفان.

فقالوا: سحر مستمر .. إنه كبر الكفر ..وكفر الكبر.

ولهذا يقول تعالى:

«اقتربت الساعة وانشق القمر* وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر» (٣) .

فتلك معجزة متفق عليها بعشرات الأحاديث الصحيحة .. وقد جاء فى شرح مختصر ابن الحاجب .. لابن السبكى:

والصحيح عند الجميع أن انشقاق القمر متواتر .. منصوص عليه فى القرآن الكريم .. مروى فى الصحيحين وغيرهما .. من طرق شتى .. بحيث لا يمترى فى تواتره .

وإن كان بعض المفسرين قال: إن المراد فى تعبير القرآن الكريم «وانشق القمر» ..بمعنى أنه سينشق فى المستقبل . وهذا معنى مرفوض قطعا .. فقد انشق القمر فعلا .. وأمامنا دليل أثرى مادى ملموس:

---

(١) ١١٦ - الأعراف .

(٢) ٦٦ - ٦٧ / طه .

(٣) أول القمر .

فقد ذكرت الصحف الأجنبية مقالا .. عربته جريدة ـ الإنسان ـ العربية . التى كانت تطبع فى الآستانة بتركيا .. جاء فيه:

«إنه عثر فى الصين على بناء قديم .. مكتوب عليه: أنه بنى عام كذا .. الذى وقع فيه حادث سماوى عظيم .. وهو انشقاق القمر نصفين ».

هذا ما وجدوه مكتوبا على ذلك الأثر الصينى فحرر الحساب الفلكى فوافق سنة انشقاقه للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ. (١).

وللرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ معجزات أخرى .. منها:

نبع الماء من بين أصابعه ـ يوم الحديبية ـ وفى غزوة ـ بواط ـ أمام عدد كبير .. ولم ينكر ذلك أحد من الصحابة.

ففى صحيح البخارى .. عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال:

«أتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بإناء وهو بالزوراء .. فوضع يده فى الإناء .. فجعل الماء ينبع من بين أصابعه .. فتوضأ القوم».

قال قتادة : قلت لأنس .. كم كنتم ؟ .. قال: ثلاثمائة .. أو زهاء ثلاثمائة .

وعن أنس أيضا .. قال:

«رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد حانت صلاة العصر .. فالتمس الوضوء فلم يجدوه .. فأتى رسول الله بإناء .. فوضع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يد» فى ذلك الإناء .. فأمر الناس أن يتوضأوا منه ..فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه .. فتوضأ الناس .. حتى توضأوا عن آخرهم».

ومن معجزاته .. تكثير الطعام وبركته بدعائه أكثر من مرة .. ومنها حنين الجذع . وحديث الجذع معروف ومشهور .. رواه من الصحابة بضعة عشر .. منهم جابر بن عبدالله ..وأنس بن مالك .. وعبدالله بن عمر وعبدالله بن عباس .. وأبى بن كعب.. وأبو سعيد الخدرى .. وغيرهم . .

ورواه البخارى عن جابر بن عبدالله :

وذلك أن مسجد النبى .. كان مسقوفا على جذوع النخل .. فكان رسول الله إذا خطب يقوم على جذع منها . فلما صنع له المنبر .. سمع لذلك الجذع صوت كصوت العشار .. سمعه أهل المسجد حتى آرتج المسجد .. وبكى الناس لذلك ..ومازال هذا الجذع يحن .. حتى تصدع وانشق .. فنزل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فالتزمه وحضنه فسكن.

وفيها أيضا : رد عين رفاعة بن رافع .. بعد أن فقئت :

وذلك أن رفاعة فقئت عينه بسهم يوم بدر .. فوضع يده عليها .. وأسرع إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائلا :

يا رسول الله .. لى زوجة جميلة .. أخشى أن تعيرنى بعينى .. فقال له ـ عليه الصلاة والسلام ـ : أصبر ولك الجنة .. فقال له رفاعة : يا رسول الله .. أريد عينى وأريد الجنة .. فضحك ـ عليه الصلاة والسلام ـ حتى بدت نواجذه .. يقول رفاعة : فتفل فيها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودعا لى .. فما آذانى منها شىء.

كما روى عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال:

صعد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وأبو بكر وعمر وعثمان أحدا . فرجف بهم .. فضربه النبى برجله وقال: «اثبت أحد .. فإنما عليك نبى وصديق وشهيدان».

رواه البخارى وغيره .

وصدق رسول الله .. فقد استشهد عمر وعثمان.

(١) كتاب ـ باكورة الكلام ـ الشيخ حمزة فتح الله.

حـــديـــث الغيـــب

روى أبو داود عن حذيفة قال:

قـام فـينا رسـول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ مقـاما .. فما تـرك شيئا فى مـقامه ذلك إلى قـيام الساعة إلا حدث به .. حفظه من حفظه .. ونسيه من نسيـه ..وإنه ليكون الشىء قد نسيته .. فأراه فأذكره .. كمـا يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه .. ثم رآه فعرفه .. ثم قال حذيفة :

والله ما ترك رسـول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قائد فتنة إلى أن تنقضى الدنيا . إلا قد سماه لنا باسمه ..واسم أبيه .. وقبيلته .

ـ ٢٣ ـ

حديث الغيب

لم يكن فى حسبانى .. عندما أردت أن أتحدث عن معجزة القرآن الكريم .. أن أطيل فى هذا المقام .. لكثرة ما قيل فيه .. ولكن عندما بدأت هذا البحث .. تفتحت أمامى آفاق وآفاق من الأنباء التى تحدث عنها القرآن الكريم .. على أنها ستحدث مستقبلا .. وحدثت فعلا .. فرأيت من الأمانة العلمية أن ألفت النظر إليها .. فقد لا يتيسر للبعض قراءتها .. كما يسرها الله لى فبخلاف ما ذكرنا من أنه تحدى العرب.. بقوله لهم :

«وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله » إلى قوله «فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا » فقوله «ولن تفعلوا فيه إخبار عن غيب لم يكن يظن أحد من العرب تحققه .. لأنهم أهل البلاغة .. وأئمة البيان .. وأرباب الفصاحة .. وتحقق عدم قدرتهم على الإتيان بآية واحدة منه .

نرى القرآن الكريم ينبىء عن أحداث معينة .. ويخبر عن نتائجها .. قبل حدوثها .. بل ويحدد بالضبط زمن حدوثها :

فنرى ما حدث بعد قوله تعالى:

«الم * غلبت الروم * فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين» (١) .

فقد كان سبب نزول تلك الآية : أن حربا نشبت بين كسرى فارس وقيصر الروم ..وانتصر فيها كسرى على قيصر .. فساء المسلمين ذلك .. وفاء منهم للروم . لأن الرومان نصارى أهل كتاب .. ولأن قيصر عظم كتاب الرسول .. الذى أرسله إليه .. يدعوه فيه إلى الإسلام.. أما كسرى فقد مزق الكتاب .. وفرح المشركون بمكة بانتصار فارس على الروم.

فأخبر الله ـ تعالى ـ بأن الروم بعد أن غلبوا ـ بضم الغين ـ سيغلبون ـ بفتح الياء ـ وحدد الزمن فى «بضع سنين» والبضع لغة : ما بين الثلاثة إلى التسعة ..وتحققت نبوءة القرآن .. فانتصر الروم على الفرس .. ووافق ذلك يوم الحديبية .. وأخرجوهم من بلادهم ..وذلك بعد سبع سنين.

---

(١) ١ - ٣/ الروم.

ونفس الأمر حدث قبل يوم ـ بدر ـ حيث قال الله ـ تعالى ـ :«سيهزم الجمع ويولون الدبر» (١)

بينما كانت الظواهر تنبىء بغير هذا .. فقد كان جيش المشركين ألفا ..معهم الخيل والمال والسلاح .. وجيش المسلمين ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا .. وهزم المشركون .. وأمكن الله المسلمين ..وهم قلة مستضعفون من قتل أبطالهم .. واغتنام أموالهم .

ومن ذلك قوله تعالى فى كفار قريش قبل أحد:

«سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا» (٢) .

يريد ما قذف الله فى قلوبهم من الخوف يوم أحد .. حيث تركوا القتال ورجعوا من غير سبب.

كما تحدث ـ سبحانه ـ عما يعتمل فى ضمائر المسلمين بقوله :

«وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم»(٣).

والطائفتان : هما العير والنفير.

وذلك أن عير قريش .. أقبلت من الشام .. فيها تجارة عظيمة .. ومعها أربعون راكبا .. على رأسهم أبو سفيان ..وعلم بها رسول الله . فأخبر المسلمين .. وفرحوا بلقاء العير .. لكثرة الخيرات فيها .. وقلة المدافعين عنها.

فلما خرجوا علمت قريش بذلك .. فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة .. بعتادهم وسلاحهم ..وهذا هو النفير .. ومنه المثل السائر «لا فى العير ولا فى النفير».

وقيل لأبى جهل: إن العير أخذت طريق الساحل ونجت .. فأبى وسار بمن معه إلى بدر .. وهو ماء كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم .. يوما فى السنة .

ونزل جبريل ـ عليه السلام ـ فقال: يا محمد إن الله وعدكم إحدى الطائفتين: إما العير بساحل البحر .. بخيراتها .. وإما قريشا ببدر بجيشها ونفيرها .

فاستشار النبى أصحابه وقال: العير أحب إليكم أو النفير ؟

قالوا : بل العير أحب لنا من لقاء العدو .. وتغير وجه رسول الله ..

فقالوا: يا رسول الله عليك بالعير .. ودع العدو ..

فقام أبو بكر وعمر .. فأحسنا القول.

ثم قام سعد بن عبادة :

فقال : انظر أمرك .. فامض يا رسول الله .. وكذلك قال المقداد بن عمرو : امض لما أمرك الله .. فإنا معك حيث أحببت .. وقال سعد بن معاذ: امض يا رسول الله لما أردت .. فوالذى بعثك بالحق .. لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك .. ما تخلف منا رجل واحد .. فسر بنا على بركة الله.

ففرح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونشطه قول سعد .. ثم قال: سيروا على بركة الله .. أبشروا فإن الله وعدنى إحدى الطائفتين .. والله لكأنى أنظر مصارع القوم .. وكانت الكراهة من بعضهم .. لقوله تعالى:

«وإن فريقا من المؤمنين لكارهون» (٤).

وتحقق وعد الله لهم بالنصر .وكان الوعد قطعا قبل اللقاء.

ومن ذلك قوله تعالى عن اليهود:

«فتمنوا الموت إن كنتم صادقين * ولن يتمنوه أبدا» (٥) .

فأخبر أنهم لا يتمنون الموت .. لا بالقلب .. ولا بالنطق باللسان .. مع قدرتهم عليه .. وكانوا يستطيعون تكذيبه بالتمنى .. ولو بألسنتهم .. ولكنهم خافوا .. فلم يفعلوا.

وروى عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال:

«لو تمنوا الموت لغص كل إنسان بريقه .. فمات مكانه . وما بقى يهودى على وجه الأرض».

وهذا وعد من الله تحقق :

«وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم»(٦) .

وصدق الله وعده .. بأن جعل أمته خلفاء الأرض .. فلم يمت ـ عليه الصلاة والسلام ـ حتى فتح الله عليه بمكة وخيبر والبحرين وسائر

(١) ٤٥ - القمر.
(٢) ١٥١ - آل عمران .
(٣) ٧ - الأنفال .
(٤) ٥ - الأنفال .
(٥) ٩٤ - البقرة.
(٦) ٥٥ - النور.

جزيرة العرب .. وأرض اليمن بكاملها .. وأخذ الجزية من مجوس هجر .. ومن بعض أطراف الشام .
.وهاداه هرقل ـ ملك الروم ـ والمقوقس ـ صاحب مصر والإسكندرية ـ وملك عمان ..والنجاشي ـ ملك الحبشة .

ومن بعده أبو بكر .. غزت جيوشه بلاد فارس .. وفتحوا طرفا منها .. وغزت أرض الشام .. وفتح الله للجيش الشامي في أيامه بصرى ودمشق ونواحيهما .. من بلاد ـ حوران ـ وما والاهما.

ثم جاء الفاروق ـ عمر بن الخطاب ـ فتم في أيامه فتح بلاد الشام بكاملها .. وديار مصر إلى آخرها ..وأكثر إقليم فارس.

وفي أيام عثمان . .امتدت الممالك الإسلامية .. إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها .. وجيء بالخراج من المشارق والمغارب .. وزادت الفتوحات الإسلامية واتسعت ..وها نحن نريد أن يتحقق لنا إن شاء الله ما وعدنا الله ورسوله .. وصدق الله ورسوله .

ومن أنباء القرآن الكريم عن اليهود :

«وضربت عليهم الذلة والمسكنة» (١).

فنحن نرى من يوم أن نزلت تلك الآية ذل اليهود ومسكنتهم وتشتتهم بين دول العالم .. حتى عصرنا القريب .. لما هيأ الله لهم دولة .. لأمر يعلمه .. وقد لا ندريه .

وللقرآن الكريم أحاديث كثيرة أيضا .. عن المكتشفات العلمية .. التي أصبحت حقائق ثابتة .. ليس هذا مكان مناقشتها .. وقد صدق الله ـ سبحانه ـ عندما قال:

«سنريهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق»(٢).

هذا من ناحية حديث الغيب .. في القرآن الكريم .. أما حديث الغيب .. في كلام الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ مما لم يذكره الله ـ تعالى ـ في القرآن فهي كثيرة .

فالغيب يختص به تعالى .. وما وقع منه على لسان رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فمن الله . إما بوحي .. أو إلهام لإثبات نبوته .

وفي الحديث . أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال:
«والله إني لا أعلم إلا ما علمني ربي» .

وهي كثيرة جدا .. مما تواتر واشتهر .. حتى كان بعضهم يقول لصاحبه : اسكت .. فوالله لو لم يكن معنا من يخبره .. لأخبرته حجارة البطحاء.

يقول عنه عبدالله بن رواحة ـ رضي الله عنه ـ:

وفينا رسول الله يتلو كتابه
إذا انشق معروف من الصبح ساطع
أراناالهدى بعد العمى .. فقلوبنا
به موقنات أن ما قال واقع

ويقول عنه حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ:

نبي يرى ما لا يرى الناس حوله
ويتلو كتاب الله في كل مشهد
فإن قال في يوم مقالة غائب
فتصديقها في ضحوة اليوم أو غد

وروى الشيخان عن أبي هريرة .. أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ نعى النجاشي للناس في اليوم الذي مات فيه .. وخرج بهم إلى المصلى .. فصف بهم ..وصلى عليه .. وكبر أربع تكبيرات.

وقد رأيناه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فوق جبل أحد .. ومعه أبو بكر وعمر وعثمان .. فرجف الجبل بهم .. فضربه برجله .. وقال له : «اثبت أحد فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان» وقد حصل .. ومات عمر وعثمان شهيدين.

وقد روى هذا الحديث : أحمد والبخاري .. من حديث أنس .

كما روى الشيخان .. عن أبي هريرة .. أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال:

«إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده .. وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده .. والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله ».

قال النووي عن الشافعي وسائر العلماء : لا يكون كسرى بالعراق .. ولا قيصر بالشام.. كما كان في زمنه ـ عليه الصلاة والسلام .

فأعلمنا بانقطاع ملكهما عن هذين الإقليمين.. وكان كما قال.

---

(١) ٦١ - البقرة .

(٢) ٥٣ - فصلت .

ولعل أبرز من هذا قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ لسراقة :

«كيف بك إذا لبست سوارى كسرى» فلما أتى بهما عمر .. ألبسهما إياه .. وقال:

الحمد لله الذى سلبهما كسرى .. وألبسهما سراقة .. وكان سراقة أعرابيا بدويا من بنى مدلج.

لقد منَّ الله ـ سبحانه ـ على حبيبه محمد .. وكشف له حجب الغيب .. فهو ـ سبحانه ـ «عالم الغيب والشهادة فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول» (١) .. وقد ارتضى الله محمدا رسولا .. فرأى الدنيا بأحوالها وأوحالها وأحداثها ..وما هو كائن وما يكون فيها .. كما رآها جده آدم ـ عليه السلام ـ عندما علمه الله الأسماء كلها .. عقب النفخ فيه.

فقد أخرج الطبرانى عن ابن عمر قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «إن الله قد رفع لى الدنيا فأنا أنظر إليها وإلى ما هو كائن فيها إلى يوم القيامة كأنما أنظر إلى كفى هذه ».

وروى أبو داود عن حذيفة .. قال:

قام فينا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مقاما .. فما ترك شيئا فى مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدث به . حفظه من حفظه .. ونسيه من نسيه .. قد علمه أصحابى هؤلاء وإنه ليكون منه الشيء قد نسيته فأراه فأعرفه فأذكره . كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ..ثم رآه فعرفه .

ثم قال حذيفة :

ما أدرى أنسى أصحابى أم تناسوه .. والله ما ترك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم .. من قائد فتنة إلى أن تنقضى الدنيا .. يبلغ من معه ثلاثمائة فصاعدا .. إلا قد سماه لنا باسمه واسم أبيه وقبيلته .

وتلك قرينة تاريخية ..لا يمكن إنكارها .. فقد ثبت أن المشركين .. لما رجعوا عن المدينة يوم الأحزاب .. قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم .

«الآن نغزوهم ولا يغزوننا» وتحقق فلم تغز المدينة بعدها.

وإذا تتبعنا الأحداث . وسيرها فى غزوة مؤتة .. نرى العجب.:

فقد بعث ـ صلى الله عليه وسلم ـ جيشا إلى مؤتة ..وأقر عليهم زيد بن حارثة .. ثم قال:

«فإن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب.. فإن أصيب فعبد الله بن رواحة».

فلما التقى المسلمون يوم مؤتة فى المدينة .. جلس النبى على المنبر .. فكشف له .. حتى نظر إلى معتركهم .. فقال: «أخذ الراية زيد بن حارثة .. حتى استشهد » .. فصلى عليه .. ثم قال «استغفروا له » .. «ثم أخذ الراية جعفر بن أبى طالب حتى استشهد» فصلى عليه .. ثم قال «استغفروا لأخيكم جعفر» «ثم أخذ الراية عبدالله بن رواحة فاستشهد» فصلى عليه .. ثم قال «استغفروا لأخيكم» .. فأخبر أصحابه بقتلهم فى الساعة التى قتلوا فيها.

ومؤتة دون دمشق .. بأرض البلقاء بالشام .. تقول أسماء بنت عميس:

دخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ صبيحة اليوم الذى قتل فيه جعفر وأصحابه . فقال:

«يا أسماء أين بنو جعفر، دفئت بهم .. فضمهم وشمهم .. ثم ذرفت عيناه بالدموع فبكى .. فقلت: يارسول الله .. أبلغك عن جعفر شيء؟ .. قال: «نعم .. قتل اليوم» .

رواه البغوى.

ولو تركنا العنان للقلم .. لخرج بنا عن النبأ .. الذى خصصنا له هذا الكتاب .. إلى نبأ آخر يحتاج إلى مجلدات وكتب .. ولكن سنعرض لها على امتداد رحلتنا معه ـ عليه الصلاة والسلام .

فقد أعلم قريشا بأكل الأرضة ما فى صحيفتهم التى تعاهدوا فيها ضد بنى هاشم .. وقطعوا بها أرحامهم.. وأنها لم تبق فيها إلاكل اسم لله .. فوجدوها كما قال ـ عليه الصلاة والسلام .

ولهذه الصحيفة قصة جميلة .. سنعرضها بعد أن نحضر مفاوضات قريش مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حول هذا الأمر الخطير .. الذى جاءهم به .

---

(١) ٢٦ - ٢٧ الجن .

مفــاوضـــــات

ذهب المشركـون إلى أبى طالب .. بعـمارة بن الوليـد .. وقـالو: يا أبـا طالب . هذا عـمـارة بن الوليد.. فتى قريش وأشعرهم وأجملهم .. فخذه فلك عقلـه ونضرته .. فاتخـذه ولدا .. وأسلم لنا ابن أخـيك هذا الذى سـفه أحـلامنا .. وخـالف دينك ودين آبائك .. وفـرق جـمـاعـة قـومك .. نقتله .. فإنما رجل برجل .

فقـال: والله لبئس مـا تساومـوننى .. أتعطونى ابنكم أغذوه لكم .. وأعطيكم ابنى تقتلوه ! !

هذا والله غير معقول ولا جائز .

- ٢٤ -

مفاوضات

دخل الناس فى الإسلام .. واحدا بعد واحد .. فى محاولات التستر والكتمان .. وكلما أحست قريش بهذا .. اشتد غضبهم وغيظهم .. واشتعلت نيران الحقد فى قلوبهم ..وغلت مراجل الغل فى صدورهم .. فتفننوا فى تعذيب المستضعفين منهم.

وقابل هؤلاء المعذبون هذا العذاب بصبر تخشع له رواسخ الجبال .. وتتحطم أمامه قوى صناديد الأبطال.

فهذا بلال بن رباح الحبشى .. يعذبه سيده أمية بن خلف الجمحى .. ورآه أبو بكر يعذب .. فقال لأمية: ألا تتقى الله فى هذا المسكين؟

فقال أمية لأبى بكر - رضى الله عنه - أنت أفسدته فأنقذه .. فاشتراه وأعتقه .

وقد قتل بلال أمية بن خلف فى غزوة بدر.

وهذا عمار بن ياسر العنسى .. أسلم هو وأبوه وأمه سمية قديما .. ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى دار الأرقم .. بعد بضعة وثلاثين رجلا .. وكان ياسر حليفا لبنى مخزوم .. فكانوا يخرجُونهم إلى الصحراء إذا حميت الرمضاء .. يعذبونهم ويضربونهم .. ومر بهم رسول الله وهم يعذبون .. فقال: «صبرا آل ياسر .. إن موعدكم الجنة».

وقد أغلظت سمية - رضى الله عنها - القول لأبى جهل .. وهى تحت العذاب .. فطعنها برمحه فى مكان عفتها فماتت .. فكانت أول شهيد فى الإسلام .. فقال له ياسر زوجها : قتلتها يا عدو الله ؟ فضربه فى قلبه بعقب حذائه .. حتى لحق بها.

أما عمار .. فقد ظلوا يعذبونه فى الحر .. فوق الرمال الساخنة تارة .. وبالنار تارة .. حتى سب محمدا - صلى الله عليه وسلم - ومدح اللات والعزى .. فتركوه .. فأتى النبى يبكى .. وهو يقول: هلكت يا رسول الله .. فقال له : ماذا يا عمار؟ .. قال شر يا رسول الله .. عذبونى حتى سببتك ومدحت آلهتهم . فقال: فكيف تجد قلبك ؟ .. قال: أجده مطمئنا بالإيمان .. فقال: يا عمار إن عادوا فعد .. فأنزل الله تعالى:

(إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان)(١).

ومنهم خباب بن الأرت .. عذبوه عذابا شديدا .. بالحجارة المحماة بالنار .. وهو عار .. فلم يجبهم إلى شىء مما أرادوا.

---

(١) ١٠٦ - النحل .

وقد هاجر خباب .. وحضر الغزوات كلها مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومات بالكوفة سنة سبع وثلاثين للهجرة .

قال عنه على بن ابى طالب ـ رضى الله عنه : رحم الله خبابا .. أسلم راغبا .. وهاجر طائعا .. وعاش مجاهدا .. وابتلى فى جسمه.. ولكن لا يضيع الله أجر من احسن عملا .

ومن المعذبين فى تلك الفترة .. صهيب ابن سنان الرومى .. وقد كناه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبا يحيى ـ قبل ان يولد له .. وقد تحمل جميع أفانين العذاب .. ومنعته قريش من الهجرة .. فافتدى نفسه منهم بكل ماله وما يملك .

ولما حضرت الوفاة عمر بن الخطاب .. أمر صهيبا يصلى بالناس .. الى ان يختار أهل الشورى خليفة بعده .

ومنهم عامر بن فهيرة ـ مولى الطفيل ابن عبد الله .. وكان من المستضعفين المعذبين .. فلم يرجع عن دينه .. حتى اشتراه ابو بكر واعتقه .. وكان يروح ويغدو .. بغنم أبى بكر .. على رسول الله وصاحبه فى الغار .. وهاجر معهما الى المدينة يخدمهما .. وشهد بدرا واحدا .. وقتل يوم بئر معونة سنة اربع من الهجرة .. وعمره اربعون سنة .

وغير هؤلاء كثير .. عذبوا .. وصبروا .. ومع هذا كان عدد المسلمين يزداد يوما بعد يوم.. برغم الأذى الذى كان ينال رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ من ائمة الشرك والكفر .. فى حله وترحاله .

وبدات قريش تتجه اتجاها آخر .. مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم .

فذهب اليه عتبة بن ربيعة .. وقال له : يا ابن أخى .. انك منا حيث قد علمت من السطه (١) فى العشيرة .. والمكان فى النسب .. وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم . فرقت به بين جماعتهم .. وسفهت به احلامهم .. وعبت به آلهتهم ودينهم .. وكفرت به من مضى من آبائهم .

فاسمع منى .. اعرض عليك امورا تنظر فيها .. لعلك تقبل منا بعضها .

فقال له : عليه الصلاة والسلام ـ قل يا ابا الوليد اسمع .

قال : يا ابن اخى .. ان كنت تريد بما جئت به من هذا الامر مالا .. جمعنا لك من اموالنا حتى تكون اكثرنا مالا .. وان كنت تريد شرفا.. سودناك علينا حتى لا نقطع امرا دونك .. وان كنت تريد ملكا .. ملكناك علينا .. وان كان هذا الذى يأتيك رئيا من الجن تراه .. لا تستطيع رده عن نفسك .. طلبنا لك الطب .. وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه .. فانه غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه .

فلما فرغ عتبة .. ورسول الله يستمع منه .. قال : اقد فرغت يا ابا الوليد ؟ .. قال : نعم . قال : فاسمع منى .. قال : افعل .. فقرا ـ عليه الصلاة والسلام ـ من اول « فصلت » .. كما اشرنا من قبل .

فلجاوا الى عمه ابى طالب .. وهو الذى يمنعه ويحميه منهم .

ذهب اليه عتبة وشيبة ابنا ربيعة .. وابو البخترى بن هشام .. والأسود بن المطلب .. والوليد بن المغيرة .. وابو جهل بن هشام .. والعاص بن وائل السهمى وغيرهم .

فقالوا : يا ابا طالب .. ان ابن اخيك قد سب آلهتنا .. وعاب ديننا .. وسفه احلامنا.. وضلل اباءنا .. فاما ان تكفه عنا .. واما ان تخلى بيننا وبينه .. فانك على مثل ما نحن عليه من خلافه ؟ فقال لهم ابو طالب قولا جميلا .. وردهم رد رقيقا .. فانصرفوا عنه .

وظل رسول الله على ما هو عليه .. فعادوا الى ابى طالب .. حيث لم تثمر مفاوضتهم الأولى

(١) الوسط والخيار .

معه .. فقالوا : يا أبا طالب .. ان لك فينا سنا وشرفا ومنزلة .. وقد اتيناك لتنهى ابن اخيك .. فلم تفعل .. ونحن لا نصبر على سب آلهتنا .. وتسفيه احلامنا .. حتى تكفه عنا .. او نقاتلك معه .. وكان فى قولهم هذا تهديد لأبى طالب .. وانذار باعلان العداء .. فعظم عليه فراق قومه .. وعداوتهم له .. ولم تطب نفسه بترك ابن اخيه وخذلانه .. فبعث الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — واعلمه ما قالت قريش .. وقال له : ابق على نفسك وعلى .. ولا تحملنى من الأمر ما لا اطيق .. وقد عرضوا عليك ما تشاء من شرف وملك ومال .

وظن رسول الله — عليه الصلاة والسلام — أن عمه قد تخلى عنه .. فقال له قولته المشهورة:

« والله يا عمى لو وضعوا الشمس فى يمينى .. والقمر فى يسارى .. على ان اترك هذا الأمر .. ما تركته .. حتى يظهره الله أو أهلك دونه » .

ثم بكى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقام .. فلما ولى .. ناداه ابو طالب .. فأقبل عليه .. وقال : اذهب يا ابن أخى .. فقل ما شئت .. فوالله لا اسلمك لشىء ابدا .

وساعرض عليك ايها القارىء الكريم .. مفاوضة غريبة .. فاوضوا فيها ابا طالب .. نستشف منها سوء تفكيرهم .. وافك تقديرهم .

فلما رأوا اصرار ابى طالب على الدفاع عن ابن اخيه .. حبا فيه .. وقياما بالواجب عليه نحوه ..

وعملا باسباب المروءة .. ولكنه مع ذلك لم يعتنق الاسلام .. وبقى على دينه .. ذهبوا اليه بعمارة بن الوليد .. وقالوا يا ابا طالب .. هذا عمارة بن الوليد .. فتى قريش واشعرهم واجملهم .. فخذه .. فلك عقله ونصرته .. فاتخذه ولدا .. واسلم لنا ابن اخيك هذا .. الذى سفه أحلامنا .. وخالف دينك ودين آبائك .. وفرق جماعة قومك نقتله .. فانه رجل برجل .

فقال : والله لبئس ما تساوموننى .. اتعطونى ابنكم اغذوه لكم .. واعطيكم ابنى تقتلوه ؟ هذا والله غير معقول ولا جائز .

فقال المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف .. لقد انصفك قومك .. وما تريد ان تقبل منهم شيئا .

فقال : والله ما انصفونى .. ولكنك قد اجمعت خذلانى .. ومظاهرة القوم على .. فاصنع ما بدالك .

وظاهر — قطعا — انه عرض فى غاية السخف .. ومجافاة المنطق .

فلما يئسوا من اجابة طلبهم .. اشتد أذاهم للمسلمين .. ووثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين .. يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم .

وقام ابو طالب فى بنى هاشم .. فدعاهم الى منع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فاجابوه الى ذلك .

ولما رأت قريش ان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قد رفض ما عرضوه عليه .. دعوه الى لقاء .. وقالوا له : ان كنت غير قابل لشىء مما عرضناه عليك .. فأنت تعلم ضيق بلدنا .. وقلة مائنا .. وشدة عيشنا .. فسل ربك هذا الذى بعثك .. فليسير عنا هذه الجبال التى ضيقت علينا .. وليبسط لنا بلادنا .. وليشق لنا فيها انهارا كانهار الشام والعراق .. ويبعث لنا من مضى من آبائنا .. ومنهم قصى بن كلاب .. فانه شيخ صدق .. فنسألهم عما تقول .. فان صدقوك .. وصنعت ما سألناك .. صدقناك .. وعرفنا فضلك .. وآمنا بك .

فقال : « ما بهذا بعثت اليكم .. انما جئتكم من الله بما بعثنى به .. وقد بلغتكم بما ارسلت به .. فان تقبلوه .. فهو حظكم فى الدنيا والآخرة .. وان تردوه على اصبر لأمر الله .. حتى يحكم بينى وبينكم » .

قالوا : فاذا لم تفعل هذا .. فخذ لنفسك .. وسل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول .. ويراجعنا عنك .. وسله فليجعل لك جنانا وقصورا .. وكنوزا من ذهب وفضة .. يغنيك بها عما نراك تبتغى .. فانك تقوم بالاسواق .. وتلتمس المعاش كما نلتمسه .. حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك .. ان كنت رسولا كما تزعم .

فقال لهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « ما انا بفاعل .. وما انا بالذى يسأل ربه هذا .. وما بعثت اليكم بهذا .. ولكن الله بعثنى بشيرا ونذيرا .. فان تقبلوا ما جئتكم به .. فهو حظكم فى الدنيا والآخرة .. وان تردوه على أصبر حتى يحكم الله بينى وبينكم » .

قالوا : فأسقط السماء علينا كسفا — كما زعمت أن ربك ان شاء فعل .. فانا لن نؤمن لك الا ان تفعل .

فقال : « ذلك الى الله .. ان شاء أن يفعله بكم فعل » .

قالوا : الم يعلم ربك مجاسنا هذا منك .. فليعلمك ما تراجعنا به .. ويخبرك بما هو صانع بنا .. اذا لم نقبل منك ما جئتنا به .. لن نؤمن لك حتى تأتى بالله والملائكة قبيلا .

فلما قالوا ذلك .. قام عنهم رسول الله .. وقام معه عبد الله بن أمية بن المغيرة المخزومى .. وكان ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب .. فقال له : يا محمد .. عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم .. ثم سألوك لنفسك أمورا ليعرفوا بها منزلتك من الله ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل .. ثم سألوك ان تعجل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل .. ثم قال : فوالله لا أومن بك ابدا حتى تتخذ الى السماء سلما .. ثم ترقى فيه وانا انظر حتى تأتيها .. ثم تأتى معك بصك معه اربعة من الملائكة .. يشهدون لك انك كما تقول .. وايم الله .. لو فعلت ذلك .. ما ظننت انى اصدقك (١) .

وانصرف رسول الله — صلى الله عليه وسلم — اسفا حزينا .

وهذه المطالب .. اوردها القرآن الكريم .. فى سورة الاسراء .. قال :

« وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . او تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا .. أو يكون لك بيت من زخرف او ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا) (٢) » .. واقرأ غيرها من مطالبهم (٣) فى سورتى هود والفرقان .

وتلك المطالب من قريش .. تدلنا على عنادهم وتعنتهم واصرارهم على الكفر .. وتبين لنا مدى ما كان يعانيه — عليه الصلاة والسلام — معهم من الأسى والأسف .

فقومه يطلبون منه المستحيلات .. ويكلفونه بخوارق العادات .. من تسيير الجبال .. وتفجير الأنهار .. واحياء الموتى .. يطالبونه بامتلاك الجنان والقصور والكنوز .. ويطالبه ابن عمته بالصعود الى السماء وهو يراه .. والعودة منها بكتاب .. ومعه الملائكة .

كل هذا يبين لنا كيف كانت نفسه تذهب عليهم حسرات .

واشتد ساعد ابى جهل .. ضد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فما أن انصرف رسول الله عن مجلسهم .. حتى قام ابو جهل — عمرو بن هشام — **فقال : ان محمدا قد ابى** الا ما ترون من عيب ديننا .. وشتم ابائنا .. وتسفيه آلهتنا .. فلأجلسن له بحجر ما اطيق

---

(١) اسلم عبد الله — هذا — فى فتح مكة .
(٣) ١٢ / هود و ٨ / الفرقان .

(٢) ٩٠ — ٩٣ / الاسراء .

حمله .. فاذا سجد فى صلاته .. رضخت به راسـه .

ولكنه عندما هم ليفعل .. رجف وارتعد .. وسقط الحجر من يده قبل ان يصل الى محمد . كان ابو جهل اشدهم عداوة لرسول الله — وقال عنه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لما رآه مقتولا يوم بدر : « قتل فرعون هذه الامة » .

قتله عمـرو بن الجموح وابن العفـراء الانصاريان .. وكانا يومها غلامين صغيرين .. وحديثهما معروف فى الصحيح .

وكان سىء الخلق .. فظا .. غليظ القلب .. ظالما .. عرضه عداؤه لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — لكثير من سخرية القوم واستهزائهم .. فعندما حمل الحجر .. ليرضخ به رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو ساجد امام القوم .. اصابه خوف ورعب .. فسقط الحجر من يده .. وكاد ان يكسر رجله .. فضـحك القوم .. وقالوا : جبن ابن هشام .

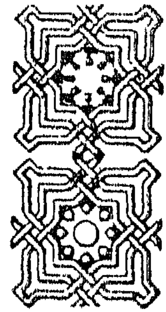
واشترى من شـخص يقال له — الأراشى — جمالا .. ولم يعطه ثمنها .. واستعان الرجل برسول الله .. وذكـر له انه غـريب .. وان عمرو بن هشام اغتصبه حقه .. وقام — عليه الصلاة والسلام — الى ابى جهل .. وطرق عليه بابه .. والمشركون ينتظرون ما سيفعله ابو جهل بمحمد .. فقال ابو جهل .. لما سمع الطرق على الباب : من الطارق ؟ . . فقال : انا محمد.. فخرج اليه .. وقـد امتقع وجهه .. ورجفت اوصاله .. فقال له : اعط هذا الرجل حقه .. فلم يتردد أن دفع للرجل حقه .

وضحك القوم وقالوا : جبن ابن هشام .

كما ظلم تاجرا قدم من البادية بثلاثة جمال حسان .. وساومه ابو جهل عليها بثلث ثمنها.. وامتنع الناس عن رفـع الثمن .. خـوفا من ابى جهـل .. ولكن محمدا — صـلى الله عليه وسلم — زاد له فى الثمن .. حتى ارضاه .. ثم باع منها جملين .. وابقى الثالث .. حتى باعه .. واعطى ارامل بنى المطلب ثمنه .

وكان ابو جهل وصيا على مال يتيم .. فاكله وطرده .. فاسـتعان اليتيم بالنبى .. فمشى معه .. ورد له ماله .





إسلام حمزة وعمر

كان حمزة ـ رضى الله عنه ـ متوشحا قوسه.. راجعا من الصيد .. وكان من هواته .. وكان اذا رجع من الصيد .. لم يرجع الى اهله .. حتى يطوف بالكعبة فلا يمر على ناد من اندية قريش .. الا وقفوا وسلموا عليه .. وتحدث معهم .. فقد كان أعز قريش .. واشدهم شكيمة .. وكان يومئذ مشركا على دين قومه .

— ٢٥ —
اسلام حمزة وعمر

اشتد اذى المسلمين .. وعز على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما يقاسيه اصحابه من البلاء المضنى .. والهلاك المبين .. على يد قساة القلوب .. غلاظ الاكباد .. من مشركى مكة وجبابرتها .. مع ما هو فيه من السلامة .. لمكانه من الله عز وجل .. ودفاع بنى هاشم عنه .. بأمر عمه ابى طالب .. فقال للمسلمين :

« **لو خرجتم الى ارض الحبشة** .. فان فيها ملكا .. لا يظلم عنده احد .. وقد اذن الله لكم بتلك الهجرة .. حتى يجعل الله لكم فرجا ومخرجا مما انتم فيه » .

ولفظ ـ النجاشى ـ اسم لكل ملك يلى الحبشة .. كما ان فرعون اسم لكل ملك يلى مصر .. وكان نجاشى الحبشة فى هذا الحين اسمه ـ اصحمة بن ابحر ـ ومعنى اصحمة بالعربية ـ عطية ـ والاحباش مسيحيون نسطوريون .

فخرج المهاجرون متسللين سرا .. فى شهر رجب سنة خمس من النبوة .. ويوافق عام ٦١٥ م . خرج من المسلمين اثنا عشر رجلا واربع نسوة .. حتى انتهوا الى الشعيبة على البحر .. قبل جدة فمنهم الراكب .. ومنهم الماشى .. ورزقهم الله سفينة تجارية .. متجهة الى ارض الحبشة .. ركبوها حتى دخلوا الحبشة سالمين آمنين .. وقد حاولت قريش اللحاق بهم .. فلم يدركوهم .

وهم :

عثمان بن عفان وزوجته رقية ـ بنت رسول الله ـ ولهذا يقول ـ عليه الصلاة والسلام ـ :

« ان عثمان اول من هاجر مع امراته بعد لوط » .

ومنهم ابو حذيفة بن عتبة ومعه امراته سهلة بنت سهيل .. ومصعب بن عمير .. والزبير ابن العوام .. وعبد الرحمن بن عوف .. وابو سلمة بن عبد الأسد ومعه امراته ام سلمة .. وعثمان بن مظعون .. وعبد الله بن مسعود .. وعامر بن ربيعة ومعه امراته ليلى بنت ابى هبثمة .. وابو سبرة بن ابى رهم .. وحاطب بن عمرو .. وسهيل بن وهب .

وقد اكرم النجاشى وفادتهم .. فامنوا عنده على دينهم من الفتنة .. وعلى اجسادهم من العذاب .

وهم وان كان عددهم قليلا .. الا انه فى تلك الهجرة الكثير من معانى العظمة فى الثبات على المبادىء .. والقوة فى العقائد .. ففى سبيلها يهون كل شيء .. يهون ترك المال والأهل .. وتهون الصعاب والمشقات .

وكانت الهجرة الأولى مقدمة للهجرة الثانية .. ثم الهجرة الى المدينة .

وشاء الله ـ تعالى ـ ان يعترض أبو جهل محمدا فى الطريق .. فآذاه وشتمه .. وعاب دينه وسبه .. واستطال عليه وأهانه .. فلم يرد عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم .

وباطن الخير دائما كامن فى ظاهر الشر .. كما ينبت حنان الوردة من بين قسوة الاشواك .

فقد كانت مولاة لعبد الله بن جدعان التيمى .. فى مسكن لها فوق الصفا .. وسمعت ما قاله ابو جهل لرسول الله .. ورأته لم يرد عليه .. بل اعرض عنه فى هدوء .. وانصرف الى منزله .. بينما ذهب ابو جهل الى نادى قريش .. عند الكعبة .. فجلس معهم .

وكان حمزة بن عبد المطلب ـ عم رسول الله ـ واخوه من الرضاعة ـ كما قدمنا ـ ارضعتهما ثويبة ـ مولاة أبى لهب ـ وكان اكبر سنا من رسول الله بأكثر من سنة .. وكنيته ـ ابو عمارة ـ وكان قوى الجسم .. طويل القامة .. شجاعا محاربا .

رأته مولاة عبد الله بن جدعان قادما .. بعد تلك اللحظة التى رأت فيها ما رأت من اهانة أبى جهل لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان حمزة متوشحا قوسه .. راجعا من قنص له .. وكان من هواة الصيد .. وكان حمزة اذا رجع من قنصه .. لم يرجع الى اهله حتى يطوف بالكعبة .. فلا يمر على ناد من أندية اقريش .. الا وقفوا وسلموا عليه .. وتحدث معهم .. فقد كان أعز قريش .. وأشدهم شكيمة .. وكان يومئذ مشركا على دين قومه .

فلما مر بالجارية قالت له : ياأبا عمارة .. لو رأيت ما لقى محمد ابن أخيك من ابى الحكم آنفا .. وجده هناك فآذاه وشتمه وبلغ منه ما يكره .. ثم انصرف عنه .. ولم يكلمه محمد .. فثارت فى نفس حمزة ثورة الغضب .. واسرع لا يقف على احد .. كما كان يصنع .. يريد الطواف قبل أن يلقى أبا جهل .. فلما دخل المسجد .. رأى ابا جهل جالسا بين القوم .. فاقبل نحوه .. حتى اذا قام على رأسه .. رفع القوس فضربه ضربة شجت رأسه شجة كبيرة .. فقام رجال من قريش من بنى مخزوم الى حمزة لنصرة أبى جهل .. فقالوا : ما نراك يا حمزة الا قد صبأت .. اى خرجت عن ديننا .

فقال حمزة : وما يمنعنى .. وقد استبان لى منه ذلك ؟ .. انا اشهد انه رسول الله .. وأن الذى يقوله الحق .. فوالله لاأنزع (١) .. فامنعونى ان كنتم صادقين .

فقال أبو جهل : دعوا أبا عمارة .. فانى قد سببت ابن أخيه سبا قبيحا .. وذهب حمزة ـ رضى الله عنه ـ الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأعلن اسلامه .. وثبت عليه .

أسلم سنة ست من النبوة .

ولما اسلم .. عرفت قريش ان رسول الله قد عز وامتنع .. وأن حمزة سيكون عضدا قويا له .. فقل تعرضهم لرسول الله بالأذى .

وحمزة سيد الشهداء .. آخى الرسول بينه وبين زيد بن حارثة .. ثم هاجر الى المدينة وشهد بدرا .. وأبلى فيها بلاء خارقا مشهورا .. وقاتل يومها بسيفين .. وشهد احدا واستشهد بها فى السبت .. النصف من شوال .. من السنة الثالثة للهجرة .. بعد أن قتل يومها من المشركين عددا كبيرا .. فرماه وحشى الحبشى مولى جبير ابن مطعم بحربة فقتله .. ومثل بجسمه المشركون وبجميع قتلى المسلمين .. وجعل نساء المشركين : هند وصواحباتها .. يجدعن أنوف المسلمين وآذانهم .. ويبقرن بطونهم .. وبقرت هند بطن حمزة ـ رضى الله عنه ـ فأخرجت كبده .. فجعلت تلوكها فلم تسغها فلفظتها .. فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ :

« لو دخل بطنها لم تمسها النار » .

وبكى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما رآه قتيلا .. ودفن عند احد فى موضعه .. وكان عمره تسعا وخمسين سنة .

وتظهر سماحة الاسلام .. فى العفو عند المقدرة .. فى عفو رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن هند .. يوم فتح مكة .. برغم ما عملت فى جسد عمه حمزة .

(١) اى لا انتهى عما قلت لكم .

وشاء الله ــ تعالى ــ أن يزيد الاسلام قوة .. بعد اسلام حمزة .. باسلام عمر .. وقد أصابته دعوة الرسول .. قال : « اللهم أعز الاسلام بأحب الرجلين اليك : عمر بن الخطاب .. أو عمرو ابن هشام » يقصد أبا جهل .

وكان عمر .. من أشراف قريش .. اليه السفارة فى الجاهلية .. اذا وقعت حرب بينهم وبين غيرهم .. أو بين بعضهم البعض .. كان .. غيرهم .. واذا حصلت منافرة أو مفاخرة .. اختاروه منافرا أو مفاخرا .. وكان قوى الجسم .. طويل القامة .. يعمل بالتجارة .. مهابا بين العرب .. فهو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى .. وامه حنتمه بنت هاشم .

ولد بعد الفجار الأعظم بأربع سنين .. كان مولده فى عام ٥٨١م .

وكان معروفا بالقسوة والعداوة لرسول الله والمسلمين بعد بعثته ــ صلى الله عليه وسلم ــ ومن قسوته عليهم .. أنه كان يعذب جارية بنى مؤمل لاسلامها .. وهى التى اشتراها أبو بكر واعتقها .. كان عمر يضربها بلا رحمة ولا شفقة .. ولا يتركها حتى يمل من ضربها .

ولندع عمر ــ رضى الله عنه ــ يحكى لنا قصة اسلامه بنفسه .. قال :

كنت من اشد الناس على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فبينا انا فى يوم شديد الحر بالهاجرة .. فى بعض طرق مكة .. اذ لقينى رجل من قريش فقال : اين تذهب ياابن الخطاب .. انت تزعم انك هكذا .. وقد دخل عليك هذا الامر فى بيتك ؟ .. قلت : وماذاك ؟ .. قال : اختك قد صبأت (١) .. فرجعت مغضبا .. وقد كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يجمع الرجل والرجلين ــ اذا اسلما ــ عند الرجل به قوة .. فيكونان معه .. ويصيبان من طعامه ..

وقد كان قد ضم الى زوج اختى رجلين .. فجئت حتى قرعت الباب .. فقيل : من هذا ؟ قلت : ابن الخطاب .. وكان القوم جلوسا .. يقراون فى صحيفة معهم .. فلما سمعوا صوتى .. تبادروا واختفوا .. وتركوا او نسوا الصحيفة من أيديهم .. فقامت المرأة ففتحت لى .. فقالت : ياعدوة نفسها .. قد بلغنى انك صبأت .. قال : فأرفع شيئا فى يدى فاضربها به .. فسال الدم .. فلما رات المراة الدم بكت .. ثم قالت : ياابن الخطاب .. ما كنت فاعلا فافعل .. فقد اسلمت .. فدخلت وانا مغضب .. فجلست على السرير .. فنظرت فاذا بكتاب فى ناحية البيت .. فقلت ما هذا الكتاب ؟ أعطنيه ــ وكان عمر كاتبا ــ فقالت : لا اعطيك .. لست من اهله .. انت لا تغتسل من الجنابه .. ولا تتطهر .. وهذا لا يمسه الا المطهرون .. قال : فلم ازل بها حتى اعطتنيه ــ بعد أن اغتسلت .. فاذا فيه :

« **بسم الله الرحمن الرحيم** » فلما مررت بالرحمن الرحيم .. ذعرت .. ورميت بالصحيفة من يدى .. ثم رجعت الى نفسى .. فاذا فيها : « سبح لله ما فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم » (٢) .

قال : فكلما مررت باسم من أسماء الله تعالى ذعرت .. ورميت بالصحيفة من يدى .. ثم ترجع **الى نفسى .. حتى بلغت :**

« آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » .. الى « ان كنتم مؤمنين » (٣) .

قال : فقلت : اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله .. فخرج القوم يتبادرون بالتكبير .. استبشارا بما سمعوه منى .. وحمدوا الله ــ عز وجل ــ ثم قالوا : ياابن الخطاب أبشر .. فان رسول الله دعا يوم الاثنين فقال :

« اللهم أعز الاسلام بأحد العمرين .. اما عمرو ابن هشام .. واما عمر بن الخطاب » .

فأبشر .

(١) اخت عمر ــ فاطمة ــ زوجة سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل . وزيد بن عمرو .. هو الرجل الامة .. الذى سبق ان كتبنا عنه فصلا فى هذا الكتاب .. فهو احد الاربعة الباحثين عن دين ابراهيم ــ قبل الاسلام ــ ومات دفاعا عن معيدته .. ورفض عبادة الاصنام .

وقد اعتنق سعيد بن زيد الاسلام هو وزوجته ــ فاطمة ــ وكانوا من اوائل من اسلموا ــ سرا ــ .

(٢) الحديد .

(٣) ١ ــ ٨ / الحديد .

وانا نرجو ان تكون دعوة رسول الله لك ..

قال : فلما عرفوا منى الصدق .. قلت لهم : اخبرونى بمكان رسول الله .. فقالوا : هو فى بيت فى اسفل الصفا .. وصفوه .. فخرجت حتى قرعت الباب .. قيل : من هذا ؟ .. قلت : ابن الخطاب .

قال : وقد عرفوا شدتى على رسول الله .. ولم يعلموا باسلامى .. فما اجترأ احد منهم أن يفتح الباب .

فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – « افتحوا له .. فانه ان يرد الله به خيرا يهده ».

ففتحوا لى..واخذ رجلان بعضدى .. حتى دنوت من النبى .. فقال : ارسلوه .. فارسلونى .. فجلست بين يديه .. فاخذ بمجمع قميصى.. فجبذنى اليه .. ثم قال : « اسلم يابن الخطاب .. اللهم اهده » .. قال : قلت : اشهد ان لا اله الا الله وانك رسول الله .

فكبر المسلمون تكبيرة سمعت بطرق مكة .

اسلم عمر – رضى الله عنه – .. فى السنة السادسة من النبوة .. وكان فى السادسة والعشرين من عمره .. بعد اسلام حمزة بثلاثة ايام .. وسماه رسول الله – الفاروق – لأنه حين اسلم قال :

قلت يارسول الله .. السنا على الحق ان متنا او حيينا ؟ .. قال : « بلى والذى نفسى بيده انكم لعلى الحق ان متم او حييتم » .

قال : فقلت : ففيم الاختفاء ؟ والذى بعثك بالحق لتخرجن .. فأخرجناه فى صفين .. حمزة فى احدهما .. وانا فى الآخر .. حتى دخلنا المسجد .. فنظرت الى قريش والى حمزة .. فاصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها .. فسمانى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – « الفاروق » لانه فرق بين الحق والباطل .

قال عمر : لما اسلمت تلك الليلة تذكرت اى اهل مكة اشد عداوة لرسول الله .. حتى آتيه .. فاخبره انى اسلمت .. قال .. قلت : ابو جهل .. فاقبلت حين اصبحت .. حتى ضربت عليه الباب فخرج الى ابو جهل فقال : مرحبا .. ما جاء بك ؟ .. قلت : لأخبرك انى آمنت بالله وبرسوله محمد .. وصدقت بما جاء به .. فضرب الباب فى وجهى .. وقال : قبحك الله وقبح ما جئت به .

فكان اسلام عمر – رضى الله عنه – اكبر ضربة قضت على ابى جهل .. لان ابا جهل عم عمر .

ان اسلام عمر وحده .. لدليل صادق على قوة تاثير القرآن فى القلوب .. وانه ليس من قول بشر .. فنحن نرى ان عمر .. برغم شدة عدائه للمسلمين وللرسول .. ورغم قسوة قلبه .. وقد رايناه يضرب جارية مسكينة اسلمت .. ويظل يضربها حتى تكل يداه .. بدون رحمة ولا شفقة .

ونراه يضرب اخته .. فيشج وجهها .. ويسيل الدم منه .. ولم يلن قلبه لأى شىء من هذا نرى هذا القلب قد خشع ولان .. واستسلم واذعن .. لمجرد قراءة آيات من هذا الكتاب .. فلم يملك نفسه .. وهو العربى الصميم .. ان اعترف بان هذا الكلام ليس من كلام البشر .

وعمر – رضى الله عنه – هو ثانى الخلفاء الراشدين..وقد ضرب به المثل فى الزهد والعدل .. قال على – رضى الله عنه – : ما علمت احدا هاجر الا مختفيا .. الا عمر بن الخطاب .. فانه لما هم بالهجرة .. تقلد سيفه .. وتنكب قوسه .. وانتضى فى يده اسهما .. واتى الكعبة واشراف قريش بفنائها .. فطاف سبعا .. ثم صلى ركعتين عند المقام .. ثم اتى حلقهم واحدة .. واحدة .

وقال : شاهت الوجوه .. من اراد ان تثكله امه .. وييتم ولده .. وترمل زوجته .. فليلحقنى وراء هذا الوادى .. فما تبعه احد منهم .

خلف ابا بكر على المسلمين عشر سنوات ونصف سنة تقريبا .. كان فيها مثالا للعدل فى

اقصى درجاته .. والخوف من الله فى اسـمى مراتبه .. روى انه كانت له زوجة يحبها .. فلما ولى امر المسلمين طلقها .. مخافة ان تشفع اليه فى باطل .. فيدفعه حبها الى طاعتها .. طلبا لرضاها .

وله مواقف تشهد بالقوة والعظمة .. والمجد والحكمة .. والسياسة وبعد النظر.. لا تحصيها المجلدات .. ولا تكفيها السجلات .. ويكفى أن الله — تعالى — انزل الوحى على وفق رايه فى آيات كثيرة .. منها :

تحريم الخمر .. وتحويل القبلة .. وعدم القيام على قبور المنافقين .. وامر النسـاء بالحجاب .. وموقف اسرى بدر .

طعنه ابو لؤلؤة — فيروز — غـلام المغيرة ابن شعبة .. وهو قائم يصلى صبح يوم الاربعاء .. السادس والعشرين من ذى الحجة .. سنة ثلاث وعشرين من الهجرة .. بعد أن كبر تكبيرة الاحرام .. طعنه عدة طعنات .. فقال عمر :

« الحمد لله الذى لم يجعل منيتى على يد رجل يدعى الاسلام » .

وتقول بعض الروايات : ان ابا لؤلؤة كان مجنونا .. لأنه قتل سبعة رجال مع عمر .. ثم قتل نفسه .

ودفن عمر — رضى الله عنه — فى يوم الأحد .. غرة المحرم سنة أربع وعشرين من الهجرة .. وله من العمر ثلاث وسـتون عاما .. دفن فى حجرة السـيدة عائشـة .. مع رسـول الله وأبى بكر .

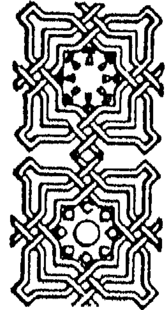
وسرى اسلام حمزة وعمر .. مسرى الريح .. فى الجزيرة العربيـة .. بل وجاوزها الى المسلمين المهاجرين بالحبشة .. ففرحوا وعاد معظمهم الى مكة .. معتقدين ان الأمر قد استتب بها .. وان الاسلام قد ظهر وانتشر .. لكنهم وجدوا تعذيب المستضعفين قد ازداد .. وان الحقد والغل قد باضا وافرخا فى صدور ائمة الكفر وزعماء الشرك .. فامرهم رسـول الله بالهجرة ثانية الى الحبشة .. ليامنوا على دينهم .. وعلى انفسهم .

وقد حاولت قريش منعهم من الهجرة .. بعد ان علموا أن النجاشى يكرم وفادتهم .. ويحسن معاملتهم .. فخرج من خرج بمجهود اشـد من الهجرة الأولى .

وبلغ عدد المهاجرين فى تلك المرة ثلاثة وثمانين رجلا .. واحدى عشرة امراة قرشية .. وسبع نساء غير قرشيات .

وعاشوا عند النجاشى فى خير جوار .. الى ما بعد هجرة الرسول الى المدينة .

***



حصار .. وآية .. وحزن

● اجتمعت قريش على ان يكتبوا كتابا .. يتعاقدون فيه ضد بنى هاشم وبنى المطلب .. الا يزوجوهم ولا يتزوجوا منهم .. ولا يتعاملوا معهم ببيع ولا شراء .. ولا يخالطوهم .. ولا يقبلوا منهم صلحا ابدا .. الا اذا سلموا محمدا ليقتلوه .. وعلقوا هذه الصحيفة فى سقف الكعبة .. وتم الحصار الرهيب . فانحاز بنو هاشم .. وبنو المطلب .. الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى شعب ابى طالب .. الا ابا لهب فقد انضم الى قريش ضد اهله وعشيرته .

دام الحصار ثلاث سنين .. ولكن الأرضة اكلت ما كان فى الصحيفة من عهد ظالم ..ولم تترك الا ما كان فيها من اسماء الله ـ تعالى ـ واخبرهم رسول الله بهذا .. وفك الحصار .

— ٢٦ —
حصار .. وآية .. وحزن

احتدم الصراع بين الخير والشر .. وقوى النزاع بين التوحيد والشرك .. ونفث الشيطان فى قلوب المشركين .. فغلت مراجل الحقد فى صدورهم .. واشتعلت نيران العداوة متاججة فى حنايا ضلوعهم .. فها هو دين محمد ينتشر رويدا رويدا بين قبائل العرب .. وتحية الاسلام تغزو القلوب .. فتسرى فى البادية مسرى النور فى الظلام .. فتلين لها القلوب .. وتخفق بسناها الأفئدة .. لما لها من جرس شجى تطمئن اليه النفس .. ويرتاح به الوجدان .. وها قد اسلم حمزة وعمر .. ولهما ثقلهما ووزنهما بين قبائل العرب .. سواء فى نجد او فى الحضر .

فطاش صوابهم .. واضطربت احلامهم .. وقرروا فيما بينهم ان لا مناص من قتل محمد .

وعلم ابو طالب بما عزموا عليه .. فجمع بنى هاشم وبنى المطلب .. واثار حميتهم ليمنعوا محمدا من قريش .. فاستجابوا له جميعا .. مسلمهم وكافرهم .. وادخلوا محمدا شعبهم .. وقفوا دونه بدافع الحمية العربية .. والنخوة الهاشمية .

واجتمعت قريش يدبرون أمرهم .. ويعملون تفكيرهم .. ثم اتفقوا على ان يكتبوا كتابهم .. يتعاقدون فيه ضد بنى هاشم وبنى المطلب .. الا يزوجوهم ولا يتزوجوا منهم .. ولا يتعاملوا معهم ببيع أو شراء .. ولا يخالطوهم .. ولا يقبلوا منهم صلحا ابدا .. الا اذا سلموا محمدا ليقتلوه.

وكتبوا بذلك التعاقد صحيفة .. علقوها فى سقف الكعبة .. وتم هذا الحصار .

وقد كتب تلك الصحيفة بغيض بن عامر .. ودعا عليه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فشلت يده .

وعلقت هذه الصحيفة فى هلال محرم سنة سبع من النبوة .. فانحاز بنو هاشم .. وبنو المطلب الى رسول الله .. فى شعب ابى طالب .. الا ابا لهب .. فقد انضم الى قريش ضد اهله وعشيرته .

وبدا الحصار شديدا قاسيا .. فقد منعوا عنهم ضروريات الحياه .. من غذاء وكساء .. وبقوا محبوسين محصورين .. مضيقا عليهم اشد الضيق .. فلا ميره ولا مادة ثلاث سنين .. حتى بلغ بهم الجهد .. وسمع اصوات صبيانهم يبكون من الجوع من وراء الشعب .. فلم يكن يصل اليهم شىء الا سرا .. مستخفيا به من يريد صلتهم من قريش .

وقد بذل ابو جهل كل ما يستطيع من جهد لاحكام هذا الحصار .

وقد ذكر ابن هشام فى سيرته .. ان ابا جهل لقى حكيم بن حزام بن خويلد بن اسد .. معه غلاما يحمل قمحا يريد به عمته خديجة .. وهى عند رسول الله فى الشعب .. فتعلق به وقال : اتذهب بالطعام الى بنى هاشم ؟ .. واللات لا تبرح بطعامك .. حتى افضحك بمكة .. فجاءه ابو البحترى وقال : طعام كان لعمته عنده . بعثت اليه فيه .. افتمنعه ان يأتيها بطعامها ؟ .. خل سبيل الرجل .. فابى ابو جهل .. حتى نال احدهما من صاحبه .

دام الحصار كل تلك المدة .. وانفق رسول الله وخديجة وابو طالب كل اموالهم .. حتى وصلوا الى حد الضر والفاقة .

وفى هذا الموقف قال ابو طالب قصيدته اللامية المشهورة .. وقد ذكرتها بعض كتب السيرة ومطلعها : جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا (١) .

وكانت قريش فى ذلك بين راض وكاره .. فسعى فى نقض الصحيفة الكارهون لها .. قام بذلك هشام بن عمرو بن الحارث بن حبيب ابن نصير بن مالك .

مشى فى ذلك الى المطعم بن عدى وجماعة من قريش .. فتحدثوا بنقض الصحيفة .. لما فيها من ظلم وعدوان وقطيعة للرحم .. وضربوا المثل بما جرى لبغيض بن عامر الذى كتبها .

ويالسخرية القدر بهم .. فقد اكلت الأرضة ما كان فى الصحيفة .. من عهد ظالم .. واتفاق غاشم .. ونزل جبريل – عليه السلام – واخبر النبى بأن الصحيفة التى تضم هذه الاتفاقيات الظالمة الغاشمة .. قد اكلتها الارضه .. اكلت ما كان فيها من جور وظلم وقطيعة .. ولم تترك الا ما كان فيها من اسماء الله – تعالى – .

فاخبر بذلك عمه ابا طالب .. فخرج الى قريش .. واخبرهم ان ابن اخيه قال كذا وكذا عن الصحيفة .. فان كان كاذبا خلينا بينكم وبينه .. وان كان صادقا رجعتم عن قطيعتنا وظلمنا .. قالوا : قد انصفتنا .

وانزلوا الصحيفة .. ففتحوها .. فوجدوها كما اخبر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فسقط فى ايديهم .. ونكسوا رءوسهم .. ولكنهم ازدادوا كفرا وكبرا .

فقال ابو طالب : علام نحبس ونحصر .. وقد ظهرت الحقيقة واصبحت جلية ؟ .. ثم دخل هو واصحابه بين استار الكعبه .. فقال : « اللهم انصرنا على من ظلمنا .. وقطع رحمنا .. واستحل حرماتنا » .. ثم انصرفوا الى شعبهم .

وتلاوم رجال من قريش .. على ما صنعوا ببنى هاشم .. وكان فيهم مطعم بن عدى .. وعدى بن قيس .. وزمعة بن الاسود .. وابو البخترى بن هشام .. وزهير بن امية .. فلبسوا السلاح .. ثم خرجوا الى بنى هاشم وبنى المطلب .. وامروهم بالخروج من الشعب الى مساكنهم ففعلوا .. وسقط فى ايدى قريش .. وغلبوا على امرهم ولم يستطعوا شيئا .

قال ابن عبد البر : كان ذلك فى السنة العاشرة من النبوة .

---

(١) بالكامل فى – زاد المعاد – ص ٥١ ج ٢ .

وبعد ستة اشهر من فك الحصار عن المسلمين .. مرض ابو طالب مرض الوفاة.. وهذا الوقت يوافق عام ٦٢٠م .

لقد كان ابو طالب مدافعا قويا عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وروى أن رسول الله قال : « مازالت قريش كاعة (١) عني .. حتى مات عمي » .

وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يحب ان يسلم عمه .. فلما اشتد مرضه .. قال له :

« قلها ياعمي استحل لك بها الشفاعة يوم القيامة » يقصد : قل الشهادة .

فقال له ابو طالب : ياابن اخي .. لولا مخافة المسبة .. وان تظن قريش انما قلتها جزعا من الموت لقلتها .. فانزل الله تعالى : « انك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء » (٢) .

وجاء في أسد الغابة .. عن هشام بن السائب الكلبي .. عن أبيه .. انه قال :

لما حضرت ابا طالب الوفاة .. جمع اليه وجوه قريش .. فأوصاهم .. فقال : يامعشر قريش .. انتم صفوة الله في خلقه .. الى ان قال : انى أوصيكم بمحمد خيرا .. فانه الأمين في قريش .. والصديق في العرب .. وهو الجامع لكل ما اوصيكم به .. وقد جاء بأمر قبله الجنان .. وانكره اللسان .. مخافة الشنآن .. وايم الله لكأني انظر الى صعاليك العرب وأهل الوبر والاطراف والمستضعفين من الناس .. وقد اجابوا دعوته .. وصدقوا كلمته .. وعظموا امره .. فخاض بهم غمرات الموت .. فصارت رؤساء قريش وصناديدها اذنابا .. ودورها خرابا .. وضعفاؤها اربابا .. واذا اعظمهم عليه أحوجهم اليه .. وأبعدهم منه احظاهم عنده .. قد محضته العرب ودادها .. واصفت له فؤادها .. واعطته قيادها .. يامعشر قريش كونوا له ولاة .. ولحزبه حماة .. والله لا يسلك احد مسلكه الا رشد .. ولا يأخذ بهديه الا سعد .. ولو كان لنفسي مدة .. ولاجلي تأخير .. لكففت عنه الهزاهز .. ولدفعت عنه الدواهي .

ثم مات عن سبع وثمانين سنة .. في السنة العاشرة من الرسالة .

وحزن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لموته .. وقال :

« رحمك الله وغفر لك.. لا ازال استغفر لك حتى ينهاني الله » .

فأخذ المسلمون يستغفرون للمشركين من موتاهم .. حتى أنزل الله ـ تعالى ـ :

« ما كان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم انهم اصحاب الجحيم » (٣) .

والمشهور ان ابا طالب مات كافرا .. ولكن الشيعة يقولون : مات مسلما .

ونحن نسأل الله ـ خلف رسول الله ـ له المغفرة .. بما قدم للرسول من حب وود وفداء .

وترك من الاولاد : جعفر .. وعلي .. وعقيل .. وطالب .. وام هانيء ـ واسمها فاختة ـ وجمانة .

وكان الفراق الثاني .. بعد فراق أبي طالب .. هو فراق زوجته ـ السيدة خديجة ـ فقد توفيت بعد ابي طالب بثلاثة ايام او خمسة .. في شهر رمضان .. من العام العاشر للنبوة .. قبل الهجرة بثلاث سنين ولها خمس وستون سنة .. بعد ان عاشرته ما يقرب من خمسة وعشرين عاما .. ودفنها رسول الله بالحجون .. وحزن عليها .. ونزل حفرتها .. فقد كانت له مثال الزوجة الوفية .. فبذلت نفسها ومالها لله ورسوله .

---

(١) الكاع : الجبان .. كانوا يجبنون عن اذى النبي في حياة ابي طالب .

(٢) ٥٦ ـ القصص .

(٣) ١١٣ ـ التوبة .

وكان فراقها اشد على نفس رسول الله من فراق عمه ابى طالب .

لقد كانت وفاتهما صـــدمتين كبيرتين .. بالنسبة له ــ عليه الصلاة والسلام .

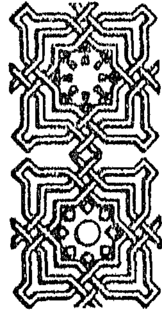
كانا قلبين كبيرين .. يحيطانه بسياج من الحب والفـداء .. والود والولاء .. كانا له ساترا عاصما من اذى السـفهاء .. وبطش الجهلاء .. فبعد فقدهما .. اشتد اذى قريش له .. وساطوا عليه غلمانهم وسفهاءهم ينثرون عليه التراب .. ويطرح بعضـهم عليه روث الشياه وسـلاها .

ولهذا سمى هذا العام ــ عا مالحزن ــ .

ثم تزوج ســودة بنت زمعة ــ رضى الله عنها ــ لتخدمه .. وهى اول زوجاته .. بعد موت السيدة خديجة .

اسلمت السيدة سـودة قديما .. وكانت تحت ابن عمها السـكران بن عمرو .. اسـلم معها .. وهاجرا الى الحبشة فى الهجرة الثانية .. ومات زوجها .. فتزوجها رسول الله .. وقد تنازلت عن يومها ــ فيما بعد ــ للسيدة عائشة .. وتوفيت بالمدينة .

* * *



إلى الطائف

وضع عداس طبق العنب بين يدى رسـول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان عداس يعمل فى بستان عتبة وشيبة ابنى ربيعة .. وكانا مشركين .. فمد الرسول يده فى العنب .. قائلا : بسم الله الرحمن الرحيم ـ ثم أكل .. فنظر عداس الى وجهة .. ثم قال : ان هذا الكلام ما يقوله اهل هذا البلد .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ له : « من أى البلاد أنت .. وما دينك ؟ »

قال : نصرانى .. من نينوى .

فقال له : « من قرية الرجل الصالح .. يونس بن متى ؟ »

قال عداس : ومايدريك ما يونس بن متى :

قال : « ذاك أخي .. وهو نبى مثلى »

فاكب عداس على يديه وراسه ورجليه يقبلها .

— ٢٧ —
الى الطائف

لنتخيل معا مدى البلاء الذى يعانيه — عليه الصلاة والسلام — فى تلك الفترة من الزمن .. فأغلب المسلمين قد هاجر الى الحبشة .. وفرق الموت بينه وبين ارحم قلبين : قلب عمه أبى طالب .. وقلب زوجته خديجة .. واستغل غلاظ الأكباد قساة القلوب من قريش ما هو فيه من قلة الأعوان .. وفقدان الخلان .. فأغروا به سفهاءهم .. يؤذونه فى كل مكان يقصده .. او طريق ينشده .. فرأى ان يترك مكة الى مكان آخر .. حتى يأتى وعد الله .. واختار الطائف .

ويخيل الى .. ان هذا العام كان قمة الابتلاء بالأذى بالنسبة له — عليه الصلاة والسلام — وقد سالته ام المؤمنين عائشة — رضى الله عنها — فى صحيح البخارى ومسلم .. قالت :

قلت للنبى — صلى الله عليه وسلم — : هل أتى عليك يوم اشد من يوم احد ؟ .. قال :

« لقد لقيت من قومك .. وكان اشد ما لقيت منهم يوم العقبة .. اذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن كلاب » .. وذكر حديث الطائف .

وذلك ان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بعد موت أبى طالب وخديجة .. اشتد البلاء عليه من سفهاء مكة .. وتجرءوا عليه .. فكاشفوه بالأذى .. فخرج الى الطائف .. واخذ معه مولاه زيد بن حارثة .. على امل أن يؤووه وينصروه على قومه .. ويمنعوه منهم .. كان ذلك فى السابع والعشرين من شوال .. فى السنة العاشرة من النبوة .

والطائف على مسافة خمسة وستين ميلا .. فى الجنوب الشرقى من مكة .. وكانت مصيف أغنياء مكة .. لجودة مناخها .. وخصب أرضها .. وكثرة فاكهتها وعنبها .. الذى يضرب المثال بطيبه وجودته .. وهى مقر عبادة — اللات — .

ذهب الى جماعة من اشرافهم .. ودعاهم الى عبادة الله وحده .. فقال احدهم :

اما وجد الله احدا يرسله غيرك ؟ .. وقال آخر : لا اكلمك .. لانك ان كنت رسولا من الله كما تقول .. فانت اعظم خطرا من ان ارد عليك الكلام .. وان كنت كاذبا فما ينبغى لى ان اكلمك .

واغروا به سفاءهم ومواليهم وغلمانهم .. يسبونه ويرمونه بالحجارة .. حتى دميت قدماه .

اختضبت نعلاه بالدماء .. وكان اذا ازلقته الحجارة .. قعد الى الأرض .. فياخذونه بعضديه فيقيمونه .. فاذا مشى رجموه وهم يضحكون .. وزيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى شج راسه .. والجاه الناس الى حائط .

فلما اطمان .. ورجع الناس عنه .. رفع يديه الى السماء وقال :

« اللهم اليك اشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس .. ياأرحم الراحمين .. انت رب المستضعفين وانت ربى .. الى من تكلنى ؟ .. الى بعيد يتجهمنى (١) .. ام الى عدو ملكته امرى (٢) ؟ .. ان لم يكن بك غضب على فلا ابالى .. ولكن عافيتك اوسع لى .. اعوذ بنور وجهك الذى اشرقت له الظلمات .. وصلح عليه امر الدنيا والآخرة .. من ان يحل بى غضبك .. او ينزل على سخطك .. لك العتبى حتى ترضى .. ولا حول ولا قوة الا بك» .

يقول ــ عليه الصلاة والسلام ــ فى حديث عائشة .. الذى رواه البخارى ومسلم .. والذى اشرنا اليه من قريب : « فرفعت راسى .. فاذا بسحابة قد اظلتنى .. فنظرت فاذا فيها جبريل ــ عليه السلام ــ فنادانى .

فقال لى : ان الله قد سمع قول قومك .. وما ردوا به عليك .. وقد بعثت اليك ملك الجبال .. لتامره بما شئت .. فنادانى ملك الجبال .. فسلم على .

ثم قال : يامحمد .. ان الله قد سمع قول قومك .. وما ردوا به عليك .. وانا ملك الجبال .. وقد بعثنى ربى اليك .. لتامرنى بامرك .. ان شئت اطبق عليهم الأخشبين ــ وهما جبلان يحيطان بالقرية ــ .

فقال ــ صلى الله عليه وسلم ــ بل ارجو ان يخرج من اصلابهم من يعبد الله وحده .. ولا يشرك به شيئا » .

وخرج ــ عليه الصلاة والسلام ــ من الطائف منهك البدن .. مرهق الأعصاب .. ومر فى طريقه بعتبة وشيبة ابنى ربيعة .. فى بستان لهما .. جلس يستريح الى جانب حائطه .. فلما رايا ما أصابه تحركت له رحمهما .. فبعثا له غلاما نصرانيا يعمل فى بستانهما .. ومعه قطف عنب موضوع فى طبق .. واسم الغلام ــ عداس ــ فوضع عداس الطبق بين يدى رسول الله .. ومد الرسول يده فى العنب .. قائلا : « بسم الله الرحمن الرحيم » .. ثم اكل .

فنظر عداس الى وجهه .

ثم قال : ان هذا الكلام ما يقوله اهل هذا البلد .. فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ له :

« **من اى البلاد انت وما دينك** » ؟ .

قال : نصرانى من ــ نينوى ــ .

فقال له : « من قرية الرجل الصالح يونس ابن متى » ؟ .

(١) يعبس فى وجهى ــ يقصد اهل الطائف .

(٢) يقصد ابا جهل .

فقال : وما يدريك ما يونس بن متى ؟

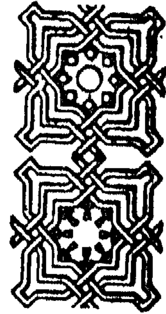
قال : « ذاك اخى .. وهو نبى مثلى » .

فاكب عداس على يديه وراســـه ورجليه يقبلها .

فقال ابنا ربيعة .. احدهما لصاحبه : اما غلامك فقد افسده عليك .. فلما جاء عداس .. سألاه : مالك تقبل راس هـذا الرجـل ويديه وقدميه ؟ ..

قال : يا سيدى لقد اخبرنى بأمر لا يعلمه الا نبى .. فقالا : ويحك ياعداس .. لايصرفنك عن دينك ودين ابائك .

* * *



مع رسل الجن

لم يحدثنا العلم عن اسماء رســـل الجن .. الذين ولوا الى قومهم منذرين وما علينا الا أن نتلمس المعانى بعد النص القرآنى .. فهم مصروفون ومدفوعون من الله .. أن اذهبوا الى محمد .. فاستمعوا الى ما أوحى اليه .. ثم بلغــوه اقوامكم .. ((فلما حضروه قالوا انصــتوا)) وكانوا احســن من الانس الذين قالوا ((لا تسمعوا لهذا القرن والغوا فيه)) .

● عندما نزل قول الله تعالى فى ســورة الرحمن ((فبأى آلاء ربكما تكذبان)) اتجه ـ عليه السلام ـ الى الصحابة وقال : ((ســبقكم بها الجن)) .. قالوا : ماذا يا رسول الله ؟ .. قال : ((عندما توجه السؤال من الله ـ سبحانه ـ الى الثقلين : الانس والجن .. بقوله ((فبأى آلاء ربكما تكذبان)) ؟

قالت الجن : ((ما بشىء من آلائك نكذب يا ربنا))

فهــل الجن أحســن وعيا للقــرآن .. ولما فيه من اساليب البيان ..

— ٢٨ —
مع رسل الجن

وانصرف — عليه الصـلاة والسلام — عن **الطائف عائدا الى مكة .. حتى اذا وصلا مكانا بين الطائف ومكة اسمه — نخلة — نزل به .. وقام يصلى فى الليل .. فصرف الله اليه نفرا من الجن .. قيل — سبعة — وقيل اكثر .. فاستمعوا قراءته وكان يقرأ سورة الجن .. ولم يشعر بهم رسول الله .. حتى انزل الله عليه :**

« واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا انصـتوا فلما قضى ولو الى قومهم منذرين * قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا انزل من بعد موسى مصدقا لمـا بين يديه يهدى الى الحق والى طريق مستقيم » الى آخر الآيات (١) .

والبحث هنا يجبرنا على الوقوف لحظة مع عالم الجن .. وهم الثقل الثانى المساوى للانس فى الطاعة والمعصية .. وفى الأكل والشرب .. والتناسل والموت .. والثواب والعقاب .. والله — سبحانه — يقول فى سورة الرحمن :

« سنفرغ لكم أيها الثقلان » (٢) الثقل الانسى .. والثقل الجنى .

كما يقول — سـبحانه — :

« ولقـد ذرانا لجنهـم كثيرا من الجـن والانس » (٣) .. وغيرها فى القرآن الكريم كثير .

فاذا كانت اجسام الانس طينية .. فأجسام الجن نارية لطيفة .. تتكثف وتلطف .. وهم ليسوا من نطاق العالم المشهود .. فهم والملائكة من عالم الغيب .. الذى يلزم المسلم الايمان به غيبيا .

ولفظ — الجن — لغويا .. مشتق من الجيم والنون .. وكل مشتقات الجيم والنون تفيد معنى الستر .

فنحن نقول : جن عليه الليل : اى سـتره الليل بظلمته .. ونقول عن المجنون مجنونا : اى مستور العقل .. ويقال للجنين جنينا : طالما كان مستورا فى بطن امه .. فاذا خـرج من البطن لا يقال له جنين .. حتى الحدائق تسمى جنات .. لانها تستر من فيها لارتفاع اشجارها .

---

(١) ٢٩ — ٣٠ / الاحقاف .
(٣) ١٧٩ — الاعراف .
(٢) ٣١ — الرحمن .

ولم يحدثنا العلم الى اليوم عن أسماء الرسل الجنيين .. الذين ولوا الى قومهم منذرين .. وما علينا الا أن نتلمس من النص القرآنى الذى ذكرناه .. فهم مصروفون ومدفوعون من الله بقوة الالهام .. أو بهاتف السماء .. الذى امرهم ان اذهبوا الى محمد .. فاستمعوا الى ما أوحى اليه .. ثم بلغوه أقوامكم .. وحددوا موقفكم من القرآن .

بدليل قوله تعالى :

« قل أوحى الى انه استمع نفر من الجن فقالوا سمعنا قرآنا عجيبا * يهدى الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا احدا » .. وتلك الآية هى مطلع سورة الجن .. فلمن قالوا ؟ .

القرآن نفسه يرد على هذا السؤال .. فيقول :

« فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين * قالوا ياقومنا » .

وكانوا أحسن من الانس .. الذين قال الله عنهم :

« وقالوا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه » (١) .. اما الجن « فلما حضروه قالوا انصتوا » ولا تهرجوا ولا ترفعوا اصواتكم فوق كلام الله .. وبهذا كانوا صالحين للحال الذى ذهبوا بها .. حاملين من روح القرآن ونوره الى قومهم رسالة .. بوصف كونهم منذرين .. والنذير الذى يحمل دعوة الحق رسول .

والنص فى سورة الجن يقول بلسان الجن :

« وانا منا الصالحون ومنا دون ذلك » ويقول ايضا :

« وانا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن اسلم فأولئك تحروا رشدا » (٢) .

ونفهم من هنا أن فى الجن مؤمنين .. وفيهم ايضا ضالون منحرفون .. ولكن الرسول — صلى الله عليه وسلم — اشار الى المؤمنين منهم .

عندما قال لأصحابه .. عند نزول قوله تعالى .. فى سورة الرحمن :

« فبأى الاء ربكما تكذبان » ؟ فقال : « مابشىء من آلائك نكذب ياربنا » ثم اتجه الى الصحابة وقال : سبقكم بها الجن » .

قالوا : ماذا يارسول الله ؟.

قال : عندما توجه السؤال من الله — سبحانه — الى الثقلين : الجن والانس .. بقوله « فبأى آلاء ربكما تكذبان » ؟ .

قالت الجن :

ولا بشىء من آلائك نكذب ياربنا » .

ومعنى هذا أن الجن أحسن وعيا للقرآن .. ولما فيه من أساليب البيان .. بلغته العربية المبينة .. ومواقع الأسئلة الالهية فيه .. ولولا هذا الوعى الفنى لديهم .. لما قالوا : « قرآنا عجبا » ولما أدركوا أنه « يهدى الى الرشد » .. وقالوا « فآمنا به » .

واستفادوا من حكمته فى التوحيد المطلق .. والتوحيد المجرد هو هدف الأهداف من هذا الكتاب كله .. فقالوا « ولن نشرك بربنا احدا ».

أليس عجيبا أن يعرض عنه العرب .. وهم سدنة البيان .. وأعلام الفصاحة .. فى الوقت الذى تقبل عليه خلائق الجن ؟ .

ويبدو — فيما أعلم — أن أحدا من المفسرين .. لم يتعرض لشرح الطريقة .. التى كانت تعرب بها آيات القرآن الكريم للجن .. وهو بلسان عربى مبين .. ولا كيف كانوا يدركون المعانى العليا .. التى تحتويها تلك العبارات السامية .. على ما فيها من فنون البلاغة : من بديع وبيان .. ولا ندرى كيف تعلم الجن لغة العرب .. بفنونها هذه .

لم يخبرنا أحد من المفسرين .. كيف تسنى للجن أن يجدوا فى الكتاب الحكيم « **قرآنا عجبا** يهدى الى الرشد » .. مع أن كثيرا من الانس العرب .. لم يتيسر لهم ادراك هذه المفاهيم العليا .

والقرآن فيه ما فيه من آيات لأولى الألباب وذوى البصائر .. فهل للجن من القوى الادراكية والعقلية ما يجعلهم أحسن فطنة .. وأدق تقديرا .. لأسرار هذه اللغة .. التى انزل الله بها كتابا فصلت آياته .. واتضحت بيناته ؟ .

مهما يكن من أمر .. فان النصوص قاطعة الدلالة .. على أن الجن فهموه فهما أدى بهم الى الهداية والايمان .. على أن المتواتر بين العرب .. هو وجود شعراء من الجن .. فقد ورد كثير من الأنباء عن شعر الجان .. وانه ما من شاعر من الانس .. الا كان له وحى من شاعر جنى .. كما قيل — لولا هبيد ما كان لبيد — .

---

(١) ٢٦ — فصلت .

(٢) ١٤ — الجن .

وومما يجدر بنا الاشارة اليه .. ذلك الهاتف الجنى .. الذى صاح عشيا من اعلى جبل ابى قبيس .. ينادى أهل الندوة فى مكة .. بعد هجرة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وصاحبه من مكة .. وانباهم عن قيامه ـ عليه السلام ـ بمعجزة فى الطريق .. ووصوله بسلام .. حيث قال هذا الهاتف :

جزى الله رب الناس خير جزائه
رفيقين حلا خيمتى ام معبد
هما نزلا بالبر .. وارتحلا به
وافلح من أمسى رفيق محمد
ليهن بنى كعب مكان فتاتهم
ومقعدها للمؤمنين بمرصد

فهذا الشعر تاليف جنى .. هتف به .. وهذا الشاعر دل على علمه بخط سير النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو وصاحبه .. ومرورهما فى الطريق على امراة فى بيت من الشعر .. تسمى ـ ام معبد ـ .

وسنعرض لحديث ام معبد ـ فى رحلة الهجرة ان شاء الله .. فهو حديث ممتع .

وقد اجمع رجال السيرة .. على انها اصدق امراة برعت فى وصف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من حيث صورته .

هذا ما اشار اليه الشاعر الجنى .. وهو يدل على أن الجن يوجدون فى كثير من الأماكن .. دون أن يراهم أحد .. لأن الله يقول :

« انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم »(١) .. وقبيله أى جنسه .

ومما ادى بوفد الجن ونقبائهم الى تاييد التحرر من ربقة الشك .. ووهدة الشرك .. اعلانهم أنهم آمنوا ايمانا مترتبا على سماعهم لآيات الهدى .. حيث يقولون فى سورة الجن :

« وانا لما سمعنا الهدى آمنا به » والايمان اعلى مرتبة من الاسلام .. وليس بعد الايمان الا الاحسان .. والاحسان أعلى مراتب الدين .

وقد اعترفوا بانهم قبل بعثة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد لمس بعضهم السماء لاستراق السمع .. ومحاولة معرفة ما يحدث لبنى آدم من الأمور والأحداث .. وانهم وجدوها بعد مبعثه ـ عليه الصلاة والسلام ـ « قد ملئت حرسا شديدا وشهبا » **لتدفع المردة منهم عن استراق السمع ومحاولة تخطى الغيب .. والآية صريحة :**

« وانا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا * وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا » .

وهذا يدل على أن لهم من القوى .. ما يجعلهم فى المستوى الذى لا تبلغ اليه قوى البشر الا بسلطان العلم .. فالانسان لم يستطع بلوغ السماء الا بسفن حققها له العلم .

ولعل هذا هو السبب فى عبادة الجن عند بعض البشر .. ولا تزال هذه العبادة شائعة عند أولئك الذين يسمون الجن ـ بالأسياد ـ .. وهو جمع خاطىء ـ من حيث اللغة ـ يقصدون به السادة .

ومتى كان الجن سادة .. كانوا هم عبيدا لهم .

وقد يعجبك هذا الخطا اللغوى من العوام فى مثل هذا المقام .. **لان الاسياد ـ جمع سيد ـ** بفتح الياء وتشديدها .. هو التيس بين العنزان .. وجمع سيد أيضا على وزن عيد .. وهو الذئب .

فالجن الذين يتعرضون للبشر .. هم اشبه بالذئاب المنقضة .. التى لا تعمل الا فى الظلام .. وهؤلاء الأسياد لا سلطان لهم على مؤمنى الانس .. ولولا هذا لأصابت البشرية ضربات خفية من مردة الجن .

وقد اشار ـ سبحانه ـ فى كتابه .. تنديدا بالذين يعبدون الملائكة :

« **ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة اهؤلاء اياكم كانوا يعبدون * قالوا سبحانك انت ولينا** من دونهم بل كانوا يعبدون الجن اكثرهم بهم مؤمنون » (٢) .

فهؤلاء الذين يحاولون بالوسائل السوداء الاستعانة بأفراد من الجن .. لتنفيذ مآربهم .. والحصول على مطالبهم .. قوم حكم القرآن بكفرهم .. **لقوله تعالى :**

ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا اجلنا الذى اجلت لنا قال النار مثواكم) (٣) .

وهؤلاء هم الذين يقول الله عنهم .. فى سورة ـ الجن ـ التى نستعرضها الآن :

(١) ٢٧ ـ الاعراف .
(٢) ١٢٨ ـ الانعام .

(٢) ٤٠ ـ ٤١ ـ سبأ .

(وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا) (١) .

ويمتاز المؤمن من الانس بمناعة .. تجعله خارجا عن نطاق تغرير شياطين الجن واستهوائهم .. وتزيينهم الشر لأوليائهم من الانس .. لصريح قوله تعالى لشيطان الجن الأكبر :

(ان عبادى ليس لك عليهم سلطان) (٢) .

وبانتفاء هذا السلطان .. يستفيد المؤمن فائدة كبرى .. اذا مسه شيطان الجن .. حيث يوقظه هذا المس .. ويحرك فيه قوة الدفاع الالهية .. حيث يقول تعالى :

(ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون) (٣) .

ويلزم المؤمن هنا ان يعلم أن السنة أكدت امكان اتصال شياطين الجن بالانسان « حيث **سن ـ عليه الصلاة والسلام ـ للمؤمن ان يقول قبل مباشرة زوجته :**

« اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان مارزقتنا » .

والجن ثقل مكلف بالعبادات الانسانية .. من صلاة وزكاة وصوم وحج .. وتحر للحلال فى ماكلهم ومشربهم ونسائهم .. وهذا يدل على اشتراك فعلى .. فى الافادة من طبيعة الحياة الارضية .. وبحسبك أن تستشعر الاشتراك العنصرى بين آدم وذريته .. وابليس وجنسه .. حين قال الله تعالى : (اهبطوا منها جميعا)

.. والخطاب هنا بالجمع لآدم وحواء وابليس :

(فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) (٤) . سواء كانوا من الانس أو الجن معا .

كما تظهر المشاركة صريحة .. فى قول الله تعالى لابليس :

وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان الا غرورا) (٥) .

ولا وقاية منه الا بذكر اسم الله فى كل شىء .. **فقد سأل ابليس ربه عن طعامه .. فقال له :** طعامك مالم يذكر اسمى عليه .

ولكن هذا البحث متعلق بمدى معرفة الجن بلغة القرآن الكريم .

فاذا كان من المسلمات المام الجن بمفاهيم الكلمات العربية .. مع انهم كانوا يعيشون قبل آدم :

(والجان خلقناه من قبل من نار السموم) (٦) .

اى من قبل آدم .. فكيف تعلموا لغة الذريات من بنى آدم ؟ .. هل تلقنوها تلقينا ؟ ومن هو الذى لقنهم ؟ .. هل درسوها بالمباشرة والمخالطة ؟ .. أو بواسطة أخرى ؟ .

كل هذه الأسئلة .. تدور فى نفس الانسان .. لا يكاد يطمع فى ان يتلقى جوابا على حيرته فيها ـ اللهم الا اذا فهمنا أن اللغة العربية .. هى لغة الكون الأصلية .. وما عداها من اللغات .. اقد تفرع منها نتيجة اختلاف البيئات وتطور اللهجات .

والغالب ان للجن حياة فكرية .. وقوى عقلية .. بها كانت لهم من آيات القرآن هداية .. ومن نوره عناية .. جعلتهم أسبق من الانس فى الاجابة عن آيات الرحمن :

(فبأى آلاء ربكما تكذبان) كما أشرنا من قبل .

ولعل الزمن يكفل لنا فى المستقبل الحصول على مزيد من العلم بهذا الأمر الكبير .

تلك خواطر جالت فى الفكر .. أوحت بها عبارة الجن !

(فلما حضروه قالوا انصتوا * فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين) .. والى القلم الا أن يكتبها .. نتركها الآن .. **فلعل الحديث عن** الجن .. لم يبعد بنا عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنخلة .. وهو عائد الى مكة .. من رحلة الطائف القاسية المضنية .. فبعد أن صرف الله اليه رسل الجن .. فاستمعوا منه

---

(١) ٦ ـ الجن .

(٢) ٦٥ ـ الاسراء .

(٣) ٢٠١ ـ الاعراف .

(٤) ٣٨ ـ ٣٩ ـ البقرة .

(٥) ٦٤ ـ الاسراء .

(٦) ٢٧ ـ الحجر .

سورة الجن .. وعادوا الى قومهم منذرين .. عاد هو ايضا الى طريق مكـــة .. بعد ان اقام بنخلة اياما .. فقال له زيد بن حارثة :

يارسول الله .. كيف تدخـل عليهم وقـد اخرجوك ؟ .. يعنى قريشا .. فقال :

« يا زيد ان الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا .. وان الله ناصر دينه .. ومظهـر نبيـه » ثم انتهى الى ظاهر مكة .

ومر به رجل من اهل مكـة .. من خـزاعة .. فقال له رسول الله — صلى الله عليه وسلم :

« هل انت مبلغ عنى رسالة ارسلك بها » ؟ قال : نعم .. قال :

« ائت الأخنس بن شريق . هـــو ابـــى ابن شريق — فقل له : يقول لك محمد .. هـل انت مجيرى .. حتى ابلغ رسالة ربى » ؟ .

فاتاه فقال له ذلك .

فقـال الاخنس : ان الحليف لا يجير على الصريح .. فاتى النبى فاخبـــره .. فقال له النبى :

(هل تعود) ؟ .. قال : نعم .

قال : « ائت المطعم بن عـدى فقل له : ان محمدا يقول لك .. هل انت مجيرى .. حتى ابلغ رسالة ربى » ؟ .

قال المطعم : نعم فليدخل .. قد اجــرت محمدا .

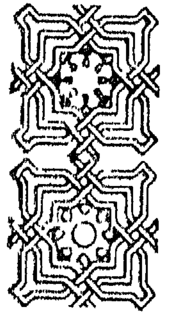
واصبح المطعم بن عدى وقد لبس السلاح هو وابناؤه وابناء اخيه وقومه .. فدخلوا المســجد .. ووزعوا انفســهم عند اركان البيت .. ورآه ابو جهل .. فقال له : امجـــير ام متابع ؟ .. قال : بل مجير .. قال : قد اجرنا من اجرت .

فدخل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مكة .. ومعه زيد بن حارثة .. حتى انتهى الى المسجد الحرام .. فقام مطعم بن عـــدى على راحلته فنادى : يا معشر قريش .. اعلموا انى قد اجرت محمدا .. فلا يهجه احـد منكم .. فانتهى رسول الله الى الركن فاستلمه .. وصلى ركعتين وانصرف الى بيته .. ومطعم بن عـدى وولده محدقون به بالســلاح .. حتى دخـــل بيتــه .

ودخل يوما المسجد الحرام .. والمشركون عند الكعبة .. فلما رآه ابو جهـل قال : هــذا نبيكم يابنى عبد مناف .. فقال عتبة بن ربيعة : وما تنكر أن يكون منا نبى او ملك ؟ .. وســمع النبى هـــذا .. فاتاهم .. فقال : « اما انت يا عتبـــة بن ربيعــة .. فوالله ما حميت لله ولرسوله .. ولكن حميت لأنفـك .. واما انت يا ابا جهل .. فوالله لا يأتى عليـك غير كبير من الدهر .. حتى تضحك قليلا .. وتبكى كثيرا .. واما انتم يا معشر قريش .. فوالله لا يأتى عليكم غير كبير من الدهر .. حتى تدخلوا فيما تنكرون وانتم كارهون » .

نعم لقـد تالم النبى كثيرا .. واوذى كثيرا .. وابتلى كثيرا .. وصبر على كل ذلك صبرا جميلا . لجأ الى الطائف التماســـا للنصرة .. وطلبا لانتشار الدعوة .. ولكنه لقى فيها أشــد انواع البلاء .. وما لجأ الى ثقيف بالطائف .. الا بعد موت ابى طالب والسيدة خديجة .. ولم يستطع — عليه الصلاة والسلام — دخول مكة .. الا فى جوار رجل كالمطعم بن عدى . ان تلك الفترة **عند رسول الله — عليه الصلاة والسلام — كلها آلام متلاحقة .. وبلايا متلاصــقة .. كما راينا وشهدنا .**

* * *



إلى المسجد الأقصى

الحكمة ظاهرة فى لقائه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بجميع الأنبياء .. فى المسجد الاقصى .. وصلاته بهم اماما .. لكى يتحقق الميثاق الماخوذ عليهم بالايمان به ونصره ..

فكان لقاؤه معهم روحيا .. فى عالم الأمر .. وصلاته بهم فى المسجد الاقصى .. فى تلك الليلة .. ليكمل الميثاق .. ويتم العهد .. وتتحقق الشهادة .

— ٢٩ —
الى المسجد الأقصى

لما كان — صلى الله عليه وسلم — ثمرة شجرة الكون .. ودرة صدفة الوجود .. وسر كلمة كن .. لم يكن بد من عرض هذه الثمرة بين يدى مثمرها .. ورفعه الى حظيرة قدسه .. والطواف به بين أرجاء الملأ الأعلى .. ليريه من آياته الكبرى .. وليسرى عنه بعض ما أصابه من بلاء .. وما عانى من شقاء .. فى فترته الأخيرة .. بعد عامين مليئين بالألم .. مفعمين بالعذاب .. عذاب الجسم .. وعذاب النفس .. فقد كادت نفسه تذهب على قومه حسرات .. وأوشك قلبه أن ينقطع فى صدره من أجلهم أنات وزفرات .

فقبل الهجرة بعام وبعض عام .. وبالتحديد فى ليلة الاثنين السابع والعشرين من شهر رجب .. وكان ذلك فى عام ٦٢١ م .. كان — عليه الصلاة والسلام — مضطجعا فى ظلمة الليل بالحجر (١) — حجر اسماعيل — سابحا بروحه فيما وراء الكون .

والسماء فى مثل تلك الليالى المظلمة .. اذا خلت من السحب « يكون لها جمال وجلال » ورهبة وعظمة .. تتلألأ كواكبها .. وتومض نجومها .. وتزهو أبعادها .. وتبدو أعماقها .. وخاصة عند صفوة الأرواح .. وزبدة الأشباح .. محمد — عليه الصلاة والسلام .

خطر بباله أمر لم يخطر بباله من قبل .. انه الآن يسرى الله فى الكوكب اللألاء .. وشاهق السماء .. يراه فى النجوم اللامعة .. والأبعاد الشاسعة . ولكن لروحه الشفافة اشراقات .. ولنفسه العالية تطلعات « ولعله — عليه السلام — قال فى نفسه : أريد ان القى الله فى مكان لم يرق اليه قبلى انس ولاجن ولاملائكة » فقد بلغت الشفافية فى روحه درجة المنتهى .. وبلغت نفسه العالية أسمى منازل الوجود كله .. لتتم له مرتبة القمة والرحمة للعالمين .. من انس وجن وملائكة مقربين .

---

(١) مكان معروف .. ملاصق للكعبة .. بامتداد اربعة أمتار منها تقريبا .. وهو من البيت — يدخل فى المطاف . ويقال له « الحطيم » .. لانه الذنوب تحطم وتزال فيه .

وكان تحقق هذا الامل اقرب اليه من خطور تلك الخواطر فى فكره .

ففى صحيح البخارى .. عن مالك بن صعصعة – رضى الله عنه – أن نبى الله – صلى الله عليه وسلم – حدثهم عن ليلة اسرى به .. قال :

« بينما انا فى الحطيم .. وربما قال فى الحجر .. مضطجعا .. اذ أتانى آت .. فقال .. وسمعته يقول .. فشق ما بين هذه الى هذه » قال الراوى من ثغره الى عانته .. فاستخرج قلبى .. ثم اتيت بطست من ذهب مملوء حكمة وايمانا .. فغسل قلبى.. ثم حشى ثم اعيد .. ثم اتيت بداية .. دون البغل وفوق الحمار ابيض » .. قال الراوى : وهو البراق « يضع خطوه عند اقصى طرفه (١) .. فحملت عليه .

وساق البخارى فى صحيحه .. الحديث بطوله .. الى ان بلغ ما بلغ بعد سدرة المنتهى .

لقد راى – عليه الصلاة والسلام – فى اسرائه الى المسجد الأقصى .. امثالا كثيرة :

فراى مثل المجاهدين : كقوم يزرعون ويحصدون .. وكلما حصد الزرع نبت غيره .

وراى مثل المتكاسلين عن الصلاة المكتوبة .. كقوم ترضخ رءوسهم بالصخر .. كلما رضخت عادت .

وراى الذين لا يؤدون زكاة اموالهم .. كقوم عليهم ثياب مرقعة .. يسرحون كما تسرح الأنعام .. ياكلون الضريع والزقوم ورضف جهنم .

وراى الزناة.. كقوم يتركون اللحم النضيج فى قدر طيب .. وياكلون لحما نيئا فى قدر خبيث .

وراى آكل امانات الناس .. كرجل يحمل حملا ثقيلا .. لا يستطيع حمله .. ويزيد عليه .

وراى خطباء الفتنة ..كقوم تقرض السنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد .. كلما قرضت عادت .

وراى الرجل يتكلم الكلمة العظيمة .. ثم يندم عليها .. كثور عظيم .. خرج من جحر صغير .. ويريد العودة فلا يقدر (٢) .

كما أورد البيهقى وغيره : ان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – نزل فى اسرائه .. قبل المسجد الأقصى فى ثلاثة أماكن وصلى فيها .

ارض ذات نخل – هى يثرب – وأرض بيضاء – هى مدين – وبيت لحم حيث ولد عيسى .

ولكن ابن قيم الجوزية .. انكر تلك الروايات لعدم ثبوتها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعن ابن مسعود .. عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال :

« **ثم دخلت المسجد** .. فعرفت النبيين ما بين قائم وراكع وساجد .. ثم اذن مؤذن .. فاقيمت الصلاة .. فقمنا صفوفا تنتظر من يؤمنا .. فاخذ جبريل بيدى .. فقدمنى فصليت بهم » ولكن المتفق عليه فى الغالب .. أن الذى قدمه للصلاة أبوه ابراهيم – عليه السلام – وهو ما نرجحه .

فعن ابى سعيد :

« **ثم اتى بيت المقدس** .. فربط فرسه فى صخرة .. ثم دخل .. فصلى مع الملائكة .. فلما قضيت الصلاة .. قالوا : ياجبريل من معك ؟ قال : هذا محمد رسول الله وخاتم النبيين .. قالوا : وقد ارسل اليه ؟ قال : نعم .. قالوا :

---

(١) اى بسرعة الضوء .. فوضع الرجل عند آخر مدى النظر .. دليل على مشيه فوق الارض .
(٢) وردت هذه المعالى فى حديث ابى هريرة عند الطبرى والبزاز وغيرهم .

حياه الله .. فنعم الأخ ونعم الخليفـــة .. ثم لقوا ارواح الأنبياء (١) .. فأثنوا على ربهم .

فقال ابراهيم : الحمد لله الذى اتخذنى خليلا .. واعطانى ملكا عظيما .. وجعلنى أمة قانتا يؤتم بى .. وانقذنى من النار وجعلها على بردا وســــلاما .

وبعـد ثناء موسى وداود وسليمان وعيسى على ربهم .. قال عليه الصلاة والسلام ــ اخيرا :

« كلكم اثنى على ربه .. وأنا أثنى على ربى .. الحمد لله الذى ارســــلنى رحمة للعالمين .. وكافة للناس بشيرا ونذيرا ..وانزل على الفرقان فيه تبيان كل شىء .. وجعــــل امتى خير امة اخرجت للناس .. وجعل امتى وسطا .. وجعل امتى هى الأولون والآخرون « وشرح لى صدرى» ووضع عنى وزرى ..ورفع لى ذكرى..وجعلنى فاتحا وخاتما » .

فقال ابراهيم ــ عليه السلام ــ بهذا فضلكم محمد .. وقدمه للصلاة بهم .

وقال أمير الشعراء ــ احمد شوقى ــ فى هذا المقام .. من قصيدته ــ نهج البردة ــ

صلى وراءك منهم كـل ذى خطر ومن يفـز بحبيب الله يأتمم .

ولم يوفق فى كلمة ــ وراء ــ لأنها لا تـؤدى معنى الخلفية التى يقصدها .. **فهى تؤدى معنى** الأماميـــة ــ فقد قال تعالى على لســـان العبـد الصالح .. وهو يحدث موسى عن ســبب خرقه الســـفينة قال :

(**أما السفينة** فكانت لمســـاكين يعملـون فى البحر فأردت ان اعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا) (٢) . بمعنى ان امامهم .. فى طريقهم ملك ظالم .

وكذلك قول زكــــريا فى دعائه (وانى خفت الموالى من ورائى) (٣) . اى فى الزمن المقبل .. والمقبل أمام لا خلف .

وقوله ايضـــا (ان الذين ينادونك من وراء الحجرات) (٤) . اى امام ابوابها .

وقوله (ويذرون وراءهم يوما ثقيلا) (٥) . و (من ورائه جهنم) (٦) . و (ومن ورائهــم برزخ) (٧) . حتى فى كلامنا الدارج نقول : ورائى سفر .. او ورائى عمـــل .. بمعنى امامى .. فاذا أردنا أن نجعل لفظ وراء بمعنى الخلفية .. قلنا وراء الظهر .. كما قال تعالى (**فنبذوه وراء ظهورهم** (٨) وكان الأولى بشوقى ان يقول : وقام خلفك منهم كل ذى خطـــر لتؤدى معنى اقـام الصلاة والخلفية معا .

والحكمة ظاهرة فى لقائه بجميـع الأنبيـــاء بالمسجد الأقصى .. وصـــلاته بهم اماما .. وقد ورد ان عدد الأنبياء كما جاء فى ــ **زاد المعاد** ــ مائة واربعـــة وعشرون الف نبى .. لم يعرفهم كلهم رسول الله لقول الله تعالى له (ورســـلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك) (٩) .

وقوله (ولقدارسلنا رسلا من قبلكمنهممن قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) (١٠).

فكيف يتحقق الميثاق المأخـــوذ عليهم .. بالايمان به ونصره .. الذى يشـــير اليه قوله تعالى :

« واذ اخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصـــدق لما معكم

(١) كان ادريس وعيسى بجسميهما .
(٢) ٧٩ ــ الكهف .
(٣) ٥ مـريم .
(٤) ٤ ــ الحجرات .
(٥) ٢٧ ــ الانسان
(٦) ١٦ ابراهيم .
(٧) ١٠٠ ــ المؤمنون .
(٨) ١٨٧ ــ آل عمران .
(٩) ١٦٤ ــ النساء .
(١٠) ٧٨ ــ نافر .

لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم واخذتم على ذلكم اصرى قالوا اقررنا قال فاشهدوا وانا معكم من الشاهدين) (١) .

والاصر : هو العهد .. فكيف يؤمنون به وينصرونه .. وهم لم يروه ولم يعرفوه .. فكان لقاؤه معهم روحيا فى عالم الأمر .. وصلاته بهم فى المسجد الأقصى .. فى تلك الليلة .. ليكمل الميثاق .. ويتم العهد .. وتتحقق الشهادة .

ثم عرج به — عليه الصلاة والسلام — الى السماء .

وقبل ان نبدأ معه — عليه الصلاة والسلام — رحلة السماء .. تلك الرحلة العلوية القدسية .. اريد ان اناقش روايات .. رددتها قلة من الرواة .. حول حادث الاسراء والمعراج .

فاكثر طوائف المسلمين متفقون على انه اسرى به جسدا وروحا .. ولكن بعض الرواة قال بروحه فقط .. ولو كان الأمر كذلك .. ففيم كان تكذيب قريش له ؟ .. اذا كان الاسراء بالروح .. والجسد باق فى مكانه لم يفقده معاشروه .. فتكون هذه رؤيا رآها .. وهل يعقل ان تقوم قريش وتقعد لأن محمدا قال لهم : رايت فى المنام انى ذهبت الى بيت المقدس ورجعت فى نفس الليلة ؟ .

ولماذا قال له مطعم بن عدى : ان امرك يا محمد كان قبل اليوم أمرا يسيرا غير قولك اليوم .. هو يشهد انك كاذب .. نحن نضرب اكباد الابل الى بيت المقدس .. مصعدا شهرا .. ومنحدرا شهرا .. اتزعم انك اتيته فى ليلة واحدة ؟ .. واللات والعزى لا اصدقك .. وما كان هذا الذى تقول قط . هل كان كلام مطعم هذا لأن الرسول قال لهم : انه ذهب بروحه الى بيت المقدس .. ثم عاد ؟ الم يجرب مطعم وقريش الرؤيا ابدا ؟ .. **الم يكونوا يعلمون أن الروح تنتقل فى المنام بغير حدود زمنية او مكانية .. حتى يتهموه بالخبل والجنون .. بعد اخبارهم بهذا الأمر ؟ .**

ان الاسراء والمعراج كان بالروح والجسد معا من غير شك . ولعل هؤلاء الذين قالوا : ان الاسراء والمعراج بالروح فقط .. يستندون الى حديث السيدة عائشة .. الذى روى مثله عن معاوية .. قالت فيه :

« ما فقد جسم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ولكن عرج بروحه » .

ولو تدبروا هذا الحديث قبل استنادهم اليه « لوجدوا ان السيدة عائشة — رضى الله عنها — كانت مستمعة فقط مثلنا بالنسبة لهذا الحادث » فقد كانت وقته فى سن الطفولة « ولم تتزوج الرسول بعد » ولم يكن فى استطاعتها استيعاب هذا الأمر الجليل الخطير .

وقد دافع ابن الجوزية عن هذا الراى فى كتابه — زاد المعاد — فجاء بتعليل عجيب — لانقرد عليه — قال (٢) :

ان عائشة ومعاوية لم يقولا كاحد منا .. وانما قالا : اسرى بروحه ولم يفقد جسمه .

يريد ان يثبت ان العروج بالروح غير الرؤيا .. فقال بالنص :

ان مايراه النائم .. قد يكون امثالا مضروبة للمعلوم فى الصور المحسوسة .. فيرى انه قد عرج به الى السماء .. او ذهب الى مكة .. او اقطار الارض .. وروحه لم تصعد ولم تذهب .. وانما ملك الرؤيا ضرب له المثال — ا هـ —

ثم قرر فضيلته ان روح رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قد فارقت جسده .. دون ان يموت هذا الجسد .. وذهبت الى ربها ثم عادت .. وجعل هذا هو الفرق بين المنام والمعراج .

---

(١) ٨١ — آل عمران .

(٢) زاد المعاد ص ٥٤ جـ ٢ .

وقد فات الشيخ ـ رحمه الله ـ قول الله تبارك وتعالى ـ عن النوم والموت :

(الله يتوفى الانفس حين موتها .. والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى الى اجل مسمى) (١) .

ومعنى الآية صريح وواضح ..فى ان الأرواح يتوفاها الله عنده فى الحالتين : موتا أو نوما.. ففى الموت يمسكها ويبقيها فى البرزخ .. وفى النوم يرسلها الى صاحبها .. حتى يجيء اجله المقدور .

كما فات الشيخ ـ رحمه الله ـ ان يذكر لنا .. لماذا اذا كان تكذيب قريش له .. مادام جسمه لم يفارقهم ؟ .. **لقد ترك ابن قيم الجوزية المشكلة كما هى .**

لقد أسرى برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ روحا وبدنا وهو يقظ .. اجمع على ذلك الصحابة اللوامع ، والائمة الجوامع وافره العقل والنقل .

وخير ما نختتم به هذا النقاش..راى ذكره الفخر الرازى فى تفسيره (٢) .. قال :

قال اهل التحقيق .. ان الذى يدل على انه تعالى اسرى بروحه وجسده من مكة الى بيت المقدس .. القرآن والخبر .. اما القرآن .. فهذه الاية .. يقصد قوله تعالى :

(**سبحان الذى اسرى بعبده**) الى اخر الآيات .

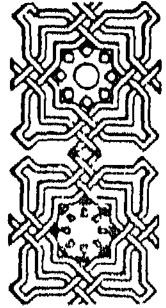
والدليل فيه ان لفظ ـ العبد ـ اسم لمجموع الجسد والروح .. فوجب أن يكون الاسراء حاصلا لمجموع الجسد والروح ..واما الخبر .. فهو الحديث .. المروى فى الصحيح .. وهو مشهور .. يدل على الذهاب من مكة الى بيت المقدس .. ثم منه الى السماوات .

ولنبدأ نحن ايضا رحلتنا الى السماوات . **فى ركب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم .**

* * *

(١) ٤٢ ـ الزمر .

(٢) اول الاسراء .



إلى الملأ الأعلى

ومبلغ العلم .. فى درجة قربه ـ عليه الصلاة والسلام ـ من ربه ـ عز وجل ـ فى هذا المقام :

((ثم دنا فتدلى * فكان قاب قوسين أو أدنى (١)) .

وكيف لا .. وهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو الوحيد فى العوالم كلها الذى سمح له باقتحام النور .. الذى يحرق الملائكة .. ووقف جبريل ـ عليه السلام ـ خارج حدوده .. لأن الله ـ تعالى ـ ((حجابه النور .. لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كل امتد اليه بصره من خلقه)) وهذا حديث مشهور .

---

(١) ٨ ـ ٩ / النجم .

- ٣٠ -
الى الملأ الأعلى

مر عليه الصلاة والسلام - فى رحلة الاسراء والمعراج .. بثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : هى المرحلة الادمية .. مرحلة الاسراء فوق سطح الأرض .. من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى .. بتلك الركوبة .. التى تسير بسرعة البرق - البراق وسرعة البرق هى سرعة الضوء .. ولهذا سمى البراق

والمرحلة الثانية : المرحلة الملائكية .. التى كان محمد فيها « النجم الثاقب » من بيت المقدس صعودا .. حتى اخترق اقطار السماوات وما فوق السماوات .. الى سدرة المنتهى .. حيث تنتهى درجة الملك الاول - جبريل عليه السلام - فتلك نهاية المرحلة الملائكية .. وكان جسمه - عليه الصلاة والسلام - فى تلك المرحلة نورانيا .. او اقرب الى النورانية التى هى اصل التكوين فى أجسام الملائكة .. منه الى الطين الذى هو اصل التكوين فى اجسام البشر .

وقد جانب التوفيق - احمد شوقى - رحمه الله - مرة اخرى لما قال فى نهج البردة :

جبت السماوات او ما فوقهن بهم
على منورة درية اللجم

يقصد بدرية اللجم هنا - البراق - والمعروف ان مهمة - البراق - قد انتهت فى المرحلة الاولى المرحلة الادمية .. التى يلزمها السبب .. فى وسيلة الانتقال .. اما المرحلة الملائكية .. فليست فى حاجة الى تلك الوسائل

ونحن نلتمس لشاعرنا الكبير العذر .. فهو رجل شعر وادب .. وليس رجل دين .

والمرحلة الثالثة : فيما بعد سدرة المنتهى .. فهى مرحلة فوق الملائكية .. بدليل وقوف جبريل .. وعدم استطاعته ملازمته فيها .. مع ان جبريل هو الملك الأول .

ونقول عن جسم الرسول .. فى تلك المرحلة - الجسم الادمى - نقول انه لا شىء .

قلت لنفسي : يكفى ان نتكلم الان عن المرحلة الثانية .. وهى المرحلة الملائكية .. الى سدرة المنتهى .. على امل أن يأخذ الله بيدنا فى هـذا المحيط الرهيب .. المتلاطم بأمواج الانوار .. التى لن يستطيع العقل الطينى .. الذى نحيا به الآن .. أن يحيط بجزء من قطرة منه .

فقد ذكر لنا صحيح البخارى .. في حديث مالك بن صعصعة .. الذى ذكرنا مقـدمته فى الموضـوع السابق « أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ انطلق الى السماوات سماء سماء .. ومعه جبريل .. واستقبله فى السماء الأولى آدم ــ عليه السلام ــ وفى السماء الثانية يحيى وعيسى .. وفى الثالثة يوسف .. وفى الرابعة ادريس .. وفى الخامسة هارون .. وفى السادسة موسى .. وفى السابعة ابراهيم ــ عليهم جميعا صلوات الله وتسليماته .. **وكلهم يقول عند لقائه مرحبا به .. فنعم المجىء جاء »** .

لقد انطلق ــ عليه الصلاة والسلام ــ نجما ثاقبا .. من المسجد الأقصى .. وحلفه عـدد لا يحصى من الانبياء والملائكة .. غير أن لكل منهم درجته ومنزلته .. سواء كان نبيا أو ملكا .

فهؤلاء حدهم السـماء الأولى .. وهؤلاء حدهم الثانية .. وهكذا .. فكل واحد منهم اذا بلغ درجته وبرزخه .. وقف عندها .. وقيـل كل نبى عند رتبته .

وقد راى عليه الصلاة والسلام ــ ما راى .. ولكن لم يلفت نظـره شىء مما راى .. ولو لفت نظره اى شىء وقف عنده .. لكانت منزلته الى هذا الحد الذى استوقفه .. ولكن ليس فى فكره غير لقاء الله ــ سبحانه ــ فى مكان لم يبلغه قبله انس ولا جن ولا ملائكة .. **كما ذكرنا من** قبل .. فى أول تلك الرحلة القدسية .

وظل ــ عليه الصلاة والسلام ــ يخترق الملأ الأعلى .. وكلمـا امتـدت به المرحلة .. كلما تناقص عدد الركب الذى يرافقـه .. حتى لم يبق معه غير جبريل ــ عليه السلام ــ الى ان لاحت له سدرة المنتهى ..

ويقول عنها حديث مالك الذى نستعرضه الان :

« ثم رفعت الى سدرة المنتهى .. فاذا نبقها مثل قلال هجر (١) .. واذا أوراقها مثل آذان الفيلة » تشبيه يقصد به انها شجرة ضخمة .

وفى الوقت الذى لاحت فيه سدرة المنتهى .. وقف جبريل ــ عليه السـلام ــ وقال له يا محمد .. تلك سدرة المنتهى .. وتلك منزلة احرق لو تخطيتها .

وعجب ــ عليه الصلاة والسلام ــ قائلا له : كيف تحرق يا جبريل .. وقد خلقت من نور ؟. فقال له : تلك طاقتى فى احتمال درجة القرب من ربى .. انا ان تقـدمت احترقت .. وانت ان تقدمت اخترقت « وما منا الا له مقام معلوم » .

وراى الرسول عليه الصـلاة والسـلام ــ سدرة المنتهى .. شجرة متلالئة الاضواء .. ساطعة الأنوار .. وهى أول منظر لفت انتباهه من أول رحلته تلك .. فما ان وقع بصره عليها .. حتى انعكست عليها انوار اقوى .. واضواء اشد لم تتحملهـا الشـجرة .. فماجت فى نفسـها واضطربت :

(اذ يغشى السدرة ما يغشى ــ ما زاغ البصر وما طغى ــ لقد راى من آيات ربه الكبرى) (٢) .

ودفع به ــ عليه الصلاة والسلام ــ حيث يقول ابن عباس عنه ــ صلى الله عليه وسلم .

« ثم زج بى فى النور زجا » فخرق بى سبعون الف حجاب .. ليس فيها حجاب يشبه حجابا .. وانقطع عنى حس كل ملك وانس » .

والحجب هنا بالنسبة للمخلوق لا للخالق ــ سبحانه ــ لأن الله تعالى منزه عما يحجبه .

وتلك هى المرحلة الثالثة من تلك المراحـل القدسية .. مرحلة كما ترى فوق الملائكية ..

---

(١) اى اعلى جبال بلد اسمه ــ هجر .

(٢) ١٦ ــ ١٨ ــ النجم .

فكيف تحيط بها عقولنا .. وتتناولها افكارنا.. وتخطها اقلامنا ؟ .

مرحلة لا يمكن لبشر مهما أوتى من القدرات **ان يعلو الى اسوارها .. او يسمو الى حواشيها ..** لأنها علت على قدرات جبريل .. وهو الى مقام القرب يصعد .. وكل ما يستطيع العقل **تدبره .. ان يستنشف ما ورد حولها من آيات واحاديث صحيحة :**

فنجده ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقول :

لما دنوت من بســاط ربى .. هممت ان اخلع نعلى .. فنوديت : يا محمد .. لم نعليك تخلع ؟ .. قلت : يارب خشيت مرارة الطرد .. وعقوبة الرد .. ان يقال لى مثـل ما قيل لأخى موسى من قبل اخلع نعليك.. فنوديت : يامحمد اذا كان موسى محبا فأنت المحبوب .. واذا كان طالبا فأنت المطلوب » وعرف أنه وصل الى نهاية النهايات .. وغاية الغايات .. واخذته رهبة الحضرة المقدسـة .. فجلس جلسـة المصـلى للتشهد .. مقدما تحية القدوم بين يدى ربه.. فقال :

« التحيات لله والصلوات الطيبات لله » وأتاه الرد على تحيته بأعظم هدية فى الوجود كله .. هدية السلام ـ **حيث قال الله له ((السلام عليك ايها النبى ورحمة الله وبركاته)) .**

ولما كان الســلام له بالتخصـيص بلفظ ((السلام عليك)) لم ترض نفســه الكريمة .. وروحه الفانية فى المجمـوع الكلى ان يحتفظ بالسلام لنفسه دون غيره .. فقام ـ عليه الصلاة والسلام ـ بتوزيعها توزيعا شاملا .. **فقال :** « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » .

وعبارة عباد الله الصالحين ـ عمت الصالح من الانس والجن .. بل والملائكة ايضا .. لأن الملائكة كلهم ـ عباد مكرمون ـ واستحق بهـذا التوزيع .. فى هـذا المقام .. أن يكون رحمـة للعـالمين .

وهذا النصيب من السلام .. الذى وزعه رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو جالس على بساط ربه .. هو النور .. الذى يخرج به المصلى من صلاته.. فأنت حين جلوسك للتشهد فى صلاتك .. يجب ان تحس فى قلبك اثر هـذا الســلام .. الذى نالك جزء منـه عندما تردد قوله ـ صـلى الله عليه وسـلم ـ « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » فأنت ـ على الأقـل ـ فى تلك اللحظـة التى تنطق التشهد فيها تكون من عباد الله الصالحين .

ولعل لفظ ـ التشهد ـ نفسه يوحى بانك فى جلستك هذه .. تتخيل رسول الله وهو جالس على بساط ربه .. فالاحسان أن تعبد الله كأنك تراه .. فان لم تكن تراه فانه يراك .. وبهذا تخرج من صلاتك مشحونا بنـور الســلام .. منشرح الصدر .. مطمئن الفؤاد ..عالى الهمة .. ومن اجل هذا فرضت الصلاة فى تلك الليلة خمس صـلوات فى اليوم والليلة .. لتجـديد شحن صدر المؤمن .. بصفة دائمة مستمرة.. يقوم المؤمن بشحن فؤاده فى الصـباح بركعتى الصبح .. حتى اذا جاء الظهر .. فترت درجة النور فيه.. فتجدد صلاة الظهر قوته وفاعليته .. وكذلك فى العصر ثم فى المغرب والعشاء .. فيظل المؤمن دائم الصلة بالله ورسوله صـدره منشرح .. وفؤاده مطمئن .. وهمته عالية .. وهذا هو استمرار السلام .. حتى يلقى السلام .. فى دار السلام .

ومن اجل هذا .. وبعد أن وزع رسول الله ـ هدية السلام ـ قرر فى نفسه .

« اشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له.. واشهد ان محمدا عبده ورسوله » .

وفى تلك اللحظـة سـمع الملائكة فى البيت المعمور تقول :

((اللهم صلى على محمد وعلى آل محمـد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميـد مجيـد)) .

ومبلغ العلم فى درجة قربه ـ عليه الصـلاة والسلام ـ من ربه ـ عز وجل ـ فى هذا المقام :

(ثم دنا فتدلى * فكان قاب قوسين او ادنى) (١) .

دنا بمعنى القرب .. والدلفى اللغة : تؤدى معنى الثقة به .. كما تؤدى معنى السكينة والوقار فى الهيئة والمنظر والشمائل .. وفى الحديث : « كان اصحاب عبد الله يرحلون الى عمر — رضى الله عنه — فينظرون الى سمته وهديه ودله .. فيتشبهون به » .

وبقى علينا أن نلتمس القرب من (قاب قوسين او ادنى) .

فلكل قوس قاب .. والقاب هو الوتر الذى يشد بين طرفى القوس .. ويطلق السهم .. فلو تخيلنا قوسين لهما قاب واحد يربط بين القوسين .. يكون بينهما التحام تام .. ويكون معنى عبارة (أو ادنى) ان محمدا قد تلاشى كلية فى نور الله — سبحانه وتعالى .

ومن الغريب ان العلماء اختلفوا فى كون محمد راى ربه فى تلك الليلة .. أم لم يره ؟

فاعتقد انه لا محل للخلاف .. فالرؤية فى تصورنا .. على غير الواقع .. الذى رأى ربه به .. لقد راه حقا .. بل وتلاشى فى نوره .. كما راينا فى مثل القوسين .. الذى ضربه الله لنا — ولله المثل الأعلى .

ولهذا كان — عليه الصلاة والسلام — يقول اذا سئل : هل رايت ربك ؟ .. فى حديث لأبى ذر .. أنه سأله : هل رايت ربك ؟ قال : « نور انى اراه » .. وقال فى لفظ آخر « رأيت نورا » .

لقد رآه حقا .. وقرر هذا ابن عباس .. وابو ذر .. وكعب وغيرهم .. وكان الحسن — رضى الله عنه — يحلف على ذلك .

وقال ابن عباس فى هذا : اتعجبون أن تكون الخلة لابراهيم .. والكلام لموسى .. والرؤية لمحمد .

وقد انكرت السيدة عائشة — رضى الله عنها — انه راى الله تعالى بعينى راسه .. ولكن الامام النووى قال فى شرح صحيح مسلم : والامثل فى الباب حديث ابن عباس .. حبر الامة .. والمرجوع اليه فى المعضلات .. وقد راجعه ابن عمر .. فى هذه المسالة .. **وراسله هل رأى محمد ربه ؟ .. فاخبره انه رآه** (٢) .

وراينا انه لا خلاف بين راى ابن عباس وراى عائشة — رضى الله عنهما — فانها لم تخبر انها سمعت النبى يقول :

لم ار ربى .. وانما بنت رايها على قول الله تعالى :

(وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا او من وراء حجاب او يرسل رسولا (٣) ولقوله (لا تدركه الابصار) (٤) .

فلا يجوز ان نقول راه بعينى راسه « لأن عينى الراس من الطين » والطين لا يعقل سريانه فى النور .

وقد قررنا من قريب .. ان جسم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى تلك المرحلة الاخيرة .. بعد سدرة المنتهى .. كان لا شىء .

وقد ذكر ابن غالب فى كتاب — شفاء الصدور — عن رسول الله فى هذا المقام قال :

« وغشى نور عرشه بصرى .. فلم ار شيئا فجعلت ارى بقلبى .. ولا ارى بعينى .. ورايت من خلفى ومن بين كتفى كما رايت أمامى » .

لقد رآه حقا بفؤاده (ما كذب الفؤاد ما رأى) (٥) .

ولهذا قال شيخ الاسلام — ابن تيمية — : وليس قول ابن عباس انه رآه .. مناقضا لقول عائشة .

كما قال الامام احمد بن حنبل : قال ابن عباس مرة — « رآه » — ومرة « رآه بفؤاده » .. فحكيت عنه روايتان .. وحكيت عنه ثالثة .. من تصرف بعض الرواة انه — « رآه بعينى راسه » — .

(١) ٨ — ٩ — النجم .
(٢) الانوار المحمدية ص ٣٢٨ .
(٣) ٥١ — الشورى .
(٤) ١٠٣ — الانعام .
(٥) ١٣ — النجم .

وعاد ــ عليه الصلاة والسلام ــ الى موقعه الأول .. من سدرة المنتهى .. بعد أن أوحى الله اليه ما أوحى .. حيث ترك جبريل : (ولقد رآه نزلة اخرى عند سدرة المنتهى)(١).

والضمير هنا يعود الى جبريل .. رآه عند صعوده .. ورآه مرة اخرى عند نزوله .

فوجده فى انتظاره .. ومعه طبق فيه قدحان : باحدهما خمر .. وبالثانى لبن .. وقدمهما اليه .. فمد يده ــ عليه السلام وتناول كوب اللبن .. فقال له جبريل : هديت الفطرة .. لو شربت الخمر لغوت امتك .. وشرب عليه السلام ــ قدح اللبن .. وترك ثمالة اقليلة فيه .. ورده الى الطبق .. فقال جبريل ولو شربت اللبن كله .. لما دخل احد من امتك النار .. فاسرع ــ عليه السلام ــ لاسترداد القدح .. ليأتى على الثمالة الباقية .. ولكن جبريل ــ عليه السلام ــ قال : هيهات هيهات .. كان ذلك فى الكتاب مسطورا .

وطاف به جبريل .. فأراه الجنة والنار .. وصلى فى البيت المعمور .. والبيت المعمور فى السماء مثل الكعبة فى الأرض .. وهو على سمتها تماما .. الكعبة يطوف حولها سكان الارض .. والبيت المعمور يطوف حوله سكان السماء .. وتوجد صلة لا ترى بين الكعبة والبيت المعمور (فلا اقسم بما تبصرون وما لا تبصرون) (٢) .

دخل ــ عليه الصلاة والسلام ــ الجنة فى تلك الليلة :

ففى رواية لابى سعيد الخدرى (٣) .. من حديث الاسراء والمعراج .. قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ

« ثم رفعت لى الجنة .. فاستقبلتنى جارية .. فقلت لها : لمن انت يا جاريه ؟ .. قالت : لزيد بن حارثة » .

وفيه أيضا : « فاذا هو برجل اشمط (٤) .. جالسا على باب الجنة على كرسى .. عنده قوم جلوس .. بيض الوجوه .. امثال القراطيس .. وقوم فى الوانهم شىء .. فدخلوا نهرا فاغتسلوا فيه .. فخرجوا وقد خلص من الوانهم شىء .. ثم دخلوا نهرا آخر فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلص من الوانهم شىء .. ثم دخلوا نهرا آخر فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلصت الوانهم مثل الوان البيض الوجوه .. فقال : من هذا ؟ .. ومن هؤلاء ؟ الذين فى الوانهم شىء؟ .. وما هذه الانهار التى دخلوا فيها وقد صفت الوانهم ؟ .

قال هذا ابوك ابراهيم .. اول من شمط على الأرض .. واما هؤلاء البيض الوجوه .. فقوم لم يلبسوا ايمانهم بظلم .. واما هؤلاء النفر الذين فى الوانهم شىء .. فقوم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا .. **فتابوا فتاب الله عليهم .. وأما الانهار .. فاولها : رحمة الله والثانى : نعمة الله .. والثالث : وسقاهم ربهم شرابا طهورا** » .

وقد اخترت هذا الحديث من بين احاديث كثيرة .. وردت فى هذا المقام .. لنرى ان تطهير المسلم من ذنوبه لن يكون بدخول النار مدة ــ بحسب مقدار الذنوب ــ حتى يطهر .. ثم يخرج من النار فيدخل الجنة ــ كما يعتقد الكثير من الناس ــ لأن هذه هى عقيدة اليهود .. كما اخبر الله تعالى عنهم بقوله :

(وقالوا لن تمسنا النار الا اياما معدودة قل اتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون) (٥) .. كما اخبر عنهم ايضا .. فى قوله تعالى :

(ذلك بانهم قالوا لن تمسنا النار الا اياما معدودات وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون)(٦)

---

(١) ١٣ ــ النجم .
(٢) ٣٨ ــ الحاقة .
(٣) البيهقى فى الدلائل .
(٤) الشمط ــ بفتحتين : بياض شعر الرأس يخالط سواده
(٥) ٨٠ ــ البقره .
(٦) ٢٤ ــ آل عمران .

اما عقيدتنا نحن المســلمين .. صريحــة واضحة فى قوله تعالى : (فريق فى الجنة وفريق **فى السعير**) (١) .

والخلود نص فى كل منهما .. فى الجنة او فى النــار .

وحديث رســول الله ــ صــلى الله عليه وسلم ــ ايضا صريح .. فى هذا المعنى « والله انها لسعادة الابد او شقوة الأبد » .

وفى حديث آخر « والله انها لجنــة ابدا او نار ابدا » .

ولا داعى لتأولات البعض فى كلامهم حــول قول الله ــ تبارك وتعالى ــ عن جهنم :

(وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا) (٢) .

فالمؤمن يأخذ نصــيبه من جهنم فى الدنيــا (ما اصابك من حسنة فمن الله وما اصابك من **سيئة فمن نفسك**) (٣) **..وامثــال تلك الآية** كثير .. فى القرآن الكريم .. بمعنى ان كــل خطأ يخطئه المؤمن .. تصيبه ســيئة لتكفيرها وتذكيره بها ..منمرض او بلاء او ألم .. ليظل **خاليا من السيئات .. وعليه فى تلك الحالة ان** يعرف خطاه فتكون له تلك السيئة تكفيرا وتذكيرا.

والرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ يقول : « الحمى من فيح جهنم فأطفئوها بالماء » .

ولعل هذا هو الســبب فى قولنا ــ المؤمن مصاب ــ لأن الله لا يمد له .. وانما يؤاخــذه بذنوبه اولا بأول .. حتى يدركه الموت .. وقد نقى من ذنوبه .. كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس .

وروى فى الحديث القدسى المشهور :

« **وعزتى وجلالى** .. لا اخرج عبــدى من الدنيا .. وقد اردت به الخير .. حتى أوفيه ما عمله من الســيئات .. احاســبه عليها فى الطبيعة .. من مرض فى جسمه .. خسارة فى ماله .. فقد فى ولده .. فاذا بقيت عليه سيئة ثقلت عليه سكرات الموت .. حتى يأتينى كيوم ولدته أمه .

وعزتى وجلالى لا اخرج عبدى من الدنيا.. وقد اردت به الشر .. حتى اوفيه ما عمله من الحسنات .. من بركة فى جسمه .. وبركة فى عمله .. وبركة فى ماله .. وبركة فى ولده .. فاذا بقيت له عندى حسنة .. خففت عليــه سكرات المــوت .. حتى يأتينى وليســت له حسنة » .

والنصف الثانى من هذا الحديث القدسى الكريم .. ينطبق تماما مع قول الله تعالى :

(فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم ابواب كل شىء) من الخيرات **(حتى اذا فرحوا بمــا اوتوا اخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون) (٤) .**

فالبلاء فى الدنيــا تذكير وتكفير للمؤمن .. وهو نصيبه من ورود جهنم ــ والعياذ بالله ــ

وهذا موضوع واسع .. فى ثنايا كتاب الله تعالى .. وسنة رسوله .. ولكن ليس هــذا موضــعه .

ثم يقول ــ عليه الصلاة والسلام ــ فى نفس حديث ــ ابى سعيد الخدرى ــ رواية البيهقى ــ « ثم عرضت على النار .. فاذا فيها غضب الله ورجزه وغضبه ونعمته..لو طرحتفيها الحجارة والحديد لاكلتها .. ثم اغلقت دونه » .

وبدات رحلة العودة :

فقد ذكر البخارى .. فى بعض طرقه :

« **وفرض عليه خمسون صــلاة** .. فرجع حتى مر على موسى .. فقال له : بم أمرت ؟ .

قال بخمسين صلاة .. قال : ان امتــك لا تطيق ذلك .. ارجع الى ربك فاساله التخفيف لامتك .. فالتفت الى جبريل .. كأنه يستشيره فى ذلك .. فأشار .. أن نعم ان شئت .. **فعلا**

---

(١) ٧ ــ الشورى .
(٣) ٧٩ ــ النساء .
(٢) ٧١ ــ مريم .
(٤) ٤٤ ــ الانعــام .

به جبريلُ .. حتى اتى به ــ الجبار ــ تبارك وتعالى .. فوضع عنه عشرا .. ثم انزلُ حتى من بموسى فاخبره .. فقالُ : ارجع الى ربك فاسأله التخفيف .. فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله ــ عز وجل ــ حتى جعلها خمسا .. فامره موسى بالرجوع وسؤال التخفيف .. **فقال : قد استحييت من ربى .. ولكن ارضى واسلم .. فلما بعد .. نادى مناد : قد امضيت فريضتى .. وخففت عن عبادى » (١) .**

وعاد ــ عليه الصلاة والسلام ــ الى مكة .. وقد اراه الله ــ سبحانه ــ بعض علامات وامارات .. فى الطريق .. فقد روى انه مر فى بعض طريقه بعير لقريش .. تحمل طعاما .. فيها جمل عليه غرارتان : غرارة بيضاء وغرارة سوداء .. فلما حاذى البعير .. نفرت واستدارت .

وفى رواية انه مر بعير قد اضلوا بعيرا لهم .. قد جمعه فلان .. فقال ــ صلى الله عليه وسلم ــ : فسلمت عليهم .. فقال بعضهم لبعض هذا صوت محمد (٢) .

وقد قرات لبعض اصحاب المعانى .. حولُ الاسراء والمعراج :

كأن الله تعالى .. قال له ــ صلى الله عليه وسلم ــ : يا محمد .. قد أعطيتك نورا تنظر به جمالى .. وسمعا تسمع به كلامى .. يا محمد .. انى أعرفك بلسان الحالُ معنى عروجك الى .. يا محمد .. ارسلتك الى الناس شاهدا ومبشرا ونذيرا .. والشاهد مطالب بحقيقة ما يشهد به .. فاريك جنتى لتشاهد ما أعددت فيها لأوليائى .. واريك نارى لتشاهد ما أعددت فيها لأعدائى . ثم اشهدك جلالى .. واكشف لك عن جمالى .. لتعلم انى منزه فى كمالى عن الشبيه والنظير .. والوزير والمشير .

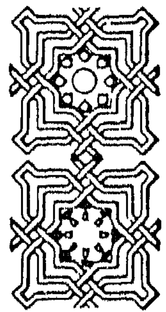
فرآه ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالنور الذى قواه .. من غير ادراك ولا احاطة .. فردا صمدا .. لا فى شىء .. ولا من شىء .. ولا قائما بشىء .. ولا على شىء .. ولا مفتقر الى شىء .. ليس كمثله شىء . فلما كلمه شفاها .. وشاهده كفاحا .. قيل له يا محمد .. لابد لهذه الخلوة من سر لا يذاع .. ورمز لا يشاع .. فاوحى الى عبده ما اوحى .. فكان سرا من سر .. لم يقف عليه ملك مقرب .. ولا نبى مرسلُ .

* * *

---

(١) زاد المعاد ص ٥٣ جـ ٢ .

(٢) الانوار المحمدية ص ٢٤٨ .



تكذيب ونكسة

● انكرت قريش ما قاله ـ عليه السلام ـ من انه ذهب الى المسجد الأقصى وعاد فى نفس الليلة .. لبعد هذا الأمر عن مدركات عقولهم .. وها هو العقل يؤمن الآن بهذا المكان .. بعد ان صنع الطائرات النفاثة .

صنع الله له البرق .. وهويسير بسرعة البرق.. اى سرعة الضوء . ((سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق)) فنقله من مكة الى بيت المقدس .. بسرعة الضوء .

— ٣١ —

تكذيب ونكسة

كان طبيعيا ان يكذبه قـومه وينكرونه .. عندما اخبرهم انه ذهب الى بيت المقدس .. وعاد فى نفس الليلة .. بل وفتن بها بعض ضعفاء الايمان .. الذين كانوا قد اسلموا معه .. ولما يدخل الايمان فى قلوبهم .

فروى انه — عليه الصلاة والسلام — لما عاد من مسراه .. اخبر به ام هانىء بنت عمه ابى طالب — اخت على — رضى الله عنه — واخبرها انه خارج الى قومه ليخبرهم بذلك ، فتعلقت بردائه وقالت : انشـدك الله يا بن العم .. الا تحدث بها قريشا .. فيكذبك من صدقك .. فضرب بيده على ردائه فانتزعه منها .

قالت : وسطع نور عند فؤاده . كاد يخطف بصرى .. فخررت سـاجدة .. فلما رفعت رأسى .. فاذا هو قد خرج .. **قالت : فقلت لجاريتى — نبعة — وكانت حبشـية : اتبعيه فانظرى ماذا يقول :**

فلما رجعت اخبرتنى ان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — انتهى الى نفر فى الحطيم .. وفيهم مطعم بن عدى .. وابو جهل بن هشام .. فاخبرهم بمسراه . ا هـ —

تعمد — عليه الصلاة والسلام — ان يبـدا باخبار ابى جهل عن اسرائه — ليلة الأمس — من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى .. فنظر اليه ابو جهل نظرة فيها الكثير من المعانى .. وقد علا البشر وجهه .. ثم قال له هامسا : هل تقول حقا يا محمد ؟ .. قال : نعم .. قال : هل اذا دعوت القوم تقول لهم ما قلت لى ؟ .. قال : نعم يا ابا جهل .. وعلا صوت ابى جهل : اقدموا أيها القوم .. فقد جن صاحبكم ..

اسمعوا ماذا يقول .. واتجه الى رسول الله .. وقال له : قــل لهم ما قلت لى يا محمــد .. فاخبرهم رســول الله بخبــر مسراه الى بيت المقدس .. وعلت الدهشـــة وجوه الجميع .. فقال لهم : ان عيركم فى مكان كذا .. وحصــل لها الليلة كذا .. وشردت بعير جمعها فلان .. وفى مقدمتها بعير .. عليه غرارتان صفتهما كذا .. كل هذا وهم مأخوذون مما يقول .. منهم المشفق عليه وقد ظن به الظنون .. ومنهم من كان قد اسلم فوجد الشيطان بهذا الامر ثغرة افسد منها قلبه .. ومنهم من وجدها فرصــة للتشهير بمحمد والسخرية منه .. مثل ابى جهل .. الذى هــز جنبات المكان بضــحكاته وسخريته . فتقــدم اليه مطعم بن عــدى .. وقال : ان امرك قبل اليوم كان امرا يسيرا غير قولك اليوم .. هو يشهد انك كاذب .. نحن نضرب اكباد الابل الى بيت المقدس مصــعدا شهرا .. ومنحدرا شهرا .. اتزعم انك اتيته فى ليلة واحدة .. واللات والعزى لا اصــدقك .. وما كان هذا الذى تقول قط .

وســعى رجال من المشركين الى أبى بكـر .. فقالوا : هل لك الى صاحبك ؟ .. يزعم انه اسرى به الليلة الى بيت المقدس ؟ .. قال : او قد قال ذلك ؟ .. قالوا : نعم .. قال : لئن قال ذلك اقد صدق .. قالوا : اتصدقه انه ذهب الى بيت المقدس وجاء قبل ان يصبح ؟.. قال : انى لأصدقه فيما هو ابعد من ذلك .. اصدقه فى خبر السماء فى غدوة وروحة .. ثم اسرع الى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو يعلن تصديقه فيما قال .

وقال مطعم بن عدى : يا محمد .. صف لنا بيت المقدس .. فقال ابو بكر ــ رضى الله عنه ــ : صفه لى يا رسول الله .. فانى قد جئته .

وفى رواية عند مسلم : فسألونى عن اشياء لم اثبتها .. فكربت كربا شديدا .. لم اكرب مثله قط .. فرفعه الله الى أنظر اليه .. ما يسألونى عن شىء .. الا انبأتهم به .

وفى حــديث أم هــانىء : انهم قالوا : كم للمسجد من باب ؟ .. قال : ولم اكن عددتها .. قال : فجعلت انظر اليه .. واعدها بابا .. بابا .

جعل رسول الله ــ صلى الله عليه وســلم ــ يصفه .. وابو بكر يقول : صدقت اشــــهد انك رسول الله . وقول أبى بكر لرسول الله : صفه لى .. لم يكن عن شك .. فانه صدقه من اول وهلة .. ولكنه أراد اظهار صدقه لقومه .

ولنا وقفة قصــيرة .. امام تلك المعجزة .. معجزة رفع المسجد الأقصى للرســول .. وهــو بمكة .. مع ان المسافة بين مكة وبيت المقدس .. مسيرة شهر .. فتلك معجــزة .. من معجزات رسول الله ــ صلى الله عليه وســــلم ــ آمنا بها وصدقناها تســليما .. وقد تحققت الآن علميا .. بعد اكتشاف جهاز ــ التلفاز ــ فقد هيأ الله ــ سبحانه ــ للعقل البشرى ان يحقق اشــــياء بالعلم .. كان البشر يقبلونها كمعجزة خارجة عن نطاق الادراك العقلى .. وبهذا يتضح لنا معنى قوله تعالى .. من اربعة عشر قرنا من الزمان :

(سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق) (١) .

بالعلم استطاع الانسان ــ وهو مخلوق ــ ان يصنع اشياء كانت فى الماضى ــ امام العقــل ــ

---

(١) ٥٣ ــ فصلت .

معجزات .. عليه ان يسلم بها .. لانهـا وقعت على يد نبى .. وقد يكذب بها البعض بحجةانهم لا يؤمنون الا بما يقبله العقل .. وبهـذا الانكار يلقون بانفسهم فى احضان الكفر ..

انكرت قريش ما قاله محمد .. من أنه ذهب الى المسجد الأقصى .. وعاد فى نفس الليلة .. لبعد هذا الامر عن مدركات عقولهم .. وها هو العقل يؤمن الآن بهذا الامكان .. بعد ان صـنع النفاثات .. ولهذا قلنا عن البراق .. انه يسير بسرعة البرق .. ولذا سمى ـ براقا ـ صنع الله الذى خلق العقل .. صنع البراق ليكون وسيلة لنقله ـ عليه السلام ـ من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى .. وهى المرحلة الأدمية .. على سطح كوكب الأرض .. كما بينا من قريب .. لان الاجسام الادمية .. فى حاجة الى وسـيلة لنقلها من مكان الى مكان .

وانكـروا عليه انه رأى بيت المقـدس .. قصار يصف لهم أبوابه وجدرانه ومواقعها .. انكروا عليه كل هـذا .. لبعد هذا الأمر عن مدركات عقولهم .. ولكن العقل سلم بها الآن .. بعد ان حققها علميا .. وصار بجهاز ـ التلفاز ـ الذى حققه العلم .. يرى امريكا عبر المحيطـات الواسعة .. والمسافات الشاسـعة .. بادارة مفتاح صغير .

بل واستطاع الانسان الغاء الزمن ايضا .. فالساعة تدق فى مكة الرابعة مثلا .. وتصـل الى اذنى فى القاهرة .. من خلال المذياع .. فى نفس اللحظـة التى دقت فيها .. لا تتاخر اى زمن برغم بعد المسافة .

وهنا يستطيع العقل ان يدرك قدرة خالق العقل .. على نقل محمـد من المسجد الحرام الى المسـجد الاقصى بدون زمن .. أو بسرعة البرق .. كما نستطيع ان ندرك معنى :

(سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق) .

وكثيرا ما نرى على شاشـة السينما .. او شاشـة ـ التلفاز ـ ممثلين ماتوا من زمن بعيد .. ولكننا نراهم باعيانهم واعضائهم .. ونسـمع أصـواتهم وحوارهم .. وننظـر حركاتهم وسكناتهم .. وكأنه سجل حياتهم فى تلك الفترة الزمنية .. التى مثلوا فيها .

ونرى ان هذا السجل .. لا يغـادر صغيرة ولا كبيرة مما عملوه الا احصاها .. وهذا يوحى الينا بفكرة مبسطة عن الكتاب الذى نحاسب به امام رب العالمين .. وهو انه أشـبه ما يكـون بتسجيل كامل عن حياة كل انسـان .. من لحظة مولده الى لحظة موته .. فكل نفس يتردد يسجل على الانسان صورة وصـوتا وسريرة (هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) (١) .

والنسخ تصـوير .. ومعنى هـذه الآية واضح جدا .. وصريح جدا .. فى ان الكتاب قد نسخت به وصورت جميع اعمال الانسـان شرا وخيرا . (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) (٢) . فانا مثلا .. دخلت اسرق شيئا .. وتلفت حولى لأطمئن ان احدا لا يرانى .. واخذت الشىء وخبأته فى مكان ما .. هذا المنظر .. سـجلته الملائكة

---

(٢) ٢٩ ـ الجاثية .

(٢) ٧ ، ٨ ـ الزلزلة .

المسجلون .. سجل على مصورا .. وهكذا فى كل ما يصدر من الانسان .. او يغمره .. من حركات وخواطر .

هذا السجل الكامل عن حياة الانسان .. يطوى عندما تبلغ الروح الحلقوم .. وسماه القرآن الكريم ـ طائرا ـ **(وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه .. ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا) (١) . والمخرج هنا ـ هو الله تعالى ـ ولله المثل الأعلى .**

هذا السجل الكامل .. هو الكتاب الذى نلقاه منشورا معروضا .. يرى فيه الانسان كل حياته بدقائقها وثوانيها .. بما فيها من صغير وكبير .. شرا او خيرا .. طاعة او معصية .. عملا او لعبا .. ولن يستطيع امامها ان ينكر شيئا .. وهنا نستطيع ان نفهم قوله تبارك وتعالى (يوم تشهد عليهم السنتهم وايديهم وارجلهم بما كانوا يعملون) (٢) فى سورة النور .. واذا ربطنا بين تلك الآية ـ والآيات الواردة فى سورة فصلت : **(حتى اذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وابصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا انطقنا الله الذى انطق كل شىء وهو خلقكم اول مرة واليه ترجعون * وما كنتم تستترون ان يشهد عليكم سمعكم ولا ابصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون) (٣) .**

فنجد ان الشهود فى آية النور هى : الالسنة والأيدى والأرجل .. وفى آية فصلت هى : السمع والأبصار والجلود .. ومعنى هذا أن الجلود هى الأعضاء .. التى هى الالسنة والأيدى والأرجل .. يتضح هذا فى تبكيتهم بقوله تعالى : وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم) اما الجلود بمعنى الغطاء الذى يكسو الجسم .. فقد سماها الله تعالى ـ الشوى ـ فى قوله تعالى : **(كلا انها لظى * نزاعة للشوى) (٤) .**

الم تر ان الله تعالى قال عن أهل جهنم .. (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب) (٥) ؟ اى كلما نضجت اعضاؤهم .. جعلنا لهم أعضاء جديدة .. ليتعذبوا بها .

ولعل العقل يستطيع أن يتصور ـ الكتاب الناطق ـ من قوله تعالى : **(وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) (٦) .**

وكلمة منشورا توحى بانه عرض كعرض ـ افلام الفديو ـ لانه صور مشهودة .. يراها الانسان .. ألم تر قول الله تعالى : **(واذا النفوس زوجت) (٧)** .. بمعنى ازدواج الانسان .. انه يرى جسمه فى شريط .. يأتى عرضه من يمين السعداء .. ومن شمال الأشقياء .. نسأل الله خاشعين خاضعين خائفين .. أن يجعلنا من أصحاب اليمين ..

---

(١) ١٣ ـ الاسراء .
(٢) ٢٤ ـ النور .
(٣) ٢٠ ـ ٢٢ ـ فصلت .
(٤) ١٥ ـ ١٦ ـ المعارج .
(٥) ٥٦ ـ النساء .
(٦) ١٣ ـ ١٤ ـ الاسراء .
(٧) ٧ ـ التكوير .

فكم فى شريط كل انسان من مخاز وفضائح .. ونسأله (ولا تخزنا يوم القيامة) .. فأصحاب اليمين لا يرى عيوبهم سواهم .. مصحوبة بالعفو « ونتجاوز عن سيئاتهم فى اصحاب الجنة » (١) .. **(ويعفو عن كثير)** (٢) و **(ولنجزينهم اجرهم باحسن ما كانوا يعملون)** (٣) ولكن لابد من رؤية الحسنات والسيئات **(فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره)** .

لقد استطاع العقل البشرى ان يحقق المعجزات لنفهم قوله تعالى (سنريهم اياتنا فى الافاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق).

وقد سمعنا عن اجهزة حديثة .. اكتشفها العقل اخيرا .. لو وضع هذا الجهاز فى مكان بعد انصراف قوم كانوا يجلسون فيه .. يخرج هذا الجهاز شريطا به صورهم وحديثهم وحركاتهم .. برغم انهم انصرفوا من هذا المكان من زمن .. ومعنى هذا ان الانسان يترك فى الجو اثرا .. صورة وصوتا .. تختزن فى طبقات الجو العليا .. وهذه هى كتب الحساب .. المحفوظة عند رب الارباب .

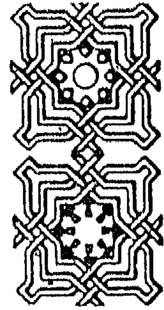
لقد عميت قريش عن الآيات البينات والبراهين الناطقات .. التى افحمهم بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من وصف بيت المقدس .. وهم يعلمون انه لم يذهب اليه من قبل .. ومن اخبارهم بامارة العير التى مر بها .. وقد وصلت فى الميعاد الذى حدده .. وفى مقدمتها هذا البعير حامل الغرارتين .

ولكنه العناد والكبر .. والعتو والكفر .. فازدادوا فى تكذيبه واضطهاده .. ومحاولة اذاه

* * *

---

(١) ١٦ - الاحقاف .
(٢) ١٥ - المائدة .
(٣) ٩٧ - النحل .



تصديق وبيعة

... ويلفت النظر هنا أمر غريب .. فقد دخل أهل المدينة فى الاسلام بسرعة عجيبة .. وسرى فيهم نور الاسلام .. سريان الضوء فى حلكة الليل .. بدون عناء .. وبلا مجهود فى الاقناع .. ولا مخالفة او نقاش او جدل .. مع أن الأوس والخزرج .. الذين دخلوا فى الاسلام أفواجا .. كانوا مشهورين بين العرب بالحرب والقتال فيما بينهما ..

- ٣٢ -
تصديق وبيعة

فمضى رسول الله - عليه الصلاة والسلام - من أول نبوته .. ثلاث سنين بمكة .. مستخفيا بدعوته .. ثم جهر بها فى السنة الرابعة .. وظل يدعو الناس حتى مضت عشر سنوات من نبوته .. يدعوهم فى منـــازلهم تارة .. وفى المواسم والأسواق تارة اخرى .. يدعوهم الى دينه فى سوق عكاظ .. وذى المجاز .. يدعوهم الى ان يمنعوه حتى يبلغ رسالة ربه ولهم الجنة .. فلم يجبه الى نصرته احد .. حتى مر بالقبائل فى ديارهم .. قبيلة قبيلة .. يقول لهم : « يا أيها الناس .. قولوا لا اله الا الله تفلحوا .. وتملكوا العرب .. وتدين لكم بها العجم .. فاذا آمنتم كنتم ملوكا فى الجنة »

وكان ابو لهب يترصده .. فاذا رآه يدعو الناس .. ســار خلفه يقول : لا تطيعوه فانه صابىء كاذب .. والناس يعلمون ان ابا لهب عمه .. فيقولون لرسول الله - صلى الله عليه وسـلم - أسرتك وعشـيرتك أعلم بك حيث لم يبايعوك .. فيرفع يديه ويقول : « اللهم لو شئت أن يكونوا هكذا » .

عرض نفسه فيما عرض .. على بنى عامر ابن صعصعة .. فقال له رجـل منهم ارايت اوبايعناك على أمرك .. ثم اظفـرك الله على من خالفك .. أن يكون لنا الامر من بعدك ؟ .. فقال : الأمر الى الله يضعه حيث يشـاء » فقال له : انقاتل العرب دونك .. فاذا أظفرك الله كان الامر لغيرنا ؟ لا حاجة لنا بأمرك .. وابوا عليه .. فلما رجع بنو عامر الى منازلهم .. وكان فيهم شيخ ادركته السن .. لا يقدر ان يســافر معهم فى الموسم .. فلما قدموا عليه ســألهم عما كان فى موسمهم .. فقالوا : جاءنا شاب من قريش .. احد بنى عبد المطلب .. يزعم انه نبى .. يدعونا نمنعه .. ونقوم معه .. ونخرج به الى بلادنا .. فوضع الشيخ يده على راسه .. ثم قال : يابنى عامر .. هل لها من تلاف ؟ اى هل لهذا الأمر من تدارك ؟ .. **والذى نفس فلان بيده .. ما يقولها كاذبا من بنى اسماعيل قط .. وانها لحق .. وان رأيكم غاب عنكم (١) .**

---

(١) ابن اسحاق .

واراد الله – سبحانه – ان يظهر دينه .. وينصر عبده .. ويعز جنده .. فبينما رسول الله عند العقبة .. وهى على يسار القاصد من مكة الى منى .. اذ لقى رهطا من الأوس والخزرج .. وهما قبيلتان كبيرتان فى يثرب – المدينة – مشهورتان بين العرب .. لقى – عليه الصلاة والسلام – منهم ستة .. كلهم من الخزرج .. وهم : أبو امامه – سعد بن زرارة .. وعوف بن الحارث وشهرته ابن عفراء .. وهذان من بنى النجار .. ورافع بن مالك بن العجلان .. وهو من بنى زريق . وقطبه بن عامر بن حديدة .. وعقبة بن عامر .. وهما من بنى غنم .. وجابر ابن عبد الله .. وهو من بنى عبيدة .

فدعاهم الى الاسلام.. وتلا عليهم شيئا من القرآن .. فأسلموا .. فقال لهم : « تمنعون ظهرى حتى ابلغ رسالة ربى » ؟ فقالوا : يارسول الله .. انما كان يوم بعاث من عامين.. يوم من ايام قتالنا .. فان تقدم ونحن كذلك.. لا يكون لنا معك اجماع .. فدعنا حتى نرجع الى عشائرنا .. لعل الله يصلح ذات بيننا .. وندعوهم الى ما دعوتنا اليه .. فعسى الله ان يجمعهم على دينك .. فان اجتمعوا على كلمتك واتبعوك .. فلا احد اعز منك .. وموعدك الموسم فى العام المقبل .. وانصرفوا الى المدينة .. فلم تبق دار من دور الانصار – أهل المدينة – الا وفيها ذكر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قبل مضى العام .

ويلفت النظر هنا أمر غريب حقا . فقد دخل أهل المدينة فى الاسلام .. بسرعة عجيبة.. وسرى فيهم نور الاسلام .. سريان شعاع الضوء فى حلكة الليل .. بدون شىء من العناء.. وبلا مجهود فى الاقناع .. ولا مخالفة او نقاش او جدال .. مع ان الأوس والخزرج الذين دخلوا فى الاسلام أفواجا كانوا مشهورين بين العرب بالحرب والقتال فيما بينهما .. وقد دامت فيهم حرب البسوس اربعين عاما بسبب ناقة .. هؤلاء الاعداء .. الضاربين فى أعماق العداوة والبغضاء .. يقبلون على الاسلام فى نهم .. كاقبال الرضيع على ثدى امه بعد ان شابت عنه يوما أو بعض يوم .

ذلك تقدير العزيز العليم .. فقد كان اليهود بينهم اصحاب المال والصناعة .. وهم أهل كتاب .. ولكن الأوس والخزرج كانوا أكثر منهم عددا .. فكانوا اذا كان بينهم شىء من الخلاف .. قال اليهود لهم : ان خاتم الأنبياء سيبعث .. وقد اظلنا زمانه .. وسنتبعه ونقتلكم قتل عاد وارم .

وعندهم فى التوراة انه بيده سيف وقوس .. يقاتل بهما حتى تعلو كلمة الله .

وكان الأوس والخزرج يحجون البيت بمكة بخلاف اليهود .. فلما رأوا رسول الله يدعو الناس الى الله – عز وجل – وتأملوا أحواله .. قال بعضهم لبعض : تعلمون والله يا قوم انه هذا الذى توعدكم به يهود المدينة.. فلا يسبقنكم اليه .

وقبل هذا العام .. قدم مكة سويد بن الصامت .. من الأوس .. فدعاه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الى الاسلام .. فلم يبعد ولم يجب .. ثم قدم مكة من الأوس انس ابن رافع ابو الحيس.. فى فتية من قومه .. من بنى عبد الأشهل .. يطلبون الحلف مع قريش .. فلقيهم رسول الله ودعاهم الى الاسلام .. وقرا عليهم قرآنا .. فقال اياس بن معاذ – وكان شابا حدثا – يا قوم والله هذا خير مما جئنا له .. فضربه ابو الحيس وانتهره فسكت .. ثم لم يتم لهم الحلف .. وعادوا الى المدينة

من اجل هذا استجاب لرسول الله هؤلاء الستة .. عندما لاقوه عند العقبة .. وذهبوا بالاسلام الى قومهم بالمدينة .. فكانوا مشعلا

(١) ابن اسحاق .

استجاب لنوره الاوس والخزرج معا .. حيث لم يمض العام .. حتى كان ذكر رسول الله فى كل بيت من بيوت المدينة .

وفى نفس الموعد من العام القابل .. لقيه بمكه اثنا عشر رجلا .. فيهم خمسة من الستة الاول .. حيث لم يحضر معهم جابر بن عبد الله بن ريان .. اما السبعة الاخر .. فهم : معاذ بن الحارث بن رفاعة ـ اخو عوف المتقدم ذكره .. وذكوان بن عبد قيس .. وعبادة بن الصامت .. ويزيد بن ثعلبة .. والعباس بن عبادة .. وهؤلاء الخمسة من الخزرج .. ومن الاوس رجلان .. ابو الهيثم بن التيهان من بنى عبد الاشهل .. وعويم بن ساعدة .. فاسلموا وبايعوا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ واقام ذكوان بن قيس بمكة .. حتى هاجر مع الرسول الى المدينة .. ولذلك يقال عنه : المهاجرى الانصارى .

ويقول رجال السيرة عن تلك البيعة : انها على بيعة النساء .. يقصدون انها على الصيغة التى نزلت فى سورة الممتحنة خاصة ببيعة النساء .. فبايعوه على الا يشركوا بالله شيئا .. ولا يعصوه فى معروف .. وعلى السمع والطاعة فى العسر واليسر .. والمنشط والمكره .. وان يقولوا الحق حيث كان .. لا يخافون فى الله لومه لائم .

ثم قال لهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ « فان وفيتم فلكم الجنة .. ومن غشى من ذلك شيئا .. كان امره الى الله .. ان شاء عذبه .. وان شاء عفا عنه » .. ثم انصرفوا الى المدينة .

وارسل رسول الله معهم مصعب بين عمير ـ رضى الله عنه ـ الى المدينة .. يقرئهم القرآن .. ويعلمهم مبادىء الاسلام .. فاسلم على يده خلق كثير من الانصار .. منهم سعد بن معاذ .. واسيد بن حضير .. واسلم باسلامهما جميع بنى عبد الاشهل فى يوم واحد .. الرجال والنساء ما خلا الاصيرم .. وهو عمرو بن ثابت بن قيس فانه تاخر اسلامه الى يوم احد .. فاسلم يومئذ .. وقاتل فقتل قبل ان يسجد لله سجدة واحدة .. واخبر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ انه من اهل الجنة .. وقال عنه « عمل قليلا .. واجر كثيرا » .

ولم يكن فى بنى عبد الاشهل منافق ولا منافقة .. بل كلهم حنفاء مخلصين ـ رضى الله عنهم اجمعين . ودخل اهل المدينة فى دين الله افواجا .

قال ابو الزبير .. عن جابر : ان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لبث عشر سنين يتبع الناس فى منازلهم فى الموسم « ومجنة وعكاظ من يؤمنى ؟ .. ومن يؤوينى ؟ .. ومن ينصرنى ؟ حتى ابلغ رسالة ربى وله الجنة .. فلا يجد احدا ينصره ولا احدا يؤويه .. حتى ان الرجل ليرحل من مصر او اليمن ليزور ذا رحمه فى مكة .. فيقول له قومه : احذر غلام قريش لا يفتنك .

كان يعيش بين الناس يدعوهم الى الله . وهم يشيرون اليه بالاصابع .. حتى بعثنا الله من يثرب .. فياتيه الرجل منه فيؤمن به .. ويقرئه القرآن .. فينقلب الى اهله فيسلمون باسلامه .. حتى لم يبق دار من دور الانصار .. الا وفيها رهط من المسلمين .. يظهرون الاسلام .

وبعثنا الله اليه فا ائتمرنا واجتمعنا وقلنا : حتى متى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينتظر فى جبال مكة ويخاف ؟ .. فرحلنا حتى قدمنا عليه فى الموسم .. فواعدنا بيعة العقبة .. فقال له عمه العباس .. وكان العباس على دين قومه .. قال : يا ابن اخى .. ما أدرى ما هؤلاء القوم .. الذين جاءوك ؟ .. انى ذو معرفة باهل يثرب .

فاجتمعنا عنده من رجل ورجلين .. فلما نظر العباس فى وجوهنا قال : هؤلاء قوم لا نعرفهم .. هؤلاء احداث .. فقلنا : يا رسول

الله على ما نبايعك ؟ .. قال على السمع والطاعة في المنشط والمكره .. وعلى النفقة في العسر واليسر .. وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .. وعلى ان تقوموا فى الله لا تأخذكم لومة لائم .. وعلى ان تنصرونى اذا قدمت عليكم .. وتمنعونى مما تمنعون منه انفسكم وازواجكم وابناءكم .. ولكم الجنة .. فقمنا نبايعه .

كان ذلك فى بيعة العقبة الثانية .. حيث حضر موسم الحج هذا العام عدد كبير من المدينة .. منهم المسلم والكافر .. فاتفق جماعة من الانصار على لقاء النبى سرا فى موسم الحج .. وحضروا مع قومهم .. وواعدوا الرسول على لقائه عند العقبة ليلا فى اوسط ايام التشريق (١) .. فلما كان الليل خرجوا يتسللون بعد الثلث الأول .. حتى اجتمعوا بالعقبة .. وحضر معهم عبد الله بن عمر حرام — ابو جابر — وقد اسلم تلك الليلة فقط (٢) .

وجاءهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ومعه عمه العباس بن عبد المطلب .. وهو كما قلنا — كان على دين قومه .. واحب ان يستوثق لابن اخيه .. فقال :

« يا اهل يثرب .. ان محمدا منا حيث قد علمتم فى عز ومنعة .. وانه قد ابى الا الانقطاع اليكم .. فان كنتم ترون انكم تفون الله بما دعوتموه اليه .. فانتم وذلك .. وان كنتم ترون انكم مسلموه .. فمن الآن فدعوه .. فانه فى عز ومنعة » .

فقال الانصار : قد سمعنا ما قلت .. فتكلم يا رسول الله .. واختر لنفسك ولربك ما احببت . فطلب — عليه الصلاة والسلام — البيعة التى ذكرها جابر فى حديثه .. فقاموا يبايعونه .

فاخذ بيده اسعد بن زرارة — وهو اصغرهم سنا — فقال : رويدا يا اهل يثرب .. انا لم تضرب اليه أكباد المطى .. الا ونحن نعلم انه رسول الله .. وان اخراجه اليوم معاداة للعرب كافة .. وقتل لخياركم .. وان تعضكم السيوف .. فان كنتم تصبرون على ذلك فخذوه واجركم على الله .. وان كنتم تخافون من انفسكم خيفة فذروه .. فهو اعذركم عند الله .

فقالوا : يا اسعد .. امط عنا يدك .. فوالله لا نذر هذه البيعة .. ولا نستقيلها .. فقمنا اليه رجلا رجلا .. فاخذ علينا .. يعطينا بذلك الجنة .

ووقف البراء بن معرور .. وكان زعيم القوم .. واخذ بيده وقال : والذى بعثك بالحق .. لنمنعتك مما نمنع منه ذرارينا .. فبايعنا يا رسول الله .. فنحن والله اهل حرب .

فاعترض الكلام ابو الهيثم بن التيهان حليف بين عبد الاشهل .. فقال :

يا رسول الله .. ان بيننا وبين الناس حبالا .. وانا قاطعوها — يعنى اليهود — فهل نسيت ان اظهرك الله — عز وجل — ان ترجع الى قومك وتدعنا ؟ .. فتبسم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقال :

« بل الدم الدم .. الهدم الهدم .. انتم منى وانا منكم .. اسالم من سالمتم .. واحارب من حاربتم » وكان عدد المبايعين من الانصار .. فى تلك البيعة .. سبعين رجلا وامراتين :

نسيبة بنت كعب — ام عمارة — واسماء بنت عمرو بن عدى .. من بنى سلمة .. بايعتاه .. من غير أن يصافحهما .

واختار منهم — عليه الصلاة والسلام — اثنى عشر نقيبا .. قال لهم :

« انتم كفلاء على قومكم .. ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم .. وانا كفيل على قومى .

(١) ايام التشريق ثلاثة ايام بعد يوم النحر .

(٢) استشهد عبد الله بن عمرو يوم احد .. ومثل بجسده مع حمزة .

ولا مانع من ذكر اسمائهم .. فهم فى الواجهة .. حملة المشاعل .. فى موكب ظهور الاسلام .. وهم : سعد بن عباده .. واسعد بن زرارة .. وسعد بن الربيع .. والمنذرين عمرو .. وعبد الله بن رواحة .. والبراء بن معرور .. وعبد الله بن عمرو بن حرام .. وعبادة بن الصامت .. ورافع بن مالك .. هؤلاء تسعة من الخزرج وثلاثة من الاوس .. هم : اسعد بن خيثمه .. واسيد بن حضير .. وابو الهيثم بن التيهان . وقد امر الرسول على النقباء اسعد بن زرارة .. وهو اول من دفن من المسلمين فى البقيع .

ولما تمت البيعة .. استاذنوا رسول الله .. ان يميلوا على اهل العقبة باسيافهم .. فلم ياذن لهم . وصرخ الشيطان على العقبة بأبعد صوت: ياأهل الاخاشب .. هل لكم فى محمد والصابئون معه .. قد اجتمعوا على حربكم .. فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — :

« هذا ازب العقبة .. اما والله يا عدو الله لاتفرغن لك » ثم امرهم ان ينفضوا الى رحالهم وفى الصباح .. غدا اشراف قريش .. حتى دخلوا شعب الانصار .. وقالوا : يا معشر يثرب .. انه بلغنا انكم لقيتم صاحبنا البارحة ، وبايعتموه على حربنا ، وايم الله ماحى من العرب ابغض الينا من ان ينشب بيننا وبينه الحرب منكم .

فوقف المشركون من الانصار يحلفون .. ما كان هذا .. وما علمنا .. وقال عبد الله بن ابى (١) .

هذا باطل .. لو كنت بيثرب ما صنع قومى هذا .. حتى يستشيرونى .

فرجعت قريش من عندهم .. وبدات عودة الانصار الى المدينه .

ولكن قريشا ادركوا سعد بن عبادة .. بعد رحيل اخوانه .. فجروه من شعره الى مكة .. وضربوه .. ولم يخلصه من ايديهم الا مطعم ابن عدى .. والحرث بن حرب بن امية .

وتشاور الانصار حين او علموا .. ان يكروا اليه .. فاذا سعد قد طلع عليهم .

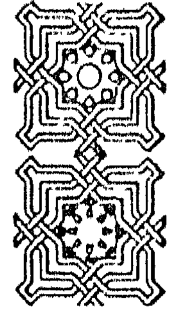
ووصلوا جميعا الى المدينه .. فى ذى الحجة .. حيث بقى — عليه الصلاة والسلام — بمكة بقية ذى الحجة .. والمحرم .. وصفر .. بعد بيعة العقبة .

وقد امر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — المسلمين بالهجره الى المدينه .. فخرجوا ارسالا .. حتى لم يبق من المسلمين بمكة غير رسول الله وابو بكر وعلى .. اقاما بامره .. فى انتظار امر السماء بالهجرة .. وقد اعد جهازه .. وكذلك اعد ابو بكر جهازه .

* * *

---

(١) كان عبد الله بن ابى .. يعد نفسه ليكون ملكا على يثرب .



روح القرآن فى الهجرة

« لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله » فهل لو أنزلنا من طائرة مثلا .. ملايين المصاحف على جبل .. هل يخشع ويتصدع ويتشقق ؟ ..

ان القرآن الكريم ليس مجرد الفاظ ولا مجرد حروف .. وبالتالى .

● ولا مجـــرد ورق .. بل هو القوة الروحيـــة الفعالة المؤثرة ..

● هذه القوى الروحية .. تسير بها الجبال .. وتقطع بها الارض .. ويكلم بها الموتى .

ـ ٣٣ ـ
روح القرآن فى الهجرة

قلنا فى مستهل هذا الكتاب : ان لكل شيء صورة .. ولكل شيء حقيقة .. ولا قيمة للصورة اذا فقدت حقيقتها .. بمعنى ان الجسم صورة كل شيء .. والروح حقيقة هذا الشيء .. لأن الروح هى الجوهر الفعال المؤثر .. اما الجسم فهو عرض زائل .. معرض للعدم والفناء .

وكذلك القرآن الكريم .. له صورة وله حقيقة .. له جسم وله روح .. وروحه هى الحقيقة الفعالة المؤثرة .

فالاوراق والحروف والكلمات كلها صورة وجسم بالنسبة له .. وكذلك الاصوات ومخارج الحروف والالفاظ .. كلها تابعة لهذا القسم .. قسم الصورة والجسم .. اما روحه وحقيقته .. فهى امر انفعالى مؤثر .. غير هذا الذى ذكرنا .. تسير به الجبال .. وتقطع به الارض .. ويكلم به الموتى . وهو المحذوف المقدر فى قوله تعالى :

(ولو ان قرآنا سيرت به الجبال او قطعت به الارض او كلم به الموتى) (١) أى لكان هو هذا القرآن .. الذى يتلوه عليكم خاتم المرسلين .. الذى يقول الله فيه :

(لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرايته خاشعا متصدعا من خشية الله) (٢) .

فقل لى بحق هذا الكتاب .. هل يتصدع الجبل ويتشقق ويخشع لمجرد التلاوة الحرفية ؟ .

وهل لو انزلنا من طائرة مثلا ملايين المصاحف على جبل .. لتصدع وخشع ؟ .

وهل لو احضرنا مئات القراء يقراون القرآن قراءة حرفية لفظية مجردة من الروح .. هل يتفتت الصخر .. وتتشقق الاحجار ؟ .

انك تشعر معى ايها القارىء الكريم .. بأن القرآن الكريم .. ليس مجرد لفظ .. ولا مجرد حروف .. وبالتالى ولا مجرد ورق .. بل هو القوة الروحية الفعالة المؤثرة .. تلك الروح هى القوة التى جاءت بعرش بلقيس من سبأ باليمن .. الى أورشليم بفلسطين من غير زمن ما .. قوة « بسم الله الرحمن الرحيم »

---

(١) ٣١ ـ الرعد .

(٢) ٢١ ـ الحشر .

وهذا هو السر .. الذى اشار اليه « الذى عنده علم من الكتاب » الكتاب الذى ارسله سليمان ـ عليه السلام ـ مع سفيره الهدهد .. قائلا له : (اذهب بكتابى هذا فالقه اليهم) (١) .. وقالت عنه بلقيس : (انى القى الى كتاب كريم) (٢) .. وفى هذا الكتاب قوات انفصل سليمان باثرها وفاعليتها) ..وهى قوات (بسم الله الرحمن الرحيم) .. التى امام قواتها .. آمركم :

(الا تعلوا على واتونى مسلمين) (٢) .

وهى ايضا التى انصب عليها قسم سليمان المؤكد باللام والنون الثقيلة .. عندما وجه الانذار النهائى الى مجلس وزراء سبا .. فقال لرئيس بعثة الهدية : (ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها) (٤) .

وما كانت تلك الجنود التى لم يجدوا لهم قبلا بها سوى المعانى الفعالة .. التى القيت اليهم القاء .. يحمل صورته كتاب منسوب فى مطلعه الى سليمان .. وفى حقيقته الى الله الرحمن الرحيم .. الذى لا يريد برحمته ان يدمر قوما .. متى استجابوا لدعوته .

وهى نفس القوى الفعالة .. التى استعملها ـ عليه الصلاة والسلام ـ لحظة الهجرة .. بعد ان فرغ من تسليم امانات المشركين .. التى فى ذمته لهم الى على ـ كرم الله وجهه ـ وبعد ان اعطاه عباءته الحمراء .. لينام فيها .. ثم انطلق ـ صلى الله عليه وسلم ـ نحو الباب .. مبتدئا بتلاوة اول ـ يس ـ حتى اذا بلغ الباب .. حيث يكمن اربعون شابا .. او اربعون سيفا .. وقد اصروا واسروا .. ان يضربوه ضربة رجل واحد .. كان يقول :

(وجعلنا من بين ايديهم سدا ومن خلفهم سدا فاغشيناهم فهم لا يبصرون) (٥) .

وتم مفعول الآيات .. فغشيت ابصارهم .. وعميت انظارهم .. لا من جانب الحروف ولا الالقاء ولا الصوت .. بل من جانب قوة الروح .. ودرجة الدفع .. وكمال الاستعداد . فهى التى حدث بها قوة الغشيان .. لأن الله ـ سبحانه هو الذى ينزل هذه القوى من عنده .. كما قال فى غزوة احد :

(ثم انزل عليكم من بعد الغم امنة نعاسا يغشى طائفة منكم) (٦) .

وذلك ان قريشا بعد ان خرج المسلمون الى المدينة بجهازهم .. يسوقون الدرارى والاموال .. وعرفوا ان المدينة ستكون لهم دار منعة وعزة .. وعلموا انهم صاروا فى شوكة وباس .. خافوا ان يخرج اليهم رسول الله ويلحق بهم .. فيشتد عليهم امره .

فاجتمعوا فى دار الندوة .. لم يتخلف منهم احد من اهل الراى والتدبير .. ليتشاوروا فى امره .. وحضرهم وليهم وشيخهم ابليس .. فى صورة شيخ كبير من اهل نجد .. يلبس كساء اسود .

ثم تدبروا امر الرسول .. فابدى كل واحد رايا .. والشيخ يرده ولا يرضاه .. الى ان قال ابو جهل : عندى راى ما اراكم قد وقعتم عليه .. قالوا : ما هو يا ابا جهل ؟ .. قال : ناخذ من كل قبيلة فتى نهدا جلدا ..ثم نعطيه سيفا صارما .. فيضربونه ضربة رجل واحد .. فيتفرق دمه بين القبائل كلها .. وندفع لهم ديته فقال الشيخ : لله در الفتى .. هذا هو الراى .. فتفرقوا على ذلك..واجتمعوا عليه .

واخبره جبريل ـ عليه السلام ـ بمؤامرة القوم .. وامره الا ينام فى مضجعه تلك الليلة .. وابلغه اذن ربه له بالهجرة .

وعلى غير عادته ـ عليه الصلاة والسلام ـ ذهب الى ابى بكر نهارا .. وطلب الانفراد به .. فقال له ابو بكر : انما هم اهلك يا رسول الله .. فقال : ان الله قد اذن لى فى الخروج .. فقال : الصحبة يا رسول الله .. قال : نعم .. الصحبة يا ابا بكر .. فقال ابو بكر : بابى وامى .. خذ احدى راحلتى هاتين .. فقبلها رسول الله بثمنها .. حتى لا ينقص منه شىء من ثواب الهجرة .. نفسا ومالا .

واستاجر عبد الله بن اريقط الليثى .. وكان دليلا عالما بالطريق .. وكان على دين قومه من قريش .. فامناه على ذلك .. وسلما اليه راحلتيهما .. وواعداه على موافاتهما عند غار ثور .. بعد ثلاث ليال .

---

(١) ٢٨ ـ النمل .

(٣) ٣١ ـ النمل .

(٥) ٩ ـ يس .

(٢) ٢٩ ـ النمل .

(٤) ٣٧ ـ النمل .

(٦) ١٥٤ ـ آل عمران .

وحصل ما ذكرنا من خروجه عليه الصلاة والسلام على المؤتمرين .. وهو يستعمل اسلحته الروحية .. ومن وسطهم يتلو : (فاغشيناهم فهم لا يبصرون) .. وبلغت به الثقة فى قوة فاعلية الآيات .. وتأثيرها فى اعينهم .. ان انحنى الى الارض .. فأخذ منها حفنة من التراب .. فجعل ينثره على رءوسهم .. وهم لا يرونه وهو يقول : « شاهت الوجوه وغشيت الابصار » فما أصاب رجلا منهم حصاة الا قتل يوم بدر كافرا .

ومضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الى بيت أبى بكر .. ثم خرجا من خوخة بالبيت ليلا .. الى غار ثور .. وهو على ثلاثة اميال فى الجنوب من مكة .

وجاء رجل والقوم اشبه بالنيام امام باب رسول الله .. فقال لهم : ما تنتظرون ؟ .. قالوا : محمدا .. قال : خبتم وخسرتم .. قد والله مر بكم .. وذر التراب على رءوسكم .. فأخذوا ينفضون التراب عن رءوسهم .. وجدوا عليا مكانه .. فسألوه عنه .. فقال : لا علم لى به .

ومن هؤلاء : ابو جهل .. والحكم بن ابى العاص .. وعقبة بن ابى معيط .. والنضر ابن الحارث .. وامية بن خلف .. وزمعة ابن الاسود .. وطعيمة بن عدى .. وابو لهب .. وأبى بن خلف .. ونبيه وامية ابنا الحجاج .

فخرجوا فى شعاب الجبال يبحثون عنه وعن صاحبه .. بعد أن ظهر لهم انه مختف معه .. وساروا خلف قصاص الاثر .. والعرب مشهورون باقتفاء الاثار .. وقد ادى بهم الاثر الى مكان غار ثور .. فوقفوا عليه .

وجاء فى الصحيحين « ان ابا بكر قال : يا رسول الله .. لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لابصرنا .. فقال : يا ابا بكر .. ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ .. لا تحزن فان الله معنا » .

وحفظ الله رسوله باضعف مخلوقاته : الحمامة والعنكبوت .. لنتخذ من ذلك عبرة وذكرى .. ويكون لنا فيها نظر وبصر .

هذا الموقف يذكرنا بموقف لجيش المسلمين .. فى بعض الغزوات ضد الفرس .. وكان جيش العدو يفوقهم عددا وقوة وعدة .. وابتهل المسلمون الى الله ليمدهم بنصره .. وتذكروا غفلتهم عن استعمال السواك اربعة ايام .. فاخرج كل منهم سواكه يستاك به .. تقربا الى الله بتنفيذ سنة رسوله .. فى نفس الوقت الذى كان فيه كشافة جيش الفرس ينظرون بمناظيرهم المكبرة .. وكانت المناظير اسلحة حديثة فى جيشهم الضخم الكبير .. فراوا جيش المسلمين يستاكون .. والفرس لا يعرفون شيئا عن السواك .. فاصابهم الرعب .. وقالوا : ان هؤلاء العرب يأكلون البشر . انهم يسنون اسنانهم .. استعدادا لافتراسهم صباح الغد .. ففزعوا وخافوا .. وهرب الكثيرون منهم فى ظلمة الليل .. وكان هذا الحدث البسيط سببا فى انتصار جيش المسلمين فى تلك المعركة .

ويقول - عليه الصلاة والسلام - « نصرت بالرعب مسيرة شهر » .

وهكذا حمى الله رسوله وصاحبه بحمامة رقدت على بيضها بمدخل الغار .. وعنكبوت نسج خيوطه ببابه .. وعاد المشركون يبحثون فى مكان آخر .

وعن عمر - رضى الله عنه -

« **خرج رسول الله** صلى الله عليه وسلم - الى الغار ومعه ابو بكر .. فجعل يمشى ساعة بين يديه .. وساعة خلفه .. حتى فطن له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فساله .. فقال له :

يا رسول الله .. اذكر الطلب فامش خلفك .. ثم اذكر الرصد فامش بين يديك .. فقال :

يا ابا بكر .. لو كان شىء .. اتحب ان يكون بك دونى ؟ قال : نعم والذى بعثك بالحق .

فلما انتهيا الى الغار .. قال ابو بكر : مكانك يا رسول الله .. حتى استبرىء - استطلع - لك الغار .. فدخل فاستبراه .. ثم قال : انزل يا رسول الله .. فنزل .. فمكثا فى الغار ثلاث ليال .. حتى خمدت عنهما نار الطلب (١) .

« وجهزا احث (٢) جهاز .. ووضعا لهما سفرة فى جراب .. فقطعت اسماء بنت ابى بكر قطعة من نطاقها .. فربطت بها الجراب .. وقطعت الاخرى فصيرتها عصاما لفم القربة .. وتأتيهما بالطعام فى الغار .. فلذلك لقيت - ذات النطاقين - » .

---

(١) الحاكم - فى مستدركه .

(٢) اسرع جهاز .

وأسماء اكبر سنا من عائشة .. وهى أختها لأبيها .. وكانت أسماء شقيقة لعبد الله بن أبى بكر .. الذى أمره ابوه أن يتسمع لهما أخبار مكة نهارا .. ثم يأتيهما بها ليلا .. كما أمر **مولاه عامر بن فهيرة ان يرعى غنمه نهارا .. ثم** يأتيهما بها ليلا عند الغار .. ليأخذا حاجتهما من لبنها .

وجاءهما عبد الله بن أريقط براحلتيهما .. فارتحلا صباحا .. فى يوم الخميس غرة ربيع الأول .. واردف ابو بكر مولاه عامر بن فهيرة خلفه .. وسار الدليل أمامهما .. وعين الله تكلؤهما .. وتأييده يصحبهما .. واسعاده برحالهما ونزولهما .. وقد اخذ الدليل بهما طريق الساحل .

وروى أن النبى – عليه الصلاة والسلام – قال حين خروجه من مكة .. قاصدا المدينة : « اللهم انك تعلم انهم اخرجونى من احب البلاد الى .. فأسكنى احب البلاد اليك » (١) .

كما روى حديث اخر .. قال فيه :

« والله انك لأحب ارض الله الى » .. وانك لاحب ارض الله الى الله .. ولولا أن اهلك اخرجونى ما خرجت » (٢) .

ولنستمع الى ام المؤمنين عائشة – رضى الله عنها – تقص علينا خبر سراقة .. الذى خرج فى اثرهما .. طمعا فى الدية .. التى نذرتها قريش لمن يأتى بهما .. قالت : فى صحيح البخارى :

« ولما يئس المشركون من الظفر بهما .. جعلوا لمن جاء بهما دية كل واحد منهما .. فجد الناس فى الطلب .. والله غالب على امره .. فلما مروا بحى بنى مدلج – تقصد الرسول وصحبه – مصعدين من قديد .. بصر بهم رجل من الحى .. فوقف على الحى فقال : لقد رايت آنفا بالساحل اسودة – اى اشخاصا – ما اراها الا محمدا واصحابه .. ففطن للامر سراقة بن مالك .. فاراد ان يكون الظفر له خاصة .. وقد سبق له من الظفر ما لم يكن فى حسبانه .. فقال : بل هم فلان وفلان .. خرجا فى طلب حاجة لهما .. ثم مكث قليلا .. ثم قام فدخل خباءه .. وقال لخادمه اخرج بالفرس من وراء الخيام .. وموعدك وراء الأكمة .. ثم اخذ رمحه .. وخفض عاليه يخط به الارض .. حتى ركب فرسه .. فلما قرب منهم – وسمع قراءة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأبو بكر يكثر الالتفات .. ورسول الله لا يلتفت .. فقال أبو بكر : يا رسول الله .. هذا سراقة بن مالك قد رهقنا .. فدعا عليه رسول الله .. فساخت يدا فرسه فى الأرض .. فقال : قد علمت ان الذى أصابنى بدعائكما .. فادعوا الله لى .. ولكما على ان أرد الناس عنكما فدعا له رسول الله فأطلق .. وسأل رسول الله أن يكتب له كتابا .. فكتب له أبو بكر بأمره فى اديم (٣) .. فكان هذا الكتاب مع سراقة حتى يوم فتح مكة .. فجاءه بالكتاب فوفاه له رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقال : « يوم وفاء وبر » .

وبعد أن أخذ سراقة الكتاب .. عرض عليهما الزاد .. فقالا : لا حاجة لنا به .. ولكن عم عنا الطلب .. فقال : قد كفيتم .

ورجع فوجد الناس فى طلبهما .. فجعل يقول : قد استبرأت لكم الخبر .. وقد كفيتم ما ههنا .. وكان أول النهار جاهدا عليهما .. وآخره حارسا لهما .

وفى طريقهم مروا بخيمتى ام معبد – عاتكة بنت خالد الخزاعية – وكانت امرأة برزة (٤) جلدة تجلس بفناء الخيمة .. وكانت كريمة وتسقى من مر بها .. فسألاها : هل عندك شىء ؟ فقالت : لو كان عندنا شىء ما أعوزكم القرى .. والشاة عجفاء .. وكانت سنة مجدبة .

فنظر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الى شاة فى كسر الخيمة .. فقال : ما هذه الشاة يا أم معبد ؟ .. قالت شاة خلفها الجهد عن الغنم .. فقال : هل بها لبن ؟ .. قالت : هى اجهد من ذلك .. فقال : اتأذنين لى أن احلبها ؟ .. قالت : نعم بأبى وأمى .. ان رأيت بها حلب فاحلبها .

فمسح رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بيده ضرعها .. وسمى الله ودعا .. فتفاجت عليه ودرت .. فدعا باناء كبير لها .. فحلب فيه حتى علت الرغوة .. فسقاها فشربت ..

---

(١) رواه الحاكم – فى المستدرك .

(٢) الانوار المحمدية .

(٣) جـلد .

(٤) برزة : نصيحة – وجلده : صلبه .

حتى رويت .. وسقى اصحابه حتى رووا .. ثم شرب هو آخرهم .. وحلب فيه ثانيا حتى ملأ الاناء .. ثم غادره عندها وارتحلوا .

فما لبثت ان جاء زوجها ــ ابو معبــد ــ يسوق اعنزا عجافا .. يتساوكن هزالا .. ولما رأى اللبن عجب .. **فقال** : من اين لك هــذا والشاة عازب .. ولا حلوبة فى البيت؟ .. **فقالت**: والله انه مر بنا رجل مبارك .. كان من حديثه كيت وكيت .. ومن حاله كذا وكذا .. **قال** : صفيه لى يا ام معبد .. **قالت** : « ظاهر الوضاءة ابلج الوجه (١) .. حسن الخلق .. لم تعبه نجلة ولم تزره صعلة (٢) .. وسيم قسيم .. فى عينيه دعج .. وفى اشفاره وطف (٣) .. وفى صوته صحل .. وفى عنقه سطع .. احور اكحل أزج أقرن (٤) .. شديد سواد الشعر .

اذا صمت علاه الوقار .. وان تكلم عــلاه البهاء .. اجمــل الناس وابهاهم من بعيد .. واحسنهم واحلاهم من قريب .. حلو المنطق .. فصل لا نزر ولا هذر (٥) .. كان منطقه خرزات نظمن يتحدرن .. ربعة لا تقتحمه العين من قصر .. ولا تشنؤه (٦) من طول .. غصن بين غصنين .. فهو انضر الثلاثة منظرا .. واحسنهم قدرا .. له رفقاء يحفون به .. واذا قال استــمعوا لقوله . واذا أمر تبادروا الى امره .. محفــود محشود (٧) .. لا عابس ولا مفند (٨) » .

فقال ابو معبد : والله هذا صاحب قريش .. الذى ذكــروا من امره ما ذكروا .. لو رأيتــه لصحبته .. ولأفعلن ان وجدت الى ذلك سبيلا .

وقد بقيت هــــذه الشاة الى خــلافة عمر بن الخطاب .. تحلب صباحا ومساء (٩) .

ويئس اهل مكة .. لما سمعوا صوتا عاليا .. يسمعونه ولا يرون القائل :

جزى الله رب العرش خير جــزائه
رفيقين حــلا خيمتى ام معبــد
همـــا نــزلا بالبر وارتحــلا به
وأفلـــح من امسى رفيق محمــد
فيـــا لقصى ما زوى الله عنكمـــو
به من فعــال لا يجازى وســؤدد
ليهـــين بنى كعب مــكان فتاتهم
ومقعـــدها للمؤمنين بمرصـــد
ســـلو اختكم عن شـــاتها وانائها
فانكمو ان تسألوا الشــاة تشـــهد

قالت أسماء ــ رضى الله عنها ــ :

ما درينا اين توجه رســول الله .. اذ اقبل رجل من الجن من اسفل مكة .. فانشد هــذه الأبيات .. والناس يتتبعونه ويســمعون صوته ولا يرونه .. حتى خرج من اعلاها .

قالت : فلما سمعنا قوله عرفنا حيث توجه رسول الله ــ صلى الله عليه وســلم ــ وان وجهه الى المدينة .

* * *

---

(١) مضيء مشرق .

(٢) النجل : سعة شق العين .. والصعل عكسه .

(٣) الدعج : سواد العين .. والوطف كثرة شعر أشفار العين وحاجبها .

(٤) الحور : شدة ســواد العين فى شدة البياض .. والاكحل اسود ما حول العين .. والزجج : دقة الحاجبين .

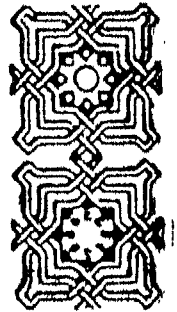
(٥) وسط الحديث لا قليلة ولا كثيرة .

(٦) الشانئ : المبغض .

(٧) الحفد : السرعة ــ فهو بين بين .

(٨) الفند : ضعف الرأى من كبر .

(٩) الانوار المحمدية للنبهانى .



طلوع البدر على يثرب

وبعد الصلاة .. ركب راحلته — القصواء — وارخى زمامها فاخذوا بخطامها .. فقال « دعوها فانها مامورة ».

وكان لا يمر بدار من دور الانصار .. الا قالوا هلم يا رسول الله الى العدد والعدة والمنعة .. ويعترضون ناقته .. فيقول : « خلوا سبيلها فانها مامورة » .

ـ ٣٤ ـ
طلوع البدر على يثرب

وصل المدينة خبر خروجه ـ عليه الصلاة والسلام من مكة فى طريقه اليهم .. ودفع الفرح والشوق اهلها الى الخروج كلَّ يوم فى انتظار وصوله .

كانوا يخرجون الى الصحراء .. رجالا ونساء .. شيوخا وشبابا وغلمانا .. حتى اذا لفحهم حر الشمس عادوا الى ديارهم .. فى انتظار الغد .. وهم على احر من الجمر .

وفى يوم الاثنين .. الثانى عشر من ربيع الأول .. خرجوا على عادتهم .. فلما حمى حر الشمس رجعوا . وصعد رجلٌ من اليهود على اطم من من آطام المدينة .. لبعض شانه .. فرأى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه على البعد .. يلبسون ملابس بيض .. فصرخ بأعلى صوته : يا بنى قيلة .. هذا صاحبكم قد جاء .. هذا جدكم الذى تنتظرونه .. فبادروا لاستقباله .. وسمع التكبير أولا فى بنى عمرو بن عوف .. وكبر المسلمون فرحا بقدومه .. واحدقوا به مطيفين حوله .. والسكينة تغشاه .. والوقار يحفه .

فسار حتى نزلَ بقباء .. فى بنى عمرو بن عوف .

وقباء قرية على بعد ميلين من المدينة جنوبا .. وبها حدائق واعناب ونخيل وتين ورمان . **نزل ـ عليه الصلاة والسلام ـ** بها على كلثوم بن الهدم بن امرىء القيس .. ويعرف بصاحب رسولُ الله .. وكان شيخا كبيرا .. قد اسلم قبلَ وصول الرسول الى المدينة .. وقد توفىَ كلثوم قبل بدر بيسير ..

وبقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ عند كلثوم فى قباء مدة .. اختلف الرواة فى تحديدها . ونرجح انه اقام عنده احد عشر يوما .. حيث خرج من قباء صبيحة يوم الجمعة .. بعد ان اسسَ بها مسجد قباء .. وهو المسجد الذى اسس على التقوى من اولَ يوم .

وقد لحق بقباء على بن ابى طالب .. ومعه جماعة من ضعفاء المسلمين .. بعد ان رد الودائع الى اصحابها .. ونزل مع الرسول فى منزل كلثوم ابن الهدم .

وكان على ــ رضى الله عنه ــ فى طريقه .. يسير ليلا ويكمن نهارا .. حتى تفطرت قدماه .. فاعتنقه النبى وبكى رحمة به .. لما بقدمه من الورم .. وتفل فى يديه ومسح بهما قدمه .. فلم يشكهما بعد ذلك .

خرج ــ عليه الصلاة والسلام ــ من قباء يريد المدينة .. ومعه مائة من المسلمين .. وقد ادركته صلاة الجمعة .. فى بنى سليم بن عوف .. فصلاها بالمسلمين .. فى مسجد ببطن الوادى .. وهى اول جمعة يصليها ويخطب فيها بالمدينة .

« الحمد لله .. احمده واستعينه .. واستغفره واستهديه .. واؤمن به ولا أكفره .. واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له .. وان محمدا عبده ورسوله .. ارسله بالهدى والنور والموعظة .. على فترة من الرسل .. وقلة من العلم .. وضلالة من الناس .. وانقطاع من الزمان .. ودنو من الساعة .. وقرب من الأجل .. من يطع الله ورسوله فقد رشد .. ومن يعصهما فقد غوى وفرط وضل ضلالا بعيدا .

واوصيكم بتقوى الله .. فانه خير ما اوصى به المسلم المسلم .. ثم ان يحضه على الآخرة .. وان يامره بتقوى الله .. فاحذروا ما حذركم الله من نفسه .. ولا افضل من ذلك نصيحة .. ولا افضل من ذلك ذكرا » .

الى ان قال :

« ومن يصلح الذى بينه وبين الله من امره .. فى السر والعلانية .. لا ينوى بذلك الا وجه الله .. يكن له ذكرا فى عاجل امره .. وذخرا فيما بعد الموت .. حين يفتقر المرء الى ما قدم .. وما كان من سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه امدا بعيدا .. ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد .. والذى صدق قوله .. وانجز وعده .. لا خلف لذلك .. فانه **يقول ــ عز وجل ــ** (ما يبدل القول لدى وما انا بظلام للعبيد) .

فاتقوا الله فى عاجل امركم وآجله .. فى السر والعلانية .. فانه من يتق الله يكفر عنه سيآته ويعظم له اجرا .. ومن يتق الله فقد فاز فوزا عظيما .. وان تقوى الله يوقى مقته .. ويوقى سخطه .. وان تقوى الله يبيض الوجوه ويرضى الرب .. ويرفع الدرجة .. خذوا بحظكم ولا تفرطوا فى جنب الله .. قد علمكم الله كتابه .. ونهج لكم سبيله .. ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين .

واحسنوا كما احسن الله اليكم .. وعادوا اعداءه .. وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وسماكم المسلمين .. ليهلك من هلك عن بينة .. ويحيا من حى عن بينة .. ولا قوة الا بالله .. فاكثروا ذكر الله .. واعملوا لما بعد اليوم .. فانه من يصلح ما بينه وبين الله .. يكفه الله ما بينه وبين الناس .. ذلك بان الله يقضى على الناس .. ولا يقضون عليه .. ويملك من الناس .. ولا يملكون منه .. الله اكبر .. ولا قوة الا بالله العلى العظيم » (١) .

ولعلنا نلمس روح التسامح والعفو والرضا وصفاء القلب بارزة فى خطبته تلك ــ عليه الصلاة والسلام ــ وهى اول خطبة فى المدينة .. بعد هجرته اليها من مكة .. لم يذكر فيها اهل مكة بشىء مطلقا .. مع ما راينا من اذاهم له .. واعتدائهم عليه .. واخراجه من احب بلاد الله الى قلبه .. لم يذكر شيئا من عنادهم واصرارهم

(١) تاريخ الطبرى .

على الكفر .. وما لاقى منهم المسلمون من الضر والأذى .. مع أن العهد مازال قريبا بكل هـذا .. فتلك والله مثل عليا .. وشمائل سامية .. لا تتيسر الا لمن كان فى درجـة خاتم الأنبياء .. ولن تكون لسـواه ..

وبعد الصلاة .. ركب راحلته « القصواء » وارخى زمامها .. فاخذوا بخطامها .. فقال :

« دعوها فانها مامورة » وكان لا يمر بدار من دور الانصار الا قالوا : هلم يا رسـول الله الى العدد والعـدة والمنعة .. ويعترضـون ناقته فيقول : « خلوا سـبيلها فانها مامورة » . حتى بركت عند موضع مسجده اليوم .. وكان مربدا للتمر (١) لغلامين يتيمين .. هما : سهل وسهيل ابنا عمـرو من بنى النجار .. فلما بركت .. لم ينزل عنها .. ثم وثبت فسـارت غير بعيد .. لكنها التفتت خلفها .. ثم عادت الى مبركها الاول .. ووضـعت مقدم عنقها على الأرض .. فنزل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ واحتمل ابو ايوب الانصارى رحل ناقته الى بيته .. فاقام عنده سـبعة أشـهر .. حتى بنى حجـره ومسجده .

وأبو أيوب هذا اسمه ــ خالد بن زيد كليب بن ثعلبـه بن عوف بن غنم بن مالك بن النجار الانصارى الخزرجى النجارى .. شـهد العقبة وبدرا واحدا والخندق وجميع الغزوات .. وكان من خاصة على بن أبى طالب .. وغزا أيام معاوية ارض الروم مع يزيد بن معاوية سـنة احدى وخمسـين من الهجرة .. وتوفى عند مدينـة القسطنطينية .. فدفن هناك .

ويقول البراء : ان رسـول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعث وهو فى منزل ابى أيوب .. زيد ابن حارثه وابا رافـع .. واعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم الى مكة .. فقدما عليه بفاطمة وأم كلثـوم ابنتيه .. وسـودة بنت زمعه ــ زوجته ــ واسامة بن زيد وامه ــ ام ايمن ــ واما ابنتـه زينب فلم يمكنها زوجهـا ابو العاص بن الربيع من الخروج .. وخرج معهم عبد الله بن ابى بكر بعيال أبى بكر ــ ومنهم عائشـة ــ فنزلوا فى بيت حارثة بن النعمان .

وعن انس بن مالك .. قال : لما دخل رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ المدينة اضـاء منها كل شىء .. وصـعدت ذوات الخـدور على الاجاجير (٢) عند قدومه يقلن :

طلع البدر علينا   من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا   ما دعـا لله داع

وعنه ايضـا :

فلما بركت الناقة على باب ابى أيوب .. خرج جوار من بنى النجار بالدفوف يقلن :

نحن جـوار من بنى النجار
يا حبـذا محمـد من جار

فقال ــ صـلى الله عليه وسـلم ــ لهن : « اتحببننى » ؟ قلن : نعم يا رسول الله ..

قال : « الله يعلم ان قلبى يحبكم » (٣) .

وقال الطبرى : وتفرق الغلمان والخـدم فى الطرق يقولون : جاء محمد رسول الله .

وكان الغلامان صاحبا ــ المربد ــ يتيمين .. فى حجر اسعد بن زرارة .. فاستدعاهما رسول الله ــ صلى الله عليه وسـلم ــ وسـاومهما فى المربد .. ليتخذه مسجدا .. فقالا : بل نهبه لك يا رسول الله .. فابى ان يقبله منهما هبة .. حتى اشتراه منهما بعشرة دنانير ذهبا .. اداها من مال ابى بكر .

وامر ــ عليه الصلاة والسـلام بصـنع ــ اللبن ــ للبنـاء .. ثم عمل المسـلمون فى بناء مسجده .. حتى تم بناؤه .

(١) الانوار المحمدية .

(٢) الاسطح .

(٣) الانوار المحمدية .

وكان أسعد بن زرارة يصلى ويجمع فى هذا المكان قبل مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم.
وكان فيه شجرة غرقد ونخل وبعض قبور المشركين .. فامر رسول الله بالقبور فنبشت .. وبالنخل والشجرة فقطعت .. وصفت فى قبلة المسجد .. وجعل طوله مما يلى القبلة الى مؤخره مائة ذراع .. والجانبين مثل ذلك .. وجعل اساسه ثلاثة اذرع .. ثم بنوه باللبن .. وكان - عليه الصلاة والسلام - يبنى معهم .. وينقل اللبن والحجارة بنفسه .. ويقول من شعر عبد الله بن رواحة :

اللهم لا عيش الا عيش الآخرة
فارحم الانصار والمهاجرة

وكان يقول :

هذا الجمان لا جمان خيبر
هذا ابر ربنا واطهر

وجعل المسلمون يرتجزون .. وهم ينقلون اللبن .. ويقول بعضهم فى رجزه :

لئن قعدنا والرسول يعمل
لذاك منا العمل المضلل

وجعلت قبلة المسجد الى بيت المقدس ..
وفتح فيه ثلاثة أبواب : باب فى مؤخره .. وباب يقال له باب الرحمة .. والباب الذى يدخل منه رسول الله .. وجعل عمده الجذوع .. وسقف بالجريد .. وقيل له - عليه السلام - الا نسقفه ؟ فقال : لا .. عريش كعريش موسى .. وبنى بيوتا الى جانبه .. بيوت الحجرات .. وسقفها بالجريد والجذوع .

ولما انتهى البناء .. بنى بعائشة - رضى الله عنها - فى الحجرة التى بناها لها شرقى المسجد .. وهى مكان قبره الآن .. وجعل لسودة بنت زمعة - رضى الله عنها - حجرة اخرى .

ومادام الحديث قد تطرق بنا .. الى ام المؤمنين عائشة .. رضى الله عنها - لزم ان نعلم عنها شيئا .. فهى بنت أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - وامها ام رومان بنت عامر .. ولدت فى السنة التاسعة - قبل الهجرة - فنشأت مسلمة .. وتزوجها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمكة فى شهر شوال السابق للهجرة .. ودخل بها فى المدينة بعد الهجرة .. وكانت احب نسائه اليه .. وكنيتها - ام عبد الله - : عبد الله بن الزبير .. ابن اختها اسماء .. لأنه تربى فى حجرها .

كانت من اكبر النساء عقلا .. فصيحة الكلام .. صحيحة المنطق .. احفظ اهل زمانها للحديث.. روت عن النبى اكثر من الف حديث .. وكان لديها نسخة من القرآن الكريم (١) .

قبض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهى بنت ثمانى عشرة .. ولم يتزوج بكرا غيرها .. وقبض ورأسه فى حجرها .. ودفن فى بيتها .

وتوفيت سنة سبع وخمسين للهجرة .. ليلة الثلاثاء .. لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان .. وسنها سبعة وستون عاما .

صلى عليها أبو هريرة بالبقيع ..ودفنت ليلا .. فى أيام ولاية مروان بن الحكم على

(١) دائرة المعارف الاسلامية - تحت اسم عائشة .

المدينة .. فى خلافة معاوية .. وكان مروان لقد استخلف ابا هريرة وذهب الى العمرة .

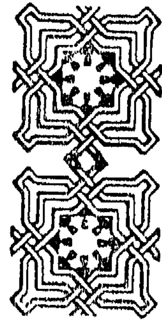
وروى القاسم بن محمد عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ أنها قالت :

« فضلت ازواج النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعشر خصال :

تزوجنى رسول الله بكرا دون غيرى .. وابواى مها جران .. وجاء ــ جبريل ــ بصورتى فى حريرة وامره ان يتزوج بى .. وكنت اغتسل معه فى اناء واحد .. وجبريل ينزل عليه بالوحى وانا معه فى لحاف واحد .. وتزوجنى فى شوال .. وبنى بى فى ذلك الشهر .. وقبض بين سحرى ونحرى .. وانزل الله تعالى عذرى من السماء .. ودفن فى بيتى .. وكل ذلك لم يساونى غيرى فيه (٢) » .

* * *

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ٤ ص ٦٥٦ .



حـول يـثرب

● من أسمائها المشهورة :

يثرب .. ودار الهجرة .. وطيبة .. وقـرية الأنصار .. ومدينة الرسول . والمباركة .. والعذراء .. والبارزة .. والفاضحة .

وكثرة الأسماء .. تدل على شرف المسمى .

● آخى الاسلام بين الأوس والخزرج .. والف بين قلوبهم .. واصبحوا بنعمة الاسلام اخوانا متحابين متناصرين .

وسماهم رسول الله بالأنصار .. لأنهم نصروه وأيدوه .

— ٣٥ —

حول يثرب

يقتضينا البحث .. وقد وصلنا مع ركب رســول الله — صــلى الله عليه وســلم — الى المدينة .. أن نقف وقفة نحــاول فيها أن نعلم شيئا عن تلك المدينة .. التي اختارها الله — سبحانه — لتكون دارا لهجــرة رســوله .. فيشرف منها نور الاسلام .. اشعاعا قويا يملأ الارض بالحب والخير والسلام .

وقد قال عنها عبد العزيز الداروردى :

بلغنى ان للمدينة فى التوراة اربعين اسما. كما ذكر لهــا ياقوت فى معجم البلدان تســعة وعشرين اسما . اما السمهورى فقــد اخــرج لها فى كتابه — وفاء الوفاء — اربعة وتســعين اسما ..وكثرة الاسماء تدل على شرف المسمى

ومن اسمائها المشهورة :

يثرب .. وذات الحجرة .. وطيبة .. وقرية الانصــار .. ومدينة الرسول .. والمباركة .. والعذراء .. والبارة .. والفاضحة ..

ولعل اسم الفاضحة .. لأن من أضمر فيها سوءا اظهر الله ما اضمره .. وافتضح به .

وهى تقع فى سهل خصب .. فى الشــمال من مكة بمقدار مائتى ميل .. كثيرة النخيل.. تسقى زروعها من الآبار .. ويحيط بها ســور .. ويقع مسجد الرسول فى وسطها .. وقبره شرقى المسجد .. ومعه فيه قبر ابى بكر وقبر عمر .. والروضة ما بين القبر والمنبر .

ويقع بقيع الغرقد شرقى المدينة .. وهو مدفن أكثر امواتها .. وبه قبــر ابراهيم ابن النبى .. وقبر الحسن بن على بن أبى طالب .. والى جانبه قبور : العباس وعثمان ومالك بن أنس الامام المعروف .

اما جبل احد .. فهو فى شــمالى المدينة .. وهــو اقــرب الجبال اليها .. بينه وبينهــا فرسخان .. وقد فضله رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال عنه !

« احد جبل يحبنا ونحبه .. وهو على باب من ابواب الجنة » .

وحجارته من الجرانيت .

وبقرب المدينة مزارع ونخيل وضياع لأهلها .. تسمى وادى العقيق — واعذب المياه فى هذه المنطقة هى آبار العقيق .

ومن خصائص المدينة .. أنها طيبة الريح .. وللعطر فيها طيب رائحة لا توجد فى غيرها .. وتمرها — الصيحانى — لا يوجد فى اى بلد مثله .

ولما قدم المهاجرون الى المدينة .. اصيب اكثرهم بالحمى .. وذلك لاختلاف المناخ .. فقد تعودوا جو مكة وجفافه .. بينما صيف المدينة رطب .. وشتاؤها قاس .

قالت عائشة — رضى الله عنها —

« ولما قدم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — المدينة .. أصاب اصحابه منها بلاء وسقم .. وصرف الله ذلك عن نبيه .. وأصابت الحمى أبا بكر وبلالا وعامر بن فهيرة .

فاستأذنت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى عيادتهم .. وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب .. فأذن لى .. فدخلت عليهم .. فى بيت واحد .. فوجدتهم يهذون من شدة الحمى .. فأخبرت رسول الله .. قالت : فنظر الى السماء وقال :

« اللهم حبب الينا المدينة كحبنا مكة او اشد .. اللهم بارك لنا فى صاعنا ومدنا .. وصححها لنا .. وانقل حماها الى الجحفة (١) فاستجاب الله له .. فطيب هواءها وترابها وسكنها والعيش فيها » .

وكان أبو بكر يقول اذا اشتدت الحمى .. من شعر حنظلة بن يسار :

كل امرىء مصبح فى أهله

والموت أدنى من شراك نعله

وكانت حمى المدينة — الملاريا — لما كان يحيط بها من المستنقعات ومياه الآبار .. وكانت تعيب على اهل يثرب ما يصيبهم من الحمى . والملاريا كانت تسمى بين العرب — أم ملدم — وقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لزيد الخيل .. وكان قد اتى مع وفد طىء وأسلم : « يا زيد تقتلك أم ملدم » يقصد الحمى .. فأصيب بها أثناء الطريق عند عودته .. ومات بها .

وذكر بعض الرواة خطأ .. ان الرسول — عليه الصلاة والسلام — لما قدم المدينة .. وجد أهلها خبثاء .. من أخبث الناس كيلا .. فانزل الله — تعالى — (ويل للمطففين) الآية .. فأحسنوا الكيل بعد ذلك .. وقد فات هؤلاء الرواة أن سورة « المطففين » نزلت بمكة .. وهى آخر سورة نزلت بها .

واهل المدينة .. هم الذين سماهم الله — تعالى — ورسوله بالأنصار .

ومن اجل هذا .. استأذن القارىء الكريم .. فى وقفة مع أهل المدينة .. الذين مدحهم الله وأثنى عليهم فى كتابه الكريم .. وصار ذكرهم قرآنا يتلى الى يوم الدين .. فعلى أيديهم علت مشاعل الهدى والنور .

كان أهل يثرب قبيلتين مشهورتين بين العرب .. هما : الأوس والخزرج .. تذكران معا فى الغالب .. فيقال عن أهل يثرب : الأوس والخزرج .. ولكن غلب اسم الخزرج عليهم جميعا . وأصلها رجلان اخوان .. خزرج وأوس .. ابوهما : حارثة بن ثعلبة العنقاء بن عمرو مزيقياء بن عامر بن ماء السماء .. يمتد نسبه الى يعرب بن قحطان . وامهما

---

(١) الجحفة : قرية قرب رابغ .. محل احرام حجاج مصر .. وكان أهلها يهودا .

قيلة بنت كاهل بن عذرة بن سعد من قضاعة — ولذلك كان اليهود يسمون أهل المدينة ابناء قيلة —

وقد ذكر المؤرخون : ان مزيقياء جد حارثة — والد خزرج وأوس — خرج من اليمن .. بعد تفرق اهلها — اهل سبا — بسيل العرم .. فذهب الى الشام .. وملك غسان .. ثم هلك .. فملكها بعده ابنه ثعلبة العنقاء .. فلما هلك ثعلبة ملك بعده عمرو بن اخيه .. الذى تغلب على حارثة صاحب الحق فى ملك غسان.

فلم يجد حارثة بدا من الرحيل الى يثرب .. هو وولداه : خزرج وأوس ومن معهم . ونزلوا على اليهود .. وسألوهم الحلف والجوار على الأمان والمنعة .. فاعطوهم من ذلك ما سألوا فنزلوا بيثرب مع اهلها .. ولم يكونوا اهل انعام ولا شياه .. لان البلاد لم تكن بلاد مراعى .. ولا نخل ولا زرع .. فكانوا يصلحون الأرض ويزرعونها .. والأموال لليهود .. ولبثوا حينا من الدهر على هذا الوضع .. ضياع وفقر .. وشدة وعسر .. واملاق وضر .

وخرج منهم مالك بن عجلان الخزرجى .. فى زيارة لابن عمه ابى جبيلة الغسانى بالشام فسأله الأخير عن حالهم .. فاخبره بما هم فيه من ضيق وشدة .. فقال له : لماذا لا تغلبون اليهود ـ وكيف ترضون تلك الحياة ؟ .. لكم الشقاء والتعب والعمل .. ولليهود المال والثمر ؟ .. ووعده بالسير اليهم ونصرهم على اليهود .

فرجع مالك بن عجلان .. واخبر قومه بوعد ابى جبيله بن عمه .. فاستعدوا للقائه .. فى خفية من اليهود .

ووفى ابو جبيلة الغسانى بوعده .. وحضر اليهم بجنوده .. وخشى أن يتحصن منه اليهود .. فاتخذ له مكانا وسطا .. مرتفع الجوانب .. وبعث الى اليهود يستدعيهم للقائه

فلبى الدعوة خواصهم .. واذن لهم فى الدخول عليه .. فى مكانه هذا ..ثم امر جنوده فقتلوهم جميعا .. وقال للاوس والخزرج : اذا لم تتغلبوا على البلاد بعد قتل هؤلاء فلأحرقنكم .. ثم رجع الى الشام .

فاقاموا فى عداوة مع اليهود .. واستطاع مالك بن عجلان بعد هذا ان يخدع الباقى من رؤسائهم .. ويستدرجهم الى وليمة ..وغدر بهم .. وقتل سبعة وثمانين منهم .

وقد صور اليهود — مالك بن عجلان — فى كنائسهم وبيعهم .. يلعنونه كلما دخلوا .. ولكنهم ذلوا وخافوا .. ولجأ كل قوم منهم الى بطن من بطون الأوس والخزرج يستنصرون بهم .. ويكونون لهم احلافا .. بينما اثرى الأوس والخزرج .. وامتنع جانبهم .. وعظم شان مالك بن عجلان بين الحيين : حى الأوس وحى الخزرج .

وذكر ابن الأثير سببا آخر لموقف مالك بن عجلان حيال اليهود .. ولكنه غريب .. فقال : ان اليهود كان لهم ملك اسمه — الفيطون — وكان ظالما فاسقا .. سن سنة ان كل امراة تتزوج يدخل عليها قبل زوجها .. فاتفق يوما زفاف اخت مالك بن عجلان الى زوجها .. فأتت مجلسا فيه اخوها وكشفت عن ساقيها .. فقال اخوها : قد اتيت سوءا .. فقالت : الذى يراد بى الليلة اشد من هذا .. فثارت النخوة العربية فى راسه .. واحتال على الدخول معها عند الملك .. فى زى امراة . . فلما خلا المكان قتله .. وفر الى أبى جبيلة الغسانى بالشام .

والعقل لا يقبل تلك الرواية .. ولا يقرها .. فالنخوة العربية لا تقبل التسليم لملك يهودى بهذا العمل مطلقا .. مهما كان ظالما او طاغيا او جبارا .

ومن المعروف والمشهور عن العرب .. أنهم كانوا يئدون البنات صغيرات خشية العار .. حتى أبطل الاسلام تلك العادة .. بقوله تعالى :

« وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت » (١).

وقد انكرها ايضا الأستاذ — ولفنسون — فى كتابه — تاريخ اليهود .

انكرها من وجهة نظره هو .. فقال : انها قصة خرافية .. لأنه ليس من المعقول ان ملكا يهوديا يرتكب جريمة منكرة كهذه .. تناقض روح التوراة .. وتخالف الايمان بالله موسى دون ان يجد مقاومة عنيفة .. وانكارا شديدا من شعبه وابناء جلدته .

والمهم ان الأوس والخزرج قويت شوكتهم بالمدينة .. وتناسلوا .. وكثرت زراريهم وتشعبت بطونهم .

ويحدثنا التاريخ .. عن حروب كثيرة نشبت بين القبيلتين الاخيتين .. كان النصر فيهما تارة للأوس .. وتارة للخزرج .. ولكن فى الاغلب كان الظفر للخزرج .. وكلها كانت بسبب الثار .. لما هو معروف فى طبيعة العرب .. من التمسك بالاخذ بالثار .

فاولها كانت فتنة .. ادت الى معركة سميت — حرب سمير — بين الأوس والخزرج .. انتصر فيها الأوس .. وحكم فيها المنذر بن حرام النجارى الخزرجى .. وهو جد — حسان ابن ثابت — بدفع الدية .. وافترقوا على ذلك .

وتكررت المعارك بينهما .. حتى كانت الموقعة المعروفة — بحرب حاطب — التى انتصر فيهما الخزرج وصار لها يوم من اشهر ايامهم .

ومنهما « يوم الربيع » .. « ويوم البقيع » و « يوم الفجار » الأول والثانى و « يوم بعاث » وهو آخر ايام حروبهم .

وكان لليهود دور كبير .. فى تلك المعارك والحروب .. ففى يوم — الفجار الثانى — حالفت يهود بنى قريظة وبنى النضير الاوس على الخزرج .. وانضم يهود بنى قينقاع الى الخزرج .. ومكثوا اربعين يوما يتجهزون للحرب .. والتقوا .. ببعاث — وكانت حربا طاحنة .. انتهت بهزيمة الخزرج سنة ٦١٦ م تقريبا .

وبلغت العداوة مداها قبل هجرة الرسول مباشرة :

فلما سئموا القتال .. اتفقوا على تتويج عبد الله بن ابى بن سلول ملكا عليهم .

وكان ابن سلول رئيس الخزرج .. وهو الملقب فيما بعد — براس المنافقين — لأنه لما راى اجماع قومه على الاسلام .. دخل فيه كارها .. مصرا على النفاق .. لان الاسلام حال بينه وبين تاج الملك .. فكتم غيظه واضمر الشر .

واخذته العزة بالاثم .. وهو الذى قال فى غزوة المصطلق .

« لئن رجعنا الى المدينة لنخرجن الاعز منها الأذل » (٢) .

فقال ابنه عبد الله للنبى : هو والله الذليل .. وانت العزيز يا رسول الله .. ان انت اذنت لى فى قتله قتلته .. فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها احد ابر بوالده منى .. ولكنى اخشى ان تامر به رجلا مسلما فيقتله .. فلا تدعنى نفسى انظر الى قاتل ابى يمشى على الارض حتى اقتله .. فاكون قتلت مسلما بكافر .

فقال له — عليه الصلاة والسلام :

« بل نحسن صحبته .. ونترفق به ما صحبنا .. ولا يتحدث الناس ان محمدا يقتل اصحابه .. ولكن بر اباك .. واحسن صحبته » .

وآخى الاسلام بين القبيلتين: الاوس والخزرج .. والف بين قلوبهم .. واصبحوا بنعمة

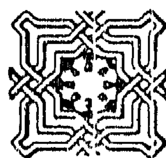
---

(١) التكوير .

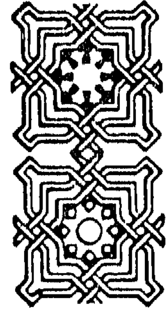
(٢) المنافقون .

الاســـلام اخوانا متحابين متناصرين .. وسماهم رسول الله بالانصار .. لانهم نصروه وعضـــدوه وايدوه .

وقد اخطات دائرة المعارف الاســلامية .. حيث شابهت بين كلمة « الأنصـــار » .. وكلمـــة « النصـــارى التى تطلق على المسيحيين (١) .. فكلمة ـ انصـــار ـ جمع نصـــير ـ اما كلمة ـ نصـــارى ـ فهى نســـبة الى قرية الناصرة بالشـــام .



(١) فى مادة ـ انصار .



مؤاخاة ومهادنة

عن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ ان النبى صلى الله عليه وسلم ـ عندما آخى بينهم وبين الأنصار .. قال للانصـــار :

((ان شئتم قسمتم للمهاجرين من دوركم واموالكم .. وقسمت لكم من الغنائم كما قسمت لهم .. وان شئتم كان لهم الغنائم ولكم دياركم وأموالكم)) .

فقالوا : لا . بل نقسم لهم من ديارنا واموالنا .. ولا نشاركهم فى الغنائم)) .

ـ ٣٦ ـ
مؤاخاة ومهادنة

قطعنا فى ركب رسـول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : من عالم الأمر .. قبل عالم الخلق .. فرايناه ينتقل من الاصـلاب الطيبة الى الارحام الطـاهرة .. من لدن آدم الى ابيه عبد الله بن عبد المطلب .. سـلالة اختصها الله ـ سبحانه ـ بالكرم والمروءة .. والمجد والسؤدد .. والعزة والشرف .. والشجاعة والسيادة .. من كابر الى كابر .. ومن ساجد الى ساجد .. وتلك هى المرحلة التى يشـير اليها ـ سبحانه فى قـوله :

(الـذى يراك حين تقـوم * وتقلبك فى الساجدين) (١) .. اى انتقالك من ظهر ساجد الى ظهر ساجد .

والمرحلة الثانيـة : من يوم مولده ـ عليـه الصلاة والسلام ـ الى يوم مبعثه .. حيث رايناه قمة فى المثل العليا .. وذروة فى الخلق العظيم .. طفولة وصبيا وشبابا ... فنجده صـادقا أمينا .. سـهل الخلق .. لين الجانب .. ليس بفظ ولا غليظ ولا صـخاب ولا فحاش ولا عيـاب ولا مزاح .. فكان يمزح ولا يقـول الا حقا .. يقابل السيئة بالحسنة .. يصل من قطعه .. ويعطى من حرمه .. ويعفو عمن ظلمه .

رايناه فيهـا يرعى الغنم .. ويشـتغل بالتجارة .. ويكسب قوته من عمل يده .

اسخى الناس كفا .. واشـدهم حياء .. وقد كسـاه الله حلة من الوقار والهيبـة .. والجلال والكمال . حتى اصطفاه ربه لرسـالته .. واختصه بنبوته .. لما بلغ الأربعين .

وفى تلك المرحلة الثالثـة : رايناه قد حمل الرسالة .. وادى الأمانة .. ودعا الى الفضائل .. ونهى عن الرذائل .. وتحمل فى سبيل ذلك ما تحمل من الأذى .. فكان فيها جبلا اشم .. فى قوة الصبر وعظيم الاحتمال .. حلمه يسبق غضبه .. لا تزيده شدة الجهل عليه الا حلما .. تكتلت ضده جميع قوى الشر .. تحالفت عليه شياطين الانس والجن .. فلم يزده ذلك الا ثباتا ويقينا .. وصمودا واصرارا .. عرضـت عليه

---

(١) ٢١٩ ـ الشعراء .

مفاتن الدنيا من مال وعز وجاه .. فقال قولته الخالدة :

« والله يا عمى لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى .. على أن اترك هذا الأمر .. حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » .

اوذى وعذب وطرد .. حتى اذن الله لدينه ان تحتضنه يثرب — دار هجرته — حيث أوى الرسول اليها مع السابقين المهاجرين .. والصفوة من الصديقين ...

وننتقل معه الى المرحلة الرابعة والأخيرة .. لتبدأ دولة الاسلام .. وعزة المسلمين ... فالاسلام دين ودولة .. عبادة وسياسة .. زهد وكياسة .

كانت الهجرة بدءا للتاريخ الهجرى .. لانها بدء الدولة الاسلام .

وقد بداها قائد تلك الدولة .. بامرين خطيرين : مؤاخاة .. ومهادنة .

فأما المؤاخاة : فقد ربط — عليه الصلاة والسلام — أواصرها .. بين المهاجرين والانصار .. فى دار — أنس بن مالك — وكانوا تسعين رجلا .. نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار .

اخى بين المهاجر والانصارى .. على المساواة .. والتوارث بعد الموت دون ذوى الأرحام حتى حين غزوة بدر .. حيث انزل الله — عز وجل — قوله :

(وأولوا الأرحام بعضهم اولى ببعض فى كتاب الله ان الله بكل شىء عليم) (١) .

فاعاد التوارث الى الرحم .. دون رباط الأخوة .

وقد رويت مواقف كثيرة عن تفانى الأنصار .. فى الوفاء بحق الأخوة .. فيقتسم الانصارى مع أخيه المهاجر داره وماله وكل ما يمتلك .

وقد عرض بعضهم على اخيه اختيار احدى زوجتيه ليتزوجها بعد أن يطلقها له .

قال المهاجرون : يا رسول الله .. ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم .. احسن مواساة فى قليل .. ولا احسن بذلا فى كثير .. كفونا المؤونة .. وأشركونا فى المهنة .. حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالاجر كله .. قال : « لا . ما اثنيتم عليهم ودعوتم لهم » .

وعن ابن عباس — رضى الله عنه — ان النبى — صلى الله عليه وسلم — عندما آخى بينهم قال للانصار : « ان شئتم قسمتم للمهاجرين من دوركم واموالكم .. وقسمت لكم من الغنائم كما قسمت لهم .. وان شئتم كان لهم الغنائم ولكم دياركم واموالكم » .

فقالوا : لا بل نقسم لهم من ديارنا واموالنا .. ولا نشاركهم فى الغنائم .. فانزل الله تعالى .. يثنى على الأنصار :

(والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما اوتوا ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) (٢) . ومن الذين آخى الرسول بينهم :

أبو بكر الصديق .. وخارجة بن زيد بن أبى زهير الأنصارى .. وقد تزوج أبو بكر — رضى الله عنه — حبيبة بنت خارجة .. واستشهد خارجة يوم احد .

ومنهم عمر بن الخطاب .. وعتبان بن مالك الانصارى .

وجعفر بن ابى طالب .. ومعاذ بن جبل الانصارى .

وأبو عبيدة بن الجراح .. وسعد بن معاذ الانصارى .

وطلحة بن عبيد الله .. وكعب بن مالك الانصارى .

وعثمان بن عفان .. واوس بن ثابت الانصارى .

وسعيد بن زيد .. وابى بن كعب الانصارى .

ومصعب بن عمير .. وابو ايوب الانصارى .

وعمار بن ياسر .. وحذيفة بن اليمان العنسى الانصارى .

---

(١) ٧٥ — الانفال .

(٢) ٩ — الحشر .

وسلمان الفارسي .. وابو الدرداء الأنصاري .
وابو ذر الغفاري .. والمنذر بن عمرو الانصاري .

وعبد الرحمن بن عوف .. وسعد بن الربيع الانصاري .

وذكر بعض الرواة (١) : ان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض .. مؤاخاة ثانية .. واتخذ فيها عليا اخا لنفسه .

ولكن المهاجرين كانوا مستغنين باخوة الاسلام .. ورابطة الديار .. وقرابة النسب .. عن عقد مؤاخاة .. بخلاف المهاجرين مع الانصار .. ولو انه — صلى الله عليه وسلم — قد آخى بين المهاجرين .. لكان احقهم بأخوته احب الخلق اليه .. انيسه في الغار .. ورفيقه في الهجرة .. وافضل الصحابة عليه — ابو بكر الصديق — وقد قال :

« لو كنت متخذا من اهل الأرض خليلا .. لاتخذت أبا بكر خليلا .. ولكن أخوة الاسلام أفضل » وفي لفظ آخر « ولكن أخي وصاحبي » .

فاذا كانت الأخوة في الاسلام عامة .. لقوله — عليه الصلاة والسلام — للصحابة : « وددت لو قد رأينا اخواننا » قالوا : السنا اخوانك يا رسول الله ؟ .. قال : « انتم اصحابي .. واخواني قوم يأتون من بعدي .. يؤمنون بي ولم يروني » .

فلأبي بكر .. أعلى مراتب الأخوة والصحبة معا .. فالصحابة لهم الأخوة مع مزية الصحبة وللتابعين بعدهم الأخوة دون الصحبة .

واما المهادنة : فقد كان في المدينة ثلاث قبائل لليهود : بنو قينقاع .. وبنو النضير .. وبنو قريظة .

وادعهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وكتب بينه وبينهم كتاب موادعة ومهادنة بشروطها .. مفتتحا : بسم الله الرحمن الرحيم .. جاء فيه ..

« وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين .. وان يهود بني عوف امة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم .. مواليهم وانفسهم الا من ظلم واثم فانه لا يوتغ (٢) الا نفسه واهل بيته . وان ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف .. وان ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف .. وان ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف .. وان ليهود بني الأوس مثل ماليهود بني عوف .. وان ليهود بني ثعلبة مثل ما يهود بني عوف .. الا من ظلم واثم فانه لا يوتغ الا نفسه واهل بيته »

الى ان قال : « وان على اليهود نفقتهم .. وعلى المسلمين نفقتهم .. وان بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة .. وان بينهم النصح والنصيحة .. والبر دون الاثم .. وانه لم يأثم امرؤ بحليفيه .. وان النصر للمظلوم .. وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين .. وان يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .. وان الجار كالنفس غير مضار ولا آثم .. وانه لا تجار حرمة الا باذن أهلها .. وانه ما كان بين اهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار (٣) يخاف فساده .. فانه مردود الى الله — عز وجل — والى محمد رسول الله .. وان الله على تقى ما في هذه الصحيفة وابره .. وانه لا تجار قريش ولا من نصرها .. وان بينهم النصر على من دهم يثرب (٤) .. واذا دعوا الى صلح يصالحونه ويلبسونه فانهم يصالحونه ويلبسونه .. وانهم اذا دعوا الى مثل ذلك .. فانه لهم على المؤمنين .. الا من حارب في الدين .. على كل اناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم .. وان ليهود الأوس مواليهم وانفسهم .. مثل ما لأهل هذه الصحيفة .. من البر الحسن من اهل هذه الصحيفة .. وان البر دون الاثم .. لا يكسب كاسب الا على نفسه .. **وان الله أصدق على ما في هذه الصحيفة وابره .. وانه لايحول هذا الكتاب دون ظالم او آثم .. وانه من خرج آمن .. ومن قعد آمن بالمدينة الا من ظلم واثم .. وان الله جار لمن بر واتقى ومحمد رسول الله » (٥) .**

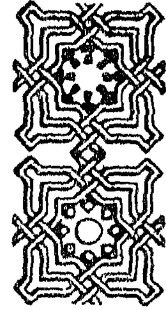
(١) ابن قيم الجوزية ص ٦٣ جـ ٣ .

(٢) لا يوتغ : لا يهلك .

(٣) اختلاف .

(٤) جاءها وحاربها .

(٥) من ابن اسحاق .



الإسلام بين اليهودية والنفاق

خرج عبد الله بن أبى بن سلول ـ زعيم المنافقين ـ يوما مع اصحابه .. فلقيهم بعض صحابة رسول الله .. فقال ابن أبى لاصحابه : انظروا كيف أرد عنكم هؤلاء السفهاء .. فأخذ بيد أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ وقال : مرحبا بالصديق .. سيد بنى تميم .. وشيخ الاسلام .. وثانى رسول الله فى الغار .. الباذل نفسه وماله لرسول الله .

ثم أخذ بيد عمر ـ رضى الله عنه ـ وقال :

مرحبا بسيد بنى عدى ـ الفاروق ـ والقوى فى دين الله .. الباذل نفسه وماله لرسول الله .

ثم أخذ بيد على ـ كرم الله وجهه .. فقال :

مرحبا بابن عم رسول الله .. وختنه .. وسيد بنى هاشم ماخلا رسول الله .

فقال له على ـ رضى الله عنه :

اتق الله يا عبد الله ولا تنافق .. فان المنافقين شر خليقة الله .

ــ ٣٧ ــ
الاســــلام
بين اليهودية والنفاق

وصـــل بى البحث الى رجـــل يهودى من بنى قينقاع .. اسلم وحسن اسلامه .. وورد ذكره فى كتب السيرة .. وفى دائرة المعارف الاسلامية .. والكتب الأوربية .. وانزل الله فى فضله :

(وشهد شاهد من بنى اسرائيـــل على مثله فآمن واستكبرتم) (١) .. كما انزل فيه قوله :

(قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب) (٢) .

فقد ذكرت كتب التفسير انه هو المقصود فى قوله تعالى (ومن عنـــده علم الكتاب) اى علم التوراة (٣) . ذلك الرجل هو الحصين بن سلام بن الحارث .. حبر يهود بنى قينقاع .. اسماه رسول الله ــ صلى الله عليه وســــلم ــ عبد الله بن سلام ــ بعد ان اسلم .

ولنسمع منه هو .. كيف اظهر اســلامه .. **فيقول :**

سمعت برســـول الله ــ صـــلى الله عليـــه وســــلم ــ وعرفت صـــفته وزمانه الـــذى كنا نتوكف (٤) له . فكنت مسرا لذلك .. صامتا عليه .. حتى قدم رسول الله صـــلى الله عليه وسلم ــ المدينة .. فلما نزل قباء فى بنى عمرو بن عوف .. اقبل رجلٌ .. حتى اخبر بقدومه .. وانا فى راس نخلة لى اعمـــل فيها .. وعمتى خالدة بنت الحارث تحتى جالســــة .. فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله كبرت .. فقالت عمتى حين سمعت تكبيرى : خيبك الله .. والله

---

(١) ١٠ ــ الاحقاف . (٢) ٤٣ ــ الرعد .

(٣) النسفى والقرطبى وغـــيرهما ــ وكتاب ــ تهذيب الاسماء ــ وغيرها .

(٤) اى نترقب ظهوره .

لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادما مازدت، فقلت لها : اى عمه .. هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه .. بعث بما بعث به .. فقالت اى ابن أخى .. أهو النبى الذى كنا نخبر انه يبعث مع نفس الساعة ؟ قلت لها : نعم .. قالت فذاك اذا .. قال : ثم خرجت الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأسلمت ثم رجعت الى اهل بيتى .. فأمرتهم فاسلموا .. وكتمت اسلامى من اليهود .. ثم جئت رسول الله .. فقلت : يا رسول الله .. ان اليهود قوم بهت .. وانى احب أن تدخلنى فى بعض بيوتك .. فتغيبنى عنهم .. ثم تسألهم عنى .. حتى يخبروك كيف أنا فيهم .. قبل أن يعلموا باسلامى .. فانهم ان علموا به بهتونى عندك .

فادخلنى رسول الله — صلى الله عليه وسلم .. فى بعض بيوته .. ودخلوا عليه فكلموه وسالوه . ثم قال لهم : « اى رجل الحصين بن سلام فيكم » ؟ .. قالوا : سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا .. قال : فلما فرغوا من قولهم .. خرجت عليهم .. فقلت لهم : يا معشر يهود .. اتقوا الله .. واقبلوا ما جاءكم به .. فوالله انكم لتعلمون انه رسول الله — تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة باسمه وصفته .. فانى أشهد انه رسول الله .. وأؤمن به وأصدقه وأعرفه .

قالوا : كذبت .. ثم وقعوا بى .. فقلت لرسول الله : الم أخبرك انهم قوم بهت يا نبى الله ؟ انهم اهل غدر وكذب .

قال : فاظهرت اسلامى .. واسلام اهل بيتى .. واسلمت عمتى خالدة ابنة الحارث .. فحسن اسلامها (١) .

وجاء فى صحيح البخارى .. عن أنس بن مالك .. قال :

بلغ عبد الله بن سلام .. مقدم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — المدينة .. فأتاه .. فقال:

انى اسألك عن ثلاث .. لا يعلمهن الا نبى .. قال :

« ما أول اشراط الساعة ؟ .. وما أول طعام يأكله اهل الجنة ؟ ومن اى شىء ينزع الولد الى أبيه ؟ .. ومن اى شىء ينزع الى اخواله ؟ .

فقال — عليه الصلاة والسلام — « خبرنى بهن آنفا جبريل » .

فقال عبد الله : ذلك عدو اليهود من الملائكة .. فقال رسول الله :

« اما أول اشراط الساعة .. فنار تحشر الناس من المشرق الى المغرب .

واما أول طعام يأكله أهل الجنة .. فزيادة كبد الحوت (٢) .

واما الشبه فى الولد .. فان الرجل اذا غشى المراة فسبقها ماؤه كان الشبه له .. واذا سبق ماؤها كان الشبه لها » .

قال : اشهد انك رسول الله .

وقال الطبرى : اجمع الرواة على ان عبد الله بن سلام مات بالمدينة سنة ثلاث وأربعين للهجرة .

وبالتأمل فى رد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على السؤال الأول .. بقوله : عن أول أشراط الساعة :

« نار تحشر الناس من المشرق الى المغرب » نجد ان أول اشراطها .. قد ظهر فى هذا الزمان واضحا جليا .. فهذه نار الشيوعية

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام جـ ٢ .

(٢) قطعة متعلقة بكبد الحوت . هى اطيبه واهنؤه وأمرؤه .

تجتاح العالم .. وقد حدد رسول الله اتجاهها بقوله « من المشرق الى المغرب » والاشارة هنا واضحة .. لا لبس فيها ولا غموض .. ولا نحتاج الى كبير اقناع .. او قوى برهان .. فأى نار تعدل نار الشيوعية ؟ .. ان النار تحرق المادة فقط .. اما نار الشيوعية فانها تحرق المادة والروح معا .

ان النار التى يشير اليها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هى نار معنوية .. لقوله تعالى :

(ان الذين يأكلون اموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا (١)) . وقوله أيضا :

(ان الذين يكتمون ما انزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا .. أولئك ما يأكلون فى بطونهم الا النار (٢)) .

وتمادى رءوس اليهود فى عنادهم وكفرهم .. مع علمهم بصدق الرسول .. ولكنه العناد والكبر .. وشر الناس من أضله الله على علم .. ومن هؤلاء :

حيى .. وابو ياسر .. وسلام بن مشكم .. وكنانة بن الربيع .. وكعب بن الأشرف .. وعبد الله بن صوريا .. ولبيد بن الأعصم .. الذى حرضه اليهود لمحاولة سحر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث جاء جبريل ـ عليه السلام ـ وأخبره بذلك السحر وبمكانه ..وعفا عنه رسول الله .. وقال :

« اما انا فقد اعفانى الله وكرهت ان اثير فى الناس شرا » يقصد قتله (٣) .

ومنهم مالك بن الصيف .. رئيس الأحبار .. ذهب مع جماعة من اليهود الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يجادلونه بالباطل .. فقال له النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ :

« انشدك الله الذى أنزل التوراة على موسى .. هل تجد فيها أن الله يبغض الحبر السمين » ؟

قال : نعم .. أن الله يبغض الحبر السمين قال صلى الله عليه وسلم .. « انت الحبر السمين » .

فغضب وقال : ما أنزل الله على بشر من شىء (٤) .

وهنا نحن أولاء نرى مالكا هذا.. قد أدى به عناده وكبره الى الكفر بما انزل على نبينا محمد .. وبما أنزل على نبيهم موسى أيضا .. ولهذا انبه الأحبار على هذا القول .. وخلعوه عن رئاستهم .. وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف .

كما أوحى الشيطان اليهم ان يجادلوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويناقشوه ويسألوه : فكان يدفع حججهم .. ويظهر افكهم بما أوحى الله اليه من آيات محكمات .. وبينات مفصلات .. فلجأوا الى اثارة الفتنة .. ونبش الضغائن بين الأوس والخزرج .

فهذا شاس بن قيس اليهودى .. يمر يوما على الأوس والخزرج وهم مجتمعون .. فقال : قد اجتمع بنو قيلة .. والله مالنا معهم اذا اجتمعوا من قرار .

فأمر شابا يهوديا بالذهاب اليهم .. والجلوس معهم .. وتذكيرهم بيوم ـ بعاث ـ يوم عدائهم وحربهم .. ونبش ما قاله شعراؤهم فى الحرب .. ليثير بينهم كامن الضغينة .. ومدفون العداء .. ففعل الشاب ما أمره به شاس .. وكادت تنجح الفتنة .. حيث ذكر كل منهم اقوال شاعرهم .. وتنازعوا وتواعدوا على

(١) ١٠ ـ النساء .

(٢) ١٧٤ ـ البقرة .

(٣) من كتاب ـ محمد ـ لمحمد رضا .

(٤) النسفى والبيضاوى وابن كثير وغيرهما ـ ٩١ ـ الانعام .

القتال .. فنادى هؤلاء : يا آل الأوس .. ونادى هؤلاء : يا آل الخزرج .. ثم خرجوا للحرب .. وقد حملوا السلاح .

فلما علم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا الأمر .. خرج اليهم فيمن كان معه من المهاجرين فقال : « يا معشر المسلمين .. الله الله .. اتقوا الله ـ أبدعوى الجاهلية وأنا بين اظهركم ؟ .. بعد أن هداكم الله الى الاسلام .. وقطع به عنكم أمر الجاهلية .. واستنقذكم به من الكفر .. وألف بين قلوبكم .. ترجعون الى ما كنتم عليه كفارا » ؟

فعرفوا انها نزعة من الشيطان .. وفتنة أيقظها اليهود .. فألقوا السلاح .. وبكوا .. وعانق **رجال الأوس رجال الخزرج** .. وانصرفوا آسفين نادمين .. سامعين مطيعين .. وأنزل الله تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين * وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم * يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون * واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون (١)) .

كما أنزل الله تعالى فى حق شاس بن قيس قوله :

(يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا (٢)) .

وهكذا تنوعت أساليب الكيد للرسول وللاسلام من اليهود .. وانضم اليهم سرا .. عدد من المنافقين .. من الأوس والخزرج .. الذين لم يرد الله ان يشرح صدورهم للاسلام .. وهو عدد لا يعد كبيرا .. ولو ان بعض الرواة حدد عددهم فى زمن الرسول بثلاثمائة .. الا أنهم كانوا يظهرون الاسلام :

(واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون (٣)) .

كانوا مع المسلمين فى العلن .. ومع اليهود فى السر .. وكان على رأسهم عبد الله بن ابى بن سلول .. كان من اعظم اشراف اهل المدينة .. وكانوا قد نظموا له الخرز ليتوجوه ويملكوه .. وكان جميل الصورة .. ممتلىء الجسم .. فصيح اللسان .. وهو الذى يعنيه الله بقوله فى سورة المنافقين :

(واذا رأيتهم تعجبك اجسامهم) .

تقول كتب التفسير : كان ابن ابى رجلا جسيما صبيحا فصيحا .. ومعه قوم من المنافقين على مثل صورته .. وكانوا يحضرون مجلس النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيستندون فيه .. ولهم جهارة المنظر .. وفصاحة الألسن .. فكان النبى ومن حضر يعجبون بهياكلهم .. ويسمعون الى كلامهم (٤) .

وقد شبههم الله ـ سبحانه ـ بالخشب المسندة .. لأنهم أشباح بلا ارواح .. وأجسام بغير أحلام .

ان حياة النفاق .. هى أحط دركات الحياة .. ولهذا جعل الله المنافقين فى الدرك الأسفل من النار تحقيرا لهم .. وزراية بهم .. ووضعهم فى الدرجة التى يستحقونها .

وسأعرض عليك أيها الأخ الكريم .. مثلا من أمثلة نفاق ابن أبى بن سلول :

---

(١) ١٠٠ ـ ١٠٣ ـ آل عمران .
(٢) ٩٩ ـ آل عمران .
(٣) ١٤ ـ البقرة .
(٤) النسفى والبيضاوى وابن كثير وغيرهم ـ المنافقون .

فقـد ورد عن ابن عباس ــ رضى الله عنه ــ قـال :

نزلت « واذا لقوا الذين امنوا قالوا آمنا .. الآية » فى عبد الله بن ابى وأصحابه .. وذلك انهم خرجوا ذات يوم .. فلقيهم نفر من الصحابة .. فقال ابن ابى لأصحابه .. انظـروا كيف ارد عنكم هؤلاء السفهاء .. فاخذ بيد ابى بكر ــ رضى الله عنه ــ فقال :

مرحبا بالصديق .. سـيد بنى تميم .. وشيخ الاسلام .. وثانى رسول الله فى الغار .. الباذل نفسه وماله لرسول الله .

ثم اخذ بيد عمر ــ رضى الله عنه ــ وقال :

مرحبا سـيد بنى عـدى ــ الفاروق ــ والقـوى فى دين الله .. الباذل نفسـه وماله لرسول الله . ثم اخذ بيد على ــ كرم الله وجهه ــ

فقال يا بن عم رسول الله وختنه .. وسيد بنى هاشم ما خلا رسول الله .

فقال له على ــ رضى الله عنه ــ اتق الله ياعبد الله ولا تنافق .. فان المنافقين شر خليقة الله .

فقال له ابن ابى : مهلا يا أبا الحسـن .. أتقول لى هـذا ؟ والله ان ايماننا كايمانكم .. وتصـديقنا كتصـديقكم ثم افترقوا .. فقـال لأصـحابه : كيف رأيتمونى فعلت ؟ .. فأثنوا عليه مدحا .

وعاد المسلمون الى الرسول .. فأخبـروه بما حصل .. فنزلت الآية :

(واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم) الى اخر سورة المنافقين كلها .. فى ابن ابى واصحابه .

وكان المسلمون يستقبلون بيت المقـدس فى صلاتهم .. وبلغ رسول الله أن اليهود يقولون : يخالفنا محمد ويتبع قبلتنا .. فقال : ياجبريل .. وددت أن الله ــ تعالى ــ صرف وجهى عن قبلة اليهود .. فقال جبريل ــ عليه السلام ــ انما أنا عبد .. فادع ربك واسأله .

وجعل ــ عليه الصـلاة والسـلام ــ يقلب ناظرية فى السماء .. فالسماء قبلة الدعاء .

وفى النصف من شعبان .. على راس ثمانية عشر شهرا من الهجرة .. نزل عليه قوله تعالى :

(قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره) (١) .

فوجهت الصلاة الى الكعبة .. وكان ذلك قبل موقعة بدر الكبرى .. باقل من شهرين .

واختلف الـرواة فى اول وقت من الاوقات الخمس .. وجهت فيه الصـلاة الى الكعبة ؟ فقال بعضهم : صلى ركعتين من الظهر الى بيت المقدس .. ثم استدار الى المسجد الحرام ودار معه المسلمون .

ولكنا نرجح ما ذكره البخارى :

« بينما الناس بقباء فى صلاة الصبح .. اذ جاءهم آت فقال : ان رسول الله ــ صـلى الله عليه وسلم ــ قد نزل عليه القرآن .. وقد امر ان يستقبل الكعبة فاستقبلوها .. فاستداروا الى الكعبة » . ولهذا سمى المسجد ــ مسـجد القبلتين ــ

وكان فى تحويل القبلة محنة شـديدة .. استغلها اليهود والمنافقون فى المدينة .. والمشركون فى مكة اما اليهود فقالوا : خالف قبلة الأنبيـاء قبله .. ولو كان نبيا لكان يصـلى الى قبـلة الأنبياء .

واما المنافقون .. فقالوا : ما ندرى محمـد أين يتوجه بنا ؟ أن كانت الأولى حقا فقد تركها .. وان كانت الثانية هى الحق .. فقـد كان على باطل .

(١) ١٤٤ ــ البقرة .

واما المشركون فى مكة .. فقالوا : كما رجع الى قبلتنا يوشك ان يرجع الى ديننا .. وما رجع اليها الا لأنها الحق .

واما المسلمون .. فقالوا : سمعنا واطعنا (وقالوا امنا به كل من عند ربنا) .. وهم الذين هداهم الله وعناهم بقوله :

(وما جعلنا القبلة التى كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وان كانت لكبيرة الا على الذين هدى الله) (١) .

فهؤلاء لم يكن التحويل عليهم كبيرا .. لأنهم يعلمون ان المشرق والمغرب لله — سبحانه — وكثرت اقاويل السفهاء من اليهود والمنافقين .. وعلم الرسول مسبقا بما سيقولون .. لقول الله له :

(سيقول السفهاء من الناس ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء الى صراط مستقيم) (٢) .

وقد روى النسفى فى تفسيره .. حول قوله تعالى (وما جعلنا القبلة التى كنت عليها .. الاية) قال : ان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كان يصلى بمكة الى الكعبة .. فأمره الله بالصلاة الى صخرة بيت المقدس .. بعد الهجرة — تاليفا لليهود .. ثم حول الى الكعبة .

كما ذكر الشيرازى فى تفسيره — تفسير البيضاوى — قول ابن عباس — رضى الله عنه — انه — عليه الصلاة والسلام — كانت قبلته بمكة بيت المقدس الا انه كان يجعل القبلة بينه وبينه

فيكون معنى قوله تعالى (وما جعلنا القبلة التى كنت عليها) .. اى الجهة التى كنت عليها أولا .. وهى الكعبة (الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه) بمعنى ما جعلنا القبلة التى تحب أن تستقبلها .. الجهة التى كنت عليها أولا بمكة .. الا امتحانا للناس وابتلاء .. لنعلم وتعلم انت والمؤمنون .. من هو ثابت على الاسلام .. الصادق فيه .. ممن هو على حرف .. ينكص على عقبيه .. فيرتد عن الاسلام عند تحويل القبلة .. مثل قوله (ليميز الله الخبيث من الطيب) .. فوضع الله تعالى العلم موضع التمييز .

وقد سئل — عليه الصلاة والسلام — بعد تحويل القبلة — الى الكعبة : كيف بمن مات يا رسول الله قبل التحويل ؟ .. فنزل قوله تعالى :

(وما كان الله ليضيع ايمانكم ان الله بالناس لرءوف رحيم) (٣) .أى صلاتكم الى بيت المقدس وسمى الصلاة هنا — ايمانا — لأن الصلاة هى الدعامة والركيزة للايمان .

ولهذا التحويل حكمة عظيمة جليلة .. وقد سبقته اية النسخ فى قوله تعالى :

(ما ننسخ من آية او ننسها نات بخير منها أو مثلها الم تعلم أن الله على كل شىء قدير)(٤)

فاذا كان الله — سبحانه — قد نسخ القبلة — من بيت المقدس .. فانه اتى بخير منها .. وهى الكعبة .. اول بيت وضع للناس .. قبل بيت المقدس .. فلزم أن تعود البشرية .. مع خاتم الرسل الى القبلة الأولى .. قبلة ادم وابراهيم .. قبل ان يطوى سجل الزمن .

ثم أتم نعمته على المسلمين مع القبلة .. بان شرع لهم الأذان .. وقد اذن فيها ابراهيم ابو الأنبياء من قبل .. وزادهم الله فى الظهر والعصر والعشاء ركعتين اخريين بعد أن كانت ثنائية .

وعن عبد الله بن عمر — رضى الله عنه — ان

---

(١) ١٤٢ — البقرة .
(٢) ١٤٢ — البقرة .
(٣) ١٤٣ — البقرة .
(٤) ١٠٦ — البقرة .

رسول الله — صلى الله عليه وسلم — اراد ان يجعل شيئا يجمع به الناس للصلاة .. فذكر عنده البوق واهله .. والناقوس واهله .. فكره ذلك . حتى رأى رجل من الانصار الأذان فى نومه .. وهو عبد الله بن زيد .. ورأى عمر نفس الأذان فى منامه فى تلك الليلة .. فاما عمر .. فقال :

اذا اصبحت اخبرت رسول الله — صلى الله عليه وسلم —

واما عبد الله الانصارى .. فذهب ليلا الى رسول الله وقال له : يا رسول الله .. طاف بى طائف فى هذه الليلة .. مر بى رجل عليه ثوبان اخضران .. يحمل ناقوسا فى يده ... فقلت يا عبد الله — اتبيع هذا الناقوس ؟ .. قال : وما تصنع به ؟ .. قلت : ندعوا به الى الصلاة .. قال : الا ادلك على خير من ذلك ؟ .. قلت : وما هو ؟ .. قال :

تقول : الله اكبر الله اكبر .. الله اكبر الله اكبر .. اشهد أن لا اله الا الله .. اشهد أن لا اله الا الله .. اشهد ان محمدا رسول الله .. اشهد ان محمدا رسول الله .. حى على الصلاة .. حى على الصلاة .. حى على الفلاح .. حى على الفلاح .. الله اكبر .. الله أكبر .. لا اله الا الله ..

فامر رسول الله بلالا فاذن بها .. وزاد بلال فى الصبح : الصلاة خير من النوم .. واقرها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهى ليست فيما رأى عبد الله .. ولا فيما رأى عمر .

وكان من مؤذنى الرسول : ابن ام مكتوم بالمدينة .. وبلال أول من اذن فى الاسلام .. واذن فى جامع عمر بن الخطاب بالقدس .. ومات بلال بدمشق .

ولما استقر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالمدينة .. والف الله بين قلوب اهلها .. بعد العداوة والحروب .. فمنعه — حفظه — انصار الله .. وكتيبة الاسلام .. من الأسود والأحمر (١) وبذلوا نفوسهم دونه .. وقدموا محبته على محبة الأبناء والآباء والازواج .. وكان أولى بهم من انفسهم .

وتحالف ضده العرب واليهود .. واعلنوا له العداوة والبغضاء .. والله يأمر المسلمين بالصبر والعفو والصفح .. حتى اقويت شوكتهم .. واشتد جناحهم .. فاذن لهم حينئذ فى القتال .. ولم يفرضه عليهم .. فقال تعالى :

(اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير * الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق) (٢) .

وهذه أول آية نزلت فى القتال .

وقال بعض الرواة :

نزل هذا الاذن بمكة (٣) .. وهذا خطا لعدة اسباب :

منها ان الاذن فى نص الاية للذين اخرجوا من ديارهم بغير حق .. وهؤلاء هم المهاجرون .

ومنها ان الله لم يأذن بمكة فى القتال .. لان المسلمين لم يكن لها فيها شوكة تمكنهم من القتال .

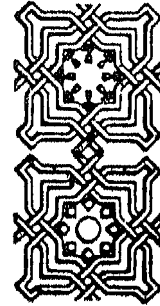
واهمها أن الآية نفسها — مدنية — نزلت بالمدينة .. بعد هجرة الرسول اليها .

---

(١) من جميع الناس : العرب والعجم .

(٢) ٣٩ — ٤٠ — الحج .

(٣) زاد المعاد — لابن قيم الجوزية ص ٦٥ جـ ٢ .



روح الإسلام فى الحرب

الاسلام عقيدة صدق .. قامت على اسس قوية من المبادىء والمثل .. والعقل والمنطق .. قبل أن تكون نتيجة ضغط أو اكراه أو اجبار .

وليس أدل على ذلك .. من وصايا الخلفاء لقواد الجيوش .. حيث بلغت شفافيتهم .. الى الرحمة بالنبات والشجر .. والشياه والبقر .. كالرحمة بالأطفال الرضع .. والشيوخ الركع .. والنساء الضعاف .

— ٣٨ —

روح الاسلام فى الحرب

كم ردد خصوم الاسـلام .. انه دين حرب .. شق طريقه بالقوة .. وانتصر بحد السيف .. وأجبر الناس قسرا على أتباعه .

وهـذا الدعاء باطل .. وافك مفتـرى .. فاحداث التـاريخ وظواهر الواقع تثبت زيف باطلهم .. وتظهر افتراء افكهم .

وتلك نفحـة اكبر الظن انها وليـدة العصر الحـديث .. روجها الاسـتعمار الغـربى .. ورددتها أبواقـه .. ليزلزل تلك العقيـدة التى عزت على الخطوب .. وصـمدت امام اعاصير الزمن .. وظلت على مر السنين جبلا راسخا تتحطم امامه كل القوى..وتتلاشى على صخوره عبقريات ارباب الكيد والمؤامرات .

نعم لقد انتشر الاسـلام بقوته الذاتية .. وليس أدلّ على ذلك من ازدياد عدد المسلمين فى مكة .. فى الوقت الذى كان فيه النبى واتباعه قلة مستضعفين .. لا حـول لهم .. ولا قـوة تحميهم من العذاب والأذى .

ليس ادل على ذلك من انتشار تحيةالاسلام وسريانها فى الجـزيرة العربية مسرى النـار فى الحطب .. قبلَ أن يأمن المسلمون على انفسهم من طغيان الطغاة .. وجبروت العتاة .. قبل أن يهاجر النبى وصحبه الى المدينة ،

ليس ادل على ذلك من دخول الاسلام فى كل بيت من بيوت يثرب قبل الهجرة اليها .

لقد استمر انتشار الاسلام بقوته الذاتية.. حتى فى العصور التى وهت فيها قوة المسلمين وضعفت شوكتهم .. شهد بذلك الاعداء قبـل الاصدقاء .. ويكفينى أن اقدم للقارىء الكريم فقرة من كتاب ـ الدعوة الى الاسلام ـ لمؤلفه ـ السيرتوماس ارنولد ـ فيقول عن الامبراطورية الاسلامية المتصـدعة :

« تصدعت أركان الامبراطورية العظمى.. وتضعضعت قوة الاسلام السياسية .. ولكن ظلت غزواته الروحية ـ مستمرة دون انقطاع ثم يقول :

« وعنـدما طـرد فرد يناند ـ ملك ليـون وقشتاله ـ المسلمين من قرطبة سـنة ١٢٣٦م ودفعت غرناطة ـ وهى اخر معاقل الاسلام فى اسبانيا ـ الجزيه الملك المسيحى .. وعندما اغرقوا فى الدماء مسجد الدولة العباسية .. ضربت جمـوع المغول بغـداد عام ١٢٥٨م .. فى هذه الأوقات .. كان الاسـلام قد استقرت دعائمه .. وتوطدت أركانه فى جزيرة سـومطرة

.. وكان على أهبة أن يحرز تقدما ناجحا فى الجزر الواقعة فى بلاد الملايو » .

وفى هذه اللحظات .. التى تطرق فيها الضعف السياسى الى قوة الاسلام .. نرى انه قد حقق بعض غزواته الروحية الرائعة .

وضرب توماس مثلين تاريخيين كبيرين لذلك :

المثل الأول : هو انتصار الاتراك السلاجقة على المسلمين فى القرن الحادى عشر .

والمثل الثانى : هو انتصار المغول على المسلمين فى القرن الثالث عشر .

وفى الحالتين اعتنق الفاتحون المنتصرون الاسلام .. وهو ديانة المغلوبين .

وقد حمل دعاة الاسلام .. بعد ان فقدوا مظهر السلطان والقوة عقيدتهم الى افريقيا الوسطى والصين وجزائر الهند الشرقية وروسيا وغيرها .. ثم صار للاسلام فى العصر الأخير اتباع فى انجلترا وامريكا واستراليا واليابان (١)

فما معنى هذا ؟

معناه ان الاسلام عقيدة صدق قامت على اسس قوية من المبادىء والمثل .. والعقل والمنطق .. قبل أن تكون نتيجة ضغط أو أكراه أو اجبار .

لقد فتح المسلمون الممالك .. واقاموا فيها دولا قائمة على العدل والحب والتسامح .. ولم نسمع ان المسلمين ارغموا احدا على اعتناق الاسلام .. بل كانوا مثلا عليا فى صون العقائد الدينية .. وكفالة الحرية لغير المسلمين .

والقرآن الكريم ملىء بالآيات الصريحة .. التى تنهى عن الاكراه فى الدين :

(لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى) (٢) .

(ما على الرسول الا البلاغ) (٣) .

(افانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين(٣)

(فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب (٤) .

(ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) (٥) .

(لست عليهم بمسيطر) (٦) .

وغيرها كثير وكثير .

ولهذا دخل سكان المستعمرات الرومانية والفارسية فى الاسلام افواجا .. لأنهم وجدوا فى الاسلام منقذا لهم من الاضطهاد فى دينهم .. وخلاصا من ظلم وعسف حكامهم .

وهذا تاريخ مصر فى الفتح العربى .. خير شاهد على صدق ما نقول :

فكم كان فى مصر من شهداء فى المسيحية بسبب الاستبداد الرومانى .. ومن أجل هذا رحب المصريون بالفتح العربى الاسلامى .. لانه لم يتعرض لدينهم ونظمهم وعاداتهم .

لقد أحس الناس سماحة الاسلام فى اسبانيا .. وفى سوريا .. وفى مصر وغيرها .. حيث ترك لهم حكامهم اموالهم وكنائسهم وقوانينهم .. بل وتركوا لهم حق التقاضى الى قضاة منهم

وقد يقول قائل .. انه فرض عليهم الجزية .. وفيها شىء من الاكراه .. ولكنه اعتراض تافه .. حيث كانت الجزية السنوية تبلغ دينارا من كل شريف .. ونصف دينار عن كل مملوك .. ورضى سكان اسبانيا بذلك طائعين (٧) .. وكانت تلك الجزية فى مقابل حمايتهم من أعدائهم .. وتدبير شئونهم .. فهى ضريبة زهيدة .. هى فى الواقع اقل من القليل .

جرى المسلمون على السماحة فى حربهم .. وفى فتوحاتهم .. فكانوا قبل ان يخوضوا حربا مع اهل اى بلد .. يرسلون اليهم شروطا للصلح .. كما فعل عمرو بن العاص مع سكان غزة .. لما حاصرها فى السنة السابعة عشرة من الهجرة .. وكما فعل مع اهل مصر .. حيث عرض عليهم حرية كاملة فى الدين .. ومساواة تامة فى المعاملة مع المسلمين .

يقول جوستاف لوبون .. فى كتابه ــ حضارة العرب ــ :

---

(١) الدعوة الاسلامية ــ للسير توماس ارنولد ص ١٨ .
(٢) ٢٥٦ ــ البقرة .
(٣) ٩٩ ــ المائدة .
(٤) ٩٩ ــ يونس .
(٤) ٤٠ الرعد .
(٥) ١٢٥ ــ النحل .
(٦) ٢٢ ــ الغاشية .
(٧) اقرا ــ حضارة العرب ــ ص ٣٢٩ ــ لجوستاف لوبون .

« ويثبت لنا سلوك امير المؤمنين — عمر بن الخطاب — فى مدينة القدس .. مقـدار الرفق العظيم .. الذى كان يعامل به العرب الفاتحون الأمم المغلوبة .. وهو على النقيض مما اقترفه الصليبيون فى القدس بعد بضعة قرون » (١) .

كما قال جوستاف :

« وابدى العرب مثل هذا التسامح فى المدن السورية الأخرى .. فلم يلبث جميع سكانها ان رضوا بسيادة العـرب .. وانتحـل اكثـرهم الاسلام » (٢) .

وقد يعترض البعض على هذا فيقول : ان العرب فى فتح مصر قـد حاصروا الاسـكندرية اربعة عشر شهرا .. ولكن هذا الحصار لم يكن نتيجة امتناع الاهالى عن الخضـوع لعـدالة الاسلام .. وانما هو نتيجة تمـرد الرومان .. جنودا وموظفين ورجال دين .. ابوا أن يخضعوا للغزاة فلجأوا الى الاسكندرية .

فهل بعد هذا .. يقول قائل : لقـد انتصر الاسلام بالسيف ؟ .

ان الاسلام دين سلام .. وليس دين حرب كما يزعمون .. ولكن الانسان بطبعه ركبت فيه غريزة الصراع .. وحب التملك .. والتنازع على المصالح .. وقد دفعت هذه الغريزة بعض ولاة الأمور فى بعض دول اسلامية .. الى شن حروب مدفوعة ببواعث السياسـة والملك .. لا بدافع الدين .. فليس العيب فى الدين نفسه .. انما العيب فى هؤلاء الناس .. وهم بشر يصـيبون ويخطئـون .. تعتريهم القـوة كما يعتريهم الضعف .. يتمسكون باهداب الدين تارة .. وتاسرهم مفاتن الدنيا تارة أخرى .. وليس من العدل ان نحمل الاسلام اخطاء معتنقيه .

ومن عبقرية الاسـلام .. انه لم يغفل تلك الغـرائز البشرية .. فيتغاضى عن وجود تلك الغرائز .. أو يفترض محوها .. وانما سن لها من الوسائل ما يكفل تهذيبها .. والتسـامى بها ودرء اخطارها .

فهذا حكم الاســلام .. حينما تتحارب دولتان مسلمتان .. او طائفتان منهما :

هل تقف الدول الاسلامية الأخرى من هذه الحرب وقفة المتفـرج اللاهى .. الذى لا يعبأ بالأرواح المزهقة .. والدماء المراقة .. والأشلاء الممزقة .. والعمران المدمر .. والأموال المبعثرة .. والابرياء الذين يفجعون ؟

أم ينحاز بعض المسـلمين الى هـؤلاء .. وينحاز بعضهم الى أولئك ؟ .. وفى هذا اشعال لنار الفتنة بين المسلمين .. وافساد للعلاقات التى تربط بينهم .. وتدمير لحضـاراتهم .. وتعويق لراقيهم .. واضعاف لهم جميعا .

رسم القـرآن الكريم تخطيطا لمواجهة هـذا الأمر .. بقوله تعالى :

(وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الأخـرى فقاتلـوا التى تبغى حتى تفىء الى أمـر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا ان الله يحب المقسطين) (٣) .

بدأ اولا باتحاد الدول الاسلامية على راى واحد وكلمة واحـدة .. حيـال الدولتين او الطائفتين المتنازعتين .. ثم التدخـل بينهمـا للمصالحة وفض النزاع .. فاذا أصرت احدى الدولتين على موقفها .. ولم تخضع لحكم الامة .. واعتدت على الدولة الأخـرى .. كان هذا منها غرورا بقوتها .. وطغيانا تسـتحق عليه التاديب .

ويكون على الأمة كلها فرض محتوم .. ان تحاربها .. وتنصر المعتدى عليه بكل الوسائل .. وبجميع الأسباب من مال ورجال وعتاد .. حتى ترجع الدولة المعتدية عن غيها .. وتؤوب الى رشدها .. وتقف موقف المهزوم .

وتبرز الحكمـة السامية .. والتخطيط النبيل فى الخطوة التالية :

فلا اذلال للدولة المهزومة .. وانما عودة الى المصالحة .. وفض النزاع .. على أساس من العدل والقسـط بغير تحيز او محاباة .. او تشف او انتقام .

وبهذا نرى ان الاسلام حريص على السـلام .. لم يأمر بالسيف الا لحفظ هذا السـلام .. اذا لم يستطع حفظه بالحكمـة والعقل والموعظة الحسـنة .

وتلك هدية الوجود .. يمنحها صـاحب العرش الأعلى .. لنبى الاسلام .. عند سـدرة

---

(١) ص ١٧٠ الدعوة الاسلامية .

(٣) ٩ — الحجرات .

(٢) ص ١٨٨ .

المنتهى .. بقوله « السلام عليك ايها النبى ورحمة الله وبركاته » .

حيث يقوم ـ عليه السلام ـ بتوزيع السلام .. توزيعا عاما شاملا يغطى الانسية والجنية .. والملائكية أيضا .. بقوله « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » .

وستبقى هذه العبارة تدوى فى أسماع الدنيا .. على لسان كل مسلم .. يرددها فى صلاته كل يوم عشرات المرات .. الى يوم الدين .

اما ترى معى .. أن الاسلام دين السلام ؟

وأين حروب الدول .. التى تدعى الحضارة والمدنية الآن .. من حروب المسلمين فى رحمتهم وعدلهم ومحافظتهم على الكرامة الانسانية .. وحرصهم على المدنيين الآمنين .. أين هم من وصية أبى بكر لأسامة بن زيد .. لما بعثه بجيشه الى الروم .. فقال له :

« لا تخونوا .. ولا تغدروا .. ولا تغلوا .. ولا تمثلوا .. ولا تقتلوا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا طفلا .. ولا تعقروا نخلا وتحرقوه . ولا تقطعوا شجرة مثمرة .. ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا .. وسوف تمرون بأقوام فرغوا انفسهم فى الصوامع .. فدعوهم وما فرغوا انفسهم له » .

بلغت شفافيتهم الى الرحمة بالنبات والشجر .. والشياه والبقر .. كالرحمة بالأطفال الرضع . والشيوخ الركع .. والنساء الضعاف .

انه احساس الانسان بانسانيته .. وشعور المخلوق بعبوديته .

وقف ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى احدى غزواته .. عند امرأة مقتولة .. فبدا عليه الأسى والأسف .. وقال لأصحابه : « ما كانت هذه لتقتل » .

وفى يوم الفتح .. امر احد المسلمين .. بأن يلحق بخالد بن الوليد .. ويقول له :

« لا تقتلن ذرية ولا عسيفا (١) ولا امرأة » وأمر المسلمين بالا يقتلوا شيخا ولا طفلا ولا امرأة .. وقال لهم : « اخرجوا باسم الله .. فقاتلوا فى سبيل الله من كفر بالله .. ولاتغدروا .. ولا تقتلوا الولدان .. ولا أصحاب الصوامع » **وضرب بذلك المثل لمن خلفه من حكام المسلمين .**

لقد نهى الاسلام عن الحرب العدوانيه .. حتى مع الأعداء الذين ظلموا المسلمين من قبل .. فقال تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الأثم والعدوان (٢) .. وجعل العدوان على الاعداء .. خروجا على مبادىء التقوى .. وخوفهم شديد عقاب الله .. اذا تجاوزوا الحد فى حروبهم .

حرص الاسلام اشد الحرص على الوفاء بالعهد .. وبلغت به الشفافية فى هذا الأمر .. انه نهى عن مساعدة المسلمين .. غير الخاضعين لحكمهم .. ضد الكافرين أصحاب العهد معهم .. فقال تعالى عن المسلمين الذين لم يهاجروا :

(وان استنصروكم فى الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق) (٣) .

وقال فى سورة النساء :

(يا أيها الذين آمنوا اذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لما القى اليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عوض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا ان الله كان بما تعملون خبيرا) (٤) .

امرهم الله بدقة التحرى قبل الحرب .. حتى لا يصيبوا قوما بجهالة .

وقد ذكرتنى هذه الآية بموقف جميل لنملة سليمان .. عندما قالت :

(يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون (٥)) .

فقولها « وهم لا يشعرون » يوحى بمبادىء سامية .. وحقائق جليلة .. فمعناها أن سليمان لو علم أن هذا وادى النمل .. لاحترمه وقدسه .. ولما اقتحمه بجنوده .. تكريما لهذا الجنس من خلق الله .. وهم نمل وليسوا بشرا .

فلعل قادة الدول .. التى تدعى المدنية والحضارة فى عصرنا الحديث .. يصل الى أسماعهم صوت تلك النملة .. من خلال كتاب الاسلام .. فتتطرق الى وجوههم قطرة من حياء .. أو ذرة

---

(١) أجيرا .
(٢) المائدة .
(٣) ٧٢ ـ الانفال .
(٤) ٩٤ ـ النساء .
(٥) ١٨ ـ النمل .

من خجل .. عندما يهجمون بجيوشهم على دول آمنة .. ينتهكون حرماتها .. ويسلبون أموالها .. ويسفكون دماءها . ويقتلون اطفالها وشيوخها ونساءها .

اين هم من مبادىء الاسلام السامية .. فى الحرب .. وفى السلم .. على السواء ؟ .

قال الكونت هنرى كاسترى :

ان المسلمين امتازوا بالمسالمة .. وحرية **الأفكار** فى المعاملات .. ومحاسنة المخالفين .. وهذا يحملنا على تصديق ما قاله – روبنسون –: ان شيعة محمد هم وحدهم الذين جمعوا بين المحاسنة ومحبة انتشار دينهم .. وهذه المحبة هى التى دفعت العرب فى طريق الفتح .. فنشر القرآن جناحيه خلف جيوشه المظفرة .. ولم يتركوا للعسف فى طريقهم .. الا ما كان لابد منه فى كل حرب وقتال .. ولم يقتلوا أمة ابت الاسلام (1) .

وعلى هذا الأساس .. وبتلك المبادىء .. قامت الحروب الاسلامية .. ليست عدوانية ابتغاء التوسع وفرض السلطان .. ولكنها دفاع عن الحق .. ولتكون كلمة الله هى العليا .. اسعادا للبشرية فى دنياها وآخرها .

وكان للرسول – عليه الصلاة والسلام – غزوات مع العرب .. أهمها :

غزوة بدر .. وغزوة احد .. وغزوة الاحزاب .. وصلح الحديبية .. وفتح مكة .. وغزوة حنين .

اما حروبه مع اليهود فكانت :

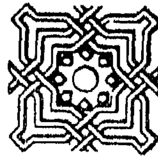
غزوة بنى قينقاع – وغزوة بنى النضير .. وغزوة بنى قريظة .. وغزوة خيبر .

وأما النصارى فكانت حروبه معهم :

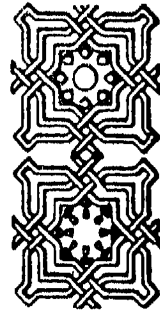
غزوة مؤتة .. ثم غزوه تبوك ولم يحصل فيها حرب .. ثم جهز جيش أسامة بن زيد لحرب الروم .

وقد افاض ائمتنا الكبار فى تفصيل جميع الغزوات والبعوث والسرايا .. افاضة شكرها الله لهم .. فلم يتركوا للباحث اى مجهود فى البحث والتنقيب .

ولهذا .. رفقا منى بالقارىء الكريم .. سأتعرض لكثير من الغزوات بشىء من الايجاز غير المخل بالمطلوب .. مع ايفاء الغزوات الرئيسية المؤثرة حقها .. بأسلوب قد لا يبعث فى النفس الملل .. وفى **نفس الوقت يشفى غلة الصادى .. ويرد لهفة النهم الى العلم** .



(1) الاسلام سوانح وخواطر ص ٣٥ – ترجمة احمد فتحى زغلول .



حول بدر الكبرى

انه يعلم أن قريشا لا غنى لهم عن الذهاب الى الشام كل عام .. فأراد أن يلفت نظرهم الى مهادنته ومصالحته .. حتى يتفرغ لنشر الدعوة الاسلامية .. علهم يعرضون عليه صلحا يأمنون به على تجارتهم .. ويأمن به المسلمون على أنفسهم وعلى دعوتهم .

٣٩
حول بدر الكبرى

كانت مكة ملتقى الخطوط التجارية القادمة من الجنوب .. من الهند والحبشة واليمن .

وكانت قريش تحمل هذه التجارة كل عام الى الشام .. على الفى بعير .. واحيانا اكثر ..

يقول صاحب كتاب ـ سماحة الاسلام فى الحرب ـ : وقد قدرها المستشرق ـ اسبرنجر ـ بنحو مائة وستين الفا من الجنيهات الذهبية .

وكانت المدينة فى طريق القوافل بين مكة والشام .. غدوا ورواحا .

ويبدو ان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان بتعرضه لقوافل قريش .. يريد ان يدفعهم الى مهادنته ومصالحته .. حتى يتفرغ لنشر الدعوة الاسلامية .. وهو يعلم ان قريشا لا غنى لها من الذهاب الى الشام كل عام .. فاراد بتهديد قوافلهم .. ان يلفت نظرهم الى هذا الأمر .. علهم يعرضون عليه صلحا يأمنون به على تجارتهم .. ويأمن به المسلمون على انفسهم وعلى دعوتهم .

ولهذا بادر ببعث البعوث .. وارسال السرايا .. يعترضون قوافل قريش .

وكانت تلك البعوث من المهاجرين فقط .. لأن عهد الانصار كان على أنهم يمنعونه فى دارهم .. ولم يبعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ احدا من الانصار .. حتى غزا بهم بدرا .

سرية حمزة :

واول لواء عقده رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعمه حمزة بن عبد المطلب .. وكان لواء ابيض .. حمله ابو مرثد ـ كناز بن حصين الغنوى ـ حليف حمزة .. فى ثلاثين راكبا من المهاجرين .. يعترض عيرا لقريش .. جاءت من الشام تريد مكة .. وفيها ابو جهل .. فى ثلاثمائة راكب .. كان ذلك فى أول الشهر السابع من الهجرة .. فى رمضان .

وبالنظر الى تلك النسبة بين الفريقين .. يتضح صحة ما اتجهنا اليه .. من أن رسول الله

لم يكن يريد حــــربا .. وانما كان يريد ارغام قريش على كف اذاها عن المسلمين .. أو تتخذ لها طريقا آخر غير طريق المدينــة .. بين مكــة والشــام .. حتى يطمئن المسلمون فى مهجرهم .. ويأمنون جانب غارة قريش عليهم فجاة .

والتقى جيش حمزة ـ الصــــغير ـ وجيش ابى جهل ـ الكبير ـ على ســاحل البحـــر .. بناحية ـ العيص ـ من بلاد جهينة .. واصطفوا للقتال .. فمشى مجـــدى بن عمرو الجهنى بالصلح بينهم . .وكان حليفا للفـــريقين .. فلم يقتتلوا .

سرية عبيدة بن الحارث :

وفى اول شوال .. الشهر الثامن من الهجرة .. بعث الرسول عبيدة بن الحارث .. فى سرية الى بطن رابغ .. وحمل اللواء مســطح بن اثاثة بن عبد المطلب بن عبد مناف .. فى ســـتين من المهاجرين .. لنفس الغرض .. فلقى ابا سفيان بن حرب .. وهـــو فى مائتين .. وكان بينهم الرمى .. ولم يسلوا السيوف .. ولم يصطفوا للقتال .. وانما كانت مناوشـــة . وحضر هـــذه السرية ســـعد بن ابى وقاص .. وهو أول من رمى بسهم فيها .. وهو أول ســـهم رمى فى الاسلام .. وانصرف الفريقان .

وقدم ابن اسحاق هـــذه السرية على سرية حمزة ولكن الغالب على ما ذكرنا .

سرية سعد بن ابى وقاص :

وفى شهر ذى القعدة .. على راس تســـعة اشهر .. عقد رســـول الله لواءه الأبيض .. لسعد بن ابى وقاص .. وحمل اللواء ـ المقداد بن عمـــرو .. وكانوا عشرين مهاجرا .. بعثهم يعترضون عيرا لقريش .. تمر بهم .. وعهد الى سعد الا يجاوز مكانا اسمه ـ الخرار .

يقول سعد : خرجنا على اقدامنـــا .. فكنا نكمن نهارا .. ونسير ليلا .. حتى صبحناها صبح خميس .. فوجدنا العير مرت بالأمس .. فانصرفنا الى المدينة .

غزوة الأبواء :

وفى شهر صفر على راس اثنى عشر شهرا للهجرة .. غزا ـ عليه الصلاة والســـلام ـ بنفسه غزوة الأبواء .. وهى أول غزوة غزاها بنفسه .. ويسميها بعض اصحاب السيرة ـ غــزوة ودان ـ وذلك لان ـ ودان والابواء ـ مكانان متقـــاربان فى وادى الفرع .. بينهمـــا ستة أميال .

يقول زين العابدين بن الحسين بن على ـ رضى الله عنهم ـ كنا نعلم مغازى رســـول الله ـ صلى الله عليه وسلم . كما نعلم الســـور من القرآن الكريم .. كما يقول اسماعيل بن محمد بن سعد بن أبى قاص : كان ابى يعلمنا الغزوات والسرايا .. ويقول : « يابنى انها شرف ابائكم .. فلا تضيعوا ذكرها » .

فكانت اول مغازيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ هى غزوة الأبواء .. بعد ان استخلف على المدينة ..سعد بن عبادة ..وحمل لواءه حمزة ـ رضى الله عنه ـ خــرج على راس ســـتين راكبـــا من المهاجرين .. يعترض عير قريش فلم يلق كيدا .. وانما لقى بنى ضمرة .. وعقد بينهم وبينه مصالحة .. هـــذا نصها : « بســـم الله الرحمن الرحيم .. هذا كتاب محمد رسول الله ..لبنى ضمرة .. بانهم آمنون على اموالهم وانفسهم .. وان لهم النصر على من رامهم بســـوء ـ بشرط ان يحاربوا فى دين الله ـ مابل بحر صـــوفة ـ وان النبى اذا دعـــاهم لنصر اجـــابوه .. عليهم بذلك ذمة الله ورسوله » .

ثم عاد الى المدينـــة .. بعـــد ان غاب عنها خمس عشرة ليلة .

غزوة بواط (١) :

وفى أوائل شـــهر ربيع الأول .. على راس ثلاثة عشر شـــهرا من الهجرة .. غزا بواط ..

---

(١) بواط جبل من جبال جهينة بناحية ـ رضوى .

فى مائتين من المهاجرين .. وقد حمل اللواء الأبيض سعد بن أبى وقاص .. واستخلف على المدينة سعد بن معاذ .

خرج يعترض عيرا لقريش .. فيها امية بن خلف الجمحى .. ومعه مائة رجل من قريش.. والفان وخمسمائة بعير .. وبلغ بواط .. وبين بواط والمدينة اربعة برد (١) .. ففاتته العير .. وعاد الى المدينة .. ولم يلق حربا .

غزوة سفوان : وهى بدر الاولى .

ففى نفس شهر ربيع الأول .. خرج – عليه الصلاة والسلام – فى طلب كرز بن جابر الفهرى .. الذى اغار على مراعى المدينة .. وكان يرعى بالحمى .

فطلبه رسول الله – حتى بلغ واديا يقال له – سفوان – وهو موضع من ناحية – بدر – ولكن كرز هرب .. فرجع – صلى الله عليه وسلم – وتلك هى غزوة بدر الأولى .. وكان حامل اللواء فيها على بن ابى طالب – رضى الله عنه – وقد اسلم كرز بن جابر الفهرى .. بعد ذلك .. وحسن اسلامه .. وقتل يوم الفتح – سنة ثمان من الهجرة .

غزوة العشيرة :

وفى جمادى الاخرة على راس ستة عشر شهرا .. خرج – عليه الصلاة والسلام – فى مائة وخمسين .. وقيل فى مائتين من المهاجرين .. يحمل لواءه الأبيض حمزة بن عبد المطلب .. بعد ان استخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومى .. ولم يكره احدا على الخروج معه .. وكان معهم ثلاثون بعيرا .. يتبادلون ركوبها .. بقصد اعتراض عير لقريش بلغه خروجها من مكة .. قاصدة الشام . وبلغ – ذى العشيرة – مكان قرب ينبع .. وبين ينبع والمدينة تسعة برد – اى اكثر من مائة ميل .

وبعض الرواة يسمون هذا المكان – العشيراء – او العسيرة – بالمهملة .. فوجد العير قد فاتته بأيام .. وهى العير التى ترصدها بعد ذلك .. فى عودتها من الشام .. تلك العير التى وعده الله فيها احدى الطائفتين .. وكانت سببا فى غزوة – بدر الكبرى – .

وقد ذكر ابن اسحاق .. والنبهانى تلك الغزوة .. قبل غزوة بدر الأولى .. ولكن الأغلب لا يؤيد هذا .

وفى غزوة العشيرة .. كنى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على بن ابى طالب – ابا تراب – وذلك انه رآه نائما متمرغا فى الغبار .. فقال : « اجلس ابا تراب » .. وان كان ابن قيم الجوزية .. يخطىء هذا الرأى ويقول : ان تلك الكنية كانت بعد زواج على من فاطمة .. بعد غزوة بدر الكبرى .. فان رسول الله دخل على فاطمة .. وقال : اين ابن عمك ؟ .. قالت : خرج مغاضبا .. فجاء الى المسجد .. فوجده مضطجعا فيه .. وقد لصق به التراب .. فجعل ينفضه عنه ويقول : « اجلس ابا تراب .. اجلس ابا تراب » وكنى بها من هذا اليوم (٢) .

سرية عبد الله بن جحش الأسدى :

وفى شهر رجب السابع عشر من الهجرة .. بعث – صلى الله عليه وسلم – ابن جحش

---

(١) البريد : اثنا عشر ميلا .

(٢) زاد المعاد ص ٩٣ – ج ٢ .

الاسدى فى أثنى عشر رجلا من المهاجرين .. كل اثنين يعتقبان على بعير .. وأعطاه كتابا .. وأمره الا ينظر فيه .. حتى يسير بمن معه يومين .. ففعل .. ثم فتح الكتاب .. فوجد فيه :

« اذا نظرت كتابى هذا .. فامض حتى تنزل — نخلة — بين مكة والطائف — فترصد بها عير قريش .. وتعلم لنا من اخبارهم » .

فاخبر اصحابه بذلك .. وهو لا يستكرههم على السير معه .. فساروا معه جميعا .. طلبا للشهادة فى سبيل الله .

ونخلة هو المكان الذى نزل فيه — صلى الله عليه وسلم — وهو عائد من الطائف .. قبل الهجرة .. وفيه بستان ابنى ربيعة .. وصرف الله اليه الجن فيه يستمعون القرآن .. كما ذكرنا من قبل .

وفى طريق تلك السرية .. ضل بعير سعد بن ابى وقاص .. وعتبة بن غزوان .. كانا يعتقبانه .. فتخلفا فى طلبه .. واستمر عبد الله بن جحش وباقى الصحابة .. حتى نزلوا بنخلة .. فمرت بهم عير لقريش .. تحمل زبيبا وادما وتجارة .. فيها عمرو بن الحضرمى — وعثمان ونوفل ابنا عبد الله بن المغيرة .. والحكم بن كيسان مولى المغيرة .

فتشاور المسلمون .. وقالوا : نحن فى آخر يوم من رجب .. وهو شهر حرام .. فان قتلناهم انتهكنا الشهر الحرام .. وان تركناهم الليلة .. دخلوا الحرم .. فأجتمعوا على حربهم .. فرمى واقد بن عبد الله التيمى .. عمرو بن الحضرمى بسهم فقتله .. فهذا أول قتيل قتله المسلمون .. وأسروا عثمان والحكم .. فهذان أول أسرى المسلمين .. وفر نوفل هاربا . ثم قدموا بالعير والاسيرين الى المدينة .. بعد ان عزلوا خمس ما غنموا (١) .. واقتسموا الباقى .. فذاك أول خمس فى الاسلام .. وقد سمى عبد الله بن جحش فى تلك السرية — امير المؤمنين —

فلما قدم .. واخبر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بما حدث .. قال لهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم —

« ما امرتكم بقتال فى الشهر الحرام » .. وانكر عليهم ما فعلوه .

ووجدت قريش سانحة للقيل والقال ضد المسلمين .. فقالوا : احل محمد الشهر الحرام .. واشتد ذلك على المسلمين .. حتى انزل الله تعالى :

يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج اهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل) (٢) .

وفرج الله بها عن المسلمين .. وقبض رسول الله العير .. وفدى الأسيرين .

ولنا وقفة صغيرة امام تلك الآية .

فقد حكم — سبحانه بين أوليائه وأعدائه بالعدل والانصاف .. ولم يبرىء أولياءه من ارتكاب الخطأ بالقتال فى الشهر الحرام .. بل

---

(٢) خمس الغنائم لله ولرسوله وللمؤمنين .

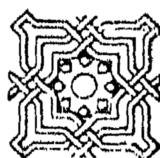
(٢) ٢١٧ — البقرة .

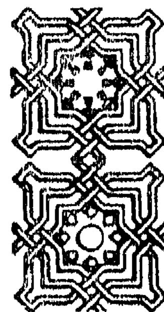
قال « أنه كبير » .. ثم بين أن ما عليه المشركون اكبر واعظم من مجرد القتال في الشهر الحرام.. بصدهم عن سبيل الله .. والكفر به وبالمسجد الحرام .. واخراج اهله منه ظلما وعدوانا .. هذا اكبر عند الله .. لأنها كلها فتنة « والفتنة اكبر من القتل » . فان كان المسلمون قد اخطاوا .. فان الله غفر لهم هذا الخطا .. لما سبق منهم من الهجرة مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ومن التوحيد والطاعة .. وايثار ما عند الله .. كما قيل :

واذا الحبيب أتى بذنب واحد

جاءت محاسنه بالف شفيع ..

وفى شعبان من تلك السنة .. **حولت القبلة .. كما ذكرنا من قبل .**





غزوة بدر الكبرى

انها يوم الفرقان .. اعز الله فيه الاسلام واهله .. واذل فيه الشرك واهله .. مع قلة المسلمين .. وكثرة المشركين .. انها اعظم غزوات الاسلام .. فمنها كان ظهوره .. وبعدها اشرق فى الآفاق نوره .

٤٠
غزوة بدر الكبرى

لعل القارىء الكريم .. يلمس اننا اسرعنا الخطى فى عرض البعوث والسرايا..فى تلك الفترة .. وهى عام كامل .. بدأ من الشهر السابع للهجرة .. بعث فيه رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ البعوث وارسل السرايا .. وخرج بنفسه فى اربع منها .

ولكن البحث يقتضينا أن نبطىء الخطو هونا ما .. امام غزوة بدر الكبرى .. فهى يوم الفرقان.. أعز الله فيه الاسلام واهله .. واذل فيه الشرك واهله.. مع قلة عدد المسلمين..وكثرة المشركين وخيلائهم بعدتهم الكاملة .. وخيولهم المسومة.

ولذلك امتن الله على المسلمين بقوله تعالى: (ولقد نصركم الله ببدر وانتم اذلة) (١) .

لقد كانت غزوة بدر أعظم غزوات الاسلام.. فمنها كان ظهوره .. وبعدها اشرق فى الافاق نوره .. وبدر بلدة فى الحجاز .. الى الجنوب الشراقى من الجار .. والجار على ساحل البحر الاحمر .. وبينهما مرحلة .. وهى سهل منبسط من الأرض .. شماله الشراقى جبال وعرة .. وجنوبه آكام صخرية . وغربه كثبان رملية .

لما بلغ رسول الله عليه وسلم ـ خبر العير المقبلة من الشام لقريش .. صحبة ابى سفيان .. ومعه اربعون رجلا .. وهى العير التى كان قد خرج فى طلبها عند ذهابها الى الشام .. وفاتته .. واشرنا اليها فى ـ غزوة العشيرة ـ

ندب رسول الله الناس للخروج اليها .. فى طريق عودتها الى مكة .. وخرج بهم مسرعين.. فى يوم السبت الثانى عشر من رمضان ـ الشهر التاسع عشر من الهجرة .. وخرج معه الأنصار .. ولم يخرج منهم أحد قبل ذلك .

وكانت عدة جيش المسلمين ثلاثمائة وخمسة .. وعد معهم رسول الله ثمانية تخلفوا باذن الرسول .. لأعمال كلفهم بها .. وهم :

ثلاثة من المهاجرين : عثمان بن عفان .. خلفه رسول الله لتمريض زوجته رقية .. بنت رسول الله .. وكانت مريضة.. وطلحة بن عبيد الله .. وسعيد بن زيد .. بعثهما يتجسسان خبر العير وخرجا فى طريق الشام .

وخمسة من الانصار : ابو لبابة بن عبد المنذر الأوسي .. خلفه على المدينة .. وابو امامة ابن

---

(١) آل عمران .

ثعلبة الأنصارى .. عزم على الخروج الى بدر .. وكانت امه مريضة .. فامره صلى الله عليه وسلم ـ بالمقام مع أمه .. وعاصم بن عدى العجلانى خلفه على أهل العالية .. والحارث ابن حاطب العمرى .. رده من الروحاء الى بنى عمرو بن عوف لشىء بلغه عنهم .. والحارث بن الصمة .. كسر فى الروحاء .

وقد استبشر ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما عدهم .. ووجد الجميع ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا .. وقال « عدة اصحاب طالوت الذين جازوا النهر معه » .

كان منهم مائتين وسبعة من الانصار .. اغلبهم من الخزرج .. فكان عدد الاوس : واحدا وستين .. وانما قل عدد الأوس عن الخزرج .. وان كانوا اشد منهم واقوى شوكة .. واصبر عند اللقاء .. لأن منازلهم كانت فى عالية المدينة .. وجاء النفير بغته .. وقال النبى : « لا يتبعنا الا من كان ظهره (١) حاضرا » فاستاذنه رجال .. ظهورهم كانت فى العالية من المدينة .. أن يستانى بهم .. حتى يذهبوا الى ظهورهم .. فابى .. ولم يكن عزمهم على الحرب .. ولا أعدوا له عدة .. ولكن جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد .

لم يكن معهم من الخيل الا فرسان : فرس للزبير بن العوام .. وفرس للمقداد بن الأسود الكندى .. وكان معهم سبعون بعيرا .. يعتقب الرجلان والثلاثة على البعير الواحد .. فكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يعتقب بعيرا مع على ومرثد بن أبى مرثد الغنوى .

وكان قد إستخلف على المدينة وعلى الصلاة ـ ابن ام مكتوم .. فلما بلغ الروحاء .. رد ابالبابة بن عبد النذر ـ واستخلفه على المدينة .. وجعل ابن ام مكتوم على الصلاة فقط .

وحمل اللواء مصعب بن عمير .. وجعل أمامه رايتين سوداوين : الأولى للمهاجرين .. حملها على ابن ابى طالب .. واسمها ـ العقاب ـ وكان فى العشرين من عمره .. والثانية للانصار .. حملها سعد بن معاذ .. وجعل على الساقة ـ سعد بن أبى صعصعه .

ثم سار بجند الله .. فلما قرب من الصفراء(٢) .. بعث بسيس بن عمروا الجهنى .. وعدى بن الرعباء .. الى بدر يتجسسان خبر العير .

وبلغ ابا سفيان خروج المسلمين .. وكانت القافلة كبيرة .. فيها أموال كثيرة لقريش .. فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى الى مكة .. مستصرخا لقريش بالنفير .. لانقاذ عيرهم واموالهم .. ومال بالقافلة عن طريق بدر .. الى طريق الساحل .. هروبا بها .

فلما وصل ضمضم الى مكة .. أراد ان يثير قريشا .. فقطع أنف بعيره .. وشق قميصه .. وصاح .. اللطيمة اللطيمة ـ (٣) .

ودوى صياحه فى ارجاء مكة .. فخرجت قريش بقضها وقضيضها .. لم يتخلف من اشرافهم احد .. سوى أبى لهب .. فانه عوض عنه رجلا كان له عليه دين .. وحشدوا من حولهم من قبائل العرب .. ولم يتخلف من بطونهم الا بنى عدى .. فلم يخرج منهم أحد .

خرجوا ومعهم المغنيات .. وضاربات الدفوف .. يغنون بهجاء المسلمين .. وهم فى قمة الزهو والرياء .. والبطر والخيلاء حين خروجهم .. اعتمادا على كثرة عددهم .. حيث تبارى اغنياؤهم وتجارهم فى مدهم بالسلاح والمال والعتاد .. قال تعالى عنهم !

(ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله .. والله بما يعملون محيط) (٤) .

ولكن العير قد نجت بتركه طريق بدر .. الى طريق الساحل .. واطمأن أبو سفيان الى نجاتها .. فخاف سوء العاقبة .. من صدام قريش والمسلمين .. فأرسل الى قريش يقول لهم : انكم خرجتم لحماية عيركم واموالكم ورجالكم .. ثم نجت ونجوا .. فارجعوا .. ووافقه على رايه عدد من المشركين كبير .. ولكن ابا جهل اصر على عدم الرجوع .. وصاح : والله لا نرجع حتى نرد بدرا .. فنقيم عليها ثلاثا .. فننحر الجزر .. ونطعم الطعام .. ونعقر الخمر .. وتعزف القيان .. وتسمع بنا العرب .. فلا يزالون يهابوننا الى الابد .

وتردد القوم بين الرجوع والاقدام .. وخشوا ان يتهموا بالجبن اذا رجعوا .. فلم يرجع الا بنوزهرة .. أما الباقون فقد ساروا الى بدر .. وكان بدر .. موسم .. من

---

(١) يعنى ركوبته .

(٢) مكان .

(٣) اى ادركوا الغير التى تحمل التجارة .

(٤) ٤٧ ـ الانفال .

مواسم العرب را. .واقهم .. يجتمعون به كل عام .

ولما بلغ ابا سفيان قول أبى جهل .. قال : هذا بغى .. والبغى منقصة وشؤم .. لأن القوم قد خرجوا لنجاة اموالهم .. وقد نجاها الله .

كان عددهم الفا .. منهم ستمائة دارع .. ومعهم مائة فرس .. عليها مائة درع سوى دروع المشاة .. ومعهم ايضا سبعمائة بعير .. يحمل لواءهم – السائب ابن يزيد – الذى أسلم فيما بعد وحسن اسلامه – ورضى الله عنه .. وهو الأب الخامس للامام الشافعى .

اما الذين كان عليهم نفقة اطعام هذاالجيش فكانوا اثنى عشر رجلا وهم : ابو جهل .. وعتبة وشيبة ابنا ربيعه .. والعباس بن عبد المطلب .. وابى بن خلف .. وحكيم بن حزام .. وابو البخترى .. وزمعة بن الاسود .. والنضر بن الحارث .. ونبيه ومنبه ابن الحجاج .. وهم الذين انزل الله فيهم قوله !

ان الذين كفروا ينفقون اموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون) (١) .

وعلم النبى – عليه الصلاة والسلام – بخروج قريش بنفيرها للحرب .. فاستشار اصحابه فى هذا الامر .. وقال لهم : « ان الله وعدنى بالنصر على احدى الطائفتين : اما العير واما النفير » .. والعير عير قريش وتجارتهم مع ابى سفيان .. اما النفير فهو نفير الحرب مع ابى جهل – وكانت العير أحب اليهم .. ليستعينوا بما فيها من أموال .. على شراء الخيل والسلاح والعتاد .. وقد فهم رسول الله هذا منهم .. لما قال بعضهم : اننا لم نتأهب للحرب يا رسول الله .. وانما خرجنا للعير .. وفى بعض الروايات قالوا يا رسول الله عليك بالعير .. ودع العدو .. فتغير وجه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وسكت . فتكلم ابو بكر فاحسن .. ثم تكلم عمر فاحسن .. وتكلم المقداد بن عمرو فاحسن .. والرسول – صلى الله عليه وسلم يكرر الاستشارة فى كل مرة .. ففهم الانصار انه يعنيهم فقام سعد بن معاذ .. وهو من الانصار .. بمنزلة ابى بكر من المهاجرين عند رسول الله

فقال : والله لكانك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : اجل .. وكان يقصدهم فعلا .. لان بيعتهم له على ان يمنعوه فى ديارهم .. فقال سعد :

لقد آمنا بك وصدقناك .. وشهدنا ان ما جئت به هو الحق .. واعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة .. فامض يا رسول الله لما أردت .. فنحن معك .. فوالذى بعثك بالحق .. لو استعرضت بنا البحر لخضناه معك .. ما تخلف منا رجل واحد .. وما نكره ان تلقى بنا عدوك غدا .. انا لصبر عند الحرب .. صدق عند اللقاء .. **لعل الله يريك فينا ما تقر به عينك .. فسر بنا على بركة الله .**

وقال المقداد :

لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى ! « **اذهب أنت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون** » ولكنا نقاتل عن يمينك .. وعن شمالك .. ومن بين يديك .. ومن خلفك .

فاشرق وجه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وسره ما سمع من اصحابه .. وقال : « سيروا على بركة الله وابشروا .. فان الله قد وعدنى احدى الطائفتين .. وانى قد رايت مصارع القوم » .

* * *

وسار – صلى الله عليه وسلم – فى موضع المعركة .. وجعل يشير بيده .. هنا مصرع فلان .. وهنا مصرع فلان .. وهذا مصرع فلان ان شاء الله .. فما تعدى احد منهم موضع اشارته .

ثم دخل عريشه ذاك .. ومعه ابو بكر الصديق .. بينما قام سعد بن معاذ .. متوشحا بالسيف .

وعن على بن ابى طالب – رضى الله عنه – قال : اخبرونى من اشجع الناس ؟ .. قالوا : انت .. قال : اشجع الناس ابو بكر – رضى الله عنه – لما كان يوم بدر .. جعلنا لرسول الله عريشا .. فقلنا من يكون مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لئلا يهوى اليه احد من المشركين ؟ .. فكان ابو بكر مع رسول الله .. فوالله مادنا منه أحد .. الا وابو بكر شاهر سيفه على رأس رسول الله .. لا يهوى اليه أحد .. الا اهوى عليه ابو بكر .

---

(١) ٣٦ – الانفال .

ووقف على باب العريش ــ سعد بن معاذ ــ ومعه جماعة من الانصار .. وكان العريش يشبه الخيمة .. يستظل به .. وكان من الجريد .

قال السمهورى : ومكان العريش عند مسجد بدر .. وهو معروف عند النخيل .. والعين قريبة منه .

* * *

ولما اطمأنت قريش فى مكانها من بدر .. ارسلوا عمير بن وهب الجمحى للاستطلاع .. وقد اسلم عمير بعد ذلك .. وشهد احدا مع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فجال بفرسه حول معسكر المسلمين .. فعرف عددهم بالتقريب .. وعاد الى قومه .. فقال لهم :

لقد رايت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا .. رجال يثرب تحمل الموت الناقع .. الا ترونهم خرسا لا يتكلمون .. يتلمظون تلمظ الافاعى .. لا يريدون ان يقبلوا الى اهليهم .. زرق العيون كأنهم الحصى تحت الحجف (١) .. قوم ليس لهم منعة الا سيوفهم .. والله ما نرى ان نقتل رجلا منهم .. حتى يقتل رجل منكم .. فاذا اصابوا منكم عددهم .. فما خير العيش بعد ذلك ؟ .. فروا رايكم .

فلما سمع حكيم بن حزام ذلك .. مشى فى الناس .. حتى اتى عتبة بن ربيعة .. فقال : يا ابا الوليد انك كبير قريش .. والمطاع فيهم .. هل لك ان تذكر بخير الى آخر الدهر .. فقال : وماذاك يا حكيم ؟ قال : ترجع بالناس .. **فقام عتبة خطيبا .. فقال :**

يا معشر قريش .. والله ما تصنعون شيئا ان تلقوا محمدا واصحابه .. والله لئن اصبتموه لايزال الرجل ينظر فى وجه الرجل .. يكره النظر اليه .. قد قتل ابن عمه او ابن خاله او رجلا من عشيرته .. فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب .. فان اصابه غيركم فذاك اذا اردتم .. وان كان غير ذلك الفاكم ولم تعدموا منه ما تريدون .. يا قوم اعصبوها اليوم براسى (٢) .. وقولوا : جبن عتبة .. وانتم تعلمون انى لست بأجبنكم .

فوقف ابو جهل وقال : والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد .

فأفسد على الناس راى عتبة .. واصر على قتال المسلمين .

* * *

وتراءى الجمعان : حزب الله القليل عددا وعدة .. يقوده رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وحزب الشيطان الكبير عددا وعدة .. يقوده فرعون هذه الأمة ــ ابو جهل .

ففى يوم السابع عشر من رمضان .. نظر رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الى قريش فى هذا العدد وذلك الاعداد .. **فقال .**

« اللهم هذه قريش قد اقبلت بخيلائها وفخرها .. تحادك وتكذب رسولك .. اللهم فنصرك الذى وعدتنى » .

وفى تلك اللحظة خرج عتبة بن ربيعة .. واخوه شيبة .. وابنه الوليد بن عتبة .. يطلبون المبارزة .. فخرج لهم ثلاث فتية من الانصار .. هم : عبد الله بن رواحة .. وعوف ومعاذ ابنا الحارث .. فقال لهم عتبة : من انتم ؟ ... فقالوا : من الانصار .. قال : اكفاء كرام .. وانما نريد بنى اعمامنا .. فبرز اليهم : على .. وعبيدة بن الحارث .. وحمزة .. بأمر الرسول .. فقتل على قرنه ــ الوليد بن عتبة ــ وقتل حمزة قرنه ــ شيبة ــ واختلف عبيدة وعتبة ضربتان .. فأخذ كل منهما صاحبه .. فمال حمزة وعلى على عتبة فقتلاه .. واحتملا عبيدة الذى ظل بجرحه حتى استشهد .. وهم فى طريق العودة الى المدينة .

وكان ــ على رضى الله عنه ــ يقسم ان الآية (هذان خصمان اختصموا فى ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار) (٣) .. الى آخر الآيات .. نزلت فى حق هؤلاء المتبارزين (٤) .

* * *

ولما قتل المتبارزون .. خرج ــ عليه الصلاة والسلام ــ من العريش .. لتعديل الصفوف .. فعدلهم بقدح فى يده ــ والقدح سهم لا نصل فيه ولا ريش ــ فمر بسواد بن غزية .. حليف بنى النجار .. وهو خارج عن الصف .. وقال : « استو ياسواد » .. فقال يا رسول الله اوجعتنى .. وقد بعثك الله بالحق والعدل .. فاقدنى من نفسك (٥) . فكشف ــ عليه الصلاة والسلام ــ

---

(١) يقصد الانصار .. والحجف ــ بفتح الحاء والجيم ــ تروس الحرب .

(٢) اى اجعلوا عارها متعلقا بى .

(٣) ١٩ ــ الحج .

(٤) زاد المعاد ص ٨٨ ج ٢ .

(٥) اى اريد القصاص منك .

عن بطنه .. وقال : « استقد » .. فاعتنق سواد النبي — صلى الله عليه وسلم — وقبل بطنه .. فقال : « ما حملك على هذا يا سواد » .. فقال : يا رسول الله .. حضر ما ترى — فأردت ان يكون آخر العهد بك .. أن يمس جلدي جلدك .. فدعا رسول الله له بخير .

وان كان صاحب كتاب — اسد الغابة — يقول : رويت هذا القصة لسواد بن عمرو .. وليس لسواد بن غزية .

ولما عدل الصفوف .. قال لهم :

« ان دنا القوم منكم فانضحوهم .. واستبقوا نبلكم .. ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم » .

وخطبهم خطبة .. حثهم فيها على الجهاد والمصابرة .. واخبرهم ان الله قد اوجب الجنة لمن استشهد في سبيله .. فقام عمير بن الحمام فقال : يا رسول الله جنة عرضها السماوات والأرض ؟ .. قال : نعم .. قال : بخ بخ يارسول الله .. قال : ما يحملك على قولك بخ بخ ؟ .. قال : لا والله يا رسول الله .. الا رجاء أن اكون من اهلها .. قال : فانك من اهلها .. فرمى تمرات من يده .. ثم قال : لئن حييت حتى آكلها .. انها لحياة طويلة .. ثم قاتل حتى قتل فكان أول قتيل .

وتزاحم الفريقان .. ثم حمي الوطيس .. واستدارت رحى الحرب .. واشتد القتال .

ووقف سعد بن معاذ .. ومعه جماعة من الانصار .. شاهري السيوف .. امام عريش رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ومعه في العريش ابو بكر .. فوقف رسول الله يدعو ويبتهل الى الله . — عز وجل —

فعن ابن عباس .. أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال وهو في العريش يوم بدر :

« اللهم انى انشدك عهدك ووعدك .. اللهم ان تهلك هذه العصابة اليوم .. فلا تعبد في الأرض » وفي رواية « ان تهلك هذه العصابة من أهل الايمان اليوم .. فلا تعبد في الأرض » وظل رسول الله يبتهل الى ربه .. حتى سقط رداؤه عن منكبيه .. فرده عليه الصديق .. وهو يقول : يا رسول الله بعض مناشدتك ربك .. فانه منجز لك وعدك » .

وروى النسائي والحاكم .. عن علي بن أبي طالب .. قال :

« فاتلت يوم بدر شيئا من قتال .. ثم جئت لاستكشاف حال النبي — صلى الله عليه وسلم — فاذا رسول الله يقول في سجوده « يا حي يا قيوم » لا يزيد على ذلك .. فرجعت فقاتلت .. ثم جئته فوجدته كذلك » . ففعل ذلك اربع مرات .. وقال في الرابعة « ففتح الله عليه » . وهذا دليل على عظيم هذا الاسم وقوته .

وقد اغفى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — اغفاءة خفيفة .. ثم رفع راسه وقال :

« ابشر يا ابا بكر .. هذا جبريل على ثناياه النقع — اى الغبار — جاء النصر » .

وانزل الله جنده .. وايد رسوله والمؤمنين .

وخرج رسول الله من عريشه .. يحرض المؤمنين ويقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » .. واخذ حفنة من الحصباء .. فاستقبل بها قريشا .. وقال « شاهت الوجوه » وقذفهم بها .. وقال لاصحابه : « شدوا عليهم » .. فلم يبق من المشركين احد الا دخل التراب في عينه وانفه وفمه .. وشغلوا بالتراب في اعينهم .. وشغل المسلمون بقتلهم وأسرهم .. فانزل الله — تعالى — في شان هذه الرمية قوله تعالى :

(وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى) (١) .

وقد فهم بعض الناس خطأ .. ان هذه الآية تدل على نفي الفعل عن العبد .. واثباته لله كلية .. ولكن معنى الآية .. أن الله — سبحانه — اثبت لرسوله ابتداء الرمي .. بقوله « وما رميت اذ رميت » ونفى عنه ايصال الحصى المقذوف .. لان الرمي قذف وايصال .. فاثبت لنبيه الرمي .. ونفى عنه الايصال .

اوحى الله تعالى الى ملائكته : (انى معكم فثبتوا الذين امنوا سألقى في قلوب الذين كفروا الرعب .. فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان) (٢) .

يقول المفسرون : كانت الملائكة لا تعرف كيف يقتل الآدميون .. فعلمهم الله — تعالى — بقوله « فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان » .

ولهذا كانوا يعرفون قتلى الملائكة من قتلاهم .. بآثار سود في الاعناق والبنان (٣) . وأوحى

---

(١) ١٧ — الانفال .

(٢) ١٢ — الانفال .

(٣) النبهاني — الانوار المحمدية .

الله الى رسوله : (انى ممـــدكم بالف من الملائكة مردفين (١) .

والروايات كثيرة .. عن مظاهر اشـــتراك الملائكة .. فى قتل المشركين يوم بدر .

فقد كانت الملائكة تسبق المسلمين فى قتـــل اعدائهم .. قال ابن عباس :

بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد فى اثر رجل من المشركين امامه .. اذ ســـمع ضربة بالسوط فوقه .. وصوت الفارس فوقه يقول « اقـــدم حيزوم » .. اذ راى المشرك امامـــه مستلقيا .. فنظر اليه .. فاذا هو قد خطم انفه .. وشق وجهه كضربة السوط .. فجاء الانصارى .. فحدث بذلك رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال : « صدقت ذلك مـــدد السماء الثالثة » (٢) .

وقال ابو داود المازنى : انى لاتبع رجلا من المشركين لاضربه .. اذ وقع راسه .. قبل ان يصل اليه سيفى .. فعرفت انه قد قتله غيرى .

وجاء رجل من الانصـــار .. بالعباس بن عبد المطلب اسيرا ــ عم النبى ــ فقا لالعباس : ان هذا والله ما اسرنى .. لقد اسرنى رجل اجلح .. من احسن الناس وجها .. على فرس ابلق .. وما اراه فى القوم .. فقال الانصارى : انا الذى اسرته يا رسول الله .

فقال ــ عليه الصلاة والسلام ــ « اسكت فقد أيدك الله بملك كريم » .

وعن سهيل بن حنيف .. عن ابيه قال : لقد رايتنا يوم بدر .. وان احدنا يشير بسيفه الى المشرك .. فتقع راسه عن جسده .. قبل ان يصل السيف اليه (٣) .

* * *

وقد اثار ابن قيم الجوزية .. فى كتابه ــ زاد المعاد ــ نقاشـــا حول عـــدد الملائكة الذين اشتركوا مع المؤمنين فى ــ غزوة بدر ــ فيقول :

كيف تجمع بين قـــول الله ــ تعالى ــ عن عددهم فى اية الانفال .. وعددهم فيها الف من الملائكة .

وبين اية آل عمران .. فى قوله تعالى :

(اذ تقول للمؤمنين الن يكفيكم ان يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين*بلى ان تصبروا وتتقوى ويأتوكم من فوركم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) (٤) .

وجاء فى بعض الآراء ان تلك الآية الأخيرة .. كانت عن يوم احد .. وقالوا : ان هذا الامداد معلق بالصـــبر والتقوى فلما لم يصبروا ولم يتقوا .. فات الامداد (٥) .

وهذا راى الضـــحاك ومقاتل .. ونحن لا نؤيد هـــذا الراى .. وانما نؤيد راى ابن عباس .. وهو الأصـــح .. واختاره الكثير من المفسرين : وهو انها عن يوم بدر .. لأن السياق يدل على ذلك .. فقبل هذه الاية مباشرة .. قول الله ــ تبارك وتعالى :

ولقد نصركم الله ببدر وانتم اذلة .. فاتقوا الله لعلكم تشكرون) (٦) .

وبعـــدها مباشرة (اذ تقـــول للمؤمنين الن يكفيكم ان يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكـــة منزلين) الى ان قال (وما جعله الله) أى هذا الامداد (الا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به) .. فلما صبروا واتقوا .. بعد امدادهم بالف .. امدهم بتمام ثلاثة آلاف .. ثم بتمام خمســـة آلاف .

وبهذا تتضـــح لنا اية الانفال .. فى قوله تعالى (بالف من الملائكة مردفين) .. لأن الدال فى كلمة (مردفين) تقرأ بالكسر والفتح .. ويكون معنى (مردفين) بفتح الدال .. أى متبوعين بغيرهم .. يردف بعضهم بعضا أرسالا .. لم يأتوا دفعة واحدة .. وهذا التدرج .. **ومتابعة الامداد .. اشد تثبيتا .. واقوى لنفوسهم** .

* * *

قتل من المشركين فى هذا اليوم سبعون .. واسر اربعة وســـبعون .. أو ســـبعون .. واستشهد من المسلمين اربعة عشر :

ستة من المهاجرين .. وثمانية من الانصار : منهم ستة من الخزرج .. واثنان من الأوس .

بدات المعركة فى الصباح .. وكانت الهزيمـــة لقريش عند الظهر .

وعلينا ان نقف امام تلك المعركة .. وقفة الخشوع والخضوع .. وقفة التأمل والتدبر .. لنرى فيها القوة والعظمة والفداء .. فى أعلى الدرجات . كما نرى الكبر والزهو والغرور فى احط الدركات .

نرى ابا بكر الصـــديق ــ رضى الله عنه ــ يدعو ابنه عبد الرحمن الى المبارزة .. وكان اكبر أولاده .. **فقـــال له النبى** ــ صـــلى الله عليه وسلم ــ :

---

(١) ٩ ــ الانفال .

(٣) النبهانى ص ٦٦ .

(٥) زاد المعاد ص ٩٧ جـ ٢ .

(٢) زاد المعاد جـ ٢ ص ٩٩ .

(٤) ١٢٤ ــ ١٢٥ ــ آل عمران .

(٤) ١٢٣ ــ آل عمران .

« متعنا بنفسك .. اما علمت انك منى بمنزلة سمعى وبصرى » ؟ .

وقد اسلم — عبد الرحمن بن أبى بكر — فى هدنة الحديبية .. وكان اسمه قبل الاسلام « عبد الكعبة » فسماه رسول الله « عبد الرحمن ».

وكان فى بدر .. من اشجع قريش .. واصوبهم رميا .

ونرى فى بدر ايضا — أبا عبيدة بن الجراح — يقتل اباه وكان مشركا (١) .

واسر عبد الرحمن بن عوف .. امية بن خلف .. وابنه عليا . فابصره بلال .. وكان امية يعذب بلالا بمكة .. فقال : هذا راس الكفر — امية بن خلف — لا نجوت ان نجا .. ثم استعان بلال بجماعة من الانصار .. يريد قتل امية .. واراد عبد الرحمن بن عوف ان يكتفى بأسره .. لانه كان صديقه فى الجاهلية .. ولما ازداد ضغط بلال عليه ليقتله .. اجلسه عبد الرحمن ابن عوف .. والقى جسده عليه .. فضربوه بالسيوف .. وهو تحت عبد الرحمن .. حتى قتلوه .. واصاب بعض السيوف رجل عبد الرحمن بن عوف (٢) .

وروى ان امية بن خلف .. سال عبد الرحمن ابن عوف .. وهو اسير معه .. فقال : يا عبد الرحمن من الرجل المعلم فى صدره بريشة نعام ؟ فقال : ذلك حمزة بن عبد المطلب .. فقال : ذلك الذى فعل بنا الافاعيل ؟ . مما يدل على ما قام به حمزة — رضى الله عنه — فى هذا اليوم .. من البلاء الحسن .

لقد كان عجيبا .. ان يصر أبو جهل وقريش معه على الحرب .. بعد ان نجت عيرهم واموالهم .. وبعد ان اشار عليهم رئيسهم بان يعودوا .

كان المنطق يقتضيهم ان يستجيبوا الى دعوة ابى سفيان .. ويعودوا الى مكة .. بعد ان نجت اموالهم من ايدى المسلمين .

وقد ظل النبى — عليه الصلاة والسلام — حريصا على حقن الدماء .. وقد رأيناه — عليه الصلاة والسلام — يوصى المسلمين .. بعدم القتال حتى ياذن لهم .. واوصاهم الا يقاتلوا اناسا سماهم لهم .. لانهم اخرجوا مع قريش كرها .. ان رسول الله لم يحاربهم الا حماية للاسلام . ولكنه الكبر والزهو .. والغرور والشيطان .

وكان للشيطان دور كبير فى تلك المعركة .. اشار اليه قوله تعالى :

(واذ زين لهم الشيطان اعمالهم وقال لاغالب لكم اليوم من الناس وانى جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال انى برىء منكم انى ارى ما لا ترون انى اخاف الله (٣) .

ولهذا الموضوع .. موضوع الشيطان الذى تشير اليه تلك الآية .. قصة لطيفة فى معركة بدر الكبرى :

فلما عزمت قريش على الخروج لحرب المسلمين .. ذكروا ما بينهم وبين كنانة من الحرب .. فتبدى لهم ابليس فى صورة سراقة ابن مالك المدلجى .. وكان من اشراف كنانة .. فقال لهم : « لا غالب لكم اليوم من الناس وانى جار لكم » من ان تاتيكم كنانة بشىء تكرهونه .. فخرجوا والشيطان جارلهم لا يفارقهم .. فلما بدأ القتال .. وراى عدو الله جند السماء .. فر ونكص على عقبيه .. فقالوا : الى اين يا سراقة ؟ .. الم تكن قلت انك جار لنا لا تفارقنا ؟ فقال « انى برىء منكم انى ارى ما لا ترون انى اخاف الله والله شديد العقاب ».

وقد صدق فى قوله « وانى أرى ما لا ترون » .. وكذب فى قوله « انى اخاف الله » .. كان خوفه على نفسه .. ان يهلك معهم .

وقد روى الطبرانى — فى معجمه الكبير — تلك القصة .. فقال :

لما راى ابليس ما يفعل الملائكة بالمشركين فى بدر .. اشفق ان يصل القتل اليه فتشبث به — الحرث بن هشام — وهو يظنه سراقة بن مالك .. فوكز فى صدر الحرث فالقاه .. ثم خرج هاربا .. حتى القى نفسه فى البحر .. ورفع يديه وقال : « اللهم انى اسالك نظرتك اياى » وخاف ان يصل اليه القتل .. فاقبل ابو جهل ابن هشام .. فقال : يا معشر قريش .. لا يهزمنكم خذلان سراقة اياكم .. فانه كان على ميعاد مع محمد .. ولا يهولنكم قتل عتبة وشيبة والوليد .. فانهم قد عجلوا .. فواللات والعزى لا نرجع حتى نقرنهم بالحبال .. ولا الفين رجلا

* * *

---

(١) محمد رضا ص ١٦٩ .

(٢) ابن قيم الجوزية ص ١٠٠ جـ ٢ .

(٣) ٤٨ — الانفال .

منكم قتل منهم رجلا .. ولكن خذوهم اخذا .. حتى نعرفهم بسوء صنيعهم .

واستفتح ابو جهل فى ذلك اليوم .. فقال : اللهم اينا اقطع للرحم .. واتى بما لا يعرف .. فاحنه الغداة .. اللهم اينا كان احب اليك .. وارضى عندك فانصره اليوم .

فانزل الله — عز وجل —

(ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح .. وان تنتهوا فهو خير لكم وان تعودوا نعد .. ولن تغنى عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت وان الله مع المؤمنين) (١) .

وقد روى الطبرانى هذه الرواية عن رفاعة ابن رافع .. ورفاعه هذا من الذين ابلوا بلاء حسنا فى يوم بدر .. رمى بسهم يوم بدر ففقئت عينه .. فوضع يده عليها .. وذهب الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقال : يارسول الله .. لى زوجة جميلة .. واخشى ان تعيرنى بعينى .. فقال له — عليه الصلاة والسلام — « اصبر يارفاعة ولك الجنة » .. فقال : يارسول الله .. اريد عينى واريد الجنة .. قال : فضحك الرسول حتى بدت نواجده .. ثم تفل فيها فبرئت .

ولما بردت الحرب .. وولى القوم مهزومين قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — :

« من ينظر لنا ما صنع ابو جهل » ؟ .. فانطلق ابن مسعود .. فوجده قد ضربه ابن عفراء .. وقطع ابن الجموح رجله .. وهو فى النزع .. فأخذ بلحيته .. وقال : انت ابو جهل؟ .. فقال : لمن الدائرة اليوم ؟ .. قال : لله ولرسوله .. هل اخزاك الله ياعدو الله ؟ .. ثم حز راسه .. وحملها الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : « الله اكبر .. الحمد لله الذى صدق وعده .. ونصر عبده .. وأعز جنده .. وهزم الأحزاب وحده » .

ثم سار مع ابن مسعود .. حتى أوقفه على جسد ابى جهل .. فقال :

« الحمد لله الذى اخزاك ياعدو الله .. هذا كان فرعون هذه الأمة .. وراس قاعدة الكفر » .

قال ابن مسعود :

ونفلنى رسول الله سيف ابى جهل .. وكان عريضا قصيرا .. فيه قبائع فضة .. وحلق فضة .

وأمر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالقتلى من المشركين .. أن يطرحوا فى القليب .. فطرحوا فيه .. الا أمية بن خلف .. فانه انتفخ فى درعه فملأه .. فذهبوا ليحركوه فتقطعت أوصاله .. فألقوا عليه التراب والحجارة .

ولعل القاءهم فى القليب .. اكتفاء لشر رممهم .. ولعدم امكان دفنهم .

ثم وقف — عليه الصلاه والسلام — عليهم وقال :

« بئس العشيره انتم .. كذبتمونى وصدقنى الناس .. وخذلتمونى ونصرنى الناس .. واخرجتمونى وآوانى الناس » ثم قال : « ياعتبة ابن ربيعة .. وياشيبه بن ربيعة .. ياامية بن خلف .. ياابا جهل بن هشام .. يافلان .. ويافلان .. هل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ .. فانى وجدت ما وعدنى ربى حقا » .

فقال له عمر — رضى الله عنه — : يارسول الله .. ما تخاطب من اقوام قد جيفوا ؟ .. فقال : « والذى نفسى بيده .. ما أنتم باسمع لى منهم .. ولكنهم لا يستطيعون الجواب » .

اما ابو لهب .. وقد تخلف فى مكة — كما ذكرنا — ولم يحضر بدرا .. وبعث مكانه — العاص بن هشام — الذى قتله عمر بن الخطاب .. فى بدر .. فلما علم ابو لهب بهزيمة قريش .. فقد رشده .. ولم يعش بعدها الا سبع ليال .. ومات مصابا بالجدرى .. وبقى بعد موته ثلاثة أيام لا يقرب منه أحد .. خوفا من العدوى .. حتى أنتن .

ولما فرغ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من بدر .. فى أول يوم من شوال .. بعث زيد ابن حارثة بشيرا .. فوصل المدينة ضحى .. وقد نفضوا أيديهم من تراب — رقية — بنت النبى — صلى الله عليه وسلم — وكان عثمان قد تخلف عن بدر لتمريضها .

واستكمالا لغزوة بدر الكبرى .. وقد اتفقنا على أن نوفيها حقها من البحث .. لاهميتها فى التاريخ الاسلامى .. لا يفوتنا ان نعلم شيئا .. ولو خفيفا .. عن موضوع فداء الأسرى .. وقد أنزل الله — تعالى — فى هذا الموضوع قرآنا يتلى الى يوم الدين .. وكاد المسلمون ان ينزل عليهم بسببه عذاب عظيم .

فقد كان من الأسرى العباس — عم النبى — وصنو أبيه .. شد وثاقه مع الأسرى .. فسهر النبى تلك الليلة ولم يتم .. فقال له بعض

(١) ١٩ — الانفال .

اصحابه : ما يسهرك يا رسول الله ؟ .. فقال : اسهرني انين العباس .. فقام رجل من القوم .. فأرخى وثاقه .. فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مالي لا اسمع انين العباس؟ .. فقال الرجل : انا ارخيت وثاقه .. **فقال** : « فافعل ذلك بالأسرى كلهم » .

ثم قال — عليه الصلاة والسلام — لعمه العباس : « **افد** نفسك ياعباس وابني اخويك عقيل بن ابى طالب .. ونوفل بن الحارث بن ابى طالب .. وحليفك عتبة بن عمرو .. فقال العباس : تركتني فقير قريش ما بقيت .. **فقال له** — صلى الله عليه وسلم — « فاين المال الذى دفعته لأم الفضل — يعني زوجته — **وقلت لها** : ان اصبت فهذا لبني : الفضل وعبد الله وقثم »؟ **فقال** : والله اشهد انك رسول الله .. ان هذا شيء ما علمه احد الا انا وام الفضل .. اشهد ان لا اله الا الله .. وانك عبده ورسوله .

وقد قيل ان العباس كان قد اسلم .. وكان يكتم اسلامه لديون له كانت متفرقة في قريش .. وكان يخشى ان اظهر اسلامه .. ضاعت عندهم .

كما جاء في بعض الروايات : ان العباس قال : علام يؤخذ منا الفداء .. وكنا مسلمين .. فقال النبي « الله اعلم بما تقول .. ان يك حقا فان الله يجزيك .. ولكن ظاهر الأمر انك كنت علينا » .

فانزل الله — جل وعلا — في العباس — رضى الله عنه — :

« يأيها النبي قل لمن في ايديكم من الأسرى ان يعلم الله في قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما اخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم » (1) .

وقد صدق الله وعده له .. فاعطاه الله مالا عظيما .. حتى كان عنده مائة عبد .. في يد كل عبد مال يتجر فيه .

وكان من بين الأسرى — النضر بن الحارث العبدري — كان يقول في القرآن الكريم : انه من اساطير الاولين — ويقول : لو نشاء لقلنا مثل هذا .. فامر النبي على بن ابى طالب .. فضرب عنقة .. ولما بلغ خبر قتله ابنته قتيلة بنت النضر .. **قالت** :

ياراكبا ان الاثيل مظنة
من صبح خامسه وانت موفق
ابلغ بها ميتا بأن نجيبة
ما ان تزال بها النجائب تخفق
مني اليك .. وعبرة مسفوحة
جادت بواكفها واخرى تخنق
ظلت سيوف بني ابيه تنوشه
لله ارحام هناك تشقق
قسرا يقاد الى المنية متعبا
رسف المقيد وهو عان موثق
امحمد .. او لست صنو نجيبة
من قومها .. والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت .. وربما
من الفتى .. وهو المغيظ المحنق
فالنضر اقرب من اسرت قرابة
واحقهم ان كان عتق يعتق

وحين سمع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — هذه الأبيات .. بكى .. وقال :

« لو بلغني هذا الشعر قبل قتله .. لمننت عليه » .

وكان من الأسرى ايضا — عقبة بن ابى معيط — كان — كما قلنا — من اشد الناس عداوة للنبي .. من المستهزئين به .. وهو الذى كان يضع سلا الجزور على ظهر النبي وهو ساجد بمكة وقد قرات روايات كثيرة .. انه وطا رأس النبي — عليه الصلاة والسلام — بقدمه .. وهو ساجد فأمر رسول الله بقتله .

فالنضر بن الحارث .. وعقبة بن ابى معيط .. هما الأسيران اللذان امر النبي — صلى الله عليه وسلم — بقتلهما .. اما باقي الأسرى .. فقد استشار — عليه الصلاة والسلام — اصحابه .. في شأنهم .

فقال ابو بكر : يارسول الله .. اهلك وقومك .. وفي رواية : هؤلاء بنو العم والعشيرة .. قد اعطاك الله الظفر بهم .. ونصرك عليهم .. ارى ان تستبقيهم .. وتأخذ الفداء منهم .. فيكون ما اخذنا منهم قوة لنا على الكفار .. وعسى الله ان يهديهم بك .. فيكونوا لك عضدا .

وقد وافق الصحابة ابا بكر على اخذ الفداء .

وكان لعمر راى آخر .. **فقال** :

يارسول الله .. كذبوك واخرجوك وقاتلوك .. ما ارى راى ابى بكر .. ولكنى ارى ان تمكنني من فلان — قريب لعمر — فأضرب عنقه

---

(1) الانفال .

.. وتمكن عليا من عقيل اخيه فيضرب عنقه .. وتمكن حمزة من أخيه العباس فيضرب عنقه .. حتى يعلم أنه ليس فى قلوبنا مودة للمشركين .. ما ارى أن تكون لك اسرى .. فاضرب أعناقهم .. هؤلاء صناديدهم وائمتهم وقادتهم .

فاعرض عنه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — .

اما على .. فانه لما راى تغير وجه الرسول.. حين اختلف الشيخان .. لم يجب .

وكان راى عبد الرحمن بن رواحة.. احراقهم فى واد كثير الحطب .

ولكن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — اخذ براى ابى بكر .. وقال : لا يفلتن أحد منهم الا بفداء .. أو ضرب عنق .. فنزل قول الله تعالى .. يؤيد راى عمر :

« ما كان لنبى أن يكون له اسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم * لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم * فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله ان الله غفور رحيم » (١) .

فبكى النبى وابو بكر .. وقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — :

« ان كاد ليمسنا فى خلاف ابن الخطاب عذاب عظيم .. ولو نزل العذاب ما أفلت منه الا ابن الخطاب » ولم يقل وابن رواحة .. لأنه اشار باضرام النار للاسرى .. وليس هذا من الدين .

وهذه الآية من المقامات التى جاء القرآن فيها موافقا لقول عمر — رضى الله عنه — .

وكان من الأسرى أبو العاص بن الربيع .. زوج زينب بنت رسول الله — عليه الصلاة والسلام — وهو ابن خالتها هالة بنت خويلد .

وقدمت زينب — رضى الله عنها — المدينة .. بعد شهر من بدر .. وأسلم زوجها .

وبلغ ما دفعته قريش .. فداء للأسرى أكثر من عشرين ألف درهم .

وكان اهل مكة يكتبون .. واهل المدينة لا يكتبون .. فمن لم يكن له فداء .. دفع اليه عشرة غلمان من غلمان المدينة .. فعلمهم .. وكانوا فداءه .

وكان فى الأسرى أيضا وهب بن عمير .. وكان ابوه شيطانا .. يؤذى رسول الله وأصحابه بمكة .

جلس يوما بعد بدر .. مع صفوان بن امية .. فى الحجر .. وتذاكروا قتلى بدر ومصابهم : فقال صفوان : ما فى العيش خير بعدهم .. فقال عمير : صدقت .. ولولا دين على ليس عندى قضاؤه .. وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى.. كنت آتى محمدا حتى اقتله .. فان لى فيهم علة .. ابنى أسير فى أيديهم .

فاغتنمها صفوان .. **وقال له** : على دينك أنا اقضيه عنك .. وعيالك مع عيالى أواسيهم ما بقوا .. قال عمير : فاكتم شأنى وشأنك .. قال : **افعل** .

ثم ان عميرا اخذ سيفه وشحذه وسمه .. ثم انطلق حتى قدم المدينة ..

فبينا عمر بن الخطاب فى نفر من المسلمين .. اذ نظر الى عمير .. حين اناخ راحلته على باب المسجد.. متوشحا السيف .. فقال : هذا الكلب عدو الله عمير .. ما جاء الا بشر .. فدخل عمر على رسول الله .. فقال : يانبى الله .. هذا عدو الله عمير بن وهب .. قد جاء متوشحا السيف .. قال رسول الله .. فادخله على .. فاقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه فى عنقه .. فأمسكه بها .. وقال لرجال من الانصار كانوا معه .. ادخلوا فاجلسوا عند رسول الله .. فان هذا الخبيث غير مأمون .

ثم دخل به على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فلما رآه وعمر آخذ بحمالة سيفه فى عنقه .. **قال : أرسله ياعمر** .. ادن ياعمير .. فدنا .. ثم قال عمير .. انعموا صباحا .. وكان تحية أهل الجاهلية .. فقال رسول الله : قد اكرمنا الله بتحية خير من تحيتك ياعمير .. بالسلام تحية اهل الجنة .. **ما جاء بك ياعمير ؟** .. قال : جئت لوهب ابنى .. الأسير عندكم .. فاحسنوا فيه .. **قال** : فما بال السيف ؟ قال : قبحها الله من سيوف .. وهل اغنت عنا شيئا ؟

قال رسول الله : أصدقنى ما الذى جئت له ؟ .. قال : ما جئت الا لذلك .. فقال : بل قعدت انت وصفوان بن أمية فى الحجر .. فذكرتما أصحاب القليب من قريش .. ثم قلت : لولا دين على وعيالى لخرجت حتى أقتل محمدا .. فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك .. على أن تقتلنى .. والله حائل بينك وبين ذلك .. قال عمير : أشهد انك رسول الله .. قد كنا نكذبك

---

(١) ٦٧ — ٦٩ — الانفال .

بما تأتى به من خبر السماء .. وما ينزل عليك من الوحى .. وهذا امر لم يحضره الا انا وصفوان.. فوالله انى لأعلم ما آتاك به الا الله .. فالحمد لله الذى هدانى للاسلام .. وساقنى هذا المساق .. ثم شهد شهادة صدق .. فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ « فقهوا أخاكم فى دينه .. واقرئوه القرآن .. وأطلقوا أسيره وهب بن عمير » .

ثم مر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على نفر من الأسرى بغير فداء .. منهم أبو عزة عمرو الجمحى الشاعر .. وكان يؤذى النبى والمسلمين بشعره .. فقال : يارسول الله انى فقير .. وذو عيال .. فامنن على .. فأطلقه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد أن أخذ عليه عهدا أن لا يظاهر عليه أحدا ولما وصل مكة قال : سحرت محمدا .. وعاد الى ما كان عليه من ايذاء النبى بشعره .. ولكنه أسر يوم أحد.. وهو يحرض المشركين بشعره .. فأمر النبى بضرب عنقه .. فقال : انى تائب .. فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » فضرب عنقه .. وحمل رأسه الى المدينة .. وفيه نزل قوله تعالى :

« وان يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم » (١) .

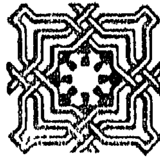
لقد كرم الله أهل بدر .. فعن أبى هريرة قال .. قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

« اطلع الله على أهل بدر .. فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » أو قال « فقد وجبت لكم الجنة » .

وعن الامام أحمد .. عن حفصة ـ رضى الله عنها ـ قالت :

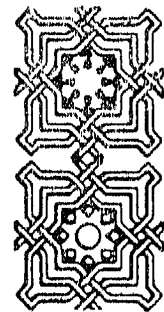
سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول :

« انى لأرجو ان لا يدخل النار ـ ان شاء الله تعالى ـ أحد شهد بدرا أو الحديبية » .. **وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكرم أهل بدر .. ويقدمهم على غيرهم .**



---

(١) ٧٠ ـ الانفال .



عام أفراح وزواج وغنائم

لفاطمة الزهراء منزلة كبيرة عند الله وعند رسوله .. فهى سيدة نساء العالمين بعد مريم ابنة عمران .. وقد لقبت فاطمة بالبتول .. لانقطاعها عن الدنيا .. كانت كنيتها ـ بنت أبيها ـ وكانت احب الناس الى رسول الله على الاطلاق .. وهى اصغر بناته .. وامها خديجة ـ رضى الله عنها .

ـ ٤١ ـ
عام أفراح وزواج وغنائم

دخل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة بعد بدر مؤيدا مظفرا منصورا فهابه اعداؤه فى المدينة وما حولها .. واسلم كثير من أهل المدينة .. ودخل عبد الله بن ابى ـ زعيم المنافقين ـ واصحابه فى الاسلام ظاهرا .. لم يخلص ابن ابى فى اسلامه .. بل ظل منافقا الى ان مات .

وقد خرج أهل المدينة للقائه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فرحين بما فتح الله عليه .. فتلاقوا معه بالروحاء .. وقسم رسول الله الغنائم على أبطال بدر .. وكانت مائة وخمسين من الابل .. وعشرة افراس .. ومتاعا وسلاحا وانطاعا وثيابا وادما كثيرا .. كان المشركون قد حملوه للتجارة فى سوق بدر .. ونادى منادى رسول الله .. من قتل مشركا فله سلبه .. ومن اسر اسيرا فهو له .

وعد الثمانية الذين تخلفوا عن بدر باذنه .. فى توزيع الغنائم .. وأعطاهم أسهمهم فيها .. وتنفل رسول الله ـ زيادة على سهمه ـ سيفه ـ ذا الفقار ـ وجمل ابى جهل .

ثم أمر بتجهيز ابنته فاطمة .. ليتم زفافها الى على بن ابى طالب .. وكان قد زوجها منه من سبعة اشهر ونصف .. بعد ان ابتنى بعائشة .. بأربعة اشهر ونصف .

مع فاطمة :

وللزهراء منزلة كبيرة عند الله وعند رسوله .. فهى سيدة نساء العالمين .. بعد مريم ابنة عمران .. وقد لقبت فاطمة ـ بالبتول ـ لانقطاعها عن الدنيا .. كما لقبت بهذا اللقب قبلها ـ مريم البتول ـ لنفس السبب .

كانت كنيتها ـ بنت ابيها ـ وكانت أحب الناس الى رسول الله .. على الاطلاق .. وهى أصغر بناته .. وامها خديجة ـ رضى الله عنهما ـ

ابتنى بها على بن ابى طالب .. وهى فى تمام السادسة عشر من عمرها .. خطبها ابو بكر .. فابى رسول الله .. ثم خطبها عمر .. فابى .. فقال عمر : : انت لها يا على .

ولندع عليا ـ رضى الله عنه وكرم وجهه ـ يحكى لنا قصة زواجه منها .. قال :

« خطبت فاطمة الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأبى .. فقالت لى مولاتى . هل علمت ان فاطمة خطبت الى رسول الله ؟ .. قلت : لا .. قالت : فقد خطبت .. فما يمنعك ان تأتي رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فيزوجك ؟ .. قلت : وهل عندى شيء أتزوج به ؟ .. فقالت : انك ان جئت رسول الله زوجك .. فوالله مازالت ترغبنى .. حتى دخلت على رسول الله .. وكانت لرسول الله جلالته وهيبته .. فلما قعدت بين يديه أفحمت .. فوالله ما استطيع أن اتكلم .. فقال : ما جاء بك ؟ .. فسكت .. فقال : لعلك جئت تخطب فاطمة ؟ .. قلت : نعم .. قال : وهل عندك شيء تستحلها به ؟ .. **فقلت : لا يا رسول الله .. فقال** : ما فعلت بالدرع التى سلحتكها ؟ فقلت : عندى .. والذى نفس على بيده .. انها لحطمية (١) وثمنها اربعمائة درهم .. قال : قد زوجتك .. فابعث بها .. فان كانت لصداق فاطمة — بنت رسول الله — صلى الله عليه وسلم » ولم يبن بها الا بعد بدر .

امر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ان يجهزوا فاطمة .. فجعل لها سريرا ووسادة من أدم حشوها ليف وارسل رسول الله اسماء بنت عميس .. فهيات البيت .. فصلى العشاء .. وارسل الى فاطمة .. فجاءت مع ام ايمن — بركة الحبشية — مولاته — عليه السلام — حتى قعدت فى جانب البيت وعلى — رضى الله عنه — فى جانب آخر .. ثم جاء رسول الله .. بعدما صلى العشاء الآخرة .. وكان قد قال لعلى : لا تحدثن شيئا حتى تلقانى .. فلما جاء رسول الله .. قال : اههنا اخى ؟ .. قالت ام ايمن : اخوك وقد زوجته ابنتك ؟ .. قال : نعم .

اى هو كاخى فى المنزلة والمؤاخاة .. فلا يحول ذلك دون تزويجه ابنتى .

ودخل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقال لفاطمة — رضى الله عنها — ائتنى بماء .. فقامت تتعثر فى ثوبها من الحياء .. الى قعب (٢) فى البيت .. فأتت فيه بماء .. فأخذه ومج (٣) فيه .. ثم قال لها : تقدمى .. فتقدمت .. فنضح بين ثدييها .. وعلى رأسها .. وقال : « اللهم انى اعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » .. ثم قال : أدبرى .. فادبرت .. فصب بين كتفيها .. ثم فعل ذلك بعلى .. ثم قال له : ادخل باهلك باسم الله والبركة .. وقال :

« اللهم بارك فيهما .. وبارك عليهما .. وبارك لهما فى نسلهما » .

وقد انقطع نسل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الا منها .. فان الذكور من أولاده ماتوا صغارا .

وسجد على شكرا لله تعالى .. وقد اولم على — ليلة فرحه — وليمة فيها شعير وتمر وحيس : والحيس تمر مخلوط بسمن — وقيل اولم بكبش وآصع من ذرة .. من عند جماعة من الانصار .. وكان فراشهما ليلة عرسهما — جلد كبش — وكان على يومئذ فى الحادية والعشرين من عمره . وقد ولدت فاطمة — رضى الله عنها — لعلى : الحسن والحسين وزينب وام كلثوم .

تقول ام المؤمنين عائشة : كانت مشية فاطمة هى مشية رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وتوفيت فاطمة .. بعد أبيها رسول الله بستة أشهر .. ولم ترضاحكة بعد وفاته .. حتى لحقت بربها .. وكانت اول أهله لحوقا به .. وهى أول من غطى نعشها فى الاسلام .. واوصت ان تدفن ليلا .

واغلب الأقوال : انها توفيت لثلاث خلون من رمضان سنة احدى عشرة من الهجرة .

قال ابن اسحاق :

حدثنى من لا أتهم .. ان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كان يغار لبناته غيرة شديدة .. ولا ينكح بناته على ضرة .

وعن المسوار بن مخرمة .. قال : سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول وهو على المنبر : « ان بنى هشام بن المغيرة استاذنوا فى ان ينكحوا ابنتهم على بن ابى طالب .. فلا آذن .. ثم لا آذن .. الا أن يريد على بن ابى طالب .. أن يطلق ابنتى .. وينكح ابنتهم .. فانها بضعة منى .. يريبنى مارابها .. ويؤذينى ما آذاها » .

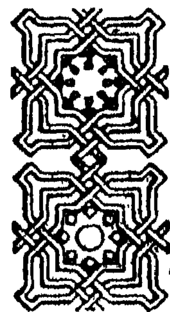
***

---

(١) نسبة الى بطن من عبد قيس .. يقال لها حطمة .. كانوا مهرة فى صنع الدروع .

(٢) اناء كالقصعة .

(٣) وضع الماء فى فمه ورده .



حول درس أحُد

قالوا : لقد ابليت اليوم يا قزمان فابشر .. بماذا ابشر .. فوالله ما قاتلت الا عن احساب قومى .. ولولا ذلك ما قاتلت .. فلما اشتدت عليه جراحه .. اخذ سهما من كنانته فقطع بها رواهشه ـ اى عروقه ـ فنزف دمه ومات .. فاخبر به رسول الله ـ فقال : ((اشهد انى رسول الله حقا)).

ـ ٤٢ ـ
حول درس أحد

لم يكن فى حسـبانى أن أتناول غـزوة بالتفصيل .. بعد غـزوة بدر الكبرى .. كما نوهت من قبل . ولكنى بعـد أن درست غزوة أحد .. وجدتها أولى بالتفصيل والتدقيق .. والتحليل والتحقيق .. لما فيها من عجب .. ولله فى كل شىء حكمة .

خرج المسـلمون الى غـزوة بدر .. بدون اعداد ولا اسـتعداد .. ولم يكن خروجهم فى الأصل للحرب والنفير .. وانما خرجوا للأموال والعير .. ولهذا تخلف عنها الكثير من صادقى المسلمين .. وخلصاء المؤمنين .. لم يكن بينهم على الحـرب ميعـاد .. ولذلك يقول تعالى : (اذ انتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب اسفل منكم ولوتواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا) (١) .

وكانت نتيجة المعركة ـ كما رأينا ـ نصرا ساحقا .. ما زال يحير كتاب الغرب فى اسباب انتصار تلك القلة المستضعفة .. على هـذا الجمع الحاشد من أبطال العرب .. وصناديد قريش .

اما غزوة احد .. **فقـد** كانت على اعـداد واستعداد .. بدا **بوصـول كتاب من مكة** .. الى رسول الله .. كتبه له عمـه العبـاس .. أخبره فيه أن قريشا أعدت نفسها للثأر .. وأن عبد الله ابن ابى ربيعة .. وعكرمة بن أبى جهل .. وصفوان بن أمية (٢) .. وآخرين من أشراف قـريش .. من الموتورين فى بدر .. بفقد ابائهم او ابنائهم أو اخوانهم .. اتفقوا مع أبى سفيان وأصحاب التجارة فى تلك العير .. التى تسببت فى معركة بدر .. وكانت العـير

(١) ٤٢ ـ الانفال .

(٢) هؤلاء الثلاثة اسلموا فيما بعد .

ما زالت موقوفة فى دار الندوة .. ولم تعط التجارة لأصحابها .. اتفقوا على تجهيز جيش الثأر من تلك العير .. وكانت قيمتها خمسين الف دينار .

وأخبره ان قريشا تحالفت مع من والاها من قبائل كنانة وتهامة والأحابيش (١) .

وأن ابا عـزة الجمحى الشـاعر .. الذى اطلقه رسول الله من الأسر .. من بين أسرى بدر .. وعفا عنه قد ساعد بلسانه على جمـع العرب .. واذكاء حماسهم .. واشـعال نار الثأر فى صدورهم .. وأن ابا سفيان بن حرب .. خـرج بجيش عـدته ثلاثة آلاف .. فيهم سبعمائة دارع .. ومعهم مائتا فرس .. كلهم مصرون على الثأر والانتقام .. كما اخبره أن معهم سبع عشرة امرأة .. معهن الدفوف وآلات العزف والخمور .. ومن بينهن هند بنت عتبة — زوج ابى سفيان — لتنتقم لأبيها الذى قتل فى بدر .. خرجت وهى تنشد :

نحن بنات طارق .. نمشى على النمارق ..
ان تقبلوا نعـانق .. أو تدبروا نفـارق ..
فراق غير وامق (٢) . وخرجت معها أم حكيم بنت طارق مع زوجها عكرمة .. ربطـة بنت منبه السهمية مع زوجها عمرو بن العاص ..

خرجن ينحن على قتلاهن .. يحـرضن على القتال .. والصمود فى الحرب والنزال . واخبره انهم خرجوا من مكة فى اليوم الخامس من شوال .. فى السنة الثالثة من الهجـرة . وكان العباس .. قد أرسل الكتاب مع رجـل غفارى .. واشترط عليه أن يصله فى المدينـة فى ثلاثة ايام بلياليها .. وأجزل له فى الأجـر نظير ذلك .

ووصل كتاب العباس الى رسول الله .. وهو فى قباء .. ففتحه ودفعه الى ابى بن كعب .. فقراه عليه .. فاستكتمه الأمر .

ثم نزل — عليه السلام — على سعد بن الربيع .. فأخبره بهذا الكتاب .. فقال سعد : والله انى لأرجو أن يكون خيرا .. فاستكتمه اياه .. ولما خرج رسول الله من عند سعد .. قالت له امرأته : ماذا قال لك رسول الله ؟ .. فقال لها : يا أم محمد .. ما انت وذاك ؟ .. فقالت : قد سمعت ما قال .. واخبرته بما حصل .. فاسترجع (٣) .. واخذ بيدها .. وأدرك النبى .. وأخبره انها سمعته .. وقال : والله يارسول الله انى خفت ان يفشـوا الخبر فتظن انى انا الذى اذعته .. وقد استكتمتنى اياه .. فقال له : خل عنها .

وكان — عليه الصلاة والسلام — قد راى فى تلك الليلة رؤيا .. راى أن فى سيفه ثلمة .. وراى بقرا تذبح .. وانه أدخـل يده فى درع حصينة .. وكأنه مردف كبشا .

فتأول لأصحابه الثلمة فى سيفه برجـل يصاب من أهل بيته .. وتأول البقر المذبوحة بنفر من أصـحابه يقتلون .. وتأول الدرع بالمدينة .. والكبش بأنه يقتل صاحب الكتيبة .

وقد صدق فى تأويله .. فى غزوة أحد .. بقتل حمزة — سيد الشهداء — من أهل بيته .. وقتل من أصحابه فيها عدد كبير .. كما قتل طلحة بن عثمـان العبـدرى — صـاحب لواء المشركين .. فهـو صاب الكتيبة .. وكبش القوم سيدهم .

واخبر رسول الله اصحابه بكتاب عمه العباس .. ثم قال : ارى أن نمكث فى المدينـة .. ونتحصن بها .. فان دخلوها قاتلهم المسلمون على ابواب الأزقة .. والنساء من فوق البيوت .. ووافقه على هذا الرأى عبد الله بن أبى بن سلول .. وكان هو الرأى .. ولكن الصحابة ممن فاته الخروج يوم بدر .. أشاروا عليـه بالخروج .. والحوا عليه فى ذلك .. وقالوا :

---

(١) الاحابيش : نسبة الى جبل — حبيش — وقيل سموا بهذا الاسم لتحبشهم اى تجمعهم .
(٢) محب .
(٣) قال : لا حول ولا قوة الا بالله .

يا رسول الله انا كنا نتمنى هذا اليوم .. أخرج بنا الى اعدائنا .. لا يرون انا جبنا عنهم .. والح معهم حمزة بن عبد المطلب .. فقال : والذى انزل عليك الكتاب .. لا اطعم اليوم طعاما .. حتى اجالدهم بسيفى خارج المدينة .

وقال النعمان : يا رسول الله لا تحرمنا الجنة .. فوالذى نفسى بيده لادخلنها ..

كل هذا وعبد الله بن ابى .. يقول : نبقى بالمدينة .

فرجح عنده موافقة رايهم فى الخروج .. وان كرهه ابتداء .. لينفذ قضاء الله . وصلى بهم الجمعة .. فوعظهم .. وأمرهم بالجهاد .. واخبرهم بأن النصر لهم ما صبروا وامرهم بالاعداد للحرب .. ثم دخل بيته .. فلبس لامته .. وتقلد سيفه .. والقى ترسه على ظهره .. واخذ قناته بيده .. وقد اصطف الناس ينتظرون خروجه ..

فقال لهم سعد بن معاذ .. واسيد بن حضير .. لقد استكرهتم رسول الله على الخروج .. فاعيدوا عليه الرأى .

ولما خرج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى لباس الحرب .. قالوا : يا رسول الله ما كان لنا ان نخالفك .. فاصنع ما شئت .

وفى رواية : فان شئت فاقعد .. فقال :

« **ما ينبغى لنبى اذا لبس لأمته ..** ان يضعها .. حتى يحكم الله بينه وبين عدوه » . خرج بهم رسول الله — عليه الصلاة والسلام — ليلا .. خرج معه الف من الصحابة .. بعد ان استخلف ابن ام مكتوم للصلاة بمن بقى من المسلمين فى المدينة .. رأى رسول الله جماعة من اليهود .. مع عبد الله بن ابى .. يريدون الخروج .. فقال : او قد أسلموا ؟ قالوا : لا يارسول الله .. قال : « مروهم فليرجعوا .. فأنا لا نستعين على المشركين بالمشركين » . وعقد ثلاثة الوية : لواء للأوس حمله اسيد بن حضير .. ولواء حمله حباب بن المنذر ولواء المهاجرين مع على بن ابى طالب .

وكان فى المسلمين مائة دارع .. وخرج السعدان يجريان امامه : سعد بن معاذ .. وسعد بن عبادة . ورد سبعة عشر من شباب المسلمين .. لصغر سنهم .. ومنهم اسامه بن زيد .. وعبد الله بن عمر .. وزيد بن ثابت .. وسمرة بن جندب .. وأبو سعيد الخدرى .. والنعمان بن بشير .. والبراء بن عازب .. وعمر بن حرام .. وزيد بن الأرقم .

وفى الطريق بين المدينة واحد .. تراجع عبد الله بن أبى .. ومن معه من المنافقين .. وكانوا ثلاثمائة .. واحتج فى تراجعه بقوله : عصانى واطاع الولدان ومن لا رأى له .. علام نقتل انفسنا ؟ .. ارجعوا ايها الناس .. وعاد بمن معه .. وسقط فى أيدى طائفتين من المسلمين .. وهمتا ان تفشلا : بنو حارثة من الخزرج .. وبنو سلمة من الأوس .

فذهب عبد الله بن عمرو بن حرام .. والد جابر بن عبد الله .. خلف ابن أبى ومن معه .. يوبخهم ويحضهم على الرجوع .. ويقول : (تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا) .. قالوا : لو نعلم انكم تقاتلون لم نرجع .. فرجع عنهم وسبهم .

ونزل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — صبح يوم السبت .. فى الشعب من احد .. فجعل ظهره وعسكره الى احد .. وصلى الصبح بالمسلمين صفوفا .. وكانوا سبعمائة .. منهم خمسين فارسا . ونهى الناس عن القتال .. حتى يأمرهم .

واستعمل على الرماة عبد الله بن جبير .. وكانوا خمسين .. أمرهم أن يلزموا اماكنهم .. خلف الجيش .. يدفعون المشركين بالنبل .. حتى لا يفجأوا المسلمين من خلفهم .. فقال لهم : « ان رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا .. حتى ارسل اليكم .. وان رايتمونا هزمنا القوم .. أو ظاهرناهم وهم قتلى .. فلا تبرحوا حتى أرسل اليكم » .

ثم عرض رسول الله سيفا وقال : « من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ » فقام رجال وبسطوا ايديهم .. كل منهم يقول : أنا يا رسول الله .. منهم ابو بكر وعمر وعلى والزبير .. فأمسكه عنهم حتى قام ابو دجانه ــ سماك بن خرشة ــ فقال : وما حقه يا رســـول الله لا .. قال : « أن تضرب به فى وجه العدو حتى ينحنى » .. قال : انا اخده بحقه .. فاعطاه اياه .. وكان شجاعا .. يحتال عند الحــرب .. فلما رآه يتبختر قال . « انها لمشية يبغضها الله الا فى هذا الموطن » .

فكان ابو دجانه .. لا يلقى احـــدا من المشركين الا قتله .. وكان اذا كل الســـيف شحذه بالحجارة ثم يضرب به .

وكانت قريش قد وصلت احـدا .. يوم الاربعـــاء .. الثانى عشر من شـــوال .. واصطفت ثلاثة الاف .. فيهم مائتا فرس .. على ميمنتهم خالد بن الوليد .. وعلى ميسرتهم عكرمه بن ابى جهل .. وقد خـــرج معهم من الاحابيش بنو المصطلق وبنو هون .. وخـــرج معهم ابو عامر الراهب .. فى سبعين فارسا .. وكان ابو عامر الراهب هـــذا راس الأوس فى الجاهلية .. فلما جاء الاسلام جاهر رسول الله بالعداء .. وخـــرج الى قـــريش يؤلبهم على المسلمين .. ويحرضهم على القتال .. ووعدهم بان قومه اهل المدينه اذا راوه أطاعوه ومالوا معه .. وقد سماه رســـول الله : ــ أبا عامر الفاسق ــ .

فكان هو اول مـــن خرج يوم احـــد .. فنادى قومه .. وعرفهم بنفسه .. فقالوا له : لا انعم الله بك يا فاسق .. فقال : لقد أصاب قومى بعدى شر .

مع أن ابنه ــ حنظله ــ من فضلاء الصحابة .. وقد استشهد حنظلة يوم احد ولما اصطف القوم .. نادى ابو سفيان .. يا معشر الأوس والخزرج .. خـــلوا بيننا وبين بنى عمنا ..

وخرج طلحة بن ابى طلحة يحمل لوء المشركين .. فطلب المبارزة .. فخرج له على بن أبى طالب .. فضربه ضربة قطعت رجليه .. فسقط على الأرض .. وبدت عورته .. فرجـــع عنه ولم يجهز عليه .. فحمل اللواء بعده أخوه عثمان .. فحمل عليه حمزه فقطع يده وكتفه .. فأخذ اللواء اخوه ابو سعيد بن ابى طلحة .. فرماه سعد بن ابى وقاص فاصاب حنجرته فقتله .. فتناول اللواء مسافع بن طلحة فرماه عاصم بن ثابت فقتله .. ثم حمله أخو مسافع .. وهو الحارث بن طلحه .. فرماه عاصم ايضا فقتله .. ثم حمل اللواء كلاب بن طلحه فقتله الزبير .. فحمله جـــلاس بن طلحـــه فقتله طلحه بن عبيد الله .. ثم حمله ارطاه بن شرحبيل فقتله على .. ثم حمـــله ابو زيد بن عمـــرو فقتله قزمان ايضا .. ثم حمله صـــواب وكان عبدا حبشيا فقتله على .. وبقى اللواء طريحا .. حتى احـــدته عمره بنت علقمه الحارثيه .. فرفعته لقريش .. فالتفوا حوله .

لقد كان اللواء شـــؤما على من يحمله .. لانه تيتس الكتيبه .. راح ضحيته احد عشر .. منهم طلحه بن ابى طلحه .. واولاده الاربعـــه مسافع والحارث وكلاب وجلاس .. كما قتل اخواه عثمان وابو ســـعيد .. وتعرفت كتائب قريش .. وجاس المسلمون فيهم ضربا .. حتى الجاوهم الى نسائهم .. وكان شعار المسلمين فى هذا اليوم « امت امت » وشعار المشركين « ياللعزى يالهبل » . وقد ابلى فى تلك الجولة ــ ابو دجانة الانصارى ــ وطلحه بن عبيد الله .. واسد الله حمزه ابن عبد المطلب .. وعلى بن ابى طالب .. والنضر بن انس .. وسعيد ابن الربيع .

فلما رأى الرماة هزيمة المشركين .. تركوا مراكزهم من الجبل .. خلف جيش المسلمين ... وقالوا : الغنيمـــة الغنيمـــة .. فذكرهم اميرهم ــ عبد الله بن جبير ــ بقول رســـول الله لهم بالثبات فى مواقعهم .. فقالوا : والله لنأتين النـــاس .. ولنصـــيبن من الغنيمـــة .. فان المشركين قد انهزموا .. فما مقامنا هنا ؟ ..

فلم يثبت منهم مع عبد الله بن جبير .. الا اقل من العشرة .. وكانت تلك مخالفة لتعاليم القائد .. فحقت عليهم الهزيمة .

ورأى خالد بن الوليد خلاء الجبل خلف المسلمين من الرماة .. فهجم بخيله عليهم من الخلف .. وتبعه عكرمه بن أبى جهل بقواته وخيله .. وقتلوا عبد الله بن جبير .. ومن بقى معه من الرماة . وصرخوا خلف جيش المسلمين .. فاضطربت صفوفهم .. وأكرم الله منهم من اكرم بالشهادة .. وهم سبعون شهيدا .

ويقول بعض الرواة : من ارتباك المسلمين .. تركوا شعارهم الذى يتعارفون به « أمت أمت » فقتلوا بعضهم بعضا .. وكر المنهزمون من المشركين .. وأحاطوا بالمسلمين .. وخلص بعضهم الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقد قاتل مصعب بن عمير دون رسول الله .. حتى قتل .. قتله ابن قميئة الليثى .. وهو يظنه رسول الله .. لشدة الشبه بينهما عندما يلبس الرسول لأمته .

وقد رمى ابن قميئة رسول الله يوم أحد .. فشج وجهه الشريف .. وكسر رباعيته .. وقال خذها وانا ابن قميئة .. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يمسح الدم عن وجهه : « اقمأك الله » .. فسلط الله عليه تيس جبل .. فلم يزل ينطحه حتى قطعه .. قطعة قطعة وصرخ الشيطان مع ابن قميئة : لقد قتل محمد .. وكان لتلك الصرخة أسوأ الأثر فى صفوف المسلمين .. ففر منهم من فر .. وكان أمر الله قدرا مقدورا .

بينما ثبت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى موقعه .. لم يتزحزح عنه شبرا .. وظل يرمى عن قوسه .. حتى صارت شظايا .. ويرمى بالحجر .. وكان اقرب الناس الى العدو

وجاء عن على — رضى الله عنه — « كنا اذا اشتد البأس — اى حمى القتال — اتقينا برسول الله » — اى يكون هو فى وجه القوم وهم خلفه .. مما يؤيد انه كان اشجعهم واثبتهم .

وعن سعد بن ابى وقاص .. قال : « رأيتنى يوم احد .. والنبى يناولنى النبل .. ويقول : « ارم فداك ابى وأمى » حتى انه ليناولنى السهم ماله نصل .. فيقول : ارم به .

وجاء ان سعدا رمى يوم احد الف سهم .. ما فيها سهم .. الا ورسول الله يقول : « ارم فداك أبى وأمى » ففداه فى ذلك اليوم الف مرة

وعن على رضى الله عنه .. قال : ما سمعت رسول الله قال : « فداك ابى وأمى الا لسعد »

لقد ابتلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم .. يوم احد .. بلاء شديدا .. فكسرت رباعيته اليمنى السفلى .. وجرحت شفته السفلى .. وشج فى جبهته .. وهشمت خوذته على رأسه .. ورمى بالحجارة حتى سقط لشقه فى حفرة .. فاخذ على بيده .. واحتضنه طلحة بن عبيد الله .. حتى استوى قائما .. ونشبت حلقتان من مغفره بوجهه .. فانتزعها ابو عبيدة بن الجراح .. وحصن عليهما .. حتى سقطت ثنياته .. من شدة غوصهما فى وجهه الشريف . وامتص مالك بن سنان .. والد أبى سعيد الخدرى الدم من وجنته .. ثم ازدرده .. فقال صلى الله عليه وسلم — « من مس دمى دمه لم تصبه النار » .. وقد استشهد مالك فى تلك الغزوة .

وقد صنع ابو دجانة من ظهره ترسا .. يحمى به رسول الله .. والنبل يقع فيه وهو لا يتحرك .

وفى الصحيحين .. عن ابى حازم .. انه سئل عن جرح رسول الله .. فقال : والله انى لاعرف من كان يغسل جرح رسول الله .. صلى الله عليه وسلم — ومن كان يسكب الماء .. وبما تداوى .

كانت فاطمة ابنته تغسله .. وعلى بن ابى طالب يسكب الماء بالمجن .. فلما رات فاطمة أن الماء لا يزيد الدم الا كثرة .. أخذت قطعة

---

(١) المغفر : زرد من الحديد يلبس تحت الخوذة .

من حصير فاحرقتها . . فالصقتها . . فاستمسك الدم .

وقد ثبت مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اربعة عشر . . سبعة من المهاجرين هم : ابو بكر . . وعمر . . وابن عوف . . وابن ابى وقاص . . وطلحة بن عبيد الله . . والزبير . . وابو عبيدة بن الجراح . . وصحت الأحاديث ان عليا ثبت . . ولم يذكره بعض الرواة . . لأنه كان حامل اللواء .

وسبعة من الانصار . . هم : ابو دجانة . . والحارث بن الصمة . . وعاصم بن ثابت . . والحارث ابن الصمة . . وسهل بن حنيف . . وسعد بن معاذ . . واسيد بن حضير .

وامامنا امراة كريمة . . ثبتت مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم . . وابلت يوم احد بلاء حسنا . . هى ـ ام عمارة المازنية . . واسمها ـ نسيبه . . زوج زيد بن عاصم . . قالت : خرجت يوم احد . . لانظر ما يصنع الناس . . ومعى سقاء فيه ماء . . اسقى به الجرحى . . فانتهيت الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو فى اصحابه . . والريح للمسلمين (١) . . فلما انهزم المسلمون . . انحزت الى رسول الله . . فقمت اباشر القتال دونه . . واذب عنه بالسيف . . وارمى عن القوس . . حتى خلصت الجراحة الى .

كان على عاتقها جرح غائر . . فقيل لها من اصابك بهذا . . قالت : ابن قمئة . . انا اولى الناس عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اقبل ابن قميئة يقول : دلونى على محمد . . فلا نجوت ان نجا . . فاعترضته انا ومصعب بن عمير . . فضربنى هذه الضربة . . وضربته ضربات . . ولكن عدو الله كان عليه درعان .

لخرجت نسيبة ـ رضى الله عنها ـ يوم احد . . وزوجها زيد بن عاصم . . وابناها حبيب وعبد الله . . وقال لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم . . : « بارك الله عليكم اهل البيت » . . فقالت له نسيبة : ادع الله ان ترافقك فى الجنة . . فقال : « اللهم اجعلهم رفقائى فى الجنة » . . وعند هذا . . قالت : ما ابالى ما اصابنى من أمر الدنيا .

وقال فى حقها ـ عليه السلام ـ « ما التفت يمينا وشمالا يوم احد . . الا ورايتها تقاتل دونى » وقد جرحت ـ رضى الله عنها ـ يومها اثنى عشر جرحا . . ما بين طعنة برمح وضربة بسيف .

ولا يسعنا الا ان ننحنى اجلالا لتلك المراة المسلمة . . التى قامت بما يجبن دونه الرجال . . وقد راينا كيف فر كثير من المسلمين . . لما اصابهم من الفزع . . ولكنها صمدت وثبتت وجاهدت .

وجاء فى اسد الغابة : ان ام عمارة ـ نسيبة ـ شهدت بيعة العقبة . . وشهدت احدا مع زوجها وابنيها . . وشهدت بيعة الرضوان . . وشهدت اليمامة فقاتلت واصيبت يدها فيها . . وجرحت .

وقال عكرمة مولى عباس : انها قالت للنبى ـ صلى الله عليه وسلم : ارى كل شىء للرجال . . ما ارى النساء يذكرن بشىء . . فنزل قوله تعالى :

(ان المسلمين والمسلمات . . والمؤمنين والمؤمنات . . والقانتين والقانتات . . والصادقين والصادقات) الى اخر الآية (٢) .

وبتلك الروح الفدائية . . ذاع الاسلام وانتشر . . وسنرى روح الاسلام فى الحرب من خلال هذه المعركة .

فنرى اول ما نرى . . حمزة بن عبد المطلب . . وقد قاتل فى هذا اليوم بسيفين . . وآخر قتيل اقتله حمزه هو سباع بن عبد العزى الخزاعى . . فلما اكب عليه ليأخذ درعه . .

(١) اى الغلبة لهم . . فى اول اليوم .

(٢) الآية ٣٥ من سورة الاحزاب .

قتله وحشى .. غلام جبير بن مطعم .. وكـانت هند زوج ابى سفيان .. قد استأجرته لقتل حمزة .

ونرى انس بن النضر .. عم انس بن مالك .. على ما جاء فى البخارى .. عن انس بن مالك .. قال : غـاب عمى انس بن النضر .. عن قتال بدر .. فقال يارسول الله .. غبت عن اول قتال .. ليرين الله ما اصنع .. فلما كان يوم احد .. **وانكشف المسلمون قال : اللهم انى اعتـذر اليك .. مما صـنع هـؤلاء** « يعنى الصحابة » وابرأ اليك مما صنع هؤلاء « يعنى المشركين » .. ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ .. فقال يا سعد الجنـة ورب النضر .. انى اجد ريحها دون احـد .. قال سـعد : فما استطيع ان اصف ما صنع .

قال انس : ولقد وجدنا به يومئذ سـبعين ضربة .. فما عرفه الا اخته .. عرفته ببنانه ــ اصابعه ــ

لقى انس بن النضر جمـاعة من المهـاجرين والانصار ــ يوم احد ــ فقال : ان كان قد قتل ــ يعنى محمدا ــ فما تصنعون بالحياة بعده ! اقوموا فموتوا على ما مات عليه .. ثم استقبل العدو .. فقاتل حتى قتل .

كما نرى ثابت بن الدحداح ــ رضى الله عنه ــ قال : يا معشر الأنصار .. ان كان محمـد قد قتل .. فان الله حى لا يموت .. قاتلوا عن دينكم .. فنهض اليه نفر من الانصار .. فحمل بهم على كتيبة .. فيها خالد بن الوليـد .. .. وعمرو بن العاص .. وعكرمة بن ابى جهل .. وضرار بن الخطاب .. فقتـل ثابت ومن معه من الانصار .

وقال زيد بن ثابت : بعثنى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أطلب سعد بن الربيع .. فقال لى « ان رايته فاقرئه منى السلام » .. وقل له .. يقول لك كيف نجـدك » ؟ قال : فجعلت اطوف بين القتلى فاتيته .. وهو بآخر رمق .. وفيه سبعون ضربة .. ما بين طعنة رمح .. أو ضربة سيف .. أو رمية سهم .. فقلت يا سعد .. ان رسول الله يسلم عليك .. .. ويقول لك : كيف نجدك ؟ .. قال : وعلى رسول الله السلام .. قل له اجد ريح الجنـة .. وقل لقومى الانصار .. لا عذر لكم عنـد الله .. ان خلص الى رسول الله .. وفيكم عين تطرف .. وفاضت نفسه من وقته .

ومر رجل من المهاجرين برجل من الانصـار .. وهو يتشحط فى دمه .. فقـال المهـاجر يافلان اشعرت ان محمدا قد قتل ؟ .. فقال الانصارى : ان كان محمدا قد قتل .. فقـد بلغ .. فقاتلوا عن دينكم .. فنزل قوله تعالى:

(وما محمـد الا رسـول قد خلت من قبله الرسل) (١) .

وقال عبد الله بن عمرو بن حـرام : رايت فى النوم قبل احد .. مبشر بن عبد المنذر .. يقول لى : انت قادم علينـا فى أيام .. فقلت وأين انت ؟ .. قال : فى الجنة .. نسرح فيها حيث نشاء .. قلت له : الم تقتل يوم بدر ؟ .. قال : بلى ثم احييت .. فذكرت ذلك لرسول الله .. فقال : هذه الشهادة يا ابا جابر .

وقال خيثمة لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وكان ابنه سعد قد استشهد يوم بدر : لقد اخطأتنى وقعة بدر .. وكنت والله حريصا عليها .. حتى ضربت السهم بينى وبين ابنى فى الخروج .. فخرج سهمه .. فرزق الشهادة .. وقد رأيته البارحة ابنى فى النـوم .. فى احسن صورة .. يسرح فى ثمار الجنة وانهارها .. وهو يقول : الحق بنا ترافقنا فى الجنة .. فقد وجدت ما وعدنى ربى حقا .. وقد والله يا رسول الله اصبحت مشتاقا الى مرافقته فى الجنة .. وقد كبرت سنى .. ورق عظمى .. واحببت لقاء ربى .. فادع الله يا رسول الله ان يرزقنى الشهادة ومرافقة سعد فى الجنة ..

---

(١) ١٤٤ ــ آل عمران .

فدعا له رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام بذلك .. فاستشهد فى احد .

وكان عمرو بن الجموح اعرج .. شديد العرج .. وكان له اربعة بنين .. يغزون مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اذا غزا .. فلما توجه الى احد .. اراد ان يتوجه معهم .. فقال له بنوه : ان الله قد جعل لك رخصة .. فلو قعدت ونحن نكفيك .. وقد وضع الله ـ تعالى ـ عنك الجهاد .. فأتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يا نبى الله .. ان ابنائى يمنعوننى من الخروج معك .. والله انى لأرجو ان استشهد .. فاطأ بعرجتى هذه فى الجنة .. فقال له رسول الله : اما انت فقد وضع الله عنك الجهاد .. وقال لبنيه : وما عليكم الا تدعوه .. لعل الله ـ عز وجل ـ ان يرزقه الشهادة .. فخرج مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقتل يوم احد شهيدا

صور مشرقة .. من التسابق الى الجنة .. صور يعجز القلم عن التعليق عليها .. ويسجد البيان خاشعا امام قوتها وعظمتها وجلالها .. ايمان راسخ .. ويقين ثابت .. وثقة مطلقة لا حد لها فى الفداء .. وبيع النفس فى سبيل الله .. لا طمعا فى منصب .. ولا املا فى جاه .. وانما لتكون كلمة الله هى العليا .. واستحقوا بذلك شرف الدنيا ومجد الآخرة

تلك هى روح الاسلام فى الحرب .. وبتلك الروح .. فاز بفضل الله سبعون من المهاجرين والانصار فى غزوة احد بالشهادة .. وقتل من المشركين ثلاثة وعشرون .

ولكانى بقتادة بن النعمان يتلقى السهام بوجهه .. دون وجه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكان آخرها سهم نزلت منه عينه على خده .. فحملها وسعى بها الى رسول الله .. فردها .. وكانت احسن عينيه .. لا ترمد اذا رمدت الاخرى .

ولم يثبت ان الملائكة اشتركت فى وقعة احد الا فى الدفاع عن رسول الله فقط .

ففى الصحيحين عن سعد بن ابى وقاص .. قال :

« رايت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم احد .. ومعه رجلان يقاتلان عنه .. عليهما ثياب بيض .. كأشد القتال .. ما رايتهما من قبل » .

وقال نافع بن جبير : سمعت رجلا من المهاجرين .. يقول :

شهدت احدا .. فنظرت الى النبل تأتى من كل ناحية .. ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسطها .. كل ذلك يصرف عنه .. ولقد رايت عبد الله بن شهاب الزهرى يقول يومئذ : دلونى على محمد .. لا نجوت ان نجا .. ورسول الله الى جنبه ما معه احد ثم جاوزه .. فعاتبه فى ذلك صفوان .. فقال والله ما رايته .. احلف بالله ـ انه ممنوع منا فقد خرجنا اربعة .. فتعاهدنا وتعاقدنا على قتله .. فلم نخلص الى ذلك .

وقال ابن عباس : ما نصر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى موطن نصره يوم احد .. فانكروا ذلك عليه .. فقال : بينى وبينكم كتاب الله .. ان الله تعالى يقول :

(ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه) (1) .

قال ابن عباس : والحس : القتل .. ولقد كان ذلك لرسول الله ولأصحابه أول النهار .. حتى اقتل من اصحاب لواء المشركين تسعة .. وذكر الحديث .. وأنزل عليهم النعاس امنة منه فى غزوة بدر واحد .. والنعاس فى الحرب وعند الخوف دليل الأمن .. وهو من الله .. ولكن فى الصلاة ومجالس الذكر والعلم .. فهو من الصلاة .

---

(1) ١٥٢ ـ آل عمران .

واقبـــل ابى بن خلف يوم احد ـ لما انهزم المسلمون. . وهو يقول : أين محمد؟ . . لا نجوت ان نجا . . فاستقبله رجال من المســلمين . . فامرهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يخلوا طريقه . . فاقبل على الرسول وهو يقول : يا كذاب اين تفر ؟ فتنـاول النبى الحربة من الحارث ابن العمة . . ورماه بها . . فأصـابت عنقه . . وخدشته خدشـا غير كبير . . فرجع وهو يقول : قتلنى محمد . . قالوا له : ذهب فؤادك . . انا لنأخذ السهم من اضـلاعنا . . فنرمى به . . فما بك والله من بأس . . ان جرحك لبسيط . . فقال : واللات والعزى . . لو كان هذا ألذى بى بأهل المجاز ـ سوق من أسواق مكة ـ لماتوا أجمعون . . انه قال لى بمكـة : انا اقتلك . . فوالله لو بصق على لقتلنى .

وكان ابى بن [illegible] . . يقول للنبى بمكة ـ أن عندى فرسا أعلفه ل يوم فرقا ـ مكيال ـ من ذرة أقتلك عليها . . فيقول له ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنا أقتلك ان شاء الله . . ولم يقتل رسول الله بيده الا أبى بن خلف . . **فقد مات** وهو فى الطريق الى مكة .

ومن المفارقات العجيبة . . فى يوم احد . . ما ذكره ابن اسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة قال :

كان فينا رجل . . لا ندرى من اين هو . . يقال له ـ قزمان ـ اذا ذكر عند رسول الله قال : « انه من أهل النار » . . فلما كان يوم أحد . . قاتل ـ قزمان ـ قتالا شديدا . . فقتل وحده ثمانية من المشركين . . منهم اثنان من حملة لواء المشركين ـ كما رأينا من قبل ـ يقول عاصـم : وكان ذا بأس . . فلمـا اثخنتـه جراحـة . . احتملوه الى دار بنى ظفر . . فجعل رجال من المسلمين يقولون له : والله لقـد ابليت اليوم يا قزمان . . فأبشر . . قال : بماذا ابشر . . فوالله ما قاتلت الا عن احساب قومى . . ولولا ذلك ما قاتلت . . فلما اشتدت عليه جراحة . . اخذ سهما من كنانته فقطع بها رواهشه ـ أى عروقه . . فنزف دمه ومات . . فأخبر رسول الله ـ صلى الله صلى الله عليه وسلم ـ فقال : « أشهد انى رســول الله حقا » وذلك لأنه مات منتحرا . . فهو من أهل النار . .

كما استشـهد فى تلك المعركة ـ مخيريق ـ وهو حبر من احبار اليهود . . من بنى ثعلبة بن الفيطون . . لما كان يوم أحد . . قال : يا معشر اليهود . . والله لقد علمتم أن نصرة محمد عليكم لحق (١) . . قالوا : ان اليوم يوم السـبت . . قال : لا سبت لكم . . فاخذ سيفه وعدته . . وقال : ان اصبت . . فما لى لمحمد يصـنع فيه ما شاء . . ثم غدا الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ فقاتل معه حتى قتل . . فقال رسول الله : « مخيريق خير يهود » .

وكان مخيريق . . حبرا عالما غنيا كثير الأموال من النخيل . . وكان يعرف رسول الله بصـفته وما يجد فى علمه . . وخالف قومه . . واشترك فى موقعة احد . . ولم يشـترك فيها احد من اليهود غيره . . فلما قتل . . قبض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ امواله . . وتصدق بها .

وقرات فى غزوة احد . . ان عمرو بن ثابت . . المعروف ـ بالأصيرم ـ من بنى عبد الأشهل . . وقد اسلم قومه مع الرسول . . لما قدم المدينة . . الا هو فقد ابى الاسلام . .

فلما كان يوم احـد . . شرح الله صـدره للاسلام . . فاسلم . . واخذ سـيفه ولحق بالنبى . . فقاتل واصيب . . ولم يعلم أحـد بأمره . . فلما انجلت الحرب . . طاف بنو عبد الأشـهل فى القتلى يلتمسـون قتلاهم . . فوجدوا الأصـيرم . . وبه رمق يسـير . . فقالوا :

ان هذا الاصيرم . . ما جاء به وقد تركناه فى المدينة ؟ . . ثم سالوه : ماذا جاء بك ؟ أدفاع عن قومك . . أم رغبة فى الاسـلام ؟ فقال : بل رغبة فى الاسلام . . آمنت بالله ورسوله . . ثم

---

(١) اى عليكم نصره .

قاتلت مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حتى أصابنى ما ترون .. ومات من وقته ..

فذكروه لرسول الله — فقال : « هو من اهل الجنة » .. وفى رواية قال :

« عمل قليلا .. وجوزى كثيرا » .. يقول ابو هريرة : « ولم يصل لله ركعة واحدة » .

ويقول سعد بن ابى وقاص :

لما جال الناس عن رسول الله — صلى الله عليه عليه وسلم — تلك الجولة يوم احد .. قلت : اذود عن نفسى .. فاما ان استشهد .. واما ان الحق حتى القى رسول الله .. فبينا انا كذلك .. اذا برجل محمر وجهه..ماادرى من هو.. فاقبل المشركون حتى قلت قد ركبوه .. فملأ يده من الحصى .. ثم رمى به فى وجوههم .. فتنكبوا على اعقابهم القهقرى .. حتى أتوا الجبل .. ففعل ذلك مرارا .. ولا ادرى من هو .. وبينى وبينه المقداد .. فبينا أنا اريد ان اسال المقداد عنه .. اذ قال المقداد : يا سعد هذا هو رسول الله يدعوك .. فقلت : واين هو ؟ .. فاشار اليه .. فقمت وكانه لم يصبنى شىء من الاذى .. واجلسنى امامه .. وانا اقول : اللهم سهمك فارم به عدوك .. ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول :

« اللهم استجب لسعد .. اللهم سدد رميته .. واجب دعوته » فكان سعد مجاب الدعوة ..

وقد حاول — عليه الصلاة والسلام .. ان يعلو صخرة هناك .. فلم يقدر .. فجلس طلحة تحته حتى صعدها وحانت صلاة الظهر .. فصلى جالسا .. وصلى خلفه المسلمون جلوسا .. وسار رسول الله تحت لواء الانصار .

وشد حنظلة بن ابى عامر على ابى سفيان يريد أن يقتله .. ولكن بعد ان تمكن منه .. اقبل شداد بن الاسود على حنظلة فقتله .. وكان حنظلة جنبا .. لما سمع نفير رسول الله .. وهو مع امراته .. قام من فوره الى الجهاد .. فاخبر رسول الله اصحابه :

« ان الملائكة تغسله » ثم قال « سلوا اهله ما شانه » فسالوا امراته .. فاخبرتهم الخبر .

وجعل بعض الفقهاء هذا حجة على غسل الشهيد اذا قتل جنبا (١) .

وقبل ان نطوى صفحة القتال فى غزوة احد .. لا يفوتنا ان نشير الى موقف حسيل ابن جابر .. وهو اليمان .. والد ابى حذيفة بن اليمان .. وثابت بن وقش .. عندما وجدا نفسيهما فى الديار .. بين النساء والصبيان .. وكانا شيخين كبيرين .. فقال احدهما لصاحبه : لا ابا لك ما ننتظر ؟ فوالله ما بقى لواحد منا من عمره الا ظمء حمار (٢) .. انما نحن هامة اليوم او غد .. افلا ناخذ اسيافنا .. ثم نلحق برسول الله ؟ .. فاخذا أسيافهما .. ثم خرجا .. حتى دخلا فى الناس .. ولم يعلم بهما احد .

فاما ثابت بن وقش .. فقتله المشركون .. واما حسيل بن جابر .. فاختلفت عليه اسياف المسلمين .. فقتلوه وهم لا يعرفونه .

ورآه حذيفة .. فقال : أبى .. فقالوا : والله يا حذيفة ما عرفناه .. وكانوا صادقين .. قال حذيفة : يغفر الله لكم وهو ارحم الراحمين .. فاراد رسول الله — صلى الله عليه وسلم .. ان يديه .. فتصدق حذيفة بديته على المسلمين .. فزاده ذلك عند رسول الله خيرا .

ولما انفضت الحرب .. اشرف ابو سفيان على الجبل .. فنادى : افيكم محمد ؟ .. فلم يجيبوه .. فقال : افيكم ابن ابى قحافة ؟ .. فلم يجيبوه .. فقال : افيكم عمر بن الخطاب؟

---

(١) ابن قيم الجوزية ص ١٠٤ جـ ٢ .

(٢) ظمء حمار : اى لم يبق من عمره الا اليسير .

.. فلم يجيبوه .. ولم يسال أبو سفيان الا عن هؤلاء الثلاثة .. لعلمه أن هؤلاء هم ركيزة الاسلام .. فقال : اما هؤلاء فقد كفيتموهم .. فلم يملك عمر نفسه ان قال : يا عدو الله ان الذين ذكرتهم احياء .. وقد ابقى الله لك ما يسوءك .

فقال ابو سفيان : قد كان فى القوم مثلة .. لم آمر بها .. ولم تسؤنى .. والله ما رضيت وما سخطت .. وما نهيت وما امرت .. ثم قال : اعل هبل .. فقال النبى : الا تجيبونه ؟

فقالوا : فما نقول ؟ قال : قولوا : الله أعلى واجل .

فقال ابو سفيان : لنا العزى .. ولا عزى لكم .

فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ الا تجيبونه ؟ .. قالوا : ما نقول ؟ .. قال .. قولوا : الله مولانا .. ولا مولى لكم .

لم يامرهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالرد .. عندما نادى ابو سفيان اسماءهم .. ولكنه امرهم بالرد .. لما تفاخر بآلهته وشركه .. فكلمة التوحيد لا يقف امامها شىء .. لم يأمرهم باجابته عندما قال : افيكم محمد ؟ .. افيكم ابن ابى قحافة ؟ افيكم عمر بن الخطاب ؟ .. بل وفى بعض الروايات : انه عليه الصلاة والسلام ـ نهاهم عن الرد عليه .. وقال : لا تجيبوه .. ولكن عمر .. لم يملك نفسه لما قال : اما هؤلاء فقد كفيتموهم .. فقال له : كذبت يا عدو الله .

وفى هذا اظهار لعزة الاسلام .. وشجاعة المسلمين .. وقوتهم .. وعدم ضعفهم ووهنهم ..

وقد احس ابو سفيان بالعزة والخيلاء .. عندما سأل عن الثلاثة .. ولم يجيبوه .. وظن انهم قتلوا .. فقال : اما هؤلاء فقد كفيتموهم .. وكانت الصدمة شديدة بالنسبة له ولقومه .. عندما جابههم عمر بأنهم احياء .. ليكون كيدهم اشد .. وصدمتهم احد .

وظاهر ان فى هذا الموقف تحقير واذلال لأبى سفيان .. ولهذا قال : يوم بيوم بدر .. والحرب سجال .. فاجابه عمر فقال : لا سواء .. قتلانا فى الجنة .. وقتلاكم فى النار .

ولنا وقفة قصيرة .. امام عبارة قالها ابو سفيان .. فى ندائه .. فقد قال :

كان فى القوم مثلة .. لم آمر بها ولم تسؤنى .. لنتنسم فى تلك العبارة اريج عظمة لاسلام ومجده .. وشموخه وانسانيته .. حيث ينهى الاسلام دائما عن المثلة بأجساد القتلى من الأعداء .. ويؤكد هذا النهى .. حتى يجعله فى درجة التحريم .. احتراما للمشاعر الانسانية .. وتقديسا للمبادىء والقيم .. فقد اتخذ التمثيل بجثث شهداء المسلمين فى يوم احد .. صورة تشمئز من فظاعتها النفوس .. وتنفر من قذارتها الضمائر ..

اشترك رجال قريش ونساؤهم .. فى بقر البطون .. وقطع الأنوف والآذان والفروج ايضا .. واتخذت هند زوج أبى سفيان وصاحباتها من تلك الاعضاء خلاخل وقلائد .. واعطت هند قلادتها وقرطها وحشيا ـ غلام جبير بن مطعم الذى اغتال حمزة .. فبقرت بطن حمزة .. فاخذت كبده .. فلاكتها فى فمها .. فلم تستطيع أن تسيغها فلفظتها وقد قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لو ساغتها ما مست جسدها النار » .

وقد كان الحليس بن زيان .. اخو بنى الحارس بن عبد مناة .. وهو يومئذ سيد الاحابيش .. قد مر بابى سفيان بن حرب .. وهو يضرب شدق حمزة بن عبد المطلب بزج الرمح .. ويقول : ذق عقق .. فقال الحليس: يا بنى كنانة .. هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ما ترون .. فقال ابو سفيان : ويك .. اكتمها عنى فانها كانت زلة .

ترى عظمة الاسلام .. فى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما أصيب فى تلك الغزوة اصابة موجعة .. وقالوا له : لو دعوت عليهم

يا رسول الله .. فيقول : « انى لم ابعث لعانا .. ولكن بعثت داعيا ورحمة .. اللهم اهـد قومى فانهم لا يعلمون » . اعتـذر عن الدعاء عليهم .. ودعا لهم بالهـدى .. او عسى ان يكون من ذريتهم من يؤمن بالله .

وبينا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى **الشعب** .. مع من ثبت معه .. اذ راى طائفة من قريش تعـلو الجبل .. ومعهم خالد بن الوليد .. فقال :

« اللهم انهم لا ينبغى لهم ان يعـلونا .. اللهم لا قوة لنا الا بك » .

فقاتلهم عمر بن الخطاب .. وجماعة من المهاجرين .. حتى انزلوهم من الجبل .

وللمؤرخين العذر .. فى ابداء العجب .. من عودة قريش يوم احد .. دون ان يدخلوا المدينة خلف المسلمين للقضاء عليهم .. فقـد قتل من المسلمين فى هـذا اليوم .. اكثر من سبعين .. ولم يقتـل من المشركين غير ثلاثة وعشرين .

ولكنها كانت حركة بارعة من المسلمين .. اوهمت المشركين انهم جمعوا جموعهم .. ولمسوا شعثهم .. واعدوا انفسهم لتعقبهم .. فعادوا بعد أن توعدوهم فى العام المقبل .

خشى المشركون ان تعود الدائرة عليهم .. فاتجهوا الى مكة .

نعم ان رسول الله صـلى الله عليه وسلم ـ ثبت فى موقعه .. لم يتزحزح عنه .. وشاهده اصحابه .. فالتفوا حوله .. وقاتلوا عنه قتالا لم يالفه البشر .

رمى سعد بن ابى وقاص وحده الف سهم .. ورمى رسول الله عن قوسه حتى اندقت سيتها .. واستطاع عمر بن الخطاب أن ينزل الطائفة التى علت الجبل من قريش .. كل ذلك بعـد الهزيمة التى لحقت بالمسلمين .. بسبب مخالفة الرماة الأمر الذى امرهم به رسول الله .. وتركهم مواقعهم لما احسوا بالنصر فى اول الأمر .

ولكنه درس احد .. ليعلم المسلمون ان الله قد نصرهم ببدر وهم اذلة مستضعفون .. لا حول لهم ولا قوة .. ولتعلم البشرية كلها .. ان النصر فى طاعة الله .. وطاعة رسوله .

ولا شك فى ان المسلمين حزنوا .. فعزاهم الله تعالى بقوله :

(ولا تهنوا ولا تحـزنوا وانتم الاعـلون ان كنتم مؤمنين ❋ ان يمسسكم قرح فقـد مس القوم قرح مثله وتلك الايام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شـهداء والله لا يحب الظـالمين ❋ وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ❋ ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) (١) .

وكان اعظم العزاء قوله تعالى :

(ولا تحسـبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون ❋ فرحين بما اتاهم الله من فضـله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم الا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (٢) .

ولما انفضت الحرب .. واستعد المشركون للعودة الى مكة .. ظن المسلمون انهم يقصدون المدينة .. لاسر الذرارى .. ونهب الامـوال .. فشق ذلك عليهم .. فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعلى بن ابى طالب .

« اخرج فى آثار القـــوم .. فانظـر ماذا يصـنعون ؟ .. وماذا يريدون ؟ .. فان هم جنبوا الخيل .. وامتطوا الابل .. فاعلم انهم

---

(١) ١٣٩ ـ ١٤٢ / آل عمران .

(٢) ١٦٩ ١٧٠ / آل عمران .

يريدون مكة .. وان كانوا ركبوا الخيل .. وساقوا الابل .. فانهم يريدون المدينة .. فوالذى نفسى بيده لئن ارادوها لأسيرن اليهم .. ثم لانا جزنهم فيها » .

قال على : فخرجت فى آثارهم .. انظر ماذا يصنعون .. فرايتهم جنبوا الخيل .. وامتطوا الابل .. فعلمت انهم يقصدون مكة .

وقد تشاور المشركون فى نهب المدينة .. ولكن صفوان بن امية اشار عليهم الا يفعلوا ومشى — عليه الصلاة والسلام — بين قتلى المسلمين .. وقد مثل بهم اعداء الله .. فراى عمه حمزة .. وقد بقر بطنه عن كبده .. وجدع انفه واذناه .. فاحس بالألم يكاد يعصر قلبه الشريف .. فقال :

« **لئن اظهرنى الله على قريش لأمثلن بثلاثين رجلا منهم** » .. وقال المسلمون مثل ذلك .. لما راوا حزن رسول الله .. وتوعدوا المشركين بالمثلة فى قتلاهم اذا انتصروا عليهم . فانزل الله — تعالى — قوله :

(وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير الصابرين) (١) .

فعفا رسول الله .. ونهى عن المثلة .. وقال « بل اصبر واحتسب » .

وقد امر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ان يدفن قتلى احد فى مواقعهم .. ولاينقلون الى المدينة .. فكان الرجلان والثلاثة .. يكفنون فى الثوب الواحد .. ثم يدفنون فى قبر واحد بدمائهم .. لم يصل على احد منهم .. ولم يغسلهم .

وقد استدل الائمة بهذا .. على ان الشهيد لا يغسل .. ولو كان جنبا .. بخلاف الراى الاول فى تغسيل الملائكة لحنظلة بن ابى عامر .

وامر رسول الله بدفن عمرو بن الجموح .. وعبد الله بن عمرو بن حرام .. فى قبر واحد .. لانهما كانا متحابين فى الدنيا .

ولما اشرف — صلى الله عليه وسلم — على قتلى المسلمين .. قال :

« انا شهيد على هؤلاء .. وما من جريح بجرح فى الله .. الا والله يبعثه يوم القيامة .. يدمى جرحه .. اللون لون الورد .. والريح ريح المسك » .

وعن ابن عباس .. قال .. قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — :

« لما اصيب اخوانكم باحد .. جعل الله ارواحهم فى اجواف طير خضر .. ترد انهار الجنة .. وتاكل من ثمارها .. وتاوى الى قناديل من ذهب فى ظل العرش .. فلما وجدوا طيب ماكلهم ومشربهم .. وحسن مقيلهم .. قالوا : يا ليت اخواننا يعلمون ما صنع الله بنا .. لئلا يزهدوا فى الجهاد .. وينكلوا عن الحرب .. قال الله تعالى : انا ابلغهم عنكم .. فانزل الله تعالى :

(ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا) . الى آخر الآيات .

ولما اراد — عليه الصلاة والسلام — العودة الى المدينة .. ركب فرسه .. وخرج المسلمون حوله .. واغلبهم جرحى .. ومعهم اربع عشرة امراة .

فلما بلغوا اصل احد .. قال لهم : اصطفوا .. حتى اثنى على ربى — عز وجل — فاصطف الرجال خلفه .. وخلفهم النساء .. ثم قال :

« اللهم لك الحمد كله .. لا قابض لما بسطت .. ولا باسط لما قبضت .. ولا هادى لمن اضللت .. ولا معطى لما منعت .. ولا مانع لما اعطيت .. ولا مقرب لما ابعدت .. ولا مبعد لما قربت » الحديث .

ثم عاد الى المدينة .. وهو يهدىء من روع نساء القتلى .. ويدعو لهن .. ونهاهن عن لطم الخدود .. وشق الجيوب .. وحلق الرءوس .

---

(١) ١٢٦ .. النحل .

وتذكر عمه حمزة .. لما سمع النساء لمندبن أبناءهن وأزواجهن وإخوانهن .. فقال : « ولكن حمزة لا بواكي له » ؟ ..

وسرت كلمته تلك في المدينة كلها .. مسرى الريح .. فتركت كل نائحة اسم زوجها أو ابنها أو أخيها .. وقلن جميعا .. رحم الله حمزة سيد الشهداء .

وباتت وجوه الأوس والخزرج تلك الليلة على بابه — صلى الله عليه وسلم — بالمسجد يحرسونه .. خشية أن تعود قريش الى المدينة .

كانت موقعة أحد يوم السبت .. النصف من شوال سنة ثلاث للهجرة .. ولما عزم المشركون على العودة الى مكة .. بعد ان تواعدوا مع المسلمين على اللقاء فى موسم بدر من العام القابل .. تلاوموا فى الطريق .. وقال بعضهم لبعض : لم تصنعوا شيئا .. اصبتم شوكتهم .. ثم تركتموهم .. وقد بقى منهم رءوس يجمعون لكم .. فارجعوا نستأصل شأفتهم .

فبلغ ذلك رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فنادى فى الناس .. وندبهم الى المسير للقاء العدو .. وقال : « لا يخرج الا من شهد القتال » .. يقصد قتال أحد .. فقال له عبد الله بن ابى : أركب معك ؟ .. قال : لا .

فاستجاب له المسلمون .. مع ما بهم من الام وجراح .. وخوف وهزيمة .. وقالوا : لك السمع والطاعة .. واستاذنه جابر بن عبد الله .. وقال : يا رسول الله .. انى احب الا تشهد مشهدا الا كنت معك .. وانما خلفنى ابى على بناته .. فلم اشهد أحدا .. فاذن لى أسير معك .. فاذن له .

وسار المسلمون مع رسول الله .. صلى الله عليه وسلم — يوم الأحد التالى للمعركة .. حتى بلغوا مكانا اسمه « حمراء الأسد » .. واقبل معبد الخزاعى الى رسول الله فاسلم ..

فامره النبى أن يلحق بأبى سفيان .. ويفت فى عضده .. فلحقه بالروحاء .. ولم يعلم ابو سفيان باسلامه .. فقال ابو سفيان : ما وراءك يا معبد ؟ .. قال : محمد وأصحابه .. قد تجمعوا لكم .. وخرجوا فى جمع لم يخرجوا فى مثله .. وقد ندم من تخلف عنه من اصحابه .. فقال : لقد اجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم .. قال : لا تفعل .. فانى لك ناصح .. فرجعوا على أعقابهم الى مكة .

وكانت تلك خدعة حربية ماهرة من المسلمين .. ردت عنهم قريشا .. فى وقت كانوا فيه أقرب الى الضعف منهم الى القوة .. لما اصابهم يوم احد .

وكفى الله المسلمين شر تجمع العرب كرة ثانية للقضاء عليهم .. لأنهم قالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل : (الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) (١) .

واقام رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى حمراء الأسد ثلاث ليال .. يوقدون فيها خمسمائة نار .. كانت ترى على البعد .. وعلا صوت معسكر المسلمين فى كل وجه .. فكبت الله بذلك عدوهم .

وعن ابن عباس .. قال :

« ان الله قذف الرعب فى قلب أبى سفيان .. بعد الذى كان منه يوم أحد .. فرجع الى مكة » . وكان وجه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مجروحا من معركة احد .. فيه اثر الحلقتين .. فقال لطلحة :

« يا طلحة لن ينالوا منا مثلها .. حتى يفتح الله علينا مكة » .

وقال لعمر :

« يا ابن الخطاب ان قريشا لن ينالوا منا مثل هذا .. حتى نستلم الركن » (٢)

(١) ١٧٣ — آل عمران .

(٢) ٨٣ — هود .

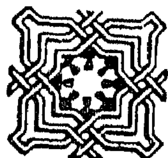
ثم قال : « والذى نفسى بيده .. لقد سومت لهم حجارة .. لو صبحوا بها لكانوا كامس الذاهب » يقصد حجارة قوم لوط : (مسومة عندربك وما هيمن الظالمين ببعيد

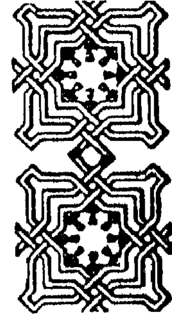
وظفر رسول الله .. فى حمراء الأسد .. بابى عزة الشاعر .. الذى من الله عليه يوم بدر من غير فداء من أجل بناته .. ولكنه عاد يستنفر الناس .. ويحرضهم بأشعاره على قتال المسلمين .. ونقض العهد .. وخرج مع قريش يوم احد فاسر .. فقال : يا محمد .. اقلنى وامتن على .. ودعنى لبناتى .. وأعاهدك الا أعود لمثل ما فعلت .

فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم —:
لا والله .. لا تمسح عارضيك بمكة وتقول : خدعت محمدا — اضرب يازيد عنقه .. لا يلدغ المؤمن من حجر مرتين .. » .

وهذا المثل ضربه رسول الله صلى الله عليه وسلم — ولم يسمع من غيره وضرب عنق أبى حمزة — وحمل راسه الى المدينة .

وعاد عليه الصلاة والسلام الى المدينة يوم الجمعة — بعد ان غاب عنها خمس ليال — بعد غزوة أحد .





بين أحُد والخندق

تقول عائشة ـ رضى الله عنها ـ يرحم الله زينت بنت جحش .. لقد نالت فى هذه الدنيا الشرف الذى لا يبلغه شرف .. ان الله ـ عز وجل ـ زوجها نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونطق به فى القرآن ـ وان رسول الله قال لنا ونحن حوله : « اسرعكن بى لحوقا اطولكن باعا » فهى اول نساء الرسول موتا بعده .

ـ ٤٣ ـ

بين أحد والخندق

بين غزوة احد وغزوة الخندق عامان .. حدثت فيهما عدة أحداث هامة فى تاريخ الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ اهمها ـ غزوة بنى النضير .. وهم يهود بالمدينة .

وللرسول مع اليهود غزوات اربع .. كل غزوة منها بعد غزوة عربية كبرى .. لها ثقلها ووزنها فى التاريخ الاسلامى .

فاولهما : غزوة بنى قينقاع .. وكانت بعد غزوة بدر الكبرى ـ كما قدمنا ـ .

والثانية : غزوة بنى النضير .. وكانت بعد غزوة احد .

والثالثة : غزوة بنى قريظة .. وقد كانت بعد غزوة الخندق .

اما الغزوة الرابعة مع اليهود .. فهى غزوة خيبر .. وكانت بعد الحديبية .

ونحن قبل أن **نصسحب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ..** فى غزوة بنى النضير .. نرى أن نستعرض بايجاز غير مخل .. بعض السرايا التى حدثت فى تلك الفترة .. قبل يوم بنى النضير .. حتى لا يفوتنا شىء .. من تلك السيرة العطرة .

وقد قلنا ان غزوة احد كانت فى النصف من شوال .. فى العام الثالث الهجرى .. وبعدها بعث ـ عليه السلام ـ فى مستهل شهر المحرم ـ اول العام الرابع .. سرية من مائة وخمسين صحابيا .. على راسها ابو سلمة عبد الله بن عبد الاسد .. بعثها فى طلب طليحة وسلمة ابنى خويلد .. كانا يجمعان الناس لحرب المسلمين . فطلبهما ابو سلمة .. فلم يجدهما .. وانما وجد ابلا وشياها واموالا .. عاد بها .. ولم يلق حربا .

وفى الخامس من نفس الشهر ـ شهر المحرم ـ بلغ رسول الله ان خالد بن سفيان الهزلى .. قد جمع له الجموع .. فبعث اليه عبد الله بن انيس .. فقتله وعاد براسه الى المدينة .

وفى شهر **صفر** .. قدم على الرسول سبعة نفر من عضل والقارة .. فقالوا : يا رسول الله ان فينا اسلاما .. وسالوه أن يبعث معهم من يعلمهم الدين .. ويقرئهم القرآن .. فبعث معهم ستة من فضلاء الصحابة .

وقال البخارى : انهم كانوا عشرة ـ ولكن كتب السيرة كلها تجمع على انهم ستة .. وهم :

عاصم بن ثابت .. ومرثد بن ابى مرثد الغنوى .. وخالد بن البكير .. وعبد الله بن فارق

.. **وخبيب بن عـــدى الأوسى .. وزيد بن الدثنة .**

ولم يكن وفد عضل وقارة مخلصين فى ادعاء الاسلام .. فما وصلوا بهم الى « الرجيع » .. وهـــو ماء لهزيل ـ بين مكة والطائف ـ حتى غدروا بوفد الرسول .. حيث استصرخوا عليهم هذيلا .. وحاصروا المسلمين الستة .. يريدون قتلهم .. فدافع هؤلاء عن انفســهم .. فقتـــل منهم : عاصم .. ومرثد .. وخالد ..واستسلم عبد الله وخبيب وزيد .. فأسروهم وخرجوا بهم الى مكة .. ليبيعوهم بها .

فلما بلغوا الظهران .. انتزع عبد الله بن طارق يده من قيده .. واخذ سـيفه .. فتأخر عنه القوم .. ورموه بالحجارة .. حتى قتلوه .. وقبره بالظهران .

وانطلقوا بخبيب وزيد .. فباعوهما بمكة .. وكانا قتـــلا من رءوس المشركين يوم بدر .. فاشـــترى صفوان بن أميـــة زيدا .. وقتـــله بأبيـــه .

واما حبيب .. فمكث عندهم مسجونا .. ثم اجمعـــوا على قتله .. فقال له أبو سفيان : ايسرك ان محمدا عندنا الآن فى مكانك .. نضرب عنقه .. وإنك فى اهلك ؟

قال : والله ما احب ان محمدا فى مكانه الذى هو فيه .. تصيبه شوكة تؤذيه وانى جالس فى اهلى !

فقال ابو ســفيان : ما رايت من الناس احدا .. يحب احدا .. كحب اصحاب محمد محمدا .

وفى الصحيح .. ان حبيبا .. اول من سن الركعتين عند القتل .. فقد قال لهم قبل قتله : ان رايتم ان تذعـــونى .. حتى اركع ركعتين فافعلـــوا .. قالوا : دونك فاركع .. فركع ركعتين اتمهما واحســنهما .. ثم اقبل على القوم .. فقال : اما والله لولا ان تظنوا انى انما اطلت جزعا من القتل .. لاستكثرت من الصلاة .. ثم رفعوه على خشبة وهو يقول :

اللهم احصـــهم عددا .. واقتلهم بددا .. ولا تبق منهم احدا .. وانشد قصيدة منها :

الى الله اشكو غربتى بعد كربتى
وما جمع الأحزاب لى عند مضجعى
وقد خيرونى الكفر ـ والموت دونه
فقد ذرفت عيناى من غير مدمع
وما بى حـــذار الموت .. انى لميت
وان الـــى ربى ايابى ومرجعـــى
ولست ابالى حـــين اقتل مسلما
على اى جنب كان فى الله مصرعى

وفى تلك السرية ـ سرية الرجيع .. حصــل امر يبين كيف يدافع الله عن اوليائه .. وهو ان هذيلا حين قتلوا عاصم بن ثابت .. ارادوا قطع راسه ليبيعوه من سلافة بنت سعد بن شـــهيد .. وكانت قد نذرت حين اصاب ابنها يوم احد .. لئن قدرت على راس عاصم .. لتشربن فيه الخمـــر .. فحالت الدبر ـ الزنانير ـ بينهم وبينه .. فقالوا : دعوه الى الليل .. فتذهب عنه الدبر فناخذه .. فبعث الله ســيلا احتمل عاصما .. فذهب به .. وكان عاصـــم قد اعطى الله عهـــدا .. لا يمســـه مشرك .. ولا يمس مشركا ابدا .. تنجسا منه .

وقال عمـــر بن الخطاب .. حين بلغه أن الدبر منعته عجبا لحفظ الله عبـــده المؤمن .. كان عاصم نذر الا يمسه مشرك ولا يمس مشركا فى حياته .. فمنعه الله بعد وفاته .. كما امتنع منه فى حياته .

حزن ـ عليه الصلاة والسلام ـ من اجـــل هؤلاء الأبطال الستة .. اصحاب سرية عاصـــم بن ثابت .. ولكن حزنه .. فى سرية بئر معونة كان اشد واشد .

ففى نفس شهر صـــفر .. من العام الرابع الهجرى .. قدم على رســـول الله .. أبو براء بن مالك بن جعفر العـــامرى .. ويعـــرف بملاعب الاسنة .. فدعاه الى الاســـلام .. فلم يســـلم ولم يبعد .. فقال : يا رســـول الله .. لو بعثت

اصحابك الى نجد .. يدعونهم الى دينك لرجوت ان يجيبوهم .. فقال : انى اخاف عليهم أهل نجد .. فقال ابو براء : أنا جار لهم .. فبعث معه - كما يقول ابن اسحاق وغيره .. اربعين من خيار قراء المسلمين وسادتهم وفضلائهم .. وفى الصحيح انهم كانوا سبعين .. والذى فى الصحيح .. هو الأصح .

وامر عليهم المنذر بن عمرو .. احد بنى ساعدة .. وتسمى هذه السرية (بئر معونة) وسماها البعض .. سرية (القراء) .

فساروا حتى نزلوا بئر معونة .. وهى أرض بنى عامر .. وحرة بنى سليم .. ثم بعثوا احدهم بكتاب رسول الله .. الى عدو الله - عامر بن الطفيل - فلم ينظر فيه .. وقتل حامل الكتاب . واستنفر بنى عامر لقتال المسلمين .. فلم يجيبوه لاجل جوار ابى براء .. فاستنفر بنى سليم .. فاجابوه .. واحاطوا باصحاب رسول الله .. فقاتلوا .. حتى قتلوا عن آخرهم .. ولم ينج منهم الا كعب بن زيد .. تركوه وبه رمق .. فعاش حتى قتل يوم الخندق شهيدا . وكان اثنان من الصحابة بعيدين عن المعركة .. هما : عمرو بن امية الغمرى .. والمنذر بن عقبة بن عامر .. ولم يعلما بما حصل .. فرأيا الطير تحوم على عسكر المسلمين .. فقالا : والله ان لهذه الطير لشأنا .. فاقبلا لينظرا .. فاذا القوم فى دمائهم .. فقال المنذر لعمرو .. ما ترى ؟ .. قال : ارى ان نلحق برسول الله فنخبره الخبر .. فقال المنذر : لكنى ما كنت لارغب بنفسى عن موطن قتل فيه أصحابى .. فقاتل القوم .. حتى استشهد .. واسر عمرو بن امية الغمرى .. فلما اخبرهم انه من مضر .. اطلقه عامر بن الطفيل .. بعد أن جز ناصيته وأعتقه عن رقبة .. زعم أنها كانت على امه .

فلما بلغ النبى - صلى الله عليه وسلم - خبرهم .. قال : هذا عمل ابى براء .. لقد كنت لهذا كارها متخوفا .. فبلغ ذلك ابا براء .. فمات اسفا .

وعن أنس بن مالك .. قال : ما رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وجد - أى حزن .. على احد ما وجد على اهل بئر معونة .. ودعا على من قتلهم ثلاثين صباحا فى القنوت .

وقال حسان بن ثابت يرثى قتلى معونة :

على قتلى معونة فاستهلى
على خيل الرسول غداة لا قوا
بدمع العين سحا غير نزر
ولاقتهم مناياهم بقدر

لقد حزن الرسول .. من أجل قتل القراء فى معونة .. لانه لم يرسلهم لقتال .. وانما ارسلهم ليبلغوا رسالته الى اهل نجد .. وليس من عادة العرب قتل الرسل .. ولكن الله يصطفى من يشاء من عباده للشهادة .. فاستشهد اصحاب السريتين : سرية الرجيع .. وسرية بئر معونة .. كلهم فى شهر واحد .. هو شهر صفر من العام الرابع . وفى طريق عودة عمرو بن امية الى المدينة .. بعد ان جز ابن الطفيل ناصيته .. جلس يستظل بشجرة عند مكان - يسمى القرقرة - وجاء رجلان من بنى كلاب .. فنزلا معه .. فلما ناما .. قتلهما عمرو وهو يظن انه اصاب ثأر اصحابه .. وهو لا يعلم أن معهما عهدا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما قدم .. اخبر رسول الله بما فعل .. فقال له : لقد قتلت ذوى عهد منى .. لأدفعن ديتهما .

وكان هذا الحادث سببا فى غزوة بنى النضير - كما سنرى .

فى ربيع الأول من السنة الرابعة .. بعد وصول عمرو بن امية الضمرى .. خرج رسول الله .. فى نفر من أصحابه .. منهم ابو بكر وعمر وعلى .. الى بنى النضير .. وهى قبيلة كبيرة من اليهود .. بينهم وبين رسول الله عهد .. ذهب اليهم يستعينهم فى دية الرجلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية .. فقالوا : يا أبا القاسم .. نعينك على ما اردت ! فجلس بجانب حائط .. هو ومن معه .. ثم خلا بعضهم ببعض .. فقالوا : من رجل يعلو الحائط من هذا البيت

.. فيلقى عليه صخرة .. فيريحنا منه ؟ ..

فقال عمرو بن جحاش بن كعب : انا افعل ذلك . ونهاهم سلام بن مشكم .. فلم ينتهوا .. فقال لهم : لا تفعلوا .. والله ليخبرن بما هممتم .. وانه لنقض للعهد .. فأتاه الخبر من السماء بما اراد القوم .. فقام ـ عليه السلام ـ مظهرا انه يقضى حاجة .. ورجع الى المدينة .. وتبعه اصحابه .. فأخبرهم بما أراد اليهود من الغدر به .. وامر بالتهيؤ لحربهم .. والمسير اليهم .. واستعمل على المدينة ابن ام مكتوم .. ثم سار بالمسلمين اليهم .. فحاصرهم ست ليال .

واجمع رجال العلم .. على أن الخمر حرمت فى تلك الغزوة .

تحصن اليهود فى حصونهم .. ورموا بالنبل .. وكان عبد الله بن ابى وبعض المنافقين .. قد بعثوا اليهم أن اثبتوا وتمنعوا .. فانا لا نسلمكم .. وان قوتلتم قاتلنا معكم .. وان اخرجتم خرجنا معكم .. فانتظروا مساعدتهم .. فلم يفعلوا .. وقذف الله فى قلوبهم الرعب .. وسألوا رسول الله .. ان يجليهم .. ويكف عن دمائهم .. على أن يأخذوا اموالهم ما عدا السلاح .. فوافق رسول الله .. وخرجوا بما استطاعوا من اموالهم على ستمائة بعير .. ولم يأخذوا شيئا من السلاح .. وقد خربوا بيوتهم وحصونهم .. واخذوا ما فيها من فاخر الأبواب .. وجميل الشرفات .. وحملوها على الابل .

ويدافع الدكتور ـ ولفنسون ـ عن اليهود فى كتابه ـ تاريخ اليهود فى بلاد العرب ـ بقوله :

« ان بنى النضير .. لم يهدموا بيوتهم بقصد التخريب .. وانما لأخذ الصحف المشتملة على وصايا موسى .. وكانوا يحفظونها فى نجاف البيوت وشرفها » .

ولكن النبش عن الصحف .. لم يكن يستدعى هدم البيوت كلها .. فقد قال ابن اسحاق :

ان الرجل منهم .. كان يهدم بيته عن نجاف بابه .. فيضعه على ظهر بعيره فينطلق . بل وتقول السيرة الحلبية : انهم صاروا ينقضون العمد والسقوف .. وينزعون الخشب .. حتى الأوتاد .. وينقضون الجدران .. حتى لا يسكنها المسلمون حسدا وبغضا :

(يخربون بيوتهم بأيديهم وايدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار) (١) .

وفى البخارى .. كان ابن عباس يسمى سورة ـ الحشر ـ سورة بنى النضير ..

فعن سعيد بن جبير .. قال .. قلت لابن عباس : سورة الحشر .. قال : قل سورة بنى النضير .

وقد رحل من زعمائهم وأكابرهم : حيى بن اخطب .. وسلام بن الحقيق .. وغيرهما .. الى خيبر .. على بعد مائة ميل من المدينة .. وذهب الباقون الى الشام .

ولم يسلم من بنى النضير .. غير : ياسين بن عمرو .. وابو سعد بن وهب . وقد وجد ـ عليه الصلاة والسلام ـ من السلاح عندهم .. خمسين درعا .. وخمسين بيضة (٢) وثلاثمائة واربعين سيفا .. وكانت اموالهم خاصة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم .. يضعها حيث يشاء .. فقسمها على المهاجرين الأولين خاصة .. ليرفع بها مؤنتهم عن الانصار .

وهكذا خرجنا من غزوة بنى النضير .. ثانى غزوة من غزوات الرسول مع اليهود .. لنصحبه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعد شهرين فى غزوة « ذات الرقاع » . ويطلق عليها أسماء كثيرة .. منها : غزوة محارب .. وغزوة بنى ثعلبة .. وغزوة نجد ـ وغزوة صلاة الخوف ـ

ففى شهر جمادى الأول من العام الرابع غزا بنفسه نجدا وبنى ثعلبة من غطفان .. فقد بلغه انهم يجمعون له الجموع .

(١) ٢ ـ الحشر .

(٢) خوذة .

واختلف الرواة في عدد جيش المسلمين .. بين اربعمائة وسبعمائة .. واستعمل على المدينة اباذر الغفارى .. وقيل عثمان بن عفان .

وسار بالمسلمين حتى نزل نخلا .. وهو موضع بنجد من ارض غطفان .. وسميت غزوة — ذات الرقاع — لانهم رفعوا فيها راياتهم .

ولقى رسول الله فيها جمعا عظيما من غطفان .. وتقارب الناس .. ولم يحصل بينهم حرب . وقد خاف الناس بعضهم بعضا .. حتى صلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالناس صلاة الخوف ..

وجاء في صحيح البخارى .. عن عبد الله بن عمر .. قال :

« غزوت مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قبل نجد .. فوازينا العدو .. فصاففنا لهم .. فقام رسول الله يصلى بنا .. فقامت طائفة معه .. واقبلت طائفة على العدو .. وركع رسول الله بمن معه .. وسجد سجدتين .. ثم انصرفوا مكان الطائفة التى لم تصل .. فجاءوا فركع رسول الله بهم ركعة .. وسجد سجدتين .. ثم سلم .. فقام كل واحد منا فركع لنفسه ركعة وسجد سجدتين » .

وكانت اول صلاة صلاها رسول الله للخوف .. ثم انصرفوا الى المدينة .

حيث بقى بها شهرى جمادى ورجب .. وجاء شعبان .. وحان موعد سوق بدر .. الذى حدده ابو سفيان .. يوم غزوة احد .

فخرج — عليه الصلاة والسلام — لميعاد ابى سفيان .. ونزل بدرا في انتظاره .. وهى غزوة بدر الاخيرة .

خرج — صلى الله عليه وسلم — في الف وخمسمائة .. وكانت الخيل عشرة افراس .. وحمل لواءه على بن ابى طالب .. واستخلف على المدينة عبد الله بن رواحة الخزرجى .. وخرج ابو سفيان في الفين من قريش .. ومعهم خمسون فرسا .. ونزل بهم موضعا قريبا من مر الظهران .. ثم راى أن يرجع من غير حرب .. فقال : يا معشر قريش انه لا يصلحكم الا عام خصيب .. ترعون فيه الشجر .. وتشربون فيه اللبن .. وان عامكم هذا عام جدب .. وانى راجع فارجعوا .. فرجع الناس .. فسماهم اهل مكة جيش السويق .. وهو ناعم الدقيق من القمح والشعير .

ويبدو ان ابا سفيان لم يكن يريد حربا .. وانما كان خروجه .. حتى لا يقال : اخلف ابو سفيان وعده وخاف .

وكان ابو سفيان قد بعث الى المدينة رجلا اسمه — نعيم — ليفت في عضد المسلمين .. ويخوفهم كثرة جيش قريش .. حتى لا يخرجوا .. ويلتمس من ذلك عذرا له في العودة بغير حرب .. ولكن رسول الله قال :

« والذى نفس بيده .. لو لم يخرج معى احد لخرجت وحدى » .

واقام رسول الله ببدر ثمانية ايام .. ينتظر ابا سفيان .. وربح المسلمون كثيرا من تجارتهم التى باعوها في سوق بدر .. في تلك المدة .. ثم عادوا الى المدينة .

وفى هذه السنة الرابعة من الهجرة .. تزوج رسول الله — عليه الصلاة والسلام — ام المؤمنين — ام سلمة — بنت أبى امية .

وانتهى العام الرابع من الهجرة .. عند هذا الحد .. وبدا العام الخامس .. ومضى معه شهر المحرم .. دون احداث تستحق البحث .

وفى شهر صفر من العام الخامس .. حدث امر يقتضينا الوقوف امامه وقفة صغيرة .. امر « ذكره القرآن الكريم في عدد من آياته .. وهو زواجه — عليه السلام — من ام المؤمنين — زينب بنت جحش — وهى ابنة عمته اميمة .. وفيها نزل قوله تعالى :

(فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها) (١).

كان قد زوجها من زيد بن حارثة .. الذى تبناه رسول الله .. فلما طلقها زيد .. زوجه الله اياها .. ليكون اسوة للأمة .. فى نكاح أزواج من تبنـوه .

ولهذا كانت تفتخر على امهات المؤمنين وتقول « زوجكن اهلكن .. وزوجنى الله من فوق سبع سماوات » .

كان زيد بن حارثة .. مولى خديجة .. وهبته لرسول الله .. قبل البعثة .. وهو ابن ثمان فاعتقه رسول الله وتبناه .. وكانوا يدعونه .. زيد بن محمد .. ولما خطب رسول الله زينب له .. ابت فى أول الأمر .. فهى ترى أن زيدا غير كفء لها حسبا ونسبا .. وكانت تتصف بالحدة .. ولكن لما نزل قوله تعالى :

(وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امرا ان يكون لهم الخيرة من امرهم) (٢) قالت : رضيته لى يا رسول الله زوجا .. وتزوجها زيد .

واخبر الله رسوله أن زيدا سيطلق زوجته .. وتتزوجها بعده .. فلم يتحدث بهذا الأمر .. مخافة طعن الأعداء والمنافقين .. وفى نفس الوقت .. يلح زيد على الرسول .. فى طلب طلاق زوجته .. فيقول له الرسول : (امسك عليك زوجك واتق الله) .. فعاتبه الله على ذلك بقوله :

(واذ تقول للذى انعم الله عليه وانعمت عليه امسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله احق ان تخشاه) (٣) .

وفى هذه الآية عتاب على ترك الأولى .. فكان الأولى الا يمنع زيدا من طلاقها . وطلقها زيد .. وتزوجها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بعد انقضاء عدتها .. لابطال عادة التبنى .. فالمشرع يستفاد من فعله .. كما يستفاد من قوله .. وكان زيد بعد ذلك يدعى — زيد بن حارثة — وقال تعالى :

(فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج ادعيائهم اذا قضوا منهن وطرا وكان امر الله مفعولا (٤) .

وليغفر الله لمن شطحت بهم اوهامهم الى غير هذا .. فى هذا الحدث .

اولم عليها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بخبز ولحم .. وكانت صوامة قوامه .. كثيره الخير .. تعمل بيدها وتتصدق به .. وكان اسمها — بره — فسماها رسول الله — زينب — وهى يومئذ بنت خمس وثلاثين سنه .. وبسببها نزلت اية الحجاب . ارسل اليها عمر بن الخطاب — وهو امير المؤمنين — اثنى عشر الف درهم .. كما فرض لنساء النبى — فى خلافته .. فاخذتها وفرقتها على ذوى قرابتها والايتام .. ثم قالت : « اللهم لايدركنى عطاء لعمر بن الخطاب بعد هذا » .. فماتت فى ذلك العام .. سنة عشرين .. وهى بنت خمسين سنة .. وصلى عليها عمر .. ودفنت بالبقيع .. بين دار عقيل .. ودار ابى الحنفية.

تقول عائشة — رضى الله عنها : « يرحم الله زينب بنت جحش .. لقد نالت فى هذه الدنيا الشرف الذى لا يبلغه شرف .. ان الله — عز وجل — زوجها نبيه — صلى الله عليه وسلم — ونطق به القرآن .. وان رسول الله قال لنا .. ونحن حوله « أسرعكن لحوقا بى .. أطولكن باعا » فبشرها رسول الله بسرعة لحوقها به .. فهى أول نساء النبى موتا بعده » .

ونعود سراعا الى شهر ربيع الأول سنة خمس من الهجرة .. لنشرف بصحبة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى أول غزوة بالشام .. وهى : « غزوة دومة الجندل » .

---

(١) ٣٧ — الاحزاب .
(٢) ٣٦ — الاحزاب .
(٣) ٣٧ — الاحزاب .
(٤) ٣٧ — الاحزاب .

ودومة الجندل – بضم الدال – مدينة بينها وبين دمشق خمس ليال . وتبعد عن المدينة بخمس عشرة ليلة .. وهى اقرب بلاد الشام الى المدينة . خرج – عليه الصلاة والسلام – اليها .. لما علم أن بها جمعا كبيرا .. يحاولون الدنو من المدينة .. خرج ومعه الف من اصحابه .. واستخلف على المدينة – سباع ابن عرفطة .. ومعه دليل من بنى عذرة .. اسمه – مذكور .

فلما دنا منهم .. لم يجد الا الأنعام والشياه .. فهجم عليها وعلى رعاتها .. فأصاب من اصاب .. وهرب من هرب .. وعلم اهل دومة الجندل بقدومه فتفرقوا .. ونزل بساحتهم .. فلم يلق احدا .. فاقام بها أياما .. ثم رجع .. ودخل المدينة بعد منتصف ربيع الآخر فى السنة الخامسة .

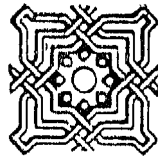
وقد كنت اريد أن اجمع احداث العامين .. بين احد والخندق .. فى فصل واحد .. كما ذكرت فى مطلع هذا الفصل .. تفاديا لارهاق القارىء .. فى بحوث أفاض فيها ائمتنا الافاضل .. ورجال السيرة الكرام .. واوفوها حقها بحثا وتحقيقا وتدقيقا . ولكنى رايت فى (غزوة بنى المصطلق) من الأحداث الكبار .. والأمور الخطيرة .. ما أجبرنى على افراد فصل خاص بها .

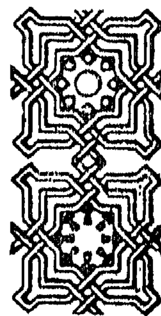
ففيها نصر « للمسلمين كبير .. وفتح للاسلام عظيم .

وفيها اسلوب جديد من اساليب تاليف القلوب .. ونشر الاسلام .

وفيها ايضا حديث الافك .. الذى هز مشاعر المسلمين هزا عنيفا .

وكانت قبل غزوة الخندق .. واهذا افردت لها فصلا خاصا .





غزوة بني المصطلق وحديث الإفك

فيها حكمة المستشير .. وصدق المستشار ..
فقد اختار لاستشارته اسامه بن زيد .. وعلى بن أبى
طالب .. وقد صدقه الاثنان .. فشهد اسامه
بما يعلمه من عفتها وبراءتها وحصانتها ودينها ..
واشار على بما يخفف عن الرسول آلامه بحسم الداء
.. والاعراض عما يقوله الناس .

– ٤٤ –

غزوة بنى المصطلق وحديث الافك

غزوة ((بنى المصطلق)) هذه يسميها البعض غزوة ((المريسيع)) . والمريسيع اسم ماء لبنى خزاعة .. وبنو المصطلق بطن من بطون خزاعة. فقد علم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ان الحارث بن ابى ضرار .. سيد بنى المصطلق .. جمع ما استطاع .. من قبائل العرب .. واستعد لحرب المسلمين .. فارسل – عليه السلام – بريدة بن الخصيب الاسلمى لاستطلاع هذا الأمر .. وعاد بريدة بعد ان لقى الحارث وحدثه .. فاخبر رسول الله .. ان الامر صحيح .. وانهم جادون فى الحرب .

فخرج – عليه السلام – فى اليوم الثانى من شعبان سنة خمس .. وخرج معه كثير من المنافقين .. ولم يخرجوا معه اقبلها .. وكان فى جيش المسلمين ثلاثون من الخيل .. عشرة للمهاجرين .. وعشرون للأنصار .. واستخلف على المدينة زيد بن حارثة – مولاه – وقيل : ابا ذر الغفارى – ثم جعل راية المهاجرين لابى بكر .. وراية الأنصار لسعد بن عبادة .

ولقى فى الطريق جاسوسا لخزاعة .. فقتله .. وسار بالمسلمين .. حتى نزل ماءهم بالمريسيع .. وضربوا عليه قبة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وكان معه عائشة وام سلمة – رضى الله عنهما .

وسبق الرعب جيش المسلمين .. ففزع الحارث بن ابى ضرار .. وتملكه الحلع والخوف .. وتفرق عنه الكثير من العرب .. الذين تجمعوا معه ..

والتقى الجيشان .. وتراموا بالنبل ساعة .. ثم امر رسول الله اصحابه .. فحملوا على اعدائهم .. حملة رجل واحد .. فقتلوا منهم عشرة .. واسروا الباقين جميعا .. وكانوا اكثر من سبعمائة .. وسبوا الرجال والنساء والذرية .. وساقوا انعامهم .. واموالهم معهم الى المدينة .

ولم يقتل من المسلمين غير هشام بن صبابة .. ويقال قتله رجل من الانصار خطأ .. وهو يعتقد انه من الأعداء .

وغاب رسول الله عن المدينة فى تلك الغزوة .. ثمانية وعشرين يوما . وقد ذكر ابن هشام غزوة بنى المصطلق .. بعد الاحزاب وقريظة مخالفا بذلك غيره من أصحاب السيرة .

وكانت جويرية بنت الحارث ـ سيد القوم ـ من بين السبى .. فصارت فى القسمة لأحد المسلمين .. فكاتب عنها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم .. واعتقها وتزوجها تكريما لها .. ولأبيها سيد بنى المصطلق .. بعد ذله وهوانه .. لأنه ـ عليه السلام يقول : « ارحموا عزيز قوم ذل » ولنسمع قصة زواجها من أم المؤمنين عائشة .. فتقول :

« لما قسم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم سبايا بنى المصطلق .. وقعت جويرية بنت الحارث فى السهم ـ لثابت بن قيس بن شماس .. او لابن عم له .. فكاتبته (١) على نفسها .. وكانت امرأة حلوة ملاحة .. لا يراها احد الا أخذت من نفسه .. فأتت رسول الله .. تستعينه فى كتابتها .. قالت عائشة : فوالله ما هو الا ان رايتها فكرهتها .. وقلت يرى منها ما قد رايت .. فلما دخلت على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالت : يا رسول الله .. انا جويرية بنت الحارث سيد قومه .. وقد اصابنى من البلاء ما لم يخف عليك .. وقد كاتبت على نفسى .. فاعنى على كتابتى .. فقال لها : او خير من ذلك .. أؤدى عنك كتابتك .. واتزوجك ؟ .. فقالت : نعم يا رسول الله .. ففعل رسول الله ذلك .. فبلغ الناس انه تزوجها .. فقالوا : اصهار رسول الله .. فارسلوا ما كان فى أيديهم من بنى المصطلق .. اعتق بها مائة من أهل بيت بنى المصطلق .. فما أعلم امرأة أعظم بركة منها على قومها » .

تزوجها رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فحجبها .. وقسم لها .. وكانت بنت عشرين سنة .. واسلم أبوها الحارث .. وأسلم معه جميع بنى المصطلق .

وهكذا كان ترابط الرسول بالمصاهرة مع القبائل من اكبر العوامل .. فى تأليف القلوب .. ونشر الاسلام بين بطون العرب .

لقد هدى الله كثيرا من خزاعة .. بسبب زواج الرسول من جويرية .

وتختلف رواية ابن اسحاق وابن هشام فى زواج جويرية ـ رضى الله عنها ـ شيئا ما عن رواية أم المؤمنين عائشة .. فيقول ابن هشام

قدم الحارث بن ضرار .. بفداء ابنته جويرية .. فلما كان بالعقيق ـ قرب المدينة ـ نظر الى الابل التى جاء بها للفداء .. فرغب فى بعيرين منها .. فغيبها فى شعب من شعاب العقيق .. ثم اتى الى النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقال : يا محمد أصبتم ابنتى .. وهذا فداؤها .. فقال له : فأين البعيران اللذان غيبتهما بالعقيق .. فى شعب كذا ؟ .. فقال الحارث : اشهد ان لا اله الا الله .. وأنك رسول الله .. فوالله ما اطلع على ذلك الا الله .. فأسلم الحارث .. واسلم معه ابنان له .. وناس من قومه كثير .. وأرسل الى البعيرين فجاء بهما .. فدفع الابل الى النبى .. ودفعت اليه ابنته جويرية .. فأسلمت وحسن اسلامها .. فخطبها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى ابيها .. فزوجه اياها .. وأصدقها اربعمائة درهم ـ ا هـ ـ .

توفيت ام المؤمنين ـ جويرية ـ سنة خمسين .. ولها من العمر خمس وستون سنة .

وفى غزوة بنى المصطلق .. ستجىء حديث الافك .. الذى اتهم فيه المنافقون الصديقة بنت الصديق .. أم المؤمنين .. وزوج حبيب الله ورسوله ـ التى قال عنها :

« خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء »
ويقول عنها عروة : ما رأيت أحدا أعلم بفقه .. ولا بطب .. ولا بشعر من عائشة .

---

(١) تشترى نفسها منه .

ولو لم يكن لعائشة من الفضائل الا قصة الافك .. لكفى بها فضلا وعلو مجد .. فانها نزل فيها من القــرآن ما يتلى .. ويتعبد به الى يوم القيامة .

خاض فى حقها المنافقون .. الذين خرجوا لأول مرة مع الرسول فى تلك الغزوة .. وزلزل المؤمنون فى هذا الحـــدث زلزالا شديدا .. وتحرز المخلصون منهم .. فقالوا : (سبحانك هذا بهتان عظيم) .. سبحوا الله .. ونزهوه عما لا يليق به أن يجعل لخليله .. وأكرم الخلق عليه .. امرأة ترتكب الفاحشة .. قطعوا قطعا لا يشكون فيه .. أن هـــذه فرية ظاهـرة .. وبهتان عظيم .

وخير ما نســمع حــول هــذا الحدث .. ما قالته عائشـــة ــ رضى الله عنها ــ قالت : « كان رسول الله ــ صلى الله عليــه وسلم ــ اذا اراد سفرا .. اقرع بين نسائه .. فايتهن خرج سهمها .. خرج بها معه .. فلما كانت غزوة بني المصطلق .. أقرع بين نسائه كمـــا يصنع .. فخـــرج سهمى .. فخــرج بى .. وكنت اذا رحل لى بعيرى .. جلست فى هودجى .. ثم يأتى القوم .. فيأخذون بأسفل الهودج .. فيرفعونه .. فيضعونه على ظهر البعير .. فيشدونه بحباله .. ثم يأخـذون برأس البعير .. فينطلقون به . فلما فرغ رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ من سفره ذلك .. وجـــه قافلا (١) حتى اذا كان قريبا من المدينة .. نزل منزلا .. فبات به بعض الليل .. ثم أذن فى الناس بالرحيل .. فارتحل الناس .. وخرجت لبعض حاجتى .. وفى عنقى عقد لى .. فيه جزع ظفار (١) .. فلما فرغت انسل من عنقى .. ولا أدرى ــ فلما رجعت الى الرحـــل .. ذهبت ألتمسه فى عنقى .. فلم أجده .. وقد أخذ الناس فى الرحيل .. فرجعت الى مكانى الذى ذهبت اليه .. فالتمسته حتى وجدته .. وجـاء القــوم على خلاف .. الذين كانوا يرحلون البعير .. وقــد فرغوا من رحلته أى تجهيزه .. فأخذوا الهودج .. وهم يظنون أنى فيه .. كما كنت أصنع .. فاحتملوه فشدوه على البعير .. ولم يشكوا أنى فيه .. ثم اخذوا برأس البعير .. فانطلقوا به .

فرجعت الى العسكر .. وما فيه من داع ولا مجيب .. قــد انطلق الناس . فتلففت بجلبابى .. ثم اضطجعت فى مكانى .. وعرفت أن لو افتقدت لرجع الى . فوالله انى لمضطجعة .. اذ مر بى صفوان بن المعطل السلمى .. وقد كان تخلف عن المعسكر .. لبعض حاجته .. فلم يبت مع الناس .. فرأى سوادى .. فأقبل حتى وقف على .. وقد كان يرانى .. قبل أن يضرب علينا الحجـاب .. فلما رآنى قال : انا لله وانا اليه راجعون .. ظعينة رسول الله ؟ وانا متلففة فى ثيابى .. قال : ما خلفك يرحمــك الله ؟ .. قالت : فما كلمتــه .. ثم قرب البعير .. فقال : اركبى .. واســتأخر عنى .. قالت : فركبت .. واخذ برأس البعير .. فانطلق سريعا .. يطلب الناس .. فوالله ما أدركنا الناس .. وما افتقدت حتى اصبحت ونزل الناس .. فلما اطمأنوا .. طلع الرجـل يقود بى .. فقال أهـــل الافك ما قالوا .. فاضطرب العســكر .. ووالله ما أعــلم بشىء من ذلك » .

وجاء فى حديث ابن عمر : ان عبد الله بن أبى .. قال عندما رآها قادمة .. على بعـير صفوان : « فجر بها ورب الكعبة » فقد كان ابن أبى زعيم عصبة الافك .

ونعود الى حديث السيدة عائشة ــ رضى الله عنها ــ على ما أورده ابن هشام .. وقــد ورد هذا الحديث .. فى صحيح البخارى بلفظ يختلف أحيانا .. ولكن بنفس المعنى .

---

(١) راجعا .

(١) الجزع : الخرز .. وظفار : مدينة باليمن ينسب اليها خرز الجيد .

تقول عائشة :

ثم قدمنا المدينة .. فلم البث ان اشتكيت شكوى شديدة — اى مرضا — ولا يبلغنى من ذلك شىء .. وقد انتهى الحديث الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — والى ابوى .. لا يذكرون لى منه قليلا ولا كثيرا .. الا انى قد انكرت — اى افتقدت — من رسول الله — صلى عليه وسلم — بعض لطفه بى — كنت اذا اشتكيت رحمنى ولطف بى .. فلم يفعل ذلك بى فى شكواى تلك .. فانكرت ذلك منه .. حتى وجدت — اى حزنت — فى نفسى .. فقلت يا رسول الله .. حين رأيت من جفائه لى : لو اذنت لى فانتقلت الى امى فمرضتنى ؟ .. قال : لا عليك .

فانتقلت الى امى .. ولا علم لى بشىء مما كان .. حتى نقهت من وجعى فى بضع وعشرين ليلة .

وكنا قوما عربا .. لا نتخذ فى بيوتنا هذه الكنف — دورات المياه — التى تتخذها الأعاجم .. نعافها ونكرهها .. انما كنا نذهب فى فسح المدينة .. وانما كانت النساء يخرجن كل ليلة فى حوائجهن .. فخرجت ليلة لبعض حاجتى .. ومعى — ام مسطح — بنت ابى رهم بن عبد المطلب .. وكانت امها خالة ابى بكر الصديق .. فوالله انها لتمشى معى .. اذ عثرت فى مرطها — اى كسائها — فقالت : تعس مسطح — تقصد ابنها — وهو احد عصبة الافك .. قلت : بئس لعمر الله ما قلت لرجل من المهاجرين قد شهد بدرا .. قالت : او ما بلغك الخبر يا بنت ابى بكر ؟ قلت: وما الخبر ؟ فاخبرتنى بالذى كان من أهل الافك .. قلت : اوقد كان هذا ؟ قالت : نعم .. والله قد كان .. فوالله ما قدرت على أن أقضى حاجتى .. ورجعت .. فوالله ما زلت أبكى .. حتى ظننت ان البكاء سيصدع قلبى .

وقلت لأمى : يغفر الله لك .. تحدث الناس بما تحدثوا به .. ولا تذكرين لى من ذلك شيئا؟

قالت : اى بنية خفضى عليك الشأن .. فوالله لقلما كانت امراة حسناء عند رجل يحبها .. لها ضرائر .. الا كثرن وكثر الناس عليها .

قالت : وقد قام رسول الله فى الناس يخطبهم ولا أعلم بذلك :

فحمد الله وأثنى عليه .. ثم قال : « يا أيها الناس .. ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى .. ويقولون عليهم غير الحق .. والله ما علمت منهم الا خيرا .. ويقولون ذلك لرجل .. والله ما علمت منه الا خيرا .. يقصد صفوان — وما يدخل بيتا من بيوتى .. الا وهو معى » .

وكان كبر ذلك عند عبد الله بن أبى بن سلول .. فى رجال من الخزرج .. مع الذى قال مسطح وحمنة بنت جحش — أخت زينت زوجة رسول الله .. وذلك ان اختها زينت كانت عند رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ولم تكن من نسائه امراة تناصبنى — اى تساوينى — فى المنزلة عنده غيرها .. فأما زينب فقد عصمها الله — تعالى — بدينها .. فلم تقل الا خيرا .. وأما حمنة بنت جحش فأشاعت من ذلك ما أشاعت .. تضادنى — اى تعادينى — لأختها .. فشقيت بذلك .

فلما قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — تلك المقالة .. قال أسيد بن حضير : يارسول الله .. ان يكونوا من الأوس تكفكهم .. وان يكونوا من اخواننا من الخزرج .. فمرنا بأمرك .. فوالله انهم لأهل ان تضرب اعناقهم .

قالت : فقام سعد بن عبادة .. فقال : كذبت لعمرو الله .. لا تضرب اعناقهم .. اما والله ما قلت هذه المقالة .. الا لأنك قد عرفت أنهم من الخزرج .. ولو كانوا من قومك ماقلت هذا .

فقال أسيد : كذبت لعمرو الله .. ولكنك منافق .. تجادل عن المنافقين .. وتساور الناس .. حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر .

ونزل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فدعا على بن ابى طالب .. واسامه ابن زيد .. فاستشارهما .. فأما اسامه .. فأثنى على الله خيرا : ثم قال : يا رسول الله .. اهلك ولا نعلم منهم الا خيرا .. وهذا الكذب والباطل .

واما على .. فانه قال : يارسول الله .. ان النساء لكثير .. وانك لقادر على ان تستخلف .. وسل الجارية .. فانها ستصدقك .. فدعا رسول الله جاريتى ليسالها .. فقام اليها على وضربها .. وهو يقول : اصدقى رسول الله .. قالت .. فتقول : والله ما اعلم الا خيرا .. وما كنت اعيب على عائشة شيئا .. الا انى كنت اعجن العجين فآمرها ان تحفظه .. فتنام عنه .. فتأتى الشاة فتأكله .

ثم دخل على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وعندى أبواى .. وعندى امراة من الأنصار .. وانا ابكى .. وهى تبكى معى .. فجلس فحمد الله .. واثنى عليه .. ثم قال : يا عائشة .. انه قد كان ما قد بلغك من قول الناس .. فاتقى الله .. وان كنت قد قارفت سوءا مما يقول الناس .. فتوبى الى الله .. فان الله يقبل التوبة عن عباده .

فوالله ما هو الا أن قال ذلك لى – فقلص دمعى – اى ارتفع – حتى ما احس منه شيئا . وانتظرت أبوى أن يجيبا عنى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فلم يتكلما .

قالت وايم الله .. لانا كنت احقر فى نفسى .. واصغر شأنا .. من أن ينزل الله فى قرآنا .. يقرا به فى المساجد .. ويصلى به .. ولكنى كنت أرجو أن يرى رسول الله فى نومه شيئا يكذب الله به عنى .. لما يعلم من براءتى .. او يخبر خبرا .. فأما قرآن ينزل فى .. فوالله لنفسى كانت احقر عندى من ذلك .

قالت : فلما لم ار ابوى يتكلمان..قلت لهما: الا تجيبا رسول الله ؟ .. فقالا : والله لا ندرى بماذا نجيبه .. قالت : والله ما اعلم اهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل ابى بكر .. فى تلك الأيام .. فلما استعجما على .. اى سكتا ولم يتكلما – استعبرت فبكيت .. ثم قلت : والله لا اتوب الى الله مما ذكرت ابدا .. والله انى لأعلم .. لئن أقررت بما يقول الناس .. والله يعلم أنى منه بريئة .. لأقولن ما لم يكن .. ولئن انا انكرت ما يقولون .. لا تصدقوننى .. **ثم التمست اسم – يعقوب – فما اذكره .. فقلت : ولكن ساقول كما قال ابو يوسف : « فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون »** .

فوالله ما برح رسول الله صلى الله عليه وسلم – مجلسه .. حتى تغشاه من الله ما تغشاه .. فسجى بثوبه .. ووضعت له وسادة من ادم تحت راسه .. فأما انا حين رايت من ذلك ما رايت .. فوالله ما فزعت وما باليت .. قد عرفت انى بريئة .. وان الله – عز وجل – غير ظالمى .. واما ابواى .. فوالذى نفس عائشة بيده .. ما سرى عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حتى ظننت لتخرجن انفسهما فرقا .. من أن يأتى من الله تحقيق ما قال الناس .

ثم سرى عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فجلس .. وانه ليتحدر منه مثل الجمان (١) .. فى يوم شات .. فجعل يمسح العرق عن جبينه .. وهو يقول :

« أبشرى يا عائشة .. فقد انزل الله براءتك .. قلت : بحمد الله .

ثم خرج الى الناس فخطبهم .. وتلى عليهم ما انزل الله عليه من القرآن فى ذلك .. ثم امر بمسطح بن أثاثة .. وحسان بن ثابت .. وحمنة

---

(١) اللؤلؤ تقصد العرق .

بنت جحش .. وكانوا ممن افصح بالفاحشة .. فضربوا حدهم ــ ا هـ ..

وقد حكم الله فيها بقوله تعالى :

(ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم .. لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم) .. الى آخر الآيات من سورة النور (١) .

تلك هى قصة الافك .. نرى فيها العديد من المشاهد والصور .. والكثير من الاحاسيس والعبر .. نرى فيها الحقد الأسود .. يطل بوجهه الكئيب من عين عبد الله بن ابى .. فيبنى من النظرة الأولى صرحا عريضا .. من فتنة هزت قلوب الرجال .

نرى الشائعات تبيض وتفرخ .. وتنمو على لسانه .. وهو يستحكى الافك .. ويشيعه ويذيعه .. ويجمعه ويفرقه .. وكان اصحابه يتقربون به اليه .

نرى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ تعتصره الهموم اعتصارا .. وهو يسمع ما يقوله المرجفون .. ويردده المنافقون .. ولكن فى صبر الموقن الواثق من اهله واصحابه ..

فيقول : « ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى .. ويقولون عليهم غير الحق .. ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه الا خيرا » .

ونرى فيها حكمة المستشير .. وصدق المستشار .. فقد اختار لاستشارته اسامة ابن زيد .. وعلى بن ابى طالب .. وقد صدقه الاثنان .. فشهد اسامة بما يعلمه من عفتها وبراءتها وحصانتها ودينها .. واشار على بما يخفف عن الرسول آلامه .. بحسم الداء والاعراض عما يقول الناس .

ونرى فضلاء الصحابة .. يدفعون الشك عن نفوسهم .. فى قوة ايمان ويقين ..

قالوا : (سبحانك هذا بهتان عظيم) .

ونرى الحكمة واضحة فى جعل هذا الحدث امتحانا وابتلاء لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وللامة كلها .. ليزيد الذين اهتدوا هدى وايمانا .. ولا يزيد الظالمين الا غيا وضلالا نرى فيه ثقة المؤمن بربه .. وانقطاع رجائه من المخلوقين .. ويأسه من حصول الفرج من احد غير الله .. فنرى عائشة .. قد وفت هذا المقام حقه .. عندما قال لها أبوها : قومى الى رسول الله .. وقد انزل الله عليه براءتها .. فقالت .. كما ورد فى صحيح البخارى : « والله لا اقوم اليه .. ولا احمد الا الله .. هو الذى أنزل براءتى » .

لقد حبس الوحى عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ شهرا .. حتى نضجت القضية وتمحضت .. واستشرفت قلوب المؤمنين الى حكم السماء .. وكانت لهفة الرسول واهله .. وابى بكر واهله اشد .. فورد عليهم حكم الله .. ورود الغيث على ارض هامدة .

لما جاء الوحى ببراءتها .. امر رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ باقامة الحد على من صرحوا بالافك .. ولم يقمه على عبد الله بن ابى بن سلول .. زعيم العصبة .. لانه لم يصرح .. بل كان يستحكى .. ويستوشى الحديث .. ويجمعه ويخرجه فى قالب لا ينسب اليه .

وهنا تبرز عظمة الاسلام فى الحدود .. فالحد لا يثبت الا بالاقرار او البينة .. وابن ابى لم يقر بالقذف .. ولم يشهد به عليه احد .. فانه لم يكن يذكره الا مع اصحابه .. ولا يذكره بين المؤمنين .. واصحابه لا يشهدون عليه .

كما ان الحدود تخفيف وكفارة عن اهلها .. وهو ليس اهلا لذلك .. فقد وعده الله بالعذاب الاليم العظيم فى الآخرة .. فيكفيه ذلك عن حد الدنيا .

وقد اثار ابن قيم الجوزية .. فى هذا المقام نقاشا .. فقال انه حق لله .. فلابد من مطالبة المقذوف .. وعائشة ــ رضى الله عنها ــ لم تطالب به ابن أبى .. ثم قال : بل ترك حده لمصلحة

---

(١) ١١ ــ ٢٦ / النور .

هى أعظم من آثامه .. كما ترك قتله مع ظهور نفاقه .. وتحدثه بما يوجب القتل مرارا .

هذه المصلحة .. هى تأليف قومه .. وعدم تنفيرهم عن الاسلام .. فانه كان مطاعا فيهم .. رئيسا عليهم .. فلم يأمن الرسول اثارة الفتنة فى حده .

وقد روت بعض كتب السيرة .. أن ابن ابى .. قال فى تلك الغزوة :

(لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) .. فبلغها زيد بن الأرقم رسول الله — صلى الله عليه وسلم .

وجاء ابن ابى يعتذر .. ويحلف ما قال .. فسكت عنه النبى .. فانزل الله تصديق زيد .. فى سورة « المنافقون » .. فاخذ النبى باذنه فقال :

« ابشر فقد صدقك الله » .. ثم قال : « هذا الذى وفى الله باذنه » .. فقال عمر :

يا رسول الله .. مر عباد بن بشير .. فليضرب عنقه .. فقال :

« فكيف اذا تحدث الناس أن محمدا يقتل اصحابه » .

وقد طلب محمد ابنه أن يقتل اباه .. فابى رسول الله .

جلد مسطح بن اثاثة .. وحسان بن ثابت .. وحمنة (١) بنت جحش .. فهم من المؤمنين الصادقين .. تطهيرا لهم وتكفيرا .. وترك ابن ابى .. فلم يقم عليه الحد .

وفى ذلك يقول عبد الله بن رواحة :

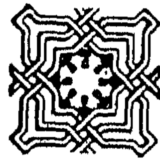
لقد ذاق حسان الذى هو اهله
وحمنة اذا قالوا هجيرا .. ومسطح
تعاطوا برجم الغيب زوج نبيهم
وسخطه ذى العرش الكريم فابرحوا (٢)

كما نرى زينب بنت جحش — رضى الله عنها — وهى التى تزاحم عائشة — رضى الله عنها — فى قلب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يعصمها ايمانها .. فتقول عندما سالها عن عائشة : احمى سمعى وبصرى .. لا اعلم عنها الا خيرا .

كما نرى سماحة الاسلام .. لما نزلت البراءة .. قال أبو بكر — رضى الله عنه — وكان ينفق على مسطح لقرابته منه : والله لا انفق على مسطح شيئا ابدا .. ولا انفعه بنفع ابدا .. بعد الذى قال عن عائشة وادخل علينا .. فانزل الله تعالى :

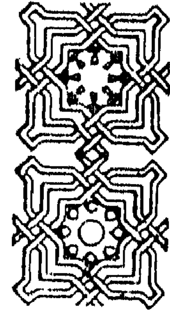
« ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة ان يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا .. الا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم » (٣) .

فقال أبو بكر : بلى والله .. انى احب أن يغفر الله لى .. فرجع الى مسطح نفقته .. التى كان ينفق عليه .. وقال : والله لا انزعها منه ابدا .



---

(١) حمنة اخت ام المؤمنين — زينب بنت جحش — وزوجها مصعب بن عمير .. الذى استشهد فى احد .
(٢) اى بالغوا فى الكذب .
(٣) ٢٢ — النور .



بين حضارتين

ونحن نعتب على بعض مؤرخى الغرب استعظامهم لهذا القتل الجماعى لبنى قريظة .. فقد رأينا غدرهم وخيانتهم ونقضهم عهدهم للرسول والمسلمين فى وقت زلزلت فيه الأركان .. وطاشت الأحلام .. وزاغت الأبصار .. وبلغت القلوب الحناجر يوم الأحزاب .

ــ ٤٥ ــ

بين حصارين

فى غزوة الخندق .. حاصر المشركون مدينة رسول الله خمسة عشر يوما . ثم حاصر الرسول عليه الصلاة والسلام يهود بنى قريظة خمسة وعشرين يوما فى غزوة بنى قريظة .. وانتصر المسلمون فى الحصارين .. وقد اتصلت الغزوتان .. فلم يضع الملائكة بينهما سلاحهم .

وغزوة ــ **الخندق** ــ هى غزوة ــ **الأحزاب** ــ .. **سميت بهذا الاسم** .. لتجمع الأحزاب العربية وقبائلهم من قريش وغطفان .. ليضربوا المسلمين ضربة قاصمة .. تقضى عليهم قضاء نهائيا .

تجمعت فيها كل عناصر الشيطان .. من قبائل العرب .. ومن اليهود ايضا .

فقد خرج زعماء اليهود المطرودين من المدينة .. فى غزوة بنى النضير .. وعلى رأسهم كنانة وسلام ابنا ابى الحقيق النضرى .. وسلام بن مشكم .. وحيى بن اخطب .. ومعهم ابو عامر الفاسق .. وقدموا على قريش بمكة يحرضونهم على حرب المسلمين .

يقول الدكتور ــ ولفنسن ــ فى كتابه « تاريخ اليهــود » .

« لما نزل اشراف بنى النضير فى خيبر .. اخذوا يفكرون فى الثأر من الانصار .. وبحثوا عن الوسائل .. التى تردهم الى مزارعهم وآطامهم .. فى منطقة يثرب .. فعزم نفر من اليهود .. فيهم سلام .. وابن ابى الحقيق .. وحيى بن اخطب .. وكنانة بن الربيع .. فرأوا أن يحزبوا الأحزاب على المسلمين » ــ ا هـ ــ

ولعل المشركين من العرب .. قد شكوا فى اليهود .. وارتابوا فى جديتهم ونصرتهم ضد المسلمين .. لعلمهم ان اليهود اهل كتاب .. يؤمنون كالمسلمين بالبعث والثواب والعقاب .. ويعتقدون مثلهم فى وجود الله واحد .. يرسل الرسل .. وينزل الكتب .. ولا يؤمنون بعبادة الاصنام .. والعرب عباد اوثان واصنام .. فقالوا لهم :

يا معشر اليهود .. ادبننا خير ام دين محمد ؟ .. قالوا : بل دينكم خير من دينه واحق منه .

هكذا بلغ الحقد بقلوب قادة اليهود .. فقضلوا الوثنية على دين موسى وابراهيم .. وكفروا بآله اسرائيل .. ولم يستطع كتاب الغرب اخفاء المهم من زلة اليهود فى هذا الموقف .

فقال ـ ولنفسن ـ بالنص :

« والذى يؤلم كل مؤمن بالله واحد من اليهود والمسلمين على السواء .. انما هى تلك الحادثة .. التى جرت بين نفر من اليهود .. وبين قريش الوثنيين .. حيث فضل هؤلاء النفر من اليهود اديان قريش .. على دين صاحب الرسالة الاسلامية » (١) ـ ا هـ ـ

وانما ناخذ على الدكتور ـ ولنفسن ـ انه قال « نفر من اليهود » فهم ليسوا نفرا عاديين من اليهود .. ولكنهم رءوس وزعماء وقادة .

ولهذا انزل الله ـ تعالى ـ فى حقهم :

(الم تر الى الذين اوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت .. ويقولون للذين كفروا هؤلاء اهدى من الذين آمنوا سبيلا ❊ اولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا) (٢) .

وفرحت قريش برأى زعماء اليهود .. فى دين محمد .. واصروا على الاستمساك بوثنيتهم .. والاعتصام بأصنامهم .. ولبوا رغبة اليهود فى الاعداد لغزو المدينة .. بعد أن استوثقوا أن اليهود سيكونون معهم .. ضد محمد واصحابه .

ثم خرج اولئك النفر من اليهود من مكة .. وذهبوا الى غطفان .. فدعوهم الى حرب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتعاهدوا معهم على نصرهم .. واخبروهم ان قريشا تابعوهم على ذلك .. فاجتمعوا معهم فيه .. ثم طافوا فى قبائل العرب .. يدعونهم الى ذلك .. فاستجاب لهم الكثير منهم .

وكان خروج الاحزاب الى المدينة .. فى شهر شوال من العام الخامس للهجرة .

(١) تاريخ اليهود ـ ولفنسن ـ ص ١٤٤ .

كانت غزوة ـ أحد ـ فى شهر شوال سنة ثلاث .. وواعد أبو سفيان رسول الله فى العام القابل فى شوال سنة اربع .. ولكن أبا سفيان عاد بجيشه بحجة جدب السنة .. ـ كما ذكرنا من قبل ـ فلما كانت السنة الخامسة تجمع الأحزاب .. على حرب المسلمين للقضاء عليهم .

خرجت قريش بقيادة ابى سفيان بن حرب .. ومعهم من تابعهم من كنانة واهل تهامة . وخرجت غطفان : ـ بنو فزارة ـ يقودهم عيينة بن حصن ـ وبنو مرة ـ يقودهم الحارث بن عوف المرى ـ وأشجع ـ يقودهم مسعود بن رخيلة بن نويرة .. كما وافاهم بنو سليم بمر الظهران .

وكان عدد الاحزاب يزيد على العشرة آلاف مقاتل .

وعلم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتحزب العرب .. وتجمعهم لحربه .. فعرض الامر على أصحابه ـ يستشيرهم ـ فاشار سلمان الفارسى ـ رضى الله عنه ـ بحفر الخندق حول المدينة .. ليعوق هجوم العدو .. فى الأماكن التى لم تكن حصينة .

وقد اقتبس سلمان هذه الفكرة من قومه الفرس .. فى حروبهم .. قال سلمان :

يا رسول الله .. كنا بفارس .. اذا حوصرنا .. خندقنا حولنا .. وكلمة خندق : فارسية الاصل ـ

واشترك رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ بنفسه فى حفر الخندق .. بعد أن حدده وقسمه .. اربعين ذراعا بين كل عشرة .

وقد اختلف المهاجرون والانصار .. فى سلمان .. قال الانصار : سلمان منا .. وقال المهاجرون : سلمان منا .. فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ((سلمان منا آل البيت)) .

(٢) ٥١ ـ ٥٢ / النساء .

وحاول المنافقون تثبيط الهمم .. يستثقلون العمل .. وينصرفون بدون اذن رسول الله .. فلم يعرهم المسلمون اى اهتمام .

وكان فى حفر الخندق من الآيات والعلامات .. ما تواترت به الانباء .. وصدقته الأحاديث والأحداث .. ذكرها احمد والنسائى عن البراء :

فبينما جماعة من المسلمين يحفرون نصيبهم .. ومعهم ــ سلمان الفارسى ــ اذ ظهرت صخرة بيضاء مروة (١) .. فشقت عليهم .. وكسرت معاولهم .. فقالوا : يا سلمان .. اصعد الى رسول الله .. فاخبره خبر تلك الصخرة .. فنحن لا نحب أن نجاوز خطه (٢) .

فاتى سلمان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو جالس تحت قبة تركية .. فقال : يا رسول الله .. ظهرت صخرة مروة فى الخندق .. كسرت معاولنا .. وشقت علينا .. حتى ما تكسر منها قليلا ولا كثيرا .. فمرنا بامرك .. فانا لا نحب ان نجاوز خطك ..

فنزل رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ مع سلمان .. واخذ منه معوله .. فقال :

« بسم الله » ثم ضربها .. فنثر ثلثها .. وخرج منها نور .. اضاء ما بين لابتيها .. ــ يعنى لابتى المدينة ــ فقال : « الله اكبر .. اعطيت مفاتيح الشام .. والله انى لأبصر قصورها الحمر .. السليمة من مكانى » .

ثم ضرب الثانية .. فقطع ثلثا اخر .. فبرقت برقة اضاءت ما بين لابتيها .. فقال :

« الله اكبر .. اعطيت مفاتيح فارس .. وانى والله لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن » ثم ضرب الثالثة فقطع بقية الصخرة .. وخرج نور اضاء ما بين لابتى المدينة . حتى كانه مصباح فى جوف ليل مظلم .. فقال : « الله اكبر .. اعطيت مفاتيح اليمن .. والله انى لأبصر ابواب صنعاء من مكانى الساعة .. فابشروا بالنصر » فسر المسلمون وكبروا .

كما جاء فى صحيح البخارى .. عن جابر ــ رضى الله عنه :

« انا يوم الخندق نحفر .. فعرضت كديه شديدة (١) .. فجاءوا النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقالوا : هذه كدية .. عرضت فى الخندق .. فقال : « انا نازل » .. ثم قام وبطنه معصوب بحجر .. لبثنا ثلاثة ايام لا نذوق ذواقا ــ اى طعاما .. فاخذ النبى المعول .. فضرب به الكدية .. فعادت كثيبا أهيل ــ اى رملا سائلا ــ

كان حفر الخندق امام جبل ــ سلع ــ ليكون الجبل خلف ظهور المسلمين .. والخندق بينهم وبين المشركين .

واقبلت قريش .. حتى نزلت بمجتمع السيول فى عشرة الاف من احابيشهم ومن تبعهم من بنى كنانة واهل تهامة .. ونزل عيينه بن حصن فى غطفان ومن تبعهم من اهل نجد الى جانب احد .

وخرج رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى ثلاثة آلاف رجل .. فضرب معسكره ..

وجعل ــ سلع ــ خلف ظهور المسلمين .. والخندق امامه .. بينهم وبين القوم .

وكان لواء المهاجرين بيد زيد بن حارثة .. ولواء الانصار بيد سعد بن عبادة .. واستخلف على المدينة ابن ام مكتوم .. وطلب من النساء والذرارى .. ان يكونوا فى اطام المدينة .. فوق سطوح المنازل .. ومعهم النبل .

وكان كعب بن اسد القرظى .. سيد يهود بنى قريظة .. قد عاهد النبى .. ضد قريش .. فتسلل عدو الله حيى بن اخطب .. وهو

---

(١) المرو : حجارة بيضاء وبراقة تقدح منها النار ــ مختار الصحاح ــ مرا ــ

(٢) الخط الذى رسمه لهم الرسول فى الحفر .

(١) قطعة لا تعمل فيها المعاول .

احد اليهود الذين حزبوا الأحزاب .. والبوا العرب على المسلمين .. تسلل حيى الى كعب ليلا .. فأغلق كعب دونه باب حصنه .. ولم يمكنه من الدخول عليه .. ولكن حيى صار يلح عليه .. حتى فتح له .. ومازال يستميله ويغريه .. حتى نقض كعب عهد رسول الله .

وانقلب يهود بنى قريظة مع الاحزاب ضد المسلمين .

وكان هذا أول بلاء هدد المسلمين .. وحرك الخوف فى نفوسهم .

واشتد الخوف والجزع بينهم .. بعد ان نقض بنو قريظة عهدهم .. وانضمامهم الى اعدائهم .. وهم معهم فى داخل المدينة .

زاغت الأبصار .. وبلغت القلوب الحناجر .. وظنوا بالله الظنون .

يقول تعالى .. حول هذا المقام :

(اذ جاءوكم من فوقكم ومن اسفل منكم واذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا) (١) .

فالذين جاءوا من فوقهم يهود بنى قريظة .. والذين جاءوا من اسفل منهم قريش وغطفان .

ثم يقول تعالى :

(هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا * إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا) (٢) .

هذه العبارة الاخيرة .. التى يشير اليها قول الله – تبارك وتعالى – عن قول بعض المنافقين (ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا) .. قالها معتب بن قشير .. أخو بنى عمرو بن عوف . وسببها .. ان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لما بلغه نقض بنى قريظة لعهده .. ارسل سعد بن معاذ .. وسعد بن عبادة .. وهما سيدا الأوس والخزرج .. ومعهما بعض الأنصار ..

وطلب منهم أن ينظروا حال بنى قريظة .. **احق ما يقال عن نقضهم العهد .. أم لا ؟ ..** فان كان حقا .. رمزوا له رمزا يعرفه .. حتى لا يفتوا فى اعضاد المسلمين .. وان كانوا على وفائهم وعهدهم .. فليجهروا به للناس .

فخرجوا حتى اتوهم .. ووجدوهم على اخبث ما بلغهم عنهم .. حيث قالوا : عن رسول الله ؟ .. لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد .. فشاتمهم السعدان وشاتموهم .

واقبلوا على رسول الله .. فسلموا عليه .. ثم قالوا : عضل وقارة .. اى مثل عضل وقارة بأصحاب الرجيع : خبيب واصحابه .. فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – :

« الله اكبر .. ابشروا يا معشر المسلمين » .

ولكن الحقيقة .. انتشرت بين المسلمين .. وعرفوا ان بنى قريظة قد نقضوا عهدهم .. وعظم ذلك على المسلمين .. واشتد البلاء .. ونجم النفاق .. حتى قال معتب بن قشير : كان محمد يعدنا ان نأكل كنوز كسرى وقيصر .. فاذا الواحد منا اليوم .. لا يأمن على نفسه أن يذهب الى الغائط .

وقال بعض بنى حارثة .. ومنهم اوس بن **قيظى : يا رسول الله .. بيوتنا عورة .. وانزل الله تعالى فيه :**

(ويستأذن فريق منهم النبى يقولون ان بيوتنا عورة وما هى بعورة ان يريدون الافرار (٣)

كما قال البعض منهم : يا اهل يثرب .. لا مقام لكم فارجعوا الى دياركم .

وهكذا زاد البلاء .. وتبلبلت الأفكار .. واضطربت الخواطر .. ورأى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – رأيا .. فبعث الى عيينه بن حصن بن حذيفة .. والى الحارث بن عوف المرى .. وهما قائدا جيوش غطفان ..

---

(١) ١٠ – الاحزاب .

(٢) ١٢ – الاحزاب .

(٣) ١١ – ١٢ / الاحزاب .

يفاوضهما على ثلث ثمار المدينة .. على ان يرجعا بجيوشهما عنه وعن اصحابه .. وتمت المفاوضات بينهم على هذا .. ورضيا به .. فلما اراد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يكتب لهما كتابا بذلك .. بعث الى سعد بن معاذ .. وسعد بن عبادة .. يستشيرهما فيه .. فقالا له : يا رسول الله .. ان كان الله امرك بهذا فسمعا وطاعة .. وان كان شيئا تصنعه لنا .. فلا حاجة لنا فيه .. لقد كنا نحن .. وهؤلاء القوم على الشرك بالله .. وعبادة الأوثان .. وهم لا يطمعون أن ياكلوا منها ثمرة الا قرى او بيعا .. فحين أكرمنا الله بالاسلام .. وهدانا له .. واعزنا بك .. نعطيهم اموالنا؟ .. والله لا نعطيهم الا السيف .. فوافقهما على رأيهما .. وقال :

« انما هو شيء اصنعه لكم .. لما رايت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة » .

كانت مدة تلك الغزوة .. ما يقرب من الشهر .. ولم يكن بينهم قتال .. الا رميا بالنبل .. وكان لدى المسلمين من التموين ما يكفيهم اكثر من عام .

الا أن فوارس من قريش منهم : عمرو بن ود بن أبى قيس .. وعكرمة بن أبى جهل .. وهبيرة بن أبى وهب .. وضرار بن الخطاب الشاعر .. أقبلوا نحو الخندق .. فلما وقفوا عليه .. قالوا : ان هذه مكيدة .. ما كانت العرب تعرفها .. ثم اختاروا مكانا ضيقا من الخندق.. فضربوا خيلهم .. فاقتحمت منه.. فجالت بهم خيلهم فى السبخة بين الخندق وسلع .. ونادوا المبارزة .. وكان عمرو بن ود .. من شجعان المشركين وابطالهم .. فبرزله على بن أبى طالب .. فى نفر من المسلمين .. حتى أخذوا عليهم الثغرة التى اقتحموها .. ثم قال على لعمرو .. انى ادعوك الى الله ورسوله .. والى الاسلام .. قال : لا حاجة لى بذلك .. قال : فانى أدعوك الى النزال .. فقال له : يا ابن أخى ما أحب أن اقتلك .. قال له على : لكنى والله احب أن اقتلك .. فحمى عمرو عند ذلك .. فنزل عن فرسه .. وضرب وجهه ـ اى وجه الفرس .. ثم اقبل على على .. فتنازلا .. وتجاولا .. فقتله على .. وخرجت خيلهم منهزمة .. حتى عبرت الخندق هاربة .

وكان شعار المسلمين يومئذ : حم .. لا ينصرون .

وبعد أن قتل على عمرو بن ود .. برز من المشركين نوفل بن عبد الله بن المغيرة . فقتله الزبير

وفى هذا الحصار ـ رمى سعد بن معاذ .. بسهم قطع منه الاكحل ـ وهو الشريان التاجى ـ ونقل سعد الى خيمة ـ رفيدة ـ وهى امراة تداوى الجرحى فى المسجد .. وكان قد سال الله الا يموت .. حتى يرى انتصار المسلمين على يهود بنى قريظة .. لنقضهم عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم .

ولا يفوتنا ان نشير الى موقف المسلمات .. فى تلك الغزوة .. فقد قمن بكثير من البطولات .. وعلى راسهن صفية بنت عبد المطلب .. تقول:

كنا فى فارع ـ حصن حسان بن ثابت .. وكان حسان معنا فيه .. مع النساء والصبيان . قالت صفية .. فمر بنا رجل من اليهود .. فجعل يطيف بالحصن .. وقد حاربت بنو قريظة .. وقطعت ما بينها وبين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .. وليس بيننا وبينهم احد يدفع عنا .. ورسول الله والمسلمون فى نحور عدوهم .. لا يستطيعون ان ينصرفوا الينا عنهم .. ان اتانا آت .

قالت : فقلت يا حسان .. ان هذا اليهودى ـ كما ترى ـ يطيف بالحصن .. وانى والله ما آمنه .. أن يدل على عورتنا من وراءنا من اليهود .. وقد شغل عنا رسول الله واصحابه .. فانزل اليه فاقتله .

فقال : يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب .. والله لقد عرفت ما انا بصاحب هذا .

قالت : فلما قال ذلك لى .. ولم ار عنده شيئا .. اخذت عمودا .. ثم نزلت من الحصن اليه .. فضربته بالعمود حتى قتلته .. فلما فرغت منه .. رجعت الى الحصن .. فقلت يا حسان .. انزل اليه فاسلبه .. فانه لم يمنعنى من سلبه .. الا أنه رجل .

قال : مالى بسلبه من حاجة .. يا بنت عبد المطلب .. فكانت صفية .. اشجع من حسان(١)

وفى البخارى : دعا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على الأحزاب .. فقال : « اللهم منزل الكتاب .. سريع الحساب .. اهزم الأحزاب .. اللهم اهزمهم وزلزلهم » وقد استجاب الله لرسوله — ودبر لهم أمرا .. فالله هو المدبر .. ونسأله دائما .. الا يكلنا الى تدبير انفسنا طرفه عين .

ساق الله — عز وجل — رجلا من غطفان .. الى رسول الله .. وهو نعيم بن مسعود بن عامر .. فقال يا رسول الله .. انى قد أسلمت .. ولم يعلم قومى باسلامى .. فمرنى بما شئت فقال له : « انما انت رجل واحد .. فخذل عنا ما استطعت .. فان الحرب خدعة » فذهب من فوره .. الى يهود بنى قريظة .. وكان عشيرا لهم فى الجاهلية .. فدخل عليهم .. وهم لا يعلمون باسلامه .. فقال : يابنى قريظة .. انكم قد حاربتم محمدا .. وان قريشا ان اصابوا فرصة انتهزوها .. والا عادوا الى بلادهم .. وتركوكم لمحمد .. فانتقم منكم .

قالوا : فما العمل يا نعيم ؟

قال : لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن .

قالوا : قد اشرت بالرأى .

ثم مضى الى قريش .. وقال لهم : تعلمون مدى ودى معكم .. ونصحى لكم ؟ ..

قالوا : نعم . قال : بلغنى ان اليهود ارسلوا الى محمد ليصالحوه .. على ان يأخذوا منكم رهائن .. يدفعونها اليه .. ثم يوالونه عليكم .. فان سألوكم رهائن فلا تعطوهم .. ثم ذهب الى قومه — غطفان — وقال لهم : يا معشر غطفان انكم اصلى وعشيرتى واحب الناس الى .. ولا أراكم تتهموننى .. قالوا : صدقت .. ما انت عندنا بمتهم .. قال : فاكتموا عنى .. قالوا : نفعل فما أمرك ؟ .

ثم قال لهم مثل ما قال لقريش .. وحذرهم ما حذرهم .

وأراد الله عز وجل — تنفيذ أمره فى هزيمة الأحزاب .

ففى ليلة السبت الاخير من شوال .. سنة خمس .. بعد نجاح نعيم بن مسعود فى خدعته .. ارسل ابو سفيان ورؤساء غطفان .. عكرمة بن ابى جهل فى نفر من قريش وغطفان الى اليهود .. يهود بنى قريظة .. فقالوا لهم :

انا لسنا بأرض مقام .. وقد هلك الحافر والخف .. فانهضوا معنا غدا .. حتى نناجز محمدا .. فارسل اليهود اليهم .. ان اليوم يوم السبت .. وهو يوم لا نعمل فيه .. وقد علمتم ما اصاب من قبلنا .. حين احدثوا فيه .. يقصدون أصحاب السبت .. الذين اشار اليهم القرآن الكريم فى قوله تعالى :

(واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر اذ يعدون فى السبت) (٢) .

ثم قالوا لهم : .. ومع هذا .. فانا لا نقاتل معكم .. حتى تبعثوا الينا رهائن من ابناء اشرافكم .

فلما جاءتهم رسلهم بذلك .. قالت قريش . صدقكم والله نعيم .. فارسلوا الى اليهود ..

---

(١) تاريخ الطبرى .

(٢) ١٦٣ — الاعراف .. وقد ذكرنا هذا الحادث فى كتابنا (من انباء الرسل .. من نبا داود) .

انا والله لا نرسل اليكم احدا .. فاخرجوا معنا .. حتى نناجز محمدا .. فقال بنو قريظة : صدقكم والله نعيم .. وتخاذل الفريقان .

وارسل الله — تعالى — على المشركين جندا من الريح .. قوضت خيامهم .. وكفأت قدورهم .. وقلعت اطنابهم (١) .. وجندا من الملائكة زلزلت اركانهم .. والقت فى قلوبهم الرعب والفزع .

وانتهى الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ما اصابهم فى تلك الليلة الليلاء .. فارسل حذيفة بن اليمان .. لينظر ما فعل القوم .

قال حذيفة : فذهبت فدخلت فى القوم .. والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل .. لا تقر لهم قدرا ولا نارا ولا بناء .

فقام ابو سفيان .. فقال :

يا معشر قريش .. لينظر كل امرىء من جليسه ؟ .

قال حذيفة : فاخذت بيد الرجل الذى كان الى جانبى .. فقلت : من انت ؟ .. قال : فلان بن فلان .

ثم قال ابو سفيان :

يا معشر قريش — انكم والله ما اصبحتم بدار مقام .. لقد هلك الكراع والخف .. واخلفتنا بنو قريظة .. وبلغنا عنهم الذى نكره .. ولقينا من شدة الريح ما ترون .. ما تطمئن لنا قدور .. ولا تقوم لنا نيران .. فارتحلوا فانى مرتحل .

ثم قام الى جمله وهو معقول .. فجلس عليه .. ثم ضربه فوثب به على ثلاث — فوالله ما اطلق عقاله الا وهو قائم .. ولولا عهد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الى .. « الا تحدث شيئا حتى تأتينى » ثم شئت لقتلته بسهم .

قال حذيفة : فرجعت الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو قائم يصلى فى مرط لبعض نسائه .. فلما رانى ادخلنى الى رجليه .. وطرح على طرف المرط (٢) .. ثم ركع وسجد وانى لفيه .. فلما سلم اخبرته الخبر (٣)

وسمعت غطفان بما فعلت قريش .. فاسرعوا راجعين الى بلادهم .. وقال الله — جل شانه — عن حرب الطبيعة ضد الاحزاب :

(يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود .. فارسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها .. وكان الله بما تعملون بصيرا) . الى أن قال :

(ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا) (٤) .

وقد قتل من المشركين ثلاثة فى غزوة الخندق وهم :

منبه بن عبد العبدرى : اصابه سهم فمات فى مكة .. ونوفل بن عبد الله المخزومى .. وعمرو بن عبد ود .

اما شهداء المسلمين .. فقد ذكر ابن اسحاق انهم ستة : ثلاثة من الاوس .. وهم : سعد بن معاذ .. وانس بن اوس .. وعبد الله بن سهيل .. وثلاثة من الخزرج .. هم : الطفيل بن النعمان .. وثعلبة بن غنمة .. وكعب بن زيد ..

هرب الأحزاب .. فى تلك الليلة .. تاركين ما استثقلوه من متاعبهم .. بعد أن رمتهم الريح بالحصباء .. وزلزلت أركانهم .. واسمعتهم الملائكة التكبير وقعقعة السلاح .. فى ارجاء معسكرهم .

---

(١) الطنب — بفتحتين — حبل الخباء .

(٢) المرط — بكسر الميم — اكسية من صوف او خز .. كان يؤتزر بها .

(٣) ابن هشام .

(٤) ٩ — ٢٥ / الاحزاب .

ورد الله أعداء رسوله بغيظهم لم ينالوا خيرا .. وكفاه الله قتالهم .. فصدق وعده .. واعز جنده .. وهزم الاحزاب وحده .

ولما اصبح رسول الله ــ صــلى الله عليه وسلم ــ انصرف مع المسلمين عن الخنــدق .. راجعين الى ديارهم .. فى يوم الثالث والعشرين من ذى الحجة .. فى العام الخامس من الهجرة .. وقال يومها للمسلمين : « لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا » . ــ

وتلك النبوءة علم من اعــلام نبوته ــ صــلى الله عليه وسلم .. فقد صدق ما قال .

ولعل القارىء الكريم يذكر أننا اشرنا فى مطلع هذا الفصل .. الى أن الملائكة لم تضع اسلحتها بين غزوة الاحزاب وغزوة بنى قريظة .

فقد عاد ــ عليه الصــلاة والسلام ــ من غزوة الاحزاب بالمسلمين الى ديارهم بالمدينة فى الصباح .. وفى ظهر اليوم نفسه اتاه جبريل .. وهــو يستحم فى بيت ام سلمة .. وكان جبريل معتجرا بعمامة من استبرق .. على بغلة عليها رحالة .. عليها قطيفة من ديباج .

فقال : اوقد وضعت السلاح يا رسول الله ؟ .. فما وضــعت الملائكة الســلاح بعــد .. وما رجعت الآن الا من طلب القوم .. ان الله ــ عز وجل ــ يأمرك يا محمد بالمسير الى بنى قريظة .. فانى عامد اليهم .. فمزلزل بهم (١) .

فأمر رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ مؤذنا فى الناس : من كان سامعا مطيعا .. فلا يصلين العصر الا فى بنى قريظــة .. وبعث مناديا ينادى : يا خيل الله اركبى .

وروى البخارى .. عن ام المؤمنين عائشة : ان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لما رجع يوم الخندق .. ووضع الســـلاح واغتسل .. فأتاه جبريل .. وقد غطى راســـه الغبار .. فقال :

وضعت السلاح ؟ والله ما وضــعته .. فقال رسول الله .. فأين ؟ .. قال : ههنا .. وأوما الى بنى قريظة .. قالت : فخرج اليهم رســول الله ــ صلى الله عليه وسلم .

ومر رسول الله بنفر من أصحابه بالصورين(٢) .. قبل أن يصل الى بنى قريظة .. فقال :

هل مر بكم احد ؟ .. قالوا : يا رســول الله .. مر بنا دحية بن خليفـــة الكلبى .. على بغلة بيضاء .. عليها رحالة .. عليها قطيفة ديباج .. فقال رسول الله : ذلك جبريل .. بعث الى بنى قريظة يزلزل بهم حصونهم .. ويقذف الرعب فى قلوبهم .

وتلاحق الناس برســـول الله ــ صلى الله عليــه وســلم .. فاتى رجال منهم بعد العشــاء الآخرة ولم يصلوا العصر .. لقول رســـول الله « لا يصـــلين احد العصر الا فى بنى قريظــة » فشغلهم ما لم يكن منه بد فى حربهم .. وأبوا ان يصلوا العصر .. فصلوه بعد العشاء الآخرة .. فما عابهم الله بذلك .. ولا عنفهم به رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ استعمل رسول الله على المدينة ــ ابن أم مكتوم ــ وقدم على بن أبى طالب برايتـــه .. فســـار بها على .. حتى دنا من حصونهم .. فسمع منهم أذى فى حق رســول الله .. فرجع الى النبى قائلا : يا رسول الله .. لا عليك أن تدنو منهم .. فانهم اخابث .. قال : لم ؟ .. اظنك ســمعت منهم لى أذى .. قال : نعم يا رسول الله .. قال : لو رأونى لم يقولوا من ذلك شيئا .. فلما دنا رســـول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ من حصونهم ..

قال : يا أخوة القردة .. هل أخزاكم الله .. وانزل بكم نقمته ؟ .

قالوا : يا أبا القاسم .. ما كنت جهولا .

وبلغ عدد المسلمين .. ثلاثة آلاف .. ومعهم ستة وثلاثون فرسا .

---

(١) جميع كتب السيرة ــ تقريبا .

(٢) موضع قرب المدينة .

وقد حاصر المسلمون بنى قريظة .. خمسة وعشرين يوما .. وكان سعد بن عبادة يرسل التمر لهم كل يوم .. طعاما للجيش .

ولما اجهد الحصار اليهود .. وعلموا الا مناص من حرب المسلمين .. ولا قدرة لهم على حربهم .. وقف فيهم سيدهم كعب بن أسد .. قال :

يا معشر اليهود .. قد نزل بكم من الأمر ما ترون .. وانى عارض عليكم أمورا ثلاثة .. فخذوا ايها شئتم .. قالوا : ما هى ؟ ..

قال : نتابع هذا الرجل ونصدقه .. فوالله لقد تبين لكم انه لنبى مرسل .. وانه للذى تجدونه مكتوبا فى كتابكم .. فتأمنون على دمائكم وأموالكم وابنائكم ونسائكم .. قالوا : لا نفارق حكم التوراة ابدا .. ولا نستبدل به غيره .

قال : فاذا ابيتم .. فلنقتل ابناءنا ونساءنا .. ثم نخرج على محمد وأصحابه رجالا مصلتين السيوف .. لم نترك وراءنا ثقلا .. حتى يحكم الله بيننا وبين محمد .. فان نهلك .. نهلك ولم نترك وراءنا نسلا نخشى عليه .. وان نظهر فلعمرى لنجدن النساء والأبناء ..

قالوا : نقتل هؤلاء المساكين .. فما خير العيش بعدهم ؟ .

قال : فان أبيتم .. فان الليلة ليلة السبت .. وانه عسى أن يكون محمد واصحابه قد امنونا فيها .. فلنهجم عليهم .. قالوا : نفسد سبتنا علينا .. ونحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا — الامن قد علمت .. فاصابهم ما لم يخف عليك من المسخ ؟ .

ثم ارسلوا الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ليبعث اليهم ابا لبابة بن عبد المنذر ليستشيروه فى أمرهم .. وكان ابو لبابة اخا للأوس .. وهم حلفاء الأوس .. فأرسله رسول الله اليهم .. فلما راوه .. قام اليه رجالهم .. ولقيه نساؤهم وصبيانهم بالبكاء والنحيب .. فرق لحالهم .. فقالوا له : يا ابا لبابة .. اترى ان ننزل على حكم محمد ؟ .. قال : نعم .. واشار بيده الى حلقه يقول : انه الذبح .

يقول ابو لبابة : فوالله مازالت قدماى من مكانهما حتى عرفت انى خنت الله ورسوله بافشاء سره .

فمضى ابو لبابة على وجهه .. ولم يرجع الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حتى اتى مسجد المدينة .. فربط نفسه بسارية المسجد .. وحلف الا يحله الا رسول الله بيده .. والا يدخل ارض بنى قريظة ابدا .

واستبطأه رسول الله .. فسأل عنه .. فأخبروه خبره .. فقال : اما وانه لو جاءنى لاستغفرت له .. فاما اذ قد فعل ما فعل .. فما انا بالذى اطلقه حتى يتوب الله عليه .

ونزل اليهود على حكم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — واستسلموا —

تقول أم سلمة رضى الله عنها :

سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من السحر وهو يضحك .. فقلت : مم تضحك يا رسول الله ؟ .. قال : « تيب على أبى لبابة » .. قالت : قلت : أفلا أبشره يا رسول الله ؟ .. قال : « بلى ان شئت » . فقامت على باب حجرتها .. فقالت : يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك .. فثار الناس اليه ليطلقوه .. فقال : لا والله حتى يكون رسول الله هو الذى يطلقنى بيده .. فلما مر — عليه السلام — خارجا الى صلاة الصبح اطلقه .. وقد لبث أبو لبابة مربوطا ست ليال .. تأتيه امرأته فى كل وقت صلاة .. فتحله للصلاة .. ثم يعود فيربط بالجذع .

ونعود الى بنى قريظة .. لنشهد ما حدث لهم :

فقد تواثبت الاوس .. لما استسلم حلفاؤهم بنو قريظة .. وقالوا : يا رسول الله .. لقد شفع عندك عبد الله بن ابى .. فى يهود بنى قينقاع .. وهم حلفاء الخزرج .. فوهبتهم له .. وهؤلاء حلفاؤنا ومواليـنا .. فاحسن اليهم .. فقال

رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لهم : الا ترضون يا معشر الاوس .. ان يحكم فيهم رجل منكم ؟ .. قالوا : بلى .. قال : فــذاك الى سعد بن معاذ .. وسـعد سيد الاوس .. فاتى القوم سعدا .. وهو مريض يتطيب فى خيمة ــ رفيدة الاسلمية ــ بعد ان اصابه سـهم قطـع منه الشريان التاجى .. فى غزوة الأحزاب ــ كما قدمنا ــ

فحملوه على حمار .. فوق وسادة من ليف .. وكان وسيما جسـيما .. وهم يقولون له : يا أبا عمرو .. أحسن فى مواليك .. فان رسول الله انما اختارك لتحسن فيهم .. وهو ساكت .. فلما أكثروا عليه .. قال : لقد آن لسـعد الا تأخذه فى الله لومة لائم .. فلما سمعوا منه ذلك .. رجع بعضهم الى المدينة .. وقد فهموا من كلامه انه سيحكم ضد بنى قريظة .

وانتهى سـعد الى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم .. فقال ــ عليه السلام ــ للصحابة : « قوموا لسـيدكم » فلما انزلوه .. قالـوا : يا سعد .. ان رسـول الله .. قد ولاك أمر مواليك بنى قريظة .. لتحكم فيهم .

فقال سعد : عليكم بذلك عهد الله وميثاقه .. أن الحكم فيهم لما حكمت ؟ .. قالوا : نعم ..

قال : وعلى من ههنا ؟ .. مشيرا الى الناحية التى فيها رسول الله .. وهو معرض عن رسول الله ــ اجلالا له .. فقال رسول الله : نعم يا سعد .. فقـال : انى أحكم فيهم أن تقتل الرجال وتقسم الأموال .. وتسبى الذرارى والنساء .

فقال ــ عليه الصلاة والسلام ــ « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات » .

ثم استنزلوا من حصونهم .. فحبس النبى النسـاء والذرية .. فى دار بنت الحـارث .. وهى امراة من بنى النجار .. والأسرى فى دار أسامة بن زيد .

ثم بعث اليهم يأتون ارسالا .. وامر بضرب عنق كل من نبتت لحيته .. حتى أفناهم جميعا فى الخنادق .. ثم اهال عليهم التراب .

وكان عددهم بين ستمائة وسبعمائة .

وقد سال بعضهم سيدهم كعب بن اسـد .. قبـل قتله .. قالوا : يا كعب .. ما تراه يصنع بنا ؟ .. قال : فى كل موطن لا تعقلون ؟ .. الا ترون الداعى لا ينزع .. وانه من ذهب به منكم لا يرجع .. هو والله القتل .

وكان منهم ــ حيى بن أخطب ــ الذى بقى معهم فى حصونهم .. وفاء منه لكعب .. بعد أن اغراه بنقض عهد رسـول الله .. فلما اتوا به ــ مجموعة يداه الى عنقه .. وعليه حلة من الوشى .. قد شقها من كل ناحية .. حتى لا تسـلب .. لما نظر الى رسـول الله .. قال : اما والله ما لمت نفسى فى عداوتك .. ولكنه من يخذل الله يخذله .. ثم اقبل على الناس .

فقال : أيها الناس .. انه لا بأس بأمر الله .. كتاب وقـدر .. وملحمة كتبها الله على بنى اسرائيل .. ثم جلس .. فضربت عنقه .

ولم يقتل من المسلمين فى غزوة بنى قريظة .. غير خلاد بن سويد .. قتلته امراة من اليهـود .. بان القت عليه الرحى فقتلته .. وهى بنانة امراة الحكم القرظى .. طلب منها زوجها .. ان تفعل ذلك .. حتى لا تعيش بعده .. ويتزوجها غيره .. ولم يقتل من نساء بنى قريظـة غيرها .

تقول عنها ام المؤمنين ــ عائشة :

لم يقتل من نسائهم .. الا امراة واحدة .. قالت : والله انها لعندى تتحدث معى وتضحك ظهرا لبطن ــ ورسول الله صلى الله عليه وسلم ــ يقتل رجالهم بالسـوق .. اذ هتف هاتف باسـمها : أين فلانة .. قالت : انا والله .. قلت : ويلك مالك ؟ .. قالت : اقتل .. قلت : ولم ؟ .. قالت : حدث « أحدثته .. قالت .. فانطلق بها .. فضرب عنقها » .

وكانت عائشـة ــ رضى الله عنها تقول :

عجبا منها .. طيب نفس .. وكثرة ضـحك .. وقد عرفت انها ستقتل !!!

وأعجب من هذه المراة اليهودية .. موقف رجل من اليهود. اسمه - الزبير بن باطا القرظى .. كان له فضل على ثابت بن قيس .. فى الجاهلية .. اخذه يوم بعاث .. فجز ناصيته .. ثم خلى سبيله .. فاتى ثابت .. يوم بنى قريظة على الزبير .. وهو شيخ كبير .. وقال له : هل تعرفنى ؟ .. قال : وهل يجهل مثلى مثلك ؟ .. قال :

انى اريد ان اجزيك بفضلك القديم عندى .. قال : ان الكريم يجزى الكريم . ثم أتى ثابت بن قيس .. رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال :

يا رسول الله .. ان الزبير على فضلاً .. واحب ان اجزيه به .. فهب لى دمه ..

فقال رسول الله : هولك .. فأتاه فقال له : ان رسول الله قد وهب لى دمك .. فهو لك .. قال : شيخ كبير .. لا أهل له ولا ولد .. فما يصنع بالحياة ؟

فعاد ثابت الى رسول الله .. وقال : بابى انت وامى يا رسول الله .. هب لى امراته وولده .. قال : هم لك .. فاتاه وقال له : وهب لى رسول الله اهلك وولدك فهم لك .. فقال الزبير : اهل بيت فى الحجاز : لا مال لهم .. فما بقاؤهم على ذلك ؟

فاتى ثابت رسول الله .. فقال : يا رسول الله .. ما له ؟ قال : هولك .

ولما عاد ثابت الى الزبير بحقه فى ماله .. بعد أهله وعياله .. قال الزبير : أى ثابت .. ما فعل الذى كان وجهه مرآة صينية .. يتراءى فيها عذارى الحى .. كعب بن اسد ؟

قال : قتل .. قال : فما فعل سيد الحاضر والبادى - حيى بن اخطب ؟ .. قال : قتل .

قال : فما فعل قائدنا اذا شددنا .. وحامينا اذا فررنا .. عزال بن سموءل ؟ .. قال : قتل .

قال : فما فعل المجلسان ؟ .. يعنى بنى كعب بن قريظة .. وبنى عمرو بن قريظة .. قال : قتلوا .

قال : فانى اسألك يا ثابت - بيدى عندك .. الا الحقتنى اليوم بالقوم .. فوالله مافى العيش بعد هؤلاء من خير .. فما انا بصابر لله فتلة .. ولو ناضح (١) .. حتى القى الأحبة .

فقدمه ثابت .. فضرب عنقه .

ومن المنافسة بين الأوس والخزرج .. فى عمل الخير .. ان أبا رافع .. سلام بن ابى الحقيق النضرى .. كان ممن الب الأحزاب على رسول الله .. ولم يقتل مع بنى قريظة .. كما قتل صاحبه - حيى بن اخطب .. ولكنه هرب الى خيبر .. فرغبت الخزرج فى قتله .. مساواة للأوس فى قتلهم كعب بن الاشراف .. فابن ابى الحقيق .. هو الذى يساوى ابن الأشرف فى الشرف والمنزلة .. وذلك ليتساوى اجرهم عند الله ورسوله .. مع اجر الأوس .

فاستاذنت الخزرج رسول الله فى قتل ابن أبى الحقيق .. فاذن لهم .. فخرج له رجال من الخزرج مع اميرهم عبد الله بن عتيك .. ومعهم عبد الله بن انيس .. وابو قتادة وغيرهم .

فاتوه فى داره بخيبر ليلا .. فقتلوه .. وعاد كل منهم يدعى انه هو الذى قتله ..

فقال لهم - صلى الله عليه وسلم - أرونى سيوفكم .. فلما راها .. قال لسيف عبد الله ابن انيس - هذا الذى قتله - ارى فيه اثر الطعام .

وكان هذا الحادث فى رمضان من السنة السادسة .

وغنم المسلمون من بنى قريظة الفا وخمسمائة سيف .. وثلاثمائة درع .. والفى رمح وخمسمائة ترس وجحفة - نوع من التروس - ووجدوا عندهم اثاثا كثيرا .. وانية فاخرة .. وجمالا نواضح - اى يسقى عليها الماء - وشياها كثيرة .. فخمس ذلك مع النخل والسبى .. ثم قسم

---

(١) اى مقدار ما تخرج به الدلو من البئر .. والناضح : الجبل .

على الغانمين .. وكان عدد الأسهم ٣٠٧٢ سهما .. لان الرجال ثلاثة آلاف .. والخيل ست وثلاثون فرسا .. للفرس سهمان .. ولصاحبه سهم .

ثم بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سعد بن زيد الانصارى بسبايا من سبايا بنى قريظة الى نجد .. فباعها .. واشترى بثمنها خيلا وسلاحا .

واصطفى - صلى الله عليه وسلم - لنفسه منهم ريحانة بنت عمرو بن جنافة ..عرض عليها الزواج ويضرب عليها الحجاب .. ولكنها أبت الا اليهودية .. فعزلها .. وبينما هو فى اصحابه .. اذ سمع وقع نعلين خلفه .. فقال : ان هذا لثعلبة ابن سعيه .. يبشرنى باسلام ريحانة .. فجاءه فقال : يا رسول الله .. قد اسلمت ريحانه .. فسره ذلك من امرها .

وقد توفى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهى فى مكة .

وقد استجاب الله لسعد بن معاذ .. فلم يمت .. الا بعد هزيمة بنى قريظة .. فانفجر جرحه .. ومات شهيدا .

يقول ابن اسحاق .. عن معاذ بن رفاعة الزرقانى .. قال :

ان جبريل - عليه السلام - أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم .. حين قبض سعد بن معاذ .. فى جوف الليل .. معتجرا بعمامة من استبرق .. فقال يا محمد .. من هذا الميت الذى فتحت له أبواب السماء .. واهتز له العرش ؟.

قال : فقام رسول الله سريعا .. يجر ثوبه الى سعد .. فوجده قد مات ..

كما يقول بعضهم : كان سعد رجلا بدينا .. فلما حمله الناس .. وجدوا له خفة .. فقال رجل من المسلمين والله ان كان لبدينا .. وما حملنا من جنازة اخف منه .

فبلغ ذلك رسول الله فقال : ان له حملة غيركم .. والذى نفسى بيده .. لقد استبشرت الملائكة بروح سعد .. واهتز له العرش .

وروى عن أبى سعيد الخدرى .. قال :

كنت ممن حفر لسعد قبره .. فكان يلوح علينا المسك كلما حفرنا .

ودفن سعد - رضى الله عنه - ببقيع الفرقد وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : « كل نائحة تكذب الا نائحة سعد بن معاذ » .

وام سعد .. هى كبيشة بنت رافع .. وهى أول من بايع رسول الله من نساء الأنصار .

ونحن نعتب على بعض مؤرخى الغرب .. استفظاعهم لهذا القتل الجماعى لبنى قريظة .. فقد رأينا غدرهم وخيانتهم .. ونقضهم عهدهم للرسول والمسلمين .. وفى وقت زلزلت فيه الاركان - وطاشت الاحلام .. وزاغت الأبصار .. وبلغت القلوب الحناجر .. يوم الأحزاب .

فاستحقوا عدلا لا ظلما .. تنفيذ حكم الاسلام باعدامهم بتلك الصورة التى رأيناها .. وان الله لا يظلم مثقال ذرة .. فالفتنة أشد من القتل .. ومن قتل نفسا .. فكأنما قتل الناس جميعا ..

وأوجز الله تعالى النهاية .. فى غزوتى الأحزاب وبنى قريظة .. بقوله فى سورة الاحزاب :

«ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا .. وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا » .

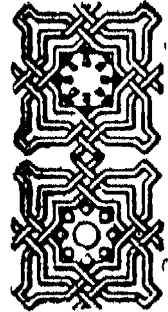
هذا عن يوم الأحزاب .

« وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب .. فريقا تقتلون وتأسرون فريقا * وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وارضا لم تطؤها وكان الله على كل شى قديرا » (١) .

وهذا عن بنى قريظة :

---

(١) ٢٥ - ٢٧ / الاحزاب .



على مشارف الحُدَيبية

ثم عاد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى المدينة وهو يقول : « آيبون تائبون .. عابدون لربنا حامدون .. اعوذ بالله من وعثاء السفر .. وكآبة المنقلب .. وسوء المنظر فى الأهل والمال » .

— ٤٦ —

على مشارف الحديبية

بغزوة بنى قريظة .. انتهى العام الخامس من الهجرة الشريفة .

وكان خروج النبى — صلى الله عليه وسلم — الى الحديبية .. فى أول ذى القعدة من العام السادس . ولكن حدثت امور قبل الحديبية .. منها : بعض البعوث والسرايا .. التى يجب أن نشير اليها .. كما حدث أمر عجيب أدى الى اسلام صحابيين جليليين .. وسيفين من سيوف الاسلام .. هما : عمرو بن العاص .. وخالد بن الوليد .

والعجيب فى هذا الأمر أن اسلام عمرو .. كان على يد نجاشى الحبشة .

ولهذا نستأذن .. لنسمع معا هذا الحدث .. من عمرو بن العاص نفسه .. يحكى لنا كيف اسلم .. **فيقول :**

« لما انصرفنا من الأحزاب عن الخندق .. جمعت رجالا من قريش .. كانوا يرون رأيى .. ويسمعون منى .. فقلت لهم : تعلمون والله انى ارى امر محمد يعلو الامور علوا منكرا .. وانى قد رايت امرا .. فما ترون فيه ؟ .. قالوا : وماذا رايت ؟ .. قلت رايت ان نلحق بالنجاشى .. فنكون عنده .. فان ظهر محمد على قومنا .. كنا عند النجاشى .. فانا ان نكون تحت يديه احب الينا من أن نكون تحت يدى محمد .. وان ظهر قومنا .. فنحن من قد عرفوا .. فلا ياتينا منهم الا خير .. قالوا : ان هذا هو الراى .

قلت فاجمعوا لنا ما نهديه له .. وكان احب ما يهدى اليه من أرضنا — الأدم — فجمعنا له ادما كثيرا .. ثم خرجنا حتى قدمنا عليه

فوالله انا لعنده .. اذ جاءه عمرو بن امية الضمرى .. وكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قد بعثه اليه — أى النجاشى — فى شان جعفر واصحابه .. فدخل عليه .. ثم خرج من عنده . فقلت لأصحابى : هذا عمرو بن امية الضمرى .. لو قد دخلت على النجاشى .. وسالته اياه فاعطانيه .. فضربت عنقه ..

فاذا فعلت ذلك .. رات قريش انى قد اجزات عنها .. حين قتلت رسول محمد .

فدخلت عليه .. فسجدت له ــ كما كنت اصنع ــ فقال : مرحبا بصديقى .. اهديت الى من بلادك شيئا ؟ .. قلت : نعم ايها الملك .. قد اهديت اليك ادما كثيرا .. ثم قربته اليه .. فاعجبه واشتهاه .. ثم قلت له : ايها الملك .. انى قد رايت رجلا خرج من عندك .. وهو رسول رجل عدو لنا .. فاعطنيه فاقتله .. فانه قد أصاب من اشرافنا وخيارنا .

فغضب النجاشى .. ثم مد يده فضرب بها انفه .. ضربة ظننت انه قد كسره .. فلو انشقت لى الارض .. لدخلت فيها فرقا منه .. ثم قلت له : أيها الملك .. والله لو ظننت انك تكره هذا .. ما سالتكه .

قال : اتسالنى ان اعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الاكبر .. الذى كان يأتى موسى لتقتله ؟ .

قلت : أيها الملك .. اكذاك هو ؟ .. قال : ويحك يا عمرو .. اطعنى واتبعه .. فانه والله لعلى الحق .. ليظهرن على من خالفه .. كما ظهر موسى على فرعون وجنوده .. قلت : افتبايعنى له على الاسلام ؟ قال : نعم .. فبسط يده .. فبايعته على الاسلام .

ثم خرجت الى اصحابى .. وقد حال رأيى عما كان عليه .. وكتمت عن اصحابى اسلامى . وخرجت عائدا .. الى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فلقيت خالد بن الوليد .. وذلك قبيل الفتح ــ بعد الحديبية ــ وهو مقبل من مكة .. فقلت : الى اين يا ابا سليمان ؟

قال : لقد استقام المنسم (١) .. وان الرجل لنبى .. اذهب والله فاسلم .. فمتى متى ؟ ..
قلت : والله ما جئت يا خالد الا لأسلم .

قال : فقدمنا المدينة .. على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم فتقدم خالد فأسلم وبايع .. ثم دنوت .. فقلت : يا رسول الله .. انى أبايعك على أن يغفر الله لى ما تقدم من ذنبى .. ولا اذكر ما تاخر .. فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يا عمرو بايع .. فان الاسلام يجب ما قبله .. وان الهجرة تجب ما كان قبلها .. فبايعته ثم انصرفت (٢) .

فكان هذا أمرا عجبا .. صحابى جليل .. اسلم على يد تابعى .

أما غزواته وسراياه ــ عليه السلام ــ فى العام السادس ــ قبل الحديبية ــ فاهمها ــ سريتان وغزوتان :

أولاها .. سرية ــ القرطاء ــ .

والقرطاء بطن من بطون بنى بكر بن كلاب .. يبعدون عن المدينة سبع ليال . ففى منتصف المحرم من السنة السادسة .. ارسل ــ صلى الله عليه وسلم ــ اليهم محمد بن مسلمة الانصارى .. فى ثلاثين راكبا .. وأمرهم أن يسيروا ليلا .. ويكمنوا نهارا .. ليباغتوهم .. ويغيروا عليهم .. ففعلوا وقتلوا منهم عشرة أو عشرين .. وهرب الباقون .. فغنموا منهم

مائة وخمسين بعيرا .. وثلاثة آلاف شاة .. وعادوا الى المدينة فى اخر المحرم .. وقد اسروا معهم ثمامة بن اثال الحنفى ــ سيد بنى حنيفة .

ولثمامة هذا موقف شجاع .. يجعله من فضلاء الصحابة .

فعن ابى هريرة قال : (٣)

ان خيلا لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أخذت رجلا .. ولا يشعرون من هو .. حتى أتوا به رسول الله ــ قال :

---

(١) الطريق .
(٢) ابن هشام .
(٣) ابن اسحاق .

« اتدرون من اخذتم : .. هذا ثمامة بن أثال » .

وامر بربطه فى سارية المسجد .. لينظر حسن صلاة المسلمين .. واجتماعهم عليها .. فيرق قلبه . فخرج اليه — عليه الصلاة والسلام — فقال : « ماذا عندك ياثمامة ؟ » قال : عندى خير يا محمد .. ان تقتل تقتل ذا دم — اى قريب — وان تنعم تنعم على شاكر .. وان كنت تريد المال .. فسل تعط منه ما شئت .

فتركه حتى كان الغد .. ثم قال له : « ما عندك يا ثمامة ؟ » .. قال : عندى ماقلت لك — ان تنعم على شاكر .. فتركه حتى كان بعد الغد .. فقال : « ما عندك يا ثمامة ؟ » .. قال : عندى ما قلت لك .. قال : « اطلقوا ثمامة » .

فانطلق الى نخل قريب من المسجد .. فاغتسل .. ثم دخل المسجد فقال : اشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله — ثم قال : والله يا رسول الله ما كان على وجه الارض ابغض الى من وجهك .. وقد اصبح وجهك احب الوجوه الى .. والله ما كان من دين ابغض الى من دينك .. فأصبح دينك احب الدين كله الى .. وان خيلك اخذتنى .. وانا اريد العمرة .. فماذا ترى ؟ .. فبشره النبى بخير الدنيا والآخرة .. وأمره أن يعتمر .. فلما قدم مكة يلبى .. وينفى الشرك عن الله .. قال له احدهم : صبوت ؟ .. قال : لا .. ولكنى اسلمت لله رب العالمين مع محمد رسول الله .. ولا والله لايأتيكم من اليمامة حبة حنطة .. حتى يأذن فيها النبى — صلى الله عليه وسلم — .

وكانت اليمامة — ديار ثمامة — ريف مكة .. فانصرف الى بلاده .. ومنع الحبوب من مكة .. حتى جهدوا .

قيل انه منع عن مكة الميرة من اليمامة .. حتى أكلت قريش « العلهز » (١) .

وكتبوا الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يسألونه بأرحامهم .. أن يكتب الى ثمامة .. ليرسل لهم الطعام .. ففعل رسول الله — رسول الرحمة — وطلب من ثمامة أن يرسل الميرة الى مكة .

صار ثمامة من فضلاء الصحابة ..

ولم يرتد مع من ارتد من أهل اليمامة .. بعد وفاة النبى — صلى الله عليه وسلم — مع مسيلمة الكذاب .. الذى ادعى النبوة .. فوقف ثمامة فقال : « بسم الله الرحمن الرحيم — حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم * غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب » .

ثم قال : فأين هذا من هذيان مسيلمة ؟ .

فأطاعه ثلاثة آلاف من قومه .. وانحازوا الى جيش المسلمين .

وبرغم انقضاء اكثر من عامين .. على مذبحة القراء فى بئر معونة .. بعد اغتيال أصحاب الرجيع : عاصم بن ثابت .. وخبيب وأصحابهما .. فى شهر صفر من السنة الرابعة .. الا أن قلب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ما زال يقطر اسى ووجدا من اجلهم .. لانهم — كما ذكرنا — لم يكونوا محاربين .. بل كانوا معلمين .. فقتلوا غدرا .. فأراد ان يقتص لهم من الكفرة .. اهل نجد .

فخرج بنفسه فى أول جمادى الأولى سنة ست (٢) .. فى مائتين من الصحابة .. ومعهم عشرون فرسا . واظهر انه يريد الشام .. حتى يأخذهم على غرة .. واستخلف على المدينة عبد الله بن ام مكتوم .

ولعلنا نلاحظ ان الرسول — عليه الصلاة والسلام — كان غالبا ما يستخلف على المسلمين عبد الله بن ام مكتوم .. مع انه اعمى .. مما يدل على ان الاهتمام بامامة المسلمين فى الصلاة — هو الركيزة فى الدين والدنيا معا .

---

(١) الوبر والدم .

(٢) يقول بعض الرواة : كانت فى ربيع الاول .

وسميت هذه الغزوة « غزوة بنى لحيان ».

فقد سلك رسول الله طريقا جبليا على طريق الشام .. واستقام به الطريق على المحجة من طريق مكة .. وأسرع السير حتى انتهى الى بطن غوان .. وهو واد من أوديتهم .. بين — امج وعسفان — حيث مصاب أصحابه — أهل الرجيع — فترحم عليهم .. ودعا لهم .. وسمع بنو لحيان بقدومه .. فهربوا منه فى شعاب الجبال .. فلم يقدر منهم على احد .. واقام بأرضهم يومين .. ثم قال : لو انا هبطنا عسفان .. لرأى أهل مكة انا قد جئنا مكة .. وسار بجنده الى عسفان .. فبعث عشرة فوارس الى كراع الغميم .. ليفزع بها قريشا.

ثم عاد — صلى الله عليه وسلم — الى المدينة .. وهو يقول :

« آيبون تائبون .. عابدون لربنا حامدون .. اعوذ بالله من وعثاء السفر .. وكآبة المنقلب .. وسوء المنظر .. فى الأهل والمال » .

وغاب فى هذه الغزوة .. اربع عشرة ليلة .

وبقى ان نشير الى غزوة « الغابة » أو « غزوة ذى قرد » .

وان كان صاحب — زاد المعاد — ذكر ان تلك الغزوة كانت بعد الحديبية .. ولكن اصحاب السير اثبتوا انها بعد قدومه من غزوة بنى لحيان بليال معدودة .

فقد اغار عيينة بن حصن الفزارى على عشرين لقحة (١) لرسول الله .. كانت ترعى بالغابة .. اغار عليها عيينة .. فى اربعين فارسا من بنى غطفان .. فاستاقوا اللقاح .. وقتلوا راعيها — وكان ابن أبى ذر الغفارى — واسروا امرأته .. فلما بلغ الخبر رسول الله .. نادى : يا خيل الله اركبى .. وركب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مقنعا فى الحديد .. فكان اول من قدم اليه المقداد بن عمرو .. فى الدرع والمغفر .. فعقد له رسول الله اللواء فى رمحه .. وقال له : امض حتى تلحق بالخيول .. وانا فى أثرك .. فخرج معه بعض الصحابة

.. وادرك سلمة بن الأكوع القوم .. وهو على رجليه .. فجعل يرميهم بالنبل .. وهو يقول: « خذها وأنا ابن الأكوع .. واليوم يوم الرضع » .. حتى انتهى بهم الى ذى قود .. وقد استنقذ منهم جميع اللقاح وثلاثين بردة (٢) .

يقول ابن هشام : كان أول من نذر بهم سلمة بن الأكوع الأسلمى .. غدا يريد الغابة .. متوشحا قوسه ونبله .. ومعه غلام على فرسه يقوده .. حتى اذا علا ثنية الوداع .. نظر الى خيولهم .. فأشرف من ناحية سلع .. ثم صرخ — واصباحاه — ثم خرج يشتد فى آثار القوم .. وكان مثل السبع .. حتى لحق بالقوم .. فجعل يرميهم بالنبل ويقول اذا رمى : خذها وأنا ابن الأكوع .. فاذا وجهت الخيول نحوه انطلق هاربا .. ثم عارضهم .. فاذا أمكنه الرمى رمى .. ثم قال خذها وأنا ابن الأكوع .

وخرج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى أثرهم .. ومعه خمسمائة .. واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم كعادته .. وخلف سعد بن عبادة فى ثلاثمائة رجل يحرسون المدينة .

قال سلمة : فلحقنا رسول الله والخيل عشاء

ومازالت الخيل تأتى .. والرجال على اقدامهم وعلى الابل .. حتى انتهوا الى رسول الله بذى قرد .. طريق خيبر .. واقام بها يوما وليلة .

ويقول بعض الرواة : ان المسلمين استخلصوا عشر لقاح .. وافلت القوم بعشر .

ولكن لفظ مسلم فى صحيحه عن سلمة :

« حتى ما خلق الله من شىء من لقاح رسول الله .. الا خلفته وراء ظهرى .. واستلبت منهم ثلاثين بردة » .

ثم عاد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الى المدينة .. بعد أن غاب عنها خمسة أيام .. وصلى بذى قرد صلاة الخوف ،

وقد هربت زوجة ابن ابى ذر من أسرهم على ناقة من نوق رسول الله ليلا .. على حين غفلة منهم .. فلما قدمت المدينة قالت : يا رسول

---

(١) اللقحة : هى ذوات اللبن القريبة العهد من الولادة .

(٢) البريد : البغلة المرتبة فى الرباط .

الله .. انى نذرت لله تعالى .. ان انحرها ان نجانى الله عليها .. فقال — عليه الصلاة والسلام — :

« بئسما جزيتها .. ان حملك الله عليها ونجاك ان تنحريها !! انه لا نذر لأحد فى معصية .. ولا لأحد فيما لا يملك » .

واما السرية الثانية .. فهى سرية زيد بن حارثة الى ((العيص)) .

فقد بلغه — عليه السلام — ان عيرا قد اقبلت من الشام .. فبعث زيد بن حارثة فى سبعين راكبا .. فادركها واخذها بما فيها من فضة واموال .. واسر ناسا منهم : ابو العاص بن الربيع .. زوج زينب بنت رسول الله .. التى هاجرت الى مكة وحدها . وتركته على شركه .

وكان من بين الأسرى ايضا ام هالة بنت خويلد .. اخت خديجة — رضى الله عنها ..

وكان ابو العاص تاجرا امينا .. خرج بتجارة قريش الى الشام .. فلما وقع فى أسر سرية رسول الله .. افلت منها .. وذهب الى زينب بنت رسول الله فى المدينة .. فاستجار بها .. وسألها ان تطلب من ابيها رد ماله عليه .. وما كان معه من أموال الناس .. فقال لها — عليه السلام .. « اكرمى مثواه .. ولا يخلص اليك .. فانك لا تحلين له » .

ودعا رسول الله السرية .. فقال :

« ان هذا الرجل منا حيث قد علمتم .. وقد أصبتم له ولغيره مالا .. وهو فىء الله الذى افاء عليكم .. فان رايتم أن تردوه فافعلوا .. وان كرهتم فانتم وحقكم » .

فقالوا : بل نرده عليه يا رسول الله .

فردوا عليه ما اصابوا .. حتى ان الرجل ليأتى بالشن (١) .. والرجل يأتى بالاداوة (٢) .. والرجل بالحبل .. فما تركوا قليلا ولا كثيرا اصابوه .. الا ردوه .

ثم خرج ابو العاص حتى قدم مكة .. فادى الى الناس بضائعهم .. حتى اذا فرغ .. قال : **يا معشر قريش .. هل لاحد منكم** عندى مال لم اردده عليه ؟ .. **قالوا : لا ..**

فجزاك الله خيرا .. قد وجدناك وفيا كريما ..

قال : والله ما منعنى أن أسلم قبل أن اقدم عليكم .. الا ان تظنوا انى اسلمت لأذهب بأموالكم .. فانى اشهد ان لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله .

وعاد **الى المدينة مسلما مهاجرا ..** فرد عليه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — زوجته زينب .. وكان — عليه الصلاة والسلام — يصلى وهو حامل امامه بنت زينب من ابى العاص .

وقد ذكر موسى بن عقبة ان قصة ابى العاص هذه .. كانت بعد هدنة الحديبية .. ولكن الأصح ما ذكرناه .. وهو ما ذكره رجال السيرة .. لانه بعد هدنة الحديبية لم تتعرض سرايا رسول الله لقريش .

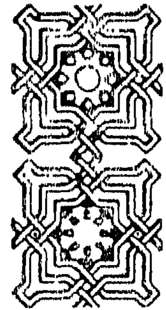
ولهذا زعم موسى بن عقبة .. ان الذى اخذ اموال قريش هو ابو بصير وصحبه .. الذين اسلموا بعد الحديبية .. واقاموا بساحل البحر .. تنفيذا لشروط الحديبية .

فما هى هدنة الحديبية .. وما هى شروطها ؟

---

(١) الشن : القربة القيمة .

(٢) الاداوة : اداة الطهارة .



هدنة الحديبية

وكان المغيرة بن شعبة واقفا خلف النبى ومعه السيف .. فكلما أهوى عروة الى لحية النبى – وهو يحدثه – ضرب المغيرة يده بنعل السيف وهو يقول : اخر يدك عن لحية رسول الله .. فرفع عروة رأسه وقال : ويحك ما أفظك وما أغلظك ! .. فتبسم رسول الله .. فقال عروة : من هذا يا محمد ؟ قال : ((هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة)) .

— ٤٧ —
هدنة الحديبية

مقام صلح الحديبية يدعونا الى الأناة قليلا .. عسانا نستشف ما فيها من عبر وآيات .. وحكم وعظات .. ففيها الحكمة والسياسة .. وفيها التروى وبعد النظر .. فكانت مقدمة لفتح مكة .. وفتح مكة هو الفتح الأكبر للاسلام .. الذى أشار اليه القرآن الكريم .. فى قوله تعالى :

(اذا جاء نصر الله والفتح) .

وقال ابن عباس .. وأنس .. والبراء بن عازب : ان المقصود بالفتح .. فى سورة الفتح : (انا فتحنا لك فتحا مبينا) الى آخر الآيات هو فتح الحديبية .. ووقوع الصلح .

فقد مضت ست سنوات .. لم يزر فيهسا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مكة .. ولم يعتمر .. ولم يحج .. وهى احب بلاد الله الى قلبه .. فاشتاق اليها .. وحن لها حنين الرضيع الى ثدى أمه .. بعد أن غابت عنه يوما أو بعض يوم .

فأراه الله فى منامه .. أنه دخل البيت هو واصحابه .. آمنين .. محلقين رءوسهم ومقصرين . فنادى فى المدينة وما حولها .. انه يريد زيارة البيت الحرام بمكة معتمرا .. لا يريد حربا .

وخرج يوم الاثنين .. هلال ذى القعدة سنة ست من الهجرة الشريفة .. وخرج معه الأنصار والمهاجرون .. ومن اسلم من عرب الباديه .. ومن حول المدينة من الأعراب .. يسوقون البدن للهدى عند البيت (١) .

وبلغ عددهم ألفا وخمسمائة فى أغلب الاراء ..بخلاف ما رواه ابن اسحاق من ان البدن كانت سبعين .. وأن الناس كانوا سبعمائة.. فكانت كل بدنة عن عشرة نفر .. فاذا صح هذا الخبر .. يكون ذلك عددهم عند خروجهم من المدينة .. قبل ان ينضم اليهم عرب الباديه.. واعراب المدينة .. ومن تخلف لبعض شانه ..

فقد ثبت فى الصحيحين عن انس : ان النبى — صلى الله عليه وسلم — اعتمر أربع عمر .. كلهن فى ذى القعدة .. فذكر منها عمرة الحديبية .. وكان معه ألف وخمسمائة .. وهكذا فى

(١) البدن : النوق والبقر التى تسمن للذبح بمكة .

الصحيحين عن جابر .

كما قال قتادة : قلت لسعيد بن المسيب : كم كانوا الجماعة الذين شهدوا بيعة الرضوان ؟ .. قال : خمس عشرة مائة .. قال : قلت : فان جابر بن عبد الله قال : كانوا اربع عشرة مائة .. وكانت بيعة الرضوان فى الحديبية .

فلما وصلوا الى ذى الحليفة .. صلى – عليه السلام – بمسجدها ركعتين .. واحرم بالعمرة ليأمن الناس حربه .. وليعلموا ان خروجه لزيارة البيت تعظيما له .. وليس معهم من السلاح الا سلاح المسافر – السيوف فى قربها .. وكانت معه زوجته أم سلمة – رضى الله عنها – واستعمل على المدينة ابن ام مكتوم للصلاة .. كما استخلف ابارهم لحراسة المدينة .

وانفرد ابن اسحاق بقوله : انه استعمل على المدينة – نميلة بن عبد الله الليثى – وركب – عليه الصلاة والسلام – ناقته القصواء .. ووصل باصحابه الى عسفان .. وعسفان مكان بين الجحفة ومكة .. وهى حدود تهامة .. على مرحلتين من مكة .

وهناك لقيه – عليه السلام – بشر بن سفيان الكعبى – وكان – عليه الصلاة والسلام – قد بعثه عينا له .. ليأتيه بخبر قريش .

فقال له : يا رسول الله .. هذه قريش .. قد سمعوا بمسيرك .. فخرجوا ومعهم العوذ المطافيل (١) .. قد لبسوا جلود النمور .. وقد نزلوا بذى طوى .. يحلفون لا تدخل عليهم ابدا .. كما اخبره ان خالد بن الوليد فى خيلهم (٢) .. قد قدموا الى كراع الغميم – وهو موضع قريب من مكة – ثم قال : انى تركتهم وقد جمعوا لك الأجابيش .. وجمعوا لك جموعا .

فقال – صلى الله عليه وسلم – « ياويح قريش .. قد اكلتهم الحرب .. ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب .. فان هم اصابونى .. كان ذلك الذى ارادوا .. وان اظهرنى الله عليهم دخلوا فى الاسلام .. وان لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة .. فما تظن قريش ؟ .. فوالله لا ازال اجاهدهم على الذى بعثنى به الله .. حتى يظهره الله .. او تنفرد هذه السالفة (٣) ولينفذن الله امره » .

واستشار النبى اصحابه قال : « اترون ان نميل الى ذرارى هؤلاء الذين اعانوهم ؟ .. أم ترون ان نؤم هذا البيت .. فمن صدنا عنه قاتلناه ؟ » .

فقال ابو بكر : « الله ورسوله اعلم .. انما جئنا معتمرين .. ولم نجيء لقتال احد .. ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه . قال « فارحلوا » .

ونستشف هنا ان الاستشارة كانت هى اول عمل يقوم به رسول الله .. فى كل اموره .. ثم قال : « من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم » ؟

فقال حمزة بن عمرو الاسلمى : انا يا رسول الله .. فسلك بهم طريقا وعرا .. خرجوا منه بعد ان شق عليهم .. وقال لهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – « قولوا نستغفر الله ونتوب اليه » فقالوها .. فقال « والله انها للحطة التى عرضت على بنى اسرائيل فلم يقولوها » .

يقصد قول الله تعالى لبنى اسرائيل « وقولوا حطة » اى اغفر لنا .. وحط عنا ذنوبنا .

وعلم خالد بميل المسلمين عن الطريق .. وقيل : كان معه من الفرسان مائتان .. منهم عكرمة بن ابى جهل .. فاسرع خالد الى قومه ليخبرهم .

ووصل المسلمون بعد ان استقام معهم الطريق الى الثنية – مهبط الحديبية من اسفل مكة .. فبركت القصواء .. فقال الناس :

(١) العوذ : النوق ذوات اللبن .. والمطافيل : النوق خلفها اطفالها .. اى بنية الاقامة .
(٢) كان اسلام خالد بعد الحديبية – كما ذكرنا .
(٣) السالفة : صفحة العنق .

خلأت القصواء — أى بركت من غير علة — فقال — صلى الله عليه وسلم — « ما خلأت القصواء .. وماذاك خلقها .. ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة .. والذى نفسى بيده .. لا يسالونى خطة يعظمون فيها حرمات الله الا اعطيتهم اياها » ثم زجرناقته .. فوثبت به .. فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية .. فنزل على ثمد — اى مكان قليل الماء —

والحكمة ظاهرة فى حبس الناقة عند الثنية..

حبسها الله عن دخول مكة .. كما حبس الفيل من دخولها .. لان الصحابة لو دخلوها .. وصدتهم قريش .. لوقع بينهم القتال وسفك الدماء .. ولكن سبق فى علم الله انهم سيدخلون فى الاسلام افواجا .. وسيخرج من اصلابهم مسلمون مجاهدون .. ولهذا لما رأى — عليه الصلاة والسلام — حبس الناقة قال : (والذى نفسى بيده .. لا يسالونى خطة يعظمون فيها حرمات الله .. الا اعطيتهم اياها » .

والحديبية اسم بئر .. سميت القرية باسمها .. وهى قرية متوسطة الحجم ..بينها وبين مكة مرحلة (١) .. وبينها وبين المدينة تسع مراحل .. بعضها فى الحل وبعضها فى الحرم .

وشكا المسلمون لرسول الله قلة الماء ..بعد ان نزحوا ما فى البئر .. وكان عددهم كبيرا .. فاشتد بهم العطش .. فاخرج — عليه الصلاة والسلام — سهما من كنانته .. أعطاه أحدا اصحابه وطلب منه ان يجعله فى البئر .

يقول راوى الحديث : « فوالله مازال يجيش بالرى حتى صدروا عنه » .

وفى رواية اخرى : « فجاش بالرواء حتى ضرب الناس عنه بعطن » .

اى حتى رووا .. ورويت ابلهم .. حتى بركت حول الماء .. لأن عطن الابل مباركها

وقد تكررت معجزة الماء فى الحديبية مرة اخرى .

ففى البخارى ومسلم .. من حديث جابر .. قال : « عطش الناس يوم الحديبية .. وبين يدى رسول الله ركوة يتوضأ منها .. فاقبل الناس نحوه .. فقال : « ما بالكم » ؟ قالوا : يا رسول الله ما عندنا ماء نتوضأ به ولا نشرب .. الا فى ركوتك .. فوضع يده فى الركوة .. فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون .. فشربنا وتوضأنا .

وقال جابر بن حيان : ان قصة الركوة كانت قبل قصة البئر .

فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم — جاءه رجال من خزاعة .. على راسهم بديل ابن ووقاء الخزاعى .. فسألوه عما جاء به .. فأخبرهم انه لم يأت يريد حربا .. وانما جاء زائرا البيت .. معظما لحرمته .. ثم قال لهم مثل ما قال لبشر بن سفيان .. ليتركوا ما بينه وبين العرب . وكانت خزاعة ناصحة لرسول الله — مسلمها ومشركها .. ولا يخفون عنه شيئا كان بمكة .. فعادوا الى قريش .. فقالوا : يا معشر قريش .. انكم تعجلون على محمد .. ان محمدا لم يأت لقتال .. وانما جاء زائرا هذا البيت .. فاتهموهم وقابلوهم بما يكرهون .. وقالوا : ان كان لا يريد قتالا .. فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبدا .. ويتحدث بذلك عنا العرب .

ثم بعثوا اليه مكرز بن حفص .. — أخا بنى عامر — فلما رآه — صلى الله عليه وسلم — مقبلا قال : « هذا رجل غادر » فلما انتهى الى رسول الله — وكلمه فى الأمر .. قال له كما قال لبديل الخزاعى .. فرجع الى قريش واخبرهم بما قال رسول الله .. فبعثوا اليه الحليس بن علقمه .. وهو

---

(١) المرحلة : تسعة اميال تقريبا .

سيد الأحابيش (١) .. فلما رآه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « ان هذا من قوم يتألهون » اى يعظمون الالهة .. « فابعثوا الهدى فى وجهه حتى يراه » .

فلما راى الهدى يسيل عليه من عرض الوادى فى قلائده .. وقد أكل أوباره من طول حبسه عن موضعه من الحرم الذى ينحر فيه .. رجع الى قريش .. ولم يصـــل الى رسول الله .. اعظاما لما راى .. فقال لهم ذلك .. فقالوا له : اجلس .. فانما أنت أعرابى .. لا علم لك .. فغضب الحليس وقال : يا معشر قريش — والله ما على هذا حالفناكم ولا عاقدناكم أيصـد عن بيت الله من جـاء معظما له .. والذى نفسى الحليس بيده لتخلن بين محمد **وبين ما جاء له** .. او لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحـد .. فقالوا له : مه .. كف عنا يا حليس .. حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به .

وكان فى المجلس عروة بن مسعود الثقفى — سـيد ثقيف — فقال : يا معشر قريش .. انى قد رايت ما يلقى منكم من بعثتموه الى محمد من التعنيف وســوء اللفظ .. وقد سمعت بالذى اصابكم .. فجمعت من أطاعنى من قومى .. ثم جئتكم .. حتى آســيتكم بنفسى .. قالوا : صــدقت .. ما أنت عنـدنا بمتهم .

فخرج حتى أتى رسـول الله — صلى الله عليه وسـلم — فجلس بين يديه .. ثم قال : يا محمد .. اجمعت أوشـاب العـرب .. ثم جئت بهم الى بيضتك (٢) .. لتفضها بهم لا .. انها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل .. قد لبســوا جلود النمور .. يعاهـدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبدا .. وأيم الله لكأنى بهؤلاء — يشير الى المسلمين قد انكشفوا عنك غدا — اى تركوك — وكان ابو بكر بجانب رسول الله .. فقال ابو بكر : « امصص بظر اللات (٣) .. انحن ننكشـــف ونتركه ؟ » .. وحقـــره أبو بكر — رضى الله عنه — وحقر معبوده بتلك العبارة .

فقال : من هذا يامحمد ؟.. قال «ابو بكر» .. قال : اما والذى نفسى بيـــده .. لولايد لك عندى يا أبا بكر لم أجزك بها .. لأجبتك (٤)

وجعل عروة يحدث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وكلما حادثه — اخذ بلحيته .. وتلك عادة النظراء من العرب عندما يتحدثون .. وكان المغيره بن شعبة واقفا خلف النبى .. ومعه السيف .. فكلما اهوى عروة الى لحيـة النبى .. ضرب يده بنعل السيف وهو يقول : اخـر يدك عن لحية رسول الله .. فرفع عروة رأسه .. وقال : ويحـــك — ما افظك واغلظك !! فتبسم رسول الله .. فقال له عروة : من هذا يا محمد ؟ قال : هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة .. قال : اى غدر .. وهـل غسلت سوءتك الا بالأمس ؟ .

أراد عروة بقوله هذا عن المغيرة : أن المغيرة قتل ثلاثة عشر من بنى مالك من ثقيف قبـل اسلامه .. فأدى عنه عروة ديتهم .

واخبر رسول الله — عليه الصلاة والسلام — عروة انه لا يريد حـربا .. ولكنـه يريد الزيارة والعمرة ، وقد بهر عروة ما راى من تقـديس الصحابة لرسول الله .. وشدة ارتباطهم به.. فعاد الى قريش — فقال : يا معشر قريش .. انى قد جئت كسرى فى ملكه .. وقيصر فى ملكه .. والنجـاشى فى ملكه .. وانى والله ما رأيت ملكا يعظمه اصحابه .. ما يعظم اصحاب محمد

(١) الأحابيش . حلفاء قريش .. وهم بنو المصطلق .. وبنو الهون من خزيمة .

(٢) الاوشاب . الاخلاط . والبيضة : الاصل والعشيرة .

(٣) البظر . ما قطع أو ما بقى عند ختان البنت ..واللات : صنم ثقيف .

(٤) كان ابو بكر اعانه فى دية عليه .

محمدا .. اذا ابتدرهم ابتدروا امره .. واذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه .. واذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده .. ولا يحددون اليه النظر تعظيما له .. وقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها .

ثم بعثت قريش اربعين رجلا منهم .. يطيفون بعسكر المسلمين .. فرموا فى المعسكر بالحجارة والنبل .. فاخذوا اخذا .. فاتى بهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فعفا عنهم .. وخلى سبيلهم .

وذكر ابن هشام : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — دعا خراش بن امية الخزاعى .. فبعثه الى قريش بمكة .. وحمله على بعير له .. يقال له : الثعلب .. ليبلغ اشرافهم عنه ما جاء له .. فلما جاءهم عقروا جمل رسول الله .. وهموا بقتل خراش .. فمنعته الاحابيش .. وخلوا سبيله .. فعاد الى رسول الله بما حصل منهم .

ثم دعا عمر بن الخطاب .. ليبعثه الى مكة .. فيبلغ عنه اشراف قريش ما جاء له .. فقال عمر : يا رسول الله .. ليس بمكة احد من بنى كعب .. يغضب لى ان أوذيت .. وقد عرفت قريش عداوتى اياها .. وغلظتى عليها .. ولكنى ادلك على أعز بها منى — عثمان بن عفان — فان عشيرته بها .. وانه مبلغ ما اردت .

فدعا عثمان وارسله الى قريش .. وقال اخبرهم انا لم نات لقتال .. وانما جئنا عمارا .. وادعهم الى الاسلام .. وأمره أن يأتى رجالا مؤمنين .. ونساء مؤمنات .. ويبشرهم بالفتح ويخبرهم بان الله — عز وجل — مظهر دينه بمكة .. حتى لا يستخفى فيها بالايمان .

فانطلق عثمان — رضى الله عنه — فمر على بعض قريش — ببلدح .. فقالوا : اين تريد ؟.. قال : بعثنى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ادعوكم الى الله والى الاسلام — ونخبركم أنا لم نات لقتال .. وانما جئنا عمارا .. فقالوا : سمعنا .. فانفذ لحاجتك .. وقام اليه ابان بن سعيد ابن العاص .. فرحب به .. واسرج فرسه .. وحمله عليه .. وأجاره حتى جاء مكة .

وابان بن سعد .. هو ابن عم عثمان .. وقد اسلم فيما بعد .

وانطلق عثمان الى ابى سفيان وعظماء قريش .. فبلغهم رسالة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقالوا له .. حين فرغ من رسالته .. ان شئت فطف بالبيت .. فقال : ما كنت لافعل .. حتى يطوف به رسول الله .

واحتبسته قريش عندها بمكة اياما .. او هو الذى ابطأ فى العودة الى الحديبية .

وسرى خبر بين المسلمين ان قريشا قتلت عثمان بن عفان .. فلما بلغ ذلك الخبر رسول الله .. قال : « لا نبرح حتى نناجز القوم » اى نحاربهم .

ودعا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الى البيعة تحت شجرة الرضوان .. تلك الشجرة التى ذكرت فى قوله تعالى : (لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فانزل السكينة عليهم واثابهم فتحا قريبا) (١) .. وهى شجرة طلح فى هذا المكان .

نادى عمر بن الخطاب فى الناس .. لمبايعة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — تحت الشجرة على عدم الفرار .. اما الفتح واما الشهادة .. فلم يتخلف احد من المسلمين .. الا الجد بن قيس .. اخو بنى سلمة .. فكان جابر بن عبد الله يقول :

« والله لكانى انظر اليه — يقصد الجد بن قيس .. لاصقا بابط ناقته يستتر بها من الناس » وقيل : كان الجد يرمى بالنفاق .

وكان معقل بن يسار .. آخذا بغصن الشجرة .. يرفعه عن رسول الله .

واول من بايع من المسلمين رسول الله ..ابو سنان الأسدى .. وبايعه سلمه بن الاكوع ..

---

(١) ١٨ — الفتح .

ثلاث مرات .. فى أول الناس .. وأوسطهم .. وأخرهم .. ووضع رسول الله شماله فى يمينه وقال :

« اللهم هـذه عن عثمـان فانه فى حاجتك وحاجة رسولك » .

ولعل فى هـذا اشارة منه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بأن عثمان لم يقتـل .. وانمـا بايع تمشيا مع ظاهر الاشـاعة .. وتجـديدا لروح المسلمين .. وتثبيتا لهم .. وقد بايع عثمـان بعد عودته من مكة .

وقبل ان نغادر تلك الشجرة المباركة ..التى تفيأنا ظلالها لحظات مع رسـول الله والمؤمنين معه .. نطوى الزمن الى خلافة عمر بن الخطاب .. حيث بلغه أن الناس يتزاحمون للصـلاة تحت شجرة الرضوان .. ويطوفون حولها .. فخاف ـ رضى الله عنه ـ من اتسـاع الأمر .. فتكون بدعة .. وتعبـد كالأصـنام .. فأمر بقطعها .

وبعد البيعة حضر عثمان بن عفان .. فقال له المسلمون : اشتفيت يا ابا عبد الله من الطواف بالبيت ؟ .. وكان المسلمون قالوا .. قبـل أن تسرى شائعة قتله : خلص عثمـان قبلنا الى البيت وطاف به .. فقـال لهم رسـول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« ان عثمان لايطوف بالكعبـة حتى نطوف معـه .. ما اظنـه طـاف بالبيت .. ونحـن محصورون » .

فلما حضر عثمان .. وقالوا له ما قالوا .. قال لهم : بئس مـا ظننتم بى .. والذى نفسى بيده .. لو مكثت بها سـنة .. ورسـول الله مقيم بالحديبية .. ما طفت بها حتى يطـوف بها رسول الله ..ولقد دعتنى قريش الى الطواف بالبيت .. فأبيت .. فقال المسلمون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان أعلمنا بالله .. واحسننا ظنا .

ولما علمت قريش بالبيعة خافوا .. واشـار اهل الراى فيهم بالصلح .. على ان يرجع هـذا العام .. ويعود فى العام القابل .. فيقيم بمكة ثلاثة أيام .. وليس معه الا سلاح المسـافر ـ السيوف فى قربها ـ

وبعثوا الى الرسـول سـهيل بن عمرو ـ اخابنى عامر بن لؤى ـ للصـلح .. واشترطوا عليه الا يقبل فى صلحه الا ان يرجع عنهم عامة هذا .. لا يتحدث العرب أنه دخل مكة عنوة .

فلما رأى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سهيلا مقبلا .. قال : « قد سهل لكم من امركم » واتتهى سهيل بن عمرو الى رسول الله ـ صـلى الله عليه وسلم .. وتكلم فأطال الكلام .. وأملى شروطه للصلح .. ورسول الله يراجعه فيها .. ثم يوافقـه .. ثم تم الاتفـاق .. على شروط الصلح .. ولم يبق الا الكتاب .

وأوجزها فى خمسة شروط :

الأول : وضع الحرب بينهم عشر سـنين .. وان يأمن الناس بعضهم من بعض .

والثانى : أن يرجع عنهم عامهم ذلك .. حتى اذا كان العـام المقبل .. قـدم بالمسـلمين .. فاقاموا بمكة ثلاثة أيام .. لا سـلاح معهم الا السيوف فى القرب .

والثالث : من أتى مرتدا من أصحاب محمـد الى مكة لا يردوه .. ومن أتاه مسلما من مـكة رده عليهم .

فقـال المسـلمون : يا رسـول الله نعطيهم هذا ؟ .. فقال : « من أتاهم منا فأبعده الله .. ومن أتانا منهم فرددناه اليهم .. جعـل الله له فرجا ومخرجا » .

والرابع : وكان من نصوص تلك المصـالحة « وأ نبيننـا عيبة مكفـوفة .. وانه لا اسـلال ولا اغلال » « والعيبة المكفوفة » : الأمور المطوية فى صدور سليمة .. اشارة الى نسيان الماضى من أسباب الحرب . « ولا أسلال ولا أغلال » يعنى لا سرقة ولا خيانة .

خامسا : انه من احب من القبائل أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخـل فيه .. ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه .

وتواثبت خزاعة .. وقالوا : نحن فى عقد محمد وعهده .

وتواثبت بنو بكر .. فقالوا : نحن فى عقد قريش وعهدهم .

وظاهــر أن بعض الشروط مجحف بحق المسلمين..واشدها اجحافا ــ الشرط الثالث ــ فحز ذلك فى نفس عمر ــ رضى الله عنه ــ فلم يملك نفسه أن وثب الى أبى بكر .. فقال : يا أبا بكر .. اليس هو برسول الله ؟ .. قال : بلى .. قال : اولسنا بالمسلمين ؟ .. قال : بلى .. قال : أوليسوا بالمشركين ؟ .. قال : بلى .. قال : أولسنا على الحق .. وهم على الباطل ؟ .. قال : بلى .. قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ .. والدنية : هى الخصلة المذمومة .

فقال أبو بكر : يا عمر الزم غرزه .. فانى اشهد انه رسول الله . أى اتبع خطاه .. واطع امره . فقال عمر : وانا أشهد انه رسول الله .

ثم اتى رسول الله ..فقال : يا رسول الله .. الست برسول الله ؟ قال : بلى .. قال : أولسنا بالمسلمين ؟ .. قال : بلى .. قال : أوليسوا بالمشركين ؟ .. قال : بلى .. قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ .

قال : يا عمر .. أنا عبد الله ورسوله .. ولن يضيعنى .

فكان عمر يقــول : والله مازلت اتصدق واصوم وأصلى وأعتق من الذى صنعت يومئذ .. مخافة كلامى الذى تكلمت به .. حتى رجوت أن يكون خيرا .

ثم دعا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ على بن أبى طالب .. ليكتب .. فقال :

اكتب .. بسم الله الرحمن الرحيم .

فقال سـهيل : أما الرحمن فوالله ما ندرى ما هو ؟ .. ولكن اكتب باسمك اللهم ــ كما نكتب ــ فقال النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ : **اكتب باسمك اللهم** .. ثم قال : اكتب هــذا ما قاضى عليه محمد رسول الله .. فقال سهيل : فوالله لو كنا نعلم انك رسول الله ما صددناك فقال النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ انى رسول الله .. وان كذبتمونى .

فقال سهيل : اكتب اسمك واسم ابيك .

فقال النبى : اكتب هــذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله

وتتابعت شروط المصالحة ــ على ماذكرنا ــ حتى بلغــوا الشرط الثالث .. برد من يأتى مسلما من مكة اليها .

وشـاء الله أن يبلغ اختبار صـبر المسلمين فى هذا الموقف ذروته .

فاذا بهم يفجاون بابى جندل بن سهيل .. وابوه يكتب المصالحة مع رسول الله .. يرسف فى قيوده .. وقد خـرج من اسفل مكة هاربا باسلامه ..حتى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين .. فلما راه أبوه .. **قال :** هذا يا محمد اول ما اقاضيك عليه .. على ان ترده .

فقال ــ عليه الصلاة والسلام ــ انا لم نقض الكتاب بعد .. فقال ! فوالله اذا لا اقاضيك على شىء أبدا .. فقال ابو جندل : يا معشر المسلمين .. ارد الى المشركين .. وقد جئت مسلما .. الا ترون ما لقيت ؟ .. وكان قد عذب فى الله عذابا شـديدا .

فقام سهيل .. فضرب وجه ابنه .. واخذ بتلابيبه .. ثم قال :

يا محمد .. قد تمت القضـية بينى وبينك .. قبل ان يأتيك هذا .. قال : صدقت . فجعل سهيل يجذبه ليرده الى مكة .. وجعل ابو جنــدل يصرخ باعلى صــوته : يا معشر المســلمين . ارد الى المشركين يفتننوننى فى دينى ؟ .. وزاد ذلك المسلمين غما رخزنا .

لقد خرجوا مع رسـول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهم لا يشكون فى الفتح .. لرؤيا رآها رســول الله .. فلما راوا ما راوا من الصـلح والرجوع .. **وما تحمل رسول الله فى**

نفسه .. دخل على الناس من ذلك أمر عظيم .. حتى كادوا يهلكون .

فنظر رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الى ابى جندل .. وقال : يا ابا جندل اصبر واحتسب ــ فان الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا .. انا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا .. واعطيناهم على ذلك واعطونا عهد الله .. وانا لا نغدر بهم .

فوثب عمر مع ابى جندل .. يمشى الى جنبه .. ويقول : اصبر يا ابا جندل .. فانما هم المشركون .. وانما دم احدهم دم كلب .. وهو يدنى قائم السيف منه .

يقول عمر ــ رضى الله عنه ــ : رجوت أن ياخذ السيف فيضرب به اباه .. فضن الرجل بابيه .. ونفذت القضية .

ولما فرغ رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ من الكتاب .. اشهد عليه رجالا هم : ابو بكر الصديق .. وعمر بن الخطاب ــ وعبد الرحمن بن عوف .. وعبد الله بن سهيل بن عمرو .. وسعد بن ابى وقاص .. ومحمد بن مسلمة .. وعلى بن ابى طالب وهو الذى كتب .. ومكرز بن حفص وهو يومئذ مشرك .

وكتبت نسخة اخرى من هذه المعاهدة .. لتبقى مع المسلمين .. لأن سهيلا طلب أن تكون النسخة معه .

وقيل ان الذى كتب الثانية محمد بن مسلمة

ولم يكن احد راضيا من المسلمين بما حصل .. غير ابى بكر .

ثم قال ــ عليه السلام ــ « قوموا فانحروا ثم احلقوا »

يقول راوى الحديث : فوالله ما قام من المسلمين رجل واحد .. حتى قال ثلاث مرات .. فلم يقم احد منهم .. فقام ــ عليه الصلاة والسلام ــ فدخل على أم سلمة .. فذكر لها ما لقى من الناس .. فقالت أم سلمة ــ رضى الله عنها ــ يارسول الله .. اتحب ذلك ؟ .. اخرج ثم لا تكلم احدا كلمة .. حتى تنحر بدنك .. وتدعو حالقك فيحلقك .

فقام فخرج .. فلم يكلم أحدا منهم .. حتى فعل ذلك .. نحر بدنه .. ودعا حالقه فحلقه .

قيل : ان خراش بن أمية الخزاعى هو الذى حلقه .. وكان حجاما .

فلما رأى الناس ذلك .. قاموا فنحروا .. وجعل بعضهم يحلق بعضا .. حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما وهما .

فقال ــ عليه الصلاة والسلام ــ : « يرحم الله المحلقين » قالوا : والمقصرين يارسول الله ؟

قال : « يرحم الله المحلقين » قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ . قال « يرحم الله المحلقين » .

قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ . قال « والمقصرين » .

قالوا : لم ظاهرت الترحيم للمحلقين دون المقصرين ؟ .. قال : لم يشكوا .

اهدى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى هديه بالحديبية جملا كان لابى جهل .. كان فى راسه برة من فضة .. يغيظ بذلك المشركين .

وكانت البدن التى نحرها سبعين بدنة .. وفرق لحمها على الفقراء .

ومكث رسول الله بالحديبية عشرين يوما .. ثم رجع الى المدينة .. وبين مكة والمدينة .. نزل عليه قوله تعالى :

(انا فتحنا لك فتحا مبينا ❊ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما ❊ وينصرك الله نصرا عزيزا) أول سورة الفتح .

فقال عمر ــ رضى الله عنه ــ : او فتح « هو يا رسول الله ؟ .. قال : « نعم » .. فقال الصحابة : هنيئا لك يارسول الله .. فما بالنا ؟ .. فانزل الله .

(هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين) الى آخر سورة الفتح .

تلك هى ـ قصة الحديبية ـ ولعلنا قد رأينا فيها .. وسنرى فيها الكثير من العبر ..
فقد روى موسى بن عقبة والزهرى والبيهقى.. عن عروة بن الزبير .. قال :

اقبل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ راجعا .. فقال رجل من اصحابه : ما هذا بفتح .. والله .. لقد صددنا عن البيت .. وصد هدينا . وأعاد رسول الله رجلين من المؤمنين كانا قد خرجا .. أعادهما اليهم .. فعلم بما قال هـذا الرجل .. فقال :

« بئس الكلام .. بل هو أعظم الفتح .. قد رضى المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم .. ويسألوكم القضـية .. ويرغبوا اليكم فى الايمـان .. ولقـد رأوا منكم ما كرهـوا .. واظفركم الله عليهم .. وردكم مأجورين .. فهو أعظم الفتوح .. انسـيتم يوم أحـد .. اذ تصعدون ولا تلوون على أحد .. وأنا أدعوكم فى أخراكم ؟ .. أنسيتم يوم الأحزاب اذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفلكم .. واذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا » ؟

فقال المسلمون : صدق الله ورسوله .. هو أعظم الفتوح .. والله يا نبى الله ما فكرنا فيما فكرت فيه .. ولأنت أعلم بالله وأمره منا .

وسنرى أن صـلح الحديبية .. كان كله خيرا للدعوة الاسـلامية .. نضجت ثمرته .. وتحققت فائدته .. وهو نبت صغير .

فقـد اختلط المشركون بالمسـلمين ..
واختلط المسلمون بالمشركين .. فرأى هؤلاء فى دين الاسلام ما لم يكونوا يرونه من قبـل .. وفتحوا قلوبهم التى كانت مغلقة .. لمعرفة ما فى هذا الدين من حب وتسامح وترابط .. ومنطق وواقع .. فأحسـوا أنهم كانوا متجنين على محمد وعلى المسلمين .. سمعوا بصدر مفتوح أحوال النبى .. ورأوا بعين غـير حاقدة .. حسن سيرته وعظيم خلقه .. وعاشـوا كثيرا من معجزاته الباهرة .. واعلام نبوته الظاهرة .

وسمعوا القرآن .. وذاقـوا حلاوته .. واستشعروا صدقه وقوته .. فمالت نفوسهم الى الاسلام .. حتى بادر منهم خلق كثير الى الاسلام قبل فتح مكة .

امن النـاس بعضهم بعضـا .. فدخل المسلمون مكة .. ودخل المشركون المدينه .. زوارا لاصدقائهم واهليهم .. والتقوا وتنافشوا .. فكان ايمان العقـلاء من المشركين من اول جلسة يسمع فيها حديث الاسلام .

يقول ابن هشام :

دخل فى هاتين السنتين فى الاسلام .. مثل ما كان فى الاسلام قبل ذلك واكثر .. وكان من بين هؤلاء ـ خالد بن الوليد ـ وعمرو بن العاص ـ وغيرهم من الزعماء والعقلاء واصحاب الراى وازداد الذين لم يسلموا ميلا الى الاسـلام .. فلما كان يوم الفتـح .. اسـلموا كلهم برغبة وصدق .. ودخلوا فيه افواجا .

لقد اعطى صلح الحديبية المسلمين فرصة .. لنشر الاسلام فى جزيرة العرب .. بغير معارضة .. وهذا كسب كبير .

واعطاهم فرصة الاتى .. فى العام القابل .. والاقامة بمكة ثلاثة أيام .. من غير معارضة .. وهذا كسب كبير .

وبسببه زاد عدد المسلمين زيادة كبيره فى عامين .. فبعد ان كان عـدد المسـلمين فى الحديبية الفا واربعمائة .. او الفا وخمسمائة .. بلغ عددهم يوم فتح مكة عشرة آلاف .. وهذا كسب كبير .

وقد اعترف بهذا كتاب الغرب .. وجـاء فى دائرة المعارف الاسلامية :

ان محمدا ـ عليه الصلاة والسلام ـ فـاز فى صلح الحديبية فوزا عظيما .

ويقول ابن قيم الجوزية .. فى كتابه « زاد المعـاد » .

ان الفتح فى اللغـة : هـو فتح المغلق .. والصلح الذى حصل مع المشركين بالحديبية ..

كان مسدودا مغلقا .. حتى فتحه الله .. وكان من اسباب فتحه .. صد رسول الله وصحبه عن البيت .. فكان الظاهر ضيما وظلما للمسلمين .. والباطن عزا وفتحا ونصرا .. فكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يرى العز والنصر من وراء ستر رقيق .. وكان يعطى المشركين كل ما سالوه من شروط .. لم يحتملها المسلمون .. وهو يعلم ما يحوى هذا المكروه من محبوب (وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم) (١) .

وربما كان مكروه النفوس الى
محبوبها سببا ما مثله سبب

اما الكسب الاكبر .. فكان فى تنفيذ الشرط الثالث .. الذى هز مشاعر المسلمين يومها هزا عنيفا .. وكادوا يهلكون بسببه .. وجعل عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يقول : والله ما شككت منذ اسلمت .. الا يومئذ .. وهو الشرط الذى يقضى بأن يرد رسول الله من ياتى مسلما من مكة .

فقد التزم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بتنفيذ هذا الشرط بامانة .. فكان فى مدة صلحه يرد الرجال المهاجرين باسلامهم .. قائلا لهم .. سيوجد الله لكم فرجا ومخرجا .

وجاءه نساء مؤمنات .. فانزل الله تعالى :

(يا ايها الذين آمنوا اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله اعلم بايمانهن فان علمتوهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار لاهن حل لهم ولا هم يحلون لهن وآتوهم ما انفقوا ولا جناح عليكم ان تنكحوهن اذا آتيتموهن اجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر) .. الى قوله (والله عليم حكيم) (٢) .

فطلق عمر يومئذ امراتين .. كانتا له فى الشرك .. تزوج معاوية احداهما .. وتزوج الاخرى صفوان بن امية .

والتزم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بامر الله .. فلم يرد النساء بعد الامتحان .. وكان الامتحان .. ان تستحلف المراة المهاجرة انها ما هاجرت ناشزا .. ولا هاجرت الا لله ولرسوله .

فمن بين اللاتى هاجرن فى تلك الفترة .. ام كلثوم بنت عقبة بن ابى معيط .. كانت اسلمت بمكة .. وبايعت قبل هجرة الرسول .. ثم خرجت فى مدة الصلح مهاجرة .. ماشية على قدميها .. من مكة الى المدينة .. وهى اخت عثمان بن عفان لأمه . وجاء اخواها عمارة والوليد .. الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى طلبها بالعهد .. فلم يرجعها اليهما .. واخبرهما ان الله قد نهاه عن رد المسلمات بقوله :

(فلا ترجعوهن الى الكفار) وقال لهما : « ان الشرط خاص بالرجال دون النساء » . ورضيت قريش بهذا .

ونعود الى تنفيذ هذا الشرط بالنسبة للرجال .

فقد خرج رجل من مكة مسلما .. اسمه ـ ابو بصير ـ وهو عتبة بن اسيد الثقفى .. حليف بنى زهرة .. فقدم المدينة باسلامه .. فأرسلوا رجلين فى طلبه .. وقالا لرسول الله : العهد الذى جعلت لنا .

فدفعه الى الرجلين .. فخرجا به .. حتى بلغوا ذا الحليفة .. فنزلوا يأكلون تمرا .. **فقال** ابو بصير لاحد الرجلين : والله انى لأرى سيفك هذا جيدا .. فاستله الرجل **وقال :** اجل والله انه لجيد .. لقد جربت به ثم جربت .. فقال ابو بصير : ارنى انظر اليه .. فأمكنه منه .. فضربه به .. وفر الآخر يعدو .. حتى بلغ المدينة . فدخل المسجد .. فقال رسول الله حين رآه : « لقد راى هذا ذعرا » .

فلما انتهى الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : قتل والله صاحبى .. وانى

---

(١) ٢١٦ ـ البقرة .

(٢) ١٠ ـ الممتحنة .

لمتول .. فجاء ابو بصير .. فقال : يا نبى الله .. قد والله أوفى الله ذمتك .. قد رددتنى اليهم .. وأنجانى الله منهم .. فقال النبى :

« ويل امه مسعر الحرب لو كان له أحد »

فلما سمع ذلك عرف ان النبى سيرده اليهم .. فخرج حتى بلغ سيف البحر .

وكمن ابو بصير فى طريق الشام .. يمر به أصحاب التجارة .. واجتمع اليه جمع من المسلمين .. الذين احتبسوا فى مكة .. فكانوا يتسللون اليه .

وانفلت ابو جندل بن سهيل بن عمرو .. الذى رده رسول الله يوم الحديبية .. وخرج من مكة فى سبعين راكبا أسلموا .. فلحقوا بابى بصير فى ساحل البحر .. ولم يذهبوا الى رسول الله .. لعلمهم انه يردهم الى أهليهم .. وانضم اليهم مسلمون جدد من غفار .. وأسلم .. وجهينة .. حتى بلغوا ثلاثمائة مقاتل .. فقطعوا على قريش مرورهم وتجارتهم .. ولا يظفرون منهم بأحد الا قتلوه .. ولا تمر بهم عير الا أخذوها .

ووقعت قريش فى حيرة من أمرها .. فكتبت الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — تسأله بالأرحام الا آواهم .. ولا حاجة لهم فى هذا الشرط .

فكتب — عليه الصلاة والسلام — الى أبى بصير وأبى جندل أن يأتياه بالمدينة .. وان ينصرف المسلمون الذين معهم الى أهليهم .. ولا يتعرضون لأحد من قريش ولا لعيرهم .

ووصل كتاب رسول الله .. وأبو بصير فى سكرات الموت .. وما ان قرأ ابو جندل الكتاب حتى لفظ ابو بصير نفسه الأخير .. فدفنه ابو جندل فى مكانه .. وجعل عند قبره مسجدا .. ثم قدم المدينة على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مع بعض اصحابه .. ورجع الباقون الى أهليهم .. وأمنت قريش على عيرهم .

وصدق رسول الله .. فى قوله يوم الحديبية .. حول هذا الشرط :

« من اتاهم منا فقد أبعده الله .. ومن اتانا منهم فرددناه اليهم .. جعل الله له فرجا ومخرجا » .

لقد اشترط المشركون هذا الشرط لحربهم .. وهم لا يشعرون .. فذلوا من حيث طلبوا العز .. وقهروا من حيث أظهروا القدرة والفخر والغلبة .. وعز المسلمون من حيث ذلوا انفسهم لله .. واحتملوا الضيم لله .. فانعكس الأمر .. وانقلب العز بالباطل ذلا .. وانقلب الذل لله عزا .. وظهرت حكمة الله وآياته ونصره رسوله بطريقة تعجز العقول عن ادراكها .

وبهذا ازداد المؤمنون ايمانا .. حيث انقادوا مع رسول الله على ما يكرهون .. ورضوا بقضاء الله .. فانزل السكينة فى قلوبهم .. فى حال تزعزع لها الجبال .. فاطمأنت بها قلوبهم .. وقويت أرواحهم .. وجعل بيعتهم له سبحانه فقال :

(ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم) (١) .

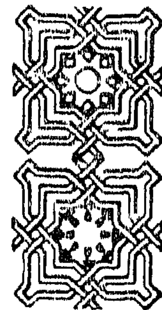
لقد علم الله ما فى قلوبهم يوم الحديبية .. من الصدق والوفاء .. وكمال الانقياد والطاعة .. وايثار الله ورسوله على سواهما .. فانزل السكينة والطمأنينة والرضا فى قلوبهم .. واثابهم على الرضا بحكمه والصبر لأمره :

(لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة .. فعلم ما فى قلوبهم فانزل السكينة عليهم واثابهم فتحا قريبا ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما) (٢) .

وكان أول الفتح والمغانم بعد — صلح الحديبية — هو فتح خيبر .. ومغانمها الكثيرة.

(١) ١٠ — الفتح .

(٢) ١٨ — ١٩ / الفتح .



فتح خيبر

حمل مرحب على علي وضربه فطرح ترسه من يده .. فتناول علي باب الحصن فتترس به عن نفسه .. فلم يزل في يده وهو يقاتل .. حتى فتح الله عليه الحصن .. ثم ان عليا ضرب مرحبا - فوقع السيف على ترسه فقده .. وشق الحجر والمغفر .. وفلق هامته .. حتى أخذ السيف بأضراسه .

- ٤٨ -
فتح خيبر

● **ذكرتنى الكتابة عن غــزوة خيبر بعبارة قالها - موشى ديان - الذى كان وزيرا للدفاع الاسرائيلى .. عنـــدما وقف على الشــاطىء الشرقى لقناة لسويس .. بعد أن غزا اليهــود شبه جزيرة ســيناء .. من أرض مصر عــام ١٩٦٧ .. حيث قال :**

- **يوم بيوم خيبر** - عبارة قالها .. ملأت اسماع الدنيا .. وتناقلتها وكالات الأنباء .. ورددتها موجات البرق فى كل مكان ..

عبارة تدل على الأثر العميق .. الذى تركته غزوة خيبر .. فى نفــوس اليهــود .. فظلت ندوبه فى قلوبهم .. لم تمح آثارها اربعة عشر قرنا من الزمان .

وخيبر مدينة كبيرة .. تبعــد عن مدينــة الرسول ثمانية برد شمالا .. جهــة الشــام .. والبريد : اثنا عشر ميــلا .. اى انها من المدينــة على مســـافة تقــرب من مائة ميــل .. يسكنها اليهود من قديم الزمان .

وهى مدينة غنيــة بمزارعها ونخيلها .. قوية بحصونها المنيعـــة المتفرقة بين المزارع والنخيل .. وقد وفروا فيها كل أنواع الأسلحة .. التى استحدثت فى جيوش الفرس والرومان.

ويكفى أن نعلم ان جيش اليهود فى خيبر .. كان عشرة آلاف مقاتل .. كلهم اهــل حــرب وخبث ومكر .. وقد انضم اليهم فيها يهود بنى النضير .. الذين اجلاهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من المدينة - كما قدمنا - .

وكان فيها ثلاثة حصون رئيســية متفرقة .. هى :

حصون النطاة : وفيها حصون - الناعم - والصعب - وبقلة .

وحصون الشق : وفيها حصون - ابى - والبرى - والقموص .

وحصون الكتيبة : وفيها حصون - الكتيبة - والوطيح - والسلالم .

فكانت خيبر مركزا لدسائس اليهــود .. الذين وترهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهاجروا اليها .. وقد اكل الحقد قلوبهم .. لخروج النبوة من بنى اسرائيل .

كانت غزوة خيبر .. فى شهر المحرم .. على رأس السنة السابعة من الهجرة الشريفة

.. وان كان بعض الرواة ينسبها الى السنة السادسة .. ولكن لا خلاف فى الشهر .. وانما الخلاف مبنى على اول التاريخ الهجرى .. هل هو شهر ربيع الاول .. شهر قدومه — عليه السلام — الى المدينة .. او يحتسب التاريخ الهجرى من المحرم .. من أول السنة ؟ .

اخذ بالراى الاول : ابو محمد بن حزم .. فيكون عنده فتح خيبر قبيل نهاية العام السادس .

ولكن الجمهور على ان شهر المحرم .. هو اول التاريخ .. فتكون خيبر فى اول العام السابع .

واول من ارخ بالهجرة .. يعلى بن امية باليمن .. كما رواه الامام احمد باسناد صحيح

وقيل عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — هو الذى ارخ بالهجرة سنة ست عشرة من الهجرة . انصرف — عليه السلام — بعد صلح الحديبية .. فانزل الله عليه سورة — الفتح — واعطاه الله — عز وجل — فيها خيبر :

(وعدكم الله مغانم كثيرة تاخذونها فعجل لكم هذه) (1) .. يقصد خيبر .. فمكث فى المدينة شهر ذى الحجة .. ثم سار الى خيبر .. فى شهر المحرم .. بعد ان استخلف على المدينة — سباع بن عرفطة .. او نميلة بن عبدالله الليثى — واخذ من امهات المؤمنين معه ام سلمة .. التى كانت معه فى الحديبية .

وظاهر ان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حرص على ان يكون معه فى خيبر كل الذين كانوا معه فى الحديبية .. لانهم اصحاب الحق فى غنائم خيبر .

فلم يتخلف منهم غير جابر بن عبد الله .. وجعل له — عليه السلام — سهما من غنائمها .. وكان جيش المسلمين الفا وستمائة مجاهد .. منهم مائتا فارس بخيولهم ..

ولعلنا نلاحظ .. ان عدد الخيل فى هذه الغزوة زاد الى مائتى فرس .. ولم يكونوا يتجاوزون الثلاثين .. فى الغزوات السابقة .. مما يدل على ان رسول الله قد اهتم اخيرا بالخيل .. **وكان يعد نفسه لغزو خيبر .. باعتبارها اكبر معقل للعدو .. ويخشى منه على الدعوة الاسلامية .. فى الجزيرة العربية .**

وتحرك جيش المسلمين .

يقول سلمة بن الاكوع : خرجنا مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الى خيبر .. فسرنا ليلا .. فقال رجل من القوم لعامر بن الاكوع .. الا تسمعنا شيئا من هنيهاتك ؟ .. وكان عامر شاعرا .. فنزل يحدو بالقوم بقوله :

اللهم لولا انت ما اهتدينا
ولا تصدقنا ولا صلينا
فانزلن سكينة علينا
وثبت الاقدام اذ لاقينا

فقال — عليه الصلاة والسلام — من هذا السائق ؟ .. قالوا : عامر .. فقال : « رحمه الله » .. فقال رجل من القوم : وجبت .. لعامر يا رسول الله .. لولا امتعتنا بها ؟ .

وفى البخارى عن انس : « ان النبى — صلى الله عليه وسلم — اتى خيبر ليلا .. فنام هو واصحابه دونها .. ثم ركبوا اليها بكرة .. فصبحوها بالقتال .. ونزل — عليه الصلاة والسلام — بواد يقال له — الرجيع — بين غطفان وخيبر .. وهذا تخطيط عسكرى رائع .. فقد كان غطفان حلفاء لليهود .. مظاهرين لهم ضد رسول الله .. نخشى ان يمدوهم بالسلاح والجيش .. وكان اهل غطفان فوارس فعلا .. وقصدوا خيبر لمساعدة اليهود لولا موقع نزول المسلمين ا .. حيث سمعوا اصواتا فظنوا ان المسل خلفوهم فى ذراريهم .. فرجعوا واقاموا لوا اهل خيبر .

وقد ى — عليه السلام — فى هذا الموضع مسجدا سلى فيه مدة اقامته بخيبر —

---

(1) ٢٠ — الفتح .

وسار الرسول باصحابه .. بعد ان دفع رايته العقاب الى الحباب بن المنذر .. ودفع راية اخرى الى سعد بن عبادة .

فلما اشرف على الحصون .. وقف بالمسلمين .. ثم قال :

« اللهم رب السماوات وما أظللن .. ورب الأرضين وما اقللن .. ورب الشياطين وما اضللن .. ورب الرياح وما ذرين .. فانا نسالك خير هذه القرية .. وخير اهلها .. ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها .. اقدموا باسم الله » .

وخرجت اليهود فى الصباح الى مزارعهم وبساتينهم بمساحيهم ومكاتلهم .. خرجوا وهم لا يعلمون .. فلما راوا الجيش .. قالوا : محمد والله . محمد والخميس - ا الجيش - فرجعوا هاربين الى مدينتهم .. فقال - عليه الصلاة والسلام - .

« الله اكبر - خربت خيبر - الله اكبر .. خربت خيبر .. انا اذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » .

.... **وكان اليهود قد أدخلوا اموالهم وعيالهم فى حصون الكتيبة** .. وجمعوا المقاتلة فى حصون النطاة .. لأنها اول الحصون فى مواجهة جيش المسلمين .

ونزل - عليه الصلاة والسلام - قريبا من حصن النطاة .. فاشار عليه الحباب بن المنذر بالتحول عن هذا المكان .. قائلا ان له معرفة بأهل النطاة .. ليس قوم أبعد منهم مدى .. ولا اصوب منهم رميا .. وهم مرتفعون .. والارتفاع لصالحهم فى الرمى . فمال بالجيش الى مكان اكثر امانا .

وقد قاتل - عليه الصلاة والسلام .. فى هذا اليوم بنفسه قتالا شديدا .. وعليه درع وبيضة ومغفر .. وهو على فرس يقال له - الظرب - فى يده قناة وترس .. وكان الحر شديدا .. وقتل فى هذا اليوم محمد بن مسلمة .. **القى عليه مرحب اليهودى رحى فقتله** .

واخذ المسلمون يقطعون نخيل النطاة .. حتى قطعوا اربعمائة نخلة .. ثم نهاهم الرسول عن قطع النخيل .. فما قطع من نخيل خيبر غيرها (*)

ودامت الحرب فى هذا الموقع ستة ايام .. امام حصن النطاة .. يحارب امام حصونهم .. لانهم يخشون الحرب فى الميدان .. فاذا انهزموا دخلوا حصونهم واغلقوها دونهم .

وفى الليلة السابعة .. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لأعطين الراية غدا لرجل يحب الله ورسوله .. ويحبه الله ورسوله - يفتح الله على يديه » فبات الناس يفكرون ايهم يعطاها .. فلما اصبحوا غدوا على رسول الله .. كلهم **يرجو ان يعطاها .. فقال** : « أين على بن ابى طالب » ؟ .. فقالوا : يا رسول الله .. هو يشتكى عينيه .. قال « فارسلوا اليه » فاتى به .. فتفل - عليه السلام - فى عينيه ثلاثا .. فبرىء كأن لم يكن بها الم .. قال على : فما رمدت عينى بعدها . ثم دعا لعلى بقوله : « اللهم اكفه الحر والبرد » .. قال على : فما وجدت بعد ذلك حرا ولا بردا .. البس فى الحر الشديد القباء المحشو .. وفى البرد الشديد الثوب الخفيف .. فلا احس حرا .. ولا اخشى بردا .

فاعطاه الراية .. وكانت بيضاء .. فقال على : **أقاتلهم** يارسول الله حتى يكونوا مثلنا ؟ .. قال : « **انفذ على رسلك** - اى على مهلك - حتى تنزل بساحتهم .. ثم ادعهم الى الاسلام .. **واخبرهم بما يجب عليهم** فى حق الله .. فوالله لان **يهدى الله** بك رجلا واحدا .. خير من أن يكون لك حمر النعم .. - اى خيرات الدنيا - **فان لم يطيعوا فقاتلهم** » .

وخــرج على ــ كــرم الله وجهــه ــ فركز الراية تحت الحصن .. فخرجوا اليه ــ اول من خــرج اليه منهم ــ الحارث ابو مرحب ــ وكان مشهورا بالشجاعة .. فقتله على .. وانهزم اليهود الى حصن الناعم من حصــون النطاة .

ثم خرج اليه ــ مرحب ــ لابسا درعين .. ومتقلدا ســيفين .. ومعتما بعمامتين ولبس فوق عمامتيه مغفرا وحجرا ثقبة قدر البيضــة .. ومعه رمح .

وكان اشجعهم فى الحرب .. فبرز له على ــ كرم الله وجهه ــ .

يقول الرواة : خرج مرحب وهــو يقول :

انا الذي ســمتنى امى مرحب .. شــاكى السـلاح بطل مجـرب .. اذا الحروب اقبلت تلتهب .. فبرز اليه على وهو يقول :

انا الذى سمتنى امى حيدره .. كليث غابات كريه المنظرة .. اوفيهمو بالصاع كيل السندرة ثم حمل مرحب على على .. وضربه فطرح ترسه من يده .. فتناول على باب الحصن فتترس به عن نفسه .. فلم يزل فى يده وهو يقاتل .. حتى فتح الله عليه الحصن .. ثم ان عليا ضرب مرحبا فوقع السيف على ترسه فقده .. وشق الحجر والمغفــر .. وفلق هامته حتى أخــذ الســيف باضراسه .

ويقــول بعض الرواة : ان عليــا خــلع باب خيبر .. ولا يحركه سبعون رجلا الا بعــد الجهد (١) .

وليأذن لى القارىء .. فى الوقوف لحظة أمام هذا الحدث .. لنستفيد فى حيــاتنا الدنيا من مثل تلك المواقف .

فيــد على .. لم ترد على انهــا يد بشر .. محدودة القوة والقدرة .. فكيف تنزع بابا من الحديد .. لا يحركه هــذا العدد الكبير الا بعــد الجهد ؟ .

الها ليست يد على .. وانما هى يد الله .. الذى يقول فى حديثه القدسى المعروف :

« من عادى لى وليــا آذنتــه بالحرب .. وما تقرب الى عبدى بشىء احب الى مما افترضته عليه .. ولا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى احبه .. فاذا احببته كنت سمعه الذى يسمع به .. وعينــه التى يبصر بهــا .. ويده التى يبطش بها .. الى آخر الحديث

وقال بعض الرواة : ان محمد بن مسلمة هو الذى قتــل مرحبــا اليهــودى .. انتقاما لأخيه محمود .. ولكن الصحيح المتفق عليه بين اكثر رجال السيرة والحديث .. ان على بن ابى طالب هو الذى قتله .. فقد جاء فى صحيح مسلم « ان عليا قتل مرحبا » ثم خرج ياسر ــ اخــو مرحب ــ يطلب المبارزة .. **وكان ياسر أيضا من اشهر ابطال اليهود وشجعانهم .. فخرج اليه الزبير وقتله .. فقــال له ــ عليــه الصــلاة والسلام : « فداك عم وخال .. لكل نبى حوارى وحوارى الزبير »** .

وكان أول حصن فتحه المسلمون .. هو حصن الناعم .. من حصــون النطاة .. .. على يد على بن ابى طالب .. واستمر القتال بين الفريقين حتى فتح المسلمون حصونهم .. حصنا حصنا .. وكان آخر الحصون التى فتحت بالحرب ــ حصــن القموص ــ وبقيت حصــون الكتيبة : الوطيح والسلالم ــ فحاصرهم ــ عليه السلام ــ فيهما .

وقتل من اليهود فى تلك الحرب ثلاثة وتسعون .. واستشهد من المسلمين فيها خمســة عشر شهيدا .. فى طبقات ابن سعد .. والنبهانى .. وغيرهما .. اما ابن هشام فقال : استشــهد عشرون .

ومن اجمل ما قرات فى حــرب خيبــر .. ما قال موسى بن عقبة :

قال : دخل اليهود حصنا منيعا لهم .. يقال له : القموص .. فحاصرهم رسول الله بها قريبا

---

(١) النبهانى ــ الانوار المحمدية .

من عشرين ليلة .. وكانت ارضا وخمة .. شديدة الحر .. فجهد المسلمون جهدا شديدا .. وجاعوا حتى ذبحوا الحمر الأهلية .. فنهاهم — عليه السلام — عن اكلها فرموها .

وذكر البخارى .. ان النبى امرهم برميها مطبوخة .. كما امرهم بغسل القدور التى طبخت فيها . جيدا .

وجاء عبد اسود حبشى .. من اهل خيبر .. كان فى غنم لسيده .. فلما رأى اهل خيبر قد اخذوا السلاح .. سألهم : ما تريدون ؟ .. قالوا : نقاتل هذا الذى يزعم انه نبى .. فوقع فى نفسه ذكر النبى فاقبل بغنمه الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : ماذا تقول ؟ .. وما تدعو اليه ؟ .. قال :

« أدعو الى الاسلام .. وان تشهد ان لا اله الا الله .. وانى رسول الله .. والا تعبد الا الله »

قال العبد : فما لى ان شهدت وآمنت بالله ؟ .. قال : « لك الجنة ان مت على ذلك » . فاسلم .. ثم قال : يا نبى الله أن هذه الغنم عندى امانة — ونلاحظ هنا أن الجيش فى اجهاد وجوع — وتلك اغنام يهودى عدو محارب — ولكنه — عليه السلام — قال له : اخرجها .. وارمها بالحصباء .. فان الله سيؤدى عنك امانتك .. ففعل .. فرجعت الغنم كاملة الى صاحبها اليهودى .. فعلم اليهودى ان غلامه قد أسلم .

فلما التقى الجيشان .. قتل العبد الاسود .. فيمن قتل .. وقيل ان رسول الله اقبل على أصحابه وقال « لقد أكرم الله هذا العبد .. وساقه الى الجنة .. ولقد رأيت عند رأسه اثنتين من الحور العين ولم يصل لله سجدة واحدة

كما اتى رسول الله رجل .. فقال : يا رسول الله انى رجل اسود .. قبيح الوجه .. منتن الريح .. لا مال لى .. فان قاتلت هؤلاء حتى أقتل .. أأدخل الجنة ؟ قال : « نعم » .. فتقدم فقاتل حتى قتل .. فاتى عليه النبى عليه السلام وهو مقتول .. فقال : « لقد احسن الله وجهك .. وطيب ريحك .. وكثر مالك » ..

ثم قال « لقد رأيت زوجتيه من الحور العين .. ينزعان جبته عنه .. يدخلان فيما بين جلده وجبته » (١) .

واجمل منها ما روى عن شداد بن الهاد :

جاء رجل من الاعراب الى النبى — صلى الله عليه وسلم — فآمن به واتبعه .. فقال : اهاجر معك .. فأوصى به بعض اصحابه .. فلما كانت غزوة خيبر .. غنم رسول الله شيئا فقسمه .. وقسم للاعرابى .. وارسل نصيبه اليه .. وكان يراقب ظهورهم .. فقال : ما هذا ؟ .. قالوا : قسم قسمه لك رسول الله .. فأخذه وجاء به الى النبى .. فقال ما هذا يا رسول الله ؟ قال : « قسم قسمته لك » .. قال : ما على هذا اتبعتك .. ولكن اتبعتك على ان ارمى ههنا — وأشار الى حلقه — بسهم .. فاموت .. فادخل الجنة .. فقال : « ان تصدق الله يصدقك » ؟ .. ثم نهضوا الى قتال العدو .. فأتى به الى رسول الله وهو مقتول فقال « اهو هو » ؟ .. قالوا : نعم .. قال « صدق الله فصدقه » .

فكفنه رسول الله فى جبته .. ثم قدمه فصلى عليه .. وكان من دعائه له :

« اللهم هذا عبدك .. خرج مهاجرا فى سبيلك .. قتل شهيدا .. وانا عليه شهيد » .

واصاب المسلمين مجاعة .. قبل فتح حصن الصعب .. فلما فتحوه وجدوا فيه طعاما كثيرا .. وجدوا شعيرا وتمرا وودكا — اى سمنا — وزيتا وشحما ومتاعا وماشية .. وكان فيه خمسمائة مقاتل .. وكان حصنا منيعا .. فامر النبى المسلمين ان ياكلوا ويعلفوا .. ولا يخرجوا به الى بلادهم .

وقد تركنا اليهود محاصرين فى حصنى : الوطيح والسلالم .. وهى حصن ابن ابى الحقيق .. تحصن اهله اشد التحصن .. وجاءهم كل مهزوم منهزم من حصون النطاة والشق .

وحاصرهم المسلمون اربعة عشر يوما .. لم يخرج منهم أحد .. وكان — عليه السلام — قد وجد الكثير من الاسلحة الحديثة .. فى

---

(١) زاد المعاد ص ١٥٠ جـ ٢ .

حصن الصعب تحت الأرض .. منها المنجنيق فبدأ ينصب عليهم المنجنيق .. ليضربهم به .. فلما ايقنوا بالهلاك .. سألوا رسول الله الصلح .. وارسل ابن أبى الحقيق الى رسول الله .. يطلب الاذن له ليكلمه .. فاذن له .. فنزل ابن ابى الحقيق .. فصالح محمدا – رسول الله – على حقن دماء من فى حصونهم من المقاتلة .. وترك الذرية لهم .. يخرجون من خيبر وارضها بابنائهم .. ويخلون بين رسول الله وبين ما كان لهم من مال وأرض .. الا ثوبا على ظهر كل انسان .. فقال رسول الله : « وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله ان كتمتمونى شيئا» فصالحوه على ذلك .

ولكن لا وفاء لهم .. فالغدر والكذب ونقض العهد صفات متشعبة الجذور فى أعماقهم .. فقد عاهدوا الرسول على الا يكتموه شيئا .. فسألهم عن مسك حمار – جلده – فيه كنز بنى النضير .. حمله حيى بن اخطب .. عند جلاء بنى النضير عن المدينة .. فانكروا وجوده .. فاتى رسول الله رجل من اليهود .. فقال : انى رايت كنانة واخيه الربيع .. وهما ابنا ربيعة بن ابى الحقيق .. يطيفان بهذه الخربة كل غداة .. فاخرج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الكنز منها .. وامر بقتل ابنى ابى الحقيق .. لنكثهما عهده .. دفع كنانة الى محمد بن مسلمة .. فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة .

وقد وجد فى كنز بنى النضير اساور ودمالج وخلاخيل واقرطة وخواتم وعقود الجوهر والزمرد .. وعقود اظفار مجذع بالذهب .

ووجد فى الحصنين المذكورين مائة درع واربعمائة سيف والف رمح وخمسمائة قوس عربية بجعبانها .

كما وجد صحائف كثيرة من التوراة .. جاء اليهود يطلبونها .. فدفعها اليهم .

وكان هذا الموقف من الرسول الكريم .. محل اعجاب كتاب الغرب .

فقال – ولفنسن – فى كتابه – تاريخ اليهود :

« ويدل هذا على ما كان لهذه الصحائف فى نفس رسول الاسلام من المكانة العالية .. مما جعل اليهود يشيرون الى النبى بالبنان .. ويحفظون له هذه اليد .. حيث لم يتعرض لصحفهم المقدسة . ويذكرون ازاء ذلك ما فعله الرومان حين تغلبوا على أورشليم وفتحوها سنة سبعين قبل الميلاد .. اذ احرقوا الكتب المقدسة .. وداسوها بأرجلهم .. وما فعله المتعصبون من النصارى فى حروب اضطهاد اليهود فى الأندلس .. حيث احرقوا ايضا صحف التوراة .

هذا هو البون الشاسع بين الفاتحين ممن ذكرنا .. وبين رسول الاسلام » – اهـ –

وسبى رسول الله صلى الله عليه وسلم – نساءهم وذراريهم بالنكث الذى نكثوا .. وصارت صفية بنت حيى من نصيب دحية بن خليفة الكلبى .. وكانت حسناء .. فتنافس الناس فيها .. فجاء رجل الى النبى – عليه السلام – وقال : يا نبى الله .. اعطيت دحية صفية بنت حيى .. سيدة بنى قريظة والنضير .. لا تصلح الا لك .. فقال : ادعوه بها .. ثم قال لدحية : « خذ جارية من السبى غيرها » .. فاخذ أخت كنانة ابن الربيع بن ابى الحقيق .. وكان كنانة زوجا لصفية .. وقتله محمد بن مسلمة – كما ذكرنا – وعرض عليها الاسلام فأسلمت .. فاصطفاها لنفسه واعتقها وتزوجها وجعل عتقها صداقها .

وصفية بنت حيى .. من سبط هارون اخى موسى .

يقول رواة السيرة : ان صفية – رضى الله عنها – لما تزوجها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قالت : يا رسول الله .. رأيت قبل قدومك علينا .. كأن القمر زال من مكانه وسقط

---

(١) زاد المعاد ص ١٥٢ جـ ٢ .. والنبهانى ص ٩٨ .

فى حجرى .. ولا والله ما اذكر من شانك شيئا .. فقصصتها على زوجى كنـانة فلطم وجهى وقال : تتمنين هذا الملك الذى بالمدينة ؟ (١) .

وكان سنها فى هذا الحين سبعة عشر عاما .. وكان اسمها ـــ زينب ـــ فسماها الرسـول صفية .

وقد بنى الرسول بها فى طريق العـودة من خيبر .. وأولم عليها .. ولما قدم ليحملها على الرحل .. ابت أن تضع قدمها على فخـذه ـــ فوضعت ركبتها على فخذه ثم ركبت .

ولما بنى بها بات ابو ايوب ليلته قائما قريبا من قبة رسول الله .. آخذا بقائم سـيفه حتى اصبح .. فلما راى رسول الله خارجا من قبابه .. كبر ابو ايوب .. فساله ـ عليه السلام ـ مالك يا ابا ايـوب ؟ .. فقال له : ارقت ليلتى هذه يا رسول الله .. لما دخلت بهذه المراة .. وذكرت انك قتلت اباها واخويها وزوجها وعامة عشيرتها .. فخفت ان تغتالك .. فضحك رسول الله .. وقال له خيرا .

وقـدم على رسـول الله ـ صـلى الله عليه وسلم ـ يوم فتح خيبر .. جعفر بن أبى طالب ومعه جماعة من المسلمين .. عائدين من الهجرة الى الحبشة .. فعانقه رسول الله ـ صلى عليه وسلم ـ وقبل جبينه .. وقال :

« ما ادرى بايهما افـرح .. بفتح خيبر .. ام بقدوم جعفر » .. ثم قال له :

« اشبهت خلقى وخلقى » .. فرقص جعفر من شدة فرحه .. ولم ينكر عليه رقصه .

وكان مع جعفر ـ عبد الله بن قيس ـ وابو موسى الأشعرى ـ واخواه : أبو رهم وابو بردة وغيرهم ، كما كان معهم أيضـا اسـماء بنت عميس .

يقول ابو موسى الاشعرى :

رافقنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين فتح خيبر .. فأسهم لنا .. وما قسـم لاحد غاب عن فتح خيبر شيئا .. الا لمن شهد معه .. الا لأصحاب سفينتنا مع جعفر واصحابه قسم لهم معنا .. وكان ناس يقولون : سبقناكم بالهجرة .. قال : ودخلت اسماء بنت عميس على حفصـة فدخـل عليها عمر فقال من هذه ؟ .. قالت : اسماء فقال عمر ـ سبقناكم بالهجرة .. نحن أحق برسـول الله منـكم .. فغضبت اسماء وقالت : ياعمر .. كلا والله .. لقد كنتم مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يطعم جائعكم .. ويعطى شاهدكم .. وكنا فى ارض البعداء والبغضاء .. وذلك فى الله وفى رسوله .. وأيم الله لا أطعم طعاما .. ولا اشرب شرابا .. حتى اذكر ما قلت لرسـول الله .. ونحن كنا نخاف ونؤذى .. وساذكر لرسول الله .. والله لا أكذب ولا ازيغ ولا ازيد على ذلك فلما جاء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالت: يارسول الله .. ان عمر قال كذا وكذا .. فقال ـ عليه السلام ـ « فما قلت له » ؟ .. قالت : **قلت له كذا وكذا .. فقال :**

« **ليس باحق بى منكم** .. له ولاصحابه هجرة واحدة .. ولكم انتم اهل السفينة هجرتان » وكان أبو موسى .. واصحاب هجرة الحبشة يأتون أسماء ارسالا .. يسـألونها عن هـذا الحديث .. ما من شيء فى الدنيا .. هم أفرح ولا اعظم فى انفسهم .. بما قال لهم رسـول الله ـصلى الله عليه وسلم ـ

وقد قسم الله غنائم خيبر .. فاعطى الراجل سهما .. والفارس ثلاثة اسهم .. سـهم له وسهمان لفرسه .

وقيل قسم نصـف الغنائم .. وابقى النصف لحاجة المسلمين عامة .. على اعتبار أن نصف خيبر فتح عنوة .. وفتح النصف الثانى صلحا بغير قتال .

وانكر ابن قيم الجوزية هذا الراى وفنده (٢) ترك الارض لأهـل خيبر .. يعمـلون فيها

(١) زاد المعاد ص ١٣٢ جـ ٢ والنبهانى ص ٩٨ .

(٢) زاد المعاد ص ١٦٢ جـ ٢ .

بنصف ما نتج من زرع وثمر .. واشترط عليهم ان يخرجهم منها اذا شاء .

وقد استمر على ذلك الى خلافة عمر .. حيث خانوا بعض المسلمين .. وغدروا بهم فاستشار عمر اصحابه .. واجلاهم منها الى الشام .

وروى البخارى عن أبى هريرة .. قال :

لما فتحت خيبر .. واطمان ــ عليه السلام بعد فتحها .. اهديت للنبى شاة فيها سم .. اهدتها اليه يهودية .. اسمها زينب بنت الحارث .. امراة سلام بن مشكم .. واخت مرحب .. انتقاما لمقتل ابيها وزوجها واخويها .. فلاك منها مضغة .. ثم لفظها .. وازدرد بشر بن البراء لقمة .. فقال ــ صلى الله عليه وسلم ــ « ارفعوا ايديكم » .. وارسل الى اليهودية .. فقال لها : « هل سممت هده الشاة » فقالت : من اخبرك ؟ .. قال : « أخبرتنى هذه التى فى يدى » مشيرا الى ذراع الشاة .. قالت نعم .. قال لها : « وما حملك على ذلك » قالت : ان كنت نبيا يطلعك الله .. وان كنت كاذبا فأريح الناس منك .. وقد استبان لى انك صادق .. وانا اشهدك ومن حضر معك انى على دينك .. وان لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله .. فعفا عنها .. ولم يعاقبها .

وتوفى من أصحابه الذين أكلوا معه ــ بشر ابن براء ــ واحتجم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ على كاهله .. من أجل الذى أكل من الشاة .

وقال بعض الرواة : ان النبى كان قد عفا عن اليهودية .. فلما مات بشر من السم أمر بقتلها .. وهؤلاء يقولون انها لم تسلم .

وانصرف رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ راجعا الى المدينة .. فلما كان ببعض الطريق فى آخر الليل .. قال : من رجل « يحفظ علينا الفجر .. لعلنا ننام ؟ » قال بلال : انا يارسول الله .. فنزل النبى .. ونزل الناس فناموا .. وقام بلال يصلى .. فصلى ما شاء الله .. ثم استند الى بعيره يرقب الفجر .. فغلبته عينه فنام .. فلم يوقظهم الا مس الشمس .. فزع ــ عليه السلام ــ اول من فزع .. فقال : ماذا صنعت بنا يابلال ؟ .. قال : يارسول الله .. اخذ بنفسى الذى اخذ بنفسك .. قال : صدقت .. ثم اقتاد بعيره غير كثير .. ثم اناخ فتوضأ وتوضأ الناس .. ثم صلى سنة الفجر .. ثم أمر بلالا فأقام الصلاة .. وصلى بالناس .. ثم قال : « يأيها الناس .. ان الله قبض ارواحنا .. ولو شاء لردها الينا فى حين غير هذا .. فاذا نام أحدكم عن الصلاة .. أو نسيها فليصلها كما كان يصليها فى وقتها » .

وفى الطريق استقباه أهل فدك .. وفدك قرية يهودية .. قريبة من خيبر .. خافوا بعد هزيمة اهل خيبر .. فصالحوا الرسول على نصف ما تنتج أرضهم .. فقبل ذلك منهم .. فكانت فدك خالصة لرسول الله .. لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب .. ينفق ما يرد منها على أبناء السبيل .. وعلى أطفال بنى هاشم .. وزواج بناتهم .

ولما انتقل رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الى الرفيق الأعلى وولى أبو بكر الخلافة .. طلبت منه فاطمة الزهراء .. أن يجعل لها نصفها فأبى .. وقال لها : ان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « انا معشر الأنبياء لا نورث .. ما تركناه صدقة » .

ونزل ــ عليه الصلاة والسلام ــ فى وادى القرى .. مع غروب الشمس .. وهو واد بين تيماء وخيبر .. فيه قرى كثيرة .. نزلها اليهود .. وزرعوا ارضها .. فدعاهم الى الاسلام فامتنعوا .. فحاصرهم اربعة ايام .. وقتل منهم احد عشر رجلا .. وفتحها عنوة .. وغنم منها اموالهم .. واصاب اثاثا ومتاعا كثيرا .. قسمه بين اصحابه . وترك الأرض والنخيل بأيدى اليهود .. وعاملهم عليها .. وولى عليهم أحد اصحابه .. **وهو عمرو بن سعيد بن العاص .**

كما صالحه أهل تيماء على الجزية .. وولاها يزيد بن أبى سفيان .

وكان اسلام يزيد فى هذا اليوم .

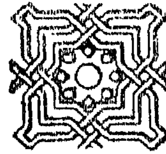
وتيماء على سبع مراحل من المدينة .

ثم رجع الى المدينة .. بعد ان بسط نفوذه على اليهود .. شمالى المدينة .. ووصل المدينة فى آخر صفر من السنة السابعة .

وبزغ النجم القرآنى متلألئا :

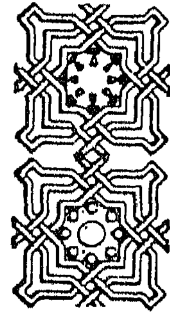
(لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فانزل السكينة عليهم واثابهم فتحا قريبا ۞ ومغانم كثيرة ياخذونها وكان الله عزيزا حكيما ۞ وعدكم الله مغانم كثيرة تاخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدى الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما) (١) .

حقا لقد كانت هدنة الحديبية فتحا مبينا .



---

(١) ١٨ - ٢٠ / الفتح .



الدعوة تشرق خارج الجزيرة

قال : فقمت من عنده وانا اضرب احدى بدى بالاخرى .. واقول اى عباد الله .. لقد امر امر ابن أبى كبشة ـ اى عظم امره ـ اصبح ملوك بنى الأصفر يهابونه فى سلطانهم بالشام .

قال : وقدم عليه كتاب رسول الله .. فاخذ الكتاب فجعله بين فخذيه وخاصرته .

ـ ٤٩ ـ
الدعوة تشرق خارج الجزيرة

● **والله انها لأسمى وأعظم وأجل رحلة .. انها رحلة العمر بل رحلة الانسانية .. بل رحلة الكون كله .. تلك الرحلة التى صحبناه فيها ـ عليه الصلاة والسلام ـ من عالم الأمر .. حيث كان أول من لبى ربه فى عهد الذر قبل خلق الأكوان .**

الى تقلبه وانتقاله من الأصلاب الطيبة الى الأرحام الطاهرة .. مصفى مهذبا .. لا تتشعب شعبتان الا كان فى خيرهما .

الى بزوغ نجمه .. واشراقة شمسه .. على كوكب الأرض بشرا سويا .

ثم صحبناه فى طفولته وصباه .. محوطا بسياج الرحمة الالهية .. مقرونا بالرعاية القدسية .

الى شبابه المثالى .. الذى ضرب به المثل فى صدقه وأمانته .

الى حمله الرسالة .. وادائه اياها فى عزم تتزعزع أمامه رواسخ الجبال .. وصبر يفوق ما يخطر بالبال من قوة الاحتمال .

حياة كلها صراع وكفاح .. ونضال وجهاد .. ليس من أجل دنيا يصيبها .. أو ملك يحققه .. وانما لتكون كلمة الله هى العليا .. ولترفرف اعلام لا اله الا الله .. خفاقة تملأ الدنيا بالحب والخير والسلام .

وها قد بدأت الرحلة تؤتى ثمارها .. وتفيض بخيراتها .. ورفرفت اعلام الاسلام فى اغلب أنحاء الجزيرة العربية .. ووقفت فيها شرور اليهودية ودسائسها وخبثها عند حدها بعد فتح خيبر .

ولكن محمدا ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يرسله الله للعرب وحدهم .. ولم يبعثه للجزيرة العربية وحدها .. فكل رسول قبله .. كان الله عز وجل ـ يرسله الى قومه .. اما محمد ـ خاتم الرسل ـ فقد ارسله الله للناس كافة .. الى الأبيض والأسود .. الى العربى والأعجمى .. الى الفارسي والرومي والحبشي :

« **وما أرسلناك الا كافة للناس بشـــيرا ونذيرا** » (١) .

فكان العام الســـابع الهجرى .. بعد فتح الحديبية .. مبدأ لنشر الدعوة .. خارج الجزيره العربية .. فأرسل رسله .. يحملون رسائله الى الملوك والأمراء .. يبلغون دعوته .. وينشرون رســـالته .

وقبل ان نصحب هؤلاء الرسل .. الى الملوك ورؤساء الدول .. يقتضينا الموقف ان نستعرض فى عجالة سريعة حالة الممالك والـــدول التى سنصحب هؤلاء الرسل اليها .

وان التاريخ .. ليقف خاشـــعا أمام عظمة **هؤلاء** الفتية .. الذين خرجتهم الجامعة المحمدية العليا .. من بلاد العرب الجدباء الجرداء .. لا سلاح معهم غير سلاح الايمان .. **فيواجهون** بسلاحهم هذا قوتين عظيمتين .. لا ينكر التاريخ **قوتهما وعظمتهما** .. هما الامبراطورية الفارسية .. **وقد ضمت تحت سلطانها** النصف الشرقى من الكرة الارضية ..والامبراطورية الرومانية.. وقد امتد سلطانها فغطى النصف الغربى منها .

واستطاع هؤلاء الفتية بسلاح الايمان وحده .. فى اقصر زمن عرفه التاريخ .. أن تطأ سنابك خيـــولهم ايوان كسرى وعرش قيصر فى وقت واحد .

وأن يقيموا الامبراطورية الاسلامية الكبرى .. **من الصـــين فى مطلع الشمس الى جبـال البرانس ــ على المحيط الأطلسى .. فى مغربها** .

وفى تلك الفترة الوجيزة من الزمن .. التى ظهرت فيهـــا دعوة محمد ورســـالته .. كان الصراع قائما على اشـــده بين تلكما الدولتين العظيمتين .

فقبل هجرة الرســول من مكة الى المدينة بعام واحد .. اى فى ســنة ٦٢١م .. وهو فى قمة صراعه مع قريش .. انتصرت جيوش الفرس على الرومان .. ومدت الفرس ســـلطانها الى الشـــام ومصر وآســـيا الصغرى ــ تركيا ــ وهددوا مدينة القسطنطينية عاصمة الرومان .

ففرحت قريش .. بانتصـــار الفرس على على الرومان .. لان الفرس مجوس وثنيون على شاكلتهم .. وقالوا لمحمد وصحبه .. لننتصرن عليكم .. كمـــا انتصر اخواننـــا الفرس على اخوانكم الروم .. يقصـــــدون أن الرومان مسيحيون اهل كتاب مثل المسلمين .

فانزل الله تعالى :

« **الم ❊ غلبت الروم ❊ فى ادنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ❊ فى بضع سنين لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون ❊ بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم** » (٢) .

فلما انزل الله تعالى ذلك .. قال ابو بكر رضى الله عنه ــ للمشركين : والله لينصرن الروم على الفرس فى بضع ســنين .. والبضع ما بين الثلاث الى العشر .. فقال له أبى بن خلف كذبت .. فراهنـــه على عشر نوق .. وجعـــل الأجل ثلاث سنين .

ولما اخبر ابو بكر رسول الله بتلك المراهنة .. قال له ــ عليه الصـــلاة والسلام :

« زد فى الخطر ..وابعد فى الأجل » أى زد فى عدد النـــوق .. وزد فى عدد الســـنين .. لان الثلاثة أصغر البضع .

فجعلاها مائة ناقة .. الى تســـع سنين .

ومات أبى .. من ضربة ضربها له رسول الله فى غزوة احد ــ كما ذكرنا ــ وصدق الله وعده.. وحقق قوله .. فاستطاع هرقل قيصر الروم.. بعد مد وجزر بين قواته وقوات الفرس .. أن ينتصر على الدولة الفارسية .. انتصارا تاما فى أول ديسمبر سنة ٦٢٦ ميلادية .. فى موقعـــة نينوى .. بعد خمس سنين من وعد الله لرسوله فى ســـورة الروم .

---

(١) ٢٨ ــ ســبا .

(٢) ١ ــ ٥ / الروم .

فانهزمت جيوش الفرس .. وفر كسرى الى عاصمة ملكه .

وكانت نهاية كسرى فى شهر فبراير سنة ٦٢٨م .. حيث قتله ابنه — شيرويه — بعد فتح الحديبية بزمن يسير .. وعقد صلحا مع الرومان .. على ان تعود الحدود الى ما كانت عليه .

فاخذ أبو بكر المراهنة من ذرية أبى .. فقال له — عليه الصلاة والسلام — تصدق بها

يقول قتادة : كان ذلك قبل تحريم — القمار ولكن مذهب أبى حنيفة استدل من هذا الحادث على جواز العقود الفاسدة .. كعقد الربا والمقامرة وغيرها فى وقت الحرب .

وكانت تلك الآية دليلا لا يقبل النقاش .. على صدق رسول الله .. وعلى أن القرآن الكريم منزل من عند الله .. ففيه اخبار بالغيب .. محدود الزمن .

ولما رجع — عليه الصلاة والسلام من صلح الحديبية .. وجد أن الأوان قد آن لدعوة الناس كافة .. فى جميع دول الأرض الى الاسلام .

واختار رسله من تجار المسلمين .. الذين يعرفون مسالك تلك الدول والبلاد .. وسبق وحيلهم اليها .. ويعرفون لغة اهلها .

واعد لهذا الأمر — خاتمه الشريف — وقد كتب فيه اسمه .. من اسفل الى اعلى .. محمد سطر .. ورسول سطر .. والله سطر .. ليكون لفظ الجلالة فى أعلى الخاتم .

فكان يختم به كتبه التى يحملها سفراؤه الى الملوك والأمراء ورؤساء الدول .

وقد بقى هذا الخاتم .. بعد وفاته — عليه الصلاة والسلام — فى يد أبى بكر .. ثم فى يد عمر .. ثم فى يد عثمان .. حتى وقع فى بئر « أريس » .. فى السنة التى قتل فيها عثمان .. فبحثوا عنه ثلاثة أيام فلم يجدوه .

— ١ — الى هرقل قيصر الروم

بعد يوم الحديبية .. فى نهاية العام السادس من الهجرة .. كتب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كتابا الى هرقل — قيصر الروم .. هذا نصه .. كما ورد فى الصحيحين عنه — عليه السلام — « بسم الله الرحمن الرحيم » من محمد رسول الله .. الى هرقل عظيم الروم .

سلام على من اتبع الهدى — اما بعد ..

فانى ادعوك بدعاية الاسلام .. اسلم تسلم .. يؤتك الله أجرك مرتين .. فان توليت فان عليك اثم الأريسيين (١) . ويااهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم : الا نعبد الا الله .. ولا نشرك به شيئا .. ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله .. فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون » .

ثم ختم الكتاب بخاتمه .. وبعث به دحية بن خليفة الكلبى .. وامره ان يذهب الى الحارث ملك غسان — بالشام — وهو تابع لحكم الرومان .. ليوصله الى هرقل .

وكان هرقل قد نذر لله أن يحج الى المقدس .. ماشيا على قدميه .. شكرا لله .. اذا نصره على كسرى .. فخرج فى هذا الوقت .. خريف ٦٢٨م .. فى السنة السابعة من الهجرة .. وفاء بنذره .. ووصله كتاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو فى القدس .. فى شهر المحرم من السنة السابعة للهجرة .

واما فى رواية لابن عباس — رضى الله عنه — رأيت الا احرم القارىء الكريم منها .. لما فيها من طرافة وجدة .. وما فيها من شهادة اعداء رسول الله .. والفضل ما شهدت به الاعداء .

قال عبد الله بن عباس : حدثنى ابو سفيان بن حرب .. قال : كنا قوما تجارا .. وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله .. لم نامن الا نجد امنا .. فخرجت فى نفر من قريش تجار الى

---

(١) الاريس : الفلاح .

الشام .. وكان وجه متجرنا منها غزة .. فقدمناها حين ظهر هرقل على من كان بأرضه من فارس واخرجهم منها .. وانتزع له منهم صليبه الأعظم .. وكانوا قد استلبوه اياه .. فلما بلغ ذلك منهم .. وبلغه ان صليبه قد استنقذ له .. وكانت حمص منزله .. فخرج منها يمشى على قدميه .. متشكرا لله حين رد عليه ما رد .. ليصلى فى بيته المقدس .. وتبسط له البسط .. وتلقى عليه الرياحين .. فلما انتهى الى ايلياء — المقدس — وقضى فيه صلاته .. ومعه بطارقته واشراف الروم .. اصبح ذات غداة مهموما يقلب طرفه الى السماء .. فقال له بطارقته : والله لقد اصبحت ايها الملك الغداة مهموما .. قال : اجل .. اريت هذه الليلة ان ملك الختان ظاهر .

قالوا : ايها الملك .. ما نعلم امة تختن الا اليهود .. وهم فى سلطانك وتحت يدك .. فابعث الى كل من لك عليه سلطان فى بلادك .. فمره فليضرب اعناق كل من تحت يده من اليهود .. واسترح من هذا الهم .. فو الله انهم لفى ذلك من رايهم يدبرونه .. اذ أتاه رسول صاحب بصرى برجل من العرب يقوده .. وكانت الملوك تهادى الاخبار بينها .. فقال : ايها الملك .. ان هذا الرجل من العرب .. من اهل الشاء والابل .. يحدث عن امر عجب .. حدث ببلادهم .. فسله عنه — .

فلما انتهى به رسول صاحب بصرى الى هرقل .. قال هرقل لترجمانه : سله ما كان من هذا الحدث الذى ببلاده .. فسأله .. فقال : خرج من بين اظهرنا رجل يزعم انه نبى .. قد اتبعه ناس وصدقوه .. وخالفه ناس .. وقد كانت بينهم ملاحم فى مواطن كثيرة .. فتركتهم على ذلك .. قال : فلما أخبره الخبر .. قال : جردوه من ثيابه . فجردوه .. فاذا هو مختون .. فقال هرقل : هذا والله الذى اريت .. لا ما تقولون .

اعطوه ثيابه .. ثم دعا صاحب الشرطة .. فقال له : قلب الشام ظهرا وبطنا .. حتى تأتى برجل .. من قوم الرجل — يعنى النبى —

فقال ابو سفيان : فو الله انا لفى غزة .. اذ هجم علينا صاحب شرطته .. فقال : انتم من قوم هذا الرجل الذى بالحجاز ؟ .. قلنا نعم .. قال : انطلقوا بنا الى الملك .. فانطلقنا معه .. فلما انتهينا اليه .. قال : انتم من — رهط هذا الرجل ؟ .. قلنا : نعم قال : فايكم امس به رحما ؟ .. قلت : انا .. قال ابو سفيان : فاقعدنى بين يديه واقعد اصحابى خلفى .. ثم قال : انى سأسأله .. فان كذب فردوه عليه .. فو الله لو كذبت ما ردوا على .. ولكنى كنت امرأ سيدا اتكرم عن الكذب .. وعرفت أن أيسر ما فى ذلك ان كذبته .. ان يحفظوا ذلك على .. ثم يحدثوا به عنى .. فلم اكذبه .

فقال : اخبرنى عن هذا الرجل .. الذى خرج بين اظهركم يدعى ما يدعى .

قال : فجعلت ازهد له شأنه .. واصغر له من امره .. واقول له : ايها الملك ما يهمك من امره ؟ .. ان شأنه دون ما يبلغك .. فجعل لا يلتفت الى ذلك .

ثم قال : انبئنى عما اسألك عنه من شأنه .. قلت : سل عما بدالك .

قال : كيف نسبه فيكم ؟ .. قلت محض اوسطنا نسبا .

قال : فاخبرنى .. هل كان من أهل بيته يقول مثل ما قال ؟ فهو يتشبه به ؟ .

قلت : لا .

قال : فاخبرنى عن اتباعه منكم .. من هم ؟

قلت : الضعفاء والمساكين والاحداث والغلمان والنساء .. وأما ذوو الشأن والشرف من قومه فلم يتبعه منهم أحد .

قال : اخبرنى عمن اتبعه .. أيحبه ويلزمه .. ام يقليه ويفارقه ؟ .

قلت : ما اتبعه رجل ففارقه .

قال : اخبرنى .. كيف الحرب بينكم وبينه ؟

قلت : سجال .. يدال علينا .. ونداله عليه .

قال : فاخبرنى .. هل يغدر ؟

قال ابو سفيان : فلم اجد شيئا مما سالنى عنه اغمزه فيه غيرها ..

قلت : لا .. نحن منه فى هدنة .. ولا نامن غدره .

قال : فو الله ما التفتت اليها منى .. ثم كر على الحديث .

قال : سالتك .. كيف نسبه فيكم ؟ .. فزعمت انه محض من اوسطكم نسبا .. وكذلك ياخذ الله النبى .. اذا اخذه .. لا ياخذه الا من اوسط اقومه نسبا .

وسالتك .. هل كان احد من اهله يقول بقوله .. فهو يتشبه به .. فزعمت ان لا .

وسالتك .. هل كان له فيكم ملك فاستلبتموه منه .. فجاء بهذا الحديث يطلب به ملكه ؟ .. فزعمت ان لا .

وسالتك عن اتباعه ؟ فزعمت انهم الضعفاء والمساكين والأحداث والنساء .. وكذلك اتباع الانبياء فى كل زمان .

وسالتك عمن يتبعه .. ايحبه ويلازمه .. ام يقليه ويفارقه ؟ .. فزعمت ان لا يتبعه احد فيفارقه .. وكذلك حلاوة الايمان .. لا تدخل قلبا فتخرج منه .

وسالتك هل يغدر ؟ فزعمت ان لا .

فلئن كنت صدقتنى عنه .. ليغلبن على ما تحت قدمى هاتين .. ولوددت انى عنده فاغسل اقدميه .. انطلق لشانك .

قال : فقمت من عنده .. وانا اضرب احدى يدى بالاخرى .. واقول : اى عباد الله لقد امر امر ابن ابى كبشة (١) .. اى عظم امره — اصبح ملوك بنى الأصفر يهابونه فى سلطانهم بالشام .

قال : وقدم عليه كتاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فاخذ الكتاب .. فجعله بين فخذيه وخاصرته .

ولما قرىء له الكتاب .. غضب ابن اخيه غضبا شديدا .. وقال : ارنى الكتاب .. فقال له : وما تصنع به ؟ .. قال : انه بدأ بنفسه .. وسماك صاحب الروم .. فقال له عمه : والله انك لضعيف الرأى .. تريد ان ارمى كتاب رجل يأتيه الناموس الاكبر ؟ .. لئن كان رسول الله .. انه لاحق ان يبدأ بنفسه .. وقد صدق .. انا صاحب الروم ثم امر بانزال دحية واكرامه .

وفى البخارى :

ان قيصر الروم — هرقل — لما صار الى حمص .. اذن لعظماء الروم فى دسكرة له .. ثم امر بابوابها فغلقت .. ثم اطلع فقال :

يا معشر الروم .. هل لكم من الفلاح والرشد .. وان يثبت لكم ملككم .. فتتابعوا هذا النبى .. فحاصوا حيصة حمر الوحش الى الأبواب .. فوجدوها قد اغلقت .. وقالوا : اتدعونا ان نترك النصرانية .. ونصير عبيد الأعرابى ؟ .

فلما راى نفرتهم .. وايس من ايمانهم .. قال : ردوهم على .. وقال : انى قلت مقالتى .. اختبر بها شدتكم على دينكم .. فقد رأيت .

فسجدوا له .. ورضوا عنه .. فلم يسلم هرقل .

---

(١) ابو كبشة : جد آمنة — ام الرسول .. كان يكنى ابا كبشة .. خالف قريشا فى عبادة الاصنام .. فشبهوا به النبى ﷺ.

ــ ٢ ــ الى ابرويز ــ كسرى فارس ــ

وكتب الى كسرى ــ ابرويز بن هرمز ــ كتابا .. هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم .. من محمد رسول الله .. الى كسرى عظيم فارس .

سلام على من اتبع الهدى .. وآمن بالله ورسوله .. وشهد أن لا اله الا الله .. وحده لا شريك له .. وأن محمدا عبده ورسوله .. ادعوك بدعاية الله ــ عز رجل ــ فانى رسول الله الى الناس كافة .. لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين .. اسلم تسلم فان توليت فعليك اثم المجوس » .

ثم ختمه بخاتمه .. وبعث به مع عبد الله بن حذافة السهمى .. وكان ابن حذافة كثيرا ما يتردد على كسرى .

فمزق كسرى كتاب رسول الله .

وبلغ ذلك رسول الله .. فقال : « مزق ملكه » .

وجاء فى كتاب ــ الأموال ــ لصاحبه ابى عبيد .. قال :

كتب ــ عليه السلام ــ الى كسرى وقيصر .. فأما كسرى .. فلما قرأ الكتاب مزقه .. وأما قيصر فلما قرأ الكتاب طواه ثم رفعه .. فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « أما هؤلاء فيمزقون .. وأما هؤلاء فسيكون لهم بقية » .

ثم كتب كسرى الى ــ باذان ــ اميره فى اليمن .. ابعث الى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين من عندك جلدين .. فليأتيانى به .

فبعث باذان رجلين .. هما « بابويه » و « خرخسرة » وكتب معهما الى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يأمره أن ينصرف معهما الى كسرى .

فقدما الطائف فوجدا رجالا من قريش بالطائف .. فسألاهما عنه .. فقالوا : هو بالمدينة .. وفرح القرشيون .. وقالوا لبعضهم .. ابشروا فقد نصب له كسرى ملك الملوك .. وكفيتم الرجل .. فخرجا حتى قدما على رسول الله .. فكلمه بابويه .. فقال : ان شاهنشاه ملك الملوك ــ كسرى ــ قد كتب الى الملك باذان .. يأمره أن يبعث اليك من يأتيه بك .. وقد بعثنى اليك .. لتنطلق معى .. فان فعلت .. كتب فيك الى ملك الملوك ينفعك .. ويكفه عنك .. وان أبيت فهو من قد علمت .. فهو مهلكك .. ومهلك قومك .. ومخرب بلادك .

دخلا على رسول الله .. وقد حلقا لحاهما .. واعفيا شواربهما .. فكره النظر اليهما .. ثم اقبل عليهما .. فقال : « ويلكما .. من أمركما بهذا » .. قالا : ربنا ــ يعنيان كسرى ــ فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ « لكن ربى أمرنى باعفاء لحيتى وقص شاربى » .

ثم قال لهما : ارجعا حتى تأتيانى غدا .

واتى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الخبر من السماء .. أن الله قد سلط على كسرى ابنه ــ شيرويه ــ فقتله فى ساعة كذا .. من ليلة كذا .. من شهر كذا .

قال الواقدى : قتل شيرويه اباه كسرى ليلة الثلاثاء لعشر ليال مضين من جمادى الأولى من سنة سبع .. لست ساعات مضت منها .

فدعاهما رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فاخبرهما .. فقالا : هل تدرى ما تقول ؟ انا قد نقمنا عليك ما هو ايسر من هذا .. أفتكتب هذا عنك .. ونخبره الملك ؟ .

قال : « نعم اخبراه ذلك عنى .. وقولا له ان دينى وسلطانى سيبلغ ما بلغ ملك كسرى وينتهى الى منتهى الخف والحافر .. وقولا له : انك ان اسلمت أعطيتك ما تحتك يدك .. وملكتك على قومك من الأبناء .. ثم اعطى ــ خرخسرة ــ منطقة فيها ذهب وفضة .. كان أهداها له بعض الملوك .

فخرجا من عنده .. حتى اقدما على باذان ملك اليمن .. فقال : والله ما هذا بكلام ملك .. وانى لأرى الرجل نبيا كما يقـول .. ولننظرن ما قد قال .. فلئن كان هذا حقا ما فيـه كلام انه لنبى مرسل .. وان لم يكن .. فسـنرى فيه رأينا .

ووصل « باذان » كتاب من « شيرويه » فيه :

((وبعد)) فانى قتلت كسرى .. ولم أقتله الا غضبا لفارس .. لما كان استحل من قتل اشرافهم .. وتجميرهم فى ثغورهم .. فاذا جـاءك كتابى هذا .. فخذ لى الطاعة من قبلك .. وانظـر الرجل الذى كان كسرى كتب فيه اليك .. فلا تهجه حتى يأتيك أمرى فيه .

فقال – باذان – ان هذا الرجل لرسول .. واسلم .. واسلم من كان معه باليمن من فارس .

فكانت حمير تقول لخرخسرة « ذا المعجزة » لان المنطقة بلغتهم اسمها معجزة .

ومازال ابناؤه الى اليـوم ينتسبون اليه فيقولون – ابناء ذى المعجزة –

وقد قال – بابويه – لباذان : ما كلمت رجلا قط أهيب عندى منه .. فقال باذان : هل معه شرطة ؟ .. قال : لا .

ولما اسـلم باذان .. ولاه النبى – عليـه السلام – على مخاليف اليمن .. وكان مقـره صنعاء – دار مملكة التبابعه – وبقى حتى مات بعد حجة الوداع .. فولى النبى ابنه « شهر » ابن باذان على صنعاء .. وولى على كل جهـة واحدا من الصحابة .

وملك الله المسـلمين ملك كسرى وخزائنهم واموالهم .. فى خـلافة عمر .. ومزقهم الله كل ممزق .. وتحققت دعوة الرسول عليهم .

ومن الغـريب ان يخـرج المؤرخ الأوربى ((نورث)) فيقول فى كتابه – موجز عن الاسلام – طبعة ١٩٣٤م .. ان رسول الله لم يرسل كتابا الى كسرى .. ولم يرسـل كتـابا الى قيصر الروم .

وهذا القول – كما ترى – لا يستحق شرف النقاش .. لانه لم يصدر عن اقتناع .. فتلك حقائق تاريخية ثابتة .. وانما صدر عن قلب ملىء بالحقد .. مفعم بالغل والكراهية .

– ٣ – الى اصحمة نجاشى الحبشة :

وكتب – عليه الصلاة والسلام – كتابا الى – اصحمة – نجاشى الحبشة .. قال فيه : (١)

« بسـم الله الرحمن الرحيم » من محمـد رسول الله .. الى النجاشى ملك الحبشـة .. اسلم انت فانى أحمد الله اليك .. الذى لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن .. واشهد ان عيسى بن مريم .. روح الله وكلمته القاها الى مريم البتول .. الطيبة الحصينة .. فحملت بعيسى .. فخلقه من روحه .. ونفخه كمـا خلق آدم بيـده .

وانى ادعوك الى الله وحده .. لا شريك له .. والموالاة على طاعته .. وان تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى .. فانى رسـول الله .. وانى ادعـوك وجنودك الى الله تعالى .. وقد بلغت ونصحت .. وقد بعثت اليكم ابن عمى جعفرا .. ومعه نفر من المسلمين .. والسلام على من اتبع الهدى »

ثم ختمه بخاتمة .. وبعثه مع عمرو بن أمية الضمرى .

وزاد ابن اسحاق دون غيره من الرواة :

ان عمـرا الضـمرى .. قال للنجاشى : **يا أصحمة .. انك كانك فى الرقة علينا .. وكانا** فى الثقة بك منك .. لانا لم نظن بك خيرا قط الا نلناه .. ولم نخفـك على شىء قط الا امناه .. وقد اخذنا الحجة عليك من فيك .. الانجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد .. وقاض لا يجور .. وفى ذلك الموقع الحز واصابة الفصـل .. والا فانت من هذا النبى الأمى .. كاليهود من عيسى بن مريم .. وقد فرق النبى – عليه الصـلاة والسلام –

---

(١) هكذا فى كتب السيرة .. الا النبهانى .. فذكر هنا – اما بعد – .

رسله الى الناس .. فرجاك ما لم يرجهم له .. وامنك على ما اخافهم عليه بخير سالف .. واجر ينتظر .

واتفق الرواة على ان النجاشي قال بعد ان قرأ الكتاب ـ كتاب رسول الله :

اشهد بالله انه النبى الأمى .. الذى ينتظره اهل الكتاب .. وان بشارة موسى براكب الحمار .. كبشارة عيسى براكب الجمل .. وان العيان ليس بأشفى من الخبر .

ثم كتب النجاشي كتابا الى رسول الله .. قال فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم .. الى محمد رسول الله .. من النجاشي اصحمة بن الابحر .

سلام عليك يا رسول الله .. ورحمة الله .. وبركات الله .. الذى لا اله الا هو .. الذى هدانى للاسلام ـ **اما بعد** ـ

فقد بلغنى كتابك يا رسول الله .. فما ذكرت من امر عيسى .. فورب السماء والأرض .. ان عيسى لا يزيد على ما ذكرت ثغروفا (١) .. انه كما ذكرت .. وقد عرفنا ما بعث به الينا . فاشهد انك رسول الله صادقا مصدقا .. وقد بايعت وبايعت ابن عمك .. واسلمت على يديه لله رب العالمين .. وقد بعثت اليك بابنى .. وان شئت ان آتيك بنفسى فعلت يا رسول الله .. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » (٢) .

ثم ارسل ابنه ـ ارها ـ بن أصحمة بن الابجر .. فى ستين نفسا .. فى اثر من ارسله من عنده مع جعفر بن ابى طالب .. وكان مع جعفر سبعون رجلا .. عليهم ثياب الصوف .. منهم اثنان وستون من الحبشة .. وثمانية من اهل الشام .

فقرأ عليهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ « سورة يس الى آخرها » .. فبكوا حين سمعوا القرآن وآمنوا .. وقالوا : ما اشبه هذا بما كان ينزل على عيسى .

وفيهم انزل الله تعالى (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون ❊ واذا سمعوا ما انزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين) (٣)، لأنهم كانوا من العباد اصحاب الصوامع .

وقال ابن اسحاق :

« ذكر لى أن النجاشي بعث ابنه فى ستين من الحبشة فى سفينة غرقت بهم فى البحر وهلكوا » فاذا صح هذا الخبر .. فيكون الرسول عليه الصلاة والسلام .. قد قرأ ـ يس ـ على أصحاب جعفر فى سفينته .. الأحباش والشوام .

وفى **صحيح البخارى** عن جابر ـ رضى الله عنه ـ قال .. قال النبى صلى الله عليه وسلم حين مات النجاشي : « مات اليوم رجل صالح .. فقوموا فصلوا على اخيكم اصحمة » .

وفى شرح البخارى للقسطلانى « فصلوا على أخيكم فى الاسلام » .

ويحاول بعض الكتاب الغربيين .. أن يشكك فى اسلام النجاشي اصحمة :

ولعل هؤلاء يتجاهلون أن أصحمة كان مسيحيا نسطوريا .. كما قرر ذلك « ايرفنج » فى كتابه ـ حياة محمد ـ وكما قرره أيضا مستر « موير » فى كتابه .

ومعروف أن مذهب نسطور .. يقوم على التوحيد .. وينكر الوهية المسيح .. ومن ذلك قول نسطور بالنص : « لا تقولوا مريم ام الله .. لانها من البشر .. ويستحيل ان يولد الاله من البشر » .

وكان لنسطور اتباع كثيرون فى المسيحية .. منهم الكثير من القسيسين والرهبان .. وكان

---

(١) الثغروف : علاقة ما بين نواة البلحة وقمعها .
(٣) ٨٢ ـ ٨٣ / المائدة .
(٢) كل كتب السيرة .

منهم بحيرا الراهب .. الذى اكرم النبى وهو غلام .. وعرفه بعلامات فيه ــ كما قدمنا ــ

ولنسطور مكانة رفيعة فى الديانة المسيحية فقد كان بطريارك القسطنطينية من عام ٤٢٨ ــ ٤٣١ هـ .. كما ورد فى دائرة المعارف الانجليزية .

ولكنه اضطهد ونفى بسبب عقيدته تلك فى عبودية عيسى ــ عليه السلام .

فما ان سمع النجاشى قراءة جعفر بن أبى طالب عندما هاجر الى الحبشة .. وطلبه النجاشى ليسأله عن دينه .. وقرأ له جعفر قول عيسى فى القرآن من سورة ــ مريم ــ قال :

(قال انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا) الى قوله تعالى (ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون) .. فهو ليس ابن الله .. كما يعتقد غير النسطوريين من المسيحيين .. حتى وجد فى هذا القول حلاوة الايمان .. واحس أنه وما جاء به موسى وعيسى يخرج من مشكاة واحدة .. ولمس فيه تأييدا لعقيدته النسطورية .. فبادر بالاسلام .

وقد رأينا النجاشى يبايع عمرو بن العاص ــ وهو مشرك ــ ودعاه الى الاسلام على يديه وقلنا : صحابى جليل يسلم على يد تابعى .

ولا يفوتنا هنا أن نشير الى زواج رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بأم المؤمنين ــ أم حبيبة بنت ابى سفيان .. وهى فى الحبشة .

وذلك ان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أرسل الى النجاشى ليزوجه ــ أم حبيبة ــ بنت ابى سفيان .. ويرسلها اليه مع من عنده من المسلمين .

وهى ــ رملة ــ اخت معاوية .. كانت من اوليات المسلمات .. هاجرت الى الحبشة مع زوجها ــ عبيد الله بن جحش ــ فولدت بها ابنتها حبيبة .. التى كنيت بها .. وقد اعتنق زوجها عبيد الله النصرانية .. وهو فى الحبشة .. ومات بها نصرانيا .

وبقيت أم حبيبة على اسلامها .. حتى تزوجها ــ عليه الصلاة والسلام ــ

يقول محمد بن عمر :

ارسل رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الى النجاشى .. ليزوجه ــ أم حبيبة ــ فارسل النجاشى جارية له .. يقال لها ــ أبرهة ــ الى ام حبيبة .. يخبرها بخطبة رسول الله اياها .. فأعطتها أوضاحا لها وفتخا (١) .. سرورا بذلك الخير .. وأمرها ان توكل من يزوجها .. فوكلت **خالد بن سعيد بن العاص .**

فخطب النجاشى عن رسول الله .. وخطب خالد .. فانكح أم حبيبة .. ثم دعا النجاشى بأربعمائة دينار صداقها .. فدفعها الى خالد بن سعيد .. فلما جاءت أم حبيبة تلك الدنانير .. جاءت بها الجارية ــ ابرهة ــ فأعطتها خمسين مثقالا .. وقالت : كنت اعطيتك ذلك وليس بيدى شىء .. وقد جاء الله عز وجل بهذا .. فقالت ابرهة قد أمرنى الملك أن لا آخذ منك شيئا .. وان أرد اليك الذى اخذت منك .. وانا صاحبة دهن الملك وثيابه .. وقد صدقت محمدا رسول الله .. وآمنت به .. وحاجتى اليك .. ان تقرئيه منى السلام .. قالت : نعم .

وقد أمر الملك نساءه ان يبعثن اليك بما عندهن من عود وعنبر ..

فكان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يراه عليها وعندها .. فلا ينكره .

وقالت أم حبيبة ــ رضى الله عنها :

فخرجنا فى سفينتين .. وبعث معنا النواتى .. حتى قدمنا الحار .. ثم ركبنا الظهر الى المدينة .. فوجدنا رسول الله بخيبر .. فخرج من خرج اليه .. واقمت بالمدينة .. حتى قدم رسول الله .. فدخلت اليه .. فكان يسألنى عن النجاشى .

---

(١) الوضح : الخلخال . والفتخة : خاتم من فضة .. لا فص فيه .. كان يلبسه النساء فى الجاهلية .. فى اصابع القدمين .

وقرات عليه من الجارية ـ أبرهة ـ السلام .. فرد الرسول عليها .

ولما علم أبو سفيان بزواج النبى من أم حبيبة .. قال :

« ذلك الفحل لا يقرع أنفه » .

ولعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اراد من زواج ام حبيبة بنت ابى سفيان .. ان يستميل اباها الى دينه ..

وتوفيت ـ ام حبيبة ـ فى سنة ٤٤ هجرية .

٤ ـ الى المقوقس عظيم القبط فى مصر :

وكتب ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى المقوقس ـ عظيم القبط فى مصر .. كتابا هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم .. من محمد عبد الله ورسوله .. الى المقوقس عظيم القبط .

سلام على من اتبع الهدى ـ اما بعد ـ

فانى أدعوك بدعاية الاسلام (١) .. اسلم تسلم .. واسلم يؤتك الله أجرك مرتين .. فان توليت فان عليك اثم اهل القبط (يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) » .

ثم ختم الكتاب بخاتمه .. وبعث به مع حاطب ابن ابى بلتعة .

وهذا الكتاب محفوظ بدار الآثار الاسلامية .. فى الآستانة بتركيا .. قيل عثر عليه عالم فرنسى فى دير بمصر قرب أخميم .. فى أيام سعد باشا .

فلما دخل حاطب على المقوقس .. قال له : انه كان قبلك رجل يزعم انه الرب الأعلى .. ـ يقصد فرعون موسى ـ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى .. فانتقم به .. ثم انتقم منه .. فاعتبر بغيرك .. ولا يعتبر غيرك بك .

فقال : ان لنادينا .. لن ندعه الا لما هو خير منه .

فقال له حاطب : ندعوك الى دين الاسلام .. الكافى به الله عن غيره .. ان هذا النبى دعا الناس .. فكان أشدهم عليه قريش .. وأعداهم له اليهود .. واقربهم منه النصارى .. ولعمرى ما بشارة موسى بعيسى .. الا كبشارة عيسى بمحمد .. وما دعاؤنا اياك الى القرآن .. الا كدعائك أهل التوراة الى الانجيل وكل نبى أدرك قوما .. فهم امته .. فالحق عليهم أن يطيعوه .. وأنت ممن أدركه هذا النبى .. ولسنا ننهاك عن دين المسيح .. ولكنا نأمرك به .

فقال المقوقس : انى قد نظرت فى أمر هذا النبى .. فوجدته لا يأمر بمزهود فيه .. ولا ينهى عن مرغوب فيه .. ولم أجده بالساحر الضال .. ولا الكاهن الكاذب .. ووجدت معه آية النبوة باخراج الخبء .. والاخبار بالنجوى .. وسأنظر (٢) .

واخذ كتاب النبى .. فجعله فى حق من عاج .. وختم عليه .. ودفعه الى جارية له (٢) .

ثم دعا كاتبا يكتب بالعربية .. فكتب الى رسول الله كتابا .. هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم .. لمحمد بن عبد الله .. من المقوقس عظيم القبط .

سلام عليك .. اما بعد .

فقد قرات كتابك .. وفهمت ما ذكرت فيه .. وما تدعو اليه .. وقد علمت أن نبيا بقى .. وكنت اظنه يخرج بالشام .. وقد اكرمت رسولك .. وبعثت اليك بجاريتين .. لهما مكان عظيم فى القبط .. وبكسوة .. واهديت اليك بغلة لتركبها .. والسلام عليك .» .

ولم يزد على هذا .. ولم يسلم .

والجاريتان : هما مارية سيرين .. والبغلة دلال ـ وبقيت هذه البغلة الى زمن معاوية .

---

(١) دعاية الاسلام : الشهادة .

(٢) كل كتب السيرة .

(٢) ابن قيم الجوزية ـ زاد المعاد ـ .

ولنا وقفة صغيرة .. امام موقف المقوقس حيال كتاب رسول الله .. والهدايا التى ارسل بها اليه .. لأن على رأس تلك الهدايا .. السيدة ـ مارية .. التى أحبها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وولدت له ابنه ـ ابراهيم ـ ولم ينجب من غيرها بعد ـ خديجة ـ رضى الله عنها .

فقد كانت السيدة مارية.. كبيرة الوصيفات فى القصر الملكى بمصر .. كانت متفقهة فى دينهـا المسيحى .. دارسة متعمقة فى التوراة والانجيل .. كثيرة التحدث مع سيدها المقوقس .. عن البشريات الواضحة .. والايات البينة .. التى تدل على قـرب ظهور تمام الرسالات ـ وبزوغ نجم آخر الأنبياء .. فما ان وصله كتاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ حتى تيقن من صدق نبوءة مارية .. وبعد نظرها .. وثاقب فكرها .

ولهذا رايناه يخاطب حاطبا بما قال .. كما رايناه يضع الكتاب فى حق من العـاج .. ثم يختمه بخاتمه .. ويدفعه الى مارية .. كمـا اجمعت على ذلك كل كتب السيرة .

بادر المقوقس مارية قائلا لها .. وقد انفرجت شفتاه عن بسمة عريضة : يا مارية .. لقـد ظهر ما كنت تتنبئين به .. فقلت : ماذا ؟ .. قال : ظهر نبى جديد فى الجزيرة العربية .. من الشرق كما كنت تتوقعين .. يدعونى الى دينه الجديد .. وها هو ذا كتابه الذى بعث به الى.. لقد صدقت نبوءتك .. وتحقق امالك .. واسمه ـ محمد ـ فأخذت منه حق العـاج الذى فيه الكتاب .. وقد خفق قلبهـا اضطرابا .. وكأنه يريد أن ينطلق من صدرها .. ليسـبقها الى حيث يوجد هذا الذى بشرتها به كتب السماء .. ثم قالت : وماذا انت صانع معه يا مولاى ؟ .. قال : سأكرم رسـوله .. وارسـل الكثير من الهدايا .. فقالت : ارجـو أن أكون من بين تلك الهدايا ؟ .

فقال : لك ذلك يا مارية .

وجاء فى الحديث الشريف :

« اهدى المقـوقس الى النبى ـ مارية ـ من حفن من ـ رستاق انصنا » (١) .

وهى مارية بنت شمعون .. وامها رومية .

واكرم المقوقس حاطب بن أبى بلتعه.. وارسل معه من الهدايا غير السيدة مارية أختها سيرين .. وبغلة أصيلة شهباء .. وعسـلا من عسل بنها .. وعشرين ثوبا من قباطى مصر .. وطيبا وعودا ومسكا .. كما قيل انه ارسـل من بين الهدايا طبيبا مصريا .

وذكر المرحوم ـ حفنى ناصف ـ من هـدايا المقوقس للرسول .. غير ما ذكرنا :

جارية سوداء لخدمة مارية اسمها ـ بريرة ـ وغلاما اسود اسمه ـ هابو ـ وفرسـا ملجمـا اسمه ـ ميمون ـ ومربعة فيهـا مكحلة ومرآة ومشطا وقارورة دهن ومقصا وسواكا .. والف مثقال من الذهب .

وقد قبل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه الهدايا .. فاخذ مارية لنفسه.. واهدى سيرين لحسـان بن ثابت الشـاعر .. وهى أم عبـد الرحمن بن حسـان ـ ودعا بالبركـة فى عسل بنها .. أما الطبيب .. فقال له ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« ارجع الى اهلك .. نحن قوم لا ناكل حتى نجوع .. واذا اكلنا لا نشبع » .

واسلمت مارية وسيرين .. قبل وصـولهما الى المدينة .. على يد حاطب بن أبى بلتعه .. وقد وطأها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالملك

وكانت حسنة الدين .. كريمـة الخلق ـ جميلة الخلق .. وكان عليه الصلاة والسلام ـ يؤثرها بحبه .. ويعجب بنظامها وحسن ترتيبها .. حتى دبت الغيرة فى قلوب نسـائه منها .. وانزل الله فى شأنها قرآنا فى سورة ـ التحريم ـ

وولدت له ابنه ابراهيم .. فى ذى الحجـة .. سنة ثمان من الهجرة .. ففرح به رسـول

---

(١) قرية أثرية .. على ضفة النيل الشرقية .. قبالة قرية اشمونين ـ محافظة اسيوط . واسمها الآن : ما قوسة .. تابعة الآن لمحافظة المنيا .

الله .. وعق عنه بشاة .. يوم السابع من ولادته .. وحلق راسه فتصدق بزنة شعره فضة على المساكين .. وامر بدفن شعره .

وكانت قابلة مارية ـ سلمى ـ مولاة رسول الله .. فخرجت سلمى واخبرت زوجها ابا رافع بان ماريه قد ولدت لرسول الله غلاما .. فجاء ابو رافع الى رسول الله فبشره .. فوهب له عبدا .

وتنافست فيه نساء الأنصار .. ايتهن ترضعه .. فدفعه رسول الله الى أم برده بنت المنذر ـ من بنى النجار ـ وزوجها البراء بن اوس .. فكانت ترضعه .

ومات ابراهيم صغيرا .. مات فى ربيع الاول فى العام العاشر الهجرى .. وعمره سته عشر شهرا .

وقد حزن ـ عليه السلام ـ لموته حزنا شديدا

دخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو معتمد على عبد الرحمن بن عوف .. وابراهيم يجود بنفسه .. فلما مات دمعت عينا رسول الله .. فقال له عبد الرحمن :

اى رسول الله .. هذا الذى تنهى الناس عنه .. متى يراك المسلمون تبكى يبكون ـ فلما سريت عنه عبرته .. قال :

« انما هذه رحمة .. وان من لم يرحم لا يرحم .. انما ننهى عن النياحه .. وان يندب الرجل بما ليس فيه .. انا عليه لمحزونون .. تدمع العين .. ويحزن القلب ـ ولا نقول ما يسخط الرب .. وفضل رضاعه فى الجنة »

وانكسفت الشمس يوم مات براهيم .. فأذاع الناس : ان الشمس كسفت حزنا على موت ابراهيم .. فقال ـ عليه السلام ـ :

« ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله .. لا ينكسفان لموت احد » .

هكذا كان يتحرى الصدق والحقيقة .. ولم يستغل تلك الشائعة .. ويتركها تتردد على السنة المسلمين .

ولهذا يقول مسيو ـ درمنجم ـ فى كتابه عن محمد .. بمناسبة هذا الحادث :

« ان محمدا كان واسع العقل .. فرد على هذه الخرافه الجميلة بقوله :

« ان الشمس والقمر لا ينكسفان لموت احد » .. وهذه كلمات لا يقولها مخادع » ـ ا هـ ـ

وتوفيت السيدة مارية ـ رضى الله عنها ـ فى خلافة عمر سنة ١٦ ـ هـ ودفنت فى البقيع .. وكان عمر يجمع الناس بنفسه .. لشهود جنازتها .. وصلى عليها .

ـ ٥ ـ الى المنذر بن ساوى امير البحرين :

وكتب عليه السلام ـ الى المنذر بن ساوى كتابا يدعوه فيه الى الاسلام .

ولم يستدل احد من رجال السيرة .. على نص الكتاب الاول .. الذى بعثه الرسول لى المنذر .. وانما ذكرت كتب السيره .. ما نابه الو قدى باسناده عن عكرمه .. قال : وجدت كتابا .. فى كتب ابن عباس بعد موته .. فنسخته فاذا فيه :

« بعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ العلاء بن الحضرمى .. الى المنذر بن ساوى .. وكتب اليه كتابا .. يدعوه فيه الى الاسلام .. فكتب المنذر الى الرسول ـ اما بعد ـ يا رسول الله .. فانى قرات كتابك على اهل البحرين .. فمنهم من احب الاسلام واعجبه ودخل فيه .. ومنهم من كرهه .. وبارضى مجوس ويهود .. فاحدث الى فى ذلك امرك »

فكتب اليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« بسم الله الرحمن الرحيم » من محمد رسول الله .. الى المنذر بن ساوى :

سلام عليك .. فانى احمد اليك الله .. الذى لا اله الا هو .. واشهد ان لا اله الا الله .. .. وان محمدا عبده ورسوله ـ اما بعد .

فانى اذكرك الله ـ عز وجل ـ فانه من ينصح انما ينصح لنفسه .. وانه من يطع رسلى ..

ويتبع امرهم .. فقد اطاعنى .. ومن نصح لهم فقد نصح لى .. وان رسلى قد اثنوا عليك خيرا ..وانى قد شفعتك فى قومك ..فاترك للمسلمين ما اسلموا عليه .. وعفوت عن اهل الذنوب فاقبل منهم .. وانك مهما تصلح فلم نعزلك عن عملك .. ومن اقام على يهودية او مجوسية ـ فعليه الجزية ـ » .

ولم يعرف نص الكتاب الأول .

وجاءت فى كتاب ـ اسد الغابة ـ ان المنـذر سار من البحرين .. حتى وفد على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

كما ذكر الطبرى : ان المنذر بن ساوى .. مات قريبا من وفاة رسول الله .. وقدم عليه عمرو بن العاص .. وحضر وفاته .

ـ ٦ ـ الى ملكى عمان باليمن :

وكتب ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى ملكى عمان (١) باليمن كتابا هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ـ من محمد عبد الله ورسوله .. الى جيفر وعبد ابنى الجلندى . سلام على من اتبع الهدى ـ اما بعد

فانى ادعوكما بدعاية الاسلام ..اسلما تسلما .. فانى رسول الله الى النـاس كافة .. لانذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ..انكما ان اقررتما بالاسلام وليتكما .. وان ابيتما ان تقرا بالاسلام..فان ملككما زائل عنكما..وخيلى تحل بساحتكما .. وتظهر نبوتى على ملككما » .

ثم ختم الكتاب بخاتمه .. وبعثه مع عمرو ابن العاص .. ولنستمع معا الى عمرو يحكى لنا بنفسه ما حصل بينه وبينهما .. وهو حديث شيق حقا .

فيقول عمرو بن العاص :

خرجت حتى انتهيت الى عمـان .. فلمـا قدمتها عمدت الى عبد .. وكان احلم الرجلين .. واسهلهما خلقا .. فقلت : انى رسـول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اليك والى اخيك ..

فقال : اخى المقدم على بالسـن والملك .. وانا اوصلك اليه حتى يقرا كتابك .. ثم قال : وماذا تدعو اليـه ؟ . قلت ادعوك الى الله وحـده لا شريك له .. وتخلع ما عبد من دونه ..وتشهد أن محمدا عبده ورسوله .

قال : يا عمرو انت ابن سيد قومك .. فكيف صنع ابوك ؟ .. فان لنا فيه قدوة .

قلت : ماتولم يؤمن بمحمد ـ عليه السلام ـ ووددت انه اسلم وصدق به .. وقد كنت انا على مثل رايه .. حتى هدانى الله للاسلام .

قال : فمتى تبعتـه ؟ .. قلت قـريبا . فسالنى اين كان اسلامك ؟

قلت : عند النجاشى .. واخبرته ان النجاشى قد اسلم .

قال : فكيف صنع قومه بملكه ؟ .. قلت : اقروه واتبعوه .. قال : والأساقفة والرهبـان تبعوه ؟ .. قلت : نعم .. قال انظـر يا عمرو ما تقول .. انه ليس من خصـلة فى رجل افضح له من الكذب .. قلت : ما كذبت وما نستحله فى ديننا .

قال : ما أرى هرقل علم باسلام النجاشى.. قلت : بلى .. قال : بأى شيء علمت ذلك ؟

قلت : كان النجاشى يخرج له خرجا .. فلما اسلم وصدق بمحمد .. قال : لا والله لو سالنى درهما واحدا ما اعطيته .. فبلغ هرقل قوله .. فقال له ـ النياق ـ اخوه : اتدع عبـدك لا يخرج لك خرجا .. ويدين بدين غيرك دينا محدثا ؟ .. قال هرقل : رجل رغب فى دين.. فاختاره لنفسه .. ما اصنع به ؟ .. والله لولا الضن بماكى لصنعت كما صنع .

قال : انظر ما تقول يا عمرو .. قلت : والله قد صدقتك .

قال عبد : فاخبرنى ما الذى يامر به وينهى عنه ؟ ..

قلت : يامر بطاعة الله ـ عز وجـل ـ وينهى عن معصيته .. ويامر بالبر وصلة الرحم ..

---

(١) عمان . بضم العين باليمن .. اما عمان .. بفتح العين وتشديد الميم فانها بالشام .

وينهى عن الظلم والعدوان .. وعن الزنا .. وعن الخمر .. وعن عبادة الحجر والوثن والصنم والصليب ..

قال : ما احسن هذا الذى يدعو اليه .. لو كان أخى يتابعنى عليه .. لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به .. ولكن أخى اضن بملكه من ان يدعه .. ويصير ذنبا .

قلت : انه ان اسلم ملكه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على قومه .. فاخذ الصدقة من غنيهم .. فيردها على فقيرهم .

قال : ان هذا لخلق حسن .. وما الصدقة ؟ .. فاخبرته بما فرض الله ورسوله فى الصدقات والأموال .. حتى انتهيت الى الابل .

قال : ياعمرو .. وتؤخذ من سوائم مواشينا التى ترعى الشجر وترد المياه ؟ .. فقلت : نعم .

فقال : والله ما ادرى قومى فى بعد دارهم .. وكثرة عددهم .. يطيعون لهذا .

قال : فمكثت ببابه اياما .. وهو يصل الى اخيه .. فيخبره كل خبرى .. ثم انه دعانى يوما .. فدخلت عليه .. فاخذ اعوانه بضبعى - عضد الذراع - فقال : دعوه .. فارسلت .. فذهبت لاجلس .. فابوا ان يدعونى اجلس .. فنظرت اليه .. فقال : تكلم بحاجتك .. فدفعت اليه الكتاب مختوما .. ففض خاتمه وقرا .. حتى انتهى الى آخره .. ثم دفعه الى اخيه .. فقرا مثل قراءته .. الا انى رايت اخاه ارق منه .. قال : الا تخبرنى عن قريش كيف صنعت ؟ .. **فقلت :** تبعوه .. اما راغب فى الدين .. واما مقهور بالسيف .. **قال :** ومن معه ؟ .. **قلت :** الناس قد رغبوا فى الاسلام واختاروه على غيره .. وعرفوا بعقولهم .. مع هدى الله اياهم .. انهم كانوا فى ضلال .. فما اعلم احدا بقى غيرك فى هذه الخرجة .. وانت ان لم تسلم اليوم وتتبعه .. توطئك الخيل .. وتبيد خضراك .. فاسلم تسلم .. ويستعملك على قومك .. ولا تدخل عليك الخيل والرجال .

قال : دعنى يومى هذا .. وارجع الى غدا .

فرجعت الى اخيه .. فقال : ياعمرو انى لارجو ان يسلم .. ان لم يضن بملكه .

حتى اذا كان الغد اتيت اليه .. فابى ان ياذن لى .. فانصرفت الى اخيه فاخبرته انى لم اصل اليه .. فاوصلنى اليه .

فقال : انى فكرت فيما دعوتنى اليه .. فاذا انا اضعف العرب .. ولن تبلغ خيله ههنا .. وان بلغت خيله .. لاقت قتالا ليس كقتال من لاقى .

قلت : وانا خارج غدا .

فلما ايقن بمخرجى .. خلا به اخوه .. فقال : ما نحن فيما ظهر عليه .. وكل من ارسل اليه قد اجابه ؟ .

فاصبح فارسل الى .. واجاب الى الاسلام .. هو واخوه جميعا وصدقا النبى - صلى الله عليه وسلم - وخليا بينى وبين الصدقة .. وبين الحكم فيما بينهم وكانا لى عونا على من خالفنى .

٧ - الى هوذة بن على - صاحب اليمامة :

وكتب - صلى الله عليه وسلم - كتابا الى صاحب اليمامة - هوذة بن على - .

واليمامة بلاد شرقى مكة .. كثيرة النخيل .. على بعد ست عشرة مرحلة من مكة .. اى ما يقرب من مائة وخمسين ميلا .. وهوذة رئيسهم .. وهم مسيحيون يسمون بنو حنيفة .. وهذا نص الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم - من محمد رسول الله .. الى هوذة بن على :

سلام على من اتبع الهدى .. واعلم ان دينى سيظهر الى منتهى الخف والحافر .. فاسلم تسلم واجعل لك ما تحت يدك » .

ثم ختمه بخاتمه .. وبعث به مع سليط ابن عمرو العامرى .

وقدم سليط بكتاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على هوذه .. فرحب به .. واكرمه بعد ان قرا له الكتاب .. واعطاه جائزة قيمة .. وكساه اثوابا من نسيج هجر المشهور .

وكتب كتابا الى رسول الله قال فيه :

« ما احسن ما تدعو اليه واجمله .. وانا شاعر قومى وخطيبهم .. والعرب تهاب مكانى .. فأجعل لى بعض الأمر اتبعك » .

ونقلت كتب السيرة عن الواقدى : ان اركون دمشق الروحى .. من عظماء النصارى .. كان عند هوذة .. فقال له هوذة : جاءنى كتاب من النبى .. يدعونى الى الاسلام .. فلم اجبه .. فقال الأركون : لم لم تجب ؟ .. قال : ضننت بدينى .. وانا ملك قومى .. وان تبعته لم املك .

قال : بلى .. والله ان اتبعته ليملكنك .. فان الخيرة لك فى اتباعه .. وانه للنبى العربى .. الذى بشر به عيسى بن مريم .. وانه لمكتوب عندنا فى الانجيل :

« محمد رسول الله » (١) .

واركون هذا اسلم على يد خالد بن الوليد .. فى خلافة ابى بكر .

وعاد سليط بكتاب هوذة .. الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقراه عليه .. فلما وجد فى نهايته ـ فاجعل لى بعض الأمر اتبعك ـ وكأنه يريد المشاركة فى النبوة او الخلافة بعده .. قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ :

« والله لو سألنى سبابة من الأرض ما فعلت .. باد وباد ملكه » .

وكان سن هوذة مائة وخمسين عاما .

فلما انصرف ـ عليه الصلاة والسلام ـ من فتح مكة .. جاءه جبريل بأن هوذة مات ..

فقال : اما ان اليمامة سيخرج بها كذاب يدعى النبوة .. يقتل بعدى » .

فقال قائل : يارسول الله .. من يقتله ؟

قال : « انت واصحابك » .. فكان كذلك .

٨ ـ الى الحارث بن ابى شمر الغسانى ـ امير دمشق :

وكتب ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتابا .. الى الحارث بن ابى شمر الغسانى .. وكان اميرا على دمشق .. من جهة قيصر الروم .. هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ـ من محمد رسول الله .. الى الحارث بن ابى شمر .

سلام على من اتبع الهدى .. وآمن بالله وصدقه .. وانى ادعوك الى ان تؤمن بالله وحده .. لا شريك له .. يبقى لك ملكك » .

ثم ختمه بخاتمه .. وارسله مع شجاع ابن وهب . قال شجاع : فانتهيت فوجدته مشغولا بتهيئة الضيافة لقيصر وقد جاء من حمص الى ايلياء ـ بيت المقدس ـ حيث كشف الله عنه جنود فارس شكر الله تعالى .

قال شجاع : فاقمت على بابه يومين او ثلاثة .. فقلت لحاجبه :

الى رسول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال حاجبه : لا تصل اليه حتى يخرج يوم كذا وكذا .. وجعل حاجبه يسألنى عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما يدعو اليه .. فكنت احدثه فيرق .. حتى يغلبه البكاء .. ويقول :

انى قرات فى الانجيل .. وانى اجد صفة هذا النبى بعينه .. وكنت اظنه يخرج بالشام فأراه قد خرج بارض القرظ (٢) .. فانا اؤمن به واصدقه .. وانا اخاف من الحارث بن ابى شمر ان يقتلنى .. وكان هذا الحاجب روميا اسمه ـ مرى ـ

قال شجاع : وكان يكرمنى .. ويحسن ضيافتى .. ويخبرنى باليأس من الحارث .. ويقول وهو يخاف القيصر .

قال : فخرج الحارث يوما .. فوضع التاج على راسه .. فاذن لى عليه .

---

(١) هذا بالنص الصريح فى انجيل برنابا ـ وبالرمز الواضح فى باقى الاناجيل .

(١) اى ارض العرب ـ والقرظ . شجر .

لدفعت اليه الكتاب .. فقراه .. ثم رمى به .. وقال : من ينتزع منى ملكى .. انا سائر اليه .. ولو كان باليمن جئته .. على بالناس .. فلم يزل جالسا حتى الليل .. وامر بالخيل ان تنعل .. ثم قال : اخبر صاحبك بما ترى .. وكتب الى قيصر يخبره بخبرى .. فصادف قيصر بايلياء .. وعنده دحية الكلبى .. بكتاب رسول الله الى قيصر .. فلما قرا قيصر كتاب الحارث .. كتب اليه الا يسير اليه .. واله عنه — اى تشاغل عنه — ووافنى بايلياء .

ولما بلغ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — خبره .. قال ((باد ملكه)) .

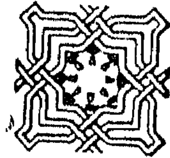
تلك كتب ثمانية .. كتبها — عليه السلام — الى الملوك والأمراء .. شرقا وغربا وشمالا وجنوبا .. بين الفتحين : فتح الحديبية .. وفتح مكة .. يدعوهم فيها الى دعوة الاسلام .. فيها الهدى والنور .. وفيها الرغبة والرهبة .

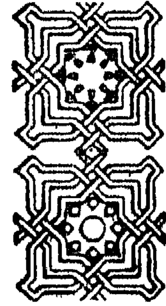
ولاشك انها كانت ذات اثر بعيد المدى .. جعلت اعلام الاسلام ترفرف على كثير من بقاع الارض .. وكلمة — لا اله الا الله — تسرى مع موجات الاثير .. تملأ الدنيا بالعدل والحق والخير والسلام . جس بها رسول الله نبض الملوك والامراء .. ومدى استعدادهم لقبول دعوة الاسلام .. وهى تدل دلالة واضحة .. على مدى الثقة التى كان يتمتع بها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى قوة رسالته .. ويقينه من نصر الله له .

فاسلم بسبب تلك الكتب أغلب أهل اليمن والبحرين وعمان .. وكثير من انحاء الجزيرة العربية ..

كما اسلم نجاشى الحبشة .. واظهر المقوقس الود لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — وارسل له الهدايا .

كانت ربحا كبيرا للاسلام .. علا بها شانه .. وارتفعت مكانته السياسية بين دول العالم .. قبل ان يفتح الله لرسوله مكة .





عودة إلى الحرم

قال عمرو بن العاص لخالد بن الوليد : يا أبا سليمان — أين تريد ؟ قال : والله لقد استقام الميسم .. وان هذا الرجل لنبي .. فاذهب فاسلم .. فمتى متى ؟ .. قال خالد : وانا والله ما جئت الا لأسلم .. فاصطحبنا جميعا .

ـ ٥٠ ـ

عودة الى الحرم

فى العـام السابع الهجرى .. تم اتصـال رسول الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ بالملوك والأمراء ـ كما ذكرنا فى الموضوع السابق .. كما تمت فى نفس العام ـ عمرة القضاء ـ أول عمرة اداها رسـول الله .. بعد أن صده المشركون عن ادائها فى ذى القعدة سـنة ست بالحديبية ..
فخرج لقضائها مع المسلمين فى ذى القعدة سنة سبع .. .. فسميت لذلك ـ عمرة القضـاء ـ وتسمى ايضا ـ عمرة القصـاص ـ لأن رسـول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اقتص من المشركين بدخول مكة فى ذى القعدة .. فى الشهر الحرام .. الذى صدوه فيه فى العام السادس .

ولكن المقام يقتضينا ان نلمح الماحة خفيفة عن خمس سرايا .. بعثها ـ عليه السلام ـ فى تلك الفترة من العام السابع .. قبل ان نعتمر معه ـ عليه السلام ـ فى عمرة القضاء .. منها ثلاث سرايا .. كانت فى شهر شعبان من العام السابع .. هى :

١ ـ سرية عمر بن الخطاب : الى هوازن .. فى ثلاثين راكبا .. ومعه دليل من بنى هلال .. فكان يسير الليل ويكمن النهار .. فأتى الخبر الى هوازن فهربوا .. ودخل عمر منازلهم .. فلم يلق منهم احدا .. فانصرف راجعا الى المدينة .

فقال له الدليل : هل لك فى جمع من خثعم جاءوا سائرين .. وقد أجدبت بلادهم ؟ ..

فقال عمر : لم يأمرنى رسول الله بهم .. ولم يتعرض لهم .

٢ ـ سرية ابى بكر الصديق : الى فزارة .. ناحية ضرية .. فسـبى منهم جماعة وقتـل آخرين .

٣ ـ سرية بشـير بن سـعد الانصـارى : الى بنى مرة ـ بفدك ـ ومعه ثلاثون رجـلا .. فلقى هناك رعاء الأنعام .. فاسـتاق انعامهم وعـاد بها .. ولكنهم ادركوه ليـلا .. فبات المسلمون يرمونهم بالنبل .. حتى فنى نبـل بشير واصحابه .. فولى من المسلمين من ولى .. وأصـيب من أصـيب .. وقاتل بشر قتالا شـديدا .. ورجع القوم بانعامهم .. واستطاع بشر أن يعود الى رسول الله .

٤ — **وفى رمضان من نفس العام السابع بعث سرية :** غالب بن عبد الله الليثى — الى الميفعة بناحية نجـد .. تبعد قريبا من مائة ميل من المدينة .. فى مائتين وثلاثين رجلا .. منهم اسامة ابن زيد .. فهجموا عليهم فى ديارهم .. وقتلوا من تعرض لهم .. واستاقوا انعامهم الى المدينة .. وفى هذه السرية .. قتل أسامة بن زيد نهيك بن مرداس .. بعد أن قال لا آله الا الله .. ولامه رسول الله على ذلك لوما شديدا .

ففى البخارى .. عن أبى ظبيان .. قال : سمعت اسامة بن زيد يقول :

فصبحنا القوم فهزمناهم .. ولحقت أنا ورجل من الانصار رجلا منهم .. فلما غشيناه قال : لا اله الا الله .. فكف الانصارى عنه .. وطعنته برمحى حتى قتلته .. فلما قدمنا بلغ النبى — صلى الله عليه وسلم — فقال : « يا أسامة أقتلته بعد ان قال لا اله الا الله » ؟

قلت : كان يقولها متعوذا من القتل يا رسول الله .. فمازال يكررها حتى تمنيت لم اكن اسلمت قبل ذلك اليوم .. ثم قال — عليه السلام — « الا شققت عن قلبه فتعلم أصادق أم كاذب» ؟

فقال اسامة : لا اقاتل احدا يشهد أن لا اله الا الله .

٥ — **اما السريةالخامسة فى العام السابع ..** قبل عمرة القضاء .. فهى سرية : بشير بن سعد ايضا .. بعثه — عليه السلام — الى يمن وجناب .. وهى ارض لغطفان .. ارسله فى شهر شوال .. ومعه ثلاثمائة رجل .. لتاديب جمع كبير .. اعدهم عيينة بن حصن ليغير بهم على المدينة .. فلما علموا بمسير بشير اليهم هربوا .. واصاب لهم انعاما كثيرة فغنمها .. وأسر رجلين .. وقدم بهما الى المدينة .. واسلما على يد رسول الله .

تلك خمس سرايا بعثها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى العام السابع .. قبل عودته الى الحرم معتمرا .

ويقول الواقدى : فى العام السابع .. رد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ابنته زينب على زوجها أبى العاص بن الربيع .. فى شهر المحرم .. أول العام .. بعد ان هاجر الى المدينة مسلما — كما قدمنا —

وفى هذا العام ايضا .. قدم حاطب بن أبى بلتعة من عند المقوقس بمارية وما معها من الهدايا .

ويقول الرواة : ان الرسول فى هذه السنة .. اتخذ منبره بالمسجد .. وجعله من درجتين ومقعد .. الا ان الطبرى يقول : ان المنبر صنع سنة ثمان .

ومن حقنا الآن أن نستأنف الرحلة .. فى رحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الى المسجد الحرام بمكة .

ففى شهر ذى القعدة سنة سبع .. خرج — صلى الله عليه وسلم — بالمسلمين لاداء عمرة القضاء .. التى صده المشركون عنها فى نفس الشهر من العام السابق .. وخرج معه كل من صد عن البيت فى الحديبية .. لم يتخلف منهم الا من استشهد فى خيبر .. أو مات خلال هذا العام .. كما خرج غيرهم .. فكان عدد المسلمين الفين .. وساقوا معهم ستين بدنة .. وحملوا السلاح والدروع والرماح .. ومعهم مائة فرس .. وهى ليست من الغزوات .. ولكن اعداد المسلمين كان خشية غدر المشركين وخيانتهم .

وقد استخلف — عليه السلام — على المدينة عويف بن الأضبط الديلى .. وقلة من قالوا انه استخلف ابارهم الغفارى (١) .

ولما وصل المسلمون الى ذى الحليفة .. قدم رسول الله الخيل امامه .. بقيادة محمد ابن مسلمة .. وقدم السلاح مع بشير بن سعد واحرموا ولبوا .. ومضى محمد بن مسلمة بالخيل الى مر الظهران .. فلقى جمعا من قريش .. فسالوه .. فأخبرهم ان رسول الله سيصل

(١) النبهانى — الانوار المحمدية .

الى هذا المكان غدا ان شـاء الله .. فاتوا قريشا فاخبروهم .. ففزعوا وخافوا .. وخرجوا الى رءوس الجبال .

ونزل ــ صلى الله عليه وسلم ــ بمر الظهران .. وقـدم السـلاح الى بطن يأجج ــ بكسر الجيم ــ وهو موضع قريب من مكة .. واستخلف على السلاح اوس بن خيلى الانصارى فى مائتى رجل .

وقدم رسـول الله الهدى أمامه .. الى ذى طوى .. وخرج على راحلته القصـواء .. والمسلمون متوشحون السـيوف .. محـدقون برسول الله .. تدوى تلبيتهم فى أجواز الفضاء .. ويتردد صداها فى ارجاء الصحراء .. فدخل من الثنية التى تفضى الى الحجون .. وعبد الله ابن رواحة متوشـحا سـيفه .. يأخذ بزمام راحلته ــ عليه السـلام ــ وهو ينشد ويقول :

خلوا بنى الكفار عن سـبيله
قد انزل الرحمن فى تنزيلـه
فى صحف تتلى على رسوله
يارب انى مؤمن بقيلـــه
انى رأيت الحق فى قبـوله
اليـوم نضربكم على تأويله
ضربا يزيل الهام عن مقليه
ويذهل الخليـل عن خليلـه

فقال له عمر : يا ابن رواحة .. بين يدى رسول الله تقول شـعرا ؟ .. فقال ــ عليـه السلام .

« خل عنه يا عمـر .. فلهى أسرع فيهم من نضح النبـال » .

وكانت قريش قد تحدثت فيما بينها .. ان محمدا واصحابه فى عسرة وجهد وشـدة .. وان حمى يثرب قد نهكتهم .. فاصـطفوا عند دار الندوة ليروا حال المسـلمين .

فتقدم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ مضطبعا بردائه .. والاضطباع : أن يدخل الرداء تحت ابطـه الأيمن .. ويرد طرفه على منكبـه الأيسر .. فيكون المنكب الأيمن مكشـوفا .. والايسر مغطى .. ثم قال : « رحم الله امرا أراهم اليوم من نفسـه قوه » ثم اسـتلم الركن .. وخرج يهرول .. والمسلمون يهرولون معه .. ثم استلم الركن اليمانى .. ومشى حتى استلم الحجر الاسود .. ثم هرول كذلك ثلاث اطواف .. والمسلمون يطوفون معه .. ثم سـعى بين الصفا والمروة على راحلته .

وبعد فراغه نحر الهدى عند المروة .. وحلق هناك .. وكذلك فعل المسلمون .

وامر ــ عليه السلام ــ مائتين من المسلمين .. ان يذهبوا الى أصـحابه ببطن يأجج .. فيقيموا على السلاح .. ويأتى الأخرون فيقضوا نسـكهم .. ففعلوا .

وكان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قد بعث بين يديه جعفر بن أبى طالب الى ميمونة بنت الحرث بن حزن العامرية .. ليخطبها اليه .. فوكلت عن نفسـها زوج أختهـا العباس ابن عبد المطلب ــ عم الرسول ــ وكانت أم الفضل زوجة العباس أختها .. فزوجها العباس رسول الله .. واصدقها عنه اربعمائة درهم .

ولبث رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بمكة ثلاثة ايام .. كما هو شرط قريش فى هدنة الحديبية .

وفى ظهـر اليوم الرابع .. جاءه حويطب ابن عبد الغرى .. وسهيل بن عمرو .. فصاح حويطب : ننشـدك العهد .. الا ما خرجت من ارضنا .. فرد عليه سعد بن عبادة : كذبت .. لا أم لك .. ليست بارضك .. ولا أرض آبائك .. فأسكته ــ عليه السلام ــ وناداهما قائلا : « انى قد تزوجت منكم امراة .. فما يضركم ان ادخل بها .. ونصنع وليمة .. فنأكل وتأكلون معنا » ؟

فقالوا : نناشدك الله والعهد الا خرجت عنا .. فأمر رسول الله ــ صلى الله عليه وسـلم ــ بالرحيل ..وركب مع المسلمين حتى نزل بطن سرف وهو مكان قريب من مكة .. وخلف أبارافع مولاه .. ليحمل ميمونة اليه حين يمسى .. فأقام

حتى قدمت ميمونة ــ رضى الله عنها ــ ومن معها .. فبنى بها بسرف .

وجاء فى البخارى من حديث البراء :
« فلما دخلها ــ أى مكة ــ ومضى الأجل ــ الايام الثلاثة .. اتوا عليا ــ رضى الله عنه ــ فقالوا : قل لصاحبك اخرج عنا .. فقد مضى الأجل .. فخرج رسول الله » .

وعاد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالمسلمين الى المدينة فى شهر ذى الحجة .

وميمونة رضى الله عنها .. هى آخر امرأة تزوجها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهى آخر من توفى من أزواجه .. وقدر الله أن يكون قبر ميمونة ــ رضى الله عنها ــ بسرف ــ حيث بنى بها رسول الله .

وعلق مؤرخوا الغرب على هذا الحدث ــ زواج ميمونة ــ فقال « ايرفنج » فى كتابه ــ حياة محمد ــ :

« ان النبى لم يتزوج بميمونة بنت الحارث .. الا سياسة .. يريد بها استمالة رجلين قويين .. لأن ميمونة كانت أرملة مسنة .. تبلغ من العمر احدى وخمسين سنة .. وهذان الرجلان هما : خالد بن الوليد ابن أخت ميمونة .. وهو فى هذا الوقت هو البطل المشهور .. الذى حارب محمدا فى غزوة أحد .. ولما أسلم سمى سيف الله .. وصديقه عمرو بن العاص » ــ أ هـ ــ **وقد أسلم خالد وعمرو بن العاص بعد زواج الرسول من ميمونة مباشرة .. حيث** صادف هذا الوقت عودة عمرو بن العاص من الحبشة .. بعد مبايعة النجاشى على الاسلام .. ولقائه مع خالد .. وذهابهما الى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليسلما ــ كما ذكرنا من قبل .

ومادام الحديث قد تطرق الى اسلام خالد .. فلا يفوتنا ان نشير اليه :

فهو خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله ابن مخزوم .. وأمه لبابة بنت الحارث بن حزن الهلالية .. اخت ميمونة ــ زوج النبى ــ كان احد أشراف قريش فى الجاهلية .. وكانت اليه القبة واعنة الخيل .

ولما أراد الاسلام .. قدم على رسول الله .. هو وعمرو بن العاص .. وعثمان بن طلحة ابن أبى طلحة العبدرى .. فلما رآهم ــ عليه السلام ــ قال لأصحابه : « رمتكم مكة بأفلاذ كبدها » . ولنستمع الى خالد .. يروى لنا بنفسه قصة اسلامه .. كما تعودنا مع ابطال سيرتنا هذه .

قال خالد بن الوليد :

لما اراد الله ــ عز وجل ــ بى ما أراد من الخير .. قذف فى قلبى الاسلام وحضر لى رشدى .. وقلت : قد شهدت المواطن كلها على محمد .. فليس موطن اشهده الا انصرف .. وأنا أرى فى نفسى أنى فى غير شىء .. وأن محمدا يظهر .. فلما جاء لعمرة القضاء .. تغيبت ولم اشهد دخوله .. فكان اخى ــ الوليد بن الوليد ــ دخل معه .. فطلبنى فلم يجدنى .. فكتب الى كتابا .. فاذا فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ــ ــ اما بعد ــ

فانى لم أر أعجب من ذهاب رأيك وعقلك عن الاسلام .. وهل مثل الاسلام يجهله احد ؟ قد سألنى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ عنك .. فقال : « أين خالد ؟ » فقلت يأتى الله به .. فقال : « **ما مثله يجهل الاسلام .. ولو كان يجعل نهايته مع المسلمين على المشركين كان** خيرا له .. ولقدمناه على غيره » **فاستدرك يا اخى ما قد فاتك من مواطن صالحة .**

فلما جاءنى كتابه .. نشطت للخروج .. وزادنى رغبة فى الاسلام .. وسرنى مقالة رسول الله عنى .. ورأيت فى منامى كأنى فى بلاد ضيقة جدبة .. فخرجت الى بلاد خضراء واسعة .

فلما اجمعت على الخروج الى المدينة .. لقيت صفوان بن امية .. فقلت : يا أبا وهب .. أما ترى أن محمدا ظهر على العرب والعجم .. فلو قدمنا عليه واتبعناه .. فان شرفه شرف لنا .

فقال : لو لم يكن يبقى غيرى ما تبعته ابدا .

فقلت فى نفسى : هذا رجل قتل أبوه واخوه ببدر .. فلقيت عكرمة بن ابى جهل .. فقلت له مثل ما قلت لصفوان .. فقال مثل الذى قال صفوان .

قلت : فاكتم ذكـــر ما قلت لك .. قال : لا اذكره .

ثم لقيت عثمان بن طلحة ..

قلت : هذا لى صديق .. فأردت ان اذكر له .. ثم ذكرت قتـل ابيه طلحة وعمه عثمان واخوته الأربعة : مســـافع والحلاس والحارث وكلاب .. فانهم قتلوا كلهم يوم أحد .. فكرهت ان اذكر له .. ثم قلت له : انما نحن بمنزلة ثعلب فى جحر .. لو صعب فيه ذنوب من ماء لخرج .. ثم قلت له : ما قلت لصفوان وعكرمة .. فاسرع الاجابة .. وواعدنى ان سبقنى أقام بمحل كذا .. وان سبقته اليه انتظرته . فلم يطلع الفجر .. حتى التقينا .. فعدونا حتى انتهينا الى ــ الهدة ــ اسم مكان ــ فوجدنا عمرو بن العاص بهـــا .

فقال : مرحبـــا بالقوم .. فقلنا : وبك .. قال : أين مسيركم ؟

قلنا : لدخول الاسلام .. قال : وذلك الذى اقدمنى .

وفى رواية : قال عمرو لخالد : يا أبا سليمان **اين تريد ؟ .. قال : والله لقد استقام الميسم (١) .. وان هذا الرجل لنبى .. فاذهب فاسلم .. فمتى متى .. قال عمــرو : وانا والله ما جئت الا لأسلم .. فاصطحبنا جميعا فوصلوا المدينة.**

قال خالد : فلبست من صالح ثيابى .. ثم عمدت اليه ــ عليه الســـلام ــ فلقيت أخى .. فقال : اسرع .. فان رسول الله قد سر بقدومكم .. وهو ينتظركم .. فاسرعنا المشى .. فاطلعت عليه .. فما زال رسول الله ــ صــلى الله عليه وسلم ــ يتبسم حتى وقفت عليه .. فسلمت عليه بالنبوة فرد على الســـلام بوجـه طلق ..

فقلت : انى اشـــهد ان لا اله الا الله .. وانك رسول الله .. قال : « الحمد لله الذى هداك .. قد كنت ارى لك عقلا رجوت الا يســـلمك الا الى الخير » قلت : يا رسول الله .. ادع الله لى ..

ومات خالد بحمص سنة ٢١ ــ هـ ــ وقال وهو يموت قولته المشهورة :

« حضرت بضعا وســبعين غزوة .. وما فى جسدى موضع شبر .. الا وفيه طعنة رمح أو ضربة سيف .. وها انا ذا أموت على فراشى كما يموت العير .. فلا نامت اعين الجبناء » . مات رضى الله عنه ــ فى خـلافة عمر بن الخطاب .. وعمره بضع واربعون سنة .

ومع بداية العام الثامن الهجـرى .. بعـد عمرة القضاء .. بعث رســـول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ خمس سرايا .. نوجزها فيما يلى .. قبل أن نواجـه جيوش الروم فى غـزوة ــ مؤته ــ حتى لا يفوتنا شىء .. من تلك السيرة العطرة .

١ ــ فبعث رســـول الله ابن أبى العوجــاء السلمى الى بنى سليم .. فى ذى الحجة فى السنة السابعة .. فى خمسين رجلا .. فحاصر الكفار المسلمين .. وامطروهم وابلا من النبـــل .. واحدقوا بهم من كل ناحية .. وقاتل المسلمون قتالا شديدا .. حتى قتل عامتهم .. واصيب ابن أبى العوجاء .. ولكنه تحامل .. حتى وصل الى الرسول .

٢ ــ ثم بعث غالب بن عبد الله الليثى الى بنى الملوح بالكديد .. فى صفر من السنة الثامنة .. وعادت هذه السرية غانمة .

٣ ــ ثم بعث غالبا الليثى مرة ثانيــة فى نفس الشهر الى مكان مصاب أصحاب بشير بن سعد بفدك التى اشرنا اليها قبل عمرة القضـــاء ..

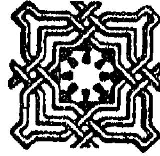
(١) اى : تبين الطريق وظهرت الحقيقة .

ومعه مائتا مقاتل .. فأغاروا عليهم مع الصبح .. وقتلوا منهم الكثير .. وغنموا نعما كثيرة .

٤ ــ ثم بعث شجاع بن وهب الاسدى ..

الى بنى عامر .. فى ربيع الأول سنة ثمان ومعه اربعة وعشرون رجلا .. بعثهم ــ عليه السلام ــ الى جمع من هوازن .. وامر اميرهم ان يغير عليهم .. فكان يسير الليل .. ويكمن النهار .. حتى اغار عليهم صبحا ــ بالسىء ــ وهو مكان يبعد عن المدينة اربعة وعشرون ميلا .. فاصابوا نعما كثيرة .. ساقوها الى المدينة .

٥ ــ واخيرا بعث كعب بن عمير الغفارى .. فى ربيع الأول ــ ايضا ــ من العام الثامن .. الى ــ ذات اطلاح ــ وهى من ارض الشام .. على حدود شرق الأردن .. ومعه خمسه عشر رجلا .. فلقوا جمعا كبيرا .. فقاتلهم الصحابة ــ رضى الله عنهم ــ اشد قتال .. حتى قتلوا جميعا .. ولم ينج غير رجل جريح .. قيل انه اميرهم .. فلما برد عليه الليل .. تحامل حتى اتى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فأخبره الخبر .. فشق ذلك عليه .. وهم بارسال جيش اليهم .. فبلغه انهم ساروا .. فتركهم .





حرب الروم

ونادى رسول الله الجيش فقال يوصيهم :

« اوصيكم بتقوى الله .. وبمن معكم من المسلمين خيرا .. اغزوا باسم الله في سبيل الله من كفر بالله .. لا تغدروا .. ولا تغلوا .. ولا تقتلوا وليدا ولا امراة ولا كبيرا ولا فانيا ولا منعزلا بصومعة .. ولا تقربوا نخلا .. ولا تقطعوا شجرا .. ولا تهدموا بناء » .

ـ ٥١ ـ
حرب الروم

جاء الاسلام لينشىء مجتمعا جديدا..ويسن نظما سامية تقضى على النظم الفاسدة .. سواء بين العرب المشركين .. او لدى اهل الكتاب من اليهود والنصارى .

قد تبين لليهود والنصارى ان هذا هو الدين الحق .. ولكنه الحقد والحسد :

(ود كثير من اهل الكتاب او يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند انفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى ياتى الله بامره ان الله على كل شىء قدير) (١) .

فاعفوا واصفحوا .. دائما يأمر الاسلام بالتسامح والعفو والصفح .. ان الاسلام لم يحارب حبا فى الحرب او السلطان .. ولكنه يحارب لتكون كلمة الله هى العليا .

واعداء الاسلام هم الذين اتخذوا الحرب وسيلة لاطفاء نوره ما وجدوا الى الحرب سبيلا :

(ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا) (٢) .

(يريدون ان يطفئوا نور الله بافواههم ويابى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون) (٣) .

ولو عدنا الى تاريخ تلك الفترة .. التى ظهر فيها الاسلام .. نجد ان الغساسنة ـ ملوك الشام ـ يمثلون النصرانية فى الشرق .. منذ ان عين الامبراطور « جستنيان » الحارث بن جبلة حوالى ٥٢٠ ـ ٥٦٩ م اميرا على جميع القبائل العربية فى سوريا .. ومنحه لقب ـ فيلارك ـ يعنى امير .. ثم منحه لقب ـ طريق ـ وهو ارفع لقب فى الدولة .. بعد الامبراطور .

وكان الحارث نصرانيا يعقوبيا .. حاميا الكنيسة الشرقية .. فلما مات الحارث عام ٥٦٩م خلفه ابنه المنذر .. وساعد الروم فى حربهم ضد فارس .. وذهب فى عام ٥٨٠ م الى القسطنطينية

---

(١) ١٠٩ من سورة البقرة (٢) ٢١٧ من سورة البقرة (٣) ٣٢ من سورة التوبة

.. عاصمة الدولة الرومانية .. فاحتفى به القيصر « طيباريوس » والبسه التاج .

فكان طبيعيا أن يناوىء الغساسنة الاسلام .. ويحاربون الدعوة اليه .. لا لانه يغاير عقيدتهم المسيحية فحسب .. بل لأنه يقضى على سلطانهم السياسى .. ونفوذهم الدينى .

وهذا أيضا هو موقف الدولة الرومانية .. حرصا منها على سلطانها ونفوذها .. فكنيسة القسطنطينية .. التى يتبعها كنائس الشرق كله .. هى الكنيسة .. الارثوذكسية .. ويسمونها الملكانية .. أو الشرقية .. ورئيسها الاعلى هو الامبراطور .. فى مقابل الكنيسة الكاثوليكية .. التى تعرف بالكنيسة الغربية .. ومقرها روما ورئيسها البابا .

فليس من المعقول ان تطيق الكنيسة الشرقية دين الاسلام .. وهو دين ينكر عقيدة التثليث .. ويذيع فى الناس أن الله واحد احد .. فرد صمد .. لم يلد ولم يولد .. ولم يكن له كفوا أحد .. ولا يعترف بما لرجال الدين من سلطان ووساطة بين العبد وخالقه .

مع أن الكنيسة الشرقية تحارب من يخالفها فى عقيدتها من المسيحيين انفسهم .

ففى العام الثامن الهجرى ٦٢٩ م قتلوا جميع المسمين الخمسة عشر .. الذين كانوا فى سرية كعب الغفارى .. وكان رسول الله قد ارسلهم اليهم ليدعوهم الى الاسلام .. ولم ينج منهم غير أمير السرية ـ كما ذكرنا من قريب

وفى السنة نفسها أرسل النبى كتابا الى الحارث بن ابى شمر الغسانى ـ كما قدمنا ـ ورأينا صلفه وكبره وغروره .. حتى قال عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ « باد ملكه » .

وارسل ـ عليه السلام بعدها .. الحارث بن عمير الأزدى بكتاب الى ملك بصرى بالشام فلما نزل الحارث ـ مؤتة ـ عرض له شر حبيل بن عمرو الغسانى فقتله .. ولم يقتل لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رسل غيره .

وكان هذا الحادث سببا فى غزوة مؤتة .

غزوة مؤتة :

الغزوة .. هى التى يخرج فيها ـ عليه السلام ـ بنفسه .. أما السرية أو البعث .. فهى التى لم يخرج فيها .

ومؤتة ـ سماها البخارى غزوة .. مع أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يخرج فيها .. وذلك لكثرة عدد جيش المسلمين بها .

وكانت تلك المعركة .. هى أول معركة حارب فيها المسلمون جيشا مسيحيا .. من أعظم جيوش العالم .. فى هذا الحين .

ففى شهر جمادى الأولى .. من العام الثامن الهجرى .. أعد رسول الله جيشا من ثلاثة آلاف .. بقيادة مولاه ـ زيد بن حارثة ـ وفى هذا من معانى عظمة الاسلام ما فيه .. عبد عتيق يقود جيشا فيه جعفر بن أبى طالب .. وفيه خالد بن الوليد .. وفيه عبد الله بن رواحة .. وغيرهم من قادة العرب وسادتهم .

هكذا يقضى الاسلام على العنصرية .. والفوارق الاجتماعية .. ويعلنها قوية تملأ أسماع الدنيا .. « لا فضل لعربى على عجمى .. ولا لعجمى على عربى .. الا بالتقوى » .

أعد رسول الله ـ عليه السلام ـ هذا الجيش لتأديب الروم .. بعد ان اجترأ شر حبيل بن عمرو الغسانى ـ أميرهم بالشام ـ على قتل رسوله الحارث بن عمير الأزدى .

وبعد أن تم اعداد الجيش .. سلم لواءه الأبيض زيد بن حارثة .. ثم قال :

« ان أصيب زيد .. فليحمله جعفر بن أبى طالب .. فان أصيب جعفر .. فليحمله عبد الله ابن رواحه .. فان أصيب عبد الله .. فليتفق المسلمون على رجل من بينهم يجعلونه قائدا للجيش . وكان من بين الحاضرين يهودى اسمه ـ النعمان ـ **فقال** : يا محمد ان كنت سميت من سميت أصيبوا جميعا .. ثم قال لزيد أوص يا زيد .. فانك لا ترجع الى محمد ان كان نبيا .. قال زيد : أشهد أنه رسول صادق بار .

وأمر زيدا بأن ينزل بجيشه الى الموقع .. الذى قتل فيه الحارث بن عمير .. ويدعو من فيه الى الاسلام .. فان لم يقبلوه فالقتال .. ودائما الاسلام يبدأ بالسلم .. ولا يلجأ الى الحرب الا مضطرا .. لاعلاء كلمة الله .

وعسكر المسلمون بالجرف .. على بعد ثلاثة أميال .. شمالى المدينة .

ولما تم اعداد الجيش .. خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدعوهم الى ثنية الوداع والناس معه .

وبكى عبد الله بن رواحة .. فقالوا : ما يبكيك ؟ .. قال : أما والله ما بى حب الدنيا .. ولا صبابة بكم .. ولكنى سمعت رسول الله يقرأ آية من كتاب الله .. يذكر فيها النار :

(وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا) (١) .. فلست ادرى كيف لى بالصدور بعد الورود ؟ .. **فدعا لهم المسلمون بالسلامة والنصر .. فقال عبد الله بن رواحة :**

لكننى اسأل الرحمن مغفرة
وضربة ذات فرع تقذف الزبدا
أو طعنة بيدى حران مجهزة
بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقال اذا مروا على جدثى
يا أرشد الله من غاز وقد رشدا

ونادى رسول الله الجيش .. فقال يوصيهم:

« أوصيكم بتقوى الله .. وبمن معكم من المسلمين خيرا .. اغزوا باسم الله فى سبيل الله من كفر بالله .. لا تغدروا ولا تغلوا .. ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة ولا كبيرا ولا فانيا ولا منعزلا بصومعة .. انها حكم بالغة .. وآيات ناصعة .. وانسانية فى أسمى مراتبها .. يجب ان تكتب بأحرف من نور فى صدور السجلات الحربية .. لتكون شعارا بارزا .. امام قواد الجيوش فى جميع انحاء العالم .. فى عصرنا الحديث .. الذى ندعى فيه أن للانسانية كرامتها

(١) ٧١ ـ مريم .

وحقوقها وآدميتها .. بينما تنتهك فيه الحرمات .. وترتكب الموبقات .. وتداس الكرامات .. بدون وازع من ضمير .. أو رادع من شعور .

فليتدبروا تلك الوصية .. الصادرة من قلب ملؤه الرحمة .. وملاكه الانسانية .. فلا يقتل الصغير ولا النساء ولا الشيوخ ولا رجال الدين .. ولا تقطع الاشجار .. ولا تهدم البيوت ولو كانت بيوت الاعداء .

هكذا جاء قانون الاسلام .. بما يحفظ للانسانية قدسيتها .. وللآدمية كرامتها .

وانطلق جيش المسلمين بقيادة زيد بن حارثة .. حتى نزل معان من ارض الشام .. وتجمع الروم لحرب المسلمين .. فجمعوا اكثر من مائة الف من الرومان .. وانضم اليهم من العرب جميع القبائل الموالية لهم .. من لخم .. وجذام .. وبلقين .. وبهراء .. وبلى .

وقال بعض الرواة : ان جيش الكافرين .. كان يقرب من مائتى الف مقاتل .. نزلوا بالبلقاء .. والبلقاء من اعمال ـ دمشق ـ فيها قرى كثيرة .. ومزارع واسعة .. يضرب بها المثل بجودة قمحها .

وكان جيش الرومان بقيادة « اتيودور » اخى هرقل .

وبلغ المسلمين أن هرقل نفسه يقود جيشا ضخما .. يضم مالا قبل لهم به من العدد والسلاح والخيل وآلات الحرب .

فنزلوا بمعان ليلتين يتشاورون فى امرهم .. وقالوا : نكتب الى رسول الله .. فنخبره بعدد عدونا .. فاما أن يمدنا بالرجال .. واما ان يأمرنا بأمره فنمضى له .

فوقف عبد الله بن رواحة .. وقال :

يا قوم .. والله ان التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون الشهادة .. ونحن لا نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ..ما نقاتلهم الا بهذا الدين .. الذى أكرمنا الله به .. فانطلقوا فانما هى احدى الحسنيين : اما ظهور .. واما شهادة .

فقال الناس : قد والله صدق ابن رواحة .

فانطلقوا .. حتى اذا كانوا بتخوم البلقاء .. لقيتهم جموع هرقل .. من الروم والعرب .. ودنا منهم العدو .. فانحاز المسلمون الى مؤته .. وهى مدينة معروفة بالشام .. على بعد ستة عشر ميلا .. من بيت المقدس .. جنوب شرق البحر الميت .

والتقى الجيشان .. ويالها من نسبة رهيبة .. **ثلاثة آلاف .. يقاتلون مائتى ألف من أعظم جيوش العالم فى ديارهم !!**

وتعبأ المسلمون .. فجعلوا على ميمنتهم رجلا من بنى عذرة .. يقال له ــ قطبة بن قتادة ــ وعلى ميسرتهم رجلا من الانصار .. يقال له ــ عبابة بن مالك .

وقاتل المسلمون قتالا قاسيا .. فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله .. على رجليه حتى سال دمه .. واستشهد برماح القوم .

فأخذ الراية جعفر بن أبى طالب .. وظل يقاتل بها على فرس له شقراء .. حتى ارهقه القتال عليها .. نزل عن فرسه وعقرها .. ثم قاتل القوم حتى استشهد .. فكان جعفر أول من عقر فرسه فى الاسلام عند القتال .. قطعت يمينه .. فاخذ الراية بيساره فقطعت يساره فاحتضن الراية بعضديه .. حتى قتل وسنة ثلاث وثلاثون سنة .

قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : ان الله أبد له بيديه جناحين يطير بهما فى الجنة .. قتل جعفر .. فوجدوا فى جسمه بضعا وسبعين ضربة بسيف وطعنة برمح .

ثم اخذ الراية عبد الله بن رواحة .. وتقدم بها .. وهو على فرسه .. فجعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد .. ثم نزل .. فأتاه ابن عم له بعرق من لحم .. فقال : شد بها صلبك فقد لقيت فى أيامك هذه ما لقيت .. فأخذها فانتهش منها نهشة .. ثم سمع وقع القتال فى الناس .. فقال لنفسه : وأنت فى الدنيا يا ابن رواحة ؟ .. ثم القى اللحم من يده .. وتقدم بسيفه .. فقاتل حتى استشهد .

وهكذا استشهد الثلاثة .. الذين حددهم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بنفس الترتيب .. كما ذكر لهم قبل خروجهم .. وقد دفن الثلاثة فى قبر واحد .

فاستلم الراية ثابت بن أقدم العجلانى ..

وهو يقول : يا معشر المسلمين .. اتفقوا على رجل منكم .. قالوا : انت .. قال : ما أنا بفاعل .. فاتفقوا على خالد بن الوليد .

وفى الصحيح : « حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله » .

وتلك أول معركة يحارب فيها خالد مع المسلمين .. حيث لم يمض على اسلامه غير ثلاثة شهور .

استلم خالد الراية .. وقاتل قتالا مريرا .. ابلى فيه بلاء حسنا .. فقد تفرق المسلمون بعد قتل ابن رواحة .. فجمعهم خالد .. واستعمل الحيلة فى انقاذ الموقف .. فجعل الميمنة ميسرة .. والميسرة ميمنة .. فظن الكفار أن المسلمين قد جاءهم مدد من المدينة .. حيث رأوا وجوها جديدة .. واثخنهم خالد قتالا .. حتى انحاز بالمسلمين .. وانحاز الكفار بجيشهم .. وعاد بالمسلمين الى المدينة .

يقول ابن سعد : هزم المسلمون .

وفى صحيح البخارى : أن الهزيمة كانت على الروم .

والصحيح ما ذكره ابن اسحاق : **أن كل فئة** انحازت عن الأخرى .. بعد حرب دامت سبعة أيام . وهى نصر كبير للاسلام من غير شك .. ويكفى ثبات ثلاثة الاف .. أمام هذا الجيش الكبير .. وكان المفروض قتلهم جميعا .

ولم يذكر ابن اسحاق غير اثنى عشر قتيلا من المسلمين ــ بينما لا يمكن حصر قتلى المشركين لكثرة عددهم .

وقد أخبر النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ أصحابه فى المدينة .. بما حدث فى ساحة القتال .. قبل عودة خالد بالجيش الى المدينة .. فنادى فى الناس : « الصلاة جامعة » ..

ثم صعد المنبر .. وعيناه تذرفان .. وقال :

« يا أيها الناس .. باب خير .. باب خير .. أخبركم عن جيشكم هذا الغازى .. انهم انطلقوا فلقوا العدو .. فقتل زيد شهيدا .. فاستغفروا له .. ثم اخذ الراية جعفر .. فشد على القوم حتى قتل شهيدا .. فأستغفروا له .. ثم اخذ الراية عبد الله بن رواحة .. واثبت قدميه حتى قتل شهيدا .. فاستغفروا له .. ثم اخذ اللواء خالد بن الوليد .. ولم يكن من الأمراء .. هو امير نفسه .. ولكنه سيف من سيوف الله .. فآب بنصره » .

فمن يومئذ .. سمى خالد بن الوليد — سيف الله —

وقد أخطأ بعض الرواة — كابن هشام .. عندما قال :

لما دنا جيش المسلمين من المدينة .. جعل الناس يحثون على الجيش التراب .. ويقولون : يا فرار .. فررتم من سبيل الله .

ولكن الحقيقة أن طائفة قليلة من الجيش .. فى تلك الغزوة .. فروا لما رأوا جموع الروم .. وعادوا الى المدينة .. فصار أهل المدينة يقولون لهم : أنتم الفرارون .. ولقوا تعنيتا شديدا .. حتى ان الرجل منهم كان يجيء الى أهل بيته يدق الباب .. فلا يفتحون له .. ويقولون : هلا تقدمت مع أصحابك فقتلت ؟ .. وجلس بعضهم فى بيوتهم استحياء من مواجهة المسلمين .

ولكن الرسول .. صاحب القلب الكبير .. كان يرسل اليهم رجلا رجلا .. ويقولون لهم : بل انتم الكرارون ان شاء الله تعالى .

كان أول من جاء بخبر الجيش الى المدينة — يعلى بن أمية — فلما قدم .. قال له النبى — عليه السلام — « ان شئت فأخبرنى .. وان شئت أخبرتك » .. قال : فاخبرنى يا رسول الله .. لأزداد يقينا .. فأخبره رسول الله الخبر كله .. ووصف له ما كان .. فقال : والذى بعثك بالحق ما تركت من حديثهم حرفا واحدا .. وان أمرهم لكما ذكرت .

وعن اسماء بنت عميس — زوج جعفر بن أبى طالب — قالت : دخل على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يوم أصيب جعفر .. فقال : ائتنى ببنى جعفر .. فأتيته بهم فشمهم وذرفت عيناه .. فقلت يا رسول الله .. بأبى انت وامى .. ما يبكيك ؟ .. أبلغك عن جعفر واصحابه شيء .. قال : نعم — أصيبوا هذا اليوم .. قالت فقمت اصيح .. واجتمع على النساء .. وجعل — عليه السلام — يقول لى : « يا أسماء لا تقولى هجرا .. ولا تضربى خدا .. اللهم قدمه الى أحسن الثواب .. واخلفه فى ذريته بأحسن ما خلفت أحدا من عبادك فى ذريته » .

وخرج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الى أهله .. فقال :

« لا تغفلوا عن آل جعفر .. أن تصنعوا لهم طعاما .. فانهم قد شغلوا بأمر صاحبهم » كما قيل : انه دخل على فاطمة .. وهى تقول : يا عماه .. فقال : « على مثل جعفر فلتبك البواكى » .

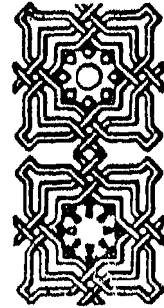
وبعد تلك الغزوة صلب الرومان — فروة بن عامر الجذامى — وكان فروة عاملا للرومان بمعان .. فأسلم .. وأرسل للنبى فرسا وعباءة وأقمصة .. فحاول الرومان أن يردوه عن الاسلام فأبى وحبسوه وصلبوه على ماءلهم يقال له — عفرى — بفلسطين .. وقال شعرا :

الا هل أتى سلمى بأن حليلها
على ماء عفرى فوق احدى الرواحل
على ناقة لم يضرب الفحل امها
مشذبة أطرافها بالمناجل

وقال ابن اسحاق عن الزهرى :

انهم لما قدموه ليقتلوه .. قال :

بلغ سراة المسلمين باننى
سلم لربى أعظمى وبنانى



على مشارف الفتح الأعظم

وخرج أبو قتادة ومن معـه .. فلقوا عامر بن الأضبط فسلم عليهم بتحية الاسلام .. فقتله محلم بن جثامة . فانزل الله تعالى (ولا تقـولوا لمن القى اليكم السلام لست مؤمنا) .. فجاء محلم بن جثامة .. فجلس بين يدى رسول الله ليستغفر له .. فقال رسول الله ((لا غفر الله لك)) . حتى لا يتهاون الناس فى قتل النفس المؤمنة .

- ٥٢ -
على مشارف الفتح الأعظم

لم يحصل بعد - مؤته - فى العام الثامن الهجرى معارك ذات بال .. وانما بعث - عليه السلام - اربع سرايا .. قبل فتح مكة :

اولاها : ((سرية ذات السلاسل)) . بقيادة عمرو بن العاص .

وذات السلاسل موقع على بعد عشرة ايام من المدينة .

ففى جمادى الأخرة .. سنة ثمان .. بلغه ان جمعا من قضاعة .. قد تجمعوا للاغارة على المدينة .. فبعث عمرو بن العاص .. وعقد له لواء ابيض .. وجعل معه راية سوداء .. بعثه فى ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار .. ومعهم ثلاثون فرسا .

فساروا ليلا .. وكمتوا نهارا .. فلما قرب عمرو منهم .. بلغه انهم كثيرو العدد .. فارسل الى رسول الله يستمده .. فارسل اليه ابا عبيدة بن الجراح .. وبعث معه مائتين .. منهم ابو بكر وعمر .. وامره أن يلحق بعمرو .. وان يتحدا ولا يختلفا .

فاراد ابو عبيدة ان يؤم الناس .. ولكن عمرو بن العاص .. قال له : انما قدمت على مددا وانا الأمير .. فاطاع ابو عبيدة وقال : ان رسول الله امرنا أن نتطاوع .. فانا اطيع امر رسول الله .

وفى تلك السرية .. احتلم امير الجيش عمرو ابن العاص .. وكانت ليلة باردة .. فخاف على نفسه من الماء .. وصلى الصبح بأصحابه .. فذكروا ذلك للنبى .. فقال : ((يا عمرو صليت باصحابك وانت جنب)) ؟ .. فاخبره بالذى منعه من الاغتسال .. وقال : انى سمعت الله يقول : (ولا تقتلوا انفسكم ان الله كان بكم رحيما) (١) .

فضحك - عليه الصلاة والسلام - ولم يقل شيئا .

وسار الجيش .. حتى وطىء بلاد قضاعه .. فدوخها .. حتى أتى الى أقصى بلادهم .. والتقوا هناك جميعا .. فحمل عليهم المسلمون .. فهربوا فى البلاد وتفرقوا .

---

(١) ٢٩ - النساء .

وذكر ابن اسحاق .. انهم نزلوا .. على ماء بجذام .. يقال له ــ السلسل ــ قال : وبذلك سميت ذات السلاسل » .

وثانيتها : « سرية الخبط » بقيادة ابى عبيدة بن الجراح .

وسماها البخارى : « سرية سيف البحر » .. وكانت فى رجب فى العام الثامن . بعثها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الى حى من جهينة .. مما يلى ساحل البحر .. وبينها وبين المدينة خمس ليال .

خرج ابو عبيدة فى ثلاثمائة رجل من المهاجرين والأنصار .. منهم عمر بن الخطاب .. فاصاب المسلمين فيها جوع شديد .. حتى اكلوا ــ الخبط ــ وهو ورق شجر السلم .. فخرج لهم حوت من البحر .. فاكلوا من لحمه .

وجاء فى الصحيحين عن جابر .. قال :

خرجنا ونحن ثلاثمائة .. نحمل زادنا على رقابنا .. ففنى زادنا .. حتى كان الرجل ياكل تمرة تمرة .. وابتاع قيس بن سعد جزورا نحرها لهم .. واخرج الله لهم من البحر دابة تسمى ــ العنبر ــ فاكلوا منها وتزودوا ورجعوا .. ولم يلقوا كيدا » .

وزاد فى رواية : « فلما قدمنا المدينة .. اتينا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فذكرنا ذلك له .. فقال : « هو رزق اخرجه الله لكم .. فهل معكم شىء من لحمه فتطعمونا » قال : فارسلنا الى رسول الله منه فاكل .

وثالثتها « سرية خضرة » .. بقيادة ابى قتادة الانصارى . وخضرة ارض ــ محارب ــ بنجد بعثها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى شعبان من العام الثامن .. فى خمسة عشر رجلا الى غطفان .. فقتلوا من برز منهم .. وسبوا سبيا كثيرا .. واستاقوا نعما وفيرة .. فكانت الابل مائتى بعير .. والغنم الفى شاة .. وغابوا عن المدينة خمس عشرة ليلة .

اما السرية الأخيرة فهى « سرية اضم » بقيادة ابى قتادة ايضا .

واضم على بعد اربعة وعشرين ميلا من المدينة .. ارسله رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى ثمانية رجال .. فى أول شهر رمضان من السنة الثامنة .

وذلك انه ــ عليه السلام ــ لما هم ان يغزو اهل مكة .. لنقضهم عهد الحديبية ــ كما سنذكر قريبا ــ بعث قتادة .. ليوجه نظر الناس اليه .. حتى يفاجىء قريشا على غير استعداد منهم لحربه ..

وخرج ابو قتادة .. ومن معه .. فلقوا عامر ابن الأضبط .. فسلم عليهم بتحية الاسلام .. فقتله محلم بن جثامة .. فانزل الله تعالى :

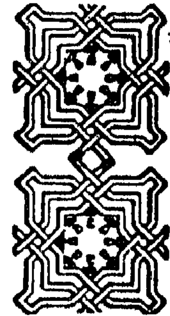
« **ولا** تقولوا لمن القى اليكم السلام لست مؤمنا » (1) .

فجاء محلم بن جثامة فى بردين .. فجلس بين يدى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليستغفر له .. فقال له ــ عليه السلام ــ **« لا غفر الله لك » زجرا له .. حتى لا يتهاون الناس فى قتل النفس المؤمنة .. فقام وهو يتلقى** دموعه ببرديه .. فما مضت سبع ليال حتى مات .. فلفظته الأرض .. ثم عادوا به .. فلفظته الأرض عدة مرات .. فالقى بين جبلين .. وجعلوا عليه الحجرة الثقيلة .

فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ :

« ان الأرض لتقبل من هو اشر منه .. ولكن الله اراد أن يريكم آية فى قتل المؤمن » .

(1) ٩٤ ــ النساء .



الفتح الأعظم

فأخذ ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعضادتى الباب .. وهم تحته .. وقال : ((لا اله الا الله وحده لا شريك له .. صدق وعده .. ونصر عبده .. وهزم الأحزاب وحده .. الا كل مأثرة او دم او مال يدعى فهو تحت قدمى هاتين .. الا سدانة البيت وسقاية الحاج .. الا وقتل الخطأ مثل العمد ـ السوط والعصا ـ ففيه الدية مغلظة مائة من الابل .. اربعون منها فى بطونها اولادها .

يا معشر قريش .. ان الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية .. وتعظمها الآباء .. الناس من آدم وآدم من تراب)) .

ــ ٥٣ ــ
الفتح الأعظم

حقا ان فتح مكـة .. هو الفتح الأعظم .. نصر الله به عبده .. واعز جنـده .. وحفظ بيته .. وثبت دينه .. به تحطمت الأصنام .. وعلت كلمة الرحمن. .وزلزلت اركان الشرك. .وتلاشت اعاصير الشـك .. وبعده دخل الناس فى دين الله افواجا .

وقد تركنـا حول مكـة فى عام ــ صـلح الحديبيـة ــ قبيلتين كبيرتين .. كانت بينهما حروب وتارات. .هما بنوبكر وخزاعة . .دخلت بنو بكر فى عهد قريش وعهدهم .. ودخلت خزاعة فى عهد محمد وعقده فقدكان من شروط الحديبية .. ترك الحريه لقبائل العرب .. من شاء منهم الدخول فى عهـد قريش دخل .. ومن شـاء الدخول فى عهد محمد دخل .

ولكن لا وفاء لمشرك .. فقد عدت بنو بكر على خزاعة .. وساعدت قريش حلفاءها بالسلاح ضد خزاعة حلفاء محمد .. واشترك كثير من رجال قريش مع بنى بكر فى الحـرب سرا .. منهم : صفوان بن اميـة .. وعكرمة بن ابى جهـل .. وشيبة بن عثمان .. وسهيل بن عمرو .. وغيرهم .. حتى قتلوا من خزاعة اكثر من عشرين رجلا غيلة .. وهم عنـد ماء ــ الوتير ــ ليلا .

وبهذا نقضوا عهدهم مع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ .

فخرج عمرو بن سالم الخزاعى ــ سـيد خزاعة ــ حتى قدم المدينة .. ودخل على النبى وهو فى المسـجد بين اصحابه .. وقال :

يارب انى ناشـد محمـدا
حلف ابينـا وابيـه الأتلـدا
قد كنتمـوا ولدا وكنا والدا
ثمت اسلمنـا ولم ننـزع يـدا
فانصر هـداك الله نصرا ابـدا
وادع عبـاد الله يأتوا مـددا
فى فيلق كالبحـر يجرى مزبدا
ان قريشـا اخلفـوك الموعـدا
ونقضـوا ميثاقـك المؤكدا
وزعمـوا ان لست تدعو احـدا
هم بيتـونا بالوتـير هجـدا
وقتلـونا ركعـا وسـجدا

وقال : قتلتنا قريش ونحن مسلمون .

فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ « نصرت يا عمرو بن سالم » ودمعت عيناه .

وفى بعض الروايات : قام رسول الله وهـو يجر رداءه .. ويقول :

« لانصرت ان لم انصركم بما انصر به نفسى » .. ورای سحلة فى السماء .. فقال :

« ان هذه السـحابة لتستهل بنصر بنى كعب » .

وتقول عائشة ـ رضى الله عنها ـ : لقد رايت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ غضـب مما كان من شأن بنى كعب .. غضـبا لم اره غضبه من زمان .

ثم قال لعمرو واصـحابه .. وكانوا نحو الأربعين راكبا من خزاعة :

« ارجعوا وتفرقوا فى الأودية » .

ولعله ـ عليه السلام ـ كان يقصد بتفرقهم اخفاء امر مجيئهم .

كما خـرج بديل بن ورقاء .. فى نفر من خزاعة .. حتى قدموا على رسول الله فى المدينة فاخبروه بما اصابهم من بنى بكر بمساعدة قريش ونقضهم العهد .. فطلب منهم العودة الى مكـة .. واخفاء امرهم .

ثم قال للنـاس : « كأنكم بأبى سفيان قد جاءكم ليشـد العقـد .. ويزيد فى المدة .. **وصدقت نبوءة رسول الله ـ صـلى الله عليه وسـلم ..**

أبو سفيان يفاوض :

وقد خرج أبو سفيان مبعوثا من قريش .. الى رسول الله .. بعد أن أحسـوا بخطئهم فى نقض العهـد وخافوا مما صـنعوا .. ولقى ابو سفيان ـ بعسفان ـ بديل بن ورقاء .. وهو قادم من المدينـة .. **فقـال له :** من اين اقبلت يا بديل ؟ .. **قال :** سرت فى خزاعة .. فى هـذا الساحل وفى بطن هذا الوادى .. قال : او ما اتيت محمدا ؟ .. قال : لا ..

ولكن بعد عودة ابى سـفيان من رحلته .. عمد الى مبرك ناقة بديل .. فاخذ من بعدها .. وفته بين أصابعه .. فعرف فيه اثر نوى بلح المدينة .. **فقال :** احلف بالله لقد جاء بديل محمدا .. وتلك من فراسة العرب .

واستمر أبو سـفيان فى طريقه الى المدينـة .. بعد ان ترك بديلا عند عسفان .. فلما قدمها .. دخل على ابنته حبيبة ـ ام المؤمنين ـ واراد ان يجلس على فراش رسول الله .. لكنها اسرعت فطـوته عنه .. **فقال :** يا بنية .. والله ما ادرى .. أرغبت بى عن هذا الفراش .. ام رغبت به عنى ؟ .. قالت : بل هو فراش رسـول الله .. وانت مشرك نجس .. ولا احب ان تجلس على فراش رسول الله .. قال : والله لقد اصـابك بعدى شر .. فقالت : بل هـداني الله تعالى للاسلام .. وانت تعبد الحجر .. الذى لا يسمع ولا يبصر .. واعجبا منك يا أبت .. وانت سيد قريش وكبيرها !! .. فقـال : انا أترك ما كان يعبد آبائى .. واتبع دين محمد ؟ .

ثم خرج .. حتى أتى رسول الله .. فكلمه فى تجديد العقد .. وزيادة مدة الهدنة .. فاعرض عنه ـ عليه السلام ـ ولم يرد عليه بشىء .

فذهب الى أبى بكر .. ليكلم رسول الله فى هذا .. فقال : ما انا بفاعل .

ثم أتى عمر بن الخطاب .. فكلمه .. **فقال** عمر : انا اشفع عند رسول الله ؟ .. **فوالله لو لم** اجد الا الذر .. لجاهدتكم به .

ثم خرج فدخل على على بن أبى طالب .. وعنده فاطمة ـ بنت رسول الله ـ وابنه الحسن .. وهو غلام يدب بين يديهما .. فقال : يا على .. انك امس القوم بى رحما .. وانى جئت فى حاجة .. فلا ارجعن كما جئت خائبا .. فاشـفع لى الى صهرك .. فقال : ويحك يا ابا سـفيان .. والله لقد عزم رسول الله على امر ما نستطيع ان نكلمه فيه .

فالتفت الى فاطمـة .. فقال : يا بنت محمد .. هل لك ان تأمرى ابنك هذا فيجير بين الناس

.. فيكون سيد العرب .. الى آخر الدهر ؟ ..
قالت : والله ما بلغ ابنى ذلك ان يجير بين الناس .. وما يجير احــد على رسول الله .. قال : يا ابا الحسن .. انى ارى الأمور .. قد اشتدت على .. فانصــحنى .. قال : والله ما أعلم لك شيئا يغنى عنك شيئا .. ولكنك سيد بنى كنانة .. فقم فاجر بين الناس .. ثم الحق بأرضك .. قال : او ترى ذلك مغنيا عنى شيئا ؟ .. قال على : لا والله ما اظنه .. ولكن لا اجد لك غير ذلك .

فقام ابو سفيان فى المسجد .. فقال : ايها الناس .. انى قد أجرت بين الناس .. ثم ركب بعيره فانطلق .

وقد ظلم كتاب الغرب انفسهم .. عنــدما قالوا : ان اتفاقا سريا .. حصــل بين محمد وبين ابى سفيان لفتح مكة سلما .

لم يحدث هذا .. فنحن نرى ابا سفيان .. لما رجع الى قومه .. وسـألوه : ما وراءك ؟ .. قال : جئت محمــدا .. فكلمته .. فوالله ما رد على شـيئا .. ثم جئت ابن ابى قحافة .. فلم اجد فيه خـيرا .. ثم جئت ابن الخطـاب .. فوجدته ادنى العدو .. ثم جئت عليا .. فوجدته الين القوم .. وقد اشار على بشىء صنعته .. فوالله ما ادرى هل يغنى ذلك شيئا .. ام لا ؟

قالوا وبم امرك ؟ .. قال امرنى ان اجير بين الناس .. ففعلت .

قالوا : فهل اجاز ذلك محمدا ؟

.. **قال** : لا .

قالوا : ويلك .. والله مازاد الرجل على ان لعب بك .. فما يغنى عنك ما قلت .

قال : والله ما وجدت غير ذلك .

كما ظلم كتاب الغرب ايضا انفسهم .. لما ادعوا ان رسـول الله .. كان يتحين الفرص لفتح مكة .. وانه احتج بالاعتداء على خزاعة .. فتظاهر بالغضب .. وتوعد قريشا بالثار .

وتلك مغالطة منطقية .. فاعتــداء بنى بكر على حلفائه المسلمين .. وقتلهم اكثر من عشرين من خـزاعة .. نقض صريح للعهـد .. وكيف لا يغضــب .. والقتـلى مسـلمون .. وهـم حلفاؤه .. وقد اتت وفودهم تستنصره .. وهو من هو .. فى الوفاء بالعهد ؟ .

الاعداد للخروج :

امر رسول الله ــ صلى الله عليه وسـلم ــ بالجهاز للخــروج .. امر اهله ان يجهزوه .. فدخل ابو بكر على ابنتـه **عائشة .. وهى تحرك** بعض جهاز الرسول ..

فقال : اى بنية .. هـل امركم رسول الله ان يجهزوه ؟ ..

قالت : نعم .. فتجهز يا ابى ..

قـال : فاين ترينه يريد ؟ .. قالت : والله ما ادرى .

وبدا ــ عليه الســلام ــ يستشير اصحابه سرا .. فاخبر ابا بكر وعمر .. انه يريد قريشا .. فاشار ابو بكر .. بعدم السـير اليهم .. او حربهم .. وقال : هم قومك يا رسول الله .

ولكن عمر قال : افعـل يا رسول الله .. هم راس الكفر .. زعموا انك ساحر .. وانك كذاب . وذكر له كل سوء كانوا يقولونه عليه .. ثم قال : وايم الله لا تذل العـرب حتى تذل اهـل مكة . فعندئذ ذكر رسول الله ان ابا بكر كابراهيم .. وكان فى الله الين من اللين .. وان عمر كنوح .. وكان فى الله اشد من الحجـر .. وان الأمر امر عمــر .

ثم امر الناس بالجهاز .. واخفى عنهم الجهة التى يريدها .. وارسل الى اهل البادية .. ومن حوله من المسلمين فى كل الجهات .. يقول لهم :

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر .. فليحضر رمضــان بالمدينة » .. فقد كان الوقت فى اول رمضان .. من العام الثامن للهجرة .. ثم قال :

« اللهم خذ على اسماعهم وابصارهم فلا يرونا الا بغتة .. ولا يسمعون بنا الا فلتة » .

وقد حصل موقف غريب من حاطب بن ابى بلتعة .. وحاطب هو رسول الله الى المقوقس عظيم القبط فى مصر .. وهو الذى اسلمت السيدة

مارية واختها سيرين على يديه .. وحضر بهما الى رسول الله .

فقد كتب حاطب كتابا الى قريش .. يخبرهم فيه ان رسول الله سيغزوهم .. وارسل الكتاب مع امراة استأجرها بعشرة دنانير .. وكساها بردا .. وقال لها : اخفيه ما استطعت .. ولا تمرى بالطريق العام .. فقد جعل الرسول فيه حراسا .

فجعلت الكتاب فى ضفائرها .. ثم خرجت به .. وسلكت طرقا غير مطروقة ..

ونزل خبر السماء .. بخبر محمدا — صلى الله عليه وسلم — بما صنع حاطب .. فبعث على ابن ابى طالب والزبير .. وقال لهما : « ادركا امراة معها كتاب من حاطب بن ابى بلتعة الى قريش .. يحذرهم مما عزمنا عليه .. فخذوه منها وخلوا سبيلها .. وارشدهم الى طريقها . فادركاها بمكان اسمه — الخليقة — فاستنزلاها .. وبحثا عن الكتاب فى رحلها فلم يجدا شيئا .. فقال لها على — كرم الله وجهه — انى احلف بالله .. ما كذب رسول الله .. ولا كذبنا .. ولنخرجن لنا هذا الكتاب .. او لنكشفنك .. فلما رات الجد منه .. قالت : اعرضا عنى .. فاعرضا عنها .. فحلت ضفائرها .. فاستخرجت الكتاب منها ..

فدفعته الى على .. الذى اوصله الى رسول الله .. فوجد الكتاب موجها الى ثلاثة من زعماء قريش : سهيل بن عمرو .. وصفوان بن امية .. وعكرمة بن ابى جهل .. ونصه — اما بعد —

« يا معشر قريش .. فان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — جاءكم بجيش عظيم .. يسير كالسيل .. فوالله لو جاءكم وحده لنصره الله .. وانجز له وعده .. فانظروا لانفسكم .. والسلام » . وواضح أن فيه افشاء لسر امر رسول الله بكتمانه .. وسال ربه ان يعمى ايضا ابصار قريش .. ويصم اذانهم عنه .

فاستدعى — عليه السلام — حاطبا .. وقال له : ما حملك على هذا ؟ ..

فقال : يا رسول الله .. اما والله انى لمؤمن بالله ورسوله .. ما غيرت ولا بدلت .. ولكنى كنت امرأ ليس لى فى القوم من أصل ولا عشيرة .. ولى بين اظهرهم ولد واهل .. فصانعتهم عليهم لتكون يدا لى عندهم .

فقال عمر : يا رسول الله دعنى اضرب عنقه .. فان الرجل قد نافق .. فقال — عليه السلام — « وما يدريك يا عمر .. لعل الله قد اطلع الى اصحاب بدر يوم بدر .. فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » وكان حاطب من اهل بدر .

فذرفت عينا عمر .. وقال : الله ورسوله اعلم .. فانزل الله فى حاطب :

يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم اولياء تلقون اليهم بالمودة .. وقد كفروا بما جاءكم من الحق) الى قوله تعالى (ربنا عليك توكلنا واليك انبنا واليك المصير) (١) .

لبى نداء رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من حوله من العرب : أسلم ونفار ومزينة وجهينة وأشجع وسليم .. فحضروا الى المدينة .. واستجابوا لرسول الله فى الخروج معه .

فخرج صائما .. والمسلمون صائمون معه .. فى عصر اليوم العاشر من رمضان فى السنة الثامنة — أول يناير سنة ٦٣٠م .

لم يتخلف عنه أحد من المهاجرين والانصار .. فكان من المدينة وحدها عشرة آلاف .. ومن اهل البادية الفان .. فصار عدد الجيش فى اغلب الروايات اثنى عشر الفا . وان كانت السيرة الحلبية قد ذكرت عددا اقل من هذا .. وكان عدد الخيل الفا .

واستخلف على المدينة ابارهم كلثوم بن حصين بن خالف الغفارى .

---

(١) ١ — ٤ / الممتحنة .

غير أن الحافظ الدمياطى يقول انه استخلف عبد الله بن أم مكتوم .

وخرج معه ـ عليه الصلاة والسلام من نسائه : ام سلمة وميمونة ـ رضى الله عنهما .. ولم يزل رسول الله صائما .. حتى وصل باصحابه الى الكديد بين عسفان وامج .. فأفطر رحمة بالمسلمين .. وقد راى مشقتهم فى الصيام .. فاستوى على راحلته بعد العصر .. ودعا باناء فيه ماء .. وقيل فيه لبن .. فشرب ثم ناوله لرجل بجانبه فشرب .. فقيل له بعد ذلك : ان بعض الناس صام .. فقال « أولئك هم العصاة » لمخالفتهم أمره .. ولأنه قال للصحابة لما دنوا من العدو : « انكم قد دنوتم من عدوكم .. والفطر اقوى لكم » .. ولم يزل رسول الله يفطر حتى انتهى شهر رمضان .

ثم جعل لكل قبيلة راية تضمها .. اعطى ـ عليه السلام ـ لبنى سليم لواء وراية .. ولبنى غفار راية .. ولاسلم لواءين .. ولبنى كعب راية .. ولمزينة ثلاثة الوية .. ولجهينة اربعة الوية .. ولجماعة أسلموا من بكر لواء .. ولأشجع لواءين .

ويلاحظ ان الزحف كان سريعا .. حيث وصل الظهران فى سبعة أيام .. وبين الظهران ومكة مرحلة واحدة .

نزل بها وقد اخفى الله نباه عن قريش .. وهم وجلون خائفون .

وكان العباس ـ عم النبى ـ قد خرج باهله وعياله مسلما مهاجرا .. فلقى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الجحفة .. وكان قبل ذلك مقيما بمكة على سقايته .. والنبى عنه راض .

وممن لقى الرسول ايضا فى الطريق .. ابو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب .. ابن عم رسول الله واخوه من رضاع حليمة السعدية .. ومعه ابنه جعفر .

وكان أبو سفيان هذا صديقا له ـ عليه السلام ـ قبل الرسالة .. فلما بعث عاداه وهجاه .. فقد كان شاعرا مطبوعا .. هجا رسول الله .. وعارضه حسان بن ثابت بقوله :

الا ابلغ ابا سفيان عنى
مغلغلة فقد برح الخفاء
هجوت محمدا فاجبت عنه
وعند الله فى ذاك الجزاء

وقالوا : يشبه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أربعة :

جعفر بن أبى طالب .. والحسن بن على .. .. وقثم بن العباس .. وأبو سفيان بن الحارث

لقى ابو سفيان بن الحارث رسول الله فى الطريق قبل مكة .. ومعه ابنه جعفر .. ومعه ايضا عبد الله بن أمية المخزومى بن عاتكة بنت عبد المطلب ـ عمة الرسول ـ لقوه ـ عليه السلام ـ « بنيق العقاب » بين مكة والمدينة .. فالتمسا الدخول عليه .. فكلمته ام سلمة ـ رضى الله عنها ـ فيهما .. قالت : يا رسول الله .. ابن عمك وابن عمتك .. قال : « لا حاجة لى بهما .. اما ابن عمى فقد هتك عرضى .. وأما ابن عمتى فهو الذى قال بمكة ما قال » .. يعنى قوله له قبل الهجرة : والله لا آمنت بك حتى تتخذ سلما الى السماء .. فتعرج فيه وانا انظر .. ثم تأتى بصك واربعة من الملائكة يشهدون ان الله ارسلك .

فقالت له ام سلمة : يا رسول الله .. لا يكن ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك .

فلما خرج اليهما الخبر بذلك .. قال ابو سفيان : والله ليأذنن لى .. او لآخذن بيد ابنى هذا .. ثم لنذهبن فى الأرض ـ حتى نموت عطشا وجوعا .. فرق لهما رسول الله .. واذن لهما .. فقال على لأبى سفيان ابن عمه : ادخل عليه من قبل وجهه .. وقل له ما قال اخوة يوسف ليوسف :

(تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين .. فانه لا يرضى أن يكون احد احسن منه قولا .. ففعل ذلك ابو سفيان .

فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو ارحم الراحمين) ثم قال : ((رحم الله من علمك)) .. فأسلما .. وانشد ابو سفيان مرتجلا :

لعمرك انى حين أحمل راية
لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكالمدلج الحيران اظلم ليله
فهذا اوانى حين اهدى فاهتدى
هدانى هاد غير نفسى ودلنى
على الله من طردته كل مطرد

فضرب رسول الله صدره وقال : « انت طردتنى كل مطرد » .؟

وحسن اسلامه بعد ذلك .

ويقال : انه ما رفع راسه الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منذ اسلم حياء منه .. وكان رسول الله يحبه .. وشهد له بالجنة .. وقال ارجو ان يكون خلفا من حمزة .

ولما حضرته الوفاة .. قال : لا تبكوا على .. فوالله ما نطقت بخطيئة منذ أسلمت .

اسلام ابى سفيان :

ولنعد الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد نزل بجند الله فى الظهران على مرحلة من مكة .. فامر الناس ان يوقدوا النيران .. فاوقدوا عشره الاف نار .. وجعل على الحرس عمر الخطاب .

وركب العباس تلك الليلة .. بغلة رسول الله البيضاء .. وخرج يلتمس احدا يخبر قريشا ليخرجوا فيستأمنوا رسول الله قبل أن يدخل مكة عنوة .

وفى نفس الوقت خرج ابو سفيان بن حرب .. وحكيم بن حزام .. وبديل بن ورقاء من مكة يتلصصون الاخبار .. فقد استولى الرعب على قلوب قريش كلها .. خوفا من اغارة المسلمين عليهم .. وسار ابو سفيان وصحبه .. حتى اشرفوا على مر الظهران من بعد .. وراوا نيران المسلمين ولنستمع الى العباس ـ رضى الله عنه .. يحكى لنا ما حصل فى تلك الليلة :

يقول العباس :

والله انى لأسير على بغلة رسول الله .. اذ سمعت كلام ابى سفيان .. وبديل بن ورقاء .. وهما يتراجعان .. وأبو سفيان يقول : ما رايت كالليلة نيرانا قط ولا عسكرا .. ويقول بديل : هذه والله خزاعة خمشتها الحرب .. فيقول ابو سفيان : خزاعة اقل واذل من ان تكون هذه نيرانها وعسكرها .. **قال العباس :** فعرفت صوته .. **فقلت :** أبا حنظلة ؟ .. فعرف صوتى .. فقال : ابا الفضل ؟ .. قلت : نعم .. قال : مالك فداك ابى وامى ؟ .. **قلت :** هذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الناس .. واصباح قريش والله .. قال : فما الحيلة .. فداك أبى وامى .. قلت : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك .. فاركب فى عجز هذه البغلة .. حتى آتى بك رسول الله .. فاستامنه لك .. فركب خلفى .. ورجع صاحباه .

قال : فجئت به .. فكلما مررت به على نار من نيران المسلمين .. قالوا : من هذا ؟ .. فاذا راوا بغله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وانا عليها .. قالوا : عم رسول الله على بغلته .. حتى مررت بنار عمر بن الخطاب .. فقال : من هذا ؟ .. وقام الى .. فلما راى ابا سفيان على عجز الدابة .. قال : أبو سفيان عدو الله ؟ .. الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد .. ثم خرج يشتد نحو رسول الله .. وركضت البغلة فسبقت .. فاقتحمت عن البغلة .. فدخلت على رسول الله ودخل عليه عمر .. فقال : يا رسول الله .. هذا ابو سفيان .. فدعنى أضرب عنقه .. فقلت : يا رسول الله .. انى قد اجرته .. ثم جلست الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاخذت براسه .. وقلت فى نفسى : والله لا يناجيه الليلة رجل دونى .

فلما أكثر عمر فى شأن ابى سفيان .. قلت : مهلا يا عمر .. فوالله لو كان من بنى عدى بن كعب .. ما قلت هذا .. ولكنك عرفت انه من بنى عبد مناف .. فقال عمر : مهلا يا عباس .. فوالله لاسلامك يوم اسلمت .. كان احب الى

من اسلام الخطاب لو اسلم .. وما بى الا انى قد عرفت ان اسلامك كان احب الى رسول الله من اسلام الخطاب لو اسلم .

فقال - عليه السلام - اذهب به يا عباس الى رحلك .. فاذا اصبحت فاتنى به .. فذهبت به الى مرحلى .. فبات عندى .. فلما اصبح غدوت به الى رسول الله .. فلما رآه رسول الله .. قال : « ويحك يا ابا سفيان .. ألم يأن لك ان تعلم انه لا اله الا الله ؟ » قال : بأبى انت وامى .. ما احلمك واكرمك واوصلك .. والله لقد ظننت ان لو كان مع الله اله غيره .. لقد اغنى عنى شيئا بعد .

قال : « ويحك يا ابا سفيان .. الم يأن لك ان تعلم انى رسول الله » ؟ .

قال : بأبى انت وامى .. ما احلمك واكرمك واوصلك .. اما هذه والله فان فى النفس منها حتى الآن شيئا .

فقال له العباس : ويحك .. اسلم واشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله .. قبل ان تضرب عنقك .

فشهد شهادة الحق .. فاسلم .

قال العباس : قلت يا رسول الله .. ان ابا سفيان رجل يحب الفخر .. فاجعل له شيئا ..

قال : « نعم .. من دخل دار ابى سفيان فهو آمن .. ومن اغلق عليه بابه فهو آمن .. ومن دخل المسجد فهو آمن » .

فلما ذهب لينصرف .. قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يا عباس .. احبسه بمضيق الوادى .. عند حطم الجبل .. حتى تمر به جنود الله فيراها .. ففعل .

فمرت به القبائل على راياتها .. كلما مرت به قبيلة قال : يا عباس .. من هذه ؟ فأقول : سليم .. فيقول : مالى وسليم .. ثم تمر به القبيلة .. فيقول : يا عباس .. من هؤلاء ؟ فاقول : مزينة .. فيقول : مالى ولمزينة .. ثم تمر به غفار وجهينة .. حتى مرت به القبائل كلها .. ما تمر قبيلة الا سالنى عنها .. فاذا اخبرته .. قال : مالى ولبنى فلان . حتى مر به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى كتيبته الخضراء .. فيها المهاجرون والانصار .. لا يرى منهم الا الحدق من الحديد .. قال : : سبحان الله يا عباس .. من هؤلاء ؟ .. قلت : هذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى المهاجرين والانصار .. قال : ما لاحد بهؤلاء قبل ولاطاقة .. ثم قال : والله يا ابا الفضل .. لقد اصبح ملك ابن اخيك اليوم عظيما قلت : يا ابا سفيان انها النبوة .. قال : فنعم اذا .. قلت : النجاء الى قومك يا ابا سفيان .

وكانت راية الانصار مع سعد بن عبادة ..
فلما مر بأبى سفيان .. قال : اليوم يوم الملحمة .. اليوم تستحل الحرمة .. اليوم اذل الله قريشا .

فلما حاذى رسول الله ابا سفيان .. قال : يا رسول الله .. الم تسمع ما قال سعد ؟ .. قال : وما قال ؟ .. فقال : قال كذا وكذا .

فقال عثمان وعبد الرحمن بن عوف : يا رسول الله .. ما نأمن ان يكون لسعد فى قريش صولة .. فقال رسول الله : « بل اليوم يوم المرحمة .. يوم تعظم فيه الكعبة .. اليوم اعز الله فيه قريشا » .

ثم أرسل الى سعد فنزع منه اللواء .. ودفعه الى ابنه قيس بن سعد .

ومضى أبو سفيان .. حتى اذا جاء قريشا .. صرخ بأعلى صوته :

يا معشر قريش .. هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به .. فمن دخل دار ابى سفيان فهو آمن .

فقامت اليه زوجته .. هند بنت عتبة .. فاخذت بشاربه .. فقالت :

اقتلوا الحميت الدسم الاحمش الساقين (١) .. قبح من طليعه قوم (٢) .

---

(١) الحميت . وفى السمن . الاحمش : الشديد اللحم .. تشبهه بالزق لسمنه .

(٢) طليعة القوم : حارسهم .

قال : ويلكم .. لا تغرنكم هذه عن انفسكم .. فانه قد جاءكم مالا قبل لكم به .. **فمن دخل دار ابى سفيان فهو آمن** .

قالوا : قاتلك الله .. وما تغنى عنا دارك ؟ .

قال : ومن اغلق عليه بابه فهو آمن .. ومن دخل المسجد فهو آمن .

فتفرق الناس الى دورهم .. والى المسجد .

دخـــول مكـــة :

لما وصل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى ذى طوى .. وقف على راحلته معتجرا .. يعنى معتما ـ بشقة برد حبرة حمراء.. وطاطأ راسه ـ حمدا لله ـ

روى البخارى .. من عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنه ـ : انه صلى الله عليه وسلم ـ اقبل يوم الفتح .. من اعلى مكة .. على راحلتــه ـ القصواء .. مردفا اسامة بن زيد خلفه .. ودخل واضعا راسه الشريف على راحلته ـ تواضعا لله تعالى ـ حين راى ذلك الفتح العظيم .. وكثـرة المسلمين .. وهو يقول « اللهم ان العيش عيش الآخرة » معتجرا بشقة بردة حيرة حمراء.. وكان دخوله يوم الاثنين .. العشرين من رمضسان فى العام الثامن للهجرة .. ولواؤه ابيض .. ورايته سوداء .. تســـمى ـ العقاب ـ وكانت من برد عائشة .. وهى التى كانت بخيبر .. وقد اغتسل ـ عليه الصلاة والسلام ـ لدخول مكة .

وفرق رسول الله جيشه .. من ذى طوى .. امر الزبير بن العوام على المهاجرين .. وأمره ان يدخـــل من كداء .. باعلى مكة .. وامره ان يغرز رايته بالحجون .. ولا يبرح حتى يأتيه .

وامر خالد بن الوليد .. فى قبائل قضـــاعة وسليم وغيرهم .. وأمره ان يدخل من اســـفل مكة .. وان يغرز رايته عند ادنى البيوت .

وامر سعد بن عبادة .. فى كتيبة الأنصار .. فى مقدمة رسول الله .

وامر الجميع ان يكفوا أيديهم .. ولا يقاتلوا الا من قاتلهم .

واندفع خالد بن الوليد .. حتى دخـل من اسفل مكة .. وقد تجمع بها بنو بكر وبنو الحارث بن عبد مناف .. وناس من هزيل ومن الأحابيش الذين انتصرت بهم قريش فى الماضى .. ومعهم صفوان بن امية وسهيل بن عمرو وعكرمة بن ابى جهل .

فقاتلوا خالدا فى مكان اسمه ـ الخندمة ـ فقاتلهم .. فانهزموا .. وقتـــل من بنى بكر عشرون رجلا .. ومن هذيل ثلاثة أو اربعة .. حتى انتهى بهم القتل الى باب المسجد .. فدخلوا الدور .. وهـربت منهم طائفة الى الجبال .. وصاح أبو سفيان من دخل داره .. واغلق بابه .. فهو آمن .

ونظر ـ عليه السلام ـ وقال : ما هذا ؟ .. وقد نهيت عن القتال .. فقالوا : ان خالدا قوتل .. وبدىء بالقتـــال .. فلم يكن له بد من ان يقاتلهم .. فقال رسول الله لخالد : لم قاتلت وقد نهيتك عن القتال ؟ .. فقال : هم بدأونا .. وقد كففت يدى ما استطعت .. فقال : « قضاء الله خير » .

وقد حصل فى تلك المناوشـــة .. موقف لطيف لحماس بن قيس بن خالد .. من بنى بكر .. كان يعد سلاحا .. قبل دخول رســـول الله مكة .. فقالت له امرأته : لماذا تعد هـــذا السلاح ؟

قال : لمحمد واصـــحابه .. قالت : والله ما اراه يقوم لمحمد واصحابه شىء .

قال : والله انى لأرجو ان اخدمك بعضهم .

ثم شهد ـ الخندمة ـ مع صفوان وســهيل وعكرمة .

فلما لقيهم المسلمون .. من اصحاب خالد بن الوليد .. ناوشوهم شيئا من قتال .. فقتل من المسلمين : كرز بن جابر .. وخنيس بن خالد بن ربيعة .. كانا فى خيــل خالد بن الوليد .. فشذا عنه .. فسلكوا طـريقا غير طـريقه .. فقتلوهما .

وقتل خالد من المشركين من قتل .. وهزموا .. فخـرج حماس بن قيس منهزما حتى دخل

بيته .. ثم قال لامراته : اغلقى الباب على .. فقالت له : فاين ماكنت تقول ؟ ..

فقال :

انك لو شـهدت يوم الخنـدمة
اذ فـر صـفوان وفـر عكـرمة
لهم نهيت (١) خلفنا وهمهمـه
لم تنطقى باللـوم ادنى كلمـة

وكان شعار المسلمين المهاجرين عند دخولهم مكة : يا بنى عبد الرحمن .. وشعار الخزرج :

يا بنى عبد الله .. وشـعار الأوس : يا بنى عبيد الله .

وكان هذا شعارهم أيضـا يوم حنين ويوم الطائف بعد الفتح .

وركزت راية رسول الله بالحجون عند مسجد الفتح ..

ثم نهض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله .. حتى اذا دخل المسـجد .. اقبل الى الحجر الاسـود فاستلمه .. ثم طاف بالبيت وفى يده قوس .. وحول البيت وعليه ثلاثمائة وسـتون صنما .. فجعل يطعنها بالقوس وهو يقول « جاء الحـق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا .. يبدىء الباطل وما يعيد » .. والأصنام تتساقط على وجوهها .

وكان طوافه ـ عليه السلام ـ على راحلته .. ولم يكن ذلك محرما .. فاقتصر على الطواف .. فلما اكمله .. دعا عثمان بن طلحة .. صاحب مفتاح الكعبة .. فاخـذ منه المفتاح .. وامر بها ففتحت .. فدخلها .. فراى فيها الصـور والرسوم .. راى فيها صورة ابراهيم واسماعيل .. يستقسمان بالازلام ..

فقال : قاتلهم الله .. والله ما استقسما بها قط .. كما راى حمامة من عيدان فكسرها بيده .. وامر بالصور فمحيت .. ثم اغلق عليه الباب .. ومعه أسامة بن زيد .. وبلال بن رباح .

فاستقبل الجدار الذى يقابل الباب .. بين العمـودين اليمانيين .. حتى اذا كان بينه وبين الجدار .. قدر ثلاثة أذرع .. وقف وصلى هناك .. ثم دار فى البيت .. وكبر فى نواحيه .. ووحد الله .. ثم فتح الباب .. وقريش قد مـلأت المسجد صفوفا .. ينتظرون ماذا يصـنع .. فاخـذ ـ عليه السلام ـ بعضـادتى الباب .. **وهم تحته وقال :**

« لا اله الا الله وحده لا شريك له .. صدق وعده .. ونصر عبده .. وهزم الأحزاب وحده .. الا كل ماثرة أو دم او مال يدعى .. فهو تحت قدمى مابين .. الاسـدانة البيت وسقاية الحاج .. الا وقتل الخطأ مثل العمد .. السوط والعصا .. ففيه الدية مغلظة مائة من الابل .. اربعـون منها فى بطونها أولادها .

يا معشر قريش .. ان الله قـد اذهب عنكم نخوة الجاهليـة .. وتعظمها الآباء .. الناس من آدم وآدم من تراب » .

ثم تلا قوله تعالى :

(يا أيهـا الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائلَ لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير) (٢) .. ثم قال :

« يا معشر قريش ما ترون انى فاعلٌ بكم » ؟ .. قالوا : خيرا اخ كريم وابن أخ كريم ..

قال : « فانى اقولُ لكم كما قالَ يوسـف لاخوته : (لا تثريب عليكم اليوم) .

« اذهبوا فانتم الطلقاء » .

وارتجت مكة تكبيرا .. وشرب من زمزم .. وتوضأ منها مع المسلمين » ..

هل كان العفو عاما :

بمناسبة هذه العبارة الأخيرة .. التى ختم بها ـ عليه الصلاة والسلام ـ كلمته لقريش :

« اذهبوا فانتم الطلقاء » نريد أن نشـير الى الذين استثناهم الرسول من هذا العفو .. وأهدر

(١) التهيت : صوت الصدر وحشرجته .

(٢) ١٣ ـ الحجرات .

دمهم .. وهم خمسة عشر مابين رجل وامراة .. وهم :

١ ــ عبد الله ابن ابى السرح بن الحارث العامرى ــ أخو عثمان من الرضاعة .

٢ ــ عبد الله بن خطل .

٣ ــ عكرمة بن أبى جهل .

٤ ــ الحويرث بن نفيد .

٥ ــ مقيس بن صبابة .

٦ ــ هباء بن الأسود بن المطلب .

٧ ــ كعب بن زهير بن أبى سلمى المزنى .

٨ ــ الحارث بن هشام المخزومى ــ شقيق ابى جهل .

١٠ ــ زهير بن امية المخزومى ــ أخو ام سلمة .

١١ ــ وحشى بن حرب قاتل حمزة .

هؤلاء من الرجال .. واربع نساء هن :

١ ــ تريبة ــ امة كانت عند عبد الله بن خطل .

٢ ــ زميلتها ــ فرتنا .

٣ ــ سارة ــ مولاة لبنى المطلب بن عبد مناف .

٤ ــ هند بنت عتبة ــ زوج ابى سفيان ــ أم معاوية .

واكثر هؤلاء اسلموا .. ولم يقتل منهم الا اربعة .. هم :

١ ــ عبد الله بن خطل : وكان ممن قدم المدينة قبل الفتح .. واسلم .. وكان اسمه عبد العزى .. فسماه النبى عبد الله .. وبعثه لاخذ الصدقة .. وارسل معه رجلا مسلما من الانصار يخدمه .. فنزل منزلا .. وامره ان يجهز له طعاما ونام .. فلما استيقظ لم يجده قد اعد الطعام .. فقتله وارتد مشركا .. وكان شاعرا يهجو النبى .. وكانت له جاريتان تغنيان بهجاء النبى .. وهما الجاريتان اللتان اشرنا اليهما .. أهدر الرسول ــ عليه السلام ــ دمهما مع سيدهما .

فلما كان يوم فتح مكة .. ركب فرسه .. ولبس درعه .. واخذ بيده قوسا .. وصار يقسم : لا يدخلها محمد عنوة .. فلما رأى خيل المسلمين .. خاف وذهب الى الكعبة .. وتعلق بأستارها .. فوجده رسول الله عند طوافه .. فقال : « اقتلوه فان الكعبة لا تعيذ عاصيا .. ولا تمنع من اقامة حد واجب » .

فقتل ولم أهتد الى من هو قاتله .

٢ ــ اما جريتاه .. فقد قتلت تريبة .. واستؤمن رسول الله لفرتنا فامنها فأسلمت .

٣ ــ وثالث القتلى : الحويرث بن نفير .. كان ينشد هجاء الرسول .. ويكثر فى اذاه .. وهو بمكة .. وقد شارك هبار بن الأسود فى نخس جمل زينب ــ بنت رسول الله ــ لما هاجرت الى مكة .. فقتله على .

٤ ــ ورابعهم مقيس بن صبابة .. كان قد اسلم .. ثم قتل مسلما من الأنصار .. وكان الأنصارى قتل أخاه هشام بن صبابة ــ خطأ ــ فى غزوة ــ ذى قرد ــ ظنا منه انه من الأعداء .. فجاء مقيس .. واخذ دية أخيه .. ولكنه قتل الأنصارى .. ثم ارتد .. ورجع الى قريش .. فاهدر رسول الله دمه .. فقتله نميلة بن عبد الله الليثى .. وهو رجل من قومه .

هؤلاء الأربعة .. الذين قتلوا .. فى فتح مكة ..

واعترف بهذا كتاب الغرب .. ومنهم ــ الأستاذ صوير ــ قال : ان الذين قتلوا فعلا اربعة فقط :

اما الباقون .. فقد شفع عثمان .. لعبد الله بن أبى السرح ــ اخيه من الرضاع ــ فأمنه رسول الله .. فاسلم وحسن اسلامه .

وشفعت أم حكيم ــ وهى من فضليات المسلمات ــ لزوجها ــ عكرمة بن أبى جهل ــ فقال لها ــ عليه السلام : « هو آمن » فأدركته .. وهو يريد الانتحار .. فرجع معها .. واسلم امام رسول الله .. وكان بعدها من فضلاء الصحابة .

أما هبار بن الأسود .. فكان شديد الأذى بالمسلمين .. ونخس جمل السيدة زينب ـ بنت رسول الله ـ يوم هجرتها .. فسقطت على الصخر .. وأسقطت جنينها .. وظلت مريضة حتى ماتت .. فهرب يوم الفتح .. ثم جاء معترفا بذنبه لرسول الله .. فعفا عنه واسلم .

أما كعب بن زهير الشاعر الهجاء .. فكان قد هجا اخاه ـ بجير بن زهير ـ عندما اسلم ..وهجا معه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فبعد الفتح قال ـ عليه السلام ـ « من راى منكم كعب بن زهير .. فليقتله .. فقد ابحنا دمه » .

فهرب كعب .. حتى ضاقت عليه الأرض بما رحبت .. وكان يدفع دية نفسه .. كلما حاول الالتجاء الى احد .. حتى نفد ماله .. وساءت حاله .

فلم يجد بدا من الذهاب الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى المدينة .. بعد عودته اليها من مكة .. وأسلم .. وقدم قصيدته اللامية المشهورة .. التى مطلعها .. بانت سعاد فقلبى اليوم متبول .

وكان متنكرا .. فعرفه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وكشف تنكره .. وعفا عنه .

وقد اشار فى قصيدته .. الى سوء حاله .. فقال فيها :

وقال كل خليل كنت آمله
لا الهينك انى عنك مشغول
وقلت خلوا سبيلى لا ابالكو
فكل ما قدر الرحمن مفعول
كل ابن انثى .. وان طالت سلامته
لابد يوما على آلة حدباء محمول

الى ان قال :

وقد اتيت رسول الله معتذرا
والعذر عند رسول الله مقبول

وقال فى ختامها :

انبئت ان رسول الله اوعدنى
والعفو عند رسول الله مأمول
ان الرسول لنور يستضاء به
مهندمن سيوف الهند مساول

وهنا كشفه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .. وقال له :

« بل قل يا كعب : من سيوف الله مسلول » .

قالت : والله انى كنت لاصيب من مال ابى سفيان الهنة والهنة .. وما ادرى اكان ذلك حلالا .. ام لا ؟ .. فقال ابو سفيان ـ وكان واقفا ـ اما ما اصبت فيما مضى .. فانت منه فى حل .

فقال رسول الله : « انك لهند بنت عتبة » ؟.

فقالت : انا هند بنت عتبة .. فاعف عما سلف .. عفا الله عنك .

قال : « ولا تزنين » .

قالت هند : هل تزنى الحرة يا رسول الله ؟ .

قال : « ولا تقتلن اولادكن » .

قالت : قد ربيناهم صغارا .. وقتلتهم يوم بدر كبارا .

فضحك عمر بن الخطاب .. من قولها .

فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ « ولا تاتين ببهتان تفترينه بين ايديكن وارجلكن » .

قالت : والله ان اتيان البهتان لقبيح .. ولبعض امثل .

قال : « ولا تعصيننى فى معروف » .

قالت : ما جلسنا هذا المجلس .. ونحن نريد ان نعصيك فى معروف .

فقال ـ عليه السلام ـ لعمر : « بايعهن واستغفر لهن » .

ولما أسلمت هند .. عمدت الى صنم كان فى بيتها .. وجعلت تضربه بالقدوم وتقول : كنا منك فى غرور .

وقد حضرت هند قتال الروم يوم اليرموك .. مع زوجها ابى سفيان .. وكانت تشجع المسلمين .. وتحرضهم على القتال .

واختفى عتبة ومعتب ابنا ابى لهب .. ثم اسلما .

كما اختفى ايضا سهيل بن عمرو .. وكان ابنه مسلما .. ثم أسلم سهيل بالجعرانه بين الطائف ومكة .

وبعد ان اطمأن رسول الله .. جلس فى المسجد .. فقام على بن ابى طالب اليه .. ومفتاح الكعبة فى يده .. فقال يا رسول الله .. اجمع لنا الحجابة مع السقاية .. يريد ان يأخذ المفتاح .. فقال ـ عليه السلام ـ اين عثمان بن طلحة .. فأتوا به .. فقال :

« هاك مفتاحك يا عثمان .. اليوم يوم بر ووفاء » .

يقول عثمن بن طلحة .. كما ذكر فى طبقات بن سعد :

كنا نفتح الكعبة فى الجاهلية يوم الاثنين والخميس .. فاقبل رسول الله يوما قبلَ الهجرة .. يريد ان يدخل الكعبة .. فأغلقت له .. ونلت منه .. فحلم عنى .. ثم قالَ : يا عثمان لعلك سترى هذا المفتاح يوما بيدى .. أضعه حيث اشاء .. فقلت : لقد هلكت قريش يومئذ وذلت يا محمد .. فقال : بل عزت وعمدت يومئذ .. فوقعت كلمته منى موقعا ظننت يومئذ .. ان الامر سيصير كما قال .. فلما كان يوم الفتح قال : « يا عثمان ائتنى بالمفتاح » .. فأتيته به فاخذه .. ثم دفعه الى وقال :

« خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم الا ظالم .. يا عثمان .. ان الله استأمنكم على بيته .. فكلوا مما يصل اليكم من هذا البيت بالمعروف » .

فلما وليت نادانى ـ والكلام مازال لعثمان بن طلحة ـ فرجعت اليه .. وقال :

« الم يكن الذى قلت لك » ؟ .. فذكرت قوله بمكة قبلَ الهجرة :

« لعلك سترى هذا المفتاح بيدى أضعه حيث شئت » .. فقلت .. بلى اشهد انك رسول الله .

وفى عثمان هذا نزلت الآية : (ان الله يامركم ان تؤدوا الأمانات الى أهلها (١)) .

وامر رسول الله ـ صلى الله عليل وسلم ـ بلالا أن يؤذن ظهر يوم الفتح .. على ظهر الكعبة .. وأبو سفيان بن حرب .. وعتاب بن اسيد .. والحارث بن هشام .. جالسون بفناء الكعبة .. قال بعضهم اما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذنا ؟ وقال عتاب بن اسيد : لقد اكرم الله اسيدا الا يكون سمع هذا .. فيسمع منه ما يغيظه .. وقال الحارث : اما والله لو اعلم انه حق لا تبعته .. فقال ابو سفيان : اما والله لا أقولُ شيئا .. لو تكلمت لاخبرته عنى الحصباء .

فخرج عليهم ـ عليه السلام فقالَ لهم : « قد علمت الذى قلتم » .. ثم ذكر الحديث لهم .. فقال الحارث وعتاب : نشهد انك رسولُ الله .. والله ما اطلع على هذا احد فنقولُ اخبرك .

كما هم فضالة بن عمير بن الملوح .. ان يقتل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يطوف بالبيت .. فلما دنا منه .. قال له ـ عليه السلام ـ « افضالة » ؟ قال : نعم فضالة يارسول الله .. قال : « ماذا كنت تحدث به نفسك » ؟ ..

قال : لا شىء .. كنت اذكر الله .. فضحك النبى .. ثم قال « استغفر الله » .. ثم وضع يده على صدره .. فسكن قلبه .. وكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدرى .. حتى ما خلق الله شيئا أحب الى منه .

ويقول فضالة : فرجعت الى اهلى .. فمررت بامراة كنت اتحدث اليها .. فقالت : هلم الى الحديث .. فقلت :

قالت هلم الى الحديث فقلت لا
يأبى عليك الله والاسلام

---

(١) ٥٨ ـ النساء .

لو قــد رأيت محمــــدا وقبيلة
بالفتـــح يوم تكسر الأصـــــنام
لرأيت دين الله أضـــحى بينـــا
والشــرك يغشى وجهه الاظلام (١)

ولا يفوتنــا أن نذكر قحافة .. والد ابى بكر الصديق .. ولنسمع حديثه من أسماء بنت ابى بكر .. فتقول :

لما وقف ـ عليه السلام ـ بذى طوى ـ تقصد قبل دخوله مكة يوم الفتـح ـ قال أبو قحافة لابنة .. من أصغر ولده : أى بنية .. اظهرى بى على أبى قبيس ـ وقد كف بصره ـ فاشرفت به عليه .. فقال : اى بنية .. ماذا ترين ؟ .. قالت : أرى سوادا مجتمعا .. قال تلك الخيل .. قالت : وأرى رجلا يسعى بين يدى ذلك السواد ـ مقبلا مدبرا .. قال : ذلك الوازع ـ اى الذى يرتب الخيل ويأمرها .. ثم قالت : قد والله انتشر السواد .. قال : اذا دفعت الخيل .. اسرعى بى الى بيتى .

وذهب ابو بكر يوم الفتـح .. وجاء بأبيه يقوده .. وقد كف بصره .. فلما رآه ـ عليه السلام ـ قال لأبى بكر : هلا تركت الشيخ فى بيته .. حتى آتيه ؟ .. فقال أبو بكر : هـو أحق أن يمشى اليك .. من أن تمشى انت اليه ـ فأجلسه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين يديه .. فمسح صدره .. وقال « اسلم تسلم » .. فأسلم .. وهنأ رسول الله أبا بكر باسلام أبيه .. يقول المسودى : توفى أبو قحـــافة .. فى خلافة عمر بن الخطاب .. وهـــو ابن تسـع وتسعين سنة .. فى عام ١٣ هجـــرى .. فى السنة التى مات فيها أبو بكر .. واستخلف عمر بعده .

ولما كان الغد .. بعد فتح مكـة ـ قـام رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فى النـــاس خطيبا فحمد الله وأثنى عليه .. ثم قال :

« ايها الناس .. ان الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض .. فهى حرام بحرمة الله الى يوم القيـامة .. فلا يحل لا مرىء يؤمن بالله واليوم والآخر ان يسفك فيها دما .. أو يعضد بها شجرا .. فان أحد ترخص لقتال رسول الله ـ يقصد الذى حصـــل منه فى يوم الفتح ـ فقولوا : ان الله اذن لرسوله ولم يأذن لكم .. وانما احلت لى ساعة من نهار .. وقد عادت حرمتهـــا اليــوم كحرمتها بالأمس .. فليبلغ الشاهد الغائب » .

وبدأ همس الأنصار فيما بينهم .. قالوا: اترون رسول الله .. اذ فتح الله عليه أرضـه وبلده .. أن يقيم بها ؟ .. وكان عليه الصـــلاة والسلام ـ وقتها .. يدعو على الصفا .. رافعا يديه ـ فلما فرغ من دعائه قال : « ماذا قلتم »؟ .. قالوا لا شىء يارسول الله .. فلم يزل بهم حتى أخبروه .. فقال :

« معاذ الله .. المحيا محياكم .. والممات مماتكم » .

وأسلمت قريش كلها .. وحطموا كل ما فى بيوتهم من اصنام .. استجابة لأمر رسول الله .. حيث نادى منادى الرســول بمكة : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر .. فلا يدع فى بيتــه صنما الا كسره » .

وبعث ـ عليه الســلام ـ خالد بن الوليد الى ـ العـــزى ـ فى الخامس والعشرين من رمضان وهو بمكة ليحطمها .. فخرج اليها فى ثلاثين فارسا من أصحابه .. حتى انتهوا اليها فهدمها .. ثم رجع الى رسول الله ـ فاخبره .. فقال له : « هل رايت شيئا » ؟ .. قال : لا .. قال : « فانك لم تهـدمها » .. فارجع اليها فاهدمها .. فرجع خالد وهو مغتاظ .. فجرد سيفه .. فخرجت اليـــه امرأة عريانة سوداء ثائرة الشعر .. فضربها خالد ـ فقتلها

(١) زاد المعاد .. والانوار المحمدية .. ولكن محمد رضا نسب هذه الابيات الي راشد بن حفص .

(١) زاد المعاد ص ١٨٦ ـ والنبهاني ص ١١٥ .. وغيرهما

باثنتين .. ورجع الى رسول الله فأخبره .. فقال : « نعم .. تلك العزى .. وقد أيست أن تعبد فى بلادكم أبدا » .

وكانت العزى بموضع اسمه ــ نخلة ــ بين الطائف ومكة .. تعبدها قريش .. وجميع بنى كنانة .. وكانت أعظم أصنامهم .. كان سدنتها ــ بنى شيبان ــ .

كما بعث ــ عليه السلام ــ عمرو بن العاص ليهدم ــ سواع ــ صنم هذيل .. على ثلاثة اميال من مكة .

يقول عمرو : فانتهيت اليه .. وعنده السادن ــ الخادم ــ فقال : ما تريد ؟ .. قلت: امرنى رسول الله أن أهدمه .. قال : لا تقدر على ذلك .. فقلت : لم ؟

قال : تمنع .. فقلت : ويحك .. وهل يسمع أو يبصر ؟ .

قال : فدنوت منه فكسرته .. ثم قلت للسادن : كيف رأيت ؟ .

قال : اسلمت لله رب العالمين .

كما بعث سعد بن زيد الأشهلى .. فحطم ــ مناة ــ وكانت مناة صنما للاوس والخزرج.

حطمت تلك الأصنام .. ورسول الله بمكة .. بعد يوم فتحها .

وأمامى الآن موقف لخالد بن الوليد .. برأ منه رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ذكرته كل كتب السيرة .. فقد ارسله رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى أول شوال من السنة الثامنة .. وهو فى مكة .. قبل عودته الى المدينة .. ارسله الى بنى جذيمة ــ قبيلة من كنانة ــ وكانوا بأسفل مكة .. على مسافة ليلة ــ ناحية يلملم .. أرسله اليهم .. داعيا لهم الى الاسلام ــ ولم يرسله محاربا .. فخرج معه ثلاثمائة وخمسون رجلا من المهاجرين والأنصار وبنى سليم .

فلما بلغهم خالد .. قال لهم : من أنتم ؟.. قالوا : مسلمون ــ قد صلينا وصدقنا بمحمد رسولا ونبيا .. المساجد فى ساحتنا .

وفى البخارى انهم لم يحسنوا قولهم اسلمنا ــ فقالوا : صبأنا .. فقال لهم : استسلموا للاسر .. فأستسلموا .. وأمر بعضهم فأوثق بعضا .. ثم فرقهم فى أصحابه .

فلما كان السحر .. نادى منادى خالد : من كان معه أسير فليقتله .. فقتل بنو سليم ما كان بأيديهم .. أما المهاجرون والأنصار .. فأطلقوا أسراهم .

فلما بلغ النبى هذا الأمر .. قال : « اللهم انى ابرأ اليك مما صنع خالد » .. ثم طلب على بن أبى طالب وقال له :

« أخرج الى هؤلاء القوم .. فانظر أمرهم .. واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك » .

فخرج على .. حتى أتى القوم .. ومعه مال قد بعث به رسول الله معه .. فدفع لهم دية دمائهم .. وما أصيب من أموالهم .. حتى انه عوض عن ميلغة الكلب (١) .

وبقيت مع على بعض الأموال .. بعد ان ودى كل دم ومال .. فقال لهم :

هل بقى لكم شىء من دم أو مال لم يود لكم ؟.. قالوا : لا .. قال فانى أعطيكم هذه البقية من هذا المال .. احتياطا لرسول الله .

ثم رجع الى النبى فأخبره .. فقال : « أصبت وأحسنت » .

ثم قام رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فاستقبل القبلة ــ قائما ــ شاهرا يديه .. حتى انه ليرى ما تحت منكبيه .. بقوله :

« اللهم انى ابرأ اليك مما صنع خالد بن الوليد » ثلاث مرات .

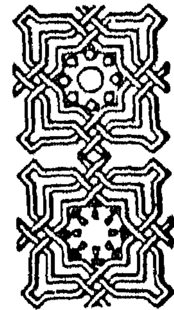
وقد حصلت مشادة بين خالد وعبد الرحمن بن عوف .. بسبب هذا الحادث .. فبلغ ذلك رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال:

« مهلا يا خالد .. دع عنك أصحابى .. فوالله لو كان لك مثل جبل احد ذهبا .. ثم انفقته فى سبيل الله .. ما أدركت غدوة أو روحة من أصحابى » .

ومكث رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بمكة بعد الفتح .. خمس عشرة ليلة .. وكان يوم الفتح فى ٢٠ من رمضان .. فى السنة الثامنة للهجرة .

---

(١) الميلغة : اناء من خشب يلغ فيه الكلب .



يوم حنين

قال العباس : فوالله لكأن عطفهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على اولادها .. يقولون : يالبيك يالبيك .. فتراجعوا الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى ان الرجل منهم اذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع .. انحدر عنه وأرسله .. ورجع بنفسه الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

ـ ٥٤ ـ
يوم حنين

لعل القارىء الكريم .. يذكر اننى قلت فى نهاية الموضوع الثامن والثلاثين .. من هــذا تحت عنوان ــ روح الاسلام فى الحرب .. قلت بالنص :

« وقـــد افاض ائمتنـا الكبـــار .. فى تفصيل جميع الغزوات والبعوث والسرايا .. افاضة شكرها لهم الله .. فلم يتركوا للباحث اى مجهود فى البحث من الغزوات .. والتنقيب فى كل صــغيرة وكبيرة .. ولهـــذا رفقا منى بالقارىء .. سأتعرض لكثير من الغزوات بشىء من الايجاز غير المخل بالمطلوب .. مع ايفــاء الغزوات الرئيسية المؤثرة حقها .. باســلوب قد لا يبعث فى النفس الملل .. وفى الوقت نفســه يشفى غلة الصــادى .. ويرد لهفة الفهيم الى العلم » .

ولكن ما ان القيت بنفسى فى هذا البحر الزاخر .. حتى وجدت من الدرر والأصداف .. واللآلى والجواهر .. ما لم يطاوعنى قلمى على حرمان القارىء منها .

فمثلا ــ غزوة حنين ــ من الغزوات التى سجلها القرآن الكريم .. فى قوله : « لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين اذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا » (١) .

ورواة السيرة .. يســمونها أحيانا ــ غزوة أوطاس ــ أو غزوة هوازن ــ .

هوازن اسم قبيلة كبيرة من قبائل العرب .. فيها عدة بطون .. ظنوا أن المسلمين يقصدونهم .. لما خرجوا من المدينة لفتح مكــة .. فاعدوا واستعدوا .. وقام فيهم مالك بن عوف النصرى .. من بنى نصر .. يحرضهم على الاستعداد .. لقتال محمد وصحبه .. وزاد استعدادهم .. لما راوا محمدا يفتح مكة .. ويدخــل اهلها فى الاســلام افواجا .

وانضم اليهم كل ثقيف من الطائف .. ومضر .. وجشم .. وبعض بنى هلال .. وبنو سعد ابن بكر .. وهم بطن رسول الله فى الرضاع .. فكونوا جيشا ضخما .

فكان من بنى سعد وثقيف وحدهم .. اربعة

---

(١) ٢٥ ــ التوبة .

الاف مقاتل .. وانضم اليهم من سائر العرب جموع كبيره .. حتى بلغ جيشهم عشرين الفا .. وفى بعض الأخبار ثلاثين الفا .

ويشتهر هوزان بين العرب بالرمى .

فلما بلغ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تجمعهم هذا .. وهو بمكة .. ارسل اليهم عبد الله بن ابى مدره الاسلمى .. لياتيه بخبرهم .. فمكث فيهم يوما او يومين .. ثم عاد الى رسول الله واخبره بتجمعهم هذا .

فخرج بجيش المسلمين من مكة .. فى يوم السبت السادس من شوال .. فى العام الثامن .

وخرج معه عشره آلاف مقاتل .. ممن اتوا معه من المدينة .. والفان من مكة .. فكان جيش المسلمين اثنى عشر الفا .

وطلب رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ من صفوان بن اميه سلاحا .. وهو يومئذ مشرك ـ فقال صفوان : اغصبا يامحمد ؟ .. قال . بل عاريه مضمونة .. نؤديها لك .. فاعطاه مائه درع بما يكفيها من السلاح .. وفى بعض الاخبار اعطاه اربعمائه درع .

كما استعار ايضا من نوفل بن الحارث ابن عبد المطلب ـ وهو ابن عمه ـ ثلاثه الاف رمح .. وقال . كانى انظر الى رماحك هذه .. تقصف ظهر المشركين .

واستعمل ـ عليه السلام ـ على مكة عتاب ابن اسيد .. وترك معه معاذ بين جبل الانصاري الخزرجى .. يعلم الناس الدين .. لفقهه وعلمه .

ولما اقترب الجيش من العدو .. رتبهم رسول الله .. ووضع الألوية والرايات .

فاعطى على بن ابى طالب لواء المهاجرين .. واعطى راية لسعد بن ابى وقاص .. وراية لعمر .. واعطى الحباب بن المنذر لواء الخزرج .. واسيد بن حضير لواء الأوس .

ورتب قبائل العرب .. بعد أن وزع عليهم الالوية والرايات .

ولبس النبى درعين والبيضة والمغفر .. وركب بغلته البيضاء .. ثم قدم سليما امامه .. بقيادة خالد بن الوليد .. ولم يزل خالد فى مقدمته .. حتى وصل ـ الجعرانة .

وجاء رجل فقال لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن هوازن من بكرة ابيهم بنسائهم وابنائهم ونعمهم وشياههم .. اجتمعوا بحنين فتبسم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : « تلك غنيمة المسلمين غدا ان شاء الله » .

وجاء رجل آخر .. فقال لن نغلب اليوم من قلة .. فغضب رسول الله عليه السلام ـ من تلك العبارة .

نزل مالك بن عوف .. بجيش هوازن فى حنين .. وحنين : واد قرب الطائف على بعد ثلاث ليال من مكة .. وكان معهم ـ دريد ابن الصمة ـ رئيس بنى جشم وسيدهم .. وكان شجاعا مجربا .. لكنه قد عمى بصره .. وبلغ اكثر من مائة وعشرين عاما .. لا ينتفع الا برايه وخبرته ومعرفته بالحروب .

قال دريد بن الصمة :

مالى اسمع رغاء البعير .. ونهاق الحمير .. وبكاء الصبى .. وثغاء الشاة !! .

قالوا : ساق مالك بن عوف مع الناس نساءهم وابناءهم واموالهم .

قال : اين مالك ؟ .. فاتوا به .. فدعا له .. وقال : يا مالك .. انك قد اصبحت رئيس قومك .. وان هذا اليوم كائن له ما بعده من الايام .. مالى اسمع رغاء البعير .. ونهاق الحمير .. وبكاء الصبى .. وثغاء الشاه ؟ .

قال : سقت مع الناس ابناءهم ونساءهم واموالهم : قال : ولم ؟ .. قال : اردت ان اجعل خلف كل رجل اهله وماله ليقاتل عنه .. فقال دريد : راعى ضأن والله .. وهل يرد المنهزم شئ ؟ .. انها ان كانت لك لم ينفعك الا رجل بسيفه ورمحه .. وان كانت عليك فضحت فى اهلك ومالك .

ثم قال : ما فعلت كعب وكلاب ؟ .. قال : لم يشهدها احد منهم .. قال : غاب الحد والجد .. لو كان يوم علا ورفعة .. لم يغب عنهم كعب

وكلاب .. ولوددت انكم فعلتم ما فعلت كعب وكلاب .. فمن شهدها منكم ؟ .. قال بنو عمرو ابن عامر .. وعوف بن عامر .. قال : ذانك الفرعون من عامر .. ينفعان ولا يضران .. يامالك .. ارفع قومك الى ممتنع بلادهم .. وعلياء قومهم .. ثم الق العدو على متون الخيل .. فان كان لك لحق بك من وراءك .. وان كانت عليك الفاك ذلك وقد احرزت اهلك ومالك .. قال : والله لا افعل .. انك قد كبرت وكبر عقلك .. والله لتطيعنى هوازن .. او لأتكئن على هذا السيف .. حتى يخرج من ظهرى .

وكره أن يكون لدريد فيها ذكر ورأى .. فقالوا : اطعناك .. فقال دريد :
هذا يوم لم اشهده ــ ولم يفتنى :

ياليتنى فيها جذع (١)

اخب فيها واضع

فقال مالك للناس : اذا رايتمونى اشد .. فشدوا شدة رجل واحد .

وقد قالت عيون مالك له ــ وقد تفرقت اوصالهم : راينا رجالا بيضا على خيل بلق .. فلم يرده ذلك عن تنفيذ خطته .. وحبسهم حتى لا يفتوا فى عضد جيشه .

قال ابن اسحاق عن عبد الرحمن بن جابر عن ابيه جابر بن عبد الله .. قال :

لما استقبلنا وادى حنين .. انحدرنا فى واد من اودية تهامة .. اجوف حطوط .. انما ننحدر فيه انحدارا .. فى غبش الصبح .. وكان القوم قد سبقونا الى الوادى .

فكمنوا لنا فى شعابه واجنابه ومضايقه .. قد اجمعوا وتهيأوا واعدوا .. فوالله ما راعنا ونحن ننحط الا الكتائب قد شدوا علينا شدة رجل واحد .. وانشمر الناس راجعين لا يلوى احدهم على شىء .

وانحاز رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الى اليمين .. ثم قال :

« الى اين ايها الناس ؟ .. هلم الى ... انا رسول الله .. انا محمد بن عبد الله » .

انكشفت خيل بنى سليم .. مولية الأدبار .. وتبعهم اهل مكة .. والناس من خلفهم فرارا .. ولم يتبث معه ــ عليه السلام ــ يومئذ .. الا العباس بن عبد المطلب .. وعلى بن ابى طالب .. والفضل بن العباس .. وابو سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب .. وابو بكر .. وعمر .. واسامة ابن زيد .. فى ناس من اهل بيته ــ عليه السلام ــ ومنهم ايمن ابن ام ايمن الحبشية .

قال العباس : وانا آخذ بزمام بغلته اكفها مخافة ان تصل الى العدو .. لانه ــ عليه السلام ــ كان يتقدم نحو العدو .. وابو سفيان ابن الحارث .. آخذ بركابه .. فجعل النبى يقول : يا عباس .. ناد : يا معشر الانصار .. يا اصحاب الشجرة ــ يعنى شجرة بيعة الرضوان .. التى بايعوه تحتها على الا يفروا عنه .. فجعل العباس تارة ينادى : يا اصحاب الشجرة .. وتارة ينادى يا اصحاب سورة البقرة .. وكان العباس جهورى الصوت .. فلما سمع المسلمون نداء العباس .. اقبلوا كأنهم الابل حنت الى اولادها .

وفى رواية مسلم :

قال العباس : فوالله لكأن عطفهم حين سمعوا صوتى .. عطفة البقر على اولادها .. يقولون : يالبيك يالبيك .. فتراجعوا الى رسول الله .. حتى ان الرجل منهم اذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع .. انحدر عنه وارسله .. ورجع بنفسه الى رسول الله .

فأمرهم رسول الله ان يصدقوا الحملة .. فاقتتلوا مع الكفار .. فاشرف رسول الله فنظر الى قتالهم .. فقال « الآن حمى الوطيس » .. والوطيس هو التنور .. وهذا مثل ضربه رسول الله لشدة الحرب .. وهو من فصيح الكلام الذى لم يسمع من احد قبل النبى ــ عليه السلام ــ .

وفى البخارى عن البراء .. سأله رجل : افررتم عن رسول الله يوم حنين ؟ ..

---

(١) شاب فتى .

فقال : لكن رسول الله لم يفر .. كان هوازن رماة .. وانا لما حملنا عليهم انكشفوا .. واكببنا على الغنائم .. فاستقبلونا بالسهام .. ـ وهذا الموقف يذكرنا بيوم أحد ـ .

ثم قال البراء : ولقد رأيت رسـول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على بغلته البيضاء..وان ابا سفيان بن الحارث .. آخذ بزمامها .. وهو يقول :

انا النبى لا كذب
انا ابن عبدالمطلب

وتناول ـ عليه السـلام ـ كفا من تراب .. ثم قال : « شـــاهت الوجوه » ـ أى قبحت ـ ورمى بها فى وجوه المشركين .. فهزمهم الله ـ سبحانه ـ وهذا ايضا يذكرنا بيوم بدر .

وقال ابن مســـعود :

جاء به ـ عليه السلام بغلته .. فمال السرج فقلت : ارتفع رفعك الله .. فقال : ناولنى كفا من تراب .. فضرب وجوههم .. وامتلأت اعينهم ترابا .. وجاء المهاجرون والأنصار .. سيوفهم فى أيمانهم .. كأنها الشهب .. فولى المشركون الأدبار .

وقال عبد الرحمن الفهرى :

حدثنى أبناؤهم .. عن آبائهم .. قالوا : لم يبق منا واحد الا امتـلأت عيناه وفمـه ترابا ..وسمعنا صلصلة من السماء .. كامرار الحديد على الطست الحديد .

وحان الآن ذكر قوله تعالى عن يوم حنين .. فى سورة التوبة :

لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الارض بما رحبت .. ثم وليتم مدبرين . ثم انزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وانزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين) (١) اشـتركت الملائكـة فى تلك الغزوة (وانزل جنودا لم تروها » . واشـــتد القتال فى رقاب الكافرين .. ووجد رسول الله امرأة مقتـولة .. قتلها خالد .. والنـــاس مزدحمون عليها .. فقال : ما هذا ؟ .. قالوا : امرأة قتلها خالد بن الوليد .. فقال ـ عليـه السلام ـ لبعض من معـه : « أدرك خالدا .. فقال له : ان رسول الله ينهاك ان تقتل وليـــدا أو امرأة أو عسيفا » ـ يعنى أجيرا .

ثم قال للمسلمين : « من قتل قتيلا فله سلبه .. فاستلب ابو طلحه وحـده عشرين قتيلا » واستشهد من المسـلمين اربعـة : منهم أيمن الحبشى .. وقتل من المشركين اكثر من سبعين قتيلا .. منهم دريد بن الصمة .

وكانت الصرخة يومئـذ ياللانصـار .. ثم خلصت أخيرا للخزرج .. وكان الخزرج صـبرا عند الحرب .

ولنا وقفة قصيرة .. مع زعماء قريش ..
لما حصل فرار المسلمين .. فى أول المعركة . قال ابن اسحاق : لما انهزم المسلمون .. ورأى من كان مع رسول الله من جفاة أهل مكة الهزيمة .. تكلم رجال منهم بما فى انفســهم من الطعن .. فقال ابو سفيان بن حـرب : لا تنتهى هزيمتكم دون البحر .. وكانت الأزلام معـــه فى كنانته . وصرخ كلدة بن الجنيد : الا بطل السحر اليوم .. فقال له صفوان بن أمية وكان لم يزل مشركا: اسكت فض الله فاك .. فوالله لان يربنى رجل من قريش .. احب الى من ان يربنى رجل من هوازن .

كما ذكر سعد عن شيبة بن عثمان الحجبى .. قال :

لما كان عام الفتح .. دخل رسول الله مكة عنوة .. قلت : أسـير مع قريش الى هـوازن بحنين .. فعسى ان اختلطوا أن أصيب من محمد غرة .. فأثأر منه .. فأكون أنا الذى قمت بثأر قريش كلها .. وأقول : لو لم يبق من العـرب والعجم أحد الا اتبع محمدا .. ما اتبعته ابدا .

---

(١) ٢٥ ـ ٢٦ / التوبة .

وكنت مرصدا لما خرجت له .. لا يزداد الامر فى نفسى الا قوة . فلما اختلط الناس .. اقتحم رسول الله عن بغلته .. فأصلت السيف ودنوت اريد ما أريد منه .. ورفعت سيفى حتى كدت اشعره اياه ... فرفع لى شواظ من نار كالبرق كان يخشى .. فوضعت يدى على بصرى خوفا عليه .. فالتفت الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فنادانى : يا شيبة ادن منى .. فدنوت منه .. فمسح صدرى وقال « اللهم أعذه من الشيطان » قال : فوالله لهو كان ساعتئذ أحب الى من سمعى وبصرى ونفسى .. واذهب الله ما كان بقلبى .. ثم قال : ادن فقاتل .. فتقدمت امامه اضرب بسيفى .. الله اعلم انى احب أن اقيه بنفسى كل شىء .. ولو لقيت تلك الساعة ابى .. لو كان حيا — لأوقعت به السيف .. فجعلت الزمه .. فيمن لزمه .. حتى عاد المسلمون .. فكروا كرة رجل واحد .. وقربت بغلة رسول الله .. فاستوى عليها .. وخرج فى اثرهم .. حتى تفرقوا فى كل وجه .. ورجع الى معسكره .. فدخل خباءه فدخلت عليه .. ما دخل عليه أحد غيرى .. حبا لرؤية وجهه .. وسرورا به .. فقال : « يا شيبة .. الذى اراد الله بك .. خير مما اردت لنفسك » .

ثم حدثنى بما اضمرت فى نفسى .. ما لم اكن اذكره لأحد قط .. فقلت : فانى اشهد أن لا اله الا الله .. وانك رسول الله .. ثم قلت : استغفرلى .. قال « غفر الله لك » .

وانهزم المشركون وتفرقوا .. فهرب بعضهم الى الطائف .. ومعهم قائدهم مالك بن عوف وتوجه بعضهم الى نملة .. وعسكر بعضهم بأوطاس .

لقد أفادت الهزيمة فى أول المعركة .. فائدتين رئيسيتين :

الأولى : عدم اغترار المسلمين بكثرة عددهم .

والثانية : اسلام من كان على شركه فى مكة بعد الفتح .. عن يقين ثابت .. وايمان راسخ .. لما راوا بأعينهم من تأييد الله له .. فى أوقات الشدائد ..

وارسل — عليه السلام — أبا عامر الاشعرى .. فى طلب الفارين من هوازن .

وابو عامر هذا .. هو عم أبى موسى الاشعرى .. وكان معه أيضا مسلمة بن الاكوع .. فلحق ابو عامر بعضهم مجتمعين .. فقتل منهم تسعة اخوة بالمبارزة .. بعد ان يدعو كل واحد منهم الى الاسلام .. ثم يقول اللهم اشهد عليه .. فقال واحد منهم .. اللهم لا تشهد علي .. فكف عنه ابو عامر .. فأفلت .. ثم اسلم وحسن اسلامه . وكان — عليه السلام — اذا رآه قال : « هذا شريد ابى عامر » .

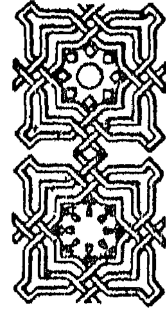
ورمى ابو عامر فى هذا اليوم فقتل .. وخلفه ابو موسى الاشعرى .. فقاتلهم حتى فتح الله عليه .. وقتل قاتل عمه أبى عامر .. فقال عليه السلام : « اللهم اغفر لابى عامر .. واجعله من اعلى أمتى فى الجنة » .

وهرب مالك بن عوف .. قائد جيوشهم .. فتحصن بحصن ثقيف بالطائف .

وأمر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالسبى والغنائم .. أن تجمع .. فجمعت كلها .. ووجهت الى الجعرانة .. وكانت الغنائم كبيرة .. وهى :

عدد السبى ستة آلاف .. والابل أربعة وعشرون الفا .. والغنم اكثر من اربعين الف شاة .. غير اربعة آلاف اوقية من الفضة ..

حبسها كلها بالجعرانة .. وجعل عليها حراسا .. حتى عاد من الطائف فوزعها .



إلى الطائف

قال للشيماء « سلى تعطى واشفعى تشفعى »
وقال لها قومها : ان هذا الرجل اخوك .. فلو سالتيه فى قومك .. لرجونا ان يحابينا .. فاستوهبته السبى .. وهم ستة آلاف راس .. فوهبهم لها .. فما عرفت مكرمة مثلها .. وما عرفت امراة ايمن على قومها منها .

ـ ٥٥ ـ

الى الطائف

اراد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يتتبع المنهزمين من حنين الى الطائف . فتدفروا اليها .. وتحصنوا بحصنها .. وادخلت ثقيف فيه ما يكفيهم سنة .

فلما انهزموا .. دخلوا حصنهم .. واغلقوه عليهم .. وتهيأوا للقتال .. ومعهم مالك ابن عوف النصرى .. قائد هوازن ـ المهزوم ومن معه .

فسار رسول الله اليهم فى نفس الشهر شوال من العام الثامن .. وقدم خالد بن الوليد .. على مقدمته .

والطائف بلد كبير .. على ثلاث مراحل من مكة .

ولعل القارىء الكريم يذكر .. أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لجأ الى الطائف قبل الهجرة .. فى العام الذى مات فيه عمه أبو طالب .. وزوجته خديجة .. ولقى فيها من الاذى ما لقى .. حتى راوده ملك الجبال على هدمها .. فدعا لهم بالهدى . سار بجيشه .. حتى نزل قريبا من الحصن .. وعسكر هناك .

وفى نفس الوقت الذى خرج فيه بجيشه الى الطائف .. بعث الطفيل بن عمرو الأوسى .. الى صنم اسمه ـ ذو الكفين ـ وهو صنم من خشب .. يعبده عمرو بن حمحمة الدوسى وقومه .. بعثه ليهدمه .. وامره أن يستمد قومه ويوافيه بالطائف .. فخرج الطفيل مسرعا الى قومه .. فهزم ذا الكفين .. وجعل يحس النار فى جوفه ويحرقه .. وهو يقول :

ياذا الكفين لست من عبادكا
ميلادنا اقدم من ميلادكا
انى حششت النار فى فؤادكا

وانحدر معه قومه .. اربعمائة مقاتل سراعا .. فوافوا الرسول .. بعد قدومه الى الطائف بأربعة أيام .. وقدموا معهم بدبابة ومنجنيق (١) .

قال رجال السيرة : ان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما نزل قريبا من حصن الطائف .. عسكر هناك .. فرموا المسلمين بالنبل رميا شديدا .. كأنه أرجال الجراد .. فاصيب من

---

(١) كانت الدبابة من الجلود السميكة .. يدخل فيها الرجال .. فيدبون الى الاسوار لينقبوها .

المسلمين بالجراح الكثير .. وقتل منهم اثنا عشر رجلا .

فارتفع رسول الله .. الى موضع مسجد الطائف الآن .. وكان معه من نسائه .. أم سلمة .. وزينب - رضى الله عنهما - فضرب لهما قبتين .. وكان يصلى بين القبتين .. قصرا .. مدة حصار الطائف .. فقد حاصرها بضعا وعشرين ليلة (١) .

وكان من بين المصابين بسهامهم .. ابو سفيان ابن حرب .. حيث فقئت عينه .. فأتى بها رسول الله .. وهى فى يده .. فقال له - عليه السلام - : « يا أبا سفيان .. أيهما احب اليك : عين فى الجنة .. أو ادعو الله ان يردها عليك ؟ .. قال : بل عين فى الجنة يا رسول الله .. ورمى بها من يده .

وهكذا فاز ابو سفيان .. وانتصر على نفسه .

وقد شهد ابو سفيان بعدها حرب اليرموك ضد الروم .. وفقئت فيها عينه الأخرى .

ونصب عليهم رسول الله - المنجنيق - ورماهم به .. وهو أول مارمى به فى الاسلام . حتى اذا كان يوم يسمونه - يوم الشدخة - دخل نفر من اصحاب رسول الله تحت الدبابة .. دخلوا بها تحت جدار الطائف .. ليحرقوه .. فأرسلت عليهم ثقيف اعواد الحديد محماة فى النار .. فخرجوا من تحت الدبابة .. فرمتهم ثقيف بالنبل فقتلوا منهم رجالا .

فأمر رسول الله .. بقطع اعناب الطائف وتحريقها .. فسألوه ان يدعها لله وللرحم .. فقال : انا ادعها لله وللرحم .

ثم نادى منادى رسول الله : ايما عبد نزل من الحصن وخرج الينا .. فهو حر .. فخرج له ثلاثة وعشرون عبدا .

وحدث أمر أزعج المسلمين وآلمهم .. حيث لم يأذن الله لرسوله .. فى فتح الطائف .. وامر عمر بن الخطاب .. فأذن فى الناس بالرحيل .. فضج المسلمون من ذلك .. وقالوا : كيف نرحل .. ولم يفتح الله علينا الطائف ؟ .

فقال لهم رسول الله : « فاغدوا على القتال » .. فغدوا .. فأصاب المسلمين جراحات .. فقال - عليه السلام - انا راحلون أن شاء الله .. فأذعنوا وجعلوا يرحلون .. ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - يضحك .. ثم قال لهم :

« قولوا لا اله الا الله وحده .. صدق وعده .. ونصر عبده .. واعز جنده .. وهزم الأحزاب وحده » .. فقالوها .. فلما ارتحلوا قال :

« قولوا آيبون تائبون .. عابدون لربنا حامدون » .

فقيل له : يا رسول الله ادع على ثقيف .. قال « اللهم اهد ثقيفا وائت بهم » .

وقد اتوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة مسلمين .. فى رمضان من العام التاسع .. كما سيأتى ان شاء الله .

وانتهى رسول الله - عليه السلام - بالمسلمين الى الجعرانة .. ليلة الخميس .. لخمس ليال مضين من ذى القعدة سنة ثمان .. فأقام بها ثلاث عشرة ليلة .. حتى اجتمع له كل المسلمين .. ثم وزع الغنائم بينهم .

فأعطى المؤلفة قلوبهم أول الناس (٢) .. اعطى ابا سفيان بن حرب أربعين أوقية ومائة من الابل .. فقال : ابنى يزيد ؟ .. فقال اعطوه مثل ابيه .. فاعطوه .. فقال : ابنى معاوية ؟ فأعطاه مثله اربعين أوقية ومائة من الابل .. واعطى حكيم بن حزام مائة من الابل .. ثم سأله مائة اخرى .. فأعطاه واعطى الحرث بن كلدة مائة من الابل .. والعلاء بن حارثة الثقفى خمسين .. وذكر الرواة أصحاب المائة وأصحاب الخمسين .. من المؤلفة قلوبهم . وأعطى العباس بن مرداس اربعين .. فقال شعرا .. فكمل له المائة .

ثم أمر زيد بن ثابت باحضار الغنائم

---

(١) ابن اسحاق وغيره .

(٢) المسلمون الجدد من قريش .

والناس .. ثم وزعها .. فكانت سهامهم لكل رجل أربعين شاة .. واربعا من الابل .. ولكل فرس سهمان .. فيأخذ الفارس اثنى عشر بعيرا ومائة وعشرين شاة .

وهنا موقف للأنصار .. فى هذا المقام .. فقد حز هذا التقسيم فى نفوسهم وآلمهم . قال ابن اسحاق .. عن أبى سعيد الخدرى .. قال (١) :

لما أعطى رسول الله ما أعطى من تلك العطايا .. الكبار من قريش .. وفى قبائل العرب .. ولم يكن فى الأنصار منهم شىء .. وجد هذا الحى من الأنصار فى أنفسهم - أى حزنوا - حتى كثرت فيهم القالة .. حتى قال قائلهم : لقى والله رسول الله قومه .

فدخل عليه سعد بن عبادة .. فقال : يا رسول الله .. ان هذا الحى من الأنصار .. قد وجدوا عليك فى أنفسهم .. لما صنعت فى هذا الفىء الذى أصبت .. قسمت فى قومك .. وأعطيت عطايا عظاما فى قبائل العرب .. ولم يكن فى الأنصار منها شىء .

قال : « فأين أنت من ذلك يا سعد » .. قال : يا رسول الله ما أنا الا من قومى .

قال : « فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة » .

قال : فجاء رجال من المهاجرين .. فتركهم سعد فدخلوا .. وجاء آخرون فردهم .. فلما اجتمعوا أتى سعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : قد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار .. فأتاهم رسول الله :

فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله .. ثم قال :

« يا معشر الأنصار .. ما مقالة بلغتنى عنكم .. موجدة وجدتموها فى أنفسكم ؟ .. ألم آتكم ضلالا فهداكم الله بى ؟ .. وعالة فأغناكم الله بى ؟ .. وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟

قالوا الله ورسوله أمن وأفضل ..

ثم قال : « الا تجيبونى يا معشر الأنصار » ؟

قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ .. لله ولرسوله المن والفضل .

قال : أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتكم : أتيتنا مكذبا فصدقناك .. ومخذولا فنصرناك .. وطريدا فآويناك .. وعائلا فواسيناك .

أوجدتم على يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لعاعة (٢) من الدنيا .. تألفت بها قوما ليسلموا .. ووكلتكم الى اسلامكم ؟ .

ألا ترضون يا معشر الأنصار .. ان يذهب الناس بالشاء والبعير .. وترجعون برسول الله فى رحالكم ؟ .. فوالذى نفس محمد بيده .. لما تنقلبون به خيرا مما ينقلبون به .. ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار .. ولو سلك الناس شعبا وواديا .. وسلكت الأنصار شعبا وواديا .. لسلكت شعب الأنصار وواديها .. الأنصار شعار .. والناس دثار .. اللهم ارحم الأنصار .. وأبناء الأنصار .. وأبناء أبناء الأنصار .. قال : فبكى القوم .. حتى أخضلوا لحاهم .. وقالوا : رضينا برسول الله - صلى الله عليه وسلم - قسما وحظا .

ثم انصرف رسول الله وانصرف الناس .

ثم حصلت حادثة لطيفة :

فقد كانت الشيماء بنت الحرث بن عبد العزى .. أخت رسول الله من الرضاع .. من بين أسرى حنين .. فقدمت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقالت له : أنا أختك يا رسول الله .. قال : « وما علامة ذلك » ؟ .. فأخبرته بعضة عضها اياها .. حين كان مسترضعا عند أمها حليمة .. وأرته اياها .. فعرفها وتذكر ذلك .. فقام - صلى الله عليه وسلم - وبسط لها رداءه .. وقال بعض الرواة : كانت أمها حليمة معها .. وان الرسول صنع مثل ذلك معها حين جاءته أسيرة .. ودمعت عيناه .

وقال للشيماء : « سلى تعطى .. واشفعى تشفعى » .

(١) قاله ابن سعد وابن قيم الجوزية - زاد المعاد - وغيرها .

(٢) اللعاعة : بقلة خضراء ناعمة .. شبه بها زهرة

وقيل ان قومها قالوا لها : ان هـــذا الرجل اخوك .. فلو سـألتيه في قومك .. لرجونا ان يحابينا فاستوهبته السبي .. وهم ستة آلاف راس .. فوهبهم لها .. فما عرفت مكرمة مثلها .. وما عرفت امراة أيمن على قومها منها .

وقد خيرها رســول الله .. ان تبقى عنده مكرمة .. او ترجع الى قومها .. قالت : بل ارجع الى قومي .. فاعطاها نعما وشاء وغلاما اسمه ـ مكحول ـ وجارية .

وشرح الله صدر هوازن للاسلام .. فأرسلوا الى الرسول وفدا .. من اربعة عشر رجلا .. على رأسهم زهير بن صرد .. وفيهم ابو برقان .. عم رسول الله من الرضاعة من بني سعد .

جاءوا مسلمين .. فســألوه أن يمن عليهم بالسبي .. فرضي .. ورســول الله .. ورضي المسلمون بما رضي به رسول الله .. وردوا عليهم نساءهم وابناءهم .. ولا يتنافى هذا مع رد السبي اكراما لشـيماء .

وقال رجال السيرة : ان عيينة بن حصن .. وكان من جفاة الاعراب ابى ان يرد عجـوزا صارت في يده .. من ســبايا هوازن .. ثم ردها بعد ذلك .

كما وفد على رسول الله بعد ذلك .. مالك بن عوف ـ رئيس هوازن ـ فرد عليه اهله وماله .. واعطاه مائة من الابل .. واســلم وحسن اسلامه .. واستعمله رسول الله على من اســلم من قومه .

فلما أراد ـ عليه الســلام ـ الانصراف الى المدينة .. احرم بالعمرة من الجعرانة .. وخرج ليلة الأربعاء ـ الثامن عشر من ذي القعـــدة .. ودخل مكة معتمرا مع المسلمين .. فطاف وسعى وحلق راسه .. ثم رجع الى الجعرانة من ليلته .. فبات بها ـ بعد أن استعمل عتاب بن أسيد على مكة .. وجعل له عن كل يوم درهما .

ونظهر روح الاسلام وقوته واثره في النفوس .. فهذا عتاب بن أسيد .. ومازال قريب عهـد بالشرك .. كان على رأس المشركين يوم الفتح .. نراه بعد ان أسلم .. واستخلفه الرسول على مكة .. يقف في الناس خطيبا .. فيقول :

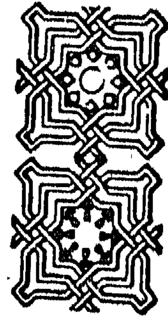
« ايها الناس .. أجاع الله كبد من جاع على درهم .. فقد رزقني رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ درهما عن كل يوم .. فليست بي حاجة الى احد ..

هكذا يفعل الاســلام في قلوب تابعيه .. من الرضى والزهـــد والقناعة .. مع العزة والأنفة والشجاعة .

ثم غدا ـ عليه الســلام ـ يوم الخميس .. حتى وصل ـ سرف ـ بفتح السين وكسر الراء .. وهو موضع على ستة اميال من مكة .

ثم اخذ الطريق على مر الظهران .. ثم الى المدينة .. بعد ان غاب عنها شهرين وستة عشر يوما .

عاد الى المدينة في السادس والعشرين من ذي القعدة في السنة الثامنة من الهجرة الشريفة .



إلى تبوك

كما جاءه البكاءون – وهم سبعة – يطلبون من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ما – يحملهم عليه .. والظهر قليل .. فقال لهم : (لا اجد ما أحملكم عليه) فرجعوا باكين محزونين (تولوا واعينهم تفيض من الدمع حزنا الا يجدوا ما ينفقون) .

– ٥٦ –

الى تبوك

بعودة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الى المدينة .. وبعد حنين والطائف انقضى العام الثامن الهجرى تقريبا .. ليبدأ العام التاسع بأحداث وأحداث .

فكانت غزوة تبوك .. فى شهر رجب من العام التاسع الهجرى .

ولكن استكمالا لهذا البحث .. نرى ان نسترجع معا فى عجالة سريعة بعض سرايا بعثها رسول الله فى العام التاسع قبل غزوة تبوك .

فمع هلال المحرم .. ارسل الرسل لجمع الزكاة :

ارسل على بن ابى طالب الى نجران .. ليجمع صدقاتهم .. ويقدم عليهم بجزيتهم .

وارسل عيينة بن حصن الى بنى تميم .. ويزيد بن الحصين الى اسلم وغفار .

وعباد بن بشير الأشهل الى سليم ومزينة .. ورافع بن مكيث الى جهينة .

وعمرو بن العاص الى بنى فزاره .. والضحاك بن ابى سفيان الى بنى كلاب .

وبشر بن سفيان الى بنى كعب .. وابن اللتبية الازدى الى بنى ذبيان .. وغيرهم . وتلك بداية الاشراف .. على الولاة والأمناء .. كانت هذه البعوث لجمع الزكاة والصدقات والجزية .. ومحاسبة الولاة والوقوف على اخبار الرعية .. وعزل غير الأمين واختيار غيره . اما السرايا :

فقد ارسل قيس بن سعد بن عبادة الخزرجى الى اليمن .. فى اربعمائة فارس لقتال قبيلة صداء فجاء زياد بن الحارث الصدائى .. وطلب من رسول الله .. ان يرد الجيش .. ويتكفل هو باسلام قومه وطاعتهم .. فبعث – عليه السلام – اليهم فردهم .. وذهب الصدائى الى قومه .. فقدموا معه الى رسول الله .. بعد خمسة عشر يوما .. فاسلموا .

فقال رسول الله – عليه السلام – : « انك مطاع فى قومك يا أخا صداء » .. قال : بلى الله هداهم . وامره رسول الله .. ان يؤذن فى صلاة الفجر .. فأذن .. واراد بلال ان يقيم الصلاة ..

فقال رسول الله : « ان أخا صداء اذن .. ومن اذن فهو يقيم » .

وارســـل عيينة بن حصـــن الفزارى ..
الى بنى تميم بالسقيا .. وهى أرض بنى تميم .
ارسله فى المحرم من العام التاسع .. فى خمسين فارسا من العرب .. ليس فيهم أحد من المهاجرين والأنصار .. فكان يسير الليل ويكمن النهار .. فهجم عليهم فى الصحراء .. وقد حلوا وسرحوا مواشيهم .. فلما راوهم هربوا .. فاخذوا منهم أحد عشر رجلا .. واحدى عشرة امراة .. وثلاثين صبيا .. فساقهم الى المدينة .. فقدم منهم وفد من عشرة رؤساء لهم .. فلما راوا نساءهم وبنيهم بكوا .. وعجلوا الى رسول الله .. ينادونه من وراء الحجرات .. وهم الذين نزل فيهم .

(ان الذين ينادونك من وراء الحجـــرات اكثرهم لا يعقلون * ولو انهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيرا لهم) (١) . فرد عليهم الأسارى والسبى .. واسلموا جميعا .

كما ارسل الوليد بن عقبـــة .. الى بنى المصطلق .. من خزاعة .. لاحضار صدقتهم .. وكان بين الوليد وبينهم عداوة فى الجاهلية .. وكانوا اسلموا .. وبنوا المساجد .. فلما سمعوا بقدوم الوليد .. قدم منهم عشرون لاستقباله .. فرحا به .. وتعظيما لله ولرســوله . ولكن الشيطان اوهمه انهم يريدون قتله .. فعاد قبل ان يلقاهم .. واخبر النبى انهم لاقوه بالسلاح .. ومنعوا منه الصدقة .. فهم ــ عليه السلام ــ ان يرسل اليهم من يغزوهم .. فى الوقت الذى حضر فيه وفدهم .. وأخبروه بما حصـــل .. فنزل قوله تعالى : (يا ايها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصـــيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) (٢) .

فبعث معهم عباد بن بشر .. يأخذ صدقات اموالهم .. ويعلمهم شرائع الاســـلام ويقــرئهم القرآن .

وفى صفر .. فى العام التاسع .. ارســل ــ عليه السلام ــ قطبة بن عامر .. الى خثعم قريبا من تربة ــ من اعمال مكة ــ فى عشرين رجلا .

فغاروا عليهم .. واقتتلوا .. وكثر الجرحى بين الفريقين .. وقتل منهم قطبة من قتل .. وساق غنما .. ونعما .. ونساء .

وفى هذه القصة .. انهم تجمعوا .. وخرجوا فى اثره .. فارسل الله ســيلا عظيما حال بينهم وبين سرية رســول الله .. حتى أتوا بغنائمهم الى المدينة .

ثم ارسل الضحاك بن سفيان بن عوف الطائى
.. فى شهر ربيع الاول .. الى بنى كلاب .. فى موضع بنجد .. اسمه ــ « زج لاوه » .. ومعه جيش .. فدعاهم الى الاسلام .. فلم يستجيبوا .. فقاتلوهم وهزموهم وغنموا أموالهم .

وكان فى جيش المسلمين الأصـيد بن سلمه .. لقى اباه ســلمة .. وسلمة على فرس له فى الغدير .. فدعا اباه الى الاسلام وله الأمان .. فسبه وسب دينه .. فضرب الأصيد عرقوب فرس ابيه .. فارتكز الرجل على رمحه فى الماء .. فجاء أحد المسلمين فقتله .. ولم يقتله ابنه .

وفى شهر ربيع الثانى .. من العام التاسـع الهجرى .. ارسل ــ عليه السلام ــ على بن أبى طالب الى صنم طىء .. واســـمه ــ الفلس ــ لهدمه .. وبعث معه مائة وخمسين من الأنصار على مائة بعير .. وخمسين فرسا .. فهدمه .. وغنم سبيا ونعما وشاء .

وكان فى السبى سفانة بنت حاتم الطائى .. وقد هرب أخوها عدى بن حاتم الى الشام .. فاطلقها رســـول الله وأكرمها .. فاسلمت .. وكانت سببا فى اســلام أخيها عدى .. بعد أن نصحته بالذهاب الى رسول الله بالمدينة .. فذهب اليه .. وأسلم على يديه .

وقد وجد على فى خزانة عدى بن حاتم ثلاثة سيوف : رسوب .. والمخذم .. وسيف يقال له : اليمانى .. وثلاثة دروع .. فأخذ رســـول الله رسوب والمخذم .. واخذ على اليمانى .

ومن حقنا الآن ان نصحب رسول الله ــ صلى

---

(١) ٤ ــ ٥ / الحجرات .

(٢) ٦ ــ الحجرات .

الله عليه وسلم — الى غزوة تبوك .. آخر غزواته — عليه السلام —

فقد علم ان هرقل جمع له جيشا من الروم .. وانضم اليهم من عرب الشام لخم .. وجزام .. وعاملة .. وغسان .. وان هرقل قد رزقهم لمده سنه .. وانهم قدموا مقدمتهم الى البلقاء .. من اعمال دمشق .

فاعلن — صلى الله عليه وسلم — عن الاعداد للخروج الى الشام لحرب بنى الاصفر — الروم — قال يوما للجد بن قيس — أحد بنى سلمه — « هل لك ياجد فى نزال بنى الاصفر هذا العام » ؟

فقال : يارسول الله .. او تأذن لى .. ولا تفتنى ؟ .. فوالله لقد عرف قومى انه ما من رجل باشد عجبا بالنساء منى .. وانى أخشى ان رايت بنات بنى الاصفر أن لا أصبر .. فاعرض عنه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقال : « لقد أذنت لك » . ففيه نزلت الآيه :

(ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى الا فى الفتنه سقطوا) (١) .

اعلن — عليه الصلاه والسلام — عن خروجه .. فى زمن عسره فى الناس .. فالحر قاس .. والجدب شديد .. لا زرع ولا ضرع .. وفى الوقت الذى بدات تطيب فيه الثمار .. وتنتشر الظلال .. وقت يعز فيه على الانسان مفارقه ثماره وظلاله .

وكان المسلمون فى تلك الغزوة من شده الحر .. ينحرون البعير ليشربوا ما فى جوفه من ماء .. ولهذا سميت — غزوه العسره — ونزل فيها قول الله — تبارك وتعالى .. :

(لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه فى ساعه العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم انه بهم رءوف رحيم) (٢) .

كان — عليه الصلاة والسلام — يكنى فى كل غزوة يخرج اليها .. فلا يخبرهم بوجهته للحرب .. — كتمانا للسر — ولكنه فى تلك الغزوة .. اخبرهم انه ذاهب الى تبوك .. لمحاربة هرقل الروم وجنوده .. لبعد الشقه .. وشدة الزمان .. وقوه العدو .

وتبوك فى منتصف المسافة — تقريبا — بين المدينه ودمشق .. تبعد عن المدينه اربع عشره مرحله .. وعن دمشق احد عشر مرحله .

وبدا المنافقون يرجفون فى المدينه .. ويقولون للناس : لا تنفروا فى الحر .. فقال الله تعالى عنهم :

(وكرهوا أن يجاهدوا باموالهم وانفسهم فى سبيل الله وقالوا لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم اشد حرا لو كانوا يفقهون) (٣) .

وجاء المعذرون يعتذرون الى رسول الله ليأذن لهم فى التخلف .. وكانوا اثنين وثمانين رجلا .. فأذن لهم .. ونزل فى شأنهم :

(لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقه وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون انفسهم والله يعلم أنهم لكاذبون * عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين * لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ان يجاهدوا باموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين * انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون) (٤) .

كما اشار اليهم — سبحانه — **بقوله :**

(وجاء المعذرون من الاعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب اليم) (٥) .

فقد تخلف عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى غزوة تبوك عدد من المنافقين بغير

---

(١) ٤٩ — التوبة .

(٢) ١١٧ — التوبة .

(٤) ٤٢ — ٤٥ — التوبة .. وما بعدها .

(٣) ٨١ — التوبة .

(٥) ٩٠ — التوبة .

عذر اظهروه .. او علة ذكروها .. ولكن جراءة على الله ورسوله .. وكان على راسهم عبد الله بن ابى بن سلول .

كما جاءه البكاءون ـ وهم سبعة ـ يطلبون من رسول الله ما يحملهم عليه .. والظهر قليل .. فقال لهم : (لا اجـــد ما احملكم عليه) .. فرجعوا باكين محزونين :

(تولوا واعينهم تفيض من الدمـع حزنا الا يجدوا ما ينفقون) (١) .

وارسل ابو موسى اصحابه الى رســول الله ليحملهم ـ اى يعطيهم ركائب .. فقـال : والله لا احملكم ولا اجد ما احملكم عليه » .. ثم اتاه ابل .. فارسل اليهم .. ثم قال : « ما انا حملتكم .. ولكن الله حملكم .. وانى والله لا احلف يمينا .. فارى غيرها خيرا منها الا كفرت عن يمينى .. واتيت الذى هو خير » .

وجاء المؤمنون بالصـــدقات .. للانفاق منها على جيش المسلمين .

فاول من جاء بالصدقة ابو بكر .. جاء بماله كله .. اربعين الف درهم .. فقال له ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « هل ابقيت لاهلك شيئا » ؟ قالَ :

ابقيت لهم الله ورسوله .

وجاء عمر بنصف ماله .. وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائتى اوقية .. وتصدق عاصم ابن عدى بسبعين وسقا من تمر ـ والوسق ـ حمل بعير .

وجهز عثمان بن عفان ثلث الجيش وحده .

وروى عن قتادة .. انه قال : حمل عثمان فى جيش العسرة على الف بعير وسبعين فرسا .

كما روى الطبرانى عن حذيفة .. ان عثمان بعث فى جيش العسرة بعشرة آلاف دينـار الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فصبت بين يديه .. فجعل يقول بيده .. ويقلبها ظهرا لبطن .. ويقول :

« غفـر الله لك يا عثمـــان .. ما اسررت وما اعلنت .. وما هو كائن الى يوم القيامة .. ما يبالى ما عملَ بعدها » .

واجتمع لرســـول الله اكبر جيش تألف فى العرب .. فبلغ عددهم ثلاثين الفا .. ومعهم من الخيل عشرة آلاف فرس .

وتحرك رسول الله بهذا الجيش .. من ثنية الوداع .. متوجها الى ـ تبوك ـ فى شهر رجب من العـام التاسع .. بعـد ان عقـد الالوية والرايات .

فدفع لواءه الاكبر لابى بكر .. ورايته العظمى للزبير .. ودفع راية الاوس لاسيد بن حضـير .. وراية الخزرج للحباب بن المنذر .. وجعلَ لكلّ بطن وقبيلة لواء او راية .

واستخلف على المدينة محمد بن مسلمة .. كما استخلف على بن ابى طالب على اهله . وكان استخلاف على فى المدينة .. مجالا للمنافقين .. فقالوا : ما خلفه فى المدينة الا اســتثقالا له .. وتخففا منه .

وتحركت فى نفس على الاشـــياء .. لما بلغه ما يقول المنافقون .. فاخذ سلاحه .. وأدرك الرسول .. وهو نازل بالجرف .. فقال : يا نبى الله .. زعم المنافقـــون انك انما خلفتنى لانك استثقلتنى .. وتخففت منى .. فقال :

« كذبوا .. ولكننى خلفتك لما تركت ورائى .. فارجع فاخلفنى فى اهلى واهلك .. افلا ترضى يا على ان تكون منى بمنزلة هارون من موسى ؟ .. الا انه لا نبى بعدى » .. فرجع على الى المدينة .

ومضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على سفره .

وتخلف عن الرســـول ناس من غير شـك ولا ارتياب .. منهم :

كعب بن مالك .. ومـرارة بن الربيـع .. وهلال بن اميـة .. وابو خيثمة الســلمى .. وابو ذر الغفارى .

---

(١) ٩٢ ـ التوبة .

فأما أبو خيثمة .. فانه رجع بعد أيام .. من رحيل الجيش .. الى أهله فى يوم حار .. وكان له زوجتان .. فوجدهما وقد رشت كل واحدة منهما عريشها .. وبردت له ماء .. وهيأت له طعاما .. فلما راى هذا قام على باب العريش .. وقال : اظل وطعام وماء .. ورسول الله فى كبد الصحراء .. والله ما هذا بعدل .. ثم قال : والله لا أدخل حتى الحق برسول الله .. فأخذ زاده وناقته فارتحل .

والتقى فى الطريق .. بعمير بن وهب الجمحى .. يطلب رسول الله — ايضا — فترافقا .. حتى اذا دنوا من تبوك .. وقد بلغها رسول الله .. قال أبو خيثمة لعمير .. ان لى ذنبا .. فلا عليك ان تتخلف عنى .. حتى آتى رسول الله .. ففعل .. فرآه المسلمون على البعد .. قالوا : هذا راكب على الطريق مقبل . فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « كن أبا خيثمة » قالوا : هو والله أبو خيثمة .

وأما أبو ذر .. فلم يكن تخلفه عن الجيش .. الا لبطء بعيره .. فلما ابطأ عليه .. اخذ متاعه .. فحمله على ظهره .. ثم خرج يتبع أثر رسول الله ماشيا .. ونزل رسول الله فى بعض منازله فى الطريق .. فنظر بعض الناس فى الصحراء .. ثم قال : ان هذا رجل يمشي على الطريق وحده .. فقال — عليه الصلاة والسلام —

« كن أبا ذر » .. فلما تأمله القوم .. قالوا : يا رسول الله .. انه أبو ذر .. فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « يرحم الله أبا ذر .. يمشي وحده .. ويموت وحده .. ويبعث وحده » .. وقد تحقق ذلك :

فان عثمان فى خلافته .. نفى أبا ذر من المدينة .. فنزل — الربذة — قرية — فوافاه قدره بها .. ولم يكن معه أحد .. الا امراته وغلامه .. فأوصاهما : أن غسلانى وكفنانى .. ثم ضعانى على قارعة الطريق .. فأول مركب يمر بكم .. قولوا : هذا أبو ذر — صاحب رسول الله فأعينونا على دفنه .. ففعلا ذلك .. فكان اول مركب يمر .. عبد الله بن مسعود .. مع ناس من العراق .. يطلبون العمرة .. فوجدوه على الطريق .. كادت الابل تطأه .. فقال لهم الغلام : هذا أبو ذر — صاحب رسول الله — فأعينونا على دفنه .. فاستهل ابن مسعود يبكى .. ويقول : صدق رسول الله .. تمشي وحدك .. وتموت وحدك .. وتبعث يوم القيامة وحدك .

ثم نزل هو واصحابه فواروه .. وكان موته فى عام ٣٢ هجرية .

ولنعد سراعا الى ركب رسول الله .. وقد مر فى طريقه بالحجر — ديار ثمود — فاستقى الناس من بئرها .. فقال لهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم : « لا تشربوا من مائها .. ولا تتوضأوا منها .. وما كان من عجين عجنتموه .. فاعلفوه الابل .. ولا تأكلوا منه شيئا » .. هذا فى صحيح مسلم .

أما فى صحيح البخارى : انه امرهم بالقاء العجين وطرحه .

وروى الشيخان : لما مر رسول الله — عليه الصلاة والسلام — بالحجر .. سجى ثوبه على وجهه .. واستحث راحلته .. ثم قال :

« لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا انفسهم الا وانتم باكون .. خوف أن يصيبكم ما أصابهم »

واصبح الناس ولا ماء معهم .. فشكوا ذلك الى رسول الله .. فدعا ربه .. فارسل الله سحابة أمطرت .. حتى ارتوى الناس .. واحتملوا حاجتهم من الماء .

تلك كلها خوارق ومعجزات .. حصلت فى غزوة — تبوك — ذكرتها كل كتب السيرة .. كما ذكروا أن ناقة رسول الله ضلت فى الطريق .. فقال زيد بن لصيت القينقاعى .. وكان منافقا : اليس يزعم محمد انه يخبركم عن خبر السماء .. وهو لا يدرى ناقته ؟

فقال — عليه السلام — « ان رجلا يقول كذا .. وانى والله لا أعلم الا ما علمنى ربى .. وقد دلنى الله عليها .. وهى فى الوادى .. فى شعب كذا وكذا .. وقد حبستها شجرة بزمامها » فانطلقوا فأتوه بها .

واستمر الجيش .. حتى نزل تبوك ..وكان هرقل بحمص .. فلم يلق رسول الله حربا .

واتاه صاحب ــ ايلة ــ فعاهده .. ودفع له الجزية أيضا .. وأعطاهم كتبا يؤمن بها سفنهم وسياراتهم فى البر والبحر .. لهم ذمة الله ورسوله .. وكذلك من معهم من اهل الشام واليمن .

وفى صحيح مسلم .. انهم لما وصلوا تبوك.. وجدوا عينا تبض بشيء قليل من الماء .. فعرفوا منها قليلا قليلا .. حتى اجتمع منه شيء فى وعاء .. فغسل رسول الله فيه وجهه ويديه .. ثم اعاده فى العين .. فجرت بماء كثير .. فاستقى الناس .. ثم قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ :

« يوشك يا معاذ ان طالت بك حياة ان ترى ههنا ماء قد ملأ جنانا » .

ومكث ــ عليه الصلاة والسلام ــ فى تبوك عشرين ليلة .. كان يجمع فيها بين الصلاتين قصرا .

قال أبو داود .. عن معاذ بن جبل : ان النبى كان فى غزوة تبوك .. اذا ارتحل قبل ان تزيغ الشمس اخر الظهر .. حتى يجمعها الى العصر .. فيصليهما جميعا .. واذا ارتحل .. قبل المغرب اخر المغرب حتى يصليها مع العشاء .. واذا ارتحل بعد المغرب .. عجل العشاء فصلاها مع المغرب .

وقبل ان نرحل عن تبوك .. لا أحرم القارىء الكريم .. من خطبة خطبها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى تبوك .. لانها اية فى البيان .. وقمة فى الحكمة .. لا يدانيها نطق انسان .. ذكرها البيهقى فى الدلائل .. والحاكم من حديث عقبة بن عامر .. قال :

فاصبح بتبوك .. فحمد الله واثنى عليه بما هو اهله .. ثم قال :

« **اما بعد .. فان أصدق الحديث ذكر الله .. واحسن القصص هذا القرآن .. وخير الامور عوازمها .. وشر الامور محدثاتها .. واحسن الهدى هدى الانبياء .. واشرف الموت قتل الشهداء .. ولعمى العمى الضلالة بعد الهدى** .. وخير الأعمال ما نفع .. وخير الهدى ما اتبع .. وشر العمى عمى القلب .. واليد العليا خير من اليد السفلى .. وما قل وكفى خير مما كثر والهى .. وشر المعذرة حين يحضر الموت .. وشر الندامة يوم القيامة .. ومن الناس من لا يأتى الجمعة الا دبرا .. ومنهم من لا يذكر الله الا هجرا .. ومن اعظم الخطايا اللسان الكاذب .. وخير الغنى غنى النفس .. وخير الزاد التقوى .. ورأس الحكمة مخافة الله عز وجل .. وخير ما وقر فى القلب اليقين .. والارتياب من الكفر .. والنياحة من عمل الجاهلية .. والغلول من حر جهنم .. والسكر كى من النار .. والشعر من ابليس .. والخمر جماع الاثم .. وشر المآكل مال اليتيم .. والسعيد من وعظ بغيره .. والشقى من شقى فى بطن أمه .. وانما يصير احدكم الى موضع أربعة اذرع .. والأمر الى الاخرة .. وملاك العمل خواتمه .. وشر الرؤيا رؤيا الكذب .. وكل ما هو ات قريب .. وسباب المؤمن فسوق .. وقتاله كفر .. واكل لحمه من معصية الله .. وحرمة ماله كحرمة دمه .. ومن يأتى على الله يكذبه .. ومن يغفر يغفر له .. ومن يعف يعف الله عنه .. ومن يكظم الغيظ يأجره الله .. ومن يصبر على الرزية يعوضه الله .. ومن يتبع السمع يسمع الله به .. ومن يتصبر يضعف الله له .. ومن يعص الله يعذبه الله .. ثم استغفر ثلاثا » .

وقبل أن نصحب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى عودته الى المدينة .. يقتضينا تسلل الأحداث .. ان نمر سريعا بسرية ارسلها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى نفس الشهر رجب من العام التاسع الهجرى الى « دومة الجندل » .

فقد أرسل خالد بن الوليد .. فى اربعمائة وعشرين فارسا الى اكيدر ــ بن عبد الملك النصرانى ــ بدومة الجندل ــ وكان ملكا عليها .. من قبل هرقل الروم .. وقال له : ستجده

يصيد البقر .. فانتهى اليه خـالد .. وقـد خـرج من حصنه فى ليلة مقمرة .. الى بقـر يطاردها .. فاسره خالد .. وقتل اخاه حسان .. وهرب من كان معهما الى الحصن .

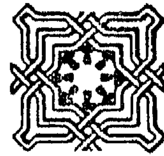
ثم اجار خالد اكيدرا من القتل .. حتى ياتى به الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ان يفتح له ـ دومة الجندل ـ وصالحه على الفى بعير .. وثمانمائة فرس .. واربعمائة درع .. واربعمائة رمح .. فعفا عنه رسول الله .. واطلقه وكتب له كتاب امان .

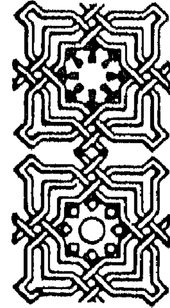
وذكر ابن اسحاق : ان اكيـدر فى تلك الليلة .. راى البقر وهو مع زوجته على سطح منزله .. تحك قرونها بباب القصر .. فقـالت له امراته : هل رايت مثل هـذا قط ؟ .. قال : لا والله .

فركب هو واخوه حسـان .. وركب معهما نفر من اهل بيتهما .. وخرجوا يطاردون البقر .. فسقطوا فى يد خالد .. وكانت على اكيـدر قبة من ديباج مخوص بالذهب .. ارسلها خالد الى رسول الله .. قبل قدومه .

واماى خبر لطيف عن اكيدر .. ذكره ابن عائذ :

وهو ان اكيدر قال عن البقر : والله ما رايتها اتتناقط الا البارحة .. ولقـد كنت اضمر لها اليومين والثلاثة .. ولكن قدر الله .





إلى أحضان طيبة وأُحد

مرض عبد الله بن أبى زعيم المنافقين مرض الموت فارسل الى رســول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يطلب منه قميصه ليكفن فيه .. فارسل اليه قميصه الخارجى .. فــرده .. وطلب القميص الذى يلى جسده .. فقال عمر : لا تعط قميصــك الرجس النجس .. فقال ــ عليه السلام ــ ((يا عمر ان قميصى لا يغنى عنه من الله شيئا .. فلعل الله يدخل به ناسا فى الاسلام)) .

ــ ٥٧ ــ
الى أحضان طيبة وأحد

اشرف موكب الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ على المدينة عائدا من تبوك .. حيث بنى فى طريق عودته كثيرا من المساجد .. حتى نزل ــ بذى اوان ــ وهو موضع قبل المدينة بساعة .. وكان ذلك فى رمضان سنة تسع ..
فجاءه جماعة من المنافقين .. كانوا قد أتوه وهو يتجهز الى تبوك .. فقالوا : يا رسول الله انا قد بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة والليلة المطرة .. ونحب ان تاتينا فتصلى بنا فيه .. فقال لهم : « انى على سفر !! وان قدمنا ان شاء الله اتيناكم فصلينا بكم » .

فلما نزل بذى اوان .. وهو عائد من تبوك اتوه ليصلى بهم .. فى مسجدهم .. فاخبرته السماء ان هذا المسجد بنى للاضرار بالمسلمين .. ولتفريق صفوفهم .

يقول تعالى :

« والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمين وارصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن ان اردنا الا الحسنى والله يشهد انهم لكاذبون * لا تقم فيه أبدا (١) » .

وكانوا اثنى عشر رجلا من المنافقين .. يضارون به مسجد قباء .. قالوا : نبنى مسجدا .. فنقيل فيه .. ولا نحضر خلف محمد .. فدعا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ مالك ابن الدخشم .. ومعه عدى بن عامر ووحشيا .. وقال : انطلقوا الى هذا المسجد الظالم اهله فاهدموه واحرقوه .. ففعلوا .. وامر رسول الله ان يتخذ ذلك الموضع كناسة .. تلقى فيه الجيف والقمامات .

---

(١) ١٠٧ ــ ١٠٨ ــ التوبة .

ودخل — عليه السلام — المدينة فى موكب ضخم .. من أفراح أهلها .. يدوى تكبيرهم فى أجواز الفضاء .. وتنشد فتياتهم اناشيد الغناء

طلع البدر علينا

من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا

مادعا لله داع

فلما اشرف على المدينة .. قال : « هــذه طيبة * وهذا احد جبل يحبنــا ونحبــه .. وانشد له العباس قصيدة قافية يمدحه فيها .. منها :

وانت لما ولدت اشرقت الأر

ض وضاءت بنورك الأفق

فنحن من ذلك النور فى الضــيا

ء وسبل الرشــاد نخترق

فبدا — صلى الله عليه وسلم بالمسجد .. فدخله وصلى به ركعتين .. ثم جلس للناس .. فجاءه المخلفون .. يعتذرون اليه .. ويحلفون له .. وكانوا بضعة وثمانين رجلا .. فقبل منهم رسول الله علانيتهم .. واستغفر لهم .. ووكل سرائرهم الى الله .

وغزوة تبوك .. هى آخر غزواته — عليــه السلام —

وكانت غزواته .. التى خرج فيها بنفسه — كما ذكر ابن اسحاق — سبعا وعشرين غزوة .. وقــال بعض الرواة كالطبــرى .. هى ستت وعشرون .. وهؤلاء اعتبروا غزوة وادى القرى وخيبر غــزوة واحدة .. لانه لم يعد بينهما الى منزله .

اما بعوثه وسراياه .. فكانت ثمانية وثلاثين .. من بين بعث وسرية .

مع الثلاثة الذين خلفوا :

ويعود بنا الحديث .. الى الثلاثة الذين خلفوا الثلاثة الصادقى الايمان .. وتخلفوا عن تلك الغزوة .. وهم : كعب بن مالك .. ومرارة بن الربيع .. وهلال بن أمية .

فلما جاءه كعب بن مالك وســلم عليه .. تبسم — عليه السلام — تبسم المغضــب .. ثم قال له : تعال .

ولنشهد هذا الموقف .. من كعب يحكى لنا ما حصل .. قال :

فجئت امشى حتى جلست بين يديه .. فقال ما خلفــك ؟ .. الم تكن قــد ابتعــت ظهــرك ؟ فقلت : بلى والله .. لقــد علمت ان حدثتك اليوم حديث كــذب ترضى به على .. يوشك الله ان يسخطك على .. ولئن حدثتــك حديث صــدق تجد على فيه .. انى لأرجــو نفع الله وعفــو الله عنى .. والله ما كان لى من عذر .. والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — اما هذا فقد صدق .. فقم حتى يقضى الله فيــك . فقمت فأتانى ناس يؤنبوننى على عــدم اعتــذارى .. وكان يكفينى اســتغفار الرسول لى . فقلت لهم : هل لقى هــذا معى احد ؟ — قالوا : نعم رجلان .. قالا مثل الذى قلت .. فقيل لهما مثــل الذى قيــل لك .. فقلت : من هما ؟ .. قالوا : مرارة بن الربيع .. وهلال بن اميــة الواقفى .. فذكــروا لى رجلين صالحين شــهدا بدرا .. فيهما اســـوة فمضيت حين ذكروهما لى .

ونهى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — المسلمين عن كلامنا نحن الثلاثة من بين من تخلفوا عنه .. فاجتنبنا الناس .. وتغيروا لنا .. حتى تنكرت لى الأرض .. فما هى بالتى اعرف .

فلبثنا على ذلك خمسين ليلة .. فاما صاحباى فقد استكانا .. وقعدا فى بيوتهما يبكيان .. واما انا فكنت اشب القوم واجلدهم .. كنت اخرج واشهد الصلاة مع المسلمين .. واطوف فى الاسواق .. ولا يكلمنى احد .. وآتى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فاسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة .. فاقول فى نفسى : هل حرك شفتيه برد السلام على أم لا ؟ .. ثم اصلى قريبا منه .. فأسارقه النظر .. فاذا اقبلت على صلاتى اقبل على .. واذا التفت نحوه اعرض عنى .

حتى اذا طال على ذلك من جفوة المسلمين .. مشيت حتى تسورت جدار حائط ابى قتادة — وهو ابن عمى — واحب الناس اليه .. فسلمت عليه .. فوالله مارد على السلام . فقلت : يا ابا قتادة .. انشدك الله .. هل تعلم انى احب الله ورسوله ؟ .. فسكت .. فعدت له فنشدته فسكت .. فعدت له فنشدته فقال : الله ورسوله اعلم .

ففاضت عيناى .. وتوليت حتى تسورت الجدار .. فبينا انا امشى بسوق المدينة .. واذا نبطى من انباط الشام .. ممن قدم بالطعام .. يبيعه بالمدينة .. يقول : من يدلنى على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له الى .. حتى اذا جاء دفع الى كتابا من ملك غسان .. فاذا فيه :

اما بعد .. فانه بلغنى ان صاحبك قد جفاك .. ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة .. فالحق بنا نواسيك .

فقلت لما قراتها : وهذا ايضا من البلاء .. فتيممت بها التنور .. فسجرتها .

حتى اذا مضت اربعون ليلة من الخمسين .. اذ رسول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ياتينى فقال : ان رسول الله يامرك أن تعتزل امراتك .

فقلت : اطلقها .. ام ماذا ؟ قال : لا .. ولكن اعتزلها ولا تقربها .

وارسل الى صاحبى مثل ذلك .. فقلت لامراتى : الحقى باهلك .. فكونى عندهم .. حتى يقضى الله فى هذا امرا .

فجاءت امراة هلال بن امية .. فقالت يارسول الله .. ان هلال بن امية شيخ ضائع .. ليس له خادم .. فهل تكره أن اخدمه ؟ . قال لا ولكن لا يقربك .. قالت : انه والله ما به حركة الى شىء .. والله مازال يبكى منذ كان من امره ما كان الى يومه هذا .

قال كعب : فقال لى بعض اهلى : لو استاذنت رسول الله فى امراتك .. كما اذن لامراة هلال بن امية ان تخدمه ؟ .. فقلت : والله لا استاذن رسول الله فيها .. وما يدرينى ما يقول رسول الله اذا استاذنته فيها .. وانا رجل شاب ؟ .

ولبثت بعد ذلك عشر ليال .. حتى كملت لنا خمسون ليلة .. من حين نهى رسول الله عن كلامنا . فلما صلينا الفجر .. صبح خمسين ليلة .. على سطح بيت من بيوتنا .. بينا انا جالس على الحال التى ذكر الله تعالى .. قد ضاقت على نفسى .. وضاقت على الارض بما رحبت .. سمعت صوت صارخ .. اوفى على جبل سلع باعلى صوته : يا كعب بن مالك .. ابشر .. فخررت ساجدا .. فعرفت أن قد

جاء فرج من الله .. وآذن رسول الله بتوبة الله علينـا حين صـلى الفجر .. فذهب الناس يبشروننا .. وذهب قبلٌ صاحبى مبشرون .

وركض الى رجل فرسا .. وسعى ساع من اسلم .. فأوفى على ذروة الجبل .. وكان الصوت اسرع من الفرس .. فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى .. نزعت له ثوبى .. فكسوته اياهما ببشراه .. والله ما املك وقته غيرهما .. واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت الى رسـول الله ــ صـلى الله عليه وسـلم ــ فتلقانى الناس فوجا فوجا .. يهنئوننى بالتوبة .. يقولون : ليهنك توبة الله عليك .

قال كعب : حتى دخلت المسـجد .. فاذا رسول الله ــ صـلى الله عليه وسـلم ــ جالس حوله الناس .. فقـام الى طلحه بن عبيـد الله يهرول حتى صافحنى وهنأنى .. والله ما قام الى احد من المهاجرين غيره .. ولست انساها لطلحة .

فلما سلمت على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال وهو يشرق وجهـه من السرور : « ابشر بخير يوم مر عليك منـذ ولدتك امك » قال : قلت اهو من عندك يا رسـول الله أم من عند الله ؟ .. قال : « لا .. بلْ من عند الله » .

وكان عليه السلام ــ اذا سر استنار وجهه .. كأنه قطعة قمر .. وكنا نعرف ذلك منه .. فلما جلست بين يديه .. قلت : يا رسـول الله .. ان من توبتى .. ان انخلع من مالى صدقة الى الله ورسوله .. فقال : امسك بعض مالك .. فهو خير لك : قلت فانى امسك سـهمى الذى بخيبر ..

ثم قلت : يارسـول الله .. ان الله نجـانى بالصدق .. وان من توبتى الا احدث الا صـدقا ما بقيت .. فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله فى صدق الحديث .. منذ ذكرت ذلك لرسول الله الى يومى هذا ما ابلانى .. والله ما تعمدت بعد ذلك الى يومى هذا كذبا .. وأنى لأرجو ان يحفظنى الله فيما بقيت .. والله ما انعم الله على نعمة قط بعد ان هدانى للاسـلام .. اعظم فى نفسى من صدقى لرسولْ الله أن الا اكون كذبت فاهلك كما هلك الذين كـذبوا .. فان الله قالْ للذين كذبوا ــ حين انزل الوحى ــ شر ما قالْ لاحد .. قالْ :

(سـيحلفون بالله لـكم اذا انقلبتم اليهم لتعرضـوا عنهم فاعرضـوا عنهم انهم رجس ومأواهم (١) جهنم جزاء بما كانوا يكسبون ※ يحلفون لكم لترضوا عنهم فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) .

فبذلك قال الله تعالى :

(وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم انفسهم وظنوا ان لا ملجـا من الله الا اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم ※ يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين (٢) .

وقال ابن عباس .. فى قوله تعالى :

(واخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عمـلا صالحا وآخر سـيئا عسى الله أن يتوب عليهم أن الله غفور رحيم) (٣) .

---

(١) ٩٥ ــ ٩٦ / التوبة .

(٢) ١١٨ ــ ١١٩ / التوبة .

(٣) ١٠٢ ــ التوبة .

قال : كانوا عشرة رهط .. تخلفوا عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى غزوة تبوك .. فلما رجع رسول الله .. أوثق سبعة منهم أنفسهم بسوارى المسجد .. فقال : « من هؤلاء » ؟ .. قالوا : هذا أبو لبابة وأصحاب له .. تخلفوا عنك يا رسول الله .. حتى تطلقهم وتعذرهم .. فقال : « أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم .. حتى يكون الله هو الذى يطلقهم .. رغبوا عنى وتخلفوا عن الغزو .. فأنزل الله تعالى (وآخرون اعترفوا بذنوبهم) .. الى آخر الاية . فلما نزلت .. ارسل اليهم النبى فأطلقهم وعذرهم .

وقبل أن نطوى صفحة تبوك .. علينا أن نطوق معها صفحة شيخ المنافقين .. عبد الله ابن أبى بن سلول .

فقد مرض بعد عودة رسول الله من تبوك .. وظل مريضا عشرين ليلة .. ثم مات فى شهر ذى القعدة سنة تسع .

وقد زاره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مرضه .. فطلب منه أن يصلى عليه اذا مات .. ويقوم على قبره .. ثم انه أرسل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ يطلب منه قيمصه ليكفن فيه .. فأرسل اليه القميص الخارجى .. فرده وطلب القميص الذى يلى جسده ليكفن فيه .. فقال عمر : لا تعط قميصك الرجس النجس .. فقال ـ عليه السلام ـ يا عمر .. ان قميصى لا يغنى عنه من الله شيئا .. فلعل الله يدخل به ناسا فى الاسلام .

وكان المنافقون لا يفارقون ابن أبى .. فلما رأوه يطلب هذا القميص أسلم منهم كثير فلما مات جاءه ابنه يعرفه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بموته .. فقال لابنه : « صل عليه وادفنه » .. فقال : ان لم تصل عليه يا رسول الله .. لم يصل عليه مسلم .. فقام ـ عليه السلام ـ ليصلى عليه .. فقام عمر .. يحول بين رسول الله وبين القبلة .. لئلا يصلى عليه .

وعن عبد الله بن عباس .. قال :

سمعت عمر بن الخطاب يقول : لما توفى عبد الله بن أبى بن سلول .. ودعى رسول الله للصلاة عليه .. فقام اليه .. فلما وقف عليه يريد الصلاة .. تحولت حتى قمت فى صدره .. فقلت : يا رسول الله .. اتصلى على عدو الله عبد الله بن أبى .. القائل يوم كذا كذا ؟ .. اعدد أيامه .. ورسول الله يبتسم .. حتى اذا أكثرت عليه قال : « أخر عنى يا عمر .. انى خيرت فاخترت .. وقد قيل لى (استغفر لهم أولا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر لهم) (١) .

« فلو أنى أعلم أنى ان زدت على السبعين غفر له .. لزدت » .

قال : ثم صلى عليه ومشى معه .. فقام على قبره .. حتى فرغ منه .. ثم قال عمر لابن عباس : أتعجب لى وجراتى على رسول الله ؟ .. والله ورسوله أعلم .. فوالله ما كان الا يسير .. حتى نزلت (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) (٢) .

فما صلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على منافق .. ولا قام على قبره .. حتى قبضه الله .

---

(١) ٨٠ ـ التوبة .

(٢) ٨٤ ـ التوبة .

وفى تلك السنة التاسعة من الهجرة الشريفة .. خرج أبو بكر ليحج بالناس .. ارسله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ثلاثمائة رجل .. ومعهم عشرون بدنة .. وأمره ان يؤذن فى الناس يوم النحر .. ان لا يحج بعد هذا العام مشرك .. ولا يطوف بالبيت عريان .

فقد أنزل الله تعالى :

(يا ايها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجدالحرام بعد عامهم هذا) (١).

ثم ارسل خلفه على بن ابى طالب على القصواء ـ ناقة رسول الله ـ فلما لحق بأبى بكر ..

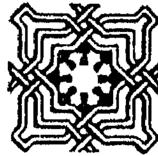
قال له ابو بكر : هلّ استعملك رسول الله على الحج ؟ .. قالْ : لا .. ولكن بعثنى لأقرأ على الناس سورة ـ براءة ـ انبذ كل ذى عهد عهده .. وكانت من عادة العرب .. الا ينبذ العهد الا من كان قريبا ممن أراد النبذ .. فلذلك بعث رسول الله عليا لينبذ عهوده .. وبعث أبا بكر ليحج بالناس .

وقد قرأ على بن أبى طالب سورة براءة على الناس يوم النحر .. عند الجمرة .. ونبذ كل عهد عهده .. وقال : لا يحج بعد هذا العام مشرك .. ولا يطوف بالبيت عريان .. فلم يحج مشرك مع رسول الله فى الحجة التالية ـ حجة الوداع ـ وسورة براءة .. هى سورة التوبة .. وقد اورد صاحب تفسير الكشاف لها عدة أسماء :

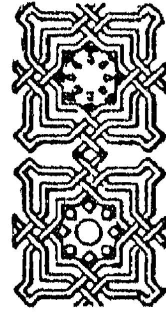
براءة ..والتوبة ..والمقشقشة .. والمبعثرة .. والمشردة .. والمخزية .. والفاضحة .. والمثيرة .. والحافرة .. والمنكلة .. والمدمدمة .. وسورة العذاب .

ثم عاد أبو بكر وعلى بالمسلمين الى المدينة بعد الحج .. وكان على يصلى خلف ابى بكر .. الى ان عادوا الى المدينة .

ومن هذا يتضح وهم الرافضة والشيعة .. لما زعموا ان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عزل ابا بكر عن امارة الحج فى هذا العام .. واستبدله بعلى .



(١) ٢٨ ـ التوبة .



وأسلمت ثقيف وحطمت الطاغية

كانوا يسالونه .. مع ترك اللات ان يعفيهم من الصلاة والا يكسروا أوثانهم بايديهم .. فقال لهم : أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه .. وأما الصلاة فلا خير فى دين لا صلاة فيه .

فاسلموا على ذلك .. وكتب لهم كتابهم .. وأمر عليهم عثمان بن ابى العاص .. ثم توجهوا الى ديارهم ومعهم أبو سفيان بن حرب .. والمغيرة بن شعبة لهدم الطاغية ــ اللات ــ .

— ٥٨ —

وأسلمت ثقيف وحطمت الطاغية

من اعماق التاريخ .. كانت قريش اما للعرب .. فى جميع انحاء الجزيرة العربية .

فهم هداتهم واسوتهم .. واهــل بيت الله الحرام .. وصريح ولد اسماعيل بن ابراهيم .. وقادة العرب كلهم .. لا ينكرون ذلك .

وقريش هى التى ناصبت رسول الله العداء .. تبث عيونها فى كل ركن .. من أركان الجزيرة .. للتجمع لحرب المسلمين والقضــاء عليهم .. ما استطاعوا الى ذلك سبيلا .

فلما دخلت قريش فى الاســلام .. عاد العرب كلهم الى صوابهم .. وراجعوا انفسهم فى امر محمد ودينه .. فدخلوا فى الاسلام أفواجا .. فارسلوا وفودهم الى المدينــة .. يضربون اليه من كل وجه .. وفدا وفدا .. وفــوجا فوجا .

ويهمنا أول ما يهمنا من تلك الوفــود وفد ثقيف .. فقد تركنا ثقيفا على كفرها بالطائف .. وعندهم صنمهم الطاغية ــ اللات ــ ولكن ما ان تركهم ــ عليه السلام ــ فى حصــنهم وعاد الى المدينة .. بعد أن قيل له : ادع عليهم .. فقال : « اللهم اهد ثقيفا وائت بهم » .

أقول : ما ان تركهم ــ عليه السلام ــ حتى شرح الله صدر زعيمهم عروة بن مسعود الثقفى للاسلام ــ فسار على أثر رسول الله .. وادركه قبل دخول المدينة .. فأسلم وشهد شهادة الحق .. واستاذن رسول الله .. فى الرجوع الى قومه بالاسلام .. فقال له « انهم قاتلوك » .. فقال عـــروة : انا احب اليهم من أبكارهـــم (١) .. فاذن له :

وكان عروة مطاعا محبوبا فى قومه .. فعاد اليهم يدعوهم الى الاسلام .. وهو يطمع فى طاعتــه لمنزلته فيهم .. وأظهر لهم دينــه .. فرموه بالنبل من كل وجه .. فاصابه سهم فقتله .

وقيل له يا عروة .. ما ترى فى دمك ؟ .. قال : كرامة أكرمنى الله بها .. وشهادة ساقها الله الى .. فليس فى الا ما فى الشهداء .. الذين قتلوا مع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قبل أن يرتحل عنكم .. فادفنونى معهم .. فدفنوه معهم .

وقال ــ عليه السلام ــ « ان مثله فى قومه .. كمثل صاحب يس فى قومه .

واقامت ثقيف بعد قتل عروة اشــهرا .. ثم رأوا انه لا طاقة لهم بحــرب من حولهم من

---

(١) الابكار : جيد الجمال .

من العرب الذين بايعوا واسلموا .. فاتفقوا على ارسال وفدهم الى رسول الله بالمدينة .. وذهب وفد ثقيف الى رسول الله .. فلما دنوا من المدينة .. لقيهم المغيرة بن شعبة .. وهو ثقفى .. فاسرع ليبشر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بقدومهم عليه .. فلقيه ابو بكر .. فقال اقسمت عليك بالله لا تسبقنى الى رسول الله .. لأكون انا البشير .. ففعل .

فدخل ابو بكر على رسول الله فاخبره بقدومهم عليه .. ثم خرج المغيرة الى اصحابه .. فروح الظهر معهم .. واعلمهم كيف يحيون رسول الله بتحية الاسلام .. فلم يفعلوا الا بتحية الجاهلية .

فلما قدموا على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ضرب عليهم قبة فى ناحية من المسجد .. وكان خالد بن سعيد بن العاص .. هو الذى يمشى بينهم وبين رسول الله .. حتى كتبوا كتابهم .. وخالد بن سعيد هو الذى كتبه .. وكانوا لا ياكلون طعاما يأتيهم من عند رسول الله .. حتى ياكل منه خالد .. حتى اسلموا .

اسلموا .. وكتب لهم رسول الله كتابا بعد مناقشات بين رسول الله وبينهم .

فقد سألوه أن يدع لهم الطاغية — اللات — لا يهدمها ثلاث سنين .. فأبى رسول الله .. فما برحوا يسالونه سنة .. سنة .. ويأبى عليهم .. حتى سألوه شهرا واحدا بعد وصولهم الى ديارهم .. فأبى عليهم أن يدعها شيئا مسمى .

وكانوا يقصدون من ترك اللات — فيما يظهرون .. اكتفاء شر سفائهم ونسائهم وذراريهم .. ويكرهون ان يروعوا قومهم بهدمها .. حتى يدخلوا فى الاسلام .. فاصر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — علي أن يبعث معهم ابا سفيان ابن حرب .. والمغيرة بن شعبة يهدمانها .

كما كانوا يسالونه مع ترك اللات .. ان يعفيهم من الصلاة .. والا يكسروا اوثانهم بايديهم ..

فقال لهم : اما كسر اوثانكم بايديكم فسنعفيكم منه .. واما الصلاة فلا خير فى دين لا صلاة فيه .. فأسلموا على ذلك .. وكتب لهم كتابهم .. وأمر عليهم عثمان بن ابى العاص .. وكان من احدثهم سنا .. الا انه كان احرصهم على التفقه فى الاسلام .. وتعلم القرآن .

ثم توجهوا الى ديارهم .. ومعهم ابو سفيان بن حرب .. والمغيرة بن شعبة .

فلما قدموا الطائف .. اراد المغيرة أن يقوم ابو سفيان بهدم — اللات — فابى عليه ابو سفيان .. وقال : ادخل انت على قومك .. فدخل المغيرة على الطاغية .. ثم علاها .. يضربها بالمعول .. فقام دونه بنو مغيث — وهم أهله — خشية أن يرمى أو يصاب .. كما اصيب عروة .. ولكنه اعرض عنهم .

وخرجت نساء ثقيف حاسرات باكيات .. الا انه استمر فى ضربها بالمعول .. وابو سفيان يقول : واها لك واها لك .. حتى اتم هدمها .. واخذ مالها وحليها من الذهب والفضة .. وسلمه لأبى سفيان .

وأمر — عليه السلام — بسداد دين كان على عروة بن مسعود .. وأخيه الأسود بن مسعود .. من مال الطاغية — اللات — اكراما لابنيهما : ابى مليح بن عروة .. وقارب بن الأسود .. اللذين أسلما بعد قتل عروة .. واقاما بالمدينة مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم —

ثم بعث رسول الله ابا موسى الأشعرى .. ومعاذ بن جبل الى شطرى اليمن .. وقال لهما :

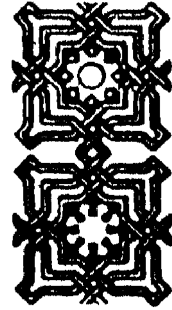
« يسرا ولا تعسرا .. وبشرا ولا تنفرا » .. وقال لمعاذ :

« انك ستأتى قوما اهل كتاب .. فاذا جئتهم فادعهم الى ان يشهدوا ان لا اله الا الله .. وان محمدا رسول الله .. فان اطاعوك بذلك .. فأخبرهم ان الله قد فرض عليهم خمس صلوات .. فى كل يوم وليلة .. فان هم اطاعوا لك بذلك .. فاخبرهم ان الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من اغنيائهم وترد على فقرائهم .. فان هم اطاعوا لك بذلك .. فاياك وكرائم أموالهم .. واتق دعوة المظلوم .. فانها ليس بينها وبين الله حجاب » .

ولما خرج معاذ من المدينة الى اليمن .. خرج — عليه الصلاة والسلام — يوصيه .. ومعاذ راكب .. ورسول الله يمشى تحت ظل راحلته .. فلما فرغ من وصيته قال :

« يا معاذ انك عسى الا تلقانى بعد عامى هذا .. ولعلك ان تمر بمسجدى وقبرى » فبكى معاذ لفراقه .

ولم يزل معاذ على اليمن .. الى ان قدم فى خلافة ابى بكر .. ثم توجه الى الشام فمات بها .



وفود .. و وفود

وقدم الوفد على ديارهم .. فكان اول ما تكلم به ضمام ان قال : بئست اللات والعزى .. قالوا : مه يا ضمام .. اتق البرص .. اتق الجذام .. اتق الجنون .. قال : ويلكم .. لا تضران ولا تنفعان .. ان الله قد بعث لكم رسولا .. وأنزل كتابا .. استنقذكم به مما كنتم فيه .. وانى أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له .. وان محمدا عبده ورسوله .. وقد جئتكم من عنده بما امركم به .. وما نهاكم عنه ..

— ٥٩ —
وفود .. ووفود

قلنا ان العرب دخلوا فى الاسلام افواجا .. فارسلوا وفودهم الى المدينــة .. يضربون اليها من كل وجه .. ولو شئنا استقصاءها جميعا .. لأفردنا لها الكتب .. ولكن ليأذن لى القارىء فى أن أوجز له بعضها .. مما لا غنى عنه لكل مسلم نهم الى تثقيف نفسه ما استطاع الى ذلك سبيلا .. وستجد ان شاء الله — تعالى — أن كل وفد اوجز خبره لك فيه آية .. أو حكمة .. او قطعة ادب يزيدك علما .. ويعطيــك فقها .. ويمنحك ايمانا ويقينا ..

فســانتقى لك ما فيهـــا من درر ولآلىء واصداف .

١ — وفــد بنى عامــــر :

ارسل بنو عامر وفدا منهم .. الى رسول الله — عليه السلام — بالمدينة .

يقول زيد بن عبد الله بن العلاء :

وفد ابى فى وفــد بنى عامر الى النبى .. فقالوا : انت سيدنا .. وذو الطول علينا ..

فقــال : « مه .. مه .. قولوا بقولكم .. ولا يسخرن بكم الشــيطان .. السيد الله » .

لما قدم على رسول الله .. وفد بنى عامر .. فيهم عامر بن الطفيــل .. واربد بن قيس .. وخالد بن جعفر .. وحيان بن مسلم بن مالك .. وكان هؤلاء رؤساء القوم وشــياطينهم .. فقدم عدو الله عامر بن الطفيل على رسول الله .. وهو يريد أن يغدر به .. فقال له قومه : يا عامر ان القوم قد أسلموا .. فقال : والله لقد كنت آليت الا أنتهى حتى تتبع العــرب عقبى .. فهل اتبع عقب هذا الفتى القرشى ؟ .. ثم قال لأربد : اذا قدمنا على الرجل .. فانى شاغل عنك وجهه .. فاذا فعلت ذلك .. فاعله بالســـيف .. فلما قدموا على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال عامر : يا محمد .. خالنى — اى : اخل بى احادثك ..

قال : « لا والله حتى تؤمن بالله وحده » .. وكررها ثلاثا .. والنبى يأبى .. فقال : أما والله لأملأنها عليك خيلا ورجالا .. فلما ولى بفرسه .. قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « اللهم اكفنى عامر بن الطفيل » .

فلما خرجوا من عند رسول الله .. قال عامر لأربد .. ويحك يا أربد .. اين ما كنت امرتك به ؟ .. والله ما كان على وجه الأرض اخوف عندى على نفس منك .. وايم الله لا اخافك بعد اليوم ابدا .. قال اربد : لا ابالك .. لا تعجل على .. فوالله ما هممت بما امرتنى به الا كنت انت بينى وبينه .. افاضربك بالسيف ؟.

وعادوا الى بلادهم .. وفى الطريق مات عامر بن الطفيل بالطاعون فى عنقه .. فى بيت أمراة من بنى سلول .

ووفد القوم على ديارهم .. فقالوا لهم : ما وراءك يا اربد ؟ قال : لقد دعانى الى عبادة شىء .. لوددت انه عندى فارميه بنبلى هذه حتى اقتله .

فخرج بعد مقالته بيوم أو يومين .. معه جمل يبيعه .. فارسل الله — تعالى — عليه وعلى جمله صاعقة احرقتهما .

واسلم القوم بعد ذلك .

وكان اربد اخا لبيد بن ربيعة لأمه .. فبكاه ورثاه .

٢ — وفد بنى سعد بن بكر :

وقدم وفد بنى سعد بن بكر الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وفيه ضمام بن ثعلبة .. فقدم ضمام .. واناخ بعيره على باب المسجد .. ثم عقله ودخل على رسول الله .. وهو جالس فى اصحابه .. وكان ضمام رجلا جلدا أشعر ذا غديرتين .. فاقبلُ حتى وقف على رسول الله فى اصحابه .. فقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ ..

فقال — عليه السلام — « انا ابن عبد المطلب » .. قال : امحمد ؟ .. قال : « نعم » قال :

يا ابن عبد المطلب .. انى سائلك .. ومغلظ عليك فى المسألة .. **فلا تجدن فى نفسك .. — اى** لا تغضب منى — قال : « لا اجد فى نفسى .. فسل ما بدالك ؟ » .

قال : انشدك الله الهك واله من كان قبلك واله من هو كائن بعدك .. **آلله بعثك الينا رسولا ؟** .. قال : « اللهم نعم » .

قال : فأنشدك الله الهك واله من كان قبلك واله من هو كائن بعدك .. **آلله أمرك أن تأمرنا أن** نعبده وحده ولا نشرك به شيئا .. وان نخلع هذه الأنداد التى كان آباؤنا يعبدونها معه ؟ .. قال : « اللهم نعم » .

قال : فأنشدك الله الهك واله من كان قبلك واله من هو كائن بعدك : **آلله أمرك أن نصلى هذه** الصلوات الخمس ؟ .. قال : « اللهم نعم » .

ثم جعل يذكر فرائض الاسلام .. فريضة فريضة : الزكاة والصيام والحج وشرائع الاسلام كلها .. ينشده عند كل فريضة وشريعة منها .. حتى اذا فرغ قال :

فانى أشهد ان لا اله الا الله .. وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .. وسأؤدى هذه الفرائض .. واجتنب ما نهيت عنه .. ثم لا ازيد ولا انقص .. ثم انصرف الى بعيره راجعا .

فقال — عليه الصلاة والسلام — « ان صدق ذو العقيصتين دخل الجنة » .

وقدم الوفد على ديارهم .. فكان أول ما تكلم به ضمام أن قال : بئست اللات والعزى .. قالوا : مه يا ضمام .. اتق البرص .. اتق الجذام .. اتق الجنون .. قال : ويلكم .. انهما لا تضران ولا تنفعان .. ان الله قد بعث لكم رسولا .. وأنزل كتابا .. استنقذكم به مما كنتم

فيه .. وانى اشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له .. وأن محمدا عبده ورسوله .. وقد جئتكم من عنده .. بما امركم به .. وما نهاكم عنه .

يقول الرواة : فوالله ما امسى من ذلك اليوم فى حاضره رجل ولا امراة الا مسلما .

٣ ـ وفد بنى حنيفة :

وقدم وفد بنى حنيفة .. فيهم مسيلمة الكذاب .. وكان منزلهم فى دار امراة من الانصار .. من بنى النجار .. فأتوا بمسيلمة .. يستر بالثياب .. ورسول الله جالس مع اصحابه .. فى يده عسيب من سعف النخل .

فلما انتهى اليه ـ عليه السلام ـ وهم يسترونه بالثياب .. كلمه وسأله :

فقال له رسول الله : « لو سألتنى هذا العسيب الذى فى يدى ما أعطيتك » .

فأسلموا .. ولكن مسيلمة ادعى النبوة والشركة .. مع رسول الله فيها .

بماذا سأل مسيلمة رسول الله ؟ .

روى ابن اسحاق : ان مسيلمة الكذاب .. كتب الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « من مسيلمة رسول الله .. الى محمد رسول الله ـ اما بعد ـ

فانى اشركت فى الأمر معك .. وان لنا نصف الأمر .. ولقريش نصف الأمر .. وليس قريش قوما يعدلون .

فقدم عليه رسوله بكتاب رسول الله اليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم » من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب .

سلام على من اتبع الهدى ـ اما بعد ـ

فان الأرض لله .. يورثها من يشاء من عباده .. والعاقبة للمتقين » .

وكان ذلك .. فى آخر السنة العاشرة من الهجرة .

وعن مسلمة بن نعيم بن مسعود .. عن أبيه .. قال :

سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين جاءه رسولا مسيلمة الكذاب بكتابه .. يقول لهما .. « وانتما تقولان بمثل ما يقول » ؟ .. قالا : نعم .. قال : « آمنت بالله ورسوله .. ولو كنت قاتلا رسولا لقتلتكما » . فمضت السنة بأن الرسل لا تقتل .

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة .. قال .. قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « بينما انا نائم .. اذ اتيت بخزائن الأرض .. فوقع فى يدىّ سواران من ذهب .. فكبرا على واهمانى .. فأوحى الله الى أن انفخهما .. فنفختهما فذهبا .. فأولتها الكذابين اللذين انا بينهما : صاحب صنعاء .. وصاحب اليمامة » .

وكانت الروح التى نفخ بها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هى روح أبى بكر الصديق .. حيث قتل مسيلمة .. فى عهد أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ

٤ ـ وفد طىء :

وقدم على رسول الله وفد طىء .. ومعهم سيدهم زيد الخيل .

فلما انتهوا اليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ عرض عليهم الاسلام .. فأسلموا وحسن اسلامهم .

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ :

« ما ذكر لى رجل من العرب بفضل .. ثم جاءنى الا رأيته دون ما يقال فيه .. الا زيد الخيل .. فانه لم يبلغنى كل مافيه » .. ثم سماه زيد الخير .

فخرج من عند رسول الله .. راجعا الى قومه .. فقال ـ عليه السلام ـ

« ان ينج زيد من حمى المدينة فانه » .

فلما انتهى زيد الى ماء .. من مياه نجد .. يقال له ـ قردة ـ اصابته الحمى بها .. فمات .. فلما احس بالموت .. قال :

امر تحل قومى المشـــارق غدوة
واتـــرك فى بيت بقردة منجـــد
الا رب يوم او مرضت لعادنى
عوائد من لم يبر منهن يجهـــد

وكان له ابنان :

مكنف .. وحريث .. اسـلما .. وصـحبا رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ وشـــهدا قتال أهل الردة .. مع خالد بن الوليد .

٥ ـ وفد كنـــدة :

وقدم أيضا الأشعث بن قيس .. على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ستين أو ثمانين راكبا من كندة .

فدخلوا على النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ مسجده .. وقد رجلو جممهم ـ أى شـعرهم ـ وتساحوا .. ولبسوا الحبرات مكففـة بالحرير .. فقال لهم : « أو لم تســلموا » ؟ .. قالوا : بلى ..

قال : « فما هذا الحرير فى أعناقكم » ؟ .. فشقوه ونزعوه والقوه .. ثم قال الأشـــعث :

يا رسول الله نحن بنو آكل المرار .. وأنت ابن آكل المرار .. فضـــحك ـ عليه السلام ـ ثم قال :

« نحن بنو النضر بن كنانة .. لا نقفوا امنا .. ولا ننتفى من ابينا » .

وبنو آكل المرار من كندة .. كانوا ملوكا .. والمرار : شجر من شجر البوادى .. وآكل المرار :

هو الحرث بن عمـــرو بن حجر بن عمر بن معاوية بن كندة .. وللنبى ـ عليه السلام ـ جدة من كندة .. هى أم كلاب بن مرة .. واياها أراد الأشعث .

٦ ـ وفد الأشعريين وأهل اليمن :

روى عن انس ـ رضى الله عنه ـ ان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :

« يقدم قوم هم أرق منكم قلوبا » .. فقدم الأشعريون .. وهم يرتجزون :

غدا نلقى الأحبة محمدا وحزبه

وجاء فى صحيح مســلم .. عن ابى هريرة قال .. سمعت رسول الله ـ صـــلى الله عليه وسلم ـ يقول :

« جاء أهل اليمن .. هم ارق افئـــدة .. واضعف قلوبا .. والايمان يمان .. والحكمـة يمانية .. والسكينة فى أهل الغنم .. والفخـــر والخيلاء فى أهل الوبر » .

كما جاء فى صحيح البخارى :

ان نفرا من بنى تميم جاءوا الى رسول الله ـ وقالوا قد قبلنا ـ جئنا لنفقه فى الدين ونسالك عن اول هذا الأمر .. فقال :

صلى الله عليه وسلم :

« أبشروا يا آل تميم » فقالوا : بشرتنا فاعطنا .. فتغير وجه الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ

وجاء نفر من اهل اليمن .. فقال : « اقبلوا البشرى .. اذ لم يقبلها بنو تميم » .. قالوا : قد قبلنا ـ جئنا لنتفقه فى الدين ونســألك عن اول هذا الأمر ، فقال :

« كان الله ولم يكن شىء غيره .. وكان عرشــه على الماء .. وكتب فى الذكر كل شىء » .

٧ ـ وفد الأزد :

قال علقمة بن يزيد بن سويد الأزدى : حدثنى ابى عن جدى سويد ابن الحرث .. قال : وفدت سابع سبعة من قومى .. على رســول الله ـ

صلى الله عليه وسلم ـ فلما دخلنا عليه وكلمناه .. اعجبه ما رأى من سمتنا وزينا .. فقال : « من انتم » ؟

قلنا : مؤمنون .. فتبسم ـ عليه السلام ـ وقال « ان لكل قول حقيقة .. فما حقيقة قولكم وايمانكم » ؟ .. قلنا : خمس عشرة خصلة :

خمس منها أمرتنا رسلك ان نؤمن بها .. وخمس امرتنا ان نعمل بها .. وخمس تخلقنا بها فى الجاهلية .. فنحن عليها الآن .. الا ان تكره منها شيئا .

فقال ـ عليه السلام ـ « وما الخمس التى امرتكم بها رسلى .. أن تؤمنوا بها » ؟ .

قلنا : امرتنا ان نؤمن بالله .. وملائكته .. وكتبه .. ورسله .. والبعث بعد الموت .

قال : وما الخمس التى أمرتكم ان تعملوا بها » ؟ .

قلنا : امرتنا ان نقول لا اله الا الله محمد رسول الله .. ونقيم الصلاة .. ونؤتى الزكاة ونصوم رمضان .. ونحج البيت الحرام من استطاع اليه سبيلا .

فقال : « وما الخمس التى تخلقتم بها فى الجاهلية » ؟ .

قلنا : الشكر عند الرخاء .. والصبر عند البلاء .. والرضا بمر القضاء .. والصدق فى موطن اللقاء .. وترك الشماتة بالأعداء .

فقال : عليه الصلاة والسلام ـ : « حكماء علماء .. كادوا من فقههم ان يكونوا انبياء » .

ثم قال : « وانا أزيدكم خمسا .. فتتم لكم عشرون خصلة .. ان كنتم كما تقولون :

فلا تجمعوا مالاتأكلون .. ولا تبنوا مالاتسكنون .. ولا تنافسوا فى شيء انتم عنه غدا تزولون .. واتقوا الله الذى اليه ترجعون وعليه تعرضون .. وارغبوا فيما عليه تقدمون وفيه تخلدون » .

فانصرف القوم من عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد حفظوا وصيته ..

٨ ـ وفد نجران :

عن ابى عبد الله الحاكم .. عن **الاصم** : كتب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى اهل نجران ـ وكانوا نصارى ـ يدعوهم الى الاسلام .. قال :

« بسم الله الرحمن الرحيم .. باسم اله ابراهيم واسحاق ويعقوب ـ اما بعد ـ

فانى ادعوكم الى عبادة الله من عبادة العباد .. وأدعوكم الى ولاية الله من ولاية العباد .. فان أبيتم فالجزية .. فان أبيتم فقد آذنتكم بحرب .. والسلام » .

فلما اتى الاسقف الكتاب وقراه .. فزع وذعر .. وبعث الى رجل من اهل نجران يقال له شرحبيل بن وداعة .. كان من همدان .. فدفع اليه الاسقف كتاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقرأه .. فقال الاسقف : يا أبا مريم ما رأيك ؟ .. فقال شرحبيل : قد علمت ما وعد الله ابراهيم .. فى ذرية اسماعيل من النبوة .. فى النبوة رأى .. لو كان من امر الدنيا .. أشرت عليك فيه برأى .. وجهدت لك فيه .

ثم سأل الاسقف بعده .. عبد الله ابن شرحبيل .. وهو من حمير .. وجبار ابن قيس من بنى الحرث بن كعب .. فكان ردهما عليه كرد شرحبيل بن وداعة .. واجتمع رأيهم على هذا .. فقرروا بعث وفد الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد أن جمع الأسقف أشراف قومه .. من ثلاث وسبعين قرية .

قال ابن اسحاق :

وفد على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفد نصارى نجران بالمدينة .. ودخلوا عليه مسجده بعد العصر .. فحانت صلاتهم .. فقاموا يصلون فى مسجده .. فأراد الناس منعهم .. فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « دعوهم » .

فاستقبلوا المشرق .. فصلوا صلاتهم .

قال ابن اسحاق .. عن كرز بن علقمة :

وفد نصارى نجران ستون راكبا .. منهم اربعة وعشرون رجلا من اشرافهم .. وفيهم ثلاثة نفر .. اليهم يؤول أمرهم :

أولهم : العاقب .. أمير القوم .. وذو رايهم .. وصاحب مشورتهم .. واسمه عبد المسيح .

ثانيهم : ابو حارثة بن علقمة .. اخو بنى بكر ومجتمعهم .. واسمه : الأيهم .

وثالثهم : ابو حارثة بن علقمة .. اخو بنى بكر ابن وائل .. وكان اسقفهم وحبرهم وامامهم .. وصاحب مدارسهم .. وكان ملوك الروم قد شرفوه ومولوه واخدموه ـ وبنوا له الكنائس .. وبسطوا عليه النعمة .. لما علموا من علمه واجتهاده فى دينهم .

فلما توجه الوفد .. ركب اسقفهم ابو حارثة على بغلة له .. والى جنبه اخوه كرز بن علقمة يسايره .. اذ عثرت بغلة أبى حارثة .. فقال له كرز : تعس الابعد .. يريد رسول الله .. ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال له ابو حارثة : بل انت تعست .. فقال : ولم يا اخى ؟

فقال : والله انه النبى الأمى .. الذى كنا ننتظره .. فقال له كرز : فما يمنعك من اتباعه وانت تعلم هذا ؟ .. فقال : يمنعنى ما صنع بنا هؤلاء القوم .. شرفونا ومولونا واكرمونا .. لو فعلت .. نزعوا منا كل ما ترى .. فاضمر عليها اخوه كرز بن علقمة .. حتى أسلم بعد ذلك .

وانطلق الوفد .. حتى بلغوا المدينة .. فوضعوا ثياب السفر عنهم .. ولبسوا حللالهم يجرونها ـ من الحبرة ـ وخواتيم الذهب .. فلم يكلمهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى اشار عليهم على بن ابى طالب ـ كرم الله وجهه ـ بان يضعوا حللهم وخواتيمهم .. ففعلوا .. فرد عليهم ـ عليه السلام ـ وحادثهم .. ودارت بينه وبينهم مناقشات ومساءلات .. حتى قالوا له : ما تقول فى عيسى ؟ .. فاستمهلهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى ياتيه الرد من السماء .. فانزل الله تعالى عليه :

(ان مثلَ عيسىَ عند الله كمثلِ آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ۞ الحق من ربك فلا تكن من الممترين ۞ فمن حاجك فيه من بعدما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ثم نبتهلْ فنجعل لعنة الله على الكاذبين) (١) .

وتلك هى قضية المباهلة .. يجتمع الخصمان .. اذا لم يتفقا على راى .. فيبتهلان الى الله ليصب لعنته على الكاذب منهما .

فعرض ـ عليه السلام ـ على الوفد المباهلة .. فاستمهلوه الى الصباح .

فلما اصبح .. اقبلَ ـ عليه الصلاة والسلام ـ مشتملا على الحسن والحسين .. فى خميل له .. وفاطمة تمشى عند ظهره .. للمباهلة ـ الملاعنة ـ

فقال اسقف نجران : يا معشر النصارى ..

---

(١) ٥٩ ـ ٦١ / آل عمران .

انى لأرى وجوها .. لو شاء الله ان يزيل جبلا من مكانه بها لأزاله .. فلا تباهلوا فتهلكوا .. ولا يبقى على وجه الأرض منا شعرة ولا ظفر الا هلك .

فقال له اصـــحابه : فما الرأى ؟ .. فقد وضعتك الامـور على ذراع .. فهات رأيك .. فقال : رأيى ان احكمه .. فانى ارى رجلا لا يحكم شططا .. فقالوا له : انت وذاك .

فقال للرسول : رأينا ان نترك على دينك .. ونثبت على ديننا .. قال :

« فاذا أبيتم المباهلة فاســلموا .. يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم » .. فابوا ..

قال : « فانى انا جــزكم » ــ احاربكم ــ

فقالوا : ما لنا بحرب العــرب طاقة .. ولكن نصالحك على ان لا تغزونا .. ولا تخيفنـــا .. ولا تردنا عن ديننا .. على ان نؤدى اليك كل عام الفى حلة .. الفا فى صفر .. والفا فى رجب .. وثلاثين درعا ــ عادية ــ من حديد .. فصالحهم على ذلك .. وقال : « والذى نفس بيده .. ان الهلاك قد تدلى على أهل نجران .. ولو لاعنــوا لمسخوا قردة وخنازير .. ولا ضــطرم عليهم الوادى نارا .. ولا ستاصل الله نجران واهله .. حتى الطير على رءوس الشجر .. ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا » .

وكتب لهم كتابا هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ــ من محمد النبى .. الى الاسقف أبى الحارث .. واساقفة نجران وكهنتهم ورهبانهم واهل بيعهم ورقيقهم وملتهم وسواطتهم .. وعلى كل ما تحت أيديهم من قليل وكثير .. جوار الله ورسوله .. لا يغير اســقف من اســقفته .. ولا راهب من رهبانيته .. ولا كاهن من كهانته .. ولا يغير حق من حقوقهم ولا ســلطانهم .. ولا مما كانوا عليه .. على ذلك جوار الله ورسوله أبدا ما نصــحوا واصلحوا غير متقلبين بظلم ولا ظالمين » .

كتبه المغيرة بن شعبة .. وشـــهد عليه ابو سفيان بن حرب .. وغيلان بن عمر .. ومالك ابن عوف .. والاقرع بن حابس الحنظلى .

فلما أخذ الأســقف الكتاب .. استأذن فى الانصراف الى قومه ومن معـــه .. فأذن لهم فانصرفوا .

تلك ثمانية وفود .. اوجزتهـــا للقارىء الكريم .. غير وفــد ثقيف .. وغيرها وفود ووفود .. لا يسمح المقام بذكرها .. فمنها غير ما ذكرنا :

وفد عبد قيس من ربيعة .. ومعهم الجارود بن العلاء .. وكان نصرانيا .. فأســلموا ، ووفد الازد .. ومعهم صرد بن عبـــد الله الازدى .. فاسلموا .. وحسن اسلامهم .. وحاربوا جرش وخثعم .. فقتلوا منهم عددا كبيرا .

ووفد بنى الحرث بن كعب .. ومعهم قيس بن الحصين ــ ذو القصــة ــ

قال لهم ــ عليه الصلاة والسلام ــ بم كنتم تغلبون فى الجاهلية ؟ ..

قالوا : كنا نجتمع ولا نتفرق .. ولانبدأ احدا بظلم .. قال : « صدقتم » .. واسلموا . وقدم وفد همدان .. ومعهم مالك بن النمط .. الذى جاء يرتجز بين يدى رسول الله :

اليك جاوزنا ســواد الريف
فى هبوات الصيف والخريف
مخطمــات بحبـــال الليف

فاسلموا .. وحسن اسلامهم .

كما قــدم وفد مزينة فى أربعمائة رجل .. معهم النعمان بن مقرن .. الذى يقول :

فلما أردنا ان ننصرف .. قال رســول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ :

« يا عمر زود القوم» .. فقال عمر : ما عندى الا شيء من تمر .. ما اظنه يقع من القوم موقعا .. قال : « انطلق فزودهم » قال : فانطلق بنا عمر .. فأدخلنا منزله .. ثم اصعدنا الى علية .. فلما دخلنا فاذا فيها من التمر .. مثل الجمل الاورق .. فاخذ القوم منه حاجتهم .. قال النعمان : فكنت فى آخر من خرج .. فنظرت فما افقد موضع تمرة من مكانها .

كما قدمت وفود اخرى كثيرة .. منها : وفد قضاعة .. وبنى فزارة .. وبنى اسد .. ووفد بهران .. ووفد عذرة .. ووفد بلى .

وهذا الوفد الأخير .. كان فى السنة التاسعة .. وانزلهم رويفع البلوى عنده .. وقدم بهم على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقال : هؤلاء قومى .. فقال له :

« مرحبا بك وبقومك » .. فاسلموا وحسن اسلامهم .. فقال لهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « الحمد لله الذى هداكم للاسلام .. فكل من مات على غير الاسلام فهو فى النار » .. فقال له ابو الضبيب — شيخ الوفد — : يا رسول الله انى رجل لى رغبة فى الضيافة .. فهل لى فى ذلك أجر ؟ .. قال « نعم .. وكل معروف صنعته الى غنى أو فقير فهو صدقة » .

قال : يا رسول الله .. ما وقت الضيافة ؟ .. قال : « ثلاثة أيام .. فما كان بعد ذلك فهو صدقة .. ولا يحل للضيف أن يقيم عندك فيحرجك » .

قال : يا رسول الله .. أرأيت الضالة من الغنم .. أجدها فى فلاة من الأرض ؟

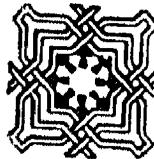
قال : « هى لك أو لأخيك أو للذئب » .. قال : فالبعير ؟ قال : « مالك وله .. دعه حتى يجده صاحبه » .

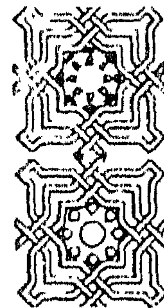
قال رويفع :

ثم قاموا فرجعوا الى منزلى .. فاذا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — اتى منزلى يحمل تمرا .. فقال :

« استعن بهذا التمر » .. وكانوا يأكلون منه ومن غيره .. فاقاموا ثلاثا .. ثم ودعوا رسول الله .. واجازهم .. ورجعوا الى بلادهم .

وكذلك اقبل على المدينة وفد ذى مرة .. ووفد خولان .. ووفد محارب .. ووفد صداء .. ووفد غسان .. وبنى عبس .. وغامد .. وبنى المنتفق .. ووفد النخع .





الوداع .. وليس بوداع

وقال : ((لعلى لا أحج بعد عامى هذا)) وأمر بالتبليغ عنه وأخبر أنه رب مبلغ أوعى من سامع .. وانزل المهاجرين عن يمين القبلة .. والأنصار عن يسارها .. والناس حولهم .. وفتح الله له أسماع الناس .. حتى سمعها أهل منى فى منازلهم قال فيها ((اعبدوا ربكم .. وصوموا شهركم .. واطيعوا اذا امركم .. تدخلوا جنة ربكم)) ..

ثم ودع الناس .. فسميت حجة الوداع . قال عبد الله بن عمر : ما رأيته سئل يومئذ عن شىء الا قال : ((افعلوا ولا حرج)) .

- ٦٠ -

الوداع .. وليس بوداع

عن على بن ابى طالب - كرم الله وجهه - قال .. قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

« من ملك راحلة وزادا يبلغــه الى بيت الله الحرام .. فلم يحج .. فلا عليه أن يموت يهوديا او نصرانيا » .. رواه الترمذى .

ولا خلاف فى ان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يحج بعد الهجرة .. ســـوى حجة الوداع .. سنة عشر من الهجرة .

فقد اعلن - عليه الصلاة والسلام - انه عزم على الحج .. فتجهز الجميع للخـــروج معه .. وسمع بذلك العرب حول المدينة .. فقدموا اليه يريدون الحج .. ووافاه بالطريق خلائق لا تحصى .. فكانوا بين يديه .. ومن خلفه .. وعن يمينه .. وعن شماله مد البصر .

قيل خرج من المدينة تسعون الفا .. خـــلاف من انضم اليهم من اهل اليمن .. واهل مكة .

خرج بعد صلاة الظهر - لست بقين من ذى القعدة سنة عشر .. يسوق الهدى معه .. بعد ان خطبهم خطبة علمهم فيها الاحـــرام وواجباته وسننه .. فنزل بذى الحليفة .. حيث صـــلى العصر ركعتين .. ثم بات بها .. وصلى بهـــا المغرب .. والعشاء .. والصبح .. والظهر .. وكان نساؤه كلهن معه .

ولما كان بسرف .. قال لاصحابه :

« من لم يكن معه هدى .. فأحب ان يجعلها عمرة فليفعل .. ومن كان معه هدى فلا » .

ولما مر - عليه السلام - بوادى عسفان .. قال : « يا ابا بكر .. اى واد هذا » ؟ .. قال : وادى عسفان .. قال : « لقد مر به هود وصالح .. على بكرين احمرين .. خطامهما الليف .. وأزرهما العبء .. وارديتهما النمار .. يلبـــون بالحج .. يحجون البيت العتيق » . رواه احمد .

والنمار : جمع نمرة .. بردة من صوف يلبسها الأعراب .

وفى رواية مسلم .. عن ابن عباس :

لما مر - صلى الله عليه وســـلم - **بوادى الأزرق .. قال : « كانى انظر الى موسى هابطا من الثنية .. واضعا اصبعيه فى اذنيه .. مارا**

بهذا الوادى .. وله جؤار الى الله بالتلبية » .

ووصل هذا الركب الضخم .. مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الى ذى طوى .. ومكانه الآن عند آبار الزاهر .. فبات بها ليلة الاحد .. الرابع من ذى الحجة .. فلما اصبح .. صلى الغداة .. ثم اغتسل — رواه البخارى .

ثم دخل مكة من الثنية العليا .. يقال لها : كداء والحجون .. ودخل المسجد الحرام ضحى من باب عبد مناف .. وهو الآن باب بنى شيبة .. لان باب الكعبة يواجه هذا الباب .

ولما نظر عليه الصلاة والسلام — البيت .. قال :

« اللهم انت السلام .. ومنك السلام .. حينا ربنا بالسلام .. اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة .. وزد من حجه تعظيما وتشريفا وبرا ومهابة » .

ولم يركع — عليه السلام — تحية المسجد .. انما بدأ بالطواف .. لان الطواف تحية البيت .

فلما حاذى الحجر الأسود استلمه .. وسار عن يمينه جاعلا الكعبة عن يساره .. حتى اذا كان بين الركنين قال « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » .. ثم رمل (١) فى طوافه هذا ثلاثة الاشواط .. وكان يسرع مشيه ويقارب بين خطاه .. وهو مضطبع بردائه .. فجعله على احد كتفيه .. وكشف كتفه الآخر ومنكبيه .. وكلما حاذى الحجر الاسود اشار اليه .. واستلمه بمحجنه .

ولما فرغ من الطواف .. اتى خلف المقام .. ثم قال : « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » .. ثم صلى فيه ركعتين .. قرأ فى الاولى : بعد الفاتحة سورة « الكافرون » .. وفى الثانية « الصمد » ثم عاد الى الركن .. واستلم الحجر .. خرج من الباب المقابل للصفا .. فلما قرب منه قال « ان الصفا والمروة من شعائر الله » ابدأ بما بدأ به الله .. ثم رقى عليه .. حتى راى البيت .. فاستقبل القبلة .. ثم وحد الله وكبره قال :

« لا اله الا الله وحده لا شريك له .. له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير .. لا اله الا الله وحده .. انجز وعده .. ونصر عبده .. وهزم الأحزاب وحده » .. ثم نزل الى المروة يمشى .. فلما انتصبت قدماه فى بطن الوادى .. سعى حتى اذا جاوز الوادى وأصعد مشى .. فكان السعى فى كل مرة مشيين فى أول السعى وآخره .. **وهذا هو الصحيح .. كما قال جابر فى الصحيحين .**

ولكنى قرات فى صحيح مسلم .. عن ابى الطفيل .. قال : قلت لابن عباس : اخبرنى عن الطواف بين الصفا والمروة راكبا .. هل الركوب سنة ؟ .. ان قومك يزعمون انه سنة .. قال : صدقوا وكذبوا .. قلت : ما قولك صدقوا وكذبوا ؟ .. قال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم — كثر عليه الناس يقولون : هذا محمد .. حتى خرج عليه العواتق من البيوت .. وكان رسول الله .. لا يضرب الناس بين يديه .. فلما كثروا عليه ركب .. والمشى افضل .

ورويت احاديث كثيرة على انه — عليه السلام — طاف حول البيت على بعيره — ويستلم الحجر بمحجنه ثم يقبله .

ويقول ابن قيم الجوزية : هذا والله اعلم فى طواف الافاضة .. لا فى طواف القدوم .. لان جابرا حكى عنه — الرمل — فى الأشواط الثلاثة الأول .. والهرولة لا تكون الا مع المشى .

وكانت مدة اقامته — صلى الله عليه وسلم — بظاهر مكة .. أربعة أيام .. قبل خروجه الى منى .. وكان يقصر الصلاة فيها .

وفى تلك الاثناء .. وصل الى مكة على بن ابى طالب .. وكان رسول الله قد ارسله الى اليمن ليجمع الصدقات والجزية من نجران .. قبل خروجه الى الحج .. واخبره ان يلحقه بمكة .. فقال له : « بم اهللت يا على » ؟ .. قال : اهللت بما اهل به رسول الله .. فقال : « لولا

(١) الرمل : الهروله

ان معى الهدى لاحللت » . رواه الشيخان .. من حديث انس .

وجاء يوم التروية ـ الثامن من ذى الحجة ـ وكان يوم الخميس .. فركب ضحى هذا اليوم .. وتوجه بالمسلمين الى منى .. وقد احرم بالحج .. ثم مكث قليلا .. حتى طلعت الشمس .. وامر بقبة من شعر .. فضربت له بنمرة ـ مكان من عرفة ـ فلما بلغها نزل بها .. حتى اذا زالت الشمس .. امر بالقصواء فجهزت له .. فركب حتى اتى بطن الوادى من عرفات .. فخطب الناس وهو على راحلته .

قال ابن اسحاق : ثم مضى رسول الله على حجه .. فأمر الناس مناسكهم .. واعلمهم سنن الحج .. وخطب الناس خطبته التى بين فيها ما بين .

فحمد الله .. واثنى عليه .. ثم قال :

« ايها الناس .. اسمعوا قولى .. فانى لا ادرى لعلى لا القاكم .. بعد عامى هذا .. بهذا الموقف ابدا .

ايها الناس .. ان دماءكم واموالكم عليكم حرام الى أن تلقوا ربكم .. كحرمة يومكم هذا .. وكحرمة شهركم هذا .. وانكم ستلقون ربكم .. فيسالكم عن اعمالكم .. وقد بلغت .. فمن كانت عنده امانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها .. وان كل ربا موضوع .. ولكن لكم رءوس اموالكم لا تظلمون ولا تظلمون .. قضى الله انه لا ربا .. وان ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله .. وان كل دم كان فى الجاهلية موضوع .. وان أول دمائكم اضع دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب .. وكان مسترضعا فى بنى ليث .. فقتلته هذيل .. فهو أول دم ابدا به من دماء الجاهلية ـ امابعد ـ ايها الناس .. فان الشيطان قد يئس من ان يعبد بأرضكم هذه ابدا .. ولكنه ان يطع فيما سوى ذلك .. فقد رضى به مما تحقرون من اعمالكم .. فاحذروه على دينكم .

ايها الناس .. انما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما احل الله ..

وان الزمان قد استدار .. كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض .. وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا منها اربعة حرم .. ثلاثة متوالية .. ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان ـ اما بعد .

ايها الناس .. فان لكم على نسائكم حقا .. ولهن عليكم حقا .. لكم عليهن الا يوطئن فراشكم احدا تكرهونه .. وعليهن الا يأتين بفاحشة مبينة .. فان فعلن فان الله اذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع .. وتضربوهن ضربا غير مبرح .. فان انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف .. واستوصوا بالنساء خيرا .. فانهن عندكم عوان .. لا يملكن لانفسهن شيئا .. وانكم اخذتموهن بأمانة الله .. واستحللتم فروجهن بكلمات الله .. فاعقلوا ايها الناس قولى .. فانى قد بلغت .. وقد تركت فيكم ما ان اعتصمتم به فلن تضلوا ابدا .. امرا بينا .. كتاب الله وسنة نبيه .

ايها الناس .. اسمعوا قولى واعقلوا .. تعلمن أن كل مسلم اخ للمسلم .. وان المسلمين اخوة .. فلا يحل لا مرىء من اخيه الا ما اعطاه عن طيب نفس منه .. فلا تظلمن انفسكم .

اللهم هل بلغت ؟ ... » .

يقول ابن اسحاق : فذكر لى ان الناس قالوا : نعم .. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ « اللهم اشهد » ـ ا هـ ـ

ثم انزل الله عليه :

(اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا) (١) .

---

(١) ٣ ـ المائدة .

خطب الناس خطبة واحدة .. ولم تكن خطبتين جلس بينهما .. فلما اتمهما .. أمر بلالا فأذن .. ثم اقام الصلاة .. فصلى الظهر ركعتين .. اسر فيهما بالقراءة .. وكان يوم الجمعة .. فدل هذا على ان المسافر ليست عليه جمعة .. ثم اقام للصلاة فصلى العصر ركعتين ايضا .. ومعه اهل مكة .. وصلوا بصلاته قصرا وجمعا بلا ريب .

ولم يامرهم — عليه السلام — بالاتمام .. ولا بترك الجمعة .

وقد ادعى البعض ان رسول الله صلى الله عليه وسلم — قال لهم : « اتموا صلاتكم فانا على سفر » .

قال ابن قيم الجوزية .. انه قال لهم ذلك يوم الفتح بجوف مكة .. حيث كانوا فى ديارهم مقيمين .

واخذ بعضهم من هذا ان سفر القصر لا يتحدد بمسافة معلومة .. ولا ايام معلومة فلما فرغ — عليه الصلاة والسلام — من صلاته .. ركب حتى اتى الموقف .. واستقبل القبلة .. ودعا به .. وتواتر من دعواته فى عرفة .. ماروا‌ه الطبرانى .. من حديث ابن عباس : « اللهم انك تسمع كلامى .. وترى مكانى .. وتعلم سرى وعلانيتى .. لا يخفى عليك شئ من أمرى .. انا البائس الفقير .. المستغيث المستجير .. والوجل المشفق .. المقر المعترف بذنوبه .. اسالك مسالة المسكين .. وابتهل اليك ابتهال المذنب الذليل .. وادعوك دعاء الخائف الضرير .. من خضعت لك رقبته .. وفاضت لك عبرته .. وذل لك جسمه .. ورغم لك انفه .. اللهم لا تجعلنى بدعائك رب شقيا .. وكن بى رءوفا رحيما .. يا خير المسئولين .. ويا خير المعطين » .

وقد جاءه — عليه السلام — ناس من نجد — وهو بعرفة — فسالوه : كيف الحج ؟ .. فامر مناديا ينادى « الحج عرفة .. من ادرك قبل صلاة الصبح .. فقد ادرك الحج .. ايام منى ثلاثة ايام التشريق .. فمن تعجل فى يومين فلا اثم عليه .. ومن تاخر فلا اثم عليه » .

ثم وقف بعرفة .. وقال : « وقفت ههنا .. وعرفة كلها موقف » .

ولما غربت الشمس .. بحيث ظهرت صفرتها قليلا .. بعد غياب القرص .. افاض — صلى الله عليه وسلم — من عرفة .. واردف خلفه اسامة بن زيد .. وقد ضم اليه زمام ناقته .. حتى ان راسها ليصيب مورك رجله .. ويقول بيده اليمنى : « ايها الناس .. السكينة السكينة » حتى نزل بالمزدلفة .. فصلى بها المغرب والعشاء .. كل واحدة منها باقامة .. ولم يقم الليل فى تلك الليلة .. بل نام حتى اصبح .

وقد قرات حديثا .. عن عباس بن مرداس : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم — دعا لأمته عشية عرفة بالمغفرة .. فاجيب : انى قد غفرت لهم .. ماخلا الظالم .. فانى آخذ للمظلوم منه .. قال « اى رب ان شئت اعطيت المظلوم من الجنة .. وغفرت للظالم » .. فلم يجب عشيته .. فلما اصبح بالمزدلفة .. اعاد الدعاء .. فاجيب الى ما سال .. قال .. فضحك — عليه السلام — أو قال : ابتسم .. فقال ابو بكر وعمر : ما الذى اضحكك يا رسول الله ..

قال : ان عدو الله ابليس .. لما علم ان الله قد استجاب دعائى .. وغفر لأمتى .. اخذ التراب .. فجعل يحثوه على راسه .. ويدعو بالويل والثبور .. فاضحكنى ما رايت من جزعه .

رواه ابن ماجه وأبو داود .

وجاء فى بعض الروايات .. ان المراد من الأمة .. من وقف بعرفة .

كما قال الطبرى : انه محمول بالنسبة الى الظالم .. على من تاب وعجز عن وفائه .

وقال الترمذى .. فى الحديث الصحيح :

« من حج فلم يرفث ولم يفسق .. خرج من ذنوبه كيوم ولدته امه » .

وهو مخصوص بالمعاصى المتعلقة بحقوق الله تعالى خاصة .. دون حقوق العباد

وفى الصباح غداة يوم النحـــر .. طلب من الفضل بن العباس .. ان يلتقط له حصـــيات الرمى .. سبع حصيات لكل رمية .. ولا يجوز ان يكسر الحصى من الصـــخر .. وانما يلتقط الحصى الرفيع .. فالتقط له الفضـــل سـبع حصيات .. فجعل ينفضهن فى كفه .. ويقول : « امثال هؤلاء فارموا .. واياكم الغلو فى الدين .. فانما اهلك من كان قبلكم الغلو فى الدين »

وفى طريقه ــ عليـه السلام ــ الى منى .. عرضت له امراة جميلة من خثعم .. فســألته عن الحج عن ابيهـــا .. لانه شـيخ كبير .. لا يستمسك على راحلته .. فأمرها أن تحج عنه .. وجعل الفضل ينظر اليها .. وهى تنظر اليه .. فوضع ــ عليه السلام ــ يده على وجه الفضل .. وصرفه الى الشق الآخر .. وكان الفضل وسـيما .

قالوا : صرف وجهه عن نظرها اليه .. وقيل صرفه عن نظره اليها .. والحقيقـــة انه فعل هذا للأمرين .. لأن فى القصة « جعل ينظر اليها وتنظر اليه » .

وفى رواية لجابر : فلما اتى ــ صلى الله عليه وسلم ــ الى بطن محسر .. حرك ناقته واسرع السير .. لأن محسر موضع بين المزدلفة ومنى .. وهو المكان الذى نزل فيه العذاب على أصـحاب الفيل .

ولم يزل رسول الله يلبى .. حتى رمى جمرة العقبة .. ثم سلك الطريق الوسـطى .. التى تخرج على الجمرة الكبرى .. حتى اتاها .. فرمى بسبع حصـيات .. يكبر مع كل حصـاة رماها .

ثم انصرف ــ عليه السلام ــ الى المنحر .. فنحر ثلاثا وسـتين بدنة .. ثم اعطى عليا .. فنحر ما بقى واشركه فى هديه .. نحر رسـول الله عدد سنين عمره .. ثم امسك .

قال فى عرفة « كل عرفة موقف » .. وقال فى المزدلفـة « كل المزدلفة موقف » .. ثم لما نحر بالمنحر بمنى قال « كل منى منحر » .

ولما عاد الى منزله بمنى .. دعا بالحلاق فحلق راسه .

ثم ركب الى مكة ظهر يوم النحر .. فطاف طواف الافاضة .. ولم يسع معه .. ثم اتى زمزم بعد طوافه وهم يسقون .. فقـــال : « اولا ان يغلبكم الناس لنزلت فسـقيت معكم » ثم ناولوه الدلو .. فشرب وهو قائم .. ثم عاد الى منى فبات بها .

وفى ظهر اليـــوم الثانى .. مشى حتى رمى الجمرات الثلاث .. وهكـذا فى اليوم الثالث .. حيث بقى بمنى ليالى التشريق .

وقد خطب الناس فى منى خطبة .. اعلمهم فيها بحرمة يوم النحر وتحريمه وفضله عند الله .. وحرمة مكة .. وأمر بالســمع والطاعة لمن قادهم بكتاب الله .. وقال :

« لعلى لا احج بعد عامى هذا » .. وعلمهم مناسكهم .. وانزل المهاجرين والأنصار منازلهم .. وامر الناس الا يرجعوا بعده كفارا .. يضرب بعضهم رقاب بعض .. وامر بالتبليـغ عنه .. واخبر انه رب مبلغ اوعى من سـامع .. وانزل المهاجرين عن يمين القبلة .. والانصار عن يسارها .. والناس حولهم .. وفتح الله له اسماع الناس .. حتى سمعها اهـل منى فى منازلهم .. قال فيها :

« اعبدوا ربكم .. وصلوا خمســكم .. وصـوموا شهركم .. واطيعـوا اذا امركم .. تدخلوا جنة ربكم » .

ثم ودع الناس .. فسميت حجة الوداع .

وسئل عمن حلق قبل أن يرمى الجمرات .. وعمن ذبح قبل أن يرمى .. فكان يقـــول : « لا حرج » .

قال عبد الله بن عمر : ما رايته سئل يومئذ عن شيء الا قال : « افعلوا ولا حرج » .

وقال ابن عبـــاس : انه قيــل له فى الذبح والحلق والرمى .. والتقديم والتأخير ..

قال : « لا حرج » .

ثم أفاض — صلى الله عليه وسلم — ظهر يوم الثلاثاء من منى .

فعن أنس :

« أن النبى — صلى الله عليه وسلم — صلى الظهر والعصر .. والمغرب والعشاء .. ثم رقد رقدة بالمحصب .. ثم ركب الى البيت .. وطاف به طواف الوداع » رواه البخارى .

ثم ارتحل — عليه السلام — راجعا الى المدينة .. فخرج من كدى .. حتى اذا وصل ذى الحليفة بات بها .. لئلا يدخل المدينة ليلا .. فلما راى المدينة .. كبر ثلاثا .. وقال « لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير آيبون تائبون عابدون .. ساجدون لربنا حامدون .. صدق الله وعده .. ونصر عبده .. واعز جنده .. وهزم الأحزاب وحده » .

ثم دخل المدينة نهارا .. عن طريق المعرس .. وهو مكان معروف .. وهو الشجرة التى بات تحتها فى ذهابه الى مكة .. على ستة اميال .. من المدينة .



إلى الرفيق الأعلى

نعم طاشت العقول .. فمنهم من خبل .. ومنهم من أقعد فلم يطق القيام .. ومنهم من أخرس فلم يستطع الكلام .. ومنهم من أضنى .

اخبل عمر .. واخرس عثمان .. واقعد على .. واضنى عبد الله بن أنيس فمات كمدا ..

وكان اثبتهم أبو بكر الصديق .. رضى الله عنهم جميعا .

— ٦١ —
الى الرفيق الأعلى

روى الطبرانى عن ابن عباس قال : لما نزلت (اذا جاء نصر الله والفتح) نعيت الى رسول الله نفسه .. فاخذ باشــــد ما كان قط اجتهادا فى الآخـــــرة .

وهذه السورة ((ســورة النصر)) هى آخر سورة نزلت من القــرآن الكريم .. نزلت يوم النحر فى منى .. فى حجة الوداع .

وللطبرانى من حديث جابر : لما نزلت هــذه السورة .. قال النبى — صلى الله عليه وسلم — لجبريل « نعيت الى نفسى » فقال له جبريل — عليه السلام —

(وللآخرة خير لك من الأولى) .

وعاد — عليه الصلاة والسلام — الى المدينــة بعد حجة الوداع .. فأكثر من العبادة استعدادا للقاء الله .

يقول ابن رجب .. فى كتــاب — اللطائف — : انه — عليه السلام — تعبد حتى صار كالشــــن البالى (1) .

وتقول ام سلمة — رضى الله عنها — كان — عليه السلام — فى آخر امره .. لا يقوم ولا يقعد .. ولا يذهب ولا يجيىء .. الا قال « سبحان الله وبحمده أستغفر الله واتوب اليه » فقلت له : انك تدعو الله بدعاء لم تكن تدعو به من قبل .. فقال « ان ربى اخبرنى انى سأرى علما فى امتى .. وانى اذا رايته اســبح بحمــده واستغفره » ثم تلا (اذا جاء نصر الله والفتح ...) الى آخر السورة .

رواه ابن جرير .. وغيره .

عاد رسول الله — صــلى الله عليه وسلم — بعد حجة الوداع الى المدينة .. فاقام بها بقية ذى الحجة والمحرم .. وفى آخر صفر من العام الحادى عشر .. امــر بتجهيز الجيش .. ليبعثــه الى الشام .. وامر عليهم أسامة بن زيد — مولاه — وامره ان يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم .. من ارض فلسطين .. حيث قتل أبوه زيد ابن

---

(1) القربة القديمة .

حارثة .. وهى آخر سرية أمر رسـول الله بتجهيزها .

وتجهز الناس.. فعسكر بهم اسامة بالجرف .. وانضم اليهم المهاجرون والأنصار .. منهم ابو بكر وعمر — رضى الله عنهما — والجرف على مسافة فرسخ من المدينة .

وفى الوقت نفسه .. بدأ مرض رسول الله — صلى الله عليه وسـلم — وكان فى بيت زوجته ميمونه .. ولما اشتد مرضه .. استأذن زوجاته .. فى أن يمرض فى بيت عائشة ..

وقال : « مازلت اجد ألم الطعام الذى اكلت فى خيبر » .

وكانت مدة مرضـه ثلاثة عشر يوما .. فى اغلب آراء الرواة .

وفى البخارى .. قالت عائشـة — رضى الله عنها :

« لما ثقل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — واشتد به وجعه.. استأذن أزواجه أن يمرض فى بيتى — فأذن له — فخرج وهـو بين رجلين .. تخط رجلاه فى الأرض..بين العباس بن عبدالمطلب وبين رجل آخر — تعنى على بن ابى طالب — ولم تصرح عائشة باسم على لشىء فى نفسها منه .. من يوم حـديث الافك .. لما قال لرسول الله : النساء غيرها كثير .

واستبطأ رسول الله الناس .. فى الخروج مع اسامة .. وهو فى مرضـه .. فخرج عاصبا راسـه .. حتى جلس على المنبر .. وقد كان الناس قالوا فى امرة اسامة : امر غلاما حدثا على جلة المهاجرين والانصـار .. وكان اسامة فى العشرين من عمره .

فحمد الله واثنى عليـه بما هو أهله .. ثم اشـتدت الحمى برسـول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

« هريقوا على سبع قرب من آبار شقى .. فلعمرى لئن قلتم فى امارته .. لقد قلتم فى امارة أبيه من قبل .. وانه لخليق للامارة .. وان كان أبوه لخليقالها « .

« هو يقوا على سبع قرب من آبار شقى .. حتى اخرج الى الناس .. فاعهد اليهم .

تقول عائشة : « فاقعـدناه فى مخضب (١) لحفصة بنت عمر .. ثم صببنا عليه الماء .. حتى طفق يقول : حسبكم حسبكم .

ثم خرج عاصبا رأسه .. حتى جلس على اسفل مرقاة للمنبر .. فكان اول ما تكلم به أنه — صلى الله عليه وسلم — صلى على اصـحاب احد .. واستغفر لهم .. فاكثر الصلاة عليهم .. ثم قال .. كما روى الشيخان من حديث ابى سعيد الخدرى .. ان رسول الله قال .. وهو جالس على المنبر :

« أن عبدا خـيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء .. وبين ما عنـده .. فاختار ما عنده »

فبكى أبو بكر .. وقال : يا رسـول الله .. فديناك بآبائنا وامهاتنا .

قال : فعجبنا له .. وقال الناس : انظروا الى هـذا الشيخ .. يخبر رسـول الله عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده .. وهو يقول :

فديناك بآبائنا وامهاتنا . !!!

قال : فكان — عليه السلام — هو المخير .. وكان أبو بكر أعلمنا به .

فقال النبى — صلى الله عليه وسلم — : « ان امن الناس على فى صحبته وماله أبو بكر .. ولو

---

(١) اناء يغتسل فيه .

كنت متخذا من أهل الارض خليلا .. لاتخذت ابا بكر خليلا .. ولكن اخوة الاسلام .. لا يبقين فى المسجد خوخة الا خوخة ابى بكر »

وقال فى خطبته تلك :

« أيها الناس .. بلغنى انكم تخافون من موت نبيكم .. هل خلد نبى قبلى فيمن بعث اليه .. فاخلد فيكم ؟ .. الا وانى لاحق بربى .. الا وانكم لاحقون بى .. فاوصيكم بالمهاجرين الأولين خيرا .. واوصى المهاجرين فيما بينهم .. فان الله تعالى يقول :

(والعصر ان الانسان لفى خسر * الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) (١) ..

وان الأمور تجرى باذن الله تعالى ..

فلا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله .. فان الله - عز وجل - لا يعجل بعجلة أحدكم .. ومن غالب الله غلبه .. ومن خادع الله خدعه :

(فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا ارحامكم) (٢) .

واوصيكم بالأنصار خيرا .. فانهم الذين تبوءوا الدار والايمان من قبلكم .. ان تحسنوا اليهم .. الم يشاطروكم فى الثمار ؟ .. الم يوسعوا لكم فى الديار ؟ .. الم يؤثروكم على انفسهم وبهم الخصاصة ؟ .. الا فمن ولى ان يحكم بين رجلين .. فليقبل من محسنهم .. وليتجاوز عن مسيئهم .. الا ولا تستاثروا عليهم .. الا وانى فرط لكم .. وانتم لاحقون بى .. الا وان موعدكم الحوض .. الا فمن احب أن يرده على غدا فليكفف يده ولسانه الا فيما ينبغى .

يا يها الناس .. ان الذنوب تغير النعم .. وتبدل القسم .. فاذا بر الناس برهم ائمتهم .. واذا فجروا عقوهم » .

فكانت هذه آخر خطبة خطبها .

يقول الرواة : ثم انه هبط عن المنبر .. فما رؤى عليه حتى الساعة .

ولما تعذر عليه الخروج .. قال : « مروا ابا بكر فليصل بالناس » .

قالت عائشة .. قلت : يا نبى الله ان ابا بكر رجل رقيق .. ضعيف الصوت .. كثير البكاء اذا قرأ القرآن .. قال : « فمروه فليصل بالناس » .

قالت : فعدت بمثل قولى .. فقال : « انكن صواحبات يوسف .. مروا أبا بكر فليصل بالناس » .

رواه الشيخان .

قالت عائشة : - رضى الله عنها - فوالله ما اقول ذلك .. الا انى كنت احب ان يصرف ذلك عن ابى بكر .. وعرفت ان الناس لا يحبون رجلا قام مقام رسول الله .. وان الناس سيتشاءمون به فى كل حدث كان .. فكنت احب ان يصرف ذلك عن ابى بكر .

وصلى أبو بكر بالناس .. سبع عشرة صلاة .. اولاها : عشاء الجمعة .. وآخرها صبح الاثنين .

وفى تقديم ابى بكر الصلاة .. اشارة الى خلافته بعده .. حيث قال المسلمون :

ان النبى رضيه لديننا .. افلا نرضاه لدنيانا ؟

وروى ان النبى - صلى الله عليه وسلم - كان عنده فى مرضه .. سبعة دنانير .. فكان يامرهم بالصدقة بها .. ثم يغمى عليه ..

---

(١) سورة العصر .

(٢) ١٢ - محمد .

فيشتغلون بوجعه .. فدعا بها .. فوضعها فى كفه وقال . « ما ظن محمد بربه .. لو لقى الله وعنده هذه » .. ثم تصدق بها كلها .

رواه البيهقي .

وروى البخارى .. عن عائشة .. قالت :

« دعا النبى ــ عليه السلام ــ فاطمة فى شكواه الذى قبض فيه .. فسارها بشىء فبكت .. ثم دعاها فسارها فضحكت .. فسألناها عن ذلك .. فقالت : سارنى النبى انه يقبض فى وجعه هذا فبكيت .. ثم سارنى فاخبرنى انى اول اهله يتبعه فضحكت » .

وفى رواية اخرى عنها ــ رواها مسروق ــ قالت : ما رايت كاليوم فرحا اقرب من حزن .. فسالتها عن ذلك فقالت : ما كنت لأفشى سر رسول الله .. قال : ان جبريل كان يعارضنى القرآن الكريم كل سنة مرة .. وانه عارضنى هذا العام مرتين .. ولا اراه حضر اجلى .. وانك اول اهل بيتى لحاقا بى » .

كانت فاطمة الزهراء ــ رضى الله عنها ــ احب الناس الى قلب رسول الله .

روى ابو داود وغيره عن عائشة ايضا .. قالت :

« ما رايت احدا اشبه سمتا وهديا ودلا برسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى قيامها وقعودها من فاطمة » .

والدل هنا : السكينة والوقار وحسن السيرة والطريقة .. واستقامة المنظر والهيبة . وكانت اذا دخلت على النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ قام اليها وقبلها .. واجلسها فى مجلسه .. فلما مرض دخلت عليه .. فاكبت عليه وقبلته .

وصدقت نبوءة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم عن فاطمة .. فكانت هى أول من مات من اهل بيته بعده .

كما روى البخارى .. أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لما تغشاه الكرب .. قالت فاطمة : واكرب أبتاه .. فقال ــ عليه السلام ــ « لا كرب على ابيك بعد اليوم » .

كما كان على رسول الله خميصة سوداء .. حين اشتد به وجعه .. فهو يضعها مرة على وجهه .. ومرة يكشفها عنه ويقول :

« قاتل الله قوما اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر من ذلك أمته .

وفى يوم الأحد .. اشتد المرض برسول الله .. فنزل أسامة من معسكره .. ليعود رسول الله .. فدخل عليه وهو مغمور .. فطاطا اسامه فقبله .. ورسول الله لا يتكلم .. فجعل يرفع يديه الى السماء .. ثم يضعهما على أسامة .. قال اسامة : فعرفت أنه يدعو لى .. فرجع اسامة الى معسكره .

وجاء فجر الاثنين ١٢ من ربيع الأول سنة ١١ هـ ــ الموافق ٧ يونيو سنة ٦٣٢ م .. وحان وقت صعود روحه الشريفة الى الرفيق الأعلى .

ذكر البخارى من حديث أنس :

« أن المسلمين بينما هم فى صلاة الفجر يوم الاثنين .. وأبو بكر يصلى بهم .. لم يفجأهم الا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قد كشف حجرة عائشة .. فنظر اليهم وهم فى صفوف الصلاة .. قال انس : وهم المسلمون ان يفتتنوا فى صلاتهم .. فرحا برسول الله .. فأشار اليهم بيده .. ان اتموا صلاتكم .. ثم دخل الحجرة وارخى الستر » .

تقول عائشة : وما رايت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ احسن هيئة منه تلك الساعة

.. ثم رجع وانصرف الناس .. وهم يرون ان رسول الله قد برىء من مرضه .. فرجع ابو بكر الى أهله .

قالت عائشة ــ رضى الله عنها ــ رجع رسول الله فى ذلك اليوم حين دخل من المسجد .. فاضطجع فى حجرى .. فدخل على رجل .. من آل أبى بكر .. وفى يده سواك اخضر .. فنظر رسول الله اليه نظرا عرفت انه يريده .. .. واضنى عبد الله بن انيس فمات كمدا .

فقلت يا رسول الله .. اتحب ان اعطيك هذا السواك ؟ .. قال : نعم .. فاخذته .. فمضغته له حتى لينته .. ثم اعطيته اياه .. فاستن به كاشد ما رايته يستن بسواك قط .. ثم وضعه ..

ووجدت رسول الله يثقل فى حجرى .. فذهبت انظر فى وجهه .. فاذا بصره قد شخص .. وهو يقول : بل الرفيق الأعلى من الجنة .. فقلت : خيرت فاخترته .. والذى بعثك بالحق .

قالت : وقبض رسول الله .. بين سحرى ونحرى .. فوضعت راسه على وسادة .. وقمت التدم مع النساء .. واضرب وجهى » .

والسحر : هو الصدر .. فكانت راسه بين عنقها وصدرها .

يقول الواقدى : ان اول كلمة تكلم بها النبى .. وهو مسترضع عند حليمة : الله اكبر .. وآخر كلمة تكلم بها : **الرفيق الأعلى .**

ولما توفى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ طاشت العقول .. واضطربت الافكار .. فقام عمر بن الخطاب .. مشهرا سيفه .. فقال : ان رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله .. قد توفى .. وان رسول الله والله ما مات .. ولكنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى بن عمران .. فقد غاب عن قومه اربعين ليلة .. ثم رجع اليهم .. بعد أن قيل قد مات .. والله ليرجعن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ كما رجع موسى .. فليقطعن ايدى رجال وارجلهم .. زعموا ان رسول الله مات .

نعم .. طاشت عقول المسلمين .. فمنهم من خبل .. ومنهم من أقعد فلم يطق القيام .. ومنهم من أخرس فلم يستطع الكلام .. ومنهم من اضنى .

فكان عمر ممن اخبل .. فقال ما قال .. وكان عثمان ممن أخرس يذهب ويجىء ولا يستطيع كلاما .. وكان على ممن أقعد فلم يستطع حراكا .. واضنى عبد الله بن انيس فمات كمدا .

وكان اثبتهم ابو بكر الصديق .. لما بلغه الخبر .. جاء وعيناه تهملان .. وزفراته تتردد .. وغصصه تتصاعد وترتفع .. فدخل على النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فاكب عليه وكشف الثوب عن وجهه .. وقبل جبهته .. وقال : طبت حيا وميتا .. وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموت احد من الانبياء .. فعظمت عن الصفة .. وجللت عن البكاء .. ولو ان موتك كان اختيارا لجدنا لموتك بالنفوس .. اذكرنا يا محمد عند ربك .

وروى البخارى والطبرانى : لما توفى رسول الله .. قالت فاطمة :

يا أبتاه .. اجاب ربا دعاه .. يا أبتاه .. من جنة الفردوس مأواه .. يا أبتاه .. من الى جبريل ننعاه .

وقد عاشت فاطمة ــ رضى الله عنها ــ بعده ستة أشهر .. فما ضحكت تلك المدة .

ثم خرج ابو بكر على الناس .. وعمر مازال يحلف على عدم موت النبى .. فقال :

ايها الحالف على رسلك .. فلما تكلم ابو بكر .. جلس عمر .

فحمد الله .. واثنى عليه .. ثم قال : « الا من كان يعبد محمدا .. فان محمدا قد مات .. ومن كان يعبد الله .. فان الله حى لا يموت » .. ثم تلا قوله تعالى :

(انك ميت وانهم ميتون) (١) .. وقوله : (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات او قتل انقلبتم على اعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا) (٢) .. فنشج الناس يبكون . رواه البخارى .

فكان اشد الناس جزعا عمر .. فلما سمع قول ابى بكر .. قال : فوالله لكأنى لم أتل تلك الاية قط .

وهذا دليل قوى .. على شجاعة أبى بكر وحكمته .. ورباطة جاشه عند الكرب .. وضبط نفسه .. لأن الشجاعة هى الثبات عند حلول المصائب .. ولا مصيبة أعظم من موت رسول الله — صلى الله عليه وسلم —

وكان بلال يؤذن قبل دفنه — عليه السلام — فاذا قال : أشهد الا اله الا الله .. وأشهد ان محمدا رسول الله — ارتج المسجد بالبكاء والنحيب .

وقد ترك بلال الاذان بعد دفنه — عليه السلام —

ولما ارادوا غسل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — اختلفوا فيه :

فقالوا : والله ما ندرى .. أنجرد رسول الله من ثيابه .. كما نجرد موتانا ؟ .

فالقى الله عليهم النوم .. حتى ما منهم من رجل الا ذقنه فى صدره .. ثم كلمهم هاتف من ناحية البيت .. لا يدرون من هو .. ان اغسلوه فى ثيابه .

فاسنده على بن ابى طالب الى صدره .. وكان العباس بن عبد المطلب .. والفضل ابن العباس .. وقثم بن العباس .. يقلبونه معه .. وكان أسامة بن زيد .. وشقران مولى رسول الله هما اللذان يصبان الماء عليه .. وعلى يغسله .. قد اسنده الى صدره .. وعليه قميصه يدلكه به من ورائه لا يفضى بيده الى رسول الله — عليه الصلاة والسلام — ويقول : بابى انت وامى يا رسول الله .. ما اطيبك حيا وميتا .

وكان ماء الغسل من بئر غرس التى بقباء . **ولم ير من رسول الله — صلى الله عليه وسلم** — شىء مما يرى من الميت .

ثم كفنوه فى ثلاثة أثواب : ثوبين صحاريين (١) .. وبرد حبره .. ادرج فيها ادراجا .. كانت كلها بيضاء من القطن .. ليس فيها قميص ولا عمامة .. وفرشت عليه قطيفة كان يلبسها .. ويفترشها .

فلما فرغوا من جهازه .. وضع على سريره فى بيته .. ثم دخل الناس عليه أفواجا .. يصلون عليه .. صلى عليه الرجال .. حتى اذا فرغوا ادخلوا النساء .. حتى اذا فرغ النساء ادخلوا الصبيان .. ولم يؤم الناس على رسول الله احد .

ثم اختلفوا فى مكان قبره .. فقال قائل : ندفنه فى مسجده .. وقال آخر : ندفنه مع اصحابه .. فقال ابو بكر : لقد سمعته — عليه الصلاة والسلام — يقول :

« ما قبض نبى الا دفن حيث قبض » .. وقال على : « سمعت منه ذلك أيضا » .

---

(١) ٣٠ — الزمر .

(٢) ١٤٤ — آل عمران .

(٣) نسبة الى صحارى (بضم الصاد) بلد باليمن .

فرفع فراشه الذى توفى عليه .. ثم حفر له تحته .. وباشر الحفر ابو طلحة زيد بن سهل الانصارى .. حفر له لحدا فى موضع فراشه .. حيث قبض .

ونزل فى قبره الشريف عمه العباس وعلى والفضل وقثم ابنا العباس .. ورش بلال قبره الشريف بقربة ماء من قبل راسه .. وجعلوا عليه من الحصباء حمراء وبيضاء .. ورفع قبره عن الارض قدر شبر .

توفى — عليه الصلاة والسلام — يوم الاثنين .. فى شهر ربيع الأول بلا خلاف .. فى مثل اليوم الذى دخل فيه المدينة مهاجرا .. وهو نفس اليوم الذى ولد فيه بمكة .. ودفن يوم الثلاثاء .. ليلة الأربعاء .. فكانت حياته يوما واحدا من ايام دنيانا .. وكانت سنة يوم ذاك ثلاثا وستين سنة قمرية .

توفى ودرعه مرهونة عند يهودى فى نفقة عياله .. وما ترك دينارا ولا درهما .. ولا شاة ولا بعيرا .

تقول عائشة — رضى الله عنها — « مات وما فى بيتنا شىء ياكله ذو كبد .. الا شطر شعير فى رف لى .. فاكلت منه حتى طال على .. فاكلته ففنى .. فياليتنى لم آكله » .

توفى ولم يشبع هو ولا اهله من خبز الشعير .. وما ترك الا سلاحه وبغلته وارضا جعلها لابن السبيل صدقة .

وكان المغيرة بن شعبة يقول :

انه احدث الناس عهدا برسول الله — عليه السلام — فيقول : اخذت خاتمى فألقيته فى القبر .. وقلت ان خاتمى سقط منى .. وانما طرحته عمدا .. لامس رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فاكون احدث الناس عهدا به .

اما حالة المسلمين بعد وفاته — عليه السلام — فقد بلغت غايتها من الاضطراب .. المزوج بالأسى والحزن .

فقد اخرج ابن عساكر .. عن ابى ذؤيب الهذلى .. قال :

بلغنا ان النبى — صلى الله عليه وسلم — عليل .. فاوجس اهل الحى خيفة .. وبت بليلة طويلة .. حتى اذا كان قرب السحر .. نمت فهتف بى هاتف .. وهو يقول :

خطب اجل اناخ بالاسلام
بين النخيل ومقعد الآطام
قبض النبى محمد فعيوننا
تبدى الدموع عليه بالتسجام

فوثبت من نومى فزعا .. فعلمت ان النبى قبض .. وانه الآن ميت .. فقدمت المدينة ولاهلها ضجيج بالبكاء كضجيج الحجيج اذا اهلوا بالاحرام .. فقلت ماذا ؟ فقيل قبض رسول الله .

وجاءت فاطمة بعد دفنه .. فقالت : كيف طابت نفوسكم ان تحثوا على رسول الله التراب .. واخذت من تراب القبر الشريف .. ووضعته على عينيها .. وانشات تقول :

ماذا على من شم تربة احمد
الا يشم مدى الزمان غواليا
صبت على مصائب لو انها
صبت على الأيام عدن لياليا

وفى رواية الدارمى .. قال انس :

ما رأيت يوما كان احسن ولا اضوا من يوم دخل علينا فيه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — المدينة .. وما رأيت يوما كان اقبح ولا اظلم من يوم مات فيه رسول الله .

وفى رواية الترمذى — عنه ايضا :

لما كان اليوم الذى دخل فيه رسول الله المدينة .. اضاء منها كل شىء .. فلما كان اليوم الذى مات فيه اظلم منها كل شىء .. وما نفضنا ايدينا من التراب .. وانا لفى دفنه .. حتى انكرنا قلوبنا .

وقد رثاه ابو بكر .. بقصيدة منها :

يا عين فابكى ولا تسـامى
وحق البكاء على السـيد
وصلى المليك ولى العباد
ورب البـلاد على احمد
فكيف الحياه لفقد الحبيب
وزين المعاشر فى المشهد
فليت المـمات لنـا كلنا
وكنا جميعـا مع المهتدى

كما رثاه شعرا .. كعب بن مالك واروى بنت عبد المطلب .. وعاتكة بنت المطلب .. وصفية .. وهند بنت الحارث .. وحسان بن ثابت وغيرهم .

ومما قال حسـان :

كنت السواد لناظرى
فعمى عليك النـاظر
من شاء بعدك فليمت
فعليـك كنت احـاذر

اما عمر بن الخطاب .. فقال وهو يبكى :

بابى انت وامى يارسول الله .. لقد كان لك جذع تخطب الناس عليه .. فلما كثروا اتخذت منبرا لتسمعهم .. فحن الجذع لفراقك .. حتى جعلت يدك عليه فسكن .. فأمتك اولى بالحنين عليك حين فارقتهم .

بابى انت وامى يارسول الله .. لقد بلغ من فضيلتك عند ربك .. ان جعل طاعتك طاعتـه .. فقال « من يطع الرسول فقد اطاع الله » (١) .

بابى انت وامى يارسول الله .. لقد بلغ من فضيلتك عنده .. ان بعثك آخر الانبياء .. وذكرك فى اولهم .. **فقال تعالى :**

« واذ اخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم » (٢) .

بابى انت وامى يارسول الله .. لقد بلغ من فضيلتك عنده .. ان اهل النار يودون ان يكونوا اطاعوك .. وهم فى اطباقها يعذبون .. يقولون :

« ليتنا اطعنا الله واطعنا الرسول » (٣) .

وروى ابو داود والحاكم .. من طريق القاسم ابن محمد بن ابى بكر قال :

دخلت على ام المؤمنين – عائشة – فقلت : يا امه .. اكشفى لى عن قبر النبى – صلى الله عليه وسلم – فكشفت لى عن ثلاثة قبور .. لا مشرفة ولا لاطئة .. مبطوحة ببطحاء العرصة الحمراء » .

وزاد الحاكم « فرايت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مقدما .. وابو بكر راسه بين كتفى النبى .. وعمر راسه عند رجلى النبى – صلى الله عليه وسلم – وكان هذا فى خلافة معاوية .

كانت القبور مسطحة .. ورفعت جدرانها فى امارة عمر بن عبد العزيز .

ونقل اصحاب السير .. عن سعيد بن المسيب قال :

بقى فى الحجرة موضع قبر .. فى السهوة الشرقية .. يدفن فيها عيسى بن مريم .. ويكون قبره الرابع .

والسـهوة : بيت صغير منحدر فى الارض قليلا .. شبيه بالمخدع .

وفى المنتظم لابن الجوزى .. عن عمر .. ان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال :

« ينزل عيسى بن مريم فى الارض .. فيتزوج ويولد له .. ويمكث خمسا واربعين سنة .. ثم يموت .. فيدفن معى فى قبرى .. واقوم انا وعيسى بن مريم من قبر واحد بين ابى بكر وعمر .

---

(١) ٨ – النساء .
(٢) ٧ – الاحزاب .
(٣) ٦٦ – الاحزاب .



من محاسن أخلاقه

كان — صلى الله عليه وسلم — اذا رفع يديه فى الدعاء لم يحطهما حتى يمسح بهما وجهه .. وكان اذا أصابه غم او كرب يقول :

« حبسى الرب من العباد .. حسبى الخالق من المخلوقين .. حسبى الرازق من المرزوقين .. حسبى الذى هو حسبى .. حسبى الله ونعم الوكيل .. حسبى الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » ..

ــ ٦٢ ــ

من محاسن أخلاقه

قال ــ عليه الصلاة والسلام ــ :

((ان الله قسم بينكم اخلاقكم .. كما قسم بينكم ارزاقكم .. وان الله يعطى الدنيا من احب ومن لم يحب .. ولا يعطى الدين الا من احبه)).

فكان ــ صلى الله عليه وسلم ــ اوسع الخلق نصيبا .. واوفرهم حظا فى الخلق والخلق معا .

كان ابيض مشربا بحمرة .. واسع الجبين .. عظيم الراس من غير افراط .. حسن الجسم .. عظيم الجبهة .. دقيق الحاجبين مقرونهما .. كانت الفرجة التى بين حاجبيه يسيرة لا تبين الا لمن دقق النظر .. اهدب الأشفار .. ادعج العينين ــ اى فى بياضهما حمرة ــ وكانت فى الكتب القديمة من علامات نبوته .. اقنى الأنف .. واضح الخدين ليس فيهما نتوء ولا ارتفاع .. كث اللحية أسودها .. عرقه فى وجهه .. واسع الفم من غير افراط .. والعرب تتمدح به كدليل على الفصاحة .. مفلج الثنايا .. قوى الأسنان .. ضخم الكراديس ــ رءوس العظام ــ غليظ الكتفين واسعهما ناعمهما .. شثن الكفين والقدمين ــ اى غليظهما ــ بين كتفيه خاتم النبوة وخاتمه غدة حمراء مثل بيضة الحمامة .. غليظ الاصابع من غير قصر ولا خشونة .. واسع الصدر .. سهل البطن .. غليظ القدمين .. سبابة قدمه أطول من الوسطى .. أشعر الذراعين والمنكبين واعلى الصدر .. طويل الزندين .. لم يكن بالطويل ولا القصير وهو الى الطول اقرب .. شديد سواد الشعر .. شعره وسط بين الجعودة والسبوطة .. اذا التفت التفت جميعا .

كان نقى الثوب .. لين الكلام .. حسن الصوت فويه .. لا يقول هجرا .. ولا ينطق هذرا .. يخاطب كل انسان على قدر عقله .. يكلم كل قبيلة بما تعرفه .. واسع الاطلاع بلغات

العرب .. اذا فرح غض طرفه .. كان ضحكة ابتساما .. وكان الضحك منه نادرا .. ولم يقهقه .. ما تثاءب قط .. ليس بمسترخي البدن .. سهل الخلق .. لين الجانب .. ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا فراح .. وكان يمزح ولا يقول الا حقا .. يقابل السيئة بالحسنة .. يصل من قطعه .. ويعطي من حرمه .. ويعفو عمن ظلمه .. لا يتكلم الا فيما يرجو ثوابه .. ويصبر للغريب على الجفوه في المنطق والمسالة .. لا يقطع على احد حديثه .. ولا يتكلم في غير حاجة .. وكان كلامه يحفظه عنه كل من سمع .. يعظم النعمة وان دقت .. لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها وانما يغضب اذا تعرض للحق بشيء .. ويكرم كريم قوم ويوليه عليهم .. ويتفقد اصحابه ويسال عنهم .. فان كان غائبا دعا له .. وان كان شاهدا زاره .. وان كان مريضا عاده .. واذا انتهى الى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس – تواضعا – من جالسه او نادمه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه .. من ساله حاجة لم يرده الا بها .. عنده الناس في الحق سواء .. مجلسه مجلس علم وحياء .. لا ترفع فيه الأصوات .. ولا يتنازعون عنده الحديث .. اذا تكلم اطرق جلساؤه كانما على رءوسهم الطير .. وقد قال – عليه السلام – « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .. كان اشد الناس خشية وخوفا من الله .. ما ضرب بيده الشريفة امراة ولا خادما من أهله .. حلمه يسبق غضبه .. ولا تزيده شدة الجهل عليه الا حلما .. اسخى الناس كفا .. واشدهم حياء .. يحب الفال الحسن .. ويغير الاسم القبيح بالحسن .. يشاور اصحابه في الأمر .. وكان اذا كره شيئا عرف في وجهه .. ولم يشافه احدا بمكروه .. يمازح صبيان اصحابه .. ويجلسهم في حجره .. ويقعدون في صدره الشريف .. ويقبلهم ويلتزمهم .. يشهد الجنائز .. ويقبل عذر المعتذر .. ما وضع احد فمه في اذنه الا استمر صاغيا له حتى يفرغ من حديثه ويذهب .. يمشي مع الأرملة والمسكين والضعيف في حوائجهم .. وما صافح احدا بيده فيرسل يده منه حتى يكون الآخر هو الذي يرسلها .. يبدأ من لقيه بالسلام .. ويبدأ اصحابه بالمصافحة .. لم ير قط مادا رجليه بين اصحابه .. كان يجلس على الأرض والحصير والبساط .. يكرم من دخل عليه وربما بسط له رداءه وآثره بالوسادة التي تحته .. ويعزم عليه ان ابى .. ويدعو اصحابه باحب اسمائهم ويكنيهم .. ولا يجلس اليه احد وهو يصلي الا خفف صلاته وساله عن حاجته .. فاذا فرغ عاد الى صلاته .

كان يركب الحمار .. وربما ركبه عريانا ويردف خلفه .. وكان يحب السواك .. ويكتحل بالاثمد عند النوم ثلاثا في كل عين .. وحج على رحل رث .. عليه قطيفة ما تساوي اربعة دراهم وقال : « اللهم اجعله حجا مبرورا .. لا رياء فيه ولا سمعة » وكان غالبا ما يلبس هو واصحابه ما نسج من القطن .. وربما لبسوا ما نسج من الصوف والكتان .

يحلب شاله .. ويخصف نعله .. ويرقع ثوبه .. ويخدم نفسه .. ما يرى قط فارغا في بيته .. ويأكل مع الخادم وطحن معه .. ويحمل بضاعته من السوق .. ويحب الطيب ويأمر به .. ويأمر اصحابه بالمشي أمامه .

توفي ودرعه مرهونة عند يهودي على نفقة عياله .. ما شبع ثلاثة ايام تباعا من خبز البر .. حتى فارق الدنيا .. ولا أكل خبزا منخولا .. وكان يبيت الليالي المتتابعة خاويا .. وما اكل

على خوان قط .. انما كان ياكل على السفرة .. وربما وضع طعامه على الأرض .. لا يجمع فى بطنه بين طعامين .. ان اكل احما لم يزد عليه .. وان اكل تمرا لم يزد عليه .. وان اكل خبزا لم يزد عليه .

وكان يصلى على الحصير .. وعى الفروة المدبوغة .. وربما نام على الحصير فاثرت فى جسده الشريف .. وكان ينام على شىء من أدم محشو ليفا .

وكان — صلى الله عليه وسلم — افصح الناس .. واعذبهم كلاما .. واسرعهم أداء .. واحلاهم منطقا .. حتى ان كلامه يأخذ بالقلوب .. ويسبى الأرواح .. وكان اذا تكلم تكلم بكلام مفصل مبين يعده العاد .. ليس بهذر مسرع لا يحفظ .. ولا منقطع تتخلله السكتات بين أفراد الكلام .

لم يكن بكاؤه بشهيق ورفع صوت .. كما لم يكن ضحكه بقهقهة .. وكان يبكى احيانا فى صلاة الليل .

وخطب رسول الله — عليه الصلاة والسلام — على الأرض .. وعلى المنبر .. وعلى البعير .. وعلى الناقة .. وكان اذا خطب احمرت عيناه .. وعلا صوته .. واشتد غضبه .. كانه منذر جيش .. وكان لا يخطب خطبة .. الا افتتحها بحمد الله .. وكان اذا صعد المنبر اقبل بوجهه على الناس وقال : السلام عليكم .. ويختم خطبته بالاستغفار .. وكان كثيرا ما يخطب بالقرآن .. واذا قام يخطب اخذ عصا فتوكأ عليها .. وكان احيانا يتوكأ على قوس .. ولم يحفظ عنه انه توكأ على سيف .

ولم يكن — صلى الله عليه وسلم — يفجأ أهله عند دخوله اليهم بغتة يتخونهم .. ولكن كان يدخل على اهله على علم منهم بدخوله .. وكان يسلم عليهم .. وكان اذا دخل بدا بالسؤال — اى سال عنهم — وربما قال : هل عندكم من غداء ؟ .. وربما سكت حتى يحضر بين يديه ما تيسر .. وكان اذا دخل على اهله بالليل يسلم تسليما لا يوقظ النائم ويسمع اليقظان .

واذا اتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه .. ولكن من ركنه الايمن او الايسر .. فيقول : السلام عليكم .. السلام عليكم .. لم يكن يرد السلام بيده ولا راسه ولا اصبعه .

وكان — صلى الله عليه وسلم — اذا رفع يديه فى الدعاء .. لم يحطهما حتى يمسح بهما وجهه .. وكان اكثر دعائه :

« يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » .. وكان اذا اصابه غم أو كرب يقول :

« حسبى الرب من العباد .. حسبى الخالق من المخلوقين .. حسبى الرازق من المرزوقين .. حسبى الذى هو حسبى .. حسبى الله ونعم الوكيل .. حسبى الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » .

واذا اجتهد فى الدعاء قال : « يا حى يا قيوم » واذا أراد امرا قال :

« اللهم خر لى واختر لى » .. واذا جاءه امر يسر به .. خر ساجدا .. شكرا لله — عز وجل —

وكان يعجبه ان يدعو الرجل باحب اسمائه .. واذا عزى قال : « يرحمه الله ويؤجركم » ..

واذا هنا قال : « بارك الله لكم وبارك الله عليكم » .. واذا اراد سفرا قال :

« اللهم بك احول وبك اسير » .. واذا سمع المؤذن قال مثل ما يقول .. حتى اذا بلغ « حى على الصلاة .. حى على الفلاح » .. قال :

« لا حول ولا قوة الا بالله » .

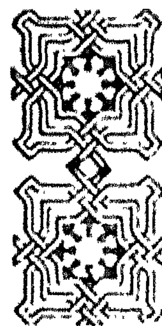
قال معاذ بن جبل — رضى الله عنه — : اوصانى رسول الله — صلى الله عليه وسلم .. فقال :

« يا معاذ اوصيك باتقاء الله .. وصدق الحديث .. والوفاء بالعهد .. واداء الأمانة .. وترك الخيانة .. وحفظ الجار .. ورحمة اليتيم .. ولين الكلام .. وافشاء السلام .. وحسن العمل .. وقصر الأمل .. ولزوم الايمان .. والتفقه فى القرآن .. وحب الآخرة .. والجزع من الحساب .. وحفظ الجناح .

وانهاك أن تسب حكيما .. أو تكذب صادقا .. او تطيع آثما .. او تعصى اماما عادلا .. او تفسد ارضا .

وأوصيك باتقاء الله عند كل حجر وشجر ومدر .. وبأن تحدث لكل ذنب توبة .. السر بالسر .. والعلانية بالعلانية » .

وهكذا ادبه ربه .. وهكذا ادبنا .. ودعانا الى مكارم الأخلاق .. ومحاسن الآداب .



المراقبة الوجدانيه ..
فى الرسالة المحمدية

فعلينا ان ناخذ طريقنا مع الشاهد المبشر النذير .. الداعى الى الله باذنه .. السراج المنير .. حتى لا يتخبطنا الشـــيطان من المس .. ونتيه فى وديان الضلالة..والذين يتبعون محمدا ــ الرءوف الرحيم ــ يتخذونه اسوة لهم .. فيكون كل واحد منهم بالمؤمنين رءوفا رحيما

— ٦٣ —

المراقبة الوجدانية فى الرسالة المحمدية

ان النفحات الروحية هبة من الله تعالى .. غير كسبية (يختص برحمته من يشاء) .

ومن المقرر فى **متن الكتـاب الحكيم .. انه بتضمن الخطوط العريضة لرسالته .. — صلى الله عليه وسـلم — بتركيز كامل .. فى قـوله تعالى :**

(يا ايها النبى انا ارسـلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا (١)) .

فلابد للمؤمن من رعاية التجليـات الالهيـة .. والنفحات القدسية .. والمعانى الكلية .. وفى كل خط من تلك الخطـوط .. التى بدات بكونه — عليه الصلاة والسلام — :

شـــاهدا :

وعلى الذين يتدبرون القرآن .. ان ينظروا فى امر شهادته .. اهى من حضوره بينهم ؟ .. وهم الأولون من المهاجرين والأنصار وتابعيهم .. أم انها شهادة ابدية .. لاتزال قائمة ؟

فعلى الفرض الأول .. يكون شاهدا محدودا فى الزمن .. والمشهود عليهم هم اهـل هذا الزمن فقط .. وهذا فيما يبدو وجه بعيد .. لا يتفق مع كونه — عليه الصلاةوالسلام — مرسلا الى الناس كافة .

ويتعين علينا الاستناد الى الوجه الثانى .. وهو كونه شاهدا ابديا .. تعرض عليه اعمـال امته واحـوالها .. فيراها نوعا من العرض .. فلابد أن تكون الأعمال والأحوال مشهودة له .. يراها ويقدرها .. والا لزم بطلان الشهادة شرعا .. اذ لا تجوز على السماع المجرد .

فاذا احس المؤمن شـهادة امامه على جميع اعماله .. استحيا أن يعمل ما لا يسره — صلى الله عليه وسلم — أن يراه .

---

(١) ٤٥ — الاحزاب (

ومن هنا تكون المراقبة ـ التى اشارت اليها كتب الحكماء ـ وذكرها ابن سينا فى كتاب ـ النجاة ـ

والمراقبة ليست بعينى الراس .. بل هى مراقبة بصيرية محضة .

فاذا كان الانطباق تاما بين الشاهد والمشهود عليه وجدانيا .. فهذا ما نسميه بالاستقامة .. والنص صريح .. فى ان الاستقامة .. اصل لتنزل الملائكة :

(ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة (١) .

اما اذا كان هناك انحراف بين المشهود عليه والشاهد .. كان ذلك سببا لتنزل الشياطين :

(هل انبئكم على من تنزل الشياطين * تنزل على كل افاك اثيم (٢) .

والافاك : هو الكذاب .. ولهذا يكون الكذب من معالم الانحراف عن مطابقة المشهود عليه بالنسبة للشاهد ـ عليه الصلاة والسلام ـ

وهذا المبحث القائم على المراقبة الوجدانية .. مبحث بعيد الأطراف .. مترامى الانحاء .. ليس هذا مقام الاسترسال فيه .. حتى يخرج بنا عن خطوط رسالته ـ صلى الله عليه وسلم ـ التى بدانا نوجه الأضواء اليها .

فهو اذا ـ عليه السلام ـ بوصف كونه شاهدا ابديا .. يامرنا بحبه :

(قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم (٣)) .

ويقول عمر ـ رضى الله عنه ـ انى احبك يا رسول الله .. ولكن لا كنفسى .. فأجابه على الفور بقوله : « والذى نفسى بيده .. لن يؤمن احدكم .. حتى اكون احب اليه من نفسه وماله .. وولده ووالده .. والناس اجمعين » .

وما المراد بذلك الحب .. سوى صدق المتابعة .. ومراقبة التجليات القدسية .. من فيض تنزل الملائكة .. وهو المعنى المراد من قوله تعالى :

(هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور وكان بالمؤمنين رحيما (٤)) .. وقوله لرسوله (وصلِّ عليهم ان صلاتك سكن لهم) (٥) .

فقلْ لى لعمرك .. ماذا يراد بهذا السكن .. سوى السكينة التى تسكن بها النفس .. وتأنس بها المشاعر .. الى مشاهد لا يمكن تحديدها .. تمد المؤمن بقوى الاستعداد .. لقبول الفيض .. وتنزل التثبيت .. لازدياد الايمان .

(هو الذى انزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عليما حكيما) (٦) .

هذا كله فى مراقبة خط الشهادة .. الذى اذا تم كماله نسبيا .. كان مؤهلا لانتقال المؤمن الى الخطين الثانى والثالث .. اللذين يكون فيهما ـ عليه الصلاة والسلام ـ

مبشرا ونذيرا :

مبشرا الذين آمنوا .. وحاولوا جهد

---

(١) ٣٠ ـ فصلت .
(٣) ٣١ ـ آل عمران .
(٥) ١٠٣ ـ التوبة .
(٢) ٢٢١ ـ ٢٢٢ ـ الشعراء .
(٤) ٤٣ ـ الاحزاب .
(٦) ٤ ـ الفتح .

الطاقة ان يثبتوا على الاستقامة .. وأن يتجنبوا الانحراف .. مبشرا لهم .. بناء على كونهم بالمراقبة .. يخافون مقام ربهم .. مبشرا لهم بجنتين :

(ولمن خاف مقام ربه جنتان) (١) .

جنة برزخية ـ القبر ـ وهى « روح وريحان » .

وجنة سرمدية ـ بعد البعث ـ وهى « جنة نعيم » .

اقرأ معى : (فاما ان كان من المقربين) فى الدنيا (فروح وريحان) تلك هى جنة البرزخ .
(وجنة نعيم) (٢) وهذه هى الجنة الأبدية السرمدية .

فالجنة الاولى .. يدخلونها اثر مفارقة الارواح للأجساد .

والجنة الثانية .. يدخلونها فى الآخرة .
(فلا تعلم نفس ما اخفى لهم من قرة أعين) (٣) .

هذا المعنى نفسه .. نجده فى قوله

(يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان) .. تلك هى الجنة البرزخية .

(وجنات لهم فيها نعيم مقيم) (٤) وهذه هى الجنة السرمدية الأبدية .

المعنى نفسه ايضا فى قوله ـ عليه الصلاة والسلام :

« القبر اما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار » .

فقوله : « روضة من رياض الجنة » مطابق تماما لقوله تعالى .. فى سورة الواقعة :

(فروح وريحان) .. وقوله فى سورة التوبة برحمة منه ورضوان) .

وهو برزخ بين الحياة الدنيا .. وبين نعيم خالد سرمدى .. فلا يكون المؤمن على الأرض .. لأن المؤمن مع كتابه (وكل انسان الزمناه طائره فى عنقه) (٥) .

وطائره : كتابه .. وكتاب المؤمنين فى عليين .. كما قال تعالى :

(كلا ان كتاب الأبرار لفى عليين) (٦) .
فلا علاقة بتاتا بين الأرض وبين عليين

فكتاب المؤمن معه بالالزام الالهى .. وهو مع كتابه .. وحيث ان كتابه فى عليين فهو أيضا فى عليين .

ونص الحكم فى البرزخ يقول : (ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون) (٧) .

فيكون البرزخ من لحظة الوفاة .. الى لحظة البعث .

ومن براهين اثبات البرزخية .. قوله تعالى :

(الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى الى أجل مسمى ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) (٨) .

وقد اشار الى ذلك .. فى العصر الحديث .. رجل فاضل .. من جماعة كبار العلماء ..

---

(١) ٤٦ ـ الرحمن .
(٢) ٨٩ ـ الواقعة .
(٣) ١٧ السجدة .
(٤) ٢١ ـ التوبة .
(٥) ١٣ ـ الاسراء .
(٦) ١٨ ـ المطففين .
(٧) ١٠٠ ـ المؤمنون .
(٨) ٤٢ ـ الزمر .

وكان مفتيا رسميا للديار المصرية .. هو المغفور له .. الشيخ محمد بخيت .. في كتابه – توفيق الرحمن – فقال حول تلك الاية !

(الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها) .. فلا يقطع علاقتها بالبدن .. علاقة التصرف والتدبير (فيمسك التي قضى عليها الموت) فيقطع علاقتها بالبدن .. علاقة التصرف والتدبير .. فلا يردها الى ابدانها .. بنص قوله تعالى :

(وحرام على قرية اهلكناها انهم لا يرجعون) (١) .

(ويرسل الاخرى) اى النائمة (الى اجل مسمى) .. ثم قال رحمه الله عن بقية الآية :

(ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) .. اى ينظرون بعقولهم السليمة .. نظرا محررا من قيود المادة .. وحس المحسوسات (٢) .

كما جاء في غير موضع .. من تفسير الامام المغفور له – الشيخ محمد عبده – عن الحياة البرزخية .. وعلى الاخص حياة الشهداء .. بأنها حياة غيبية .. لا نخوض في تفصيلها .. ونقف فيها عندما وقف المشرع – صلوات الله وسلامه عليه – لا نزيد عليه شيئا .

ثم اورد – رحمه الله – ما كان بين النبي – صلى الله عليه وسلم – وبين عبد الله بن جابر الانصاري – رضى الله عنه – عندما كان جالسا بين يدى النبي – صلى الله عليه وسلم – وهو مكتئب .. فقال له النبي : « يا ابن جابر .. ما لي اراك منكسرا » ! ..

فقال : يا رسول الله .. استشهد ابى وترك دينا وعيالا .. فقال – عليه السلام –

« أما يكفيك ان يحيى الله أباك .. ويخاطبه كفاحا – اى مباشرة – اى عبد .. تمن على اعطك .. فقال أبوك : اى رب .. اتمنى ان تعيدني الى الدنيا لاقتل في سبيلك مرة اخرى .. فقال الرب – جل وعلا – « سبق القول مني انهم لا يرجعون » .

فقال : اى رب .. فاتمنى ان تبلغ من خلفنا من اخواننا .. عما لقينا من الكرامة عندك .. ومن حسن المصير اليك .. حتى لا ينكلوا من القتال .. فقال الله – تعالى – له ! انا ابلغهم ذلك .. وانزل الآيات :

(ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم الا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٢) .

ثم اورد قوله – عليه الصلاة والسلام – :

« ارواح الشهداء في حواصل طيور خضر .. ترد انهار الجنة .. فتاكل من ثمراتها .. وتاوى الى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش » .

والحديث على هذا النحو .. للاشارة بالالماح الى جلال الحياة في دار الشهداء .

وان من تامل معنى النهى عن حسبان القتلى في سبيل الله امواتا .. وعن القول بأنهم اموات .. يتبين له ان مظاهر الحياة الجسدية .. على اى صورة من الصور .. لا تدل بحال على حقيقة ما فيه الارواح .. من نعيم او عذاب .. لاننا اتفقنا على ان النعيم والعذاب برزخيان روحيان .

ويؤيد هذا النهج .. النظر في قول النبي – صلى الله عليه وسلم – يوم راى عمه حمزة

(١) ٩٥ – الانبياء .

(٢) ١٦٩ – ١٧٠ – ال عمران .

(٢) راجع كتاب – توفيق الرحمن .

ـ اسد الله ـ رضى الله عنه ـ وقد مثل الأعداء بجسده شر مثلة .. فبقروا بطنه .. وصلموا اذنيه .. وسملوا عينيه ـ وجدعوا انفه .. فلما راى النبى هذا المشهد .. ابتسم ابتسامة مكتئبة .. وقال : « والله لولا ان تحزن صفية ـ اخته ـ لتركته حتى يكون فى بطون السباع وجوارح الطير » .

وعلى هذا .. اذا راينا فى ميادين القتال .. ومصارع الحق .. جسما ممزقا .. تناثرت اشلاؤه .. فان لنا ان نحكم بانه لا علاقة مطلقا بين هذا المشهد الذى تتقزز منه النفس .. ويشمئز منه الحى .. وبين الحقيقة الذاتية لصاحب هذا الجسد الممزق .. لأن فرض وجود علاقة بين الحى المرزوق .. الذى اشار اليه القرآن بقوله : (بل احياء عند ربهم يرزقون) .. أن فرض وجود علاقة بينه وبين هذا الجسد الممزق .. فرض سفسطائى ـ اى مغالطى ـ لأن السفسطة مغالطة .. تموه فيها المقدمات .. لابراز نتيجة باطلة .. ويترتب على فرض هذه العلاقة بطلان معنى الحديث « القبر اما روضه من رياض الجنة..او حفرة من حفر النار .

وكذلك بطلان معنى الآية (وحرام على قرية اهلكناها انهم لا يرجعون) . والذين يتعصبون للحس والمحسوسات ـ كما هى عبارة الشيخ بخيت ـ فى كتابه ـ توفيق الرحمن ـ هم عن الحق منقلبون .. وعن طريقه ناكبون (وسيعلم الذين ظلموا اى منقلب ينقلبون) .

ونحن اذا تدبرنا معانى القرآن الكريم .. الذى لا يمس معانيه الا المطهرون من ادناس الشرك .. وارجاس الشك .. نجد ان الأدلة قاطعة على انقطاع صلة الروح بالجسد .. وعدم عودتها الى الرميم المدفون .. فى مثل قوله تعالى :

(ما ينظرون الا صيحة واحدة تاخذهم وهم يخصمون (١) * فلا يستطيعون توصية ولا الى اهلهم يرجعون) (٢) .

ومن ثم يتضح بجلاء..ان قومامن المسلمين .. قد تخبطوا .. عندما اعتمدوا على نظرية ابليس : وهو ان آدم ليس الا من طين .. او ماء مهين .. متغافلا عن معنى النفخ فيه .. فالشيطان واتباعه .. وقفوا عند ادنى الشرطين للسجود .. كما قال تعالى (انى خالق بشرا من طين * فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) (٣) وكانت نظرية ابليس فى الامتناع عن السجود .. تعاميه عن شرط الروح الاعلى .. وتمسكه بشرط الطين .. وهو الشرط الادنى .. فقال :

(قال انا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) (٤) .

وقد اضل الشيطان بهذا كثيرا من الناس .. الذين يستعينون برفات الموتى .. على قضاء حوائجهم .. وشفاء مرضاهم .. وتيسير شئونهم .. والشفاعة لهم عند ربهم .

ولعلنا نخرج من خطى التبشير والانذار

---

(١) يتجادلون .

(٢) ٤٩ - ٥٠ يس .

(٣) ٧١ - ٧٢ - ص .

(٤) ٧٦ - ص .

« ومبشرا ونذيرا » .. بمعرفتنا أن اساس توحيد الله تعالى : هو التجريد التام .. والتفريد المطلق .. حتى لا يقع منا نظر الا عليه .. ولا يسير بنا وطر الا اليه .. وعلمنا ان الشيطان فتان بارع .. وغرور خادع .. حيث ياتى الناس عن ايمانهم .. بمثل هذه المظاهر .. كما اشار الى ذلك الكتاب الحكيم (افمن زين له سوء عمله فرآه حسنا) (١) . وهؤلاء ينطبق عليهم قوله تعالى :

(قل هل ننبئكم بالاخسرين اعمالا * الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا) (٢) .

وقد انذر ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالامر الموحى اليه .

(قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا) (٣) .

ومن هنا نعلم انه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى هذا المقام نذير .. وكونه نذيرا مقتض ذاتيا لجميع ما ذكرنا من صنوف الانحراف والضلالة .. كما قال تعالى فى أول سورة الكهف :

(وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من افواههم ان يقولون الا كذبا * فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث اسفا) .

فانظر الى قوله (فلعلك باخع نفسك) أى قاتل نفسك .. ولولا انه ـ عليه السلام ـ شاهد ومبشر ونذير .. ما كان يقف منهم مثل هذا الموقف القاتل من شدة الأسى والأسف .

وداعيا الى الله باذنه :

وليست الدعوة الى الله مجرد الفاظ يقولها القائل .. وانما هى حال تقوم بنفس الداعى .. وتعتلج فى صدره .. فتكون ملكة راسخة من ملكات نفسه .. وهذا بحاجة الى كمال استعداد النفس .. لقبول فيض التنزلات الالهية .. ونفاذ البصيرة .. والاحاطة بالسبيل .. كما قال تعالى لنبيه :

(قل هذه سبيلى ادعو الى الله على بصيرة انا ومن اتبعنى) (٤) . ويؤيد هذا قوله :

(فاستقم كما أمرت ومن تاب معك) (٥) .

ومن هذا يتبين ما يجب ان يكون عليه الداعى نفسيا .. وما يتحلى به من صفات .. وما يختمر فى نفسه من ملكات .. تعتبر اساسا لتنزل الفيض الذى هو ضياء البصيرة .. ذلك الضياء الذى لا تقوم الدعوة الا به .

والرسول ـ عليه السلام ـ فى هذا المقام .. يسمى نورا يكشف سبيل الحق .. وهو الصراط المستقيم (**وانك لتهدى الى صراط** مستقيم) (٦) .

وتلك الهداية الارشادية .. والعناية التوجيهية من الداعى .. تجعله اسوة حسنة :

(لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) (٧) .

---

(١) ٨ ـ سورة فاطر .
(٢) ١٠٣ ـ ١٠٤ ـ الكهف .
(٣) ١١٠ ـ الكهف .
(٤) ١٠٨ ـ يوسف .
(٥) ١١٢ ـ هود .
(٦) ٥٢ ـ الشورى .
(٧) ٢١ ـ الاحزاب .

والمقصود بالأسوة : الانسان النموذجى .. الذى يعتبر مقياســـا للكمال الذاتى .. الذى يحصل به العبد على مقام المحبة .

ومقام المحبة له شعبتان : عليا .. ودنيا .

فالعليا : محبة الله لعبــده .. كاساس .
والدنيا : محبة العبد لربه .. كبناء .

وعلى هذا تكون المحبة الالهية للعبـــد .. سببا لتوجه محبة العبد لربه .. كما يقـــول تعالى :

(فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه) (١)
فهو مصدر الحب .. ويكون هذا مفهوم قــوله تعالى :

(ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا) (٢) .

ومتى ثبتت المحبــة .. وقامت المودة ــ كانت انفعالية لا فعلية .. ويكون الداعى سعيدا بدعوته .. مسترسلا مع ملكاتها النفســية .. ومن اجل هذا قال :

(على بصيرة أنا ومن اتبعنى) .

والاتباع هو تحـرى الاسوة .. التى يأنس بها كل مؤمن :

(قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) لأن الاتباع هــو ملازمة الاسوة .. واذا انقطعت الملازمة .. كان الفاعل مخالفا عن أمره ــ عليه الصلاة والسلام ــ وهنا يدخل المنقطع فى قسم ــ المنذرين ــ ويكون الرســول بالنسبة له نذيرا .. وليس بشيرا .

(فليحــذر الذين يخالفــون عن امــره ان تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب اليم) (٣) .

والمقصود بالعذاب الاليم .. ليس مجــرد الآلام .. او امراض البدن .. فهذا امر لا يخلو منه المؤمنون ولا المرسلون .. وانما المقصود به الانقطاع الوجدانى .. وحيرة الضمير .. وظلمات الشك .. فهذه كلها من أهول الوان العذاب :

(ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون (٤)

فقوله تعالى (فليحذر الذين يخالفون عن امره) .. الخ .. انما يراد به عذاب الخـزى الأليم والارتباط الوخيم .. والشك المضطرب .. وعدم الاستقرار .. وفساد البال .. لأن الذين اتقوا آتاهم تقواهم .. واصلح بالهم .. ففساد البال نوع من انواع العــذاب الاليم .. الناتج عن تعمد مخالفة سيرة الأسوة الحسنة ..

واذكر مثلا .. ضربه لى صديق مؤمن .. حول هذا المقام :

فالقطار الذى احكمت حلقات الصــلة بينه وبين ما خلفه من العــربات .. لا يتم نظــام السير لهذه العربات .. الا مادامت مع القطار على صراط مســتقيم ــ الشريط ــ اما اذا انفلتت عربة عن الشريط .. فان الحلقة الرابطة بينها وبين القطار لن تنفصم .. ومعنى هذا ان تلك العربة ستجر جرا الى مصـــيرها المحتوم .. ولا تكاد تصل مع القطار الى محطة الوصول .. الا وقد تحطمت تحطيما شــديدا .. وهو نفس العذاب الاليم .. المقصود فى الآية السابقة .. فلا سلامة للعربة الا فى اتزانها وملازمتها للطريق

---

(١) ٥٤ ــ المائدة .
(٢) ٩٦ ــ مريم .
(٣) ٦٣ ــ النــور .
(٤) ١٦ ــ فصلت .

المرسوم .. حتى تصل بسلام الى مثواها الاخير .

على ان الصلة الامدادية قائمة بين الاسوة .. وبين المؤتسين به .. كما يقوم فى مثل القطار - خرطوم الباكم - بالهيمنة على سير العجلات .. حتى لا تزيغ ولا تزل عن الصراط - الشريط - وهذا معنى قوله عليه السلام - فى حديثه :

« فانا آخذ بحجزكم عن النار .. وانتم تغلبوننى فتقعون فيها » .

فاذا علمت ان داعيا دعاك .. ومناديا ناداك .. وهو على بصيرة من امر دعوته .. وعلى خبرة من بواعث ندائه .. فليس امامك الا احد امرين : اما المتابعة الصادقة .. والأسوة الحسنة .. والطاعة المطلقة .. واما الانفلات والسقوط .. اعاذنا الله واياك منهما .. وهذا معنى قوله تعالى :

(ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) .

فعليك ان تميز وتتدبر ما تنطوى عليه المعانى العليا لقوله تعالى ممثلا المقام الأسمى لعباده :

(ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان ان آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيآتنا وتوفنا مع الأبرار (١)) .

وليس الأبرار هم الأطفال - كما يزعم البعض - فالملائكة ابرار (بأيدى سفرة كرام بررة (٢)) .. فالأبرار جمع .. مفرده بر .. وهو اسم من أسماء الله تعالى الكونية .. لجواز اطلاق هذا الاسم على الانسان .. فيكون البر : هو القائم بالبر .. وقد حدد الله تعالى لنا صفة الأبرار .. فى قوله تعالى :

« (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب واقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون (٣)) .

هؤلاء هم الأبرار .. **الذين سمعوا نداء ربهم .. ودعوة نبيهم .. فآمنوا وقالوا !**

« ربنا اغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيآتنا وتوفنا مع الأبرار » .. ثم قالوا :

« ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد » (٤) .

واجاب جل شأنه على دعائهم هذا بقوله :

« فاستجاب لهم ربهم انى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر او انثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا واخرجوا من ديارهم واوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيآتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب » (٥) .

اما كونه سراجا منيرا :

فهو نور يسرى فى تلك الدعوة .. يبدد ظلمات الأوهام .. وآلام الليالى والايام .. فقد اجمع جمهور الأمة .. على انه - عليه الصلاة والسلام - هو النور الثانى .. فى قوله تعالى « نور على نور » (٦) .

فالنور الاعلى : هو نور الله - المصور المتجلى - والنور الثانى : هو نور محمد -

---

(١) ١٩٣ - آل عمران .
(٢) ١٦ - عبس .
(٣) ١٧٧ - البقرة .
(٤) ١٩٤ - آل عمران .
(٥) ١٩٥ - آل عمران .
(٦) ٣٣ - النور .

المجلى الذى سطع على صفائه ذلك النور الاعلى .. فلا غرو جعل هؤلاء المستمدين من نور محمد ذلك النور السرمدى .. جعلهم « ائمة يهدون بامرنا واوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وايتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين » (١) .

فالداعى هو ذاته نور يسرى فى ظلمات الجهالة وعماياتها .. فيجعل تلك الظلمات نهارا متألقا .. فالق الاصباح .. ويكون هذا المقام تمهيدا لمواجهة هذه الحقيقة النورانية لقوله تعالى عنه « وسراجا منيرا » .

فقد اخبرنا ـ سبحانه ـ بانه جعل دعوته ـ عليه السلام ـ صادرة باذن ربه وامره .. « وداعيا الى الله باذنه » .. وعلامة الاذن .. تيسير سبيل الدعوة .. واعداد الداعى بقوة احتمال هائلة .. لأن جميع الأمم الضالة .. انما استقبلوا انبياءهم بالتكذيب والكفران .. والاهانة والاتهام .. والامتهان والقتل .. فلابد ان يكون نصيبهم من الصبر .. وقوة الاحتمال او فى نصيب .

ولهذا يقول ـ عليه السلام ـ « اشدكم بلاء الانبياء .. ثم الأولياء .. ثم الامثل فالامثل »

وكل هذا مندرج فى قوله « باذنه » .. فلولا هذا الاذن ما صرف لهم تموينهم من الصبر .. الذى لا يوجد مطلقا الا عند الله :

« واصبر وما صبرك الا بالله ولا تحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون ❋ ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » (٢) .

والاحسان ان تعبد الله كانك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك .

ونحن اذا اهتدينا بذلك السراج المنير .. الابدى السرمدى .. الذى يبدد ظلمات النفس .. ويزيل ركام الأوهام .. انجلت بصائرنا .. وشفت افئدتنا .

وفرق بين البصر والبصيرة .. فلو انجلت البصائر .. لرأينا الله يتجلى فى مشاهد الوجود بالاحكام والاتقان والابداع وكمال التكوين وجمال التلوين .

انظر اليه كيف تجلى فى نظرات النرجس .. وبسمات الورد .. وبهاء الزهور !!

ثم انظر اليه كيف سرى سريان الماء فى الورود .. فأمد بحياة الانسان والحيوان والنبات .. وما فى بطون الجبال من عناصر ومعادن وغازات !!

ثم تعمق ببصيرتك واسبح بفكرك فى عالم الاعماق فى المحيطات .. وما شحنت به الأحياء المائيه من قوى ذاتية .. ومواد فسفورية تضىء لها مسالك الاعماق .. ومجاهل البحار والمحيطات !!

ثم اصعد ببصيرتك ايضا .. لترى كيف ادار الكواكب السيارة .. ونظم الافلاك ! .. ثم جعل كل ذلك مسخرا لهذا الانسان الكريم .

« فلا اقسم بمواقع النجوم ❋ وانه لقسم لو تعلمون عظيم » (٣) .

« قل انظروا ماذا فى السماوات والارض »(٤)

« أو لم ينظروا فى ملكوت السماوات والارض » (٥) .

---

(١) ٧٣ ـ الانبياء .
(٢) ١٢٧ ـ ١٢٨ ـ النحل .
(٣) ٧٥ ـ ٧٦ ـ الواقعة .
(٤) ١٠١ يونس .
(٥) ١٨٥ ـ الاعراف .

وقد جعل هذه الآية الأخيرة .. مشبعة فى استفهامها بواو التنديد (او لم) .

ثم بين سبحانه انه هو الذى تجلى لابراهيم — عليه السلام — .

« وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السماوات والارض وليكون من الموقنين » .

فاذا كنا بعد كل هذا لا نراه .. فسلام على البصائر .

انه — سبحانه — وان كان باطنا على الأبصار .. الا انه تجلى ظاهرا بمبدعاته ومكوناته .. ولوامع بيناته .. ومحكمات آياته للبصائر .. بل جعل الآيات نفسها بصائر .. فقال :

« هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون » (١) .. وقال :

« قد جاءكم بصائر من ربكم فمن ابصر فلنفسه (٢) .

فعلينا أن ناخذ طريقنا .. الى الشاهد البشير النذير .. الداعى الى الله باذنه .. السراج المنير .. حتى لا يتخبطنا الشيطان من المس .. ونتيه فى وديان الضلالة :

« كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه الى الهدى ائتنا (٣) .

ومن اجل هذا .. كان محمد رحمة للعالمين .. السابقين واللاحقين .. من انس وجن بل وملائكة مقربين .. من قبل آدم الى يوم الدين .

والذين يحبون محمدا الرءوف الرحيم .. يتخذونه أسوة لهم .. فيكون كل واحد منهم بالمؤمنين رءوفا رحيما .

وقد سجلت التوراة .. المنزلة على موسى — غير المحرفة — صفة محمد — صلى الله عليه وسلم — والذين معه .. اى الذين اتخذوه أسوة لهم .. وصفتهم التوراة بالرأفة والرحمة .. حيث قال تعالى .. عن مثل أمة محمد فى التوراة :

« محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من اثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة » (٤) .

هذا هو منهاج الدعوة .. فأين هو ؟ .. وماذا يكون ؟ .

آمنت بالقدر المقدور ان هدى
من العناية وانى وهو يهدينا
وانعش القلب بالنور المبين على
ذكر تخذناه فى احوالنا دينا
لا نفترى فيه من تلقاء انفسنا
ولا نحاول تحضيرا وتمدينا
لكنه الحق .. لم نشرك به احدا
حبـاك ربك اما قلت آمينا

تلك هى الرسالة المحمدية :

« يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » .

بسم الله الرحمن الرحيم

مسك الختام

الحمد لله العزيز الحكيم .. الغنى الكريم .. العلى العظيم .. رب السماوات والأرض .. العليم بخفيات القلوب .. الغفار لجميع الذنوب .

اللهم انا اذا عذنا بك فاننا نعوذ بمعاذ .. واذا استغثنا بك فانا نستغيث بغياث .. يا نجدة المستنجد .. وغوث الضيم عند الشدة .. يسر لنا طريق رضاك .. واعنا على انفسنا حتى نجعلها تحت طاعتك .. وانصرنا على اهوائنا حتى تنصرنا على اعدائنا .. واجعل اللهم أسعد ساعاتنا ساعة لقائك .. معترفين ببقائك .

اللهم وأشهدنا أنوار قدسك فى جميع تجلياتك .. حتى تكون نظراتنا ولفتاتنا وحركاتنا كلها منطبقة على ما أمرت .. بعيدة عما نهيت .. وتقبل منا عبرات هامية .. نسألك العفو والعافية .. والنجاة من النار .

اللهم أنعم علينا بصلاح البال .. وهدوء الحال .. والبعد عن أسباب النكال والوبال .. وخذ بأيدينا الى صراطك المستقيم .. ومنهاجك القويم .. مصحوبا بعنايتك ونصرك وعطفك .. ولا تكلنا الى تدبير أنفسنا طرفة عين .

اللهم أنا نسألك بعظمة ذاتك .. ومشاهد أسمائك وصفاتك .. أن تصلى على سيدنا محمد .. صلاة تامة كاملة .. لا حصر لعدها .. ولا انقطاع لمدها .. وهبنا من صلاتك وسلامك عليه وآله صلاة علينا .. أخرجنا بها من الظلمات الى النور .. ويسر لنا ما يرضيك فى جميع الأمور .. وسلام على المرسلين .. والحمد لله رب العالمين .

تم الكتاب بحمد الله .. فى يوم الاثنين الخامس عشر من شعبان ١٤١٠

الثانى عشر من مارس ١٩٩٠

المؤلف

عبد السلام محمد بدوى

فهرس المجلد الثاني

الموضوع — الصفحة

● الجزء العاشر

● الجزء الحادى عشر

الموضوع	الصفحة
٢٢ — العرب أمام معجزة القرآن ...	١١٤
٢٣ — حديث الغيب ...	١٢٢
٢٤ — مفاوضات ...	١٢٨
● الجزء الثانى عشر	
٢٥ — إسلام حمزة وعمر ...	١٣٤
٢٦ — حصار . وآية . وحزن ...	١٤٠
٢٧ — إلى الطائف ...	١٤٦
٢٨ — مع رسل الجن ...	١٥٠
٢٩ — إلى المسجد الأقصى ...	١٥٦
٣٠ — إلى الملأ الأعلى ...	١٦٢
٣١ — تكذيب ذلكة ...	١٧٠
٣٢ — تصديق وبيعة ...	١٧٦
٣٣ — روح القرآن فى الهجرة ...	١٨٢
٣٤ — طلوع البدر على يثرب ...	١٨٨
● الجزء الثالث عشر	
٣٥ — حول يثرب ...	١٩٤
٣٦ — مؤاخاة ومهادنة ...	٢٠٠
٣٧ — الإسلام بين اليهودية والنفاق ...	٢٠٤
٣٨ — روح الإسلام فى الحرب ...	٢١٢
٣٩ — حول بدر الكبرى ...	٢١٨
٤٠ — غزوة بدر الكبرى ...	٢٢٤
٤١ — عام أفراح وزواج وغنائم ...	٢٣٦
٤٢ — حول درس أحد ...	٢٤٠
٤٣ — بين أحد والخندق ...	٢٥٦
● الجزء الرابع عشر	
٤٤ — غزوة بنى المصطلق وحديث الأفك ...	٢٦٤
٤٥ — بين حصارين ...	٢٧٢
٤٦ — على مشارف الحديبية ...	٢٨٦

الموضوع	الصفحة
٤٧ ـ هدنة الحديبية	٢٩٢
٤٨ ـ فتح خيبر	٣٠٤
٤٩ ـ الدعوة تشرق خارج الجزيرة	٣١٤
● الجزء الخمس عشر	
٥٠ ـ عودة إلى الحرم	٣٣٢
٥١ ـ حرب الروم	٣٤٠
٥٢ ـ على مشارف الفتح الأعظم	٣٤٦
٥٣ ـ الفتح الأعظم	٣٥٠
٥٤ ـ يوم حنين	٣٦٦
٥٥ ـ إلى الطائف	٣٧٢
٥٦ ـ إلى تبوك ...	٣٧٨
● الجزء السادس عشر	
٥٧ ـ إلى أحضان طيبة وأحد	٣٨٦
٥٨ ـ وأسلمت ثقيف وحطمت الطاغية	٣٩٤
٥٩ ـ وفود . . ووفود	٢٩٨
٦٠ ـ الوداع . . وليس بوداع	٤٠٨
٦١ ـ إلى الرفيق الأعلى	٤١٦
٦٢ ـ من محاسن أخلاقه	٤٢٦
٦٣ ـ المراقبة الوجدانية فى الرسالة المحمدية	٤٣٢
مسك الختام	٤٤٣

تم بحمد الله وعونه

مطابع مؤسسة دار الشعب - للصحافة والطباعة والنشر
٩٢ شارع قصر العيني - القاهرة ت: ٣٥٥١٨١٠٤ - ٣٥٥١٨١٨ - ٣٥٤٢٨٠٠

مكتبة [illegible]
٩٢ شارع قصر العيني ت: ٢٥٥١٨١٠ - ٢٥٥١٥٩٩